الشَّرْحُ الأَكْمَلُ

لِرِسالَةِ الإِمَامِ أَحْمَدِ بْنِ جَهْبَل

فِيْ رَدِّه عَلَى ابْنِ تَيْمِيَة

دِرَاسَةُ وَتَعْلِيْق

الأُسْتَاذُالدُّكْتُوْر

عَلِيْ عَايِدْ مِقْدَادِيْ الحَاتِمِي الأَشْعَرِي

المُقَدِّمَةُ

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا ، من يَهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليله ، قال تعالىٰ : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿**يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء:١] ، وقال تعالىٰ : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] ، أمَّا بعد :

فمن المعلوم لدىٰ الدَّارسين لحال ابن تيمية أنَّ الكثير من العلماء المعاصرين له ردُّوا عليه في الأصول والفروع ، وناظروه ، وألجموه الحجَّة ، وكان في كلِّ مرَّة يعلن توبته ورجوعه للحقِّ بعدما تبيَّن ، لكنَّه سرعان ما يعود ويأتي بجديد ، وقد تمَّ إيداعه السِّجن غير مرَّة ، مات في آخرها في السِّجن ... وكان سجنه بإجماع العلماء ، قال الإمام تقي الدِّين السُّبكي في " فتاوىٰ السُّبكي (٢/ ٢١٠) : " وَحُبِسَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَوُلَاةِ الْأُمُورِ عَلَىٰ ذَلِكَ ثُمَّ مَاتَ" .

ومن العلماء الذين ردُّوا عليه :

الإمام صالح بن عبد الله البطائحي شيخ المنيبيع الرِّفاعي (٧٠٧هـ) .

الإمام أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السّروجي، أبو العبَّاس، شمس الدِّين الحنفي (٧١٠هـ) .

الإمام عَليّ بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن خطاب الشَّيْخ الإِمَام عَلَاء الدِّين الْبَاجِيّ (٧١٤هـ) .

الإمام مُحَمَّد بن عبد الرَّحِيم بن مُحَمَّد الشَّيْخ صفي الدِّين الْهِنْدِيّ الأرموي (٧١٥هـ) .

الإمام مُحَمَّد بن عمر بن مكّي بن عبد الصَّمد الشَّيْخ الإِمَام صدر الدِّين بن المرحل (٧١٦هـ) .

الإمام قاضي القضاة زين الدِّين علي بن مخلوف المالكي (٧١٨هـ) .

الإمام نور الدّين علي بن يعقوب بن جبريل بن عبد المحسن أبو الحسن البكري المصري الشَّافعي (٧٢٤هـ) .

الإمام محمَّدُ بنُ محَّمدِ بنِ عثمانَ بنِ عمرَ بنِ عبدِ الخالقِ بنِ حسنٍ القرشيُّ المِصريُّ فخرُ الدينِ بنُ مُحيي الدِّينِ المعروفُ بابنِ المعلِّم القرشي (٧٢٥هـ) .

الإمام محمَّد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر المزّي الصَّالحي الحنبلي قاضي الحنابلة بدمشق شمس الدِّين أبو عبد الله المعروف بابن مسلم (٧٢٦هـ) .

الإمام مُحَمَّد بن عَليّ بن عبد الْوَاحِد بن عبد الْكَرِيم قَاضِي الْقُضَاة كَمَال الدِّين بن الزّملكاني (٧٢٧هـ) .

الإمام محمَّد بن صفي الدِّين عثمان بن أبي الحسن بن عبد الوهَّاب الأنصاري (٧٢٨هـ) .

الإمام أَحْمد بن يحيىٰ بن إِسْمَاعِيل الشَّيْخ شهَاب الدّين ابْن جهبل الْكلابِي الْحلَبِي الأَصْل (٧٣٣هـ) ، وهو صاحب الرِّسالة مناط البحث والدِّراسة .

الإمام بدر الدِّين بن جماعة أبو عبد الله الكناني الحموي، شيخ الإسلام وقاضي القضاة في الشَّام ومصر وخطيب المسجد الأقصىٰ والجامع الأزهر والجامع الأموي (٧٣٣ هـ) .

الإمام أبو القاسم أحمد بن محمَّد بن محمَّد الشِّيرازي (٧٣٣هـ) .

الإمام مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عمر قَاضِي الْقُضَاة جلال الدّين الْقزْوِينِي (٧٣٩هـ) .

الإمام تاج الدِّين أحمد بن عثمان ابن التُّركماني الجوزجاني الحنفي (٧٤٤هـ) .

الإمام أبو حيَّان محمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيَّان أثير الدِّين الأندلسي (٧٤٥هـ) .

الإمام كمال الدِّين محمَّد بن أبي الحسن علي السّراج الرِّفاعي القرشي الشَّافعي (٧٤٧هـ) .

الإمام شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذَّهبي (٧٤٨هـ) .

الإمام أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي السُّبكي، الخزرجي، الأنصاري (٧٥٦هـ) .

الإمام صلاح الدِّين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدِّمشقي الشَّافعي الأشعري (٧٦١هـ) .

وردود هؤلاء وغيرهم الكثير الكثير من علماء الأمَّة ... مسطَّرة في كتبهم وكتب غيرهم ... وهي معروفة مشهورة ... ومن تلك الرُّدود :

وجَّه الإمام الذَّهبي – تلميذ ابن تيمية– رسالة لشيخه ابن تيمية ، اشتهرت باسم : " الرِّسالة الذَّهبيَّة " ، نصح فيها شيخه ابن تيمية للعدول عن غيِّه وضلاله ونبشه لدقائق الكفريَّات الفلسفيَّة ، واتَّهمه فيها ببلع سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرَّات ، ونصُّ الرِّسالة هو : " الحمد لله علىٰ ذلَّتي ، يا ربِّ ارحمني وأقلني عثرتي ، واحفظ عليَّ إيماني ، واحزناه علىٰ قلَّة حزني ، واأسفاه علىٰ السُّنَّة وذهاب أهلها ، واشوقاه إلىٰ إخوان مؤمنين يعاونونني علىٰ البكاء ، واحزناه علىٰ فقد أُناس كانوا مصابيح العلم وأهل التَّقوىٰ وكنوز الخيرات ، آه علىٰ وجود درهم حلال وأخ مؤنس .

طوبىٰ لمن شغله عيبه عن عيوب النَّاس ، وتَبّاً لمن شغله عيوبُ النَّاس عن عيبه ، إلىٰ كم ترىٰ القذاة في عين أخيك وتنسىٰ الجذع في عينك ؟ إلىٰ كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمُّ العلماء ، وتتبع عورات

النَّاس مع علمك بنهي الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : " لا تذكروا موتاكم إلَّا بخير ، فإنَّهم قد أفضوا إلىٰ ما قدَّموا " . أخرج الشق الأوَّل منه : الطيالسي في المسند (٣/ ٩٥ برقم ١٥٩٧) .

بلىٰ أعرفُ إنَّك تقول لي لتنصُرَ نفسك : إنَّما الوقيعة في هؤلاء الذين ما شمُّوا رائحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهو جهاد ، بلىٰ والله عرفوا خيراً ممَّا إذا عمل به العبد فقد فاز ، وجهلوا شيئاً كثيراً ممَّا لا يعنيهم و" من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه " . أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٦٤ برقم ٥٣) ، وغيره ...

يا رجل ، بالله عليك كفَّ عنَّا ، فإنَّك مِحجاجٌ عليم اللسان ، لا تقرّ ولا تنام ، إيَّاكم والأغلوطات في الدِّين ، كره نبيُّك صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم المسائل وعابها ، ونهىٰ عن كثرة السُّؤال ، وقال : " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ " . أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٨٩ برقم ١٤٣) ، وغيره ...

وكثرة الكلام بغير زلل تقسِّي القلب إذا كان في الحلال والحرام ، فكيف إذا كان في عبارات اليونسيَّة والفلاسفة وتلك الكفريَّات التي تعمي القلوب ؟ والله قد صرنا ضحكة في الوجود ، فإلىٰ كم تنبشُ دقائق الكفريَّات الفلسفيَّة بعقولنا ، يا رجل قد بلعتَ سموم الفلاسفة وتصنيفاتهم مرَّات ، وكثرة استعمال السُّموم يُدمن عليه الجسم وتكمن والله في البدن . واشوقاه إلىٰ مجلس فيه تلاوة بتدبُّر ، وخشية بتذكُّر ، وصمت بتفكُّر ، واهاً لمجلس يُذكرُ فيه الأبرار ، فعند ذكر الصَّالحين تنزل الرَّحمة ، لا عند ذكر الصَّالحين يُذكرون بالازدراء واللعنة ، كان سيف الحجَّاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخَيتَهما ، بالله خلُّونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب ، وجدوا في ذكر بدع كنَّا نعدها من أساس الضَّلال ، قد صارت هي محض السُّنَّة وأساس التَّوحيد ، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار ، ومن لم يكفّر فهو أكفر من فرعــون ، وتعدّ النَّصارىٰ مثلنا ، والله في القلوب شكرك إن سَلِمَ لكَ إيمانك بالشَّهادتين فأنت سعيد .

يا خيبة من اتَّبعك فإنَّه مُعَرَّضٌ للزَّندقة والانحلال !!! ولا سيَّما إذا كان قليل العلم والدِّين باطوليَّاً شهوانيَّاً ، لكنَّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلَّا قعيدٌ مربوط خفيف العقل ، أو عامي كذَّاب بليد الذِّهن ، أو غريب واجم قوي المكر ، أو ناشف صالح عديم الفهم ، فإن لم تصدِّقني ففتشهم وزنهم بالعدل .

يا مسلم ، أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك ، إلىٰ كم تصادقها وتعادي الأخيار ؟ إلىٰ كم تصدقها وتزدري الأبرار ، إلىٰ كم تعظمها وتصغر العباد ، إلىٰ متىٰ تُخاللها وتمقت الزهَّاد ، إلىٰ متىٰ تمدح كلامك بكيفيَّة لا

تمدح بها والله أحاديث الصَّحيحين ، يا ليت أحاديث الصَّحيحين تسلم منك بل في كلِّ وقت تُغيرُ عليها بالتَّضعيف والإهدار ، أو بالتَّأويل والإنكار .

أما آن لك أن ترعوي ؟ أمَّا حان لك أن تتوب وتنيب ، أمَّا أنت في عشر السَّبعين وقد قرب الرَّحيل . بلىٰ والله ما أذكر أنَّك تذكر الموت بل تزدري بمن يذكر الموت ، فما أظنُّك تُقبل علىٰ قولي ولا تُصغي إلىٰ وعظي ، بل لك همة كبيرة في نقض هذه الورقة بمجلَّدات ، وتقطع لي أذناب الكلام ، ولا تزال تنتصر حتَّىٰ أقول لكَ : والبتَّة سكت .

فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشَّفوق المحبُّ الواد ، فكيف يكون حالك عند أعدائك ، وأعداؤك والله فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء ، كما أنَّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر .

قد رضيتُ منك بأن تسبَّني علانية ، وتنتفع بمقالتي سرَّاً : " فرحم الله امرءاً أهدىٰ إليَّ عيوبي " . أخرجه من كلام عمر بن الخطَّاب : الدارمي (١/ ٥٠٦ برقم ٦٧٥) .

فإنِّي كثير العيوب غزير الذُّنوب ، الويل لي إن أنا لا أتوب ، ووافضيحتي من علاّم الغيوب ، ودوائي عفو الله ومسامحته وتوفيقه وهدايته ، والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّد خاتم النبيِّين ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين " . انظر : السيف الصقيل في الردِّ علىٰ رد ابن زفيل (ص٢١٧-٢١٩) .

والرِّسالة ثابتة لا مجال للطَّعن فيها ، وذلك لـ :

١-أنَّ الإمام الذَّهبي تلميذ من تلاميذ ابن تيمية المشهورين ، وهو لا يعتقد في ابن تيمية العصمة ، بل خالفه وناقشه في العديد من المسائل ، قال الإمام الذَّهبي في معرض كلامه عن ابن تيمية ، علىٰ ما نقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني : " وَأَنا لَا أعتقد فِيهِ عصمَة ، بل أَنا مُخَالف لَهُ فِي مسَائِل أَصْلِيَّة وفرعية !!! ... " . انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ١٧٦) .

وقال الذَّهبي في " تذكرة الحفَّاظ " في حديثه عن ابن تيمية : " وقد انفرد بفتاوىٰ نيل من عِرضِهِ لأجلها ... فالله تعالىٰ يسامحه ويرضى عنه ، وكلّ أحد من الأمَّة فيؤخذ من قوله ويُترك " . انظر : تذكرة الحفاظ (٤٤/ ١٩٢)

وهذا بعكس من يدَّعون السَّلفيَّة في زماننا ، أولئك الذين أضفوا علىٰ كلام ابن تيمية هالة عظيمة من الجلال والإعظام ، حتَّىٰ وصل الأمر ببعضهم إلىٰ الاعتقاد بأنَّ كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بدليل أنَّنا لم نرَ عالماً منهم تجاسر علىٰ تخطئة ابن تيمية ، اللهمَّ إلَّا الألباني – فيما اطَّلعت – وقد ناقشه وخالفه علىٰ استحياء ، بل أنَّه حين ناقشه في مسألة فناء النَّار ذكر أنَّ لابن تيمية أجراً !!! فيما اجتهد فيه من القول بفناء النَّار ، مع أنَّها مسألة قطعيَّة لا مجال فيها للاجتهاد ...

فلا مجال البتَّة لاعتقاد عدم صحَّة نسبة الرِّسالة للإمام الذَّهبي ، لأنَّ الدِّين النَّصيحة ، والإنسان أيّاً كان لا يستغني عن النَّصيحة ، والرِّسالة برمَّتها ما خرجت إلَّا مخرج النَّصيحة ، وقد وصف الإمام الذَّهبي أتباع ابن تيمية في النَّصيحة بقوله : " يا خيبة من اتَّبعك ، فإنَّه معرَّض للزَّندقة والانحلال ، لاسيَّما إذا كان قليل العلم والدِّين باطوليَّاً شهوانيَّاً . لكنَّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه ، وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه ، فهل معظم أتباعك إلَّا قعيد مربوط خفيف العقل ، أو عامِّي كذاب بليد الذَّهن أو غريب واجم ، قوي المكر أو ناشف صالح عديم الفهم ، فإن لم تصدِّقني ففتِّشهم وزنهم بالعدل ... كما أنَّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر " . ففي هذا المقطع قيّم ووزن الذَّهبي أتباع ابن تيمية ممَّن يدَّعون السَّلفيَّة ، وهذا مدعاة لأن يراجعوا أنفسهم ، فقد وصف أتباعه بأنَّ منهم القعيد والمربوط وخفيف العقل ، وبليد الذَّهن وقوي المكر ، كما أنَّ أوليائه فيهم الفجرة والكذبة والبقر والعور . وفي هذا إشارة إلى أنَّ فكرهم فيه جهل وكذب . وكم نتمنَّى أن تكون نصيحة الإمـــام الذَّهبي لشيخه ابن تيمية مدعاة لمدَّعي السَّلفيَّة في زماننا كي يراجعوا حساباتهم وأنفسهم ، خاصَّة وأنَّهم ما تركوا عالماً من غير طريقتهم إلَّا وصموه بالكفر والنِّفاق والتَّعطيل والتَّجهُّم والفسق والضَّلال ...

٢-أنَّ الإمام الذَّهبي انتقد ابن تيمية غير مرَّة ، من ذلك قوله : " فإن برعت في الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة و الفلسفة ، وآراء الأوائل ومجازات العقول ، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسُّنَّة وأصول السَّلف ، ولفَّقت بين العقل والنَّقل ، فما أظنُّك في ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقربها ، وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحطِّ عليه ، والهجر والتَّضليل والتَّكفير والتَّكذيب بحقٍّ وبباطل ، فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصِّناعة منوَّراً مضيئاً ، على محياه سيما السَّلف ، ثمَّ صار مظلماً مكسوفاً ، عليه قتمة عند خلائق من النَّاس ، ودجالاً أفَّاكاً كافراً عند أعدائه ، ومبتدعاً فاضلاً محقِّقاً بارعاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء ، وحامل راية الإسلام وحامي حوزة الدِّين ومحيي السُّنَّة عند عوامِّ أصحابه " . انظر : زغل العلم (ص٤٢).

فالذَّهبي ذمّ ابن تيمية بسبب خوضه بالفلسفة ، وهذا الذمُّ منه ينسف مدحه له في " تذكرة الحفَّاظ " حين قال : " فما رأيت مثله " . انظر : تذكرة الحفاظ (٤٤/ ١٩٢) .

وقال الإمام الذَّهبي : " فوالله ما رَمَقت عيني أوسع علماً ولا أقوى ذكاء من رجل يقال له : ابن تيمية ، مع الزَّهد في المأكل والملبس والنِّساء ، ومع القيام في الحق والجهاد بكلِّ ممكن ، وقد تعبتُ في وزنه وفتَّشته حتَّى مللت في سنين متطاولة ، فما وجدت قد أخره بين أهل مصر والشَّام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذَّبوه

وكفَّروه إلَّا الكبر والعجب ، وفرط الغرام في رياسة المشيخة والازدراء بالكبار ، فانظر كيف وبال الدَّعاوي ومحبَّة الظُّهور ، نسأل الله تعالىٰ المسامحة ، فقد قام عليه أناس ليسوا بأورع منه ، ولا أعلم منه ، ولا أزهد منه ، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابهم وآثام أصدقائهم ، وما سلَّطهم الله عليه بتقواهم وجلالتهم بل بذنوبه ، وما دفعه الله عنه وعن أتباعه أكثر ، وما جرىٰ عليهم إلَّا بعض ما يستحقون ، فلا تكن في ريب من ذلك " . انظر : زغل العلم (ص٣٨) .

٣-أثبت رسالة الإمام الذَّهبي لشيخه ابن تيمية الإمام شمس الدِّين محمَّد بن عبد الرَّحمن السَّخاوي (٩٠٢هـ) ، فقال : " وقد رأيت له - أي للذَّهبي - عقيدة مجيدة ، ورسالة كتبها لابن تيمية هي لدفع نسبته لمزيد تعصُّبه مفيدة " . انظر : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التَّاريخ (ص٧٧) .

وكذلك أثبتها الأستاذ الدُّكتور بشَّار عواد معروف ، فقال عن الرِّسالة : " وهي رسالة بعث بها الذَّهبي إلىٰ شيخه ورفيقه أبي العبَّاس ابن تيمية الحرَّاني ينصحه فيها ويعاتبه في بعض تصرُّفاته ، وهي رسالة مفيدة في تبيان عقيدة الذَّهبي وقد ذكرها السَّخاوي في الإعلان ... وذهب بعضهم إلىٰ القول بأنَّها مزوَّرة ، ولا عبرة بذلك " . انظر : الذَّهبي ومنهجه في كتابه تأريخ الإسلام (ص١٤٦) .

وذكر الأستاذ الدُّكتور بشَّار عواد معروف نُسخ الرِّسالة ، وأنَّها موجودة في : دار الكتب المصريَّة بخط تقي الدِّين ابن قاضي شهبة الأسدي المتوفَّىٰ سنة (٨٥١هـ) رقم (١٨٨٢٣) ، وفي : دار الكتب الظَّاهريَّة برقم (١٣٤٧) ، وقد نقلتها من كتاب : " السَّيف الصَّقيل في الرَّدِّ علىٰ ابن زفيل " للإمام تقي الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي المتوفَّىٰ سنة (٧٥٦هـ) ...

وقال الإمام ابن الوردي المعري الكندي (٧٤٩هـ) في " تاريخ ابن الوردي " (٢/ ٢٥٩) في أحداث سنة ثَمَان عشرَة وَسَبْعمِائة : " وفيهَا: فِي جُمَادَىٰ الْآخِرَة ورد مرسوم السُّلْطَان بِمَنْع الشَّيْخ تَقِيّ الدّين بن تَيْمِية من الْفَتْوَىٰ فِي مَسْأَلَة الْحلف بِالطَّلَاق وَعقد لذَلِك مجْلِس وَنُودِيَ بِهِ فِي الْبَلَد.

قلت: وَبعد هَذَا الْمَنْع والنِّداء أحضر إِلَيّ رجل فَتْوَىٰ من مضمونها إِنَّه إِذا طلق الرَّجل امْرَأَته ثَلَاثًا جملَة بِكَلِمَة أَو بِكَلِمَات فِي طهر أَو أطهار قبل أَن يرتجعها أَو تقضي الْعدة ، فَهَذَا فِيهِ قَولَانِ للْعُلَمَاء ، أظهرهمَا : أَنَّه لَا يلْزمه إِلَّا طَلْقَة وَاحِدَة وَلَو طلقهَا الطَّلْقَة بعد أَن يرجعها أَو يَتَزَوَّجهَا بِعقد جَدِيد ، وَكَانَ الطَّلَاق مُبَاحاً فَإِنَّهُ يلْزمه، وَكَذَلِكَ الطَّلْقَة الثَّالِثَة إِذا كَانَت بعد رَجْعَة أَو عقد جَدِيد وَهِي مُبَاحَة فَأَنَّهَا تلْزمهُ وَلَا تحل لَهُ بعد ذَلِك إِلَّا بِنِكَاح شَرْعِي لَا بِنِكَاح تَحْلِيل ، وَالله أعلم. وَقد كتب الشَّيْخ بِخَطِّهِ تَحت ذَلِك مَا صورته: هَذَا

مَنْقُول من كَلَامي، كتبه أَحْمد بن تَيْمِية، وَله فِي الطَّلَاق رّخص غير هَذِه أَيْضاً لَا يلْتَفت الْعلمَاء إِلَيْهَا وَلَا يعرجون عَلَيْهَا" .

وقال الإمام ابن الوردي في أحداث سنة سِتّ وَعشْرين وَسَبْعمائة : " وفيهَا: فِي شعْبَان اعتقل الشَّيْخ تَقِيّ الدِّين بن تَيْمِية بقلعة دمشق مكرَّماً رَاكِبًا وَفِي خدمته مشد الْأَوْقَاف والحاجب ابْن الخطير وأخليت لَهُ قاعة ، ورتّب لَهُ مَا يقوم بكفايته، ورسم السُّلْطَان بِمَنْعه من الْفتيا ، وَسبب ذَلِك فتيا وجدت بِخَطِّهِ فِي الْمَنْع من السّفر وَمن أَعمال الْمطِي إِلَى زِيَارَة قُبُور الْأَنْبِيَاء وَالصَّالِحِينَ ، وَحبس جمَاعَة من أَصْحَابه ، وعزّر جمَاعَة ثمَّ أطْلقُوا سوى شمس الدِّين مُحَمَّد بن أبي بكر إِمَام الجوزيَّة ، فَإِنَّهُ حبس بالقلعة أَيْضاً" . انظر : تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٧٠) .

قال الإمام تقي الدِّين علي بن عبد الكافي السُّبكي في " مقدِّمة كتابه : " الدُّرَّة المضيَّة في الَّرد على ابن تيميَّة" ما نصّه: أمَّا بعد ، فإنَّه لَّما أحدث ابن تيمية ما أحدث في أصول العقائد ، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد ، بعد أن كان مستتراً بتبعيَّة الكتاب والسُّنَّة ، مُظهراً أنَّه داع إلى الحِّ ،ق هاد إلى الجنَّة ، فخرج عن الاتِّباع إلى الابتداع ، وشذَّ عن جماعة المسلمين بمخالفة الاجماع ، وقال بما يقتضي الجسميَّة والتَّركيب في الَّذات المقدَّس ، وإنَّ الافتقار إلى الجزء ليس بمحال ، وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى ، وإنَّ القرآن مُحد ،ث تكلَّم الله به بعد أن لم يكن ، وأنَّه يتكلَّم ويسكت ، ويحدث في ذاته الإرادات بحسب المخلوقات ، وتعدى في ذلك إلى استلزام قِدَم العالم ، والتزامه بالقول بأنَّه لا أوَّل للمخلوقات ، فقال بحوادث لا أوَّل لها ، فأثبت الصِّفة القديمة حادثة ، والمخلوق الحادث قديماً ، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملَّة من الملل ، ولا نحلة من النِّحل ، فلم يدخل في فرقة من الفرق الثَّلاثة والسَّبعين التي افترقت عليها الأمَّة ، ولا وقفت به مع أمَّة من الأمم همَّة ، وكل ذلك وإن كان كفراً شنيعاً ممَّا تقلّ جملته بالنِّسبة لما أحدث في الفروع" .

وقال الإمام تقي الدِّين السُّبكي في " فتاوى السُّبكي" (٢/ ٢١٠) : " ... وَهَذَا الرَّجُلُ كُنْت رَدَدْت عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ فِي إنْكَارِهِ السَّفَرَ لِزِيَارَةِ الْمُصْطَفَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي إنْكَارِهِ وُقُوعَ الطَّلَاقِ إذَا حُلِفَ بِهِ ثُمَّ ظَهَرَ لِي مِنْ حَالِهِ مَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي نَقْلٍ يَنْفَرِدُ بِهِ لِمُسَارَعَتِهِ إلَى النَّقْلِ لِفَهْمِهِ كَمَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَلَا فِي بَحْثٍ يُنْشِئُهُ لِخَلْطِهِ الْمَقْصُودَ بِغَيْرِهِ وَخُرُوجِهِ عَنْ الْحَدِّ جِدًّا، وَهُوَ كَانَ مُكْثِرًا مِنْ الْحِفْظِ وَلَمْ يَتَهَذَّبْ بِشَيْخٍ وَلَمْ يَرْتَضْ فِي الْعُلُومِ بَلْ يَأْخُذُهَا بِذِهْنِهِ مَعَ جَسَارَتِهِ وَاتِّسَاعِ خَيَالٍ وَشَغَبٍ كَثِيرٍ، ثُمَّ بَلَغَنِي مِنْ

حَالِهِ مَا يَقْتَضِي الْإِعْرَاضَ عَنْ النَّظَرِ فِي كَلَامِهِ جُمْلَةً. وَكَانَ النَّاسُ فِي حَيَاتِهِ اُبْتُلُوا بِالْكَلَامِ مَعَهُ لِلرَّدِّ عَلَيْهِ وَحُبِسَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَوُلَاةِ الْأُمُورِ عَلَىٰ ذَلِكَ ثُمَّ مَاتَ" .

وقال الإمام صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي (٧٦٤هـ) في " أعيان العصر وأعوان النَّصر" (١/ ٢٣٦-٢٣٨) : " وكان في ربيع الأوَّل سنة ثمان وتسعين وست مائة، قد قام عليه جماعة من الشَّافعيَّة، وأنكروا عليه كلاماً في الصِّفات، وأخذوا فُتياه الحمويَّة، وردُّوا عليه فيها، وعملوا له مجلساً، فدافع الأفرم عنه ولم يُبلّغهم فيه أرباً، ونودي في دمشق بإبطال العقيدة الحمويَّة، فانتصر له جاغان المشدّ، وكان قد مُنع من الكلام، ثمَّ إنَّه جلس علىٰ عادته يوم الجمعة، وتكلَّم ثمَّ حضر عنده قاضي القضاة إمام الدِّين، وبحثوا معه، وطال الأمر بينهم، ثمَّ رجع القاضي إمام الدِّين وأخوه جلال الدِّين وقالا: من قال عن الشَّيخ تقي الدِّين شيئاً عزَّرناه.

ثمَّ إنَّه كُلب إلىٰ مصر، هو والقاضي نجم الدِّين صَصرَىٰ، وتوجَّها إلىٰ مصر في ثاني عشر شهر رمضان سنة خمس وسبع مائة، فانتصر له الأمير سيف الدِّين سلاّر، وحطّ الجاشنكير عليه، وعقدوا له مجلساً انفصل علىٰ حبسه، فحُبس في خزانة البنود، ثمَّ نُقل إلىٰ الإسكندريَّة في صفر سنة تسع وسبع مائة، ولم يمكن أحد من أصحابه من التَّوجُّه معه، ثمَّ أُفرج عنه وأقام بالقاهرة مُدَّة. ثمَّ اعتقل أيضاً، ثمَّ أُفرج عنه في ثامن شوَّال سنة تسع وسبع مائة، أخرجه النَّاصر لمّا ورد من الكرك، وحضر إلىٰ دمشق، فلمَّا كان في يوم الثُّلاثاء تاسع عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وسبع مائة جمع الفقهاء والقضاة عند الأمير سيف الدِّين تنكز، وقرأ عليهم كتاب السُّلطان، وفيه فصل يتعلَّق بالشَّيخ تقي الدِّين بسبب فُتياه في مسألة الطَّلاق، وعُوتب علىٰ فُتياه بعد المنع، وانفصل المجلس علىٰ توكيد المنع.

ثمَّ إنَّه في يوم الخميس ثاني عشري شهر رجب الفرد سنة عشرين وسبع مائة عُقد له مجلس بدار السَّعادة وعاودوه في فتيا الطَّلاق وحاققوه عليها، وعاتبوه لأجلها. ثمَّ إنَّه حُبس بقلعة دمشق، فأقام بها إلىٰ يوم الاثنين يوم عاشوراء سنة إحدىٰ وعشرين وسبع مائة، فأخرج من القلعة بعد العصر بمرسوم السُّلطان، وتوجَّه إلىٰ منزله. وكانت مدَّة سجنه خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.

ولمَّا كان في يوم الاثنين بعد العصر، سادس شعبان سنة ست وعشرين وسبع مائة في أيَّام قاضي القضاة جلال الدِّين القزويني تكلَّموا معه في مسألة الزِّيارة، وكُتب في ذلك إلىٰ مصر، فورد مرسومُ السُّلطان باعتقاله في القلعة، فلم يزل بها إلىٰ أن مات رحمه الله تعالىٰ في ليلة الاثنين عشري ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبع مائة بقلعة دمشق في القاعة التي كان بها محبوساً" .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني في " الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة " (١/١٦٩-١٧٤) : " وَأَوَّل مَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ من مقالاته فِي شهر ربيع الأوَّل سنة (٦٩٨هـ) قَامَ عَلَيْهِ جمَاعَة من الْفُقَهَاء بِسَبَب الْفَتْوَىٰ الحمويَّة ، وَبَحَثُوا مَعَه ، وَمنع من الْكَلَام ، ثمَّ حضر مَعَ القَاضِي إِمَام الدِّين الْقزْوِينِي ، فانتصر لَهُ ، وَقَالَ هُوَ وَأَخُوهُ جلال الدِّين : من قَالَ عَن الشَّيْخ تَقِيّ الدِّين شَيْئاً عزَّرناه ثمَّ طلب ثَانِي مرَّة فِي سنة (٧٠٥هـ) إِلَىٰ مصر ، فتعصَّب عَلَيْهِ بيبرس الجاشنكير ، وانتصر لَهُ سلار ، ثمَّ آل أمره أَن حبس فِي خزانَة البنود مُدَّة ، ثمَّ نقل فِي صفر سنة (٧٠٩هـ) إِلَىٰ الاسكندريَّة ، ثمَّ أفرج عَنهُ وأعيد إِلَىٰ الْقَاهِرَة ، ثمَّ أُعِيد إِلَىٰ الاسكندريَّة ، ثمَّ حضر النَّاصِر من الكرك فَأَطْلقهُ وَوصل إِلَىٰ دمشق فِي آخر سنة (٧١٢هـ) ، وَكَانَ السَّبَب فِي هَذِه المحنة أَنَّ مرسوم السُّلْطَان ورد علىٰ النَّائِب بامتحانه فِي معتقده لما وَقع إِلَيْهِ من أُمُور تنكر فِي ذَلِك ، فعقد لَهُ مجْلِس فِي سَابع رَجَب ، وَسُئِلَ عَن عقيدته فأملأ مِنْهَا شَيْئا ، ثمَّ احتضروا العقيدة الَّتِي تعرف بالواسطيَّة فقرئ مِنْهَا ، وَبَحَثُوا فِي مَوَاضِع ، ثمَّ اجْتَمعُوا فِي ثَانِي عشرَة ، وقرَّروا الصَّفي الْهِنْدِيّ يبْحَث مَعَه ، ثمَّ أخرَّوه وَقدمُوا الْكَمَال الزّملكاني ، ثمَّ انْفَصل الْأَمر علىٰ أَنَّه شهد علىٰ نَفسه أَنَّه شَافِعِيّ المعتقد ، فأشاع أَتْبَاعه أَنَّه انتصر ، فَغَضب خصومه ، وَرفعُوا وَاحِدًا من أَتبَاع ابْن تَيْمِية إِلَىٰ الْجلَال الْقزْوِينِي نَائِب الحكم بالعادليَّة ، فعزَّره ، وَكَذَا فعل الْحَنَفِيّ بِاثْنَيْنِ مِنْهُم ، ثمَّ فِي ثَانِي عشرىٰ رَجَب قَرَأَ الْمزّي فصلاً من كتاب أَفعَال الْعباد للْبُخَارِيّ فِي الْجَامِع ، فَسَمعهُ بعض الشَّافِعِيَّة فَغَضب ، وَقَالُوا : نَحن المقصودون بِهَذَا ، ورفعوه إِلَىٰ القَاضِي الشَّافِعِي ، فَأمر بحبسه ، فَبلغ ابْن تَيْمِية فَتوجَّه إِلَىٰ الْحَبْس فَأخْرجهُ بِيَدِهِ ، فَبلغ القَاضِي فطلع إِلَىٰ القلعة فوافاه ابْن تَيْمِية ، فتشاجرا بِحَضْرَة النَّائِ، ب واشتطَّ ابْن تَيْمِية علىٰ القَاضِي ، لكَون نَائِبه جلال الدِّين آذىٰ أَصْحَابه فِي غيبَة النَّائِب ، فَأمر النَّائِب من يُنَادي : أَنَّ من تكلَّم فِي العقائد فعل كَذَا بِهِ ، وَقصد بذلك تسكين الْفِتْنَة، ثمَّ عقد لَهُم مجْلِس فِي سلخ رَجَب ، وَجرىٰ فِيهِ بَين ابْن الزملكاني وَابْن الْوَكِيل مباحثة ، فَقَالَ ابْن الزَّملكاني لِابْنِ الْوَكِيل : مَا جرىٰ علىٰ الشَّافِعِيَّة قَلِيل حَتَّىٰ تكون أَنْت رئيسهم ، فَظَنَّ القَاضِي نجم الدِّين بن صصرىٰ أَنَّه عناه فعزل نَفسه ، وَقَامَ فأعانه الْأُمَرَاء وولاه النَّائِب وَحكم الْحَنَفِيّ بِصِحَّة الْوِلَايَة ، ونفذها الْمَالِكِي ، فَرجع إِلَىٰ منزله وَعلم أَنَّ الْوِلَايَة لم تصح ، فصمَّم علىٰ الْعَزْل ، فرسم النَّائِب لنوابه بِالْمُبَاشرَةِ إِلَىٰ أَن يرد أَمر السُّلْطَان ، ثمَّ وصل بريدي فِي أَوَاخِر شعْبَان بعوده ثمَّ وصل بريدي فِي خَامِس رَمَضَان بِطَلَب القَاضِي وَالشَّيْخ ، وَأَن يرسلوا بِصُورَة مَا جرىٰ للشَّيْخ فِي سنة (٦٩٨هـ) ثمَّ وصل مَمْلُوك النَّائِب ، وَأخْبر أَنَّ الجاشنكير وَالْقَاضِي الْمَالِكِي قد قاما فِي الْإِنْكَار علىٰ الشَّيْخ ، وَأَنَّ الْأَمر اشْتَدَّ بِمصْر علىٰ الْحَنَابِلَة حَتَّىٰ صفع بَعضهم ، ثمَّ توجه القَاضِي وَالشَّيْخ إِلَىٰ الْقَاهِرَة ومعهما جمَاعَة ، فوصلا فِي الْعشْر الْأَخير من رَمَضَان ، وَعقد

مجْلِس فِي ثَالِث عشر مِنْهُ بعد صَلَاة الْجُمُعَة ، فَادَّعى على ابْن تَيْمِية عِنْد الْمَالِكِي ، فَقَالَ : هَذَا عدوِّي ، وَلم يُجب عَن الدَّعْوَى فكرّر عَلَيْهِ ، فأصر ، فَحكم الْمَالِكِي بحبسه ، فأقيم من الْمجْلس ، وَحبس فِي برج ، ثمَّ بلغ الْمَالِكِي أَنَّ النَّاس يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يجب التَّضْيِيق عَلَيْهِ إن لم يقتل ، وَإِلَّا فقد ثَبت كفره ، فنقلوه لَيْلَة عيد الْفطر إِلَى الْجب ، وَعَاد القَاضِي الشَّافِعِي إِلَى ولَايَته ، وَنُودِيَ بِدِمَشْق : من اعْتقد عقيدة ابْن تَيْمِية حلَّ دَمه وَمَاله خُصُوصاً الْحَنَابِلَة ، فَنُودي بذلك ، وقرئ المرسوم ، وَقرأَهَا ابْن الشِّهَاب مَحْمُود فِي الْجَامِع ، ثمَّ جمعُوا الْحَنَابِلَة من الصَّالحيَّة وَغَيرهَا ، واشهدوا على أنفسهم أَنَّهم على مُعْتَقد الإِمَام الشَّافِعِي ، وَذكر ولد الشَّيْخ جمال الدِّين ابْن الظَّاهِرِيّ فِي كتاب كتبه لبَعض معارفه بِدِمَشْق أَنَّ جَمِيع من بِمصْر من الْقُضَاة والشُّيوخ والفقراء وَالْعُلَمَاء والعوام يحطُّون على ابْن تَيْمِية إِلَّا الْحَنَفِيّ فَإِنَّهُ يتعصب لَهُ ، وَإِلَّا الشَّافِعِي فَإِنَّهُ سَاكِت عَنهُ ، وَكَانَ من أعظم القائمين عَلَيْهِ الشَّيْخ نصر المنبجي ، لِأَنَّهُ كَانَ بلغ ابْن تَيْمِية أَنَّه يتعصَّب لِابْنِ الْعَرَبِي ، فَكتب إِلَيْهِ كتاباً يعاتبه على ذَلِك ، فَمَا أعجبه لكَونه بَالغ فِي الْحَطِّ على ابْن الْعَرَبِيّ وتكفيره ، فَصَارَ هُوَ يحُطّ على ابْن تَيْمِية ويغري بِهِ بيبرس الجاشنكير ، وَكَانَ بيبرس يفرط فِي محبَّة نصر ويعظِّمه .

وَقَامَ القَاضِي زين الدِّين ابْن مخلوف قَاضِي الْمَالِكِيَّة مَعَ الشَّيْخ نصر وَبَالغ فِي أذيَّة الْحَنَابِلَة، وَاتَّفق أَنَّ قَاضِي الْحَنَابِلَة شرف الدِّين الْحَرَّانِي كَانَ قَلِيل البضاعة فِي الْعلم ، فبادر إِلَى إجابتهم فِي المعتقد واستكتبوه خطَّه بذلك ، وَاتَّفق أَنَّ قَاضِي الْحَنَفِيَّة بِدِمَشْق وَهُوَ شمس الدِّين ابْن الحريري انتصر لِابْن تَيْمِية ، وَكتب فِي حَقِّه محضراً بالثَّناء عَلَيْهِ بِالْعلمِ والفهم ، وَكتب فِيهِ بِخَطِّهِ ثَلَاثَة عشر سطراً من جُمْلَتهَا أَنَّه مُنْذُ ثَلَاثِمِائَة سنة مَا رأى النَّاس مثله ، فَبلغ ذَلِك ابْن مخلوف فسعى فِي عزل ابْن الحريري ، فعزل وَقرّر عوضه شمس الدّين الْأَذْرَعِيّ ، ثمَّ لم يلبث الْأَذْرَعِيّ أَن عزل فِي السَّنة الْمُقبلَة ، وتعصَّب سلار لِابْنِ تَيْمِية ، وأحضر الْقُضَاة الثَّلَاثَة الشَّافِعِي والمالكي والحنفي ، وَتكلَّم مَعَهم فِي إِخْرَاجه ، فاتَّفقوا على أَنَّهم يشترطون فِيهِ شُرُوطًا، وَأَن يرجع عَن بعض العقيدة ، فأرسلوا إِلَيْهِ مَرَّات ، فَامْتنعَ من الْحُضُور إِلَيْهِم ، وَاسْتمرّ وَلم يزل ابْن تَيْمِية فِي الْجبّ إِلَى أَن شفع فِيهِ مهنا أَمِير آل فضل ، فَأخْرج فِي ربيع الأوَّل فِي الثَّالِث وَعشْرين مِنْهُ ، وأحضر إِلَى القلعة، وَوَقع الْبَحْث مَعَ بعض الْفُقَهَاء ، فكتب عَلَيْهِ محْضر بِأَنَّهُ قَالَ : أَنا أشعري ، ثمَّ وجد خطّه بِمَا نَصّه : الَّذِي اعْتقد أَنَّ الْقُرْآن معنى قَائِم بِذَات الله ، وَهُوَ صفة من صِفَات ذَاته الْقَدِيمَة ، وَهُوَ غير مَخْلُوق ، وَلَيْسَ بِحرف وَلَا صَوت ، وَأَنَّ قَوْله ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ لَيْسَ على ظَاهره ، وَلَا أعلم كُنه الْمُرَاد بِهِ ، بل لَا يعلمهُ إِلَّا الله ، وَالْقَوْل فِي النُّزُول كالقول فِي الاسْتوَاء ، وَكتبه أَحْمد بن تَيْمِية ، ثمَّ أشهدوا عَلَيْهِ أَنَّه تَابَ مِمَّا يُنَافِي ذَلِك مُخْتَارًا ، وَذَلِكَ فِي خَامِس عشرى ربيع الأوَّل سنة (٧٠٧هـ) ، وَشهد عَلَيْهِ بذلك جمع جمّ من

الْعلمَاء وَغَيرهم ، وَسكن الْحَال ، وَأَفْرج عَنهُ ، وَسكن الْقَاهِرَة ، ثمَّ اجْتمع جمع من الصُّوفِيَّة عِنْد تَاج الدّين إِبْنِ عَطاء ، فطلعوا فِي الْعشْر الْأَوْسَط من شَوَّال إِلَى القلعة وَشَكوا من ابْن تَيْمِية أَنَّه يتكَلَّم فِي حقِّ مَشَايِخ الطَّرِيق ، وَأَنَّه قَالَ : لَا يستغاث بِالنَّبِيِّ صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم ، فَاقْتضى الْحَال أَن أَمر بتسييره إِلَى الشَّام ، فَتوجَّه على خيل الْبَرِيد ... وكلّ ذَلِك وَالْقَاضِي زين الدّين ابْن مخلوف مشتغل بِنَفسِهِ بِالْمرضِ ، وَقد أشرف على الْمَوْت وبلغه سفر ابْن تَيْمِية ، فراسل النَّائِب ، فَردَّه من بلبيس ، وَادَّعى عَلَيْهِ عِنْد ابْن جمَاعَة ، وَشهد عَلَيْهِ شرف الدّين ابْن الصَّابُونِي ، وَقيل : أَنَّ عَلَاء الدّين القونوي أَيْضاً شهد عَلَيْهِ ، فاعتقل بسجن بحارة الدَّيلم فِي ثامن عشر شَوَّال إِلَى سلخ صفر سنة (٧٠٩هـ) ، فَنقل عَنهُ أَنَّ جمَاعَة يَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهِ ، وَأَنَّه يتكَلَّم عَلَيْهِم فِي نَحْو مَا تقدَّم ، فَأمر بنقله إِلَى الاسكندريَّة ، فَنقل إِلَيْهَا فِي سلخ صفر ، وَكَانَ سَفَره صُحْبَة أَمِير مقدم ، وَلم يُمكن أحداً من جِهَته من السَّفر مَعَه ، وَحبس ببرج شَرْقي ، ثمَّ توجَّه إِلَيْهِ بعض أَصْحَابه ، فَلم يمنعوا مِنْهُ ، فتوجهت طَائِفَة مِنْهُم بعد طَائِفَة ، وَكَانَ مَوْضِعه فسيحاً ، فَصَارَ النَّاس يدْخلُونَ إِلَيْهِ ، ويقرؤون عَلَيْهِ ، ويبحثون مَعَه ، قَرَأت ذَلِك فِي تَارِيخ البرزالي .

فَلم يزل إِلَى أَن عَاد النَّاصِر إِلَى السَّلطنة ، فشفع فِيهِ عِنْده ، فَأمر بإحضاره ، فَاجْتمع بِهِ فِي ثامن عشر شَوَّال سنة ٩ ، فَأَكْرمه ، وَجمع الْقُضَاة ، وَأَصْلح بَينه وَبَين القَاضِي الْمَالِكِي ، فَاشْترط الْمَالِكِي أَن لَا يعود ، فَقَالَ لَهُ السُّلْطَان : قد تَابَ ، وَسكن الْقَاهِرَة ، وَتردَّد النَّاس إِلَيْهِ إِلَى أَن توجَّه صُحْبَة النَّاصِر إِلَى الشَّام بنيَّة الْغُزَاة فِي سنة (٧١٢هـ) ، وَذَلِكَ فِي شَوَّال ، فوصل دمشق فِي مستهل ذِي الْقعدَة ، فَكَانَت مُدَّة غيبته عَنْهَا أَكثر من سبع سِنِين ، وتلقَّاه جمعٌ عَظِيم فَرحاً بمقدمه ، وَكَانَت والدته إِذْ ذَاك فِي قيد الْحَيَاة ، ثمَّ قَامُوا عَلَيْهِ فِي شهر رَمَضَان سنة (٧١٩هـ) بِسَبَب مَسْأَلَة الطَّلَاق ، وأكّد عَلَيْهِ الْمَنْع من الْفتيا ، ثمَّ عقد لَهُ مجْلِس آخر فِي رَجَب سنة عشْرين ، ثمَّ حبس بالقلعة ، ثمَّ أخرج فِي عَاشُورَاء سنة (٧٢١هـ) ، ثمَّ قَامُوا عَلَيْهِ مرّة أُخْرَى فِي شعْبَان سنة (٧٢٦هـ) بِسَبَب مَسْأَلَة الزِّيَارَة ، واعتقل بالقلعة ، فَلم يزل بهَا إِلَى أَن مَاتَ فِي لَيْلَة الِاثْنَيْنِ الْعشْرين من ذِي الْقعدَة سنة (٧٢٨هـ) " .

وجاء في " الفتاوى الحديثيَّة " (ص٨٣- ٨٥) لابن حجر الهيتمي : " وَسُئِلَ نفع الله بِهِ بِمَا لَفظه: لِابْنِ تَيْمِية اعْتِرَاض على متأَخري الصُّوفِيَّة، وَله خوارق فِي الْفِقْه وَالْأُصُول فَمَا مُحصل ذَلِك؟ فَأجَاب بقوله: ابْن تَيْمِية عبد خذله الله وأضلَّه وأعماه وأصمه وأذلَّه، وَبِذَلِك صرح الْأَئِمَّة الَّذين بيَّنوا فَسَاد أَحْوَاله وَكذب أَقْوَاله، وَمن أَرَادَ ذَلِك فَعَلَيهِ بمطالعة كَلَام الإِمَام الْمُجْتَهد الْمُتَّفق على إِمَامَته وجلالته وبلوغه مرتبَة الِاجْتِهَاد أبي الْحسن السُّبْكِيّ ، وَولده التَّاج ، وَالشَّيْخ الإِمَام الْعِزّ بن جمَاعَة وَأهل عصرهم، وَغَيرهم من الشَّافِعِيَّة

والمالكيَّة وَالْحَنَفِيَّة، وَلم يقصر اعتراضه علىٰ متأخِّري الصُّوفِيَّة بل اعْترض علىٰ مثل : عمر بن الْخطَّاب ، وَعلي بن أبي طَالب رَضِي الله عَنْهُمَا كَمَا يَأْتِي. وَالْحَاصِل أنْ لَا يُقَام لكَلَامه وزن بل يَرْمِي فِي كلِّ وَعْر وحَزَن، ويعتقد فِيهِ أَنَّه مُبْتَدع ضالّ ومُضِّل جَاهِل غال عَامله الله بعدله، وأجازنا من مثل طَرِيقَته وعقيدته وَفعله آمين. وَحَاصِل مَا أُشير إِلَيْهِ فِي السُّؤَال أَنَّه قَالَ فِي بعض كَلَامه: إِنَّ فِي كتب الصُّوفِيَّة مَا هُوَ مَبْنِيّ علىٰ أُصُول الفلاسفة الْمُخَالفين لدين الْمُسلمين فيتلقَّىٰ ذَلِك بِالْقبُول مَنْ يطالع فِيهَا من غير أنْ يعرف حَقِيقَتهَا، كدعوىٰ أحدهم أَنَّه مُطلَّع علىٰ اللَّوْح الْمَحْفُوظ، فَإِنَّهُ عِنْد الفلاسفة كَابْن سينا وَأَتْبَاعه النَّفس الفلكيَّة، وَيَزْعُم أَنَّ نفوس الْبشر تَّتصل بِالنَّفسِ الفلكيَّة، أَو بِالْعقلِ الفعَّال يقظة أَو مناماً، وهم يدَّعون أَنَّ مَا يحصل من المكاشفة يقظة أَو مناماً هُوَ بِسَبَب اتِّصالها بِالنَّفسِ الفلكيَّة عِنْدهم، وَهِي سَبَب حُدُوث الْحَوَادِث فِي الْعَالم ، فَإِذا اتَّصَلت بهَا نفس الْبشر استنقش فِيهَا مَا كَانَ فِي النَّفس الفلكيَّة، وَهَذِه الْأُمُور لم يذكرهَا قدماء الفلاسفة وَإِنَّمَا ذكرهَا ابْن سينا، وَمن يتلَقَّىٰ عَنهُ، وَيُوجد من ذَلِك فِي بعض كَلَام أبي حَامِد، وَكَلَام ابْن عَرَبِيّ، وَابْن سبعين وأمثال هَؤُلَاءِ تكلمُوا فِي التَّصوُّف، والحقيقة علىٰ قَاعِدَة الفلاسفة لَا علىٰ أُصُول الْمُسلمين، وَلَقَد خَرجُوا بذلك إِلَىٰ الْإِلْحَاد كإلحاد الشِّيعَة، والإسماعيليَّة، والقرامطة، والباطنيّة، بِخِلَاف عُبَّاد أهل السُّنَّة والْحَدِيث ومتصوِّفتهم، كالفُضَيل وَسَائِر رجال الرِّسَالَة، وَهَؤُلَاء أعظم النَّاس إنكاراً لطرق مَنْ هم خيرٌ من الفلاسفة كالمعتزلة والكَّراميَّة فكيف بالفلاسفة، وَأهل التَّصوُّف ثَلَاثَة أَصْنَاف: قوم علىٰ مَذْهَب أهل الحَدِيث وَالسُّنَّة كهؤلاء الْمَذْكُورين، وَقوم علىٰ طَرِيقَة بعض أهل الْكَلَام من الكراميَّة وَغَيرهم، وَقوم خَرجُوا إِلَىٰ طَرِيق الفلسفة مثل مَسْلك من سَلَك رسائل إِخْوَان الصَّفَا، وَقطعَة تُوجد فِي كَلَام أبي حَيَّان التَّوحيدي، وَأَمَّا ابْن عَرَبِيّ وَابْن سبعين وَنَحْوهمَا فَجَاءُوا بِقطع فلسفيَّة غيروا عبارتها وأخرجوها فِي قالب التَّصوُّف، وَابْن سينا تكلَّم فِي آخر الإرشادات علىٰ مقَام العارفين بِحَسب مَا يَلِيق بِحَالِهِ، وَكَذَا مُعظم من لم يعرف الْحَقَائِق الإيمانيَّة. وَالْغَزالِيّ ذكر شَيْئاً من ذَلِك فِي بعض كتبه ، لَا سِيمَا فِي الْكتاب المضْنُون بِهِ علىٰ غير أَهله، ومشكاة الْأَنْوَار وَنَحْو ذَلِك، حَتَّىٰ ادَّعىٰ صَاحبه أَبُو بكر بن الْعَرَبِيّ فَقَالَ: شَيخنَا دخل فِي نظر الفلاسفة، وَأَرَادَ أَن يخرج مِنْهُم فَمَا قدر، لَكِن أَبُو حَامِد يكفِّر الفلاسفة فِي غير مَوضِع وبَيَّن فَسَاد طريقتهم، وَأَنَّهَا لَا تحصِّل الْمَقْصُود واشتغل فِي آخر عمره بالبخاري وَمَات علىٰ ذَلِك، وَقيل إِنَّه رَجَعَ عَن تِلْكَ الْكتب، وَمِنْهُم مَنْ يَقُول إِنَّهَا مكذوبة عَلَيْهِ، وَكثر كَلَام النَّاس فِيهَا لأَجلهَا كالمازري والطّرطوشي وَابْن الْجَوْزِيّ وَابْن عقيل وَغَيرهم انْتهىٰ حَاصِل كَلَام ابْن تَيْمِية. وَهُوَ يُنَاسب مَا كَانَ عَلَيْهِ من سوء الاعتقاد حَتَّىٰ فِي أَكَابِر الصَّحَابَة ومنْ بعدهمْ إِلَىٰ أهل عصره وَرُبمَا أَدَّاهُ اعْتِقَاده ذَلِك إِلَىٰ تَبْدِيع كثير مِنْهُم. وَمن جملَة مَنْ تتبَّعه

الْوَلِيّ القطب الْعَارِف أَبُو الْحسن الشَّاذلِي نفعنا الله بِعُلُومِهِ ومعارفه فِي حزبه الْكَبِير وحزب الْبَحْر وَقطعَة من كَلَامه، كَمَا تتبَّع ابنَ عَرَبِيّ وابنَ الفارض وابنَ سبعين، وتتبع أَيْضا الحلاَّج الْحُسَيْن بن مَنْصُور، وَلَا زَالَ يتتبع الأكابر حَتَّىٰ تمالأ عَلَيْهِ أهل عصره ففسقوه، وبدَّعوة بل كَفَّره كثير مِنْهُم، وَقد كتب إِلَيْهِ بعض أجلاء أهل عصره علماً وَمَعْرِفَة سنة خمس وَسَبْعمائة مِنْ فلَان إِلَىٰ الشَّيْخ الْكَبِير الْعَالم إِمَام أهل عصره بزَعْمِهِ، أَمَّا بعد: فَإِنَّا أَحْبَبْنَاك فِي الله زَمَاناً، وأعرضنا عَمَّا يُقَال فِيك إِعْرَاض الفَضْل إحساناً، إِلَىٰ أَن ظهر لنا خلاف مُوجبَات الْمحبَّة بِحكم مَا يَقْتَضِيهِ الْعقل والحسّ، وَهل يَشُكُّ فِي اللَّيْل عَاقل إِذا غربت الشَّمْس، وَأَنَّك أظهرتَ أَنَّك قَائِم بِالْأَمر بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر، وَالله أعلم بقصدك ونيَّتك، ولكنَّ الْإِخْلَاص مَعَ الْعَمَل يُنْتج ظُهُور الْقبُول، وَمَا رَأينَا آل أَمرك إِلَّا إِلَىٰ هتك الأستار والأعراض، بِاتِّبَاع من لَا يوثق بقوله مِنْ أهل الْأَهْوَاء والأغراض، فَهُوَ سَائِر زُمانِه يَسُبُّ الْأَوْصَاف والذَّوات، وَلم يقنع بِسَبِّ الْأَحْيَاء، حَتَّىٰ حكم بتكفير الْأَمْوَات وَلم يكْفِه التَّعَرُّض علىٰ من تَأَخَّر من صالحي السَّلف، حَتَّىٰ تعدَّىٰ إِلَىٰ الصَّدْر الأوَّل، وَمن لَهُ أَعلَىٰ الْمَرَاتِب فِي الْفضل فيا وَيْحَ مَنْ هَؤُلَاءِ خُصماؤه يَوْم الْقِيَامَة، وهيهات أَنْ لَا يَنَالهُ غضب، وأَنيَّ لَهُ بالسَّلامة، وكنتُ مِمَّن سَمعه وَهُوَ علىٰ مِنْبَر جَامع الْجَبَل بالصَّالحيَّة وَقد ذكر عمر بن الْخطاب رَضِي الله عَنهُ فَقَالَ: إِنَّ عمر لَهُ غلطات وبَليَّات وأيَّ بليات.

وَأخْبر عَنهُ بعض السَّلف أَنَّه ذكر عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ فِي مجْلِس آخر فَقَالَ: إِنَّ علياًّ أَخطَأَ فِي أَكثر من ثَلَاثمِائَة مَكَان، فيا لَيْت شعري من أَيْن يحصل لَك الصَّوَاب؟ إِذا أَخطَأَ عليّ بزعمك كرَّم الله وَجهه وَعمر بن الْخطاب ، والآن قد بلغ هَذَا الْحَال إِلَىٰ منتهاه ، وَالْأَمر إِلَىٰ مُقْتَضَاهُ، ولا ينفعني إِلَّا الْقيام فِي أَمرك وَدفع شرِّك، لِأَنَّك قد أَفْرطْتَ فِي الغيِّ وَوصل أذاك إِلَىٰ كلِّ ميِّت وَحي، وتلزمني الْغيرَة شرعاً لله وَلِرَسُولِهِ ، وَيلْزم ذَلِك جَمِيع الْمُؤمنِينَ وَسَائِر عباد الله الْمُسلمين بِحكم مَا يَقُوله الْعلمَاء، وهم أهل الشَّرْع وأرباب السَّيْف الَّذين بهم الوصْل وَالْقطع، إِلَىٰ أَن يحصل مِنْك الكَفُّ عَن أَعْرَاض الصَّالِحين رَضِي الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ اهــ.

واعْلم أَنَّه خَالف النَّاس فِي مسَائِل نبَّه عَلَيْهَا التَّاج السُّبْكِيّ وَغَيره. فممَّا خرق فِيهِ الْإِجْمَاع قَوْله فِي: عليَّ الطَّلَاق أَنَّه لَا يَقع عَلَيْهِ بل عَلَيْهِ كَفَّارَة يَمِين، وَلم يقل بِالْكَفَّارَةِ أحد من الْمُسلمين قبله، وَأَنَّ طَلَاق الْحَائِض لَا يَقع، وَكَذَا الطَّلَاق فِي طُهْر جَامع فِيهِ، وَأَنَّ الصَّلَاة إِذا تركت عمداً لَا يجب قَضَاؤُهَا، وَأَنَّ الْحَائِض يُبَاح لَهَا بِالطّوافِ بِالْبَيْتِ وَلَا كَفَّارَة عَلَيْهَا، وَأَنَّ الطَّلَاق الثَّلَاث يُردُّ إِلَىٰ وَاحِدَة، وَكَانَ هُوَ قبل ادّعائه ذَلِك نقل أجماع الْمُسلمين علىٰ خِلَافه، وَأَنَّ المكوس حَلَال لمن أقطعها، وَأَنَّهَا إِذا أخذت من التجَّار أجزأتهم عَن الزَّكَاة

وَإِن لم تكن باسم الزَّكَاة وَلَا رسمها، وَأَنَّ الْمَائِعَات لَا تنجس بِمَوْت حَيَوَان فِيهَا كالفأرة، وَأَنَّ الْجنُب يصلِّي تطوّعه بِاللَّيْلِ وَلَا يُؤَخِّرهُ إِلَى أَن يغْتَسل قبل الْفجْر، وإِنْ كَانَ بِالْبَلَدِ، وَأَنَّ شَرط الْوَاقِف غير مُعْتبَر، بل لَو وقف على الشَّافِعِيَّة صرف إِلَى الْحَنَفِيَّة وَبِالْعَكْسِ، وعَلى الْقُضَاة صُرِف إِلَى الصُّوفِيَّة، فِي أَمْثَال ذَلِك من مسَائِل الْأُصُول مَسْأَلَة الْحسن والقُبْح الْتزم كلّ مَا يرد عَلَيْهَا، وَإِنَّ مُخَالف الْإِجْمَاع لَا يكفر وَلَا يفسق، وَأَنَّ رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ والجاحدون علوّاً كَبِيراً مَحَلُّ الْحَوَادِث تَعَالَى الله عَن ذَلِك وتقدَّس، وَأَنَّه مُركَّبٌ تفْتَقر ذَاته افتقار الْكلّ للجزء تَعَالَى الله عَن ذَلِك وتقدَّس، وَأَنَّ الْقُرْآن مُحدث فِي ذَات الله تَعَالَى الله عَن ذَلِك، وَأَنَّ الْعَالم قديم بالنَّوع، وَلم يزل مَعَ الله مخلوقاً دَائِماً فَجعله مُوجباً بِالذَّاتِ لَا فَاعِلاً بِالِاخْتِيَارِ تَعَالَى الله عَن ذَلِك، وَقَوله بالجِسْمِّية والجهة والانتقال، وَأَنَّه بقَدَر الْعَرْش لَا أَصْغَرَ وَلَا أكبر تَعَالَى الله عَن هَذَا الافتراء الشَّنيع الْقَبِيح، وَالْكفْر البراح الصَّرِيح، وخذل مُتَّبعيه وشتت شَمْل معتقديه، وَقَالَ: إِنَّ النَّار تفنى، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاء غير معصومين، وَأَنَّ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لَا جاه لَهُ وَلَا يتوسَّل بِهِ، وأنَّ إِنْشَاء السّفر إِلَيْهِ بِسَبَب الزِّيَارَة مَعْصِيّة لَا تُقصر الصَّلَاة فِيهِ، وسيحرم ذَلِك يَوْم الْحَاجة ماسَّة إِلَى شَفَاعَته، وَأَنَّ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل لم تبدَّل ألفاظهما وَإِنَّمَا بدِّلت معانيهما اهـ.

وَقَالَ بَعضهم: وَمن نظر إِلَى كُتبه لم ينْسب إِلَيْهِ أَكثر هَذِه الْمَسَائِل غير أَنَّه قَائِل بالجهة ، وَله فِي إِثْبَاتهَا جُزْء، وَيلْزم أهل هَذَا الْمَذْهَب الجسميَّة والمحاذاة والاستقرار: أَي فَلَعَلَّهُ فِي بعض الأحيان كَانَ يُصَرِّح بِتِلْكَ اللوازم فنسبت إِلَيْهِ ذَلِك من أَئِمَّة الْإِسْلَام الْمُتَّفق على جلالته، وإمامته، وديانته، وَأَنَّه الثِّقَة الْعدْل المرتضى الْمُحَقِّق المدقِّق، فَلَا يَقُول شَيْئا إِلَّا عنْ تثبُّتٍ وَتحقّق ومزيد احْتِيَاط وتحرٍّ سِيَّمَا إِنْ نَسَبَ إِلَى مُسلم مَا يَقْتَضِي كُفْره ورِدَّته وضلاله وإهدار دَمه، فَإِن صحَّ عَنهُ مُكفِّر أَو مبدع يعامله الله بعدله وَإِلَّا يغْفر لنا وَله" .

وقال أيضاً في " الفتاوى الحديثيَّة" (ص١٤٤) : " وَإِيَّاك أنْ تُصغي إِلَى مَا فِي كتب ابْن تَيْمِية وتلميذه ابْن قيم الجوزيَّة وَغَيرهمَا مِمَّن اتَّخذ إلهه هَوَاهُ ، وأضلَّه الله على علم ، وَختم على سَمعه وَقَلبه ، وَجعل على بَصَره غشاوة ، فَمن يهديه من بعد الله، وَكَيف تجَاوز هَؤُلَاءِ الْمُلْحِدُونَ الْحُدُود، وتعدّوا الرُّسوم ، وخرقوا سياج الشَّرِيعَة والحقيقة، فظنُّوا بذلك أَنَّهم على هدى من رَّبهم وَلَيْسوا كَذَلِك، بل هم على أَسْوَأ الضَّلال وأقبح الْخِصَال ، وأبلغ الْمَقْتَ والخسران ، وأنهى الْكَذِب والبهتان ، فخذل الله متَّبعهم ، وطهر الأَرْض من أمثالهم" .

والرِّسالة التي ندرسها ونعلِّق عليها اليوم هي لواحد من أولئك العلماء الجهابيذ الذين ردُّوا على ابن تيمية في مسألة الجهة ... وقد جاء ردُّه وافياً شافياً كافياً ، حيث ناقشه بالعقل والنَّقل ، وأثبت عظيم خطئه ،

وكبير جُرمه ، وتغاضيه عن أدلَّة تنزيه الله تعالىٰ عن مشابهة الحوادث ، واعتزازه بنفسه ، وبيَّن مدىٰ جرأته في ليِّ أعناق النُّصوص كي توافق مدَّعاه ... تلك الجرأة التي سار عليها من يزعمون ويدَّعون السَّلفيَّة كذباً وزوراً وبهتاناً ...

تَرْجَمَةُ الإِمَامِ ابْنِ جَهْبَل :

جاء في ترجمته في " الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة " (١/ ٣٨٩) : " أَحْمد بن يحيىٰ بن إِسْمَاعِيل بن طَاهِر بن نصر بن جهبل الْحلَبِي ثمَّ الدِّمَشْقِي الشَّافِعِي . ولد سنة (٦٧٠هـ) وتفقَّه علىٰ الْمُقْدِسِي وَابْن الْوَكِيل وَابْن النَّقِيب وَسمع الحَدِيث من الْفَخر والفاروقي وَغَيرهمَا ، وَولي تدريس الصَّلاحيَّة بالقدس مُدَّة ثمَّ تَركهَا ، وَسكن دمشق ، ودرَّس بالبادرائيَّة بِدِمَشْق بعد الشَّيْخ برهَان الدّين ، وولّي مشيخة الحَدِيث بالظَّاهريَّة ثمَّ تَركهَا فَأَخذهَا الذَّهَبِيّ . قَالَ ابْن كثير : كَانَ من أَعْيَان الْفُقَهَاء وَلم يَأْخُذ مَعْلُوماً من البادرائيَّة وَلَا من الظَّاهِرِيَّة . وَقَالَ الذَّهَبِيّ : كَانَ فِيهِ خير وَتعبُّد ، وَله محَاسِن وفضائل وفطنة وَتقدُّم فِي الْعلم بالفروع . وَقَالَ ابْن الكتبي : كَانَ عَالماً ورعاً ، وَلما مرض تصدَّق كثيراً حَتَّىٰ بثيابه ، وَمَات فِي جُمَادَىٰ الْآخِرَة سنة (٧٣٣هـ) . قلت حَدَّثنَا عَنهُ بِالسَّمَاعِ شَيخنَا الْبُرْهَان الشَّامي" .

وقال الإمام ابن العماد في " شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب" في أحداث سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة : " وفيها الشَّيخ شهاب الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن يحيىٰ بن إسماعيل بن طاهر بن نصر بن جهبل الشَّافعي الحلبي الأصل الدِّمشقي، المعروف بابن جهبل .

ولد سنة سبعين وستمائة، وسمع من جماعة واشتغل بالعلم، ولزم الشَّيخ صدر الدِّين بن المرحّل، وأخذ عن الشَّيخ شرف الدِّين المقدسي وغيره، ودرَّس بصلاحيَّة القدس الشَّريف مَّدة ثمَّ تركها، وتحوُّل إلىٰ دمشق، فباشر مشيخة دار الحديث الظَّاهريَّة، ثمَّ ولي تدريس البادرائيَّة بعد وفاة الشَّيخ برهان الدِّين، وترك المشيخة المذكورة، واستمرّ في تدريس البادرائيَّة إلىٰ أن مات.

قال ابن كثير: ولم يأخذ معلوماً من واحدة منهما. قال: وكان من أعيان الفقهاء وفضلائهم.

وقال السُّبكي: درَّس، وأفتىٰ، وأشغل مدَّة بالعلم بالقدس ودمشق. وحدَّث وسمع منه الحافظ علم الدِّين البرزالي. قال: ووقفت له علىٰ تصنيف في نفي الجهة ردّا علىٰ ابن تيميّة لا بأس به، وسرده بمجموعة في «الطَّبقات الكبرىٰ» في نحو كرَّاسين.

توفِّي بدمشق في جمادىٰ الآخرة ودفن بمقابر الصُّوفيَّة " .

وللاستزادة في ترجمته انظر : الوافي بالوفيات (٨/ ١٦٢) ، ذيل التَّقييد في رواة السُّنن والأسانيد (١/ ٤٠٧) ، طبقات الشَّافعية ، لابن قاضي شهبة (٢/ ٢٥٥) .

واللهَ تعالىٰ أسأل أن يرزقنا سُبُل الهُدىٰ ، وأن يُجنِّبنا موارد الهوىٰ والرَّدىٰ ، وسُبُل الغواية والعَمىٰ ، ونسأله تعالىٰ أن يعلِّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علَّمنا ، وأن يزيدنا علماً ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، في السرِّ والعلن ، إنَّه أهل ذلك والقادرُ عليه ...

وَسُبْحَانَكَ اللَهُمَّ وَبِحَمْدِكَ نَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ ، إِلَّا أَنْتَ
نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُـــــــــوْبُ إِلَيْكَ
وَالحَمْـــــدُ لله رَبِّ
العَالَمِيْنَ

الإِمَام أَحْمد بنْ يَحْيَى بن إِسْمَاعِيْل الشَّيْخ شِهَاب الدِّيْنِ ابْن جَهْبَل الْكلَابِي الحَلَبِي الأَصْل

﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾ فِيْ نَفْي الجِهَة عَنِ الله تَعَالَى ﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾﴿ﷲ﴾

قال الإمام تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) **في " طبقات الشَّافعيَّة الكبرى"** (٩/ ٣٤ فما بعدها) **في ترجمته للإمام ابن جهبل : " ووقفت لَهُ على تصنيف صنَّفه فِي نفي الْجِهَة ردَّاً على ابْن تَيْمِية ، لَا بَأْس بِهِ ، وَهُوَ هَذَا : بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم ، الْحَمدُ لله الْعَظِيم شَأْنه ، الْقوي سُلْطَانه ، القاهر ملكوته ، الباهر جبروته ، الْغَنِيّ عَن كلِّ شَيْء ، وكلُّ شَيْء مفتقر إِلَيْهِ ، فَلَا معوَّل لشَيْء من الكائنات إِلَّا عَلَيْهِ .**

أرسل مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمحجَّة (١) الْبَيْضَاء ، وَالْمِلَّة الزَّهراء ، فَأتى بأوضح الْبَرَاهِين ، وَنور محجَّة السَّالكين ، وَوصف ربَّه تَعَالَى بِصِفَات الْجلَال ، وَنفى عَنهُ مَا لَا يَلِيق بالكبرياء والكمال ، فتعالى الله الْكَبِير المتعال عَمَّا يَقُوله أهل الغيِّ والضَّلال ، لَا يحملهُ الْعَرْش بل الْعَرْش وَحَمَلته محمولون بلطيف قدرته ، مقهورون فِي قَبضته (٢) ، أَحَاط بِكُلِّ شَيْء علماً ، وأحصى كلَّ شَيْء عدداً ، مطَّلع على

---

(١) المحجَّة : الطَّرِيق الواضح المستقيم ، جاء في مختار الصِّحاح : " الْمَحَجَّةُ : بِفَتْحَتَيْنِ : جَادَّةُ الطَّرِيق . انظر : مختار الصحاح (ص٦٦) .

وقال ابن فارس : " الْمَحَجَّةُ ، وَهِيَ جَادَّةُ الطَّرِيق ، قَالَ :

أَلَا بَلِّغَا عَنِّي حُرَيْثًا رِسَالَةً   فَإِنَّكَ عَنْ قَصْدِ الْمَحَجَّةِ أَنْكَبُ

انظر : معجم مقاييس اللغة (٢/ ٣٠) .

فالمحَجَّة البيضاء هي الطَّرِيق المستقيم الواضح الذي لا تجد فيه عوجاً ولا أمْتا . وانظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٣٠١) .

(٢) من المعلوم أنَّ الأمَّة أجمعت على أنَّ الله تعالى ليس جسماً ، ولا شبيهاً لشيء من خلقه بأيِّ وجه من الوجوه، وأنَّ كلّ ما يوهم الجسميَّة يجب تفويض العلم بكُنْهه كَيْفاً وَمَعْنَى ، أو تأويله بما ينسجم مع قواعد اللغة العربيَّة ، وكذا الثَّوابت العقديَّة التي تنزِّه الله تعالى عن مشابهة المحدثات ، قال الإمام الغزالي : " ليس بجسم مصوَّر ولا جوهر محدود مقدَّر ، وأنَّه لا يماثل الأجسام لا في التَّقدير ولا في قبول الانقسام ، وأنَّه ليس بجوهر ، ولا تحلُّه الجواهر ، ولا بعَرَض ولا تحلُّه الأعْرَاض ، بل لا يماثل موجوداً ، ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء ، وأنَّه لا يحدُّه المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْجِهَاتُ ، وَلَا تَكْتَنِفُهُ الْأَرَضُونَ ولا السَّموات ، وَأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواء منزَّهاً عن المماسَّة والاستقرار ، والتَّمكُّن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ

هواجس (٣) الضَّمائر وحركات الخواطر (٤) ، فسبحانه مَا أعظم شَأْنه وأعزَّ سُلْطَانه ﴿يَسْأَلُه مَنْ فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض﴾ [الرحمن:٢٩] لافتقارهم إِلَيْهِ ﴿كُلَّ يَوْم هُوَ فِي شَأْن﴾ [الرحمن :٢٩] لاقتداره عَلَيْهِ ، وصلَّى الله عَلَيْهِ وَسلَّم على سيِّدنَا مُحَمَّد خَاتم أنبيائه ومبلغ أنبيائه وعَلى آله وَصَحبه وَسلَّم . أمَّا بعد : فَالَّذِي دَعَا إِلَى تسطير هَذِه النُّبذة مَا وَقع فِي هَذِه الْمدَّة مِمَّا علَّقه بَعضهم (٥)

فِي إِثْبَات الْجِهَة (٦)

والسَّماء ، وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَىٰ تُخُومِ الثَّرَىٰ ، فَوْقِيَّةً لَا تَزِيدُهُ قُرْبًا إِلَىٰ الْعَرْشِ والسَّماء ، كَمَا لَا تَزِيدُهُ بُعْدًا عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَىٰ ، بَلْ هُوَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْعَرْشِ والسَّماء ، كَمَا أَنَّهُ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ عَنِ الْأَرْضِ وَالثَّرَىٰ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ مَوْجُودٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْعَبْدِ من حبل الوريد ، وهو علىٰ كلِّ شيء شهيد ، إِذْ لَا يُمَاثِلُ قُرْبُهُ قُرْبَ الْأَجْسَامِ ، كَمَا لَا تُمَاثِلُ ذَاتُهُ ذَاتَ الْأَجْسَام ، وَأَنَّهُ لَا يَحُلُّ فِي شَيْءٍ ، وَلَا يَحُلُّ فِيهِ شَيْءٌ ، تَعَالَىٰ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ ، كَمَا تَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَحُدَّهُ زَمَانٌ ، بَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ، وَهُوَ الْآنَ عَلَىٰ ما عليه كان ، وأنَّه بائن عن خلقه بصفاته ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه ذاته ، وأنَّه مقدَّس عن التَّغيرُّ والانتقال ، لا تحلُّه الحوادث ، ولا تعتريه العوارض ، بل لا يزال في نعوت جلاله منزَّهاً عن الزَّوال ، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال ، وَأَنَّهُ فِي ذَاتِهِ مَعْلُومُ الْوُجُودِ بِالْعُقُولِ ، مَرْئِيُّ الذَّات بالأبصار ، نعمة منه ولطفاً بالأبرار في دار القرار ، وَإِتْمَامًا مِنْهُ لِلنَّعِيمِ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ٩٠) .

(٣) الهاجِس مفرد : جمعُه هَواجِسُ :

١ – اسم فاعل من هجَسَ/ هجَسَ في .

٢ – خاطر ، كلّ ما يتصوَّره الفكر " انتابته الهواجسُ– هاجسُ الحربِ " .

٣ – إحساس بأنَّ شيئًا ما سوف يحدث .

٤ – همّ "كان ضحيَّة الهواجس" .انظر : معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٣٢٦) .

(٤) الخَاطِرُ : مَا يَخْطُر فِي القَلْب من تدْبِير أَوْ أَمْر . وَقَالَ ابنُ سِيدَه : الخَاطِرُ : (الهَاجِسُ ، ج الخَوَاطِرُ) . قَالَ شيخُنَا : فهُمَا مُترادِفَان ، وفرَّق بَيْنَهُمَا وبَيْن حَديثِ النَّفْسِ الفُقَهَاءُ والمُحَدِّثون وأَهلُ الأُصول ، كَمَا فَرَّقُوا بَين الهَمِّ والعَزْمِ ، وجعَلُوا المُؤاخَذَةَ فِي الأَخِير دُونَ الأَرْبَعَةِ الأَوَّل . انظر : تاج العروس من جواهر القاموس (١٠/ ١٩٤) .

(٥) يقصد ابن تيمية .

(٦) من المعلوم أنَّ الجهة هي النَّاحية أو الموضع ، والجهات ستّ : فوق ، أسفل ، يمين ، يسار ، خلف ، أمام ، وهي مكان ، وكلّ ما سوىٰ الله تعالىٰ مخلوق له ، وهو سبحانه غنيٌّ عمَّا خلق ، وقد أجمعت الأمَّة علىٰ تنزيه الله تعالىٰ عن

المكان ، قال الإمام عبد القاهر البغدادي (٤٢٩هـ) : " قَالَ أمير المُؤمنينَ علىٰ رَضِي الله عَنهُ : إنَّ الله تَعَالَىٰ خلق الْعَرْش إظهاراً لقدرته لَا مَكَاناً لذاته . وَقَالَ أيضاً : قد كَانَ وَلَا مَكَان ، وَهُوَ الْآن علىٰ مَا كَانَ" . انظر : الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية (ص٣٢١)

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) : " حدَّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ محمَّد بْنِ الْحَارِثِ ، ثَنَا الْفَضْلُ بْنُ الْحُبَابِ الْجُمَحِيُّ ، ثَنَا مُسَدَّدٌ ، ثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ بْنُ سَعِيدٍ ، عَنْ محمَّد بْنِ إِسْحَاقَ ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَعْدٍ ، قَالَ : كُنْتُ بِالْكُوفَةِ فِي دَارِ الْإِمَارَةِ ، دَارِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْنَا نَوْفُ بْنُ عَبْدِ الله فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْبَابِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : عَلَيَّ بِهِمْ ، فَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَالُوا لَهُ : يَا عَلِيُّ صِفْ لَنَا رَبَّكَ هَذَا الَّذِي فِي السَّماء ، كَيْفَ هُوَ ، وَكَيْفَ كَانَ ، وَمَتَىٰ كَانَ ، وَعَلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَاسْتَوَىٰ عَلِيٌّ جَالِسًا وَقَالَ : مَعْشَرَ الْيَهُودِ اسْمَعُوا مِنِّي ، وَلَا تُبَالُوا أَنْ لَا تَسْأَلُوا أَحَدًا غَيْرِي ، إِنَّ رَبِّي عزَّ وجلَّ هُوَ الأَوَّل لَمْ يَبْدُ مِمَّا ، وَلَا مُمَازِجُ مَعِمَّا ، وَلَا حَالٌّ وَهْمًا ، وَلَا شَبَحٌ يُتَقَصَّىٰ ، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَىٰ ، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَيُقَالُ : حَادِثٌ ، بَلْ جَلَّ أَنْ يُكَيِّفَ الْمُكَيِّفَ لِلْأَشْيَاءِ كَيْفَ كَانَ ، بَلْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزُولُ لِاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ ، وَلَا لِتَقَلُّبِ شَانٍ بَعْدَ شَانٍ ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ ، وَكَيْفَ يُنْعَتُ بِالْأَلْسُنِ الْفِصَاحِ ، مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيُقَالُ : بَائِنٌ ، وَلَمْ يَبِنْ عَنْهَا فَيُقَالُ : كَائِنٌ ، بَلْ هُوَ بِلَا كَيْفِيَّةٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ مِنْ حَبَلِ الْوَرِيدِ ، وَأَبْعَدُ فِي الشَّبَهِ مِنْ كُلِّ بَعِيدٍ ، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ ، وَلَا كُرُورُ لَفْظَةٍ ، وَلَا ازْدِلَافُ رَبْوَةٍ ، وَلَا انْبِسَاطُ خُطْوَةٍ ، فِي غَسَقِ لَيْلٍ دَاجٍ ، وَلَا إِدْلَاجٍ لَا يَتَغَشَّىٰ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ ، وَلَا انْبِسَاطُ الشَّمْسِ ذَاتِ النُّورِ ، بِضَوْئِهَا فِي الْكُرُورِ ، وَلَا إِقْبَالُ لَيْلٍ مُقْبِلٍ ، وَلَا إِدْبَارُ نَهَارٍ مُدْبِرٍ ، إِلَّا وَهُوَ مُحِيطٌ بِمَا يُرِيدُ مِنْ تَكْوِينِهِ ، فَهُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَكُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ ، وَكُلِّ نِهَايَةٍ وَمُدَّةٍ ، وَالْأَمَدُ إِلَى الْخَلْقِ مَضْرُوبٌ ، وَالْحَدُّ إِلَىٰ غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ ، لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَوَّلِيَّةٍ ، وَلَا بِأَوَائِلَ كَانَتْ قَبْلَهُ بَدِيَّةً ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ خَلْقَهُ ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ ، تَوَحَّدَ فِي عُلُوِّهِ ، فَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ انْتِفَاعٌ ، إِجَابَتُهُ لِلدَّاعِينَ سَرِيعَةٌ ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ لَهُ مُطِيعَةٌ ، عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْبَائِدِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْمُتَقَلِّبِينَ ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ ، وَعِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، لَا تُحَيِّرُهُ الْأَصْوَاتُ ، وَلَا تَشْغَلُهُ اللُّغَاتُ ، سَمِيعٌ لِلْأَصْوَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، بِلَا جَوَارِحَ لَهُ مُؤْتَلِفَةٍ ، مُدَبِّرٌ بَصِيرٌ عَالِمٌ بِالْأُمُورِ ، حَيٌّ قَيُّومٌ . سُبْحَانَهُ كَلَّمَ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ ، وَلَا شَفَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ تَكْيِيفِ الصِّفات ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَنَا مَحْدُودٌ ، فَقَدْ جَهَلَ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ، وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَمَاكِنَ بِهِ تُحِيطُ ، لَزِمَتْهُ الْحِيرَةُ وَالتَّخْلِيطُ ، بَلْ هُوَ الْمُحِيطُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ الرَّحْمَن ، بِخِلَافِ التَّنْزِيلِ وَالْبُرْهَانِ ، فَصِفْ لِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ هَيْهَاتَ أَتَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ ، وَتَصِفُ الْخَالِقَ الْمَعْبُودَ ، وَأَنْتَ تُدْرِكُ صِفَةَ رَبِّ الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ ، فَكَيْفَ مَنْ لَمْ تَأْخُذْهُ سِنَةٌ وَلَا

نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِي الْأَرَضِينَ وَالسَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " . انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٧٢-٧٣) .

وذكر الإمام الزَّبيدي عن الامام السجَّاد ذي الثَّفِنَات زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين أنَّه كان يقول في يوم عرفة : ...أنت الله الذي لا يحويك مكان ، ولم يقم لشأنك سُلطان ، ولم يعيك برهان ولا بيان ، أنت الذي أحصيت كلَّ شيء عدداً ، وجعلت وقدَّرت كلَّ شيء تقديراً ، أنت الذي قصرت الأوهام عن ذاتيَّتك ، وعجزت الأوهام عن كيفيَّتك ، ولم تدرك الأبصار موضع أينيَّتك ، أنت الله الذي لا تحدّ فتكون محدوداً " . انظر : إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٤/ ٤١٣) باختصار .

وقال الإمام القُشيري (٤٦٥هـ) : " وسئل ذو النُّون المِصْرِي عَن قَوْله تعالىٰ : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] فَقَالَ : أثبت ذاته ونفىٰ مكانه ، فَهُوَ موجود بذاته ، والأشياء موجودة بحكمة كَمَا شاء سبحانه .

وسُئل الشِّبلي عَن قَوْله تعالىٰ : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] ، فَقَالَ : الرَّحْمَن لَمْ يزل ، والعرش مُحدث ، والعرش بالرَّحمن استوىٰ .

وسُئل جَعْفَر بْن نصير عَن قَوْله تعالىٰ : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] ، فَقَالَ : استوىٰ علمه بكلِّ شيء ، فليس شَيْء أقرب إِلَيْهِ من شَيْء .

وَقَالَ جَعْفَر الصَّادق : من زعم أَنَّ اللهَّ فِي شَيْء أَوْ من شَيْء أَوْ عَلَىٰ شَيْء فَقَدْ أشرك ، إذ لو كَانَ عَلَىٰ شَيْء لكان محمولاً ، ولو كَانَ فِي شَيْء لكان محصوراً ، ولو كَانَ من شَيْء لكان مُحْدَثاً " . انظر : الرِّسالة القشيريَّة (١/ ٢٨-٢٩) .

وقال الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ) : " ... قلت : أَرَأَيْت لَو قيل أَيْن الله تَعَالَىٰ ؟ فَقَالَ : يُقَال لَهُ : كَانَ الله تَعَالَىٰ وَلَا مَكَان قبل أن يخلق الْخلق ، وَكَانَ الله تَعَالَىٰ وَلم يكن أَيْن وَلَا خلق ولا شَيْء ، وَهُوَ خَالق كل شَيْء " . انظر : العالم والمتعلم (الفقه الأبسط – الفقه الأكبر – رسالة أبي حنيفة – الوصية) (ص٥٧) .

وقال الإمام أبو حنيفة أيضاً : " ونقرُّ بأنَّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ العرش استوىٰ من غير أن يكون له حاجة إليه ، واستقرار عليه ، وهو حافظ العرش وغير العرش من غير احتياج ، فلو كان محتاجاً لما قدر علىٰ إيجاد العالم وتدبيره كالمخلوقين ، ولو كان محتاجاً إلىٰ الجلوس والقرار فقبل خلق العرش أين كان الله ؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوَّاً كبيراً" .

انظر : العالم والمتعلم (الفقه الأبسط – الفقه الأكبر – رسالة أبي حنيفة – الوصية) (ص٧٥) .

وقال الإمام أبو حنيفة أيضاً : " من قَالَ لَا أعرف رَبِّي فِي السَّماء اَوْ فِي الأَرْض فقد كفر ، وَكَذَا من قَالَ : إِنَّه علىٰ الْعَرْش وَلَا ادري الْعَرْش أَفِي السَّماء اَوْ فِي الأَرْض " . انظر : الفقه الأكبر (ص١٣٥) .

وقد حمل المشبِّهة هذا الكلام من أبي حنيفة مَحْمَلاً باطلاً لنصرة مذهبهم مع أنَّهم كفَّروه بعشرات النُّصوص على ما جاء في كتاب السُّنَّة المنسوب ظلماً وزوراً وعدواناً لعبد الله بن أحمد بن حنبل ، وكذا في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للَّالكائي ... مع أنَّ كلام الإمام الأعظم يريد بقوله السَّالف : أنَّ من يقول بهذا القول يُوهم بأنَّ لله تعالى مكاناً ، فيقع عندها في المحذور المحظور ...

وقال الإمام الزَّبيدي :" قال الشَّافعي رحمه الله تعالى : ... والدَّليل عليه هو أنَّه تعالى : كان ولا مكان ، فخلق المكان وهو على صفة الأزليَّة كما كان قبل خلقه المكان ، لا يجوز عليه التَّغيير في ذاته ، ولا التَّبديل في صفاته " . انظر : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢٣) .

وقال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) : " ... وَمَا اشْتهر بَين جهلة المنسوبين إِلَى هَذَا الإِمَام الْأَعْظَم الْمُجْتَهد من أَنَّه قَائِل بِشَيْء من الْجِهَة أَو نَحْوهَا فكذب وبُهتان وافتراء عَلَيْهِ ، فلعن الله من نَسَبَ ذَلِك إِلَيْهِ ، أَو رَمَاه بِشَيْء من هَذِه المثالب الَّتِي برَّأه الله مِنْهَا ، وَقد بَين الْحَافِظ الْحجَّة الْقدْوَة الإِمَام أَبُو الْفرج بن الْجَوْزِيّ من أَئِمَّة مذْهبه المبرئِّين من هَذِه الوصمة القبيحة الشَّنيعة ، أنَّ كلَّ مَا نسب إِلَيْهِ من ذَلِك كذب عَلَيْهِ وافتراء وبهتان ، وَأَنَّ نصوصه صَرِيحَة فِي بطلَان ذَلِك ، وتنزيه الله تَعَالَى عَنهُ ، فَاعْلَم ذَلِك فَإِنَّهُ مُهِمّ . وَإِيَّاك أَنْ تُصغي إِلَى مَا فِي كُتُب ابْن تَيْمِية وتلميذه ابْن قيِّم الجوزيَّة وَغَيرهمَا مِمَّن اتَّخذ إلهه هَوَاهُ ، وأضلَّه الله على علم ، وَختم على سَمعه وَقَلبه ، وَجعل على بَصَره غشاوة ... " . انظر : الفتاوى الحديثية (ص١٤٤) .

وقال الإمام أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ) في ترجمة ذُي النُّونِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : " أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَحْمَدَ الْبَغْدَادِيُّ ، - فِي كِتَابِهِ وَقَدْ رَأَيْتُهُ - وَحَدَّثَنِي عَنْهُ عُثْمَانُ بْنُ محمَّد الْعُثْمَانِيُّ ، قَالَ : أَنْشِدْنِي محمَّد بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ هَاشِمٍ لِذِي النُّونِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمِصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا لَا نَفَادَ لَهُ حَمْدًا يَفُوتُ مَدَىٰ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدَدِ
وَيُعْجِزُ اللَّفْظَ وَالْأَوْهَامَ مَبْلَغُهُ حَمْدًا كَثِيرًا كَإِحْصَاءِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ مُذْ خُلِقَتْ وَوَزْنَهُنَّ وَضِعْفُ الضِّعْفِ فِي الْعَدَدِ
وَضِعْفُ مَا كَانَ وَمَا قَدْ يَكُونُ إِلَىٰ بَعْدَ الْقِيَامَةِ أَوْ يَفْنَىٰ مَدَىٰ الْأَبَدِ
وَضِعْفُ مَا دَارَتِ الشَّمْسُ الشُّرُوقَ بِهِ وَمَا اخْتَفَىٰ فِي سَمَاءٍ أَوْ ثَرًىٰ جُرُدِ
وَضِعْفُ أَنْعُمِهِ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ وَكُلِّ نَفْسَةِ نَفْسٍ وَاكْتِسَابِ يَدِ
شُكْرًا لِمَا خَصَّنَا مِنْ فَضْلِ نِعْمَتِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَلَطِيفِ الصُّنْعِ وَالرَّفَدِ
رَبٌّ تَعَالَىٰ فَلَا شَيْءَ يُحِيطُ بِهِ وَهُوَ الْمُحِيطُ بِنَا فِي كُلِّ مُرْتَصَدِ
لَا الْأَيْنَ وَالْحَيْثُ وَالْكَيْفُ يُدْرِكُهُ وَلَا يُحَدُّ بِمِقْدَارٍ وَلَا أَمَدِ
وَكَيْفَ يُدْرِكُهُ حَدٌّ وَلَمْ تَرَهُ عَيْنٌ وَلَيْسَ لَهُ فِي الْمِثْلِ مِنْ أَحَدِ
أَمْ كَيْفَ يَبْلُغُهُ وَهْمٌ بِلَا شَبَهٍ وَقَدْ تَعَالَىٰ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْوَلَدِ
مَنْ أَنْشَأَ قَبْلَ الْكَوْنِ مُبْتَدِعًا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ قَدِيمٍ كَانَ فِي الْأَبَدِ
وَدَهَرَ الدَّهْرَ وَالْأَوْقَاتَ وَاخْتَلَفَتْ بِمَا يَشَاءُ فَلَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدِ
إِذْ لَا سَمَـــــاءٌ وَلَا أَرْضٌ وَلَا شَبَحٌ فِي الْكَوْنِ سُبْحَـــانَهُ مِنْ قَاهِرٍ صَمَدِ

انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٣٨٨) .

وقال الإمام الزجَّاج (٣١١هـ) : " الْعليُّ : هُوَ فعيل فِي معنىٰ فَاعل ، فَالله تَعَالَىٰ عَال علىٰ خلقه ، وَهُوَ عَليّ عَلَيْهِم بقدرته ، وَلَا يجب أَن يذهب بالعلوّ ارْتِفَاع مَكَان ، إِذْ قد بَينَّا أَنَّ ذَلِك لَا يجوز فِي صِفَاته تقدَّست ، وَلَا يجوز أَن يكون علىٰ أَن يتَصَوَّر بذهن أَو يتجلَّىٰ لطرف ، تَعَالَىٰ عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً " . انظر : تفسير أسماء الله الحسنىٰ (ص٤٨) .

وقال الإمام الزجَّاج أيضاً في تفسير اسم الله " الظَّاهِر " : " هُوَ الَّذِي ظهر للعقول بحُجَجِه ، وبراهين وجوده وأدلَّة وحدانيَّته ، هَذَا إِن أَخَذته من الظُّهُور ، وَإِن أَخَذته من قَول الْعَرَب : ظهر فلَان فَوق السَّطح إِذا علا ، وَمن قَول الشَّاعِر : وَتلك شكاة ظَاهر عَنْك عارها ...

فَهُوَ من الْعُلُوّ ، وَالله تَعَالَىٰ عَال علىٰ كلِّ شَيْء ، وَلَيْسَ المُرَاد بالعلو ارْتِفَاع الْمحلّ ، لأَنَّ الله تَعَالَىٰ يجلّ عَن الْمحلِّ وَالْمَكَان ، وإِنَّمَا الْعُلُوّ علوّ الشَّأْن وارتفاع السُّلطان " . انظر : تفسير أسماء الله الحسنىٰ (ص٦٠) .

وقال الإمام الطَّحاوي الحنفي (٣٢١ هـ) في رسالته (العقيدة الطَّحاويَّة) ما نصّه : " وَتَعَالَىٰ عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ " . من متن الطحاوية .

وقال الإمام ابن حبَّان (٣٥٤هـ) : " الحَمد لله الَّذِي لَيْسَ لَهُ حدٌّ مَحْدُود فيحتوىٰ ، وَلَا لَهُ أجل مَعْدُود فيفنىٰ ، وَلَا يُحِيط بِهِ جَوَامِع الْمَكَان ، وَلَا يشْتَمل عَلَيْهِ تَوَاتر الزَّمَان ، وَلَا يدْرك نعْمَته بالشَّواهد والحواس وَلَا يُقَاس صِفَات ذَاته بِالنَّاسِ " . انظر : الثقات (١/ ١) ، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء (١/ ٢١) .

وقال الإمام محمَّد بن حبَّان أيضاً في تعليقه علىٰ لفظة "عَمَاءٍ " التي وردت في الحديث الشَّريف : " ... يُرِيدُ بِهِ أَنَّ الْخَلْقَ لَا يَعْرِفُونَ خَالِقَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ ، إِذْ كَانَ وَلَا زَمَانَ وَلَا مَكَانَ ، وَمَنْ لَمْ يُعْرَفْ لَهُ زَمَانٌ ، وَلَا مَكَانٌ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ ، لِأَنَّهُ خَالِقُهَا ، كَانَ مَعْرِفَةُ الْخَلْقِ إِيَّاهُ كَأَنَّهُ كَانَ فِي عَمَاءٍ عَنْ عِلْمِ الْخَلْقِ ، لَا أَنَّ اللهَّ كَانَ فِي عَمَاءٍ ، إِذْ هَذَا الْوَصْفُ شَبِيهٌ بِأَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ " . انظر : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٨/١٤) .

وقال الإمام ابن حبَّان أيضاً : " ... كَذَلِكَ يَنْزِلُ بِلَا آلَةٍ ، وَلَا تَحَرُّكٍ ، وَلَا انْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ " . انظر : صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٣/ ١٩٩) .

وقال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) : " ... وَالَّذِي رُوِيَ فِي آخِرِ هَذَا الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِ الْمَكَانِ عَنِ اللهَّ تَعَالَى ، وَأَنَّ الْعَبْدَ أَيْنَمَا كَانَ فَهُوَ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنَ اللهَّ تَعَالَى سَوَاءٌ ، وَأَنَّهُ الظَّاهِرُ ، فَيَصِحُّ إِدْرَاكُهُ بِالْأَدِلَّةِ؛ الْبَاطِنُ ، فَلَا يَصِحُّ إِدْرَاكُهُ بِالْكَوْنِ فِي مَكَانٍ . وَاسْتَدَلَّ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فِي نَفْيِ الْمَكَانِ عَنْهُ بِقَوْلِ النَّبي صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ» . وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ " . وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُ شَيْءٌ وَلَا دُونَهُ شَيْءٌ لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ " . انظر : الأسماء والصِّفات للبيهقي (٢/ ٢٨٧) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " ... وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ جِهَتَيِ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ مُحَالٌ عَلَى اللهَّ أَنْ لَا يُوصَفَ بِالْعُلُوِّ ، لأنَّ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى وَالْمُسْتَحِيلُ كَوْنُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْحِسِّ ، وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي صِفَتِهِ : الْعَالِي وَالْعَلِيُّ وَالْمُتَعَالِي ، وَلَمْ يَرِدْ ضِدُّ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ علماً جلَّ وَعزَّ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦/ ١٣٦) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني أيضاً : " قَوْلُهُ : "يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّماء الدُّنْيَا" ، اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ أَثْبَتَ الْجِهَةَ ، وَقَالَ : هِيَ جِهَة الْعُلُوّ ، وَأنكر ذَلِك الْجُمْهُور !!! لأنَّ الْقَوْلَ بِذَلِكَ يُفْضِي إِلَى التَّحَيُّزِ ، تَعَالَى اللهُّ عَنْ ذَلِكَ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣/ ٣٠) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني أيضاً: " ... وَمَعَ ذَلِكَ فَمُعْتَقَدُ سَلَفِ الْأَئِمَّةِ وَعُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الْخَلَفِ أَنَّ اللهَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحَرَكَةِ ، وَالتَّحَوُّلِ ، وَالْحُلُولِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ١٢٤) .

وقال الإمام القسطلاني (٩٢٣ هـ) في تعليقه علىٰ قول السيِّدة زينب بنت جحش : " إنَّ الله – عزَّ وجلَّ – أنكحني به – صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – في السَّماء " : " وذات الله تعالىٰ منزَّهة عن المكان والجهة، فالمراد بقولها : "في السَّماء "

واغترَّ بهَا من لم يرسخ لَهُ فِي التَّعْلِيم قَدَم (٧) ، وَلم يتَعَلَّق بأذيال الْمعرفَة وَلَا كبحه لجام الْفَهم ، وَلَا استبصر بنور الْحِكْمَة ، فَأَحْبَبْت أَن أذكر عقيدة أهل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة ، ثمَّ أبيِّن فَسَاد مَا ذكره ، مَعَ أَنَّه لم يدَّع دَعْوَى إِلَّا نقضهَا ، وَلَا أطَّد قَاعِدَة إِلَّا هدمها (٨) ، ثمَّ أستدلَّ على عقيدة أهل السُّنَّة وَمَا يتَعَلَّق بذلك ، وَهَا أَنا أذكر قبل ذَلِك مُقَدِّمَة يُستضاءُ بهَا فِي هَذَا الْمَكَان ، فَأَقُول وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَان :

الإشارة إلى علو الذَّات والصِّفات ، وليس ذلك باعتبار أنَّ محلَّه تعالى في السَّماء ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا " .

انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٩٣) .

(٧) هو غير القوي في العلم والمعرفة ...

(٨) وهذا أدَّى بابن تيمية إلى الكثير من التَّناقضات ... سواء في الأصول أو الفروع ... وهذه طائفة من التَّناقضات التي وقعت في كُتُب ابن تيمية :

أَوَّلاً : قال ابن تيمية : " ... وَلِذَلِكَ قَالَ أَحْمَدُ فِي مَنْسَكِهِ الَّذِي كَتَبَهُ لِلْمَرْوَزِيِّ صَاحِبِهِ إنَّهُ يَتَوَسَّلُ بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي دُعَائِهِ ، وَلَكِنْ غَيْرُ أَحْمَدَ قَالَ : إنَّ هَذَا إقْسَامٌ عَلَى اللَّهِ بِهِ ، وَلَا يُقْسَمُ عَلَى اللَّهِ بِمَخْلُوقٍ ، وَأَحْمَدَ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ قَدْ جَوَّزَ الْقَسَمَ بِهِ ، فَلِذَلِكَ جَوَّزَ التَّوَسُّلَ بِهِ . انظر : الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٤٢٢) .

وفي موضع آخر أجاز ابن تيمية التَّوسُّل والاستغاثة بالملائكة عليهم السَّلام ، فقال في كتاب سمَّاه : " الكلم الطيِّب " ، والكلام الطيِّب هو الكلام الطيِّب المُستحسن ... فقد نقل عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : إِذَا انْفَلَتَتْ دَابَّةُ أَحَدِكُمْ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَلْيُنَادِ: يَا عِبَادَ اللهِ، احْبِسُوا عَلَيَّ، يَا عِبَادَ الله احْبِسُوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ للهِ فِي الْأَرْضِ حَاضِرًا سَيَحْبِسُهُ عَلَيْكُمْ " . انظر : الكلم الطيِّب (ص١٤٦) .

وفي نفس الكتاب أجاز التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، حيث نَقَلَ عَنِ الْهَيْثَمِ بْنِ حَنَشٍ ، قال : كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَخَدِرَتْ رِجْلُهُ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : " اذْكُرْ أَحَبَّ النَّاس إِلَيْكَ . فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ : فَقَامَ فَكَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ" . انظر : الكلم الطيِّب (ص١٧٣) .

وفي كتابيه :" مجموع الفتاوى " ، " مجموعة الرَّسائل والمسائل " ذكر ابن تيمية حديث توسُّل آدم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحَّحه . قال ابن تيمية : " وَرَوَى أَبُو نُعَيْمٍ الْحَافِظُ فِي كِتَابِ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ : وَمِنْ طَرِيقِ الشَّيْخِ أَبِي الْفَرَجِ حدَّثنا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ رشدين ثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ الفهري ثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إسْمَاعِيلَ الْمَدَنِيّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَمَّا أَصَابَ آدَمَ الْخَطِيئَةَ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ يَا رَبِّ بِحَقِّ محمَّد إلَّا غَفَرْت لِي ، فَأَوْحَى إلَيْهِ وَمَا محمَّد ؟ وَمَنْ محمَّد ؟ فَقَالَ : يَا رَبِّ إنَّك لَمَّا أَتْمَمْت خَلْقِي رَفَعْت رَأْسِي إلَى عَرْشِك فَإِذَا عَلَيْهِ مَكْتُوبٌ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ محمَّد رَسُولُ اللَّهِ فَعَلِمْت أَنَّهُ أَكْرَمُ خَلْقِك

عَلَيْك ؛ إِذْ قَرَنْت اسْمَهُ مَعَ اسْمِك . فَقَالَ : نَعَمْ قَدْ غَفَرْت لَك وَهُوَ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِك وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُك " ، فَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤَيِّدُ الَّذِي قَبْلَهُ وَهُمَا كَالتَّفْسِيرِ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٢/ ١٥٠-١٥١) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ٢٣-٢٤) .

لكنَّه غالط وتناقض مع نفسه في موضع آخر فحكم بتحريم التَّوسُّل بالنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فقال : " وأمَّا الزِّيارة المبتدعة التي هي من جنس زيادة المشركين ، فمقصودهم بها طلب الحوائج من الميِّت أو الغائب " . انظر : الرد علىٰ المنطقيين (ص٥٣٦) .

وقال ابن تيمية أيضاً : " وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ الدُّعَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِهِ ذَكَرُوا الصَّلَاةَ عَلَيْهِ لَمْ يَذْكُرُوا فِيمَا شَرَعَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْحَالِ التَّوَسُّلَ بِهِ كَمَا لَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ دُعَاءَ غَيْرِ اللهِ وَالِاسْتِعَانَةَ الْمُطْلَقَةَ بِغَيْرِهِ فِي حَالٍ مِنْ الْأَحْوَالِ؛ وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ؛ فَإِنَّ دُعَاءَ غَيْرِ اللهِ كُفْرٌ وَلِهَذَا لَمْ يُنْقَلْ دُعَاءُ أَحَدٍ مِنْ الْمَوْتَى وَالْغَائِبِينَ - لَا الْأَنْبِيَاءُ وَلَا غَيْرُهُمْ - عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلف وَأَئِمَّةِ الْعِلْمِ ... " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (١/ ٣٤٦-٣٤٧) ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص٣٠٩) .

وتحريم التَّوسُّل بالأنبياء والصَّالحين ... قول لم يقله أحد قبل ابن تيمية علىٰ ما نقل الإمام السُّبكي في كتابه " شفاء السَّقام " ... فابن تيمية هو أوَّل من قال بتحريم التَّوسُّل ، قال المناوي : " قال السُّبكي : ويحسن التَّوسُّل والاستعانة والتَّشفُّع بالنَّبي إلىٰ ربِّه ، ولم ينكر ذلك أحد من السَّلف ولا من الخلف حتىٰ جاء ابن تيمية فأنكر ذلك ، وعدل عن الصِّراط المستقيم ، وابتدع ما لم يقله عالم قبله ، وصار بين أهل الإسلام مثله ، انتهىٰ . انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (٢/ ١٣٤) .

ثانياً : قال ابن تيمية : " وأمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : لَا يَقُولُ إنَّ كَلَامَ اللهِ حَرْفٌ وَصَوْتٌ قَائِمٌ بِهِ؛ بَلْ هُوَ مَعْنًى قَائِمٌ بِذَاتِهِ : فَلَيْسَ فِي كَلَامِي هَذَا أيضاً وَلَا قُلْته قَطُّ؛ بَلْ قَوْلُ الْقَائِلِ : إنَّ الْقُرْآنَ حَرْفٌ وَصَوْتٌ قَائِمٌ بِهِ بِدْعَةٌ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٦٥)

وفي موضع آخر تناقض مع نفسه في هذه المسألة ، فقال : " وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ صَاحِبِ الصَّحِيحِ فِي كِتَابِ خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمَّةِ قَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ اتِّبَاعُ النُّصُوصِ الثَّابِتَةِ ؟ وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ جَمِيعَهُ كَلَامُ اللهِ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيه لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ كَلَامًا لِغَيْرِهِ وَلَكِنْ أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ وَلَيْسَ الْقُرْآنُ اسْمًا لِمُجَرَّدِ الْمَعْنَىٰ وَلَا لِمُجَرَّدِ الْحَرْفِ بَلْ لِمَجْمُوعِهِمَا، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْكَلَامِ لَيْسَ هُوَ الْحُرُوفَ فَقَطْ وَلَا الْمَعَانِيَ فَقَطْ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُتَكَلِّمَ النَّاطِقَ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ الرُّوح وَلَا مُجَرَّدَ الْجَسَدِ بَلْ مَجْمُوعَهُمَا، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُتَكَلِّمٌ بِصَوْتٍ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَأَصْوَاتِ الْعِبَادِ لَا صَوْتُ الْقَارِئِ وَلَا غَيْرِهِ،

وَأَنَّ اللهَّ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، فَكَمَا لَا يُشْبِهُ عِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ عِلْمَ الْمَخْلُوقِ وَقُدْرَتَهُ وَحَيَاتَهُ فَكَذَلِكَ لَا يُشْبِهُ كَلَامُهُ كَلَامَ الْمَخْلُوقِ وَلَا مَعَانِيهِ تُشْبِهُ مَعَانِيَهُ وَلَا حُرُوفُهُ تُشْبِهُ حُرُوفَهُ وَلَا صَوْتُ الرَّبِّ يُشْبِهُ صَوْتَ الْعَبْدِ فَمَنْ شَبَّهَ اللهَّ بِخَلْقِهِ فَقَدْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ. انظر : الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية (٦/ ٤٦٦-٤٦٧ .

وروىٰ مقرّاً ما ذكره الخلّال من قوله : ... كَمَا رَوَىٰ الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، فِيمَا رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: " لَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ كَلَامَ اللهَّ قَالَ: يَا رَبِّ هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي أَسْمَعُ هُوَ كَلَامُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا مُوسَىٰ، هُوَ كَلَامِي، وإِنَّمَا كَلَّمْتُكَ بِقُوَّةِ عَشَرَةِ آلَافِ لِسَانٍ، وَلِي قُوَّةُ الْأَلْسُنِ كُلِّهَا، وَأَنَا أَقْوَىٰ مِنْ ذَلِكَ، وإِنَّمَا كَلَّمْتُكَ عَلَىٰ قَدْرِ مَا يُطِيقُ بَدَنُكَ، وَلَوْ كَلَّمْتُكَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا لَمِتَّ، فَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ قَالُوا لَهُ: صِفْ لَنَا كَلَامَ رَبِّكَ. فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهَّ، وَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: فَشَبِّهْهُ لَنَا. قَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ أَصْوَاتَ الصَّوَاعِقِ الَّتِي تُقْبِلُ فِي أَحْلَىٰ حَلَاوَةٍ سَمِعْتُمُوهَا، فَكَأَنَّهُ مِثْلُهُ ". انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ١١) .

ثَالِثاً : قال ابن تيمية : " وإن كان كذلك فاسم المشبِّهة ليس له ذكر بذمٍّ في الكتاب والسُّنَّة ، ولا كلام أحد من الصَّحابة والتَّابعين ... انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٣٨٧) .

ثمَّ عاد ابن تيمية وتناقض مع نفسه ، فقال : " إِذْ لَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ اللهَّ تَعَالَىٰ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ؛ بَلْ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ يُكَفِّرُونَ الْمُشَبِّهَةَ وَالْمُجَسِّمَةَ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٥٦) ، الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله (مطبوع ضمن الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ) (ص٤) .

رَابِعَاً : أثبت رؤية العين لله ، فقال :" وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه رآه وأخبر أنَّه رآه في صورة شاب ، دونه ستر وقدميه في خضرة ، وأنَّ هذه الرُّؤية هي المعارضة بالآية والمجاب عنها بما تقدَّم ، فيقتضي أنَّها رؤية عين ، **كما في الحديث الصَّحيح المرفوع !!!** عن قتادة عن عكرمة عن ابن عَبَّاس ، قال : قال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " رأيت ربِّي في صورة شاب أمرد ، له وفرة ، جعد قطط ، في روضة خضراء . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٧/ ٢٩٠) .

ثمَّ عاد وتناقض مع نفسه ، فقال : " وَكُلُّ مَنْ قَالَ مِنْ الْعِبَادِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَوْ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنَّهُ رَأَىٰ رَبَّهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ ، فَهُوَ غالط فِي ذَلِكَ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٩٠) .

خَامِسَاً : قال ابن تيمية : " أَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : يُطْلَبُ مِنْهُ أَنْ يَعْتَقِدَ نَفْيَ الْجِهَةِ عَنْ اللهَّ وَالتَّحَيُّزِ : فَلَيْسَ فِي كَلَامِي إثْبَاتُ هَذَا اللَّفْظِ لأنَّ إطْلَاقَ هَذَا اللَّفْظِ نَفْيًا بِدْعَةٌ وَأَنَا لَمْ أَقُلْ إلَّا مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٦٤) .

ولكنَّه متناقض مع نفسه في هذه المسألة ... فقد قال في " بيان تلبيس الجهميَّة " : " وعلىٰ كلِّ تقدير فيجب أن يكون ما ليس بمتحيِّز إذا كان قائماً بنفسه أن لا يكون مانعاً لغيره أن يداخله، وهذا باطل قطعاً ، وإذا كانت القلوب تعلم بالضَّرورة أَّن القائم بنفسه مانع لغيره من المداخلة ، وهذا الحكم مختصٌّ بالمتحيِّز ، علم أنَّهَا لا تعلم قائماً بنفسه إلَّا المتحيِّز . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (١/ ٣٣٨) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٨٠) .

وقال أيضاً : " ... ومن قيل له هل تعقل شيئًا قائمًا بنفسه ليس في محلّ ، وهو مع هذا ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا متحيِّز ، ومع هذا أنَّه لا يجوز أن يكون فوق غيره ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا أمامه ولا وراءه ، وأنَّه لا يكون مجامعًا له ، ولا مفارقًا له ، ولا قريبًا منه ، ولا بعيدًا عنه، ولا متَّصلاً به ، ولا منفصلاً عنه ، ولا مماسًا له ، ولا محايثًا له ، وأنَّه لايُشار إليه بأنَّه هنا أو هناك ، ولا يُشار إلىٰ شيء منه دون شيء ، ونحو ذلك من الأوصاف السَّلبيَّة التي يجب أن يوصف بها ما يقال إنَّه ليس بجسم ولا متحيِّز لقال حاكمًا بصريح عقله هذه صفة المعدوم لا الموجود . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٢/ ٣٦٥) ، وانظر : (٤/ ١١٠) ، (٤/ ٣٨٩) ، (٤/ ٦٢٣) .

وقال أيضاً : " ولا يُعرفُ عن أحد من السَّلف وأئمَّة الإسلام المعروفين أنَّه قال : إنَّ الله تعالىٰ جسم أو جوهر أو متحيِّز ، ولا قال : إنَّه ليس بجسم ولا جوهر ولا متحيِّز ، ولا قال : هو في جهة ، ولا ليس في جهة ، فهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً لا توجد في القرآن والحديث ولا يوجد نفيها . انظر : بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ٥٤٠) .

سَادِسَاً : قال ابن تيمية : " أَمَّا " كُتُبُ الْمَنْطِقِ " فَتِلْكَ لَا تَشْتَمِلُ عَلَىٰ عِلْمٍ يُؤْمَرُ بِهِ شَرْعًا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَدَّىٰ اجْتِهَادُ بَعْضِ النَّاس إلَىٰ أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَىٰ الْكِفَايَةِ ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاس : إنَّ الْعُلُومَ لَا تَقُومُ إلَّا بِهِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ، فَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ عَقْلًا وَشَرْعًا . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٦٩) .

ثمَّ تناقض مع نفسه فامتدح دليل البرهان المنطقي ، فقال " أَمَّا " الْبُرْهَانُ " فَصُورَتُهُ صُورَةٌ صَحِيحَةٌ وَإِذَا كَانَتْ مَوَادُّهُ صَحِيحَةً ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يُفِيدُ عِلْمًا صَحِيحًا " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٩/ ٢٦٠) .

سَابِعَاً : سُئِلَ ابن تيمية عَن " الْخَضِرِ " وَ " إلْيَاسَ " : هَلْ هُمَا مُعَمَّرَانِ؟ بَيِّنُوا لَنَا رَحِمَكُمْ اللهُ تَعَالَىٰ .

فَأَجَابَ : إنَّهُمَا لَيْسَا فِي الْأَحْيَاءِ؛ وَلَا مُعَمَّرَانِ ؛ وَقَدْ سَأَلَ إبْرَاهِيمُ الْحَرْبِيُّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ عَنْ تَعْمِيرِ الْخَضِرِ وَإِلْيَاسَ وَأَنَّهُمَا بَاقِيَانِ يَرَيَانِ وَيُرْوَىٰ عَنْهُمَا فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : مَنْ أَحَالَ عَلَىٰ غَائِبٍ لَمْ يُنْصِفْ مِنْهُ؛ وَمَا أَلْقَىٰ هَذَا إلَّا شَيْطَانٌ . وَسُئِلَ " الْبُخَارِيُّ " عَنْ الْخَضِرِ وَإِلْيَاسَ : هَلْ هُمَا فِي الْأَحْيَاءِ؟ فَقَالَ : كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَقَدْ قَالَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ "؟ وَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤] ، وَلَيْسَ هُمَا فِي الْأَحْيَاءِ وَاَللهُ أَعْلَمُ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٣٣٧) .

ثمَّ تناقض مع نفسه ...هَلْ كَانَ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلام نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا؟ وَهَلْ هُوَ حَيٌّ إلَى الْآنَ؟ وَإِنْ كَانَ حَيًّا فَمَا تَقُولُونَ فِيمَا رُوِيَ عَنْ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " لَوْ كَانَ حَيًّا لَزَارَنِي " هَلْ هَذَا الْحَدِيثُ صَحِيحٌ أَمْ لَا؟

فَأَجَابَ : ... وأَمَّا حَيَاتُهُ : فَهُوَ حَيٌّ . وَالْحَدِيثُ الْمَذْكُورُ لَا أَصْلَ لَهُ ، وَلَا يُعْرَفُ لَهُ إسْنَادٌ ، بَلْ الْمَرْوِيُّ فِي مُسْنَدِ الشَّافعي وَغَيْرِهِ : أَنَّهُ اجْتَمَعَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ قَالَ إنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ قَالَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يُحَاطُ بِهِ . وَمَنْ احْتَجَّ عَلَى وَفَاتِهِ بِقَوْلِ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَرَأَيْتُكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّهُ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ لَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِمَّنْ هُوَ عَلَيْهَا الْيَوْمَ أَحَدٌ " ، فَلَا حُجَّةَ فِيهِ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْخَضِرُ إذْ ذَاكَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . وَلِأَنَّ الدَّجَّالَ – وَكَذَلِكَ الْجَسَّاسَةُ – الصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ حَيًّا مَوْجُودًا عَلَى عَهْدِ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بَاقٍ إلَى الْيَوْمِ لَمْ يَخْرُجْ وَكَانَ فِي جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ . فَمَا كَانَ مِنْ الْجَوَابِ عَنْهُ كَانَ هُوَ الْجَوَابَ عَنْ الْخَضِرِ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ الْأَرْضِ لَمْ يَدْخُلْ فِي هَذَا الْخَبَرِ أَوْ يَكُونُ أَرَادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآدَمِيِّينَ الْمَعْرُوفِينَ ، وأَمَّا مَنْ خَرَجَ عَنْ الْعَادَةِ فَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ ، كَمَا لَمْ تَدْخُلْ الْجِنُّ ، وَإِنْ كَانَ لَفْظًا يَنْتَظِمُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ . وَتَخْصِيصُ مِثْلِ هَذَا مِنْ مِثْلِ هَذَا الْعُمُومِ كَثِيرٌ مُعْتَادٌ . وَاَللهُ أَعْلَمُ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/٣٣٨-٣٤٠ باختصار) .

ثَامِناً : قال ابن تيمية : "... وأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : لَا يُشَارُ إلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ إشَارَةً حِسِّيَّةً ، فَلَيْسَ هَذَا اللَّفْظُ فِي كَلَامِي . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٦٥)

وقد تناقض مع نفسه في هذه المسألة ، فقال : " وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَطُّ إنَّ اللهَّ لَيْسَ فِي السَّماء ، وَلَا إنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْعَرْشِ ، وَلَا إنَّهُ بِذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَلَا إنَّ جَمِيعَ الْأَمْكِنَةِ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ سَوَاءٌ ، وَلَا إنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ ، وَلَا إنَّهُ لَا مُتَّصِلٌ وَلَا مُنْفَصِلٌ ، وَلَا إنَّهُ لَا تَجُوزُ الْإِشَارَةُ الْحِسِّيَّةُ إلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ وَنَحْوِهَا؛ بَلْ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ أَنَّ النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا خَطَبَ خُطْبَتَهُ الْعَظِيمَةَ يَوْمَ عَرَفَاتٍ فِي أَعْظَمِ مَجْمَعٍ حَضَرَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَقُولُ : أَلَا هَلْ بَلَّغْت؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ . فَيَرْفَعُ إصْبَعَهُ إلَى السَّماء ثُمَّ يَنْكُبُهَا إلَيْهِمْ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ اشْهَدْ غَيْرَ مَرَّةٍ . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٥) ، الفتوىٰ الحموية (ص٢٢٠-٢٢١) .

(٩) قال الإمام الكوثري في تكملة الرَّد علىٰ نونيَّة ابن القيِّم (ص١٤-١٥) في كلامه علىٰ الحشَويَّة : "وسبب تسميتهم حشَويَّة أنَّ طائفة منهم حضروا مجلس الحسن البصري بالبصرة ، وتكلَّموا بالسَّقط عنده ، فقال : رُدُّوا هؤلاء إلىٰ حشَا الحلقة – أي جانبها– فتسامع النَّاس ذلك وسمُّوهم الحشَويَّة ، بفتح الشِّين ، ويصحُّ إسكانها لقولهم بالتَّجسيم ، لأنَّ التَّجسيم محشو – والحشَويَّة هم الذين حادوا عن التَّنْزِيْه ، وتقوَّلوا في الله بأفهامهم المعوجَّة وأوهامهم

فِي إِثْبَات الجْهَة مَذْهَب واه سَاقِط يظْهر فَسَاده من مُجَرَّد تصَوّره ، حَتَّى قَالَت الْأَئِمَّة : لَوْلَا اغترار الْعَامَّة بهم لما صرف إِلَيْهِم عنان الْفِكر وَلَا قطر الْقَلَم فِي الرَّدّ عَلَيْهِم (١٠) ، وهم فريقان : فريق لَا يتحاشى فِي إِظْهَار

المجموجة ، وهم مهما تظاهروا باتباع السَّلف إنَّما يتبعون السَّلف الطَّالح دون السَّلف الصَّالح ، ولا سبيل إلى استنكار ما كان عليه السَّلف الصَّالح من إجراء ما ورد في الكتاب والسُّنَّة المشهورة في صفات الله سبحانه على اللسان ، مع القول بتنزيه الله سبحانه تنزيهاً عامَّاً بموجب قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، بدون خوض في المعنى ، ولا زيادة على الوارد ، ولا إبدال ما ورد بما لم يرد ، وفي ذلك تأويل إجمالي بصرف الوارد في ذات الله سبحانه عن سمات الحدوث من غير تعيين المراد ، وهم لم يخالفوا في أصل التَّنْزِيه الخلف الذين يعيّنون معنى موافقاً للتَّنزيه ، بما يرشد إليه استعمالات العرب وأدلَّة المقام وقرائن الحال ، على أنَّ الخلف يفوِّضون علم ما لم لظهر لهم وجهه كوضح الصُّبح إلى الله سبحانه .

فالخلاف بين الفريقين هيِّن يسير وكلاهما منزِّه ، وإنَّما السَّبيل على الذين يحملون تلك الألفاظ على المعاني المتعارفة بينهم عند إطلاقها على الخلف ، ويستبدلون بها ألفاظاً يظنُّونها مرادفة ، ويستدُّلون بالمفاريد والمناكير والشَّواذ والموضوعات من الرِّوايات ، ويزيدون في الكتاب والسُّنَّة أشياء من عند أنفسهم ، ويجعلون الفعل الوارد صفة إلى نحو ذلك . فهؤلاء يلزمون مقتضى كلامهم وهم الحشويَّة . فمن قال أنَّه استقرَّ بذاته على العرش ، وينزل بذاته من العرش ، ويقعد الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش معه في جنبه ، وإنَّ كلامه القائم بذاته صوت ، وإنَّ نزوله بالحركة والنُّقلة وبالذَّات ، وإنَّ له ثقلاً يثقل على حملة العرش ، وأنَّه متمكِّن بالسَّماء أو العرش أو أحداً من خلقه ، ونحو ذلك من المخازي ... فلا نشكُّ في زَيْغه وخروجه وبُعده عمَّا يجوز في الله سبحانه . وهذا مكشوف جَّداً ، فلا يمكن ستر مثل تلك المخازي بدعوى السَّلفيَّة ، والذين يدينون بها هم الذين نستنكر عقائدهم ونستسخفُّ أحلامهم ، ونذكرهم بأنَّهم نوابت حشويَّة" .

وقال الإمام السُّبكي في ردِّه على النُّونيَّة (ص١٦) : "وأمَّا الحشَويَّة فهي طائفة رذيلة ، جهَّال ينتسبون إلى أحمد ، وأحمد مبرَّأ منهم !!! وسبب نسبتهم إليه أنَّه قام في دفع المعتزلة وثبت في المحنة رضي الله عنه ، نقلت عنه كليمات ما فهمها هؤلاء الجُهّال ، فاعتقدوا هذا الاعتقاد السَّيء ، وصار المتأخِّر منهم يتبع المتقدِّم إلَّا من عصمه الله ، وما زالوا من حين نبغوا مستذلين ، ليس لهم رأس ولا من يناظر ، وإنَّما كانت لهم في كلِّ وقت ثورات ، ويتعلَّقون ببعض أتباع الدُّول ويكفي الله شرَّهم ، وما تعلَّقوا بأحد إلَّا كانت عاقبته إلى سوء ..." .

(١٠) قال الإمام الزَّبيدي : " وقد نبغت نابغة من الرّعاع لولا استزلالهم للعوام بما يقرب من أفهامهم ويتصوَّر في أوهامهم لأجللت هذا المكتوب عن تلطيخه بذكرهم ، يقولون : نحن نأخذ بالظَّاهر ونجرى الآيات الموهمة تشبيهاً

الحشو ﴿وَيَحْسبُونَ أَنهم على شَيْء أَلَا إِنَّهُم هم الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨] ، وفريق يتستَّر بِمذهب السَّلف [11] لِسُحت يَأْكُلهُ

والأخبار المقتضية حدَّاً وعضواً على الظَّاهر ، ولا يجوز أن نطرق التَّأويل إلى شيء من ذلك ـ ويتمسَّكون بقول الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأوِيْلَهُ إِلَّا الله﴾ [آل عمران:٧] ، وهؤلاء والذي أرواحنا بيده أضرّ على الاسلام من اليهود والنَّصارى والمجوس وعبدة الأوثان !!! لأنَّ ضلالات الكفَّار ظاهرة يتجنَّبها المسلمون ، وهؤلاء أتوا الدِّين والعوام من طريق يغترُّ به المستضعفون ، فأوحوا إلى أوليائهم بهذه البدع ، وأحلُّوا في قلوبهم وصف المعبود سبحانه بالأعضاء والجوارح والرُّكوب والنُّزول والاتِّكاء والاستلقاء والاستواء بالذَّات والتَّردد في الجهات ، فمن أصغى إلى ظاهرهم يبادر بوهمه إلى تخيُّل المحسوسات ، فاعتقد الفضائح فسال به السَّيل وهو لا يدري " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ١٠٨) .

وقال الإمام ابن العربي : " فينبغي أن تعلموا أنَّ هذه الطَّائفة ؛ في حفظ ظاهر هذه الأخبار ؛ لا يقال : أنَّهَا بنت قصراً ، أو هدمت مِصراً ؛ بل هدمت الكعبة واستوطنت البيعة ، وحذار أن تنشؤوا معهم دليلاٍ ، ولا تستأنفوا معهم من الكلام نقيراً ولا فتيلاً ، فليسوا لذلك أهلاً ، ولا ينجع فيهم أن ينشر ذلك معهم ، إلَّا أن تدخل إليهم من بابهم ، وهو أيسر طريق إليهم في الكشف لضلالهم ولا تلتزم معهم مذهباً إلَّا أن تبطل رأيهم " . انظر : العواصم من القواصم (ص٢١٣) .

[11] يتبجَّح أدعياء السَّلفيَّة بأنَّهم متابعون مُتَّبعون لمنهج السَّلف الصَّالح ، وهي فِرْية بلا مِرْية ، بل الحقّ أنَّهم جنحوا وابتعدوا كثيراً وكثيراً جداً عن منهج السَّلف الصَّالح ، وجعلوا من كلام ابن تيمية وبقيَّة مشايخهم مقياساً قاسوا به أفكار وعقائد النَّاس ... فإن وافقت منهج ابن تيمية وغيره من أئمَّتهم كانت أفكاراً سلفيَّة ، وإلَّا كانت جهميَّة وبدعيَّة وضلالة وإلحاداً في دين الله تعالى ...

والغريب في الأمر أنَّهم يدندنون بما يسَّمى فهم السَّلف ، فيقولون : يجب أن نفهم الكتاب والسُّنَّة بفهم السَّلف !!! وهذه شنشنة نعرفها من أخزم ، فكلامهم هذا ينطوي على العديد من المغالطات ، منها :

أَوَّلَاً : أنَّه تضييق وحجر على العقول ... فقد ضيَّقوا واسعاً حين صرَّحوا بتجميد العقول ومنعوها من التَّفكير الذي هو عبادة من أعظم العبادات ...

ثَانِيَاً : أنَّ دعوتهم لفهم المسائل وسائر القضايا بفهم السَّلف تتعارض مع منطوق قول الله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهَّ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء :٥٩] ، والآية نصٌّ صريح في وجوب الرَّد إلى الله والرَّسول فقط عند

التَّنازع ، ولا وجود للسَّلف أو العلماء في هذا الباب ، فلم يقل الحقُّ تعالىٰ : " وأطيعوا أُولي الأمر " لنفهم أنَّ أولي الأمر – وهم العلماء –لا طاعة لهم إلَّا من باطن الطَّاعتين : طاعة الله وطاعة الرَّسول ... " . انظر : تفسير الشعراوي (٤/ ٢٣٥٨)

والذين يعرفون الأحكام في كلِّ زمان ومكان هم العلماء أصحاب الشَّأن ، فإن حدث تنازع في أمر ما ، وجب علينا أن نهرع إليهم ليبيِّنوا لنا حكم الشَّرع فيه ، فهم ورثة الأنبياء ... ولم يأمر القرآن بفهم الأمور بفهم السَّلف ، مع العلم أنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال فيما رواه عنه أبو جُحَيْفَةَ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ : هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ ؟ قَالَ : " لاَ ، إِلَّا كِتَابُ اللهِّ ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ ... " . أخرجه البخاري (١/ ٣٣ برقم ١١١) .

والأثر لا يحصر الفهم بالسَّلف ، بل هو عام لكلِّ زمان ومكان ...

ثَالِثَاً : أنَّ السَّلف رضوان الله عليهم اختلفوا في العديد من فروع العقيدة ، على ما سنبيِّنه لاحقاً ...

فالحقُّ أنَّ السَّلفية فترة زمنيَّة مباركة تنتهي في العام العاشر بعد المائة الثَّالثة من هجرة الحبيب صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ومرجع ذلك إلىٰ ما رواه الشَّيخان بسندهما إلىٰ عَبْدِ اللهِّ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ، عَنِ النَّبِي صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ» قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَىٰ الشَّهَادَةِ، وَالعَهْدِ». أخرجه البخاري (٣/ ١٧١ برقم ٢٦٥٢) ، مسلم (٤/ ١٩٦٣برقم ٢٥٣٣) .

ومن المعروف أنَّ القرن الأَوَّل ينتهي بموت آخر صحابي ، وهو أبو الطُّفيل عامر بن واثلة ، وذلك في العام العاشر بعد المائة الأولىٰ . ولَمَّا كان القَرن مائة عام ، إذن ففترة قرون الخيريَّة تنتهي في العام العاشر بعد المائة الثَّالثة ...

"وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ سبب هذه الخيريَّة لأهل تلك القرون الثَّلاثة من المسلمين ، أنَّهم يمثِّلون الحلقات القريبة الأولىٰ من السِّلسلة الموصولة بينبوع النُّبوَّة وتعاليم الرِّسالة ، فالحلقة الأولىٰ منها مظهر لذلك الرَّعيل الأَوَّل الذي تلقَّىٰ عقائد الإسلام ومبادئه من رسول الله صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة ، واستقرَّت أحكامه وآدابه الرَّبانيَّة في عقولهم وأفئدتهم صافية عن شوائب الابتداع وكدورات الوساوس والأوهام .

والحلقة الثَّانية منها تمثِّل التَّابعين الذين غمرهم ضياء النُّبوَّة باتِّباعهم لأصحاب رسول الله صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاهتداء بهديهم ، والنَّيل من إشراقاتهم التي اكتسبوها من رؤية رسول الله صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومجالسته والتَّأثُّر بوصاياه ونصائحه .

أمَّا الحلقة الثَّالثة ، وهي التي تمثِّل تابعي التَّابعين ، فقد كانت إيذاناً بنهاية مرحلة الصَّفاء الفكري ، وخلوص الفِطرة الإسلاميَّة من الشَّوائب الدَّخيلة . حيث بدأ في هذا الوقت ظهور البدع ظهوراً فاشياً ، وتتابعت الفِرق الضَّالَّة تشذُّ

عن صراط تلك العصور الثَّلاثة ، كلُّ فرقة تشقُّ لنفسها عن ذلك الصِّراط العريض سبيلاً متعرِّجة تقف علىٰ فمه وتدعو إليه مخالفة بذلك قول الله عزَّ وجلَّ : **﴿وَأَنَّ هَذَا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [الأنعام : ١٥٣] .

وظلَّت رياح الأهواء والبدع والضَّلالات ، تتكاثر وتتَّسع ، بعد ذلك ، من عصر إلىٰ عصر ، إلىٰ يومنا هذا ، مصداقه قول رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيما رواه الشَّيخان عن أنس بن مالك : " ... لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّىٰ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ " . أخرجه البخاري (٩/ ٤٩ برقم ٧٠٦٨) .

ولكن ، فما الذي تدعونا إليه هذه الحقيقة التي لا ريب فيها؟ أنَّها تدعونا إلىٰ أن نربط عقولنا وسلوكنا برابطة الولاء للسَّلف والاقتداء بهم ، والانضباط بقواعد فهمهم للنُّصوص ، والتَّقيُّد بكلِّ ما اتَّفق عليه جميعهم أو جلّهم من المبادئ الاعتقاديَّة والأحكام السُّلوكيَّة ، ونبذ كلّ ما يخالف ذلك ممَّا ابتدعه المضلِّلون أو الجاهلون ...

إنَّ إتِّباع السَّلف لا يكون بالانحباس في حرفيَّة الكلمات التي نطقوا بها أو المواقف الجزئيَّة التي اتَّخذوها ، لأنَّهم هم أنفسهم لم يفعلوا ذلك . وإنَّما يكون بالرُّجوع إلىٰ ما احتكموا إليه من قواعد تفسير النُّصوص وتأويلها ، وأصول الاجتهاد والنَّظر في المبادئ والأحكام ..." . انظر السلفية للبوطي (ص١٠-١٢) باختصار .

إنَّ مثل هذا الفهم التَّجهيلي الهابط لا يؤدِّي إلَّا إلىٰ التَّجهيل وتعطيل العقول ، لأنَّ مؤدَّىٰ مثل هذه الدَّعوىٰ يقول لنا : جمِّدوا عقولكم ولا تفكِّروا بها ، لأنَّ السَّلف قد فكَّروا لكم وأغنوكم عن عناء التَّفكير ، مع أنَّه لا يوجد في كتاب الله تعالىٰ ولا سُنَّة الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ولا أقوال السَّلف أنفسهم ما يفيد تجميد العقول وتعطيلها ...

وممَّا يقطع الشَّغب في هذه المسالة قوله تعالىٰ : **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾** [النساء : ٨٣] . كما أنَّ الله تعالىٰ يخاطبنا ويأمرنا إن نحن تنازعنا في شيء أن نردَّ ذلك المتنازع فيه إلىٰ الله والرَّسول ، قال تعالىٰ : **﴿فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** [النساء : ٥٩] . ولم يقل ردُّوه إلىٰ فهم السَّلف ...

جاء في دفع شُبه التَّشبيه (ص١١١) : "وقد سُئل الإمام أحمد عن مسألة فأفتىٰ فيها ، فقيل له : هذا لا يقول به ابن المبارك فقال : ابن المبارك لم ينزل من السَّماء" .

وعلاوة علىٰ ما قدَّمنا ، فإنَّ النَّاظر فيما كان عليه السَّلف يجد أنَّهم قد اختلفوا في العديد العديد من مسائل العقيدة "وها نحن ذا نذكر نماذج من اختلاف السَّلف في بعض المسائل العقائديَّة ، فنقول :

المِثَالُ الأَوَّل : اختلافهم في مسألة خلق القرآن ...وهي إحدىٰ المسائل التي اختلف فيها السَّلف الصَّالح ، ورمىٰ بعضهم بعضاً بشأنها بالضَّلال والبدعة وعظائم الأمور ، مع العلم أنَّ الباحث المستقرئ لما كان عليه الأوَّلون ، يجد

أنّهم لم يتطرَّقوا لمسألة اللفظ ، اللهمَّ إلَّا ما نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه ، والذي أشار إلى ذلك بقوله : "ما قام بالله تعالى غير مخلوق ، وما قام بالخلق مخلوق ...

واستمرَّ الحال على ذلك إلى أن جاء الإمام الحسين بن علي الكرابيسي (٢٤٥هـ) ، وكان كما قال الذَّهبي في السِّير (١٢/ ٨٠) : "من بحور العلم ، ذكيَّاً فَطِناً فَصيحاً لسِناً ، تَصانيفه في الفروع والأصول تدلُّ على تبحُّره" .

وقد أشار الذَّهبي في السِّير (١٢/ ٨٠-٨١) إلى أنَّ الكرابيسي هو أوَّل من فتق اللفظ ، وقال : " قال حسين في القرآن : لفظي به مخلوق ، فبلغ قوله أحمد فأنكره ، وقال : هذه بدعة ، فأوضح حسين المسألة ، وقال تلفُّظك بالقرآن يعني : غير الملفوظ" .

وتابع الكرابيسي في مقالته هذه العديد من الأئمَّة ، قال الإمام ابن عبد البر في كتابه : "الانتقاء" (ص١٦٥) : أثناء كلامه عمَّن أخذ عن الشَّافعي علمه : "وكانت بينه –أي الكرابيسي– وبين أحمد بن حنبل صداقة وكيدة ، فلمَّا خالفه في القرآن ، عادت تلك الصَّداقة عداوة ، فكان كلٌّ واحد منهما يطعن على صاحبه ، وذلك أنَّ أحمد بن حنبل كان يقول : من قال : القرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : القرآن كلام الله ، ولا يقول : غير مخلوق ولا مخلوق ، فهو واقفي ، ومن قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع .

وكان الكرابيسي ، وعبد الله بن كُلَّاب ، وأبو ثور ، وداود بن علي ، وطبقاتهم يقولون : إَّن الذي تكلَّم الله به صفة من صفاته ، ولا يجوز عليه الخلق ، وإنَّ تلاوة التَّالي وكلامه بالقرآن الذي تكلَّم إليه به كسب له وفعل له ، وذلك مخلوق ، وأنَّه حكاية عن كلام الله ، وليس هو القرآن الذي تكلَّم الله به وشبَّهوه بالحمد والشُّكر لله ، وهو غير الله ، فكما يؤجر في الحمد والشُّكر والتَّهليل والتَّكبير ، فكذلك يؤجر في التِّلاوة" .

وقال الإمام السُّبكي في" طبقات الشَّافعيَّة الكبرى" (٢/ ١١٩) : " ومقالة الْحُسَيْن هَذِه قد نُقل مثلهَا عَن البخاري ، والْحَارث بن أَسد المحاسبي ، وَمُحَمّد بن نصر المروزى ، وَغَيرهم " .

وقال الذَّهبي في السِّير (١٢/ ٨١-٨٢ باختصار) : " قَالَ حُسَيْنٌ فِي القُرْآنِ: لَفْظِي بِهِ مَخْلُوْقٌ، فَبَلَغَ قَوْلُهُ أَحْمَدَ، فَأَنْكَرَهُ، وَقَالَ: هَذِهِ بِدْعَةٌ.

فَأَوْضَحَ حُسَيْنٌ المَسْأَلَةَ، وَقَالَ: تَلَفُّظُكَ بِالقُرْآنِ -يَعْنِي: غَيْرَ المَلْفُوْظِ-.

وَقَالَ فِي أَحْمَدَ: أَيُّ شَيْءٍ نَعْمَلُ بِهَذَا الصَّبِيِّ؟ إِنْ قُلْنَا: مَخْلُوْقٌ، قَالَ: بِدْعَةٌ، وَإِنْ قُلْنَا: غَيْرُ مَخْلُوْقٍ، قَالَ: بِدْعَةٌ.

فَغَضِبَ لأَحْمَدَ أَصْحَابُهُ، وَنَالُوا مِنْ حُسَيْنٍ ... وَلاَ رَيْبَ أَنَّ مَا ابْتَدَعَهُ الكَرَابِيْسِيُّ، وَحَرَّرَهُ فِي مَسْأَلَةِ التَّلَفُّظِ، وَأَنَّهُ مَخْلُوْقٌ هُوَ حَقٌّ، لَكِنْ أَبَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ، لِئَلاَّ يُتَذَرَّعَ بِهِ إِلَى القَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ، فَسُدَّ البَابُ؛ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَفْرِزَ التَّلَفُّظَ مِنَ المَلْفُوْظِ الَّذِي هُوَ كَلاَمُ اللهِ إِلاَّ فِي ذِهْنِكَ" .

ثمَّ قال الذَّهبي في السِّير (١١/ ٢٩٠) : " فقد كَانَ هَذَا الإِمَامُ لاَ يَرَىٰ الخَوضَ فِي هَذَا البَحثِ؛ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَتَذرَّعَ بِهِ إِلَىٰ القَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ، وَالكَفُّ عَنْ هَذَا أَوْلَىٰ، آمَنَّا بِاللهِ -تَعَالَىٰ- وَبِمَلاَئِكَتِهِ، وَبكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَأَقْدَارِهِ، وَالبَعْثِ وَالعَرضِ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ.

وَلَوْ بُسِطَ هَذَا السَّطرُ، وَحُرِّر وقُرِّرَ فِيْهَا بِأَدِلَّتِهِ، لَجَاءَ فِي خَمْسِ مُجَلَّدَاتٍ، بَلْ ذَلِكَ مَوْجُوْدٌ مَشروحٌ لِمَنْ رَامَهُ، وَالقُرْآنُ فِيْهِ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنينَ، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ التَّلَفُّظَ شَيْءٌ مِنْ كَسبِ القَارِئِ غَيْرِ المَلْفُوْظِ، وَالقِرَاءةُ غَيْرُ الشَّيء المَقرُوءِ، وَالتِّلاَوَةُ وَحُسنُهَا وَتَجويدُهَا غَيْرُ المَتْلُوِّ، وَصَوتُ القَارِئِ مِنْ كَسبِهِ فَهُوَ يُحْدِثُ التَّلفُّظَ وَالصَّوتَ وَالحَرَكَةَ وَالنُّطقَ، وَإِخْرَاجَ الكَلِمَاتِ مِنْ أَدَوَاتِهِ المَخْلُوْقَةِ، وَلَمْ يُحْدِثْ كَلِمَاتِ القُرْآنَ، وَلاَ تَرْتِيْبَهُ، وَلاَ تَأْلِيفَهُ، وَلاَ مَعَانيهِ" .

فقد كان هذا الإمام -أي أحمد- لا يرىٰ الخوض في هذا البحث خوفاً من أن يتذرَّع به إلىٰ القول بخلق القرآن ، والكفّ عن هذا أولىٰ ...

قال الذَّهبي في السِّير (١٢/ ٥٧٢) : " ... كَانَ مُسْلِم بن الحَجَّاجِ يُظْهِر القَوْل بِاللَّفْظ، وَلاَ يَكْتُمهُ، فَلَمَّا اسْتوطن البُخَارِيّ نَيْسَابُوْر أَكْثَر مُسْلِم الاخْتِلاَف إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَقَعَ بَيْنَ البُخَارِيّ وَالذُّهْلِيّ مَا وَقَعَ فِي مَسْأَلَة اللَّفْظ، وَنَادَىٰ عَلَيْهِ، وَمنع النَّاس مِنَ الاخْتِلاَف إِلَيْهِ، حَتَّىٰ هُجِر، وَسَافَرَ مِنْ نَيْسَابُوْر، قَالَ: فَقطعه أَكْثَر النَّاس غَيْر مُسْلِم.

فَبلغ مُحَمَّد بن يَحْيَىٰ، فَقَالَ يَوْماً: أَلاَ مَنْ قَالَ بِاللَّفْظ فَلاَ يحلّ لَهُ أَنْ يحضر مَجْلِسنَا.

فَأَخَذَ مُسْلِم رِدَاءهُ فَوْقَ عِمَامَته، وَقَامَ عَلَىٰ رُؤُوْس النَّاس.

ثُمَّ بعثَ إِلَيْهِ بِمَا كتب عَنْهُ عَلَىٰ ظَهر جمَّال.

قَالَ: وَكَانَ مُسْلِم يُظْهِر القَوْل بِاللَّفْظ وَلاَ يَكْتُمهُ" .

ويطيب لي هنا أن أثبت فتوىٰ الإمام العز بن عبد السَّلام في هذا الشَّأن كما جاءت في رسالته "المِلحةُ في الاعتقاد" (ص١٩-٢١) ، قال : "فكيف يُظنُّ بأحمد بن حنبل وغيره من العلماء أن يعتقدوا أنَّ وصف الله القديم بذاته هو عين لفظ اللافظين ، ومداد الكاتبين ، مع أنَّ وصف الله قديم ، وهذه الألفاظ والأشكال حادثة بضرورة العقل وصريح النَّقل ، وقد أخبر الله تعالىٰ عن حدوثها في ثلاثة مواضع من كتابه :

المَوْضِعُ الأَوَّل : قوله : **﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾** [الأنبياء : ٢] جعل الآتي مُحْدَثاً ، فمن زعم أنَّه قديم فقد ردَّ علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ ، وإنَّما هذا المحدث دليل علىٰ القديم ، كما أنَّا إذا كتبنا اسم الله عزَّ وجلَّ في ورقة لم يكن الرَّب القديم حالاً في تلك الورقة ، فكذلك الوصف القديم إذا كتب في شيء لم يحل الوصف المكتوب حيث حلّت الكتابة .

المَوْضِعُ الثَّاني : قوله : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ * وَما لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة : ٣٨-٤٠] ، وقول الرَّسول صفة للرَّسول ، ووصف الحادث حادث يدلُّ على الكلام القديم ، فمن زعم أنَّ قول الرَّسول قديم فقد ردَّ على الله ربِّ العالمين .

ولم يقتصر سبحانه وتعالى على الإخبار بذلك حتَّى أقسم على ذلك بأتمِّ الأقسام ، فقال تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ﴾ ، أي : تشاهدون ، ﴿وَما لا تُبْصِرُونَ﴾ ، أي : ما لا ترونه ، فاندرج في هذا القسم ذاته وصفاته ، وغير ذلك من مخلوقاته

المَوْضِعُ الثَّالِثُ : قوله جل قوله : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالخُنَّسِ * الجُوارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير : ١٥-١٩] .

والعجب ممَّن يقول : القرآن مركَّب من حرف وصوت ، ثُمَّ يزعم أنَّه في المصحف ، وليس في المصحف إلَّا حرف مجرَّد لا صوت معه ، إذ ليس فيه حرف متكوِّن من صوت ، فإنَّ الحرف اللفظي ليس هو الشَّكل ، ولذلك يدرك الحرف اللفظي بالآذان ، ولا يشاهد بالعيان ، ويشاهد الشَّكل الكتابي بالعيان ، ولا يسمع بالآذان ، ومن توقَّف في ذلك فلا يعدّ من العقلاء فضلاً عن العلماء ، فلا أكثر الله في المسلمين من أهل البدع والأهواء والإضلال والإغواء"

وخلاصة الكلام في هذه المسألة أنَّ القرآن بمعنى الكلام النَّفسي قديم ليس بمخلوق ، ومن قال بخلقه فقد كفر ، وأمَّا القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه والصَّوت الذي نسمعه ، والورق الذي نحمله فهو مخلوق ، وهو دالٌّ على معنى كلام الله تعالى "دلالة عقليَّة أو عرفيَّة ، لأنَّ الألفاظ مركَّبة وحادثة ، والصِّفة النَّفسيَّة التي هي الكلام لا يجوز أن تكون كذلك ، لأنَّ الحوادث لا تقوم بالخالق عزَّ وجلَّ" . انظر : تهذيب السَّنوسيَّة (ص٥٧) .

لكن هذا لا يقال إلَّا في مقام التَّعليم ، قال الإمام الباجوري : "وأمَّا القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق ، لكن يمتنع أن يقال : القرآن مخلوق ويُراد به اللفظ الذي نقرؤه إلَّا في مقام التعليم ، لأنَّه ربَّما أوهم أنَّ القرآن بمعنى كلامه تعالى مخلوق ..." . انظر : تحفة المريد ، ص٥٨) .

وللاستزادة في صفة الكلام انظر : المختصر المفيد في شرح جوهرة التَّوحيد (ص٦٧-٧٠) ، أصول الدِّين للبغدادي (ص١٠٦-١٠٨) ، حاشية ابن الأمير (ص١٦٠-١٦٤) ، حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص١٧٥-١٨٠) ، الأربعين في أصول الدِّين للرازي (ص٢٤٤-٢٥٨) ، شرح الفقه الأكبر (ص٧٠-٧٣) ، عون المريد لشرح جوهرة التَّوحيد (ص٣٦٣-٣٧٥) ، شرح الصاوي على جوهرة التَّوحيد (ص١٧٧-١٨٣) ، خير القلائد شرح جواهر العقائد (ص٦٨-٧٦) ، المسامرة بشرح المسايرة (ص٧٨-٩٠) ، أصول الدِّين للغزنوي (ص١٠٠-١٠٥) ، أبكار الأفكار (١/ ٢٦٥-٣١١) ، الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٤٠-١٥٤) ، الإشارة إلى مذهب أهل الحق (ص٢١١-٢٣٢) ، الإنصاف للباقلاني (ص٦٨-١٤٢) ، أصول الدِّين للبزدوي (ص٦٢-٧٦) ، المواقف (ص٢٩٣-٢٩٦) .

المِثَالُ الثَّاني : اختلافهم في رؤية سيِّدنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لله تعالىٰ ليلة الإسراء ، وقد وقع الخلاف فيها بين السيِّدة عائشة وابن عَبَّاس رضي الله عنهمم ، كما تجد ذلك في البخاري (١١٦/٩ برقم ٧٣٨٠) ، مسلم (١٦١/١برقم ١٧٦-١٧٧) .

المِثَالُ الثَّالِثُ : اختلافهم في مسألة الميزان : قال الحافظ أبو حيَّان في البحر المحيط (١٤/٥) : " اخْتَلَفُوا هَلْ ثَمَّ وزن وميزان حقيقة أَمْ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ إِظْهَارِ الْعَدْلِ التَّامِّ وَالْقَضَاءِ السَّوِيِّ وَالْحِسَابِ الْمُحَرَّرِ ، فَذَهَبَتِ الْمُعْتَزِلَةُ إِلَىٰ إِنْكَارِ الْمِيزَانِ وَتَقَدَّمَهُمْ إِلَىٰ هَذَا : مُجَاهِدٌ ، والضَّحَّاك ، وَالْأَعْمَشُ ، وَغَيْرُهُمْ، وَعَبَّرَ بِالثِّقَلِ عَنْ كَثْرَةِ الْحَسَنَاتِ وَبِالْخِفَّةِ عَنْ قِلَّتِهَا" .

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٥٣٨/١٣-٥٣٩) : " وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ السَّلف إِلَىٰ أَنَّ الْمِيزَانَ بِمَعْنَى الْعَدْلِ وَالْقَضَاء ، فأسند الطَّبري من طَرِيق بن أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَنَضَع الموازين الْقسْط ليَوْم الْقِيَامَة﴾** ، قَالَ : إِنَّمَا هُوَ مَثَلٌ كَمَا يَجُوزُ وَزْنُ الْأَعْمَالِ ، كَذَلِكَ يَجُوزُ الْحَطُّ ، وَمِنْ طَرِيقِ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : الْمَوَازِينُ الْعَدْلُ " .

"وإذا كان هذا الذي قلناه واضحاً ، وما أخاله يخفي علىٰ أحد ، فإنَّ من الخطأ أن نعمد إلىٰ كلمة (السَّلف) فنصوغ منها مصطلحاً جديداً ، طارئاً علىٰ تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة والفكر الإسلامي ، ألا وهو (السَّلفيَّة) فنجعله عنواناً مميَّزاً تندرج تحته فئة معيَّنة من المسلمين ، تتَّخذ لنفسها من معنىٰ هذا العنوان وحده مفهوماً معيَّناً ، وتعتمد فيه علىٰ فلسفة مميَّزة ، بحيث تغدو هذه الفئة بموجب ذلك جماعة إسلاميَّة جديدة في قائمة جماعات المسلمين المتكاثرة وميولاتها ، بل تختلف عنهم حتَّىٰ بمزاجها النَّفسي ومقاييسها الأخلاقيَّة ، كما هو الواقع اليوم فعلاً .

بل إنَّنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا : إنَّ اختراع هذا المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها ، بدعة طارئة في الدِّين ، لم يعرفها السَّلف الصَّالح لهذه الأمَّة ولا الخلف الملتزم بمنهجه" . انظر : السلفية (ص١٣) .

وممَّا يؤكِّد بدعيَّة هذه الدَّعوة أنَّ ما أضافوه إلىٰ السَّلف وقالوا بأنَّ السَّلف يقولون به ما هو إلَّا كسراب بقيعة إذا ما عُرض علىٰ المسبار العلمي ... فإنَّ السَّلف لم يقولوا بما قوَّلهم إيَّاه هؤلاء .

يقول الإمام أبو زهرة في كتابه "تاريخ المذاهب الإسلاميَّة" (ص١٩٢ فما بعدها) : "يقول ابن تيمية في " المجموعة الكبرىٰ من مجموعة الرَّسائل الكبرىٰ" (ص٤٠٩) : "ومذهب السَّلف بين التَّعطيل والتَّمثيل ، فلا يمثِّلون صفات الله تعالىٰ بصفات خلقه ، كما لا يصفون ذاته بذوات خلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيعطِّلوا أسماءه الحسنىٰ وصفاته العلا ، يحرِّفون الكلم عن مواضعه ، ويُلحدون في أسماء الله

وآياته ، وكلُّ واحد من فريقي التَّعطيل والتَّمثيل جامع بين التَّعطيل والتَّمثيل ، ويكرِّر هذا المعنىٰ فيقول مؤكَّداً : أنَّ الله ينزل ويكون في فوق وتحت من غير كيف .

وليس في كتاب الله تعالىٰ ، ولا في سُنَّة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولا عن أحد من سلف الأمَّة ولا من الَّصحابة والتَّابعين ، ولا عن الأئمَّة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف ، حرف واحد يخالف ذلك لا نصَّاً ولا ظاهراً ، ولم يقل أحد منهم أنَّ الله ليس في السَّماء ، ولا أنَّه ليس علىٰ العرش ، ولا أنَّه في كلِّ مكان ، ولا أنَّ جميع الأمكنة بالنِّسبة إليه سواء ، ولا أنَّه داخل العالم ولا خارجه ، ولا متَّصل ولا منفصل ، ولا أنَّه لا تجوز الإشارة الحسيَّة إليه بالأصابع ونحوها .

وعلىٰ ذلك يقرِّر ابن تيمية أنَّ مذهب السَّلف هو إثبات كلّ ما جاء في القرآن الكريم من فوقيَّة وتحتيَّة ، واستواء علىٰ العرش ، ووجه ، ويد ، ومحبَّة ، وبُغض ، وما جاء في السُّنَّة من ذلك أيضاً من غير تأويل وبالظَّاهر الحرفي ، فهل هذا هو مذهب السَّلف حقَّاً؟

ونقول في الاجابة عن ذلك : لقد سبقه بهذا الحنابلة في القرن الرَّابع الهجري كما بيَّنَّا ، وادَّعوا أنَّ ذلك مذهب السَّلف ، وناقشهم العلماء في ذلك الوقت وأثبتوا أنَّه يؤدِّي إلىٰ التَّشبيه والجسميَّة لا محالة ، وكيف لا يؤدِّي إليهما ، والإشارة الحسيَّة إليه جائزة ، لذا تصدَّىٰ لهم الإمام الفقيه الحنبلي الخطيب ابن الجوزي ، ونفىٰ أن يكون ذلك مذهب السَّلف ، ونفىٰ أيضاً أن يكون ذلك رأي الإمام أحمد . وقال ابن الجوزي في ذلك : "رأيت من أصحابنا من تكلَّم في الأصول بما لا يصلح ... فصنَّفوا كُتُباً شانوا بها المذهب ، ورأيتهم قد نزلوا إلىٰ مرتبة العوام ، فحملوا الصِّفات علىٰ مقتضىٰ الحسّ ، فسمعوا أنَّ الله خلق آدم علىٰ صورته ، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً علىٰ الذَّات ، وفماً ولهوات وأضراساً ، وأضواء لوجهه ، ويدين وأصبعين وكفَّاً وخنصراً وإبهاماً ، وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين ، وقالوا : ما سمعنا بذكر الرَّأس ، وقد أخذوا بالظَّاهر في الأسماء والصِّفات ، فسمُّوها بالصِّفات تسمية مبتدعة ، ولا دليل في ذلك من النَّقل ولا من العقل ، ولم يلتفتوا إلىٰ النُّصوص الصَّارفة عن الظَّواهر إلىٰ المعاني الواجبة لله تعالىٰ ، ولا إلىٰ إلغاء ما توجبه الظَّواهر من صفات الحدوث ، ولم يقتنعوا أن يقولوا صفة فعل ، حتىٰ قالوا صفة ذات ، ثُمَّ لما أثبتوا أنَّها صفات ، قالوا : لا نحملها علىٰ توجيه اللغة ، مثل يد علىٰ نعمة وقدرة ، ولا مجيء وإتيان علىٰ معاني بر ولطف ، ولا ساق علىٰ شدَّة ، بل نحملها علىٰ ظواهرها المتعارفة ، والظَّاهر هو المعهود من نعوت الآدميين ، والشَّيء إنَّما يُحمل علىٰ حقيقته إن أمكن ، فإن صرف صارف حلَّ علىٰ المجاز . ثُمَّ يتحرجون من التَّشبيه ، ويأنفون من إضافته إليهم ، ويقولون نحن أهل السُّنَّة ، وكلامهم صريح في التَّشبيه ، وقد تبعهم خلق من العوام .

وقد نصحت التَّابع والمتبوع ، وقلت يا أصحابنا ، أنتم أصحاب نقل وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله يقول وهو تحت السِّياط : كيف أقول ما لم يُقل ، فإيَّاكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس منه ، ثُمَّ قلتم : الأحاديث تحمل علىٰ ظاهرها ، فظاهر القدم الجارحة ، ومن قال استوىٰ بذاته المقدَّسة فقد أجراه سبحانه مجرىٰ الحسيَّات ، وينبغي ألَّا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل ، فإنَّا به عرفنا الله تعالىٰ ، وحكمنا له بالقدم ، فلو أنَّكم قلتم : نقرأ الأحاديث ونسكت ، ما أنكر أحد عليكم ، وإنَّما حملُكُم إيَّاه علىٰ الظَّاهر قبيح ، فلا تُدخَلوا في مذهب هذا الرَّجل السَّلفي ما ليس منه" . انظر : دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنزِيه (ص١٠٢) .

وقد أفاض ابن الجوزي في بيان بطلان ما اعتمدوا عليه من أقوال ، ولقد قال بذلك القول الذي ينقده ابن الجوزي القاضي أبو يعلىٰ الفقيه الحنبلي المشهور المتوفَّىٰ سنة (٤٥٧هـ) ، وكان مثار نقد شديد وُجِّه إليه ، حتىٰ لقد قال فيه بعض فقهاء الحنابلة : "لقد شان أبو يعلىٰ الحنابلة شيناً لا يغسله ماء البحار" . وقال مثل ذلك القول من الحنابلة ابن الزَّاغوني المتوفَّىٰ (٥٢٧هـ) ، وقال فيه بعض الحنابلة أيضاً : "إنَّ في قوله من غرائب التَّشبيه ما يحارُ فيه النَّبيه" ، وهكذا استنكر الحنابلة ذلك الاتجاه ، عندما شاع في القرن الرَّابع والقرن الخامس ، ولذلك استتر ذلك المذهب حتَّىٰ أعلنه ابن تيمية في جرأة وقوَّة ، وزاد آراءه انتشاراً اضطهاده بسببها ، فإنَّ الاضطهاد يذيع الآراء وينشرها ، ولذلك كثُر أتباعه بسبب الاضطهاد ، وكسب الرَّأي ذيوعاً وانتشاراً .

ونرىٰ هنا أَنَّه يجب أن نذكِّر أنَّ ادِّعاء أنَّ هذا مذهب السَّلف موضع نظر ، وقد رأينا رأي ابن الجوزي في ذلك الرَّأي عندما شاع في عصره .

ولنا أن ننظر نظرة أخرىٰ ، وهو من النَّاحية اللغويَّة ، لقد قال سبحانه : **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَّ يَدُ اللهَّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [الفتح : ١٠] ، وقال : **﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾** [القصص : ٨٨] ، أهذه العبارات يُفهم منها تلك المعاني الحسيَّة ، أم أنَّه تفهم منها أمور أخرىٰ تليق بذات الله تعالىٰ؟ فيصحُّ أن تفسَّر اليد بالقوَّة أو النِّعمة ، ويصحُّ أن يفسَّر الوجه بالذَّات ، ويصحُّ أن يفسَّر النُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا بمعنىٰ قرب حسابه ، وقربه سبحانه وتعالىٰ من العباد ، وأنَّ اللغة تتبع لهذه التَّفسيرات ، والألفاظ تقبل هذه المعاني؟

وكذلك فعل الكثيرون من علماء الكلام ، ومن الفقهاء والباحثين ، وهو أولىٰ بلا شكٍّ من تفسيرها بمعانيها الظَّاهرة الحرفيَّة والجهل بكيفيَّاتها ، كقولهم : إنَّ لله يداً ولكن لا نعرفها ، وليست كأيدي الحوادث ، ولله نزولاً وليس كنزولنا ، إلىٰ آخره ، فإنَّ هذه إحالات علىٰ مجهولات لا نفهم مؤدَّاها ولا عاقبتها ، بينما لو فسَّرناها بمعان تقبلها اللغة وليست غريبة عنَّا لوصلنا إلىٰ أمور قريبة فيها تنزيه ، وليس فيها تجهيل ...

إنَّ هذا يؤدِّي عند ابن تيمية إلى أنَّ الأسلم هو التَّفويض الذي يدَّعيه وينسبه إلى السَّلف الصَّالح ، فيأخذ الألفاظ بظواهرها الحرفيَّة ، ويطلقها على معانيها الظَّاهرة في أصل الدّلالة ، ولكنَّه يقرِّر أنَّهَا ليست كالحوادث ، ويفوِّض فيما بعد ذلك ، ولا يفسّر ، ويقول إنَّ محاولة التَّفسير زيغ ، ويعتمد على قوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾** [آل عمران : ٧] .

فابن تيمية يعتقد أنَّه بهذا يجمع بين التَّفسير والتَّفويض ، فهو يفسِّر بالمعنى الظَّاهر ، وينزّه عن الحوادث ، ويفوَّض في الكيْف والوصف ، فهو يرى أنَّ الصَّحابة كانوا يعلمون معاني الآيات المتشابهات التي فيها وصف اليد والرِّجل والوجه والاستواء والنُّزول وغير ذلك ، ويعلمونها على معانيها الظَّاهرة ، ولا يحاولون تعرف كيْفها وحقيقتها ، كما لا يحاولون معرفة حقيقة الذَّات .

هذا ما يقرِّره ابن تيمية مذهباً للسَّلف ، ولكن يخالفه في ذلك الغزالي فيقرِّر في كتابه "إلجام العوام عن علم الكلام" ، أنَّ هذه الألفاظ التي تجري في العبارات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة لها معان ظاهرة ، وهي الحسيَّة التي نراها ، وهي محالة على الله تعالى ، ومعان أخرى مجازيَّة مشهورة يعرفها العربي من غير تأويل ، ولا محاولة تفسيره ، فيقول في ذلك رحمه الله : "التَّقديس معناه أنَّه إذا سمع اليد والإصبع" وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إنَّ الله خمَّر طينة آدم بيده" وما وردَ " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرَّحمن" ، فينبغي أن يعلم أنَّ هذه الألفاظ تُطلق على معنيين : (أحدهما) : وهو الوضع الأصلي ، وهو عضو مركَّب من لحم وعظم وعصب ، وللحم والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة ، وأعني بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو إلَّا أن يتنحَّى عن ذلك المكان ، وقد يستعار هذا اللفظ أعني اليد لمعنى آخر ليس هذا المعنى بجسم أصلاً ، كما يقال : البلدة في يد الأمير ، فإنَّ ذلك مفهوم ، وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلاً ، فعلى العامِّي وغير العامِّي أن يتحقَّق قطعاً ويقيناً أنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرد بذلك جسماً هو عضو مركَّب من لحم ودم وعظم ، وأنَّ ذلك في حقِّ الله تعالى مُحال ، وهو عنه مقدَّس ، فإن خطر بباله أنَّ الله جسم مركَّب من أعضاء فهو عابد صنم ، فإنَّ كلَّ جسم مخلوق ، وعبادة المخلوق كُفر ، وعبادة الصَّنم كانت كُفراً لأنَّه مخلوق . ونرى من هذا أنَّ حجَّة الإسلام الغزالي يبيِّن معاني هذه الألفاظ بمجازها المشهور الذي هو واضح فيها كلَّ الوضوح ، ولا شكَّ أنَّ السَّلف الصَّالح الذين يفهمون مجازي اللغة وحقيقتها كانوا يُطلقون هذه الألفاظ على معانيها المجازيَّة المشهورة التي كانوا هم يستعملونها ، فهل يتصوَّر أنَّ الذين يبايعون النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشَّجرة عندما يتلون قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ**

أَو حطام يَأْخُذهُ أَو هوى يجمع عَلَيْهِ الطَّغام (١٢) الجهلة والرّعاع (١٣) السَّفلة ، لعلمه أَنَّ إِبْلِيس لَيْسَ لَهُ دأب إِلَّا خذلان أمَّة مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلذَلِك لَا يجمع قُلُوب الْعَامَّة إِلَّا على بِدعَة (١٤) وضلالة يهدم بهَا الدِّين وَيفْسد بهَا الْيَقِين ،

يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللهَّ يَدُ اللهِّ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَّ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح : ١٠] . يفهمون أنَّ اليد هنا يد ليست كيد المخلوقات ، ولا يفهمون أنَّ المراد سلطان الله تعالىٰ وقدرته ، بدليل ما فيها من تهديد لمن ينكث بأنَّ مغبَّة النَّكث تعود عليه .

ولذلك نحن نرجِّح منهاج الماتريدي ، ومنهاج ابن الجوزي ، ومنهاج الغزالي ، ونرىٰ أنَّ الصَّحابة كانوا يفسِّرون بالمجاز إن تعذَّر إطلاق الحقيقة ، كما يفسِّرون بالحقيقة في ذاتها" .

وقد جمع الإمام الغزالي في كتابه : " إلجام العوام عن علم الكلام " نقاطاً لخَّص بها مذهب السَّلف ، كما سيأتي ...

(١٢) الطَّغَامُ : أَوْغَادُ النَّاس ، يُقَالُ لِلْوَغْدِ : هَذَا طَغَامَةٌ مِنَ الطَّغَامِ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ : وَكُنْتُ إِذَا هَمَمْتُ بِفِعْلِ أَمْرٍ ... يُخَالِفُنِي الطَّغَامَةُ لِلطَّغَامِ ، وَيُقَالُ : مَا هُوَ إِلَّا طَغَامَةٌ مِنَ الطَّغَامِ ، وَهُوَ الَّذِي لَا رَأْيَ لَهُ ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ . انظر : الدلائل في غريب الحديث (٢/ ٥٠٩) .

(١٣) الرَّعَاعُ بِالْفَتْحِ السِّفْلَةُ مِنْ النَّاس الْوَاحِدُ رَعَاعَةٌ ، وَيُقَالُ : هُمْ أَخْلَاطُ النَّاس . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٢٣٠) .

(١٤) تباينت أقوال العلماء في تعريف البدعة في الاصطلاح ، فمنهم من حصرها بالحادث المذموم ... ومنهم من أطلق البدعة علىٰ كلِّ مستحدث من الأشياء ، سواء كان ممدوحاً أو مذموماً ، وسواء كان من العبادات أو العادات ، فمن الفريق الأَوَّل : الإمام الشَّافعي (٢٠٤هـ) ، الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) ، الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) ، الإمام ابن الأثير (٦٣٠هـ) ، الإمام السُّبكي (٧٥٦هـ) ، الإمام العز بن عبد السَّلام (٦٦٠هـ) ، الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) ، الإمام الكرماني (٧٨٦هـ) ، الإمام التَّفتازاني (٧٩٢هـ) ، الإمام ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) ، الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، الإمام العيني (٨٥٥هـ) ، الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٣هـ) ، وغيرهم كثير ... انظر بالترتيب : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ١١٣) ، إحياء علوم الدِّين (١/ ٢٧٦) ، تلبيس إبليس (ص١٦) ، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٠٦) ، اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٣/ ٤١٨) ، قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ٢٠٤) ، تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٢) ، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٥/ ٧٧) ، شرح المقاصد في علم الكلام (٢/ ٢٧١) ، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (٢/ ١٢٨) ، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٢٥٣) ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١١/ ١٢٦) ، الفتاوىٰ الحديثية (ص٢٠٠) ...

ومن الفريق الثَّاني : الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) ، الإمام الشَّاطبي (٧٩٠هـ) ، الإمام ابن الوزير (٨٤٠هـ) ، الإمام محمَّد صدِّيق خان (١٣٥٧هـ) ، وغيرهم . انظر بالترتيب : اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٦٣) ، الاعْتِصَام (١/ ٥٢ فما بعدها) ، إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التَّوحيد (ص١٠٧ ، ٢٢٣) ، الدِّين الخالص (٣/ ٢٠) .

ولعلَّ من أفضل التَّعريفات التي عرَّف بها العلماء البدعة ، ما عرَّفها به الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) ، قال : " ...فكم من مُحدث حسن ، كما قيل في إقامة الجماعات في التَّراويح : أنَّهَا من مُحدثات عمر رضي الله عنه ، وأنَّها بدعة حسنة ، إنَّما البدعة المذمومة ما يصادم السنَّة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ٢٧٦).

" فليس كُلُّ مَا أُبْدِعَ مَنْهِيّاً ، بَلِ الْمَنْهِيُّ بِدْعَةٌ تُضَادُّ سُنَّةً ثَابِتَةً ، وَتَرْفَعُ أَمْراً مِنَ الشَّرْعِ مع بقاء علَّته ، بل الإبداع قد يجب في بعض الأحوال إذا تغيَّرت الأسباب " . انظر : إحياء علوم الدِّين (٢/ ٣) .

وقال الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) : " البِدعة في الدِّين : هي ما لم يَشرَعْه الله ورسولُه ، وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب ولا استحباب . فأمَّا ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب وعُلم الأمر به بالأدلَّة الشَّرعيَّة ، فهو من الدِّين الذي شرَعه الله ، وإن تنازع أولوا الأمر في بعض ذلك ، وسواء كان هذا مفعولًا على عهد النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لم يكن ؛ فما فُعِل بعده بأمْره مِن قتال المرتدِّين والخوارج المارقين ...وغير ذلك ، هو من سُنَّته " . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/ ١٠٧-١٠٨) .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني (٧٩١هـ) : " أنَّ البدعة المذمومة هو : المُحدَث في الدِّين من غير أن يكون في عهد الصَّحابة والتَّابعين ، ولا دلَّ عليه الدَّليل الشَّرعي ، ومن الجهلة من يجعل كلّ أمر لم يكن في زمن الصَّحابة بدعة مذمومة وإن لم يقم دليل على قبحه ، تمسُّكاً بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " إيَّاكم ومحدثات الأمور " ، ولا يعلمون أنَّ المراد بذلك هو : أن يجعل في الدِّين ما ليس منه " . انظر : شرح المقاصد في علم الكلام (٢/ ٢٧١) .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) : " وَالْمُرَادُ بِالْبِدْعَةِ : مَا أُحْدِثَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا مَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الشَّرْعِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ بِبِدْعَةٍ شَرْعاً ، وَإِنْ كَانَ بِدْعَةً لُغَةً " . انظر : جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (٢/ ١٢٧) .

وقال الإمام الجرجاني (٨١٦هـ) : " البدعة : هي الأمر المحدث الذي لم يكن عليه الصَّحابة والتَّابعون ، ولم يكن ممَّا اقتضاه الدَّليل الشَّرعي " . انظر : كتاب التعريفات (ص٤٣) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " هي اعتقادُ ما أُحْدِثَ على خِلاف المعروف عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لا بمعاندةٍ ، بل بنوعِ شُبْهَةٍ " . انظر : نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر (ص١٠٧) .

وقال الإمام جمال الدِّين ، محمَّد طاهر بن علي الصِّدِّيقي الهندي الفَتَّني الكجراتي (٩٨٦هـ) : " هي نوعان : بدعة هدىٰ ، وبدعة ضلالة ، فمن الأوَّل : ما كان تحت عموم ما ندب الشَّارع إليه ، وحضَّ عليه ، فلا يذمّ ، لوعد الأجر عليه بحديث : " من سنَّ سنة حسنة " ، وفي ضدّه : " من سنَّ سنَّة سيِّئة " ، ومن الثَّاني : ما كان بخلاف ما أمر به ، فيذمّ وينكر عليه ، والتَّراويح من الأوَّل ، لأنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسنّها لهم ، وإنَّما صلَّاها ليالي ثُمَّ تركها ، ولا كان في زمن الصِّدِّيق ، وهي علىٰ الحقيقة سنَّة ، لحديث : " عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين " ، " واقتدوا باللذين من بعدي " . أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٣٨ برقم ٢٩٤) ، المسند (٥/ ٣٨٢ برقم ٢٣٦٣٤) ، التِّرمذي (٦/ ٥٠ برقم ٣٦٦٢ ، وقال : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ) ، البزار (٧/ ٢٤٨ برقم ٢٨٢٧) ، الآجري في الشريعة (٤/ ١٧٣٦ برقم ١١٩٩) ، الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ١٤٠ برقم ٣٨١٦) ، المعجم الكبير (٩/ ٧٢ برقم ٨٤٢٦) ، مسند الشاميين ، (٢/ ٥٧ برقم ٩١٣) ، الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين (٣/ ٧٩ برقم ٤٤٥١) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧/ ١٣٩٥ برقم ٢٤٩٩) ، البيهقي في الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد علىٰ مذهب السَّلف وأصحاب الحديث (ص٣٤٠) ، معرفة السنن والآثار (٧/ ٤٧٦ برقم ١٠٧٥٦) ، السنن الكبرىٰ (٥/ ٣٤٧ برقم ١٠٠٥٦) ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٦٦ برقم ٢٣٠٨) ، البغوي في شرح السنة (١/ ٢٠٨) ، ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٥٠ برقم ٣١٩٤٢) .

وعلىٰ الآخر يُحمل حديث : " كلُّ محدثة بدعة " ، والمبتدع أكثر ما يستعمل عرفاً في الذَّم " . انظر : مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار (١/ ١٤٨) .

وقد فهم العلماء من قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ " . أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٧٠ برقم ٢٦٨٦٠) ، مسلم (٣/ ١٣٤٣) ، ابن ماجه (١/ ٧ برقم ١٤) ، ابن حبَّان في الصحيح (١/ ٢٠٨ برقم ٢٦) ، الدارقطني في السنن (٥/ ٤٠٢ برقم ٤٥٣٤) ، الشهاب القضاعي في المسند (١/ ٢٣١ برقم ٣٥٩) ، البيهقي في السنن الكبرىٰ(١٠/ ٢٥٢ برقم ٢٠٥٣٦) ، السنن الصغير (٤/ ١٣١ برقم ٣٢٥٣) .

فالبدعة تنقسم : بدعة حسنة ، وهي ما وافق الشَّرع ، وبدعة سيِّئة ، وهي ما خالف الشَّرع ... والحديث السَّابق نصٌّ صريحٌ وواضحٌ في أنَّ العمل لا يكون مردوداً إلَّا إذا كان علىٰ خلاف الشَّريعة ، أمَّا إذا كان موافقاً للشَّريعة أو لا يتعارض معها فليس مردوداً ، بل هو من الشَّريعة ، بدليل قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " .

فقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وكلُّ محدثَةٍ بدعةٌ ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ " ، لا يدخُلُ فيه البدعةُ الحسنةُ ، لأنَّ هذا الحديثَ من العامّ المخصوصِ ، بمعنىٰ : أنَّ لفظَهُ عامٌّ ، إلا أنَّه خاصٌّ ، لا يتعلَّق إلَّا بالبدعَةِ المضادَّة للشّريعةِ ، بدليلِ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : "من سَنَّ في الإسلامِ سنَّة حسنةً ... " .

وبناء علىٰ ذلك الفهم الصَّحيح للحديث قال الإمام الشَّافعي (٢٠٤هـ) : " " الْبِدْعَةُ بِدْعَتَانِ : بِدْعَةٌ مَحْمُودَةٌ ، وَبِدْعَةٌ مَذْمُومَةٌ . فَمَا وَافَقَ السُّنَّةَ فَهُوَ مَحْمُودٌ ، وَمَا خَالَفَ السُّنَّةَ فَهُوَ مَذْمُومٌ " . انظر : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ١١٣) .

وأكَّد النَّقل السَّابق عن الإمام الشَّافعي الإمام أبو القاسم شهاب الدِّين عبد الرَّحْمَن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدِّمشقي المعروف بأبي شامة (٦٦٥هـ) فنقل " عن حَرْمَلَة ابْن يحيىٰ (٢٤٣هـ) : سَمِعت الشَّافعي رَحمَه الله تَعَالَىٰ يَقُول : الْبِدْعَة بدعتان : بِدعَة محمودة ، وبدعة مذمومة ، فَمَا وَافق السّنَّة فَهُوَ مَحْمُود ، وَمَا خَالف السّنَّة فَهُوَ مَذْمُوم " . انظر : الباعث علىٰ إنكار البدع والحوادث (ص٢٢) .

وأخرج البيهقي بسنده عن الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، قَالَ : قَالَ الشَّافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : الْمُحْدَثَاتُ مِنَ الْأُمُورِ ضِرْبَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا أُحْدِثَ يُخَالِفُ كِتَاباً أَوْ سَنَةً أَوْ أَثَراً أَوْ إِجْمَاعاً ، فَهَذِهِ لَبِدْعَةُ الضَّلَالَةِ . وَالثَّانِيَةُ : مَا أُحْدِثَ مِنَ الْخَيْرِ لَا خِلَافَ فِيهِ لِوَاحِدٍ مِنْ هَذَا ، فَهَذِهِ مُحْدَثَةٌ غَيْرُ مَذْمُومَةٍ ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي قِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ : نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ ، يَعْنِي : أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ لَمْ تَكُنْ ، وَإِنْ كَانَتْ فَلَيْسَ فِيهَا رَدٌّ لِمَا مَضَىٰ . انظر : المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص٢٠٦) .

قال الإمام ابن تيمية : "هذا الكلام أو نحوه رواه البيهقي بإسناده الصَّحيح في المدخل " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤٩) .

فالبدعَة الحَسنَة هيَ المُحدَثُ الذي يُوافِقُ القُرءانَ والسُّنَّة ، والبِدعَة السيِّئة هي المُحْدَثُ الذي يُخَالِفُ القُرءانَ والسُّنَّة ... قال الإمام ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " والبدعة كلَّ ما قيل أو فعل ممَّا ليس له أصل فيما نُسب إليه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهو في الدِّين كل ما لم يأت في القرآن ولا عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا أنَّ منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد إليه من الخير ، ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسناً ، وهو ما كان أصله الإباحة ، كما روي عن عمر رضي الله عنه : " نعمت البدعة هذه " ، وهو ما كان فعل خير جاء النَّصُّ بعموم استحبابه ، وإن لم يقرّر عمله في النَّصِّ . ومنها ما يكون مذموماً ، ولا يعذر صاحبه ، وهو ما قامت به الحجَّة علىٰ فساده ، فتمادىٰ عليه القائل به " . انظر : الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٤٧) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الله بن محمَّد المعافري ، أبو بكر ابن العربي (٥٤٣هـ) : " اعلموا علَّمكم الله أنَّ المُحْدَث علىٰ قسمين : مُحدَث ليس له أصل إلَّا الشَّهوة والعمل بمقتضىٰ الإرادة ، فهذا باطل قطعاً ، ومُحْدَث يحمل النَّظير علىٰ النَّظير ، فهذه سنَّة الخلفاء والائمَّة الفضلاء ، وليس المُحْدث والبدعة مذموماً للفظ مُحْدَث وبدعة ، ولا لمعناها ، فقد

قال الله تعالىٰ : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء : ٢] ، وقال عمر : " نعمت البدعة هذه " . أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١١٤ برقم ٣) ، ابن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٧١٣) ، محمَّد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي في مختصر قيام الليل (ص٢١٧) ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ١١٣) ، البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٥٤٩ برقم ٢٩٩٩) ، فضائل الأوقات (ص٢٦٦ برقم ١٢١) ، السنن الصغير (١/ ٢٩٤ برقم ٨١٦) ، البغوي في شرح السنة (٤/ ١١٩) .

إنَّما يذمُّ من البدعة ما خالف السُّنَّة ، ويذُّم من المحدثات ما دعا إلىٰ ضلالة " . انظر : عارضة الأحوذي بشرح صحيح التِّرمذي (١/ ١٤٩) .

فالبدعة بدعتان : بدعة هدىٰ ، وبدعة ضلالة ، فما وافق الشَّرع فهو بدعة هدىٰ ، وما خالف الشَّرع فهو بدعة ضلالة ...

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " والبدعة : عبارة عَنْ فعل لم يكن فابتدع ، والأغلب فِي المبتدعات أنَّهَا تصادم الشَّريعة بالمخالفة ، وتوجب التَّعاطي عليها بزيادة أَوْ نقصان ، فان ابتدع شيء لا يخالف الشَّريعة ولا يوجب التَّعاطي عليها ، فقد كان جمهور السَّلف يكرهونه ، وكانوا ينفرون من كلِّ مبتدع ، وإن كان جائزاً حفظاً للأصل وَهُوَ الاتباع . وَقَدْ قَالَ زيد بْن ثابت لأبي بَكْر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين قالا لَهُ اجمع القرآن : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رَسُول اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ " . انظر : تلبيس إبليس (ص١٦) .

وقال الإمام ابن الأثير (٦٠٦هـ) : " الْبِدْعَةُ بِدْعَتَان : بِدْعَةُ هُدًىٰ ، وَبِدْعَةُ ضَلَالٍ ، فَمَا كَانَ فِي خِلَافِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ ورسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ فِي حَيِّزِ الذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ ، وَمَا كَانَ وَاقِعًا تَحْتَ عُموم مَا نَدب اللهُ إِلَيْهِ وحَضَّ عَلَيْهِ اللهُ أَوْ رَسُولُهُ فَهُوَ فِي حَيِّزِ الْمَدْحِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثَالٌ مَوْجُودٌ كنَوْع مِنَ الجُود وَالسَّخَاءِ وفعْل الْمَعْرُوفِ فَهُوَ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي خِلَافِ مَا وَردَ الشَّرْعُ بِهِ ؛ لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَعل لَهُ فِي ذَلِكَ ثَوَاباً " . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٠٦) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " البِدعة بكسر الباء في الشَّرع هي : إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهي منقسمة إلىٰ : حسنة ، وقبيحة " . انظر : تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٢) .

وفي فتاواه ذكر الإمام ابن تيمية أنَّ البدعة تنقسم إلىٰ قسمين : بدعة حسنة مستحبَّة ، وهي التي وافقت الكتاب أو السُّنَّة أو الإجماع ، وبدعة سيِّئة مذمومة ، وهي التي خالفت كتاباً أو سنّةً أو إجماعاً وأثراً عن بعض أصحاب رسول اللهّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهذه بدعة ضلالةٍ ...قال الإمام ابن تيمية (٧٢٨هـ) : " وكلُّ بدعة ليست واجبة ولا مستحبَّة ، فهي بدعة سيِّئة ، وهي ضلالة باتِّفاق المسلمين . ومن قال في بعض البدع أنَّهَا بدعة حسنة ، فإنَّما ذلك إذا

قام دليل شرعيٌّ علىٰ أنَّهَا مستحبَّة ، فأمَّا ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين أنَّهَا من الحسنات التي يتقرَّب بها إلىٰ الله " . انظر : مجموع فتاوىٰ شيخ الاسلام ابن تيمية (١/ ١٦٢).

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " ومن هنا يعرف ضلال من ابتدع طريقاً أو اعتقاداً زعم أنَّ الإيمان لا يتمُّ إلَّا به ، مع العلم بأنَّ الرَّسول لم يذكره ، وما خالف النُّصوص فهو بدعة باتِّفاق المسلمين ، وما لم يعلم أنَّه خالفها ، فقد لا يسمَّىٰ بدعة ، قال الشَّافعي – رحمه الله – : البدعة بدعتان : بدعة خالفت كتاباً وسنّةً وإجماعاً وأثراً عن بعض أصحاب رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذه بدعة ضلالةٍ . وبدعة لم تخالف شيئاً من ذلك ، فهذه قد تكون حسنةً لقول عمر : " نعمت البدعة هذه " ... هذا الكلام أو نحوه رواه البيهقي بإسناده الصَّحيح في المدخل " . انظر : مجموع فتاوىٰ شيخ الاسلام ابن تيمية (٢٠/ ١٦٣) .

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " إذاً البدعة الحسنة – عند من يقسِّم البدع إلىٰ حسنةٍ وسيِّئةٍ – لا بدَّ أن يستحبَّها أحدٌ من أهل العلم الَّذين يُقتدىٰ بهم ، ويقوم دليلٌ شرعيٌّ علىٰ استحبابها ، وكذلك من يقول : البدعة الشَّرعيَّة كلُّها مذمومة لقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصَّحيح : " كلُّ بدعةٍ ضلالة " ، ويقول قول عمر في التَّراويح : " نعمت البدعة هذه " إنَّمَا أسماها بدعةً : باعتبار وضع اللّغة . فالبدعة في الشَّرع عند هؤلاء ما لم يقم دليل شرعيٌّ علىٰ استحبابه " . انظر : مجموع فتاوىٰ شيخ الاسلام ابن تيمية (٢٧/ ١٥٢) .

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " قال الشَّافعي " البدعة بدعتان : محمودة ومذمومة ، فما وافق السُّنَّة فهو محمود ، وما خالفها فهو مذموم . أخرجه أبو نعيم بمعناه من طريق إبراهيم بن الجنيد عن الشَّافعي . وجاء عن الشَّافعي أيضاً ما أخرجه البيهقي في مناقبه ، قال : " المحدثات ضربان : ما أحدث يخالف كتاباً أو سنَّة أو أثراً أو إجماعاً ، فهذه بدعة الضَّلال ، وما أحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك ، فهذه محدثة غير مذمومة " انتهىٰ . وقسَّم بعض العلماء البدعة إلىٰ الأحكام الخمسة ، وهو واضح " . انظر : الفرقان بين أولياء الرَّحْمَن وأولياء الشيطان (١/ ١٦٢) .

وقال الإمام ابن تيمية في استحبابه الاحتفال بميلاد سيِّدنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنَّ من يفعله يكون له منه أجر عظيم لحسن مقصده النَّابع عن محبَّته للرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال : " فتعظيم المولد ، واتِّخاذه موسماً ، قد يفعله بعض النَّاس ، ويكون له فيه أجر عظيم لحسن قصده ، وتعظيمه لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما قدَّمته لك أنَّه يحسن من بعض النَّاس ، ما يستقبح من المؤمن المسدَّد " . انظر : اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم (ص٢٩٧) .

وقد دأب أغلب الحنابلة علىٰ موافقة جمهور العلماء في تعريف البدعة ، وأنَّها تتعلَّق بموافقة أو عدم موافقة الشَّرع ، فما وافق الشَّرع فهو بدعة حسنة ، وما خالف الشَّرع فهو بدعة ضلالة ...

قال الإمام ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) : " وَالْمُرَادُ بِالْبِدْعَةِ : مَا أُحْدِثَ مِمَّا لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا مَا كَانَ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الشَّرْعِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَلَيْسَ بِبِدْعَةٍ شَرْعاً ، وَإِنْ كَانَ بِدْعَةً لُغَةً " . انظر : جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (٢/ ١٢٧) .

وقال الإمام بدر الدِّين العيني (٨٥٥هـ) : " والبدعة فِي الأَصْل إِحْدَاث أَمر لم يكن فِي زمن رَسُول الله ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ الْبِدْعَة على نَوْعَيْنِ : إِن كَانَت مِمَّا ينْدَرج تَحت مستحسن فِي الشَّرْع ، فَهِيَ بِدعَة حَسَنَة ، وَإِن كَانَت مِمَّا ينْدَرج تَحت مستقبح فِي الشَّرْع ، فَهِيَ بِدعَة مستقبحة " . انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١١/ ١٢٦) .

وذهب بعض العلماء إلى تقسيم البدعة إلى الأحكام الخمسة : وهي الواجب ، والمندوب ، والمباح ، والمكروه ، والحرام ، منهم : الإمام العز بن عبد السَّلام ، والإمام النَّووي ، والإمام الكرماني ، والإمام ابن حجر العسقلاني ، والإمام الزَّرقاني ، والإمام الأمير الصَّنعاني ، والإمام التَّهانوي ، والإمام ابن عابدين ...

قال الإمام أبو محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام الملقَّب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ) : " الْبِدْعَةُ فِعْلُ مَا لَمْ يُعْهَدْ فِي عَصْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهِيَ مُنْقَسِمَةٌ إلَى : بِدْعَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَبِدْعَةٌ مُحَرَّمَةٌ ، وَبِدْعَةٌ مَنْدُوبَةٌ ، وَبِدْعَةٌ مَكْرُوهَةٌ ، وَبِدْعَةٌ مُبَاحَةٌ ، وَالطَّرِيقُ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ أَنْ تُعْرَضَ الْبِدْعَةُ عَلَى قَوَاعِدِ الشَّرِيعَةِ : فَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْإِيجَابِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ التَّحْرِيمِ فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْمَنْدُوبِ فَهِيَ مَنْدُوبَةٌ ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْمَكْرُوهِ فَهِيَ مَكْرُوهَةٌ ، وَإِنْ دَخَلَتْ فِي قَوَاعِدِ الْمُبَاحِ فَهِيَ مُبَاحَةٌ ، وَلِلْبِدَعِ الْوَاجِبَةِ أَمْثِلَةٌ .

أَحَدُهَا : الِاشْتِغَالُ بِعِلْمِ النَّحْوِ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ كَلَامُ اللهِ وَكَلَامُ رَسُولِهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ لأَنَّ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ وَاجِبٌ وَلَا يَتَأَتَّى حِفْظُهَا إلَّا بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ .

الْمِثَالُ الثَّانِي : حِفْظُ غَرِيبِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ اللُّغَةِ .

الْمِثَالُ الثَّالِثُ : تَدْوِينُ أُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمِثَالُ الرَّابِعُ : الْكَلَامُ فِي الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ لِتَمْيِيزِ الصَّحِيحِ مِنْ السَّقِيمِ ، وَقَدْ دَلَّتْ قَوَاعِدُ الشَّرِيعَةِ عَلَى أَنَّ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ فَرْضُ كِفَايَةٍ فِيمَا زَادَ عَلَى الْقَدْرِ الْمُتَعَيِّنِ ، وَلَا يَتَأَتَّى حِفْظُ الشَّرِيعَةِ إلَّا بِمَا ذَكَرْنَاهُ .

وَلِلْبِدَعِ الْمُحَرَّمَةِ أَمْثِلَةٌ ، مِنْهَا : مَذْهَبُ الْقَدَرِيَّةِ ، وَمِنْهَا مَذْهَبُ الْجَبْرِيَّةِ ، وَمِنْهَا مَذْهَبُ الْمُرْجِئَةِ ، وَمِنْهَا مَذْهَبُ الْمُجَسِّمَةِ ، وَالرَّدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ مِنْ الْبِدَعِ الْوَاجِبَةِ .

وَلِلْبِدَعِ الْمَنْدُوبَةِ أَمْثِلَةٌ ، مِنْهَا : إحْدَاثُ الرُّبُطِ وَالْمَدَارِسِ وَبِنَاءِ الْقَنَاطِرِ ، وَمِنْهَا كُلُّ إحْسَانٍ لَمْ يُعْهَدْ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ ، وَمِنْهَا : صَلَاةُ التَّرَاوِيحِ ، وَمِنْهَا الْكَلَامُ فِي دَقَائِقِ التَّصَوُّفِ ، وَمِنْهَا الْكَلَامُ فِي الْجَدَلِ فِي جَمْعِ الْمَحَافِلِ لِلِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْمَسَائِلِ إذَا قُصِدَ بِذَلِكَ وَجْهُ اللهِ سُبْحَانَهُ .

وَلِلْبِدَعِ الْمَكْرُوهَةِ أَمْثِلَةٌ ، مِنْهَا : زَخْرَفَةُ الْمَسَاجِدِ ، وَمِنْهَا تَزْوِيقُ الْمَصَاحِفِ ، وأَمَّا تَلْحِينُ الْقُرْآنِ بِحَيْثُ تَتَغَيَّرُ أَلْفَاظُهُ عَنْ الْوَضْعِ الْعَرَبِيِّ ، فَالْأَصَحُّ أَنَّهُ مِنْ الْبِدَعِ الْمُحَرَّمَةِ .

وَلِلْبِدَعِ الْمُبَاحَةِ أَمْثِلَةٌ ، مِنْهَا : الْمُصَافَحَةُ عَقِيبَ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ ، وَمِنْهَا التَّوَسُّعُ فِي اللَّذِيذِ مِنْ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ ، وَلُبْسِ الطَّيَالِسَةِ ، وَتَوْسِيعِ الْأَكْمَامِ . وَقَدْ يُخْتَلَفُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ ، فَيَجْعَلُهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِنْ الْبِدَعِ الْمَكْرُوهَةِ ، وَيَجْعَلُهُ آخَرُونَ مِنْ السُّنَنِ الْمَفْعُولَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَمَا بَعْدَهُ ، وَذَلِكَ كَالِاسْتِعَاذَةِ فِي الصَّلَاةِ وَالْبَسْمَلَةِ " . انظر : قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٢/ ٢٠٤-٢٠٥) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) في كلامه على قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " : " هَذَا عَامٌّ مَخْصُوصٌ ، وَالْمُرَادُ غَالِبُ الْبِدَعِ ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : هِيَ كُلُّ شَيْءٍ عُمِلَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : الْبِدْعَةُ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ : وَاجِبَةٌ ، وَمَنْدُوبَةٌ ، وَمُحَرَّمَةٌ ، وَمَكْرُوهَةٌ ، وَمُبَاحَةٌ . فَمِنَ الْوَاجِبَةِ : نَظْمُ أدلَّة المتكلِّمين لِلرَّدِّ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ وَالْمُبْتَدِعِينَ ، وَشِبْهُ ذَلِكَ . وَمِنَ الْمَنْدُوبَةِ : تَصْنِيفُ كُتُبِ الْعِلْمِ ، وَبِنَاءُ الْمَدَارِسِ ، وَالرُّبُطِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَمِنَ الْمُبَاحِ : التَّبَسُّطُ فِي أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ ، وَالْحَرَامُ وَالْمَكْرُوهُ ظَاهِرَانِ .

وَقَدْ أَوْضَحْتُ الْمَسْأَلَةَ بِأَدِلَّتِهَا الْمَبْسُوطَةِ فِي : " تَهْذِيبِ الْأَسْمَاءِ وَاللُّغَاتِ " ، فَإِذَا عُرِفَ مَا ذَكَرْتُهُ عُلِمَ أَنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْعَامِّ الْمَخْصُوصِ ، وَكَذَا مَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ ، وَيُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ : قَوْلُ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في التَّرَاوِيحِ : " نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ " وَلَا يَمْنَعُ مِنْ كَوْنِ الْحَدِيثِ عَامّاً مَخْصُوصاً قَوْلُهُ : " كُلُّ بِدْعَةٍ " ، مُؤَكَّداً بِكُلِّ بَلْ يَدْخُلُهُ التَّخْصِيصُ مَعَ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾** [الأحقاف : ٢٥] . انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٦/ ١٥٤-١٥٥) .

وقال الإمام النَّووي أيضاً في كلامه على قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا " : " ...فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الِابْتِدَاءِ بِالْخَيْرَاتِ ، وَسَنِّ السُّنَنَ الْحَسَنَاتِ ، وَالتَّحْذِيرُ مِنَ اخْتِرَاعِ الْأَبَاطِيلِ وَالْمُسْتَقْبَحَاتِ . وَسَبَبُ هَذَا الْكَلَامِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ فِي أَوَّلِهِ : فَجَاءَ رَجُلٌ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا ، فَتَتَابَعَ النَّاس ، وَكَانَ الْفَضْلُ الْعَظِيمُ لِلْبَادِي بِهَذَا الْخَيْرِ ، وَالْفَاتِحِ لِبَابِ هَذَا الْإِحْسَانِ . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَخْصِيصُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ : الْمُحْدَثَاتُ الْبَاطِلَةُ ، وَالْبِدَعُ الْمَذْمُومَةُ . وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هَذَا فِي كِتَابِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، وَذَكَرْنَا هُنَاكَ أَنَّ الْبِدَعَ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ وَاجِبَةٌ " . انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٧/ ١٠٤)

وقال الإمام الكرماني (٧٨٦هـ) : " والبدعة كلُّ شيء عمل على غير مثال سابق ، وهي خمسة أقسام : واجبة ، ومندوبة ، ومحرَّمة ، ومكروهة ، ومباحة ، وحديث : " كلُّ بدعة ضلالة " من العامِّ المخصوص " . انظر : الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٩/ ١٥٤) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " وَالْبِدْعَةُ أَصْلُهَا مَا أُحْدِثَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ ، وَتُطْلَقُ فِي الشَّرْعِ فِي مُقَابِلِ السُّنَّةِ ، فَتَكُونُ مَذْمُومَةً . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِمَّا تَنْدَرِجُ تَحْتَ مُسْتَحْسَنٍ فِي الشَّرْعِ ، فَهِيَ حَسَنَة ، وَأَن كَانَت مِمَّا تَنْدَرِجُ تَحْتَ مُسْتَقْبَحٍ فِي الشَّرْعِ ، فَهِيَ مُسْتَقْبَحَةٌ ، وَإِلَّا فَهِيَ مِنْ قِسْمِ الْمُبَاحِ ، وَقَدْ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ الْأَحْكَامِ الْخَمْسَةِ ..." . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٥٣) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الباقي بن يوسف الزّرقاني المصري الأزهري (١١٢٢هـ) في شرحه لقول عمر : " نَعِمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ " : " ...فَسَمَّاهَا بِدَعَةً لِأَنَّهُ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمْ يَسُنَّ الِاجْتِمَاعَ لَهَا ، وَلَا كَانَتْ فِي زَمَانِ الصِّدِّيقِ . وَهُوَ لُغَةً مَا أُحْدِثَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ، وَتُطْلَقُ شَرْعاً عَلَىٰ مُقَابِلِ السُّنَّةِ وَهِيَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثُمَّ تَنْقَسِمُ إِلَىٰ الْأَحْكَامِ الْخَمْسَةِ " . انظر : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (١/ ٤١٨) .

وقال الإمام الصَّنعاني (١١٨٢هـ) : " الْبِدْعَةُ لُغَةً : مَا عُمِلَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا مَا عُمِلَ مِنْ دُونِ أَنْ يَسْبِقَ لَهُ شَرْعِيَّةٌ مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا سُنَّةٍ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .

وَقَدْ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ الْبِدْعَةَ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ : وَاجِبَةٌ : كَحِفْظِ الْعُلُومِ بِالتَّدْوِينِ ، وَالرَّدِّ عَلَىٰ الْمَلَاحِدَةِ بِإِقَامَةِ الْأَدِلَّةِ .

وَمَنْدُوبَةٌ : كَبِنَاءِ الْمَدَارِسِ . وَمُبَاحَةٌ : كَالتَّوْسِعَةِ فِي أَلْوَانِ الْأَطْعِمَةِ ، وَفَاخِرِ الثِّيَابِ .

وَمُحَرَّمَةٌ وَمَكْرُوهَةٌ : وَهُمَا ظَاهِرَانِ . فَقَوْلُهُ : كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ عَامٌّ مَخْصُوصٌ " . انظر : سبل السَّلام (١/ ٤٠٢) .

وقال الإمام التَّهانوي (المتوفى : بعد ١١٥٨هـ) : " وقد فصّل الشَّيخ عبد الحق الدِّهلوي في شرح المشكاة في باب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة ، فقال : اعلم بأنَّ كلّ ما ظهر بعد النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو بدعة . وكلّ ما وافق الأصول والقواعد أو القياس فتلك البدعة الحسنة . وما لم يوافق ذلك فهو البدعة السِّيئة والضَّلالة . ومفتاح كلّ بدعة ضلالة محمول على هذا .

هذا وإنَّ بعض البدع واجبة شرعاً ، مثل : تعلُّم وتعليم الصَّرف ، والنَّحو ، واللغة التي بها تُعرف الآيات والأحاديث ، وحفظ غريب الكتاب والسُّنَّة يصير ممكناً ، وبقيَّة الأشياء التي يتوقَّف عليها حفظ الدِّين والأمَّة .

وثمَّة بدع مستحسنة ومستحبّة ، مثل : بناء الرّباط ، والمدارس ، وأمثال ذلك ؛ وبعض البدع مكروهة ، مثل : تزيين المساجد بالنُّقوش والمصاحف على حدِّ قول بعضهم . وبعض البدع مباحة ، مثل : الرَّفاهية في المطاعم اللذيذة

والملابس الفاخرة ، بشروط منها : أن تكون حلالاً وأن لا تدعو إلىٰ الطُّغيان والتَّكبُّر والمفاخرة ، وكذلك المباحثات التي لم تكن في عصره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وبعض البدع حرام ، كما هي حال مذاهب أهل البدع والأهواء المخالفة للسُّنَّة والجماعة ، وما فعله الخلفاء الرَّاشدون ، وإن لم يكن موجوداً في عصره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو بدعة ، ولكن من قسم البدعة الحسنة ، بل هو في الحقيقة سنَّة ، لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حضَّ علىٰ التَّمسُّك بسنَّته وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين من بعده رضي الله عنهم " . انظر : موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٣١٣-٣١٤) .

وقال الإمام ابن عابدين (١٢٥٢هـ) : " (قَوْلُهُ أَيْ صَاحِبُ بِدْعَةٍ) أَيْ : مُحَرَّمَةٍ ، وَإِلَّا فَقَدْ تَكُونُ وَاجِبَةً ، كَنَصْبِ الْأَدِلَّةِ لِلرَّدِّ عَلَىٰ أَهْلِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ ، وَتَعَلُّمِ النَّحْوِ الْمُفْهِمِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَنْدُوبَةً كَإِحْدَاثِ نَحْوِ رِبَاطٍ وَمَدْرَسَةٍ وَكُلِّ إحْسَانٍ لَمْ يَكُنْ فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ ، وَمَكْرُوهَةٍ كَزَخْرَفَةِ الْمَسَاجِدِ . وَمُبَاحَةٍ كَالتَّوَسُّعِ بِلَذِيذِ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالثِّيَابِ " . انظر : رد المحتار علىٰ الدر المختار (١/ ٥٦٠) .

فبناء علىٰ ما سبق بيانه تبيَّن لنا أنَّ جمهور السَّلف والخلف علىٰ وفاقٍ تامٍّ في تعريف معنىٰ البدعة ، وأنَّها تنقسم إلىٰ قسمين : بدعة محمودة ، وهي ما وافق الشَّرع ، وبدعة مذمومة ، وهي ما خالف الشَّرع ... ومع أنَّ ابن تيمية ذكر في كُتُبه تعريف الجمهور للبدعة ، إلَّا أنَّه لم يلتزم به ، ولا بما نقله عن الإمام الشَّافعي من قوله : المحدثات ضربان : ما أحدث يخالف كتاباً أو سنَّة أو أثراً أو إجماعاً ، فهذه بدعة الضَّلال ، وما أحدث من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك ، فهذه محدثة غير مذمومة ... وكذا لم يلتزم بما ذكره من تقسيم العلماء للبدعة ، وأنَّها تنقسم إلىٰ الأحكام الخمسة ... ولو دقَّقنا في كتب ابن تيمية لرأينا أنَّه هو المبتدع بِدَعاً تصطدم مع مُحكم الكتاب وصحيح السُّنَّة ، فهو من ابتدع : القول بحوادث لا أوَّل لها ، وقال بِالقِدَم النَّوعي للعالم ، وقال بأنَّ الله تعالىٰ جسم ، وقال بالحدِّ لله تعالىٰ ، وقال بأنَّ الله تعالىٰ بقدْر العرش لا أكبر منه ولا أصغر ، وقال بتقسيم التَّوحيد إلىٰ ثلاثة أقسام ، حتىٰ غدا التَّوحيد تعديداً !!! وقال بأنَّ القرءان محدثٌ في ذاته تعالىٰ ، وقال بأنَّ إنشاء السَّفر لزيارة نبيِّنا محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصية لا تُقصر فيها الصَّلاة ، وقال بأنَّ نبيَّنا عليه الصَّلاة والسَّلام لا يتوسَّل به أحد ...الخ .

وعلىٰ كلِّ حال ، فمن تعريف العلماء للبدعة ، يتبيَّن لنا أنَّهم فهموا أنَّ البدعة المذمومة هي ما أُحدث علىٰ غير مثال سابق ممَّا يضادُّ الدِّين ، أمَّا ما كان موافقاً للأصول فلا يُعتبر بدعة ، بل هو من الدِّين ... قال الإمام الخطَّابي (٣٨٨هـ) في كلامه علىٰ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : " كلُّ محدثة بدعة " : " .. . فإنَّ هذا خاصٌّ في بعض الأمور دون بعض ، وكلُّ شيء أُحدث علىٰ غير أصل من أصول الدِّين وعلىٰ غير عياره وقياسه . وأمَّا ما كان منها مبنيَّاً علىٰ قواعد الأصول ومردودٌ إليها ، فليس ببدعة ، ولا ضلالة ، والله أعلم " . انظر : معالم السنن ، وهو شرح سنن أبي داود (٤/ ٣٠١) .

ومع كلِّ ما سبق بيانه ، رأينا من يدَّعون ويزعمون السَّلفيَّة يُنكرون تقسيم البدعة إلىٰ : بدعة حسنة ، وبدعة سيِّئة ، فقد جاء في مؤلَّفات الفوزان ، تحت عنوان : " البدع وما يتَّصل بالأموات والقبور " : ما حكم تقسيم البدعة إلىٰ بدعة حسنة وبدعة سيِّئة ؟ وهل يصِحُّ لمن رأىٰ هذا التَّقسيم أن يحتجَّ بقول الرَّسول : " مَن سنَّ سُنَّةً حسنةً في الإسلام ... " الحديث ، وبقول عمرَ : " نعمتِ البدعةُ هذه ... " ؟ نرجو في ذلك الإفادة ، جزاكم الله خيراً .

ليس مع من قسَّم البدعة إلىٰ بدعةٍ حسنة وبدعةٍ سيئةٍ دليلٌ ؛ لأنَّ البدع كلَّها سيئةٌ !!! لقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كلُّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة في النَّار " . رواه النَّسائي في " سُننه " (٣/ ١٨٨-١٨٩) من حديث جابر بن عبد الله بنحوه ، ورواه الإمام مسلم في " صحيحه " (٢/ ٥٩٢) بدون ذكر : " وكلُّ ضلالة في النَّار " من حديث جابر بن عبد الله .

وأمَّا قوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَن سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً " رواه الإمام مسلم في " صحيحه " (٢/ ٧٠٤-٧٠٥) من حديث جرير بن عبد الله ؛ فالمرادُ به : من أحيا سُنَّةً ؛ لأنَّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ذلك بمناسبة ما فعلَهُ أحد الصَّحابة من مجيئه بالصَّدقة في أزمةٍ من الأزمات ، حتىٰ اقتدىٰ به النَّاس ، وتتابعوا في تقديم الصَّدقات .

وأمَّا قول عمر رضي الله عنه : " نعمتِ البدعةُ هذه " ؛ فالمراد بذلك البدعة اللغويَّة لا البدعة الشَّرعيَّةُ ؛ لأنَّ عمر قال ذلك بمناسبة جمعه النَّاس علىٰ إمام واحد في صلاة التَّراويح ، وصلاة التَّراويح جماعة قد شرعها الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ حيث صلَّاها بأصحابه ليالي ، ثُمَّ تخلَّفَ عنهم خشية أن تُفرضَ عليهم ، وبقي النَّاس يصلُّونها فرادىٰ وجماعات متفرِّقة ، فجمعهم عمر علىٰ إمام واحد ، كما كان علىٰ عهد النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليالي التي صلَّاها بهم ، فأحيىٰ عمر تلك السُّنَّة ، فيكون قد أعاد شيئاً قد انقطع ، فيُعتبَرُ فعله هذا بدعة لغويَّة لا شرعيَّةً ؛ لأنَّ البدعة الشَّرعية محرَّمة ، لا يمكن لعمر ولا لغيره أن يفعلها ، وهم يعلمون تحذير النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البدع " . انظر : مؤلفات الفوزان (٥٩/ ١) .

وجاء في " مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز " : " سؤال من السُّودان : يقول مرسله : قسَّم الشَّيخ النَّووي رحمه الله في شرحه موضوع البدعة إلىٰ خمسة أقسام :

(١) بدعة واجبة ، ومثالها : نظم أدلَّة المتكلِّمين علىٰ الملاحدة .

(٢) المندوبة ، ومثالها : تصنيف كُتب العلم .

(٣) المباحة ، مثالها : التبسُّط في ألوان الطَّعام .

(٤) (٥) الحرام والمكروه ، وهما واضحان .

والسُّؤال : يقول الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كلُّ بدعة ضلالة " ، أرجو توضيح ذلك مع ما يقصده الشَّيخ النَّووي رحمه الله ، بارك الله فيكم .

ج١ : هذا الذي نقلته عن النَّووي في تقسيمه البدعة إلىٰ خمسة أقسام قد ذكره جماعة من أهل العلم ، وقالوا : إنَّ البدعة تنقسم إلىٰ أقسام خمسة : واجبة ، ومستحبَّة ، ومباحة ، ومحرَّمة ، ومكروهة . وذهب آخرون من أهل العلم إلىٰ أنَّ البدعة كلُّها ضلالة ، وليس فيها تقسيم ، بل كلُّها كما قال النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضلالة ، قال عليه الصَّلاه والسَّلام : " كلُّ بدعة ضلالة " ، هكذا جاءت الأحاديث الصَّحيحة عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ ومنها ما رواه مسلم في الصَّحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما ، قال : كان النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب يوم الجمعة ويقول في خطبته : " أمَّا بعد ، فإنَّ خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكلُّ بدعة ضلالة " ، وجاء في هذا المعنىٰ عدَّة أحاديث من حديث عائشة ، ومن حديث العرباض بن سارية ، وأحاديث أخرىٰ . وهذا هو الصَّواب ، أنَّهَا لا تنقسم إلىٰ هذه الأقسام التي ذكر النَّووي وغيره ، بل كلُّها ضلالة ، والبدعة تكون في الدِّين لا في الأمور المباحة ، كالتَّنوُّع في الطَّعام علىٰ وجه جديد لا يعرف في الزَّمن الأَوَّل ، فهذا لا يسمَّىٰ بدعة من حيث الشَّرع المطهَّر ، وإن كان بدعة من حيث اللغة ، فالبدعة في اللغة هي الشَّيء المحدث علىٰ غير مثال سبق ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [البقرة : ١١٧] ، يعني : مبتدعها وموجدها علىٰ غير مثال سابق ، لكن لا يقال في شيء أنَّه في الشَّرع المطهَّر بدعة إلَّا إذا كان مُحدَثاً ، لم يأت في الكتاب والسُّنَّة ما يدلُّ علىٰ شرعيَّته ، وهذا هو الحقُّ الذي ارتضاه جماعة من أهل العلم وقرَّروه وردُّوا علىٰ من خالف ذلك " . انظر : مجموع فتاوىٰ عبد العزيز بن باز (٥/ ١٧٨) .

وقد انبرىٰ للرَّدِّ عليهم الإمام محمَّد بن علوي المالكي ، فقال في ردِّه عليهم : " ينتقد بعضهم تقسيم البدعة إلىٰ حسنة وسيِّئة ، وينكر علىٰ من يقول ذلك أشدَّ الإنكار ، بل ومنهم من يرميه بالفسق والضَّلال ، وذلك لمخالفة صريح قول الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كلُّ بدعة ضلالة " ، وهذا اللفظ صريحٌ في العموم ، وصريحٌ في وصف البدعة بالضَّلالة ، ومن هنا تراه يقول : فهل يصحُّ بعد قول المشرِّع صاحب الرِّسالة : أنَّ " كلَّ بدعة ضلالة " يأتي مجتهد أو فقيه مهما كانت رتبته فيقول : لا – لا – ليست كلُّ بدعة ضلالة ، بل بعضها ضلالة ، وبعضها حسنة ، وبعضها سيِّئة .

وبهذا المدخل يغترُّ كثير من النَّاس ، فيصيح مع الصَّائحين وينكر مع المنكرين ، ويكثّر سواد هؤلاء الذين لم يفهموا مقاصد الشَّريعة ، ولم يذوقوا روح الدِّين الإسلامي ، ثُمَّ لا يلبث إلَّا يسيراً حتىٰ يضطرَّ إلىٰ إيجاد مخرج يحلُّ له المشاكل التي تصادمه ، ويفسِّر له الواقع الذي يعيشه ، إنَّه يضطرُّ إلىٰ اللجوء إلىٰ اختراع وسيلة أخرىٰ ، لولاها لما

يستطيع أن يأكل ، ولا يشرب ، ولا يسكن ، بل ولا يلبس ، ولا يتنفَّس ، ولا يتزوَّج ، ولا يتعامل مع نفسه ولا أهله ولا إخوانه ولا مجتمعه ، هذه الوسيلة هي أن يقول باللفظ الصَّريح : إنَّ البدعة تنقسم إلىٰ بدعة دينيَّة ودنيويَّة ، يا سبحان الله – لقد أجاز هذا المتلاعب لنفسه أن يخترع هذا التَّقسيم !!! أو علىٰ الأقل أن يخترع هذه التَّسمية ، ولو سلَّمنا أنَّ هذا المعنىٰ كان موجوداً منذ عهد النُّبوَّة ، لكن هذه التَّسمية : دينيَّة ودنيويَّة ، لم تكن موجودة قطعاً في عهد التَّشريع النَّبويِّ ، فمن أين جاء هذا التَّقسيم ؟ ومن أين جاءت هذه التَّسمية المبتدعة ؟!!! .

فمن قال : إنَّ تقسيم البدعة إلىٰ حسنة وسيِّئة لم يأت من الشَّارع ، نقول له : وكذا تقسيم البدعة إلىٰ دينيَّة غير مقبولة ، ودنيويَّة مقبولة ، هو عين الابتداع والاختراع .

فالشَّارع يقول : " كلُّ بدعة ضلالة " ، هكذا بالإطلاق ، وهذا يقول : لا – لا ليست كل بدعة ضلالة بالإطلاق ، بل إنَّ البدعة تنقسم إلىٰ قسمين : دينيَّة وهي الضَّلالة ، ودنيويَّة وهي التي لا شيء فيها .

ولذا لا بدَّ أن نوضِّح هنا مسألة مهمَّة ، وبها ينجلي كثير من الإشكال ، ويزول اللبس إن شاء الله .

وهو أنَّ المتكلِّم هنا هو الشَّارع الحكيم ، فلسانه هو لسان الشَّرع ، فلا بدَّ من فهم كلامه علىٰ الميزان الشَّرعيِّ الذي جاء به ، وإذا علمت أنَّ البدعة في الأصل هي : كلُّ ما أُحدث واختُرع علىٰ غير مثال ، فلا يغيب عن ذهنك أنَّ الزِّيادة أو الاختراع المذموم هنا هو الزِّيادة في أمر الدِّين ليصير من أمر الدِّين ، والزِّيادة في الشَّريعة ليأخذ صبغة الشَّريعة ، فيصير شريعة متَّبعة منسوبة لصاحب الشَّريعة ، وهذا هو الذي حذَّر منه سيِّدنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ " ، فالحدُّ الفاصل في الموضوع هو قوله : " في أمرنا هذا " . ولذلك فإنَّ تقسيم البدعة إلىٰ حسنة وسيِّئة في مفهومنا ليس إلَّا للبدعة اللغويَّة التي هي مجرَّد الاختراع والإحداث ، ولا نشكُّ جميعاً في أنَّ البدعة بالمعنىٰ الشَّرعيِّ ليست إلَّا ضلالة وفتنة مذمومة مردودة مبغوضة ، ولو فهم أولئك المنكرون هذا المعنىٰ لظهر لهم أنَّ محلَّ الاجتماع قريب ، وموطن النِّزاع بعيد .

وزيادة في التَّقريب بين الأفهام أرىٰ أنَّ منكري التَّقسيم إنَّما ينكرون تقسيم البدعة الشَّرعيَّة ، بدليل تقسيمهم البدعة إلىٰ دينيَّة ودنيويَّة ، واعتبارهم ذلك ضرورة ، وأنَّ القائلين بالتَّقسيم إلىٰ حسنة وسيِّئة يرون أنَّ هذا إنَّما هو بالنِّسبة للبدعة اللغويَّة لأنَّهم يقولون : إنَّ الزِّيادة في الدِّين والشَّريعة ضلالة وسيِّئة كبيرة ، ولا شكَّ في ذلك عندهم ، فالخلاف شكليٌّ ، غير أنِّي أرىٰ أنَّ إخواننا المنكرين لتقسيم البدعة إلىٰ حسنة وسيِّئة ، والقائلين بتقسيمها إلىٰ دينيَّة ودنيويَّة لم يحالفهم الحظُّ في دقَّة التَّعبير ، وذلك لأنَّهم لَّما حكموا بأنَّ البدعة الدِّينيَّة ضلالة – وهذا حقٌّ – وحكموا بأنَّ البدعة الدُّنيويَّة لا شيء فيها ، قد أساءوا الحكم ، لأنَّهم بهذا قد حكموا علىٰ كلِّ بدعة دنيويَّة بالإباحة ، وفي هذا خطر عظيم ، وتقع به فتنة ومصيبة ، ولا بدَّ حينئذ من تفصيل واجب وضروريّ للقضيَّة ، وهو أن يقولوا :

إنَّ هذه البدعة الدُّنيويَّة : منها ما هو خير ، ومنها ما هو شرٌّ ، كما هو الواقع المشاهد الذي لا ينكره إلَّا أعمىٰ جاهل ، وهذه الزِّيادة لا بدَّ منها ، ويكفي في تحقيق هذا المعنىٰ بدقَّة قول من قال : بأنَّ البدعة تنقسم إلىٰ حسنة وسيِّئة ، ومعلوم أنَّ المراد بها اللغويَّة ، كما تقدَّم ، وهي التي عبَّر عنها المنكرون بالدُّنيويَّة ، وهذا القول في غاية الدقَّة والاحتياط ، وهو ينادي علىٰ كلِّ جديد بالانضباط والانصياع لحكم الشَّرع وقواعد الدِّين ، ويلزم المسلمين أن يعرضوا كلَّ ما جدَّ لهم ، وأُحدث من أمورهم الدُّنيويَّة العامَّة والخاصَّة علىٰ الشَّريعة الإسلاميَّة ، ليرىٰ حكم الإسلام فيها مهما كانت تلك البدعة ، وهذه لا يتحقَّق إلا بالتَّقسيم الرَّائع المعتبر عن أئمَّة الأصول ، فرضي الله عن أئمَّة الأصول ، وعن تحريرهم للألفاظ الصَّحيحة المجزئة المؤدِّية إلىٰ المعاني السَّليمة دون نقص أو تحريف أو تأويل " . انظر : مفاهيم يجب أن تُصحَّح (ص١٠٤-١٠٦) .

وممَّا يدلُّ علىٰ البدعة الحسنة : قوله تعالىٰ : **﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها مَا كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾** [الحديد : ٢٧] ، " قال أبو أُمامة الباهلي وغيره : معنىٰ الآية : لم نكتبها عليهم ولم يبتدعوها إلَّا ابتغاء رضوان الله ، فعاتبهم الله بتركها .

قال الحارث : وهذا أولىٰ التَّفسيرين بالحقِّ ، يريد قول أبي أمامة ، قال : وعليه أكثر العلماء ، وقال الحارث : فذمَّهم الله عليه بترك رعاية ما ابتدعوا ، فكيف بمن ضيَّع رعاية ما وجب الله عليه ... ثُمَّ قال : **﴿فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾** [الحديد : ٢٧] ، أي : فأعطينا الذين آمنوا بالله ورسوله من هؤلاء الذين ابتدعوا الرَّهبانيَّة ثوابهم علىٰ فعلهم " . انظر : الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٣٣٥-٧٣٣٦) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١هـ) في تفسير الآية : " يَقُولُ: ابْتَدَعَهَا هَؤُلَاءِ الصَّالِحُونَ **﴿فَما رَعَوْها﴾** الْمُتَأَخِّرُونَ **﴿حَقَّ رِعايَتِها﴾** **﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾** يَعْنِي الَّذِينَ ابْتَدَعُوهَا أَوَّلًا وَرَعَوْهَا **﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾** يَعْنِي الْمُتَأَخِّرِينَ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، جَاءُوا مِنَ الْكُهُوفِ وَالصَّوَامِعِ وَالْغِيرَانِ فَآمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الثَّالِثَةُ- وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، فَيَنْبَغِي لِمَنِ ابْتَدَعَ خَيْرًا أَنْ يَدُومَ عَلَيْهِ، وَلَا يَعْدِلَ عَنْهُ إِلَى ضِدِّهِ فَيَدْخُلُ فِي الْآيَةِ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٢٦٤) .

فمن ابتدع بدعة طيِّبة حسنة موافقة للدِّين فله أجره بنصِّ الكتاب العزيز ، والأجر لا يتحصَّل إلَّا إذا كان العمل مرضيَّاً عنه عند الله تعالىٰ ...

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : " ومعنىٰ **﴿ابتَدَعُوْهَا﴾** أي : أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم ، وإعراب رهبانيَّة معطوف علىٰ رأفة ورحمة ، أي : جعل الله في قلوبهم الرَّأفة والرَّحمة والرَّهبانيَّة ، وابتدعوها صفة للرَّهبانيَّة ، والجعل هنا بمعنىٰ الخلق . والمعتزلة يُعربون رهبانيَّة مفعولاً بفعل مضمر يفسِّره ابتدعوها؛ لأنَّ مذهبهم

أنَّ الإنسان يخلق أفعاله ، فأعربوها على مذهبهم ، وكذلك أعربها أبو علي الفارسي ، وذكر الزَّمخشري الوجهين ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ اللهِ﴾ كتبنا هنا بمعنى ، فرضنا وشرعنا ، وفي هذه قولان : أحدهما : أنَّ الاستثناء منقطع ، والمعنى ما كتبنا عليهم الرَّهبانيَّة ، ولكنَّهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ، ابتغاء رضوان الله ، والآخر أنَّ الاستئناف متَّصل والمعنى كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله ، والأَوَّل أرجح لقوله ﴿ابْتَدَعُوْهَا﴾ ولقراءة عبد الله بن مسعود : ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي لم يدوموا عليها ، ولم يحافظوا ، ابتدعوا الرَّهبانيَّة ، وكان يجب عليهم إتمامها ، وإن لم يكتبها الله سبحانه وتعالى عليهم ، لأنَّ من دخل في شيء من النَّوافل يجب عليه إتمامه وقيل : الضَّمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرَّهبانية من أتباعهم" . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٤٩) .

(١٥) الخوارج هم الذين خرجوا على الخليفة الرَّاشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويجمعهم القول بالتَّبرِّي من الخليفتين : عثمان وعلي رضي الله عنهما ، كما أنَّهم أجمعوا على اعتقاد كفر مرتكب الكبيرة ، وتخليده في النَّار إذا مات مصرَّاً عليها ، باستثناء النّجدات منهم ، فقد خالفوهم في ذلك ... وفِرَقُ الخوارج كثيرة ، أوصلها البعض إلى عشرين فرقة ... وهم أهل عبادة على جهل منهم ، ومن أشهر أسمائهم : الحروريَّة ، نسبة إلى حروراء . انظر : الفرق بين الفرق (ص٢٠ ، ٢٤ ، ٧٢ فما بعدها) ، التبصير في الدِّين (ص٤٥ فما بعدها) .

(١٦) الرَّافضة هم الشِّيعة الإماميَّة الجعفريَّة الاثنى عشريَّة ، وهو اسم مُثبت في كتبهم ، وقد نصَّ الامام جعفر الصَّادق على أنَّ الله تعالى هو من سمَّاهم به ...

فعن محمَّد بن سليمان ، عن أبيه ، قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السَّلام إذ دخل عليه أبو بصير ... قال : جُعلتُ فداك ، فإنَّا قد نُبِزْنا نَبْزاً أَثْقَلَ ظُهورَنا ، وماتت له أفئدَتُنا ، واستحلَّت له الوُلاةُ دماءَنا في حديث رواه لهم فقهاؤهم ، فقال أبو عبد الله عليه السَّلام : الرَّافضة؟ قالوا : نعم ، فقال : لا والله ما هم سمّوكم ... ولكنَّ الله سمَّاكم به" . انظر : الكافي للكليني (٨/ ٣٤) ، بحار الأنوار للمجلسي (٦٥/ ٤٩) ، ألف حديث في المؤمن (ص١٣٠) ، أحاديث أهل البيت (٥/ ٢٥٤) ، (٩/ ٤٧) ، الشيعة في أحاديث الفريقين (ص٤٤٣) .

قال الإمام طاهر بن محمَّد الأسفراييني (٤٧١هـ) : " قَالَ الشّعبِيّ : إِنَّ الرَّوافض شَرّ من الْيَهُود وَالنَّصَارَىٰ ، فَإِن الْيَهُود سئلوا عَن أَخْبَار ملَّتهم ، فَقَالُوا : أَصْحَاب مُوسَىٰ وَالنَّصَارَىٰ سئلوا عَن أَخْبَار ملَّتهم ، فَقَالُوا : الحواريُّون الَّذين كَانُوا مَعَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام ، وسئلت الرَّافضة عَن شَرّ هَذِه الْأمَّة ، فَقَالُوا : أَصْحَاب محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَا جرم يكون سيف الْحقّ مسلولاً عَلَيْهِم إِلَىٰ يَوْم الْقِيَامَة ، وَلَا يرىٰ لَهُم قدم ثَابت ، وَلَا كلمة مجتمعة ، وَلَا

راية مَنْصُوبَة ، وَلَا ينصرهم أحد إِلَّا صار مخذولاً لشؤم بدعتهم ، وَالْعجب أَنَّهم يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّحَابَة ، ويسيئون القَوْل فيهم ، وَلَا يتأمَّلون كتاب الله حَيْثُ أثنى عَلَيْهِم بقوله سُبْحَانَهُ : **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِّ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكفَّار رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِّ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفَّار وَعَدَ اللهُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾** [الفتح :٢٩] ، فَأثنى عَلَيْهِم كَمَا ترى فَأخْبر أَن صفتهمْ مذكورة فِي التَّوْرَاة والأنجيل ، كَمَا أخبر بِهِ ، كزرع أخرج شطئه ، وفئازره فاستغلظ فَاسْتَوَى على سوقه ، يعجب الزرَّاع ليغيظ بهم الكفَّار ، حَتَّى قَالَ أَبُو إِدْرِيس الْمُفَسّر : أَنَّ ظَاهر هَذِه الْآيَة يُوجب أَنَّ الرَّوافض كفَّار ، لأنَّ فِي قُلُوبهم غيظاً من الصَّحَابَة ، وعداوة لَهُم ، أَلا ترَاهُ يَقُول : **﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾** [الفتح :٢٩] فَبيَّن أَنَّ من كَانَ فِي قلبه غيظ مِنْهُم من الكفَّار

وروى عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنهُ أَن النَّبِي صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : سَيكون فِي آخر الزَّمَان قوم لَهُم نبز ، يُقَال لَهُم الرَّوافض ، يرفضون الْإِسْلَام ، فاقتلوهم فَإِنَّهُم مشركون ..." . انظر : التبصير في الدِّين (ص٤١-٤٢) .

(١٧) الإلحاد : مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدميَّة أساسها إنكار وجود الله الخالق سبحانه وتعالى : فيدَّعي الملحدون بأنَّ الكون وُجدَ بلا خالق ، وأنَّ المادَّة أزليَّة أبديَّة ، وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت .

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ كثيراً من دول العالم الغربي والشَّرقي تعاني من نزعة إلحاديَّة عارمة جسَّدتها الشُّيوعيَّة المنهارة والعلمانيَّة المخادعة .

التَّأسيس وأبرز الشَّخصيَّات :

الإلحاد بدعة جديدة لم توجد في القديم إلَّا في النَّادر في بعض الأمم والأفراد .

يُعدُّ أتباع العلمانيَّة هم المؤسِّسون الحقيقيين للإلحاد ، ومن هؤلاء : أتباع الشُّيوعيَّة والوجوديَّة والدَّارونيَّة .

الحركة الصُّهيونيَّة أرادت نشر الإلحاد في الأرض فنشرت العلمانيَّة لإفساد أمم الأرض بالإلحاد والماديَّة المفرطة ، والانسلاخ من كلِّ الضَّوابط التَّشريعيَّة والأخلاقيَّة كي تهدم هذه الأمم نفسها بنفسها ، وعندما يخلو الجو لليهود يستطيعون حكم العالم .

نشر اليهود نظريَّات ماركس في الاقتصاد ، والتَّفسير المادِّي للتَّاريخ ، ونظريَّات فرويد في علم النَّفس ، ونظريَّة دارون في أصل الأنواع ، ونظريَّات دوركايم في علم الاجتماع ، وكلُّ هذه النَّظريات من أسس الإلحاد في العالم .

أمَّا انتشار الحركات الإلحاديَّة بين المسلمين في الوقت الحاضر ، فقد بدأت بعد سقوط الخلافة الإسلاميَّة .

صدر كتاب في تركيًا عنوانه : مصطفى كمال للكاتب قابيل آدم ، يتضمَّن مطاعن قبيحة في الأديان ، وبخاصَّة الدِّين الإسلامي . وفيه دعوة صريحة للإلحاد بالدِّين وإشادة بالعقليَّة الأوروبيَّة .

إسماعيل أحمد أدهم . حاول نشر الإلحاد في مصر ، وألَّف رسالة بعنوان لماذا أنا ملحد؟ وطبعها بمطبعة التَّعاون بالإسكندريَّة حوالي سنة (١٩٢٦م) .

إسماعيل مظهر أصدر في سنة (١٩٢٨م) مجلَّة العصور في مصر ، وكانت قبل توبته تدعو للإلحاد والطَّعن في العرب والعروبة طعناً قبيحاً . معيداً تاريخ الشُّعوبيَّة ، ومتَّهماً العقليَّة العربيَّة بالجمود والانحطاط ، ومشيداً بأمجاد بني إسرائيل ونشاطهم وتفوُّقهم واجتهادهم .

أسست في مصر سنة (١٩٢٨م) جماعة لنشر الإلحاد تحت شعار الأدب ، واتَّخذت دار العصور مقرَّاً لها ، واسمها رابطة الأدب الجديد ، وكان أمين سرِّها كامل كيلاني ... وقد تاب إلى الله بعد ذلك .

ومن أعلام الإلحاد في العالم :

أتباع الشُّيوعيَّة : ويتقدَّمهم كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) اليهودي الألماني ، وإنجلز عالم الاجتماع الألماني والفيلسوف السِّياسي الذي التقى بماركس في إنجلترا وأصدرا سويَّاً المانيفستو أو البيان الشُّيوعي سنة (١٨٢٠ - ١٨٩٥م) .

أتباع الوجوديَّة :

ويتقدَّمهم : جان بول سارتر ، وسيمون دوبرفوار ، والبير كامي ، وأتباع الدَّاروينيَّة .

ومن الفلاسفة والأدباء :نيتشه ، فيلسوف ألماني برتراند راسل(١٨٧٢ - ١٩٧٠م) فيلسوف إنكليزي ، هيجل(١٧٧٠ - ١٨٣١م) فيلسوف ألماني قامت فلسفته على دراسة التَّاريخ ، هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) إنكليزي كتب في الفلسفة وعلم النَّفس والأخلاق ، فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨م) أديب فرنسي .

في سنة (١٩٣٠م) ألَّف إسماعيل مظهر حزب الفلاح ليكون منبراً للشُّيوعيَّة والاشتراكيَّة . وقد تاب إسماعيل إلى الله بعد أن تعدَّى مرحلة الشَّباب ، وأصبح يكتب عن مزايا الإسلام .

ومن الشُّعراء الملاحدة الذين كانوا ينشرون في مجلة العصور .

الشَّاعر عبد اللطيف ثابت الذي كان يشكِّك في الأديان في شعره ...

والشَّاعر الزَّهاوي يعد عميد الشُّعراء المشكِّكين في عصره .

الأفكار والمعتقدات :

- إنكار وجود الله سبحانه ، الخالق البارئ ، المصوِّر ، تعالى الله عمَّا يقولون علوَّاً كبيراً .

أَو قرامطة (١٨) ،

- إنَّ الكون والإنسان والحيوان والنَّبات وُجد صُدفة وسينتهي كما بدأ ولا توجد حياة بعد الموت .
- إنَّ المادَّة أزليَّة أبديَّة وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت .
- النَّظرة الغائيَّة للكون والمفاهيم الأخلاقيَّة تعيق تقدَّم العلم .
- إنكار معجزات الأنبياء ، لأنَّ تلك المعجزات لا يقبلها العلم ، كما يزعمون . ومن العجب أنَّ الملحدين الماديِّين يقبلون معجزات الطّفرة الوحيدة التي تقول بها الدَّاروينيَّة ولا سند لها إلَّا الهوس والخيال .
- عدم الاعتراف بالمفاهيم الأخلاقيَّة ولا بالحقِّ والعدل ولا بالأهداف السَّامية ، ولا بالرُّوح والجمال .
- ينظر الملاحدة للتَّاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل وقصَّته لا تعني شيئاً .
- المعرفة الدِّينيَّة ، في رأي الملاحدة ، تختلف اختلافاً جذريًّا وكليًّا عن المعرفة بمعناها العقلي أو العلمي!!
- الإنسان مادة تنطبق عليه قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية .
- الحاجات هي التي تحدِّد الأفكار ، وليست الأفكار هي التي تحدِّد الحاجات .
- نظريات ماركس في الاقتصاد ، والتَّفسير الماديِّ للتَّاريخ ، ونظريَّة فرويد في علم النَّفس ، ونظريَّة دارون في أصل الأنواع ، ونظريَّة دوركايم في علم الاجتماع من أهم أُسس الإلحاد في العالم ... وجميع هذه النَّظريَّات هي ممَّا أثبت العلماء أنَّها حدس وخيالات وأوهام شخصَّية ، ولا صلة لها بالعلم . انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/ ٨٠٣ فما بعدها) .

(١٨) القرامطة : فِرْقَةٌ مِنَ الزَّنَادِقَةِ الْمَلَاحِدَةِ أَتْبَاعِ الْفَلَاسِفَةِ مِنَ الْفُرْسِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ نُبُوَّةَ زَرَادِشْتَ وَمَزْدَكَ ، وَكَانَا يُبِيحَانِ الْمُحَرَّمَاتِ .

ثمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ إِلَى بَاطِلٍ ، وَأَكْثَرُ مَا يفسدون من جهة الرَّافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم ، لأنَّهم أقلّ النَّاس عقولاً ، ويقال لهم الاسماعيليَّة ، لا نتسابهم إِلَى إِسْمَاعِيلَ الْأَعْرَجِ بْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ .

وَيُقَالُ لَهُمُ الْقَرَامِطَةُ ، قِيلَ نِسْبَةً إِلَى قِرْمِطِ بْنِ الْأَشْعَثِ الْبَقَّارِ ، وَقِيلَ إِنَّ رَئِيسَهُمْ كَانَ فِي أَوَّلِ دَعْوَتِهِ يَأْمُرُ مَنِ اتَّبَعَهُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً في كل يوم وليلة لشغلهم بِذَلِكَ عَمَّا يُرِيدُ تَدْبِيرَهُ مِنَ الْمَكِيدَةِ .

ثُمَّ اتَّخَذَ نُقَبَاءَ اثْنَيْ عَشَرَ ، وَأَسَّسَ لِأَتْبَاعِهِ دَعْوَةً ومسلكاً يسلكونه ودعا إلى إمام أَهْلِ الْبَيْتِ ، وَيُقَالُ لَهُمُ الْبَاطِنِيَّةُ لِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الرَّفْضَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ الْمَحْضَ ، وَالْخُرَّمِيَّةُ وَالْبَابَكِيَّةُ نِسْبَةً إِلَى بَابَكَ الْخُرَّمِيِّ الَّذِي ظَهَرَ فِي أَيَّام المعتصم وقتل كما تقدَّم ، وَيُقَالُ لَهُمُ الْمُحَمِّرَةُ نِسْبَةً إِلَى صَبْغِ الْحُمْرَةِ شعار مضاهاة لبني العبَّاس ومخالفة لهم ، لأنَّ بني العبَّاس يلبسون السَّواد .

وَأَمَّا السُّنَّة وَالْجَمَاعَة فَلَا تَجْتَمِع إِلَّا على كتاب الله الْمُبين وحبله المتين ، وَفِي هَذَا الْفَرِيق من يكذب على السَّابِقين الْأَوَّلين من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار وَيَزْعُم أَنَّهم يَقُولُونَ بمقالته ، وَلَو أنْفق ملْء الأَرْض ذَهَباً مَا اسْتَطَاعَ أَن يروِّج عَلَيْهِم كلمة تصدِّق دَعْوَاهُ ، وتستَّر هَذَا الْفَرِيق بالسَّلف حفظاً لرياسته والحطام الَّذِي يجتليه ﴿يُرِيدُونَ أَن يأمنوكم ويأمنوا قَومهمْ﴾ [النساء:٩١] ، وَهَؤُلَاء يتحلَّون بالرِّياء والتَّقشُّف فيجعلون الرّوث (١٩) مفضَّضاً (٢٠) ، والكنيف (٢١) مبيَّضاً ، ويزهدون فِي الذرَّة ليحصِّلوا الدرَّة :

أَظْهَرُوا للنَّاسِ نُسْكَاً وعَلَى المنْقُوْشِ دَارُوا (٢٢)

وَيُقَالُ لَهُمُ التَّعْلِيمِيَّةُ نِسْبَةً إِلَىٰ التَّعَلُّمِ مِنَ الْإِمَامِ الْمَعْصُومِ .

وَتَرْكِ الرَّأْيِ وَمُقْتَضَىٰ الْعَقْلِ .

وَيُقَالُ لَهُمُ السَّبْعِيَّةُ نِسْبَةً إِلَىٰ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْكَوَاكِبَ السَّبعة المتحيِّزة السَّائر مُدَبِّرَةٌ لِهَذَا الْعَالَمِ فِيمَا يَزْعُمُونَ لَعَنَهُمُ اللهُ .

وَهِيَ الْقَمَرُ فِي الْأُولَىٰ ، وَعُطَارِدُ فِي الثَّانِيَةِ ، وَالزُّهْرَةُ فِي الثَّالِثَةِ ، وَالشَّمْسُ في الرَّابِعَةِ ، وَالْمِرِّيخُ فِي الْخَامِسَةِ ، وَالْمُشْتَرَىٰ فِي السَّادِسَةِ ، وَزُحَلُ فِي السَّابِعَةِ .

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : وَقَدْ بَقِيَ مِنَ الْبَابَكِيَّةِ جَمَاعَةٌ ، يُقَالُ : إِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ لَيْلَةً هُمْ وَنِسَاؤُهُمْ ثُمَّ يطفئون المصباح وينتهبون النِّساء ، فمن وقعت يده في امْرَأَةٌ حَلَّتْ لَهُ .

وَيَقُولُونَ هَذَا اصْطِيَادٌ مُبَاحٌ لعنهم الله . انظر : البداية والنهاية (١١/ ٧١-٧٢) .

(١٩) ما يخرج من الحيوانات من بُراز ...

(٢٠) أي : مرصَّعاً بالفضَّة .

(٢١) مكان قضاء الحاجة .

(٢٢) والغريب العجيب أنَّ الإمام ابن تيمية في كتابه : "بيان تلبيس الجهميَّة" (٢/ ١٦٤) يصرِّح بأنَّ ما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل في مسألة التَّفويض إنَّما هو تفويض الكيْف والمعنىٰ ، قال : "وقال الخلَّال : وأخبرني علي بن عيسىٰ أنَّ حنبلاً حدَّثهم ، قال : سألت أبا عبد الله عن الأحاديث التي تُروىٰ : "أنَّ الله تبارك وتعالىٰ ينزل إلىٰ السَّماء الدُّنيا" و"أنَّ الله يضع قدَمَه" وما أشبه هذه الأحاديث ، فقال أبو عبد الله : نؤمن بها ، ونصدِّق بها ، **وَلَا كَيْفَ ، وَلَا مَعْنَى** ، ولا نردّ منها شيئاً ، ونعلم أنَّ ما جاء به الرَّسول حقّ . إذا كانت بأسانيد صِحاح ، ولا نردّ علىٰ الله قوله ، ولا يوصف بأكثر ممَّا وصف به نفسه بلا حدٍّ ولا غاية ، ليس كمثله شيء ..." ، ومع ذلك أصرّ ابن تيمية علىٰ أنَّ تفويض السَّلف إنَّما هو تفويض الكيْف دون المعنىٰ ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله .

وَمذهب السَّلف إِنَّمَا هُوَ التَّوْحِيد والتَّنزيه (٢٣) دون التَّجسيم والتَّشبيه ، والمبتدعة تزْعم أَنَّهَا على مَذْهَب السَّلف .

كما أنَّه – عفا الله عنه– يصرِّح بالحدِّ لله تعالى في غير ما كتاب من كتبه ، كما ويصرِّح –كما في الموافقة (٢/ ٢٩) ، بأنَّ من لم يعترف بالحدّ لله تعالى ، فهو كافر بتنزيل الله ، وجاحد بآياته تعالى ، والسُّؤال الذي نوجِّهه له هنا : أين وصف الله تعالى نفسه بالحدّ؟ وأين وصفه رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك؟ ، نبِّئوني بعلم إن كنتم صادقين ...

والحقُّ أنَّ أكثر السَّلف ذهبوا إلى التَّفويض ، اكتفاء بقوله تعالى : ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى : ١١] . قال الإمام الكوثري في تعليقه على الأسماء والصِّفات للبيهقي (ص٥١٦-٥١٧) : " قال ابن حزم (وهو ممَّن يتكلَّم باسم السَّلف) : قول الله تعالى يجب حمله على ظاهره ما لم يمنع من حمله على ظاهره نصّ آخر أو إجماع أو ضرورة حسّ ، وقد علمنا أنَّ كلَّ ما كان في مكان فإنَّه شاغل لذلك المكان ومالئ له ومتشكِّل بشكله ، ولا بدَّ من أحد الأمرين ضرورة ، وعلمنا أنَّ ما كان في مكان فإنَّه متناه بتناهي مكانه ، وهو ذو جهات ستّ أو خمس متناهية في مكانه ، وهذه كلُّها صفات الجسم . أهـ . ثُمَّ قال : إنَّ الأمَّة أجمعت على أنَّه لا يدعو أحد فيقول : يا مستوي ارحمني ، ولا يسمِّي ابنه عبد المستوى . أهـ . ثُمَّ قال : إنَّ معنى قوله : ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه : ٥] أنَّه فعل فعله في العرش ، وهو انتهاء خلقه إليه ، فليس بعد العرش شيء ، والعرش نهاية جرم المخلوقات الذي ليس خلفه خلاء ولا ملاء ، ومن أنكر أن يكون للعالم نهاية من المساحة والزَّمان والمكان فقد لحق بقول الدَّهريَّة ، وفارق الإسلام ، أهـ . ثُمَّ ردّ على القائلين بالمكان وختم كلامه بقوله : فإنَّه لا يكون في مكان إلَّا ما كان جسماً أو عَرَضَاً في جسم ، هذا الذي لا يجوز سواه ، ولا يتشكَّل في العقل والوهم غيره البتَّة ، وإذا انتفى أن يكون الله عزَّ وجلَّ جسماً أو عَرَضَاً ، فقد انتفى أن يكون في مكان أصلاً ، وبالله نتأيَّد أهـ .

وكذا لا تجوز التَّسمية بـ :عبد المرتفع ، ولا عبد الجالس ، ولا عبد القاعد ، ولا عبد المستقر ... وكذا لا يصحّ الدُّعاء بـ : يا مرتفع ، يا جالس ، يا قاعد ، يا مستقر ...

(٢٣) قال الإمام ابن منظور في لسان العرب (٣/ ٦٢٠) : " التَّنْزِيه : تَسْبِيحُ اللهَّ عزَّ وجلَّ وإبعادُهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ . الأَزهري : تَنْزِيهُ اللهَّ تبعيدُه وتقديسُه عَنِ الأَنداد والأَشباه ، وإِنَّمَا قِيلَ لِلْفَلَاةِ الَّتِي نأَتْ عَنِ الرِّيفِ وَالْمِيَاهِ نزيهةٌ لِبُعْدِهَا عَنْ غَمَقِ الْمِيَاهِ وذِبّانِ القُرى ووَمَدِ الْبِحَارِ وَفَسَادِ الْهَوَاءِ . وَفِي الْحَدِيثِ :كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَلَا يَمُرُّ بآيةٍ فِيهَا تَنْزِيهُ اللهَّ إِلَّا نزَّهَهُ؛ أَصل النُّزْهِ البعدُ ، وتَنْزِيهُ اللهَّ تبعيدُه عَمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنَ النَّقَائِصِ؛ وَمِنْهُ الْحَدِيثُ فِي تَفْسِيرِ سُبْحَانَ اللهَّ : هُوَ تَنْزِيهُهُ أَي إِبْعَادُهُ عَنِ السُّوءِ وَتَقْدِيسُهُ؛ وَمِنْهُ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ، رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ : الإِيمانُ نَزِهٌ ، أَي بَعِيدٌ عَنِ الْمَعَاصِي . وَفِي حَدِيثِ الْمُعَذَّبِ فِي قَبْرِهِ :كَانَ لَا يسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ ، أَي : لَا يَسْتبرئ وَلَا يَتَطَهَّرُ وَلَا يَسْتَبْعِدُ مِنْهُ .

وكلٌّ يدَّعونَ وصال ليلى   وليلى لَا تُقرُّ لَهُم بذاكا [٢٤]

---

[٢٤] من الجدير بالذِّكر في هذا المقام أنَّ الحنابلة كذبوا وكذبوا كثيراً على الإمام أحمد ، وكذبهم المشين عليه هو الذي جعل الحافظ ابن الجوزي عليه رحمة الله ينتفض محذِّراً إيَّاهم من الكذب على الرَّجل ، فقال "في دفع شُبَه التَّشبيه" (ص١٠١) : "فإيَّاكم أن تبتدعوا في مذهبه ما ليس فيه" ، وقال في (ص ١٠٢) : "فلا تُدخِلُوا في مذهب هذا الرَّجل الصَّالح السَّلفي ما ليس منه" .

وقال الإمام تقي الدِّين الحِصني في كتابه "دفع شُبَه من شبَّه وتمرَّد ونسب ذلك إلى السيِّد الجليل الإمام أحمد" (ص١٤٥) : "لَمَّا رأى الحُسَّاد للإمام أحمد ما حصل من الرِّفعة ونفاسة مذهبه لتشييده بالكتاب والسُّنَّة ، انتموا إلى مذهبه ليدخلوا عليه النَّقص والخلل وصرف النَّاس عنه حسداً من عند أنفسهم ، فصرَّحوا بالتَّشبيه والتَّجسيم ، ولم يستحيوا من القدير العليم ، ونسبوه إليه افتراء عليه" .

ومن شعر ابن الجوزي في ذلك :

وجاءك قوم يدَّعون تمذهباً	بمذهبه ما كلّ زرع له أكل
ومالوا إلى التَّشبيه أخذاً بصورة الذ	ي نقلوه في الصِّفات وهم غفل
وقالوا الذي قلناه مذهب أحمد	فمال إلى تصديقهم من به جهل
فصار الأعادي قائلين لكلّنا	مشبهة قد ضرّنا الصَّحب والخلّ
فقد فضحوا ذاك الإمام بجهلهم	ومذهبه التَّنْزِيه لكن هم اختلوا
لعمري لقد أدركت منهم مشــايخاً	وأكثر من أدركتـــــــه ما له عقل

انظر : دفع شبه التَّشبيه (ص٢٧٦) .

ومن كَذِبِ الحنابلة على الإمام أحمد : أنَّهم نسبوا إليه بعض الكُتب التي احتوت على ما ذهبوا إليه من التَّجسيم ، مثال ذلك كتاب : "الرَّد على الجهميَّة" المنسوب للإمام أحمد ، وقد ردَّ نسبة الكتاب للإمام أحمد الإمام الذَّهبي في "سير أعلام النُّبلاء" (١١/ ٢٨٦) ، وقد أجاد المعلِّق على السِّير ، فيما علّق على كلام الذَّهبي المتعلَّق بنفي نسبة الكتاب للإمام أحمد ...

وفي تعليقه على "دفع شُبَه التَّشبيه" (ص٦٩ فما بعدها) أجاد الأستاذ السقَّاف في نفي ما نسبه مجسِّمة الحنابلة من كُتب وأقوال لأعلام الأمَّة ، كأبي حنيفة الذي نسبوا إليه أنَّه قال : "من قال لا أعرف ربِّي في السَّماء أم في الأرض فقد كفر ، لأنَّ الله يقول : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه : ٥] ، وعرشه فوق سبع سموات" . فهذا الكلام كذب بحت لأنَّ راويه عن الإمام أبي حنيفة هو أبو مطيع البلخي ، وكان وضَّاعاً كذَّاباً ، قال الذَّهبي في ترجمته في الميزان

وَكَيف يعْتَقد فِي السَّلف أَنهم يَعْتَقِدُونَ التَّشْبِيه أَو يسكنون عِنْد ظُهُور أهل الْبدع ، وَقد قَالَ الله : ﴿وَلَا تلبسوا الْحق بِالْبَاطِلِ وتكتموا الْحق وَأَنْتُم تعلمُونَ﴾ [البقرة:٤٢] **، وَقَالَ الله تَعَالَى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذينَ أُوتُوا الْكتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوْنَه﴾** [آل عمران:١٨٧] **، وَقَالَ الله تَعَالَى : ﴿لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم﴾** [النحل:٤٤] **. وَلَقَد كَانَت الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم لَا يَخُوضُونَ فِي شَيْء من هَذِه الْأَشْيَاء لعلمهم أَنَّ حفظ الدّهماء (٢٥) أهم الْأُمُور مَعَ أَنَّ سيوف حججهم مرهفة ، ورماحها مشحوذة ، وَلذَلِك لما نبغت الْخَوَارِج واثبهم (٢٦) حَبْر الْأَمَّة وعالمها وابنا عَمّ رسولها أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب وَعبد الله بن عَبَّاس ، فاهتدى الْبَعْض بالمناظرة وأصرَّ الْبَاقُونَ عناداً فتسلَّط عَلَيْهِم السَّيْف .**

(١/ ٥٧٤) : قال الإمام أحمد : لا ينبغي أن يُروىٰ عنه شيء ، وعن يحيىٰ بن معين : ليس بشيء . وقال الحافظ في لسان الميزان (٢/ ٣٣٥) : قال أبو حاتم الرَّازي : كان مرجئاً كذَّاباً ... وقد جزم الذَّهبي بأنَّه قد وضع حديثاً ، فينظر من ترجمة عثمان بن عبد الله الأموي" .

كما نقلوا عن الشَّافعي أنَّه قال : "القول في السُّنَّة التي أنا عليها ، ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم وأخذت عنهم مثل : سفيان ، ومالك وغيرهما : الإقرار بالشَّهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ، وأنَّ الله تعالىٰ علىٰ عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وأنَّ الله ينزل من السَّماء الدُّنيا كيف شاء ... "وذكر سائر الاعتقاد" . انظر مختصر العلو (ص١٧٦) .

وناقل هذا الكلام عن الإمام الشَّافعي هو أبو الحسن الهكَّاري الملقَّب بشيخ الإسلام ، وهو وضَّاع كذَّاب أشر ، كما تجد ذلك في ترجمته في ميزان الاعتدال (٣/ ١١٢) ، لسان الميزان (٤/ ١٩٥) .

ومن نَقَلَة هذا الكلام عن الإمام الشَّافعي أيضاً : أبو محمَّد المقدسي ، وهو ممَّن أباح العلماء دمه لكونه مجسِّماً صِرْفاً ، كما تجد ذلك في "الذَّيل علىٰ الرَّوضتين" لأبي شامة (ص٤٦-٤٧) .

وليعلم أيضاً أنَّ من تقدَّم ذكرهما نقلاً ذلك عن الإمام الشَّافعي من طريق أبي شعيب ، وأبو شعيب هذا ولد بعد وفاة الشَّافعي بسنتين ، كما تجد ذلك في تاريخ بغداد (٩/ ٤٣٦) .

وقد أشار الذَّهبي في الميزان (٣/ ٦٥٦) إلىٰ أنَّ تلك العقيدة مدسوسة علىٰ الإمام الشَّافعي ، كما نفاها عنه الإمام الكوثري في تعليقه علىٰ النُّونيَّة . انظر : دفع شُبَه التَّشبيه (ص٦٩ فما بعدها باختصار) ، وانظر : للاستزادة : (ص١١٢ فما بعدها) من كتاب : "قراءة في كتب العقائد" .

(٢٥) الْعدَد الْكثير وَجَمَاعَة النَّاس وسوادهم .

(٢٦) أي : بادرهم وانقضَّ عليهم .

وَلَكِن حكم السَّيْف فِيكُم مسلط فنرضى إِذا مَا أصبح السَّيْف رَاضِيا (٢٧)

وَكَذَلِكَ لَمَّا نبغ الْقدر وَنجم بِهِ (٢٨) معبد الْجُهَنِيّ (٢٩) قيَّض الله تَعَالَى لَهُ زاهد الْأمة وَابْن فاروقها عبد الله عمر بن الْخطَّاب رَضِي الله عَنْهُمَا ، وَلَو لم تنبغ هَاتَانِ البدعتان لما تَكَلَّمت الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم فِي ردِّ هَذَا وَلَا إبِطَال هَذَا ، وَلم يكن دأبهم إِلَّا الْحَثّ على التَّقْوَى والغزو وأفعال الْخَيْر ، وَلذَلِك لم ينْقل عَن سيِّد الْبشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَن أحد من أَصْحَابه رَضِي الله عَنْهُم أَنَّه جمع النَّاس فِي مجمع عَام ثمَّ أَمرهم أَن يعتقدوا فِي الله تَعَالَى كَذَا وَكَذَا ، وَقد صدر ذَلِك فِي أَحْكَام شَتَّى ، وَإِنَّمَا تكلَّم فِيهَا بِمَا يفهمهُ الْخَاص وَلَا يُنكره الْعَام ، وَبِاللهِ أُقسم يَمِيناً برَّة مَا هِيَ مرَّة بل ألف ألف مرَّة أَنَّ سيِّد الرُّسُل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل أَيُّهَا النَّاس اعتقدوا أَنَّ الله تَعَالَى فِي جِهَة الْعُلُوّ ، وَلَا قَالَ ذَلِك الْخُلَفَاء الرَّاشدون ، وَلَا أحد من الصَّحَابَة ، بل

---

(٢٧) انظر البيت في : عنوان النَّفاسة في شرح الحماسة (١/ ٦٩٠) .

(٢٨) أي : ظهر واشْتَهر .

(٢٩) هو مَعْبَدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عُوَيْمِرٍ الجُهَنِيُّ ، وَقِيْلَ : ابْنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عُكَيْمٍ الجُهَنِيُّ ، نَزِيْلُ البَصْرَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالقَدَرِ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ . نَزِيْلُ البَصْرَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالقَدَرِ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ .

حَدَّثَ عَنْ : عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ ، وَمُعَاوِيَةَ ، وَابْنِ عَبَّاس ، وَابْنِ عُمَرَ ، وَحُمْرَانَ بنِ أَبَانٍ ، وَطَائِفَةٍ .

وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الوَقْتِ عَلَى بِدْعَتِهِ .

حَدَّثَ عَنْهُ : مُعَاوِيَةُ بنُ قُرَّةَ ، وَزَيْدُ بنُ رُفَيْعٍ ، وَقَتَادَةُ ، وَمَالِكُ بنُ دِيْنَارٍ ، وَعَوْفٌ الأَعْرَابِيُّ ، وَسَعْدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ ، وَآخَرُوْنَ . وَقَدْ وَثَّقَهُ : يَحْيَى بنُ مَعِيْنٍ .

وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : صَدُوْقٌ فِي الحَدِيْثِ ... قَالَ الجَوْزَجَانِيُّ : كَانَ قَوْمٌ يَتَكَلَّمُوْنَ فِي القَدَرِ ، احْتَمَلَ النَّاس حَدِيْثَهُم لِمَا عَرَفُوا مِنِ اجْتِهَادِهِم فِي الدِّين وَالصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ ، وَلَمْ يُتَوَهَّمْ عَلَيْهِمُ الكَذِبَ ، وَإِنْ بُلُوا بِسُوْءِ رَأْيِهِم ، مِنْهُمْ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ ، وَقَتَادَةُ ، وَمَعْبَدٌ رَأْسُهُم . قَالَ محمَّد بنُ شُعَيْبٍ : سَمِعْتُ الأَوْزَاعِيَّ يَقُوْلُ : أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ فِي القَدَرِ سَوْسَنٌ بِالعِرَاقِ ، كَانَ نَصْرَانِيّاً ، فَأَسْلَمَ ، ثُمَّ تَنَصَّرَ ، فَأَخَذَ عَنْهُ مَعْبَدٌ .

وَأَخَذَ غَيْلاَنُ القَدَرِيُّ عَنْ مَعْبَدٍ ... قَالَ خَلِيْفَةُ : مَاتَ قَبْلَ التِّسْعِيْنَ .

وَقَالَ سَعِيْدُ بنُ عُفَيْرٍ : فِي سَنَةِ ثَمَانِيْنَ صَلَبَ عَبْدُ المَلِكِ مَعْبَداً الجُهَنِيَّ بِدِمَشْقَ .

قُلْتُ : يَكُوْنُ صَلَبَهُ ، ثُمَّ أَطْلَقَهُ . انظر : سير اعلام النبلاء (٤/ ١٨٥-١٨٧) .

تركُوا النَّاس وَأمر التَّعبّدات وَالْأَحْكَام ، وَلَكِن لَمَّا ظَهرت الْبدع قمعها السَّلف [٣٠] ، أَمَّا التَّحريك للعقائد والتَّشمير لإظهارها وَإِقَامَة ثائرها فَمَا فعلوا ذَلِك ، بل حسموا الْبدع عِنْد ظُهُورهَا .

ثمَّ الحَشَويَّة إِذا بحثوا فِي مسَائِل أُصُول الدِّين مَعَ الْمُخَالفين تكلَّمُوا بالمعقول وتصرَّفوا فِي الْمَنْقُول ، فَإِذا وصلوا إِلَى الحشو تبلَّدوا وتأسَّوا ، فتراهم لَا يفهمون بِالْعَرَبيَّةِ وَلَا بالعجميَّة ، كلَّا ، وَالله وَالله لَو فَهموا لهاموا ، وَلَكِن اعْترضُوا بَحر الْهوى فشقُّوه وعاموا ، وأسمعوا كلَّ ذِي عقل ضَعِيف وذهن سخيف ، وخالفوا السَّلف فِي الْكَفّ عَن ذَلِك مَعَ الْعَوام [٣١] ، وَلَقَد كَانَ الْحسن الْبَصْرِيّ رَضِي الله عَنهُ إِذا تكلَّم فِي

---

[٣٠] ومثال ذلك : ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صبيغ بن شريك بن عِسْل التميمي البصري حين سأله عن متشابه القرآن ، فأرسل إليه عمر ، وأعدَّ له عراجين النَّخْل ... فقد أخرج الدَّارمي وغيره بسندهم ...أَنَّ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ صَبِيغٌ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ صَبِيغٌ، فَأَخَذَ عُمَرُ عُرْجُونًا مِنْ تِلْكَ الْعَرَاجِينِ، فَضَرَبَهُ وَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ عُمَرُ، «فَجَعَلَ لَهُ ضَرْبًا حَتَّى دَمِيَ رَأْسُهُ» فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، حَسْبُكَ، قَدْ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي . أخرجه الدارمي (١/ ٢٥٢ برقم ١٤٦) ، اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٧٠٢ برقم ١١٣٨) .

[٣١] قال الإمام الغزالي : " إعلم أنَّ الحقَّ الصَّريح الذي لا مِرَاء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السَّلف ، أعني مذهب الصَّحابة والتَّابعين ، وها أنا أُورد بيانه وبيان برهانه فأقول : حقيقة مذهب السَّلف – وهو الحقُّ عندنا – أنَّ كلَّ من بلغه حديث من هذه الأحاديث من عوامِّ الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور : التَّقديس ، ثُمَّ التَّصديق ، ثُمَّ الاعتراف بالعجز ، ثُمَّ السُّكوت ، ثُمَّ الإمساك ، ثُمَّ الكفّ ، ثُمَّ التَّسليم لأهل المعرفة .

(أمَّا التَّقديس) فأعني به تنزيه الرَّبِّ تعالىٰ عن الجسميَّة وتوابعها .

(وأمَّا التَّصديق) فهو الإيمان بما قاله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنَّ ما ذكره حقٌّ ، وهو فيما قاله صادق ، وأنَّه حقٌّ علىٰ الوجه الذي قاله وأراده .

(وأمَّا الاعتراف بالعَجز) فهو أن يقرَّ بأنَّ معرفة مراده ليست علىٰ قدر طاقته ، وأنَّ ذلك ليس من شأنه وحرفته .

(وأمَّا السُّكوت) فأن لا يسأل عن معناه ، ولا يخوض فيه ، ويعلم أنَّ سؤاله عنه بدعة ، وأنَّه في خوضه فيه مخاطر بدينه ، وأنَّه يوشكُ أن يكفُر لو خاض فيه من حيث لا يشعر .

(وأمَّا الإمساك) فأن لا نتصرَّف في تلك الألفاظ بالتَّصريف والتَّبديل بلغة أخرىٰ ، والزِّيادة فيه والنَّقصان منه ، والجمع والتَّفريق ، بل لا ينطق إلَّا بذلك اللفظ ، وعلىٰ ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتَّصريف والصِّيغة .

(وأمَّا الكفّ) فأن يكفّ باطنه عن البحث عنه والتَّفكُّر فيه .

(وأمَّا التَّسليم لأهله) فأن لا يعتقد أنَّ ذلك إن خفي عليه لعجزه فقد خفي على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو على الأنبياء أو على الصدِّيقين والأولياء .

فهذه سبع وظائف اعتقد كافَّة السَّلف وجوبها على كلِّ العوام ، لا ينبغي أن يُظنّ بالسَّلف الخلاف في شئ منها ، فلنشرحها وظيفة وظيفة إن شاء الله تعالى ... انتهى . انظر : إلجام العوام عن علم الكلام (ص٤-٥) .

قلت : وحتَّى غير العوام من العلماء وأساطين العلم وجهابذته ، لا يجوز لهم البتَّة أن يخوضوا في البحث عن حقيقة الله تعالى التي لا يعلمها إلَّا هو سبحانه ، لأنَّه بحثٌ في أمر لا سبيل أبداً للوصول إليه البتَّة ، لأنَّه من الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله ... ومن المعلوم أنَّ العقل البشري له حدود في التَّفكير لا يتعدَّاها ... فالإنسان – مثلاً – لو مكث العمر كلَّه ومعه جميع الخلائق في البحث عن حقيقة الرُّوح ، أوالجاذبيَّة ...وهي أشياء مخلوقة لن يستطيعوا اكتناه حقيقته ... فكيف بالله الخالق العظيم الموجِدُ لما سواه ؟!!!

وقد وردت العديد من الأحاديث والآثار التي تنهى عن الفِكْر في ذات الله تعالى ، من ذلك ما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ " . أخرجه البخاري (٤/ ١٢٤برقم ٣٢٧٦) ، مسلم (١/ ١٢٠برقم ١٣٤) .

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ» . أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٣١٩) ، ابن حبان في المجروحين (٣/ ٨٢) . والحديث ضعيف لضعف الوازع بن نافع – أحد رجال الإسناد- قال عنه الحافظ ابن حجر في اللسان (٦/ ٢٨٠) : "قال يحيى بن معين . ليس بثقة ، منكر الحديث . وقال النسائي متروك . وقال أحمد : ليس بثقة" . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٠٦ برقم ٢٦٠) : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه الوازع بن نافع ، وهو متروك . والحديث حسَّنه السخاوي في المقاصد الحسنة (ص١٥٩) ، وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣٧٢) : وأسانيدها ضعيفة ولكن اجتماعها – يعني طرقه- يكسبه قوة ومعناه صحيح .

يقول الأستاذ سيِّد قطب في الظِّلال (٣/ ١٢٩٦) : "إنَّ عقيدة التَّوحيد الإسلاميَّة ، لا تدع مجالاً لأيِّ تصوُّر بشري عن ذات الله سبحانه ، ولا عن كيفيات أفعاله ... فالله سبحانه ليس كمثله شيء ... ومن ثُمَّ لا مجال للتَّصوذُر البشري لينشئ صورة عن ذات الله ، فكلُّ التَّصوُّرات البشريَّة إنَّما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري ممَّا حوله من أشياء ، فإذا كان الله –سبحانه- ليس كمثله شيء ، توقَّف التَّصوُّر البشري إطلاقاً عن إنشاء صورة معيَّنة لذاته تعالى . ومتى توقَّف عن إنشاء صورة معيَّنة لذاته العليَّة ، فإنَّه يتوقَّف تبعاً لذلك عن تصوُّر كيفيَّات أفعاله جميعاً ، ولم يبق أمامه إلَّا مجال تدبُّر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله ... وهذا هو مجاله ...

علم التَّوْحِيد أخرج غير أَهله ، وَكَانُوا رَحِمهم الله تَعَالَى لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ إِلَّا مَعَ أهل السُّنَّة مِنْهُم إِذْ هِيَ قَاعِدَة أهل التَّحْقِيق ، وَكَانُوا يضنُّون بِهِ على الْأَحْدَاث ، وَقَالُوا : الْأَحْدَاث هم المستقبلون الْأُمُور المبتدئون فِي الطَّرِيق ، فَلم يجرِّبوا الْأُمُور ، وَلم يرسخ لَهُم فِيهَا قدم وَإِن كَانُوا أَبنَاء سبعين سنة .

وَقَالَ سهل رَضِي الله عَنهُ (٣٢) : لَا تُطلعوا الْأَحْدَاث على الْأَسْرَار قبل تمكُّنهم من اعْتِقَاد أَنَّ الْإِلَه وَاحِد ، وَأَنَّ الموحَّد فَرد صَمد (٣٣) ،

منزَّه عَن الْكَيْفِيَّة (٣٤) ، والأينيَّة ، لَا تحيط بِهِ الأفكار ، وَلَا تكيِّفه الْأَلْبَاب ، وَهَذَا الْفَرِيق لَا يَكْتَفِي من إِيمَان النَّاس إِلَّا باعتقاد الْجِهَة ، وَكَأَنَّهُ لم يسمع الحَدِيث الصَّحِيح عَن النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أُمرت أَن أقَاتل النَّاس حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَه إِلَّا الله " الحَدِيث (٣٥) .

ومن ثُمَّ تُصبح أسئلة كهذه : كيف خلق الله السَّموات والأرض؟ كيف استوى على العرش؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه؟! ... تُصبحُ هذه الأسئلة وأمثالها لغواً يخالف توجيهها قاعدة الاعتقاد الإسلامي . أمَّا الإجابة عليها فهي اللغو الأشدّ الذي لا يزاوله من يدرك تلك القاعدة ابتداء!! ولقد خاضت الطوائف – مع الأسف– في هذه المسائل خوضاً شديداً في تاريخ الفكر الإسلامي ، بالعدوى الوافدة على هذا الفكر من الفلسفة الإغريقيَّة " .

(٣٢) هو سَهْلُ بنُ عَبْدِ الله بنِ يُوْنُس أَبُو محمَّد التُّسْتَرِيُّ ، شَيْخُ العَارِفِيْنَ ، أَبُو محمَّد التُّسْتَرِيُّ ، الصُّوْفِيُّ الزَّاهِدُ . قِيْلَ : تُوُفِّيَ سَهْلُ بنُ عَبْدِ الله : فِي سَنَةِ ثَلاَثٍ وَسَبْعِيْنَ . وَلَيْسَ بِشَيْءٍ ، بَلِ الصَّوَابُ : مَوْتُهُ فِي الُمحَرَّمِ ، سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِيْنَ وَمائَتَيْنِ . انظر : سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٠) .

(٣٣) جاء في تفسير الطَّبري : " قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: الصَّمَدُ عِنْدَ الْعَرَبِ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ، الَّذِي لَا أَحَدَ فَوْقَهُ، وَكَذَلِكَ تُسَمِّي أَشْرَافَهَا؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدْ ... بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَد

انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٤/ ٧٣٦) .

(٣٤) قال الإمام المناوي : " الكيْف : هيئة قارَّة في الشَّيء لا تقتضي قسمة ولا نسبة لذاته ، وقال أبو البقاء : الكيفيَّة : منسوبة إلى كيْف ، وهي معرفة الحال ، لأنَّ كيف سؤال عن الحال . كيْف : كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي شأنها أن تُدرك بالحواس . انظر : التوقيف على مهمات التعاريف (ص٢٨٦) .

فالله تعالى لا كيْف له ، لأنَّ الكيْف متعلِّق بالمخلوق المحدَث ، ولذلك فقد شنَّع العلماء – ومنهم الإمام المازري – على ابن قتيبة حين قال : لله صورة لا كالصُّور ، لأنَّ إثبات الصُّورة في حقِّ الله تعالى أمر مستحيل ، فهي عبارة عن

أَفلا يَكْتَفِي بِمَا اكْتفى بِهِ نَبِيّهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِنَّه يَأْمر الزَّمنى [٣٦] بالخوض فِي بَحر لَا سَاحل لَهُ ، وَيَأْمُرهُمْ بالتَّفتيش عَمَّا لم يَأْمُرهُم رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتَّفتيش عَنهُ ، وَلَا أحد من أَصْحَابه رَضِي الله عَنْهُم لَا تنازل ، وَاكْتفى بِمَا نقل عَن إِمَامه الإِمَام أَحْمد بن حَنْبَل رَضِي الله عَنهُ حَيْثُ قَالَ : لَا يُوصف الله تَعَالَى إِلَّا بِمَا وصف بِهِ نَفسه أَو وَصفه بِهِ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا نتجاوز الْقُرْآن والْحَدِيث ، ونعلم أَنَّ مَا وصف الله بِهِ من ذَلِك فَهُوَ حقٌّ ، لَيْسَ فِيهِ لَغْو وَلَا أُحَاج ، بل مَعْنَاهُ يعرف من حَيْثُ يعرف مَقْصُود الْمُتَكَلّم بِكَلَامِهِ وَهُوَ مَعَ ذَلِك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] [٣٧] فِي نَفسه

تخطيط " وتأليف وتفتقر إلى مصوِّر ومؤلِّف ، وقول القائل لا كالصُّور نقضٌ لما قاله ، وصار بمثابة من يقول : جسم لا كالأجسام ، فإنَّ الجسم ما كان مؤلَّفاً ، فإذا قال لا كالأجسام نقض ما قال " . انظر : دفع شبه التَّشبيه (ص١٤٧) .

[٣٥] أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٢٩ برقم ٦٧) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : " حديث صحيح ، سفيان بن حسين وثقوه إلا في روايته عن الزهري ، وقد تابعه في هذا الحديث غير واحد من الثقات . محمَّد بن يزيد : هو الكلاعي الواسطي . وأخرجه النسائي (٧/ ٧٧) عن زياد بن أيوب ، عن محمَّد بن يزيد الواسطي ، بهذا الإسناد . وأخرجه البخاري (٦٩٢٤) و (٦٩٢٥) و (٧٢٨٤) و (٧٢٨٥) ، ومسلم (٢٠) ، وأبو داود (١٥٥٦) ، والتِّرمذي (٢٦٠٧) ، والنسائي (٥ / ١٤ و٧ / ٧٧) ، وابن حبان (٢١٧) ، وابن منده في " الإيمان " (٢٤) ، والبيهقي (٤ / ١٠٤ و١١٤ و٧ / ٣ و٤ و٨ / ١٧٦ و٩ / ١٨٢) من طريق عقيل بن خالد ، والنسائي (٦ / ٥) ، وابن منده (٢١٦) من طريق محمَّد بن الوليد الزبيدي ، كلاهما عن الزهري ، به . وأخرجه النسائي (٦/٦) من طريق شعيب بن أبي حمزة وسفيان بن عيينة وذكر آخر لم يسمه ، ثلاثتهم عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، به" .

[٣٦] قال ابن منظور : " الزَّمِنُ : ذُو الزَّمانة . والزَّمانةُ : آفَةٌ فِي الْحَيَوَانَاتِ . وَرَجُلٌ زَمِنٌ ، أَي : مُبْتَلىً بَيِّنُ الزَّمانة . والزَّمانة : الْعَاهَةُ؛ زَمِنَ يَزْمَنُ زَمَناً وزُمْنة وزَمانة ، فَهُوَ زَمِنٌ ، وَالْجَمْعُ زَمِنونَ ، وزَمِين ، وَالْجَمْعُ زَمْنَى لأَنه جِنْسٌ لِلْبَلَايَا الَّتِي يُصَابُونَ بِهَا وَيَدْخُلُونَ فِيهَا وَهُمْ لَهَا كَارِهُونَ " . انظر : لسان العرب (١٣/ ١٩٩) .

[٣٧] فالله تعالى لا يشبه شيئاً من خلقه بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، والآية نصٌّ محكمٌ صريحٌ في نفي المشابهة والمماثلة بين الله تعالى وبين سائر المحدثات ، فلا هو يشبهها في أيِّ شكل من الأشكال ، ولا هو في حاجةٍ إلى شيءٍ ممَّا خلق ...

وقد يرد إشكال مفاده : أنَّ نفي المثل في قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، يوهم وجود المثل ، لأنَّ الكاف بمعنى مثل ، فيصير المعنى : ليس مثل مثله شيء ، فالنَّفي يكون لمثل المثل ...

والجواب على هذا الإشكال بعدَّة أجوبة :

١. أنَّ الكاف صلة ، أي زائدة لتأكيد نفي المثل ، فالمعنى : انتفى المثل انتفاء مؤكَّداً .

٢. أنَّ المثل بمعنى الصِّفة ، فالمعنى : ليس كصفة الله تعالى شيء .

المقدَّسة الْمَذْكُورَة بأسمائه وَصِفَاته ، وَلَا فِي أَفعاله ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنَّ الله سُبْحَانَهُ لَهُ ذَات حَقِيقِيَّة وأفعال حَقِيقِيَّة ، وَكَذَلِكَ لَهُ صِفَات حَقِيقِيَّة وَهُوَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] لَا فِي ذَاته وَلَا فِي صِفَاته وَلَا فِي أَفعاله ، وكلّ مَا أوجب نقصاً أَو حدوثاً فَإِنَّ الله عزَّ وَجلَّ منزَّه عَنهُ حَقِيقَة ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُسْتَحقّ للكمال الَّذِي لَا غَايَة فَوْقه ، وممتنع عَلَيْهِ الْحُدُوث لِامْتِنَاع الْعَدَم عَلَيْهِ واستلزام الْحُدُوث سَابِقَة الْعَدَم وافتقار الْمُحدث إِلَى مُحدث ، وَوُجُوب وجوده بِنَفسِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، هَذَا نَص إِمَامه فَهَلَّا اكْتفى بِهِ .

وَلَقَد أُتِي إِمَامه فِي هَذَا الْمَكَان بجوامع الْكَلم وسَاق أَدِلَّة الْمُتَكَلِّمين على مَا يَدَّعِيهِ هَذَا المارق بِأَحْسَن ردّ وأوضح معَان مَعَ أَنَّه لم يَأْمر بِمَا أَمر هَذَا الْفَرِيق .

وَقد قَالَ الشَّافِعِي رَضِي الله عَنهُ : سَأَلت مَالِكاً عَن التَّوْحِيد فَقَالَ : محَالٌ أَن نظنَّ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه علَّم أُمَّته الِاسْتِنْجَاء وَلم يعلمهُمْ التَّوْحِيد ، وَقد قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ " [٣٨] الحَدِيث . فَبيَّن مَالك رَضِي الله عَنهُ أَنَّ الْمَطْلُوب من النَّاس فِي التَّوْحِيد هُوَ مَا اشْتَمل عَلَيْهِ هَذَا الحَدِيث ، وَلم يقل من التَّوْحِيد اعْتِقَاد أَنَّ الله تَعَالَى فِي جِهَة الْعُلُوّ .

وَسُئِلَ الشَّافِعِي رَضِي الله عَنهُ عَن صِفَات الله ، فَقَالَ : حرَام على الْعُقُول أَن تمثِّل الله تَعَالَى ، وعَلى الأوهام أَن تحدّ ، وعَلى الظُّنون أَن تقطع ، وعَلى النُّفُوس أَن تفكِّر ، وعَلى الضَّمائر أَن تعمِّق ، وعَلى الخواطر أَن تحيط إِلَّا مَا وصف بِهِ نَفسه على لِسَان نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمن تقصَّى وفتَّش وَبحث وجد أَنَّ الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم وَالتَّابِعِينَ والصَّدر الأوَّل لم يكن دأبهم غير الْإِمْسَاك عَن الْخَوْض فِي هَذِه الْأُمُور ، وَترك ذكرهَا فِي

---

٣. أنَّ الآية من باب الكناية ، على حدِّ قولك : (مِثلكَ لا يبْخل) ، أي : أنت لا تبخل . ووجه كونها من باب الكناية أنَّه يلزم من نفي مثل المثل نفي المثل ، وهذا هو المراد . فالقصد نفي مثله تعالى على أبلغ وجه ، إذ الكناية أبلغ من التَّصريح لتضمُّنها إثبات الشَّيء بدليله .

وعليه ، فالآية الكريمة تنفي عن الله تعالى المماثلة لشيء من الحوادث ، ونفي المماثلة يفيد أُموراً عديدة ، منها : نفي الجسميَّة ، والعَرَضيَّة ، والجوهريَّة : لأنَّ الجسم مؤلَّف من جواهر وأعراض ، وهما حادثان . قال السُّبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب : " حكم الجواهر والأعراض كلّها الحدوث ، وعلى هذا إجماع المسلمين !!! ومن خالف في ذلك كافر ، لمخالفة الإجماع القطعيّ " . انظر: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٩٣) .

[٣٨] تقدَّم تخريجه .

الْمَشَاهد ، وَلم يَكُونُوا يدسُّونها إِلَى الْعَوام [٣٩] ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ بهَا على المنابر ، وَلَا يوقعون فِي قُلُوب النَّاس مِنْهَا هواجس كالحريق المشعل ، وَهَذَا مَعْلُوم بِالضَّرُورَةِ من سيرهم ، وعَلى ذَلِك بنينَا عقيدتنا ، وأسَّسنا

---

(٣٩) روىٰ البخاري عن عَلِيٍّ موقوفاً : حَدِّثُوا النَّاس ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ ، اللهُ وَرَسُولُهُ . أخرجه البخاري (١/ ٣٧ برقم١٢٧) ، قال الحافظ ابن حجر : " وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يذكر عِنْد الْعَامَّة وَمثله قَول بن مَسْعُودٍ مَا أَنْتَ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَمِمَّنْ كَرِهَ التَّحْدِيثَ بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ أَحْمَدُ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي ظَاهِرُهَا الْخُرُوجُ عَلَىٰ السُّلطان وَمَالِكٌ فِي أَحَادِيثِ الصِّفات وَأَبُو يُوسُفَ فِي الْغَرَائِبِ . انظر : فتح الباري (١/ ٢٢٥) .

وروىٰ مسلم بسنده عن عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ، قَالَ : مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً . أخرجه مسلم (١/ ١١) ، وانظر : المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (١/ ٣٦٢ برقم ٦١١) .

وروىٰ البيهقي في الشعب بسنده عَنِ الْمِقْدَام بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، عَنْ رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِذَا حَدَّثْتُمُ النَّاس عَنْ رَبِّهِمْ فَلَا تُحَدِّثُوهُمْ بِمَا يَغْرُبُ عَنهمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ " . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٦٥ برقم١٦٣١) .

وجاء في المقاصد الحسنة : " حَدِيث: أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاس عَلَىٰ قَدْرِ عُقُولِهِمْ" ، الدَّيلمي من طريق أبي عبد الرَّحْمَن السّلمي، حدَّثنا محمَّد بن عبد اللهَّ بن قريش حدَّثنا الحسن بن سفيان، حدَّثنا إسماعيل بن محمَّد الطلحي حدَّثنا عبد اللهَّ بن أبي بكر، عن أبي معشر، عن عكرمة، عن ابن عَبَّاس مرفوعاً بهذا، وسنده ضعيف، وقد عزاه شيخنا لمسند الحسن بن سفيان من حديث ابن عَبَّاس بلفظ: أمرت أن أخاطب النَّاس علىٰ قدر عقولهم، قال: وسنده ضعيف جداً، ورواه أبو الحسن التَّميمي من الحنابلة في العقل له بسنده عن ابن عَبَّاس أيضاً بلفظ: بعثنا معاشر الأنبياء نخاطب النَّاس علىٰ قدْر عقولهم، وله شاهد من حديث مالك عن سعيد بن المسيّب رفعه مرسلاً: إنَّا معاشر الأنبياء أمرنا وذكره، بل عند البخاري في صحيحه عن علي موقوفاً: حدِّثوا النَّاس بما يعرفون، أتحبُّون أن يكذَّبَ اللهَّ ورسوله، ونحوه ما أخرجه مسلم في مقدِّمة صحيحه عن ابن مسعود، قال: ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلَّا كان لبعضهم فتنة، وللعقيلي في الضُّعفاء، وابن السنِّي، وأبي نُعيم في الرِّياضة، وآخرين عن ابن عَبَّاس مرفوعاً: ما حدَّث أحدكم قوماً بحديث لا يفهمونه إلَّا كان فتنة عليهم، وعند أبي نُعيم، ومن طريقه الَّديلمي من حديث حمَّاد بن خالد عن ابن ثوبان عن عمِّه عن ابن عَبَّاس رفعه: لا تحدِّثوا أمَّتي من أحاديثي إلَّا ما تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم، فكان ابن عَبَّاس يخفي أشياء من حديثه ويفشيها إلىٰ أهل العلم، وللدَّيلمي في مسنده عن ابن عبَّاس، رفعه: يا ابن عبَّاس، لا تحدِّث قوماً حديثاً لا تحتمله عقولهم، وللبيهقي في الشُّعب من حديث عبد الرَّحْمَن بن عائذ عن المقدام بن معدي كرب مرفوعاً: إذا حدَّثتم النَّاس عن ربِّهم فلا تحِّدثوهم بما يعزب عنهم، ويشقّ

نِحلتنا ، وسيظهر لَكَ إِن شَاءَ الله تَعَالَى موافقتنا للسَّلف ، وَمُخَالفَة الْمُخَالف طريقتهم ، وَإِن ادّعى الِاتِّبَاع ، فَمَا سالك غير الابتداع ، وَقَول الْمُدَّعِي إِنَّهُم أظهرُوا هَذَا وَيَقُول : علم النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلَّ شَيْء حَتَّى الخرأة ، وَمَا علم هَذَا المهم هَذَا بهرج لَا يمشي على الصَّيْرَفِي النّقاد أَو مَا علم أَنَّ الخرأة يَحْتَاج إِلَيْهَا كلّ وَاحِد ، وَرُبَّمَا تكَرَّرت الْحَاجة إِلَيْهَا فِي الْيَوْم مَرَّات !! وَأيّ حَاجَة بالعوام إِلَى الْخَوْض فِي الصِّفَات ؟!! نعم الَّذِي يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ من التَّوْحِيد قد تبيَّن فِي حَدِيث : " أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ " [٤٠] . ثمَّ هَذَا الْكَلَام من الْمُدَّعِي يهدم بُنْيَانه ويهدُّ أَرْكَانه ، فَإِنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَّم الخرأة تَصْرِيحاً وَمَا عَّلم النَّاس أَنَّ الله تَعَالَى فِي جِهَة الْعُلُوّ ، وَمَا ورد من الْعَرْش وَالسَّمَاء فِي الاسْتوَاء قد بنى الْمُدَّعِي مبناه ، وأوثق عرى دَعْوَاهُ على أَنَّ المُرَاد بهما شَيْء وَاحِد وَهُوَ جِهَة الْعُلُوّ ، فَمَا قَالَه هَذَا الْمُدَّعِي لم يُعلِّمهُ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّته وعلَّمهم الخرأة ، فَعِنْدَ الْمُدَّعِي يجب تَعْلِيم الْعَوام حَدِيث الْجِهَة ، وَمَا علَّمهَا رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَّا نَحن فَالَّذِي نقُوله : أَنه لَا يُخَاض فِي مثل هَذَا ويسكت عَنهُ كَمَا سكت رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه ويسعنا مَا وسعهم ، وَلذَلِك لم يُوجد منَّا أحد يَأْمر الْعَوام بِشَيْء من الْخَوْض فِي

عليهم، وصحَّ عن أبي هريرة قوله: حفظت عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعائين، فأمَّا أحدهما فبثثته، وأمَّا الآخر فلو بثثته لقطع منِّي هذا البلعوم، وللدَّيلمي في مسنده من حديث ابن عَبَّاس مرفوعاً: عاقبوا أرقاءكم علىٰ قدْر عقولهم، وكذا أخرجه الدَّارقطني في الأفراد من حديث عبيد بن نجيح، عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة مرفوعاً مثله، وللحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط الشَّيخين عن أبي ذر مرفوعاً: خالقوا النَّاس بأخلاقهم، الحديث، ولأبي الشَّيخ عن ابن مسعود مرفوعاً: خالط النَّاس بما يشتهون، ودينك فلا تكلنَّه ونحوه عن علي رفعه: خالق الفاجر مخالقة، وخالص المؤمن مخالصة، ودينك لا تسلمه لأحد، وفي حديث أوَّله: خالطوا النَّاس علىٰ قدر إيمانهم.

انظر : المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة (ص١٦٤-١٦٦) ، وللاستزادة انظر : كشف الخفاء ومزيل الإلباس (١/ ٢٢٢-٢٢٣) ، اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة المعروف بـ (التذكرة في الأحاديث المشتهرة) (١/ ١٠٧-١٠٨) ، الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة (ص٥٥) .

[٤٠] تقدَّم تخريجه .

الصِّفَات ، وَالْقَوْم وَقد جعلُوا دأبهم الدُّخُول فِيهَا وَالْأَمر بهَا فليت شعري من الْأَشْبَه بالسَّلف . وَهَا نَحن نذكر عقيدة أهل السُّنَّة فَنَقُول : عقيدتنا أَنَّ الله قديم (١) أزليٌّ (٢) ، لَا يشبه شَيْئاً وَلَا يُشبههُ شَيْء ،

---

(١) القِدَم معنىً عدم لا وجودي ، ولم يرد لفظ القديم في القرآن صريحاً ، وإنَّما ورد ضمناً في قوله تعالى : ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ**﴾ [الحديد : ٣] ، والأوَّل هو الذي لا ابتداء لوجوده ، وقد جاء في الحديث : " إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا ... وذكر منها : الْقَدِيم " . أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٦٩ برقم ٣٨٦١) .

وقد ساق المتكلِّمون العديد من الأدلَّة العقليَّة والنَّقليَّة على قِدَمِه تعالى ، منها :

١ . أنَّه لو لم يكن تعالى قديماً لكان حادثاً ، لكن التَّالي باطل ، فبطل ما أدَّى إليه ، وهو كونه تعالى غير قديم ، وثبت نقيضه ، وهو اتِّصافه تعالى بصفة القِدَم . ودليل بطلان التَّالي هو أنَّه لو كان تعالى حادثاً ، لاحتاج إلى مُحدث ، ومُحدثه إلى مُحدث ، فيدور الأمر أو يتسلسل وهما باطلان ...

٢ . أنَّه تعالى لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ، ولو كان حادثاً لاحتاج مُحدثه إلى مُحدث ، فلا يكون واجب الوجود ، لكن قد ثبت اتِّصافه بوجوب الوجود ، فاستحال عليه تعالى الحدوث ، وثبت اتِّصافه بالقِدَم . انظر : الإنصاف (ص٣٣) ، لمع الأدلة (ص٩٧) ، التمهيد لقواعد التَّوحيد (ص٤٩) .

أمَّا الأدلَّة النَّقليَّة على هذه الصِّفة ، فكثيرة ، منها :

١ . قوله تعالى : ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ**﴾ [الحديد : ٣] . والأوَّل – كما قلنا آنفاً – الذي لا ابتداء لوجوده .

٢ . وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ " . أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٤ برقم ٢٧١٣) .

وفي كتابه "إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ٢١) ذكر الإمام الزَّبيدي أنَّ الأمَّة أجمعت على وصف الله تعالى بالقِدَم .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ [الإخلاص : ٣] قال الإمام السَّلفي ابن جرير الطَّبري : " يَقُولُ: وَلَيْسَ بِمُحْدَثٍ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ، لِأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ فَإِنَّمَا وُجِدَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَحَدَثَ بَعْدَ أَنْ كَانَ غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ قَدِيمٌ لَمْ يَزَلْ، وَدَائِمٌ لَمْ يَبِدْ، وَلَا يَزُولُ وَلَا يَفْنَى" .انظر : تفسير الطبري (٣٠/ ٤٥٢) .

وقال أيضاً في "تاريخ الأمم والملوك"(١/ ١٢) : "والدّلالة على أنَّ لا قديم إلَّا الله الواحد القهار ، الذي له ملك السَّموات والأرض وما بينهما وما تحت الثَّرى ..." .

وقال فيه أيضاً (١/ ٢٥) : "القول في الدّلالة على أنَّ الله عزَّ وجلَّ القديم الأوَّل قبل شيء ..." .

فأنت ترىٰ أنَّ الإمام السَّلفي ابن جرير الطَّبري وصف الله تعالىٰ بالقدم ، ومع هذا سمعنا من يشنّع علىٰ من وصف الله بالقِدَم قائلاً بأنَّ السَّلف لم يقولوا بذلك!! مع العلم أنَّنا حين نطلقه علىٰ الله تعالىٰ لا نريد إلَّا معنىٰ الأوَّليَّة التي تضمَّنها قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد : ٣] . وقد فسَّر المفسِّرون الأوَّل بأنَّه الذي ليس لوجوده بداية ...

قال الإمام ابن عطيَّة في تفسيره (٥/ ٢٥٧) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة" .

وقال الإمام البغوي في "معالم التنزيل" (ص١٢٧٥) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ : "السَّابق علىٰ كلِّ الموجودات من حيث أنَّه موجدها ومحدثها" .

وقال الإمام الزَّمخشري في الكشَّاف (٤/ ٦١) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ : القديم الذي كان قبل كلِّ شيء" .

وقال الإمام ابن الجوزي في "زاد المسير" (٤/ ٢٣٢) : "قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ ، قال أبو سليمان الخطَّابي : هو السَّابق للأشياء" .

وقال الإمام الألوسي في "روح المعاني" (١٤/ ١٦٦) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ السَّابق علىٰ جميع الموجودات ، فهو سبحانه موجود قبل كلِّ شيء حتىٰ الزَّمان ، لأنَّه جلَّ وعلا المثوجد والمحدث للموجودات" .

وقال الإمام أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٢٠٣) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ السَّابق علىٰ سائر الموجودات لما أنَّه مبدئها ومبدعها"

وقال الإمام أبو حيَّان في "البحر المحيط" (٨/ ٢١٦) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ : الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة" .

وقال الإمام البروسوي في "روح البيان"(٩/ ٤١١) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ السَّابق علىٰ سائر الموجودات بالذَّات والصِّفات لما أنَّه مبدئها ومبدعها ، فالمراد بالسَّبق والأوَّلوية هو الذَّاتي لا الزَّماني ، فإنَّ الزَّمان من جملة الحوادث" .

وقال الإمام الأصفهاني في "معجم ألفاظ مفردات القرآن" (ص٢٧) : "وإذا قيل في صفة الله : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ فمعناه : أنَّه الذي لم يسبقه في الوجود شيء" . وللاستزادة انظر : تفسير الرَّازي (٢٩/ ١٨٢-١٨٥) .

وعليه ، فمعنىٰ القديم هو ما ذهب إليه العلماء في تفسير اسم الله ﴿الْأَوَّلُ﴾ ، ومن المعلوم أنَّه لا مشاحَّة في الاصطلاح ، فالأوَّلُ – سبحانه – هو الذي لم يسبقه في الوجود شيء ، وأنَّ كلَّ ما سواه حادث ، كائن بعد أنْ لم يكن ، قَال رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّموات وَالأَرْض " . أخرجه البخاري (٤/ ١٠٥ برقم ٣١٩١) .

وأوَّليَّة الله تعالىٰ ليست بالزَّمان ولا بالمكان ولا بأيِّ شيء يمكن تصوُّره في عقول البشر ، سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١] ...

وبالمعنىٰ السَّابق فسَّر جمهور العلماء اسم الله ﴿الْأَوَّلُ﴾ الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] .

قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " يقول تعالىٰ ذكره : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ قبل كلِّ شيء بغير حدٍّ ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ ، يَقُولُ: وَالْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، لِأَنَّهُ كَانَ وَلَا شَيْءَ مَوْجُودٌ سِوَاهُ، وَهُوَ كَائِنٌ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] . انظر : تفسير الطبري (٢٣/ ١٦٨) .

وقال الإمام الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " وقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] ، تأويله : هو الأوَّل قبل كلِّ شيء ، والآخر بعد كلِّ شيء " . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٢٢) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] : الأوَّل قبل كلِّ أحد ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ ، بعد كلِّ أحد ... ويقال : ﴿الْأَوَّلُ﴾ بلا ابتداء ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ بلا انتهاء " . انظر : بحر العلوم (٣/ ٣٨٠) .

وقال الشَّريف الرَّضي (٤٠٦هـ) : " معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿الْأَوَّلُ﴾ ، أي : الذي لم يزل قبل الأشياء كلّها ، لا عن انتهاء مدَّة ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] ، أي : الذي لا يزال بعد الأشياء كلّها ، لا إلىٰ انتهاء غاية " . انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٣٢٦) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ ، يعني : هُوَ الْأَوَّلُ قبل كلِّ شيء ، بلا حدٍّ ولا ابتداء ، كان هو ولا شيء موجود ... وقال الحسين بن الفضل : هُوَ الْأَوَّلُ بلا ابتداء ، وَالْآخِرُ بلا انتهاء " . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٢٧-٢٢٨) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب المالكي (٤٣٧هـ) : " أي : هو الأوَّل قبل كلِّ شيء بغير حدٍّ " . انظر : الهداية إلىٰ بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٣٠٤) .

وقال الإمام الغزالي (٥٠٥هـ) : " وَأَنَّه وَاحِدٌ قديمٌ لَا أَوَّل لَهُ ، أزليٌّ لَا بداية لَهُ ، مُسْتَمرٌّ الْوُجُود لَا آخر لَهُ ، أبديٌّ لَا نِهَايَة لَهُ ، قيُّومٌ لَا انْقِطَاع لَهُ ، دَائِمٌ لَا انصرام لَهُ ، لم يزل مَوْصُوفاً بنعوت الْجلَال ، لَا يُقْضىٰ عَلَيْهِ بالانقضاء والانفصال بتصرُّم الآباد وانقراض الْآجَال ، بل هُوَ الأوَّل وَالْآخر ، وَالظَّاهِر وَالْبَاطِن ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْء عليم " . انظر : قواعد العقائد (ص٥٠) .

وقال الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) : " وَأَنَّه قديمٌ لَا أَوَّل لَهُ ، أزليٌّ لَا بداية لَهُ ، مُسْتَمر الْوُجُود لَا آخر لَهُ ، أبديٌّ لَا نِهَايَة لَهُ ، قيومٌ لَا انْقِطَاع لَهُ ، دَائِم لَا انصرام لَهُ ، لم يزل وَلَا يزَال مَوْصُوفاً بنعوت الْجلَال ، لَا يُقْضىٰ عَلَيْهِ بالانقضاء تصرم الآباد وانقراض الْآجَال ، بل هُوَ الأوَّل وَالْآخر وَالْبَاطِن وَالظَّاهِر " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٩٩) .

(٤٢) الازَلِيّ : نسبه إلىٰ إِلَىٰ الأزَلِ ، وهو الخَالِدُ الدَّائِمُ الوُجُودِ الذي لاَ بَدْءَ لَهُ سبحانه وتعالىٰ ، بمعنىٰ أنَّه تعالىٰ ليس مسبوقاً بالعدم .

لَيْسَ لَهُ جِهَة وَلَا مَكَان (٤٣) ، وَلَا يجْرِي عَلَيْهِ وَقت وَلَا زمَان ،

---

(٤٣) قال الإمام الطَّحاوي في عقيدته : "تعالى الله عن الحدود والغايات والأركان والأدوات ، ولا تحويه الجهات السِّت كسائر المبتدعات" .

ومن الجدير بالذِّكر هنا أنَّ الشَّيخ ابن أبي العزّ خالف الإمام الطَّحاوي في عقيدته أثناء شرحه لها في العديد من الأمور ، حيث اشتمل شرحه للعديد من الطَّامَّات التي تخالف عقيدة الأمَّة ، من ذلك :

[١] قوله : أنَّ نوع الحوادث يمكن دوامها في الماضي والمستقبل . انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص١٣٤) .

[٢] إثباته الجهة لله تعالى ، كما في (ص٢٤٢) ، من شرحه للطَّحاويَّة ، مع أنَّ الإمام الطَّحاوي يقول : (لا تحويه الجهات السِّت كسائر المبتدعات) .

[٣] إثباته الدّنو لله تعالى ، حيث يقول في (ص٣١٥) : "فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنَّه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سماواته؟ أو يدني إليه من يشاء من خلقه؟" وهذا هو التَّجسيم بعينه وشينه ومينه .

[٤] تصريحه بالنُّزول الحسِّي للحقِّ سبحانه وتعالى ، وهو النُّزول المعقول عند جميع الأمم ، والذي يكون من علوٍّ إلى سفل . انظر شرحه للطحاوية (ص٣٢٠) .

[٥] زعمه أنَّ الله تعالى يتكلَّم بصوت يُسمع ، مع أنَّ الصَّوت لم يأت بحديث آحاد صحيح فضلاً عن غيره من القطعي ، وقد أفضنا في الكلام على ذلك عند الحديث على صفة كلام الله تعالى ...

[٦] قوله بفناء النَّار ، كما ذهب إلى ذلك كلٌّ من الشَّيخ ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم . انظر شرح الطَّحاوية (ص٤٨٣) .

[٧] إثباته الحدّ لله تعالى ، زاعماً أنَّه ليس وراء نفيه إلَّا نفي وجود الرَّب ونفي حقيقته . انظر شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٠) ، مع أنَّ الإمام الطَّحاوي يقول في عقيدته : "وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ" .

قلت : والقول بأنَّ لله تعالى حدَّاً يعلمه هو سبحانه ، من العقائد التي قال بها ابن تيمية – غفر الله تعالى له– وهي مبثوثة في غير ما كتاب من كتبه ، من ذلك :

(١) قوله في بيان تلبيس الجهميَّة (١/ ٤٣٣) : "فهذا الكلام من الإمام أبي عبد الله أحمد رحمه الله يبيِّن أنَّه نفى أنَّ العباد يحدُّون الله تعالى صفاته بحدّ ، أو يقدرون ذلك بقدر ، أو أن يبلغوا إلى أن يصفوا ذلك ، وذلك لا ينافي ما تقدَّم من إثبات أنَّه في نفسه له حدٌّ يعلمه هو لا يعلمه غيره ..." .

(٢) نقل في (١/ ٤٤٠) من المرجع السَّابق مقرَّاً عن أبي إسماعيل الأنصاري الهروي ، قال : سألت يحيىٰ بن عمَّار عن أبي حاتم ابن حبَّان البستي ، قلت : رأيته؟ قال : كيف لم أره ، ونحن أخرجناه من سجستان ، كان له علم كثير ، ولم يكن له كبير دين ، قدم علينا فأنكر الحدَّ لله ، فأخرجناه من سجستان ..." .

(٣) وقال فيه أيضاً (١/ ٤٤٥) : "قد دلَّ الكتاب والسُّنَّة علىٰ معنىٰ ذلك ، كما تقدَّم احتجاج الإمام أحمد لذلك بما في القرآن ، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّه تعالىٰ له حدٌّ يتميَّز به عن المخلوقات" .

(٤) وقال فيه أيضاً (١/ ٤٢٦) مقرَّاً : "وقال أبو سعيد عثمان بن سعيد الدَّارمي في كتابه الذي سمَّاه : "نقض عثمان ابن سعيد علىٰ المريسي الجهمي العنيد ، فيما افترىٰ علىٰ الله في التَّوحيد" ، قال فيه : (باب الحدّ والعرش) وادَّعىٰ المُعَارض أيضاً أنَّه ليس له حدٌّ ، ولا غاية ، ولا نهاية ، قال : هذا الأصل الذي بنىٰ عليه جهم جميع ضلالاته ، واشتقّ منه أغلوطاته ، وهي كلمة لم يبلغنا أنَّه سبق جهماً إليها أحد من العالمين .

فقال له قائل ممَّن حاور : قد علمت مرادك أيُّها الأعجمي ، تعني أنَّ الله تعالىٰ لا شيء ، لأنَّ الخلق كلّهم علموا أنَّه ليس يقع عليه اسم الشَّيء إلَّا وله حدّ وغاية وصفة ، وأنَّه لا شيء ليس له حدّ ولا غاية ولا صفة ، فالشَّيء أبداً موصوف لا محالة ، ولا شيء يوصف بلا حدٍّ ولا غاية ، وقولك : لا حدَّ له ، تعني أنَّه لا شيء !!!

قال أبو سعيد : والله تعالىٰ له حدّ لا يعلمه غيره ، ولا يجوز لأحد أن يتوهَّم لحدِّه غاية في نفسه ، ولكن نؤمن بالحدِّ ، ونكِل علم ذلك إلىٰ الله تعالىٰ ، ولمكانه أيضاً حدٌّ ، وهو علىٰ عرشه فوق سمواته ، فهذان حدَّان اثنان ..." .

(٥) وقال في الموافقة المطبوع بهامش منهاج السُّنَّة (٢/ ٢٩) : " ... فهذا كلُّه وما أشبه شواهد ودلائل علىٰ الحدِّ ، ومن لم يعترف به فقد كفر بتنزيل الله !!! وجحد آيات الله !!! ..." .

قلت : هذا الكلام يقتضي تكفير عموم الأمَّة من أشاعرة وماتريديَّة ، ومن وافقهم و ... و ... و ... سبحانك ربِّي هذا بهتان عظيم .

وحتَّىٰ يتسنَّىٰ لابن تيمية –غفر الله له– أن يمرِّر هذه العقيدة ، استشهد بكلام يُروىٰ عن الإمام عبد الله بن المبارك عليه رحمة الله ، ذكره الخلَّال في كتاب السُّنَّة بسنده إلىٰ ابن المبارك أنَّه قيل له : كيف نعرف الله عزَّ وجلَّ؟ قال : علىٰ العرش بحدّ ..." . انظر : بيان تلبيس الجهمية (١/ ٤٢٨) .

وقد "ذكر الحافظ البيهقي في "الأسماء والصِّفات" (ص٤٢٧) كلام عبد الله بن المبارك في بيان أنَّ الله تعالىٰ غير ممازج لشيء من المخلوقات ، رادَّاً به علىٰ من زعم من أهل الضَّلال أنَّه بكلِّ مكان ، حيث قال ابن المبارك : أنَّ الله تعالىٰ علىٰ العرش ، وليس في كلِّ مكان ، فقيل له بحدٍّ؟ قال : بحدّ .

فأوضح الإمام البيهقي معنىٰ كلمة بحدّ ، فذكر أنَّ معناها : بدليل ، أي : أنَّ عبد الله بن المبارك سُئل فقيل له : هل قلت بأنَّ الله تعالىٰ غير ممازج للخلق خلافاً لقول الجهميَّة بدليل سمعي أم لا؟ فأجابهم بأنَّه أبطل قولهم بحدّ ، أي : بدليل سمعي من القرآن ، وهو قوله سبحانه : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] ، أي : بصفة العلو ، أي علو الله تعالىٰ وتعاليه عن المكان ، كما أوضح ذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني في "فتح الباري" (٦/١٣٦) حيث قال : "وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ جِهَتَي الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ مُحَالٌ عَلَىٰ اللهِّ أَنْ لَا يُوصَفَ بِالْعُلُوِّ ، لأنَّ وَصْفَهُ بِالْعُلُوِّ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَىٰ ، وَالْمُسْتَحِيلُ كَوْنُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْحِسِّ" .

والمقصود علو الرِّفعة والمكانة والجلال ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾ [الأنعام : ١٨] ، فعلوّه سبحانه وفوقيَّته بالقهر والعظمة والجلال لا بالمكان الحادث المخلوق له سبحانه ، لأنَّه ليس كمثله شيء ، فلا يتوهَّم أيضاً أنَّ عبد الله بن المبارك يقول بالاتِّصال أو الانفصال ، حاشاه ...

فالإمام البيهقي وضَّح مراد عبد الله بن المبارك بقوله (بحدّ) أي : أنَّ المراد بذلك حدّ السَّمع ، أي : دليل السَّمع ، وقد جاء في اللغة كما في المفردات للرَّاغب وغيره أنَّ الحدَّ يُستعمل بمعنىٰ حكم الله ، وأحكام الله تعالىٰ آياته وأحاديث نبيّه صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوىٰ ، ويؤكِّد ما قرَّرناه أنَّ البيهقي أكَّد ذلك برواية أخرىٰ ليس فيها لفظة (حدّ) ، أوردها عن ابن المبارك عقب الرِّواية الأولىٰ التي فيها لفظ الحدّ ، ذكرها الإمام البيهقي في "الأسماء والصِّفات" ص(٤٢٧) في بَابُ قَوْلِ اللهَّ عزَّ وجلَّ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] .فإبن المبارك لم يثبت حدَّاً لله تعالىٰ البتَّة ، فاستغل ابن تيمية ومن تبعه لفظة (حدّ) التي وردت في بعض الِّروايات عن ابن المبارك بمعنىٰ الدَّليل ، لإيهام السُّذَّج والمغفَّلين بأنَّ ابن المبارك يقول بالحدّ .

وبعد هذا التَّقرير نقول : هب جدلاً أنَّ عبد الله بن المبارك أثبت الحدَّ ، فليس في ذلك ، أي : استدلال علىٰ ثبوت الحدّ لله تعالىٰ ، لأنَّ كلام ابن المبارك ليس قرآناً ولا سُنَّة معصومة مع مخالفته للقرآن ، والإجماع أيضاً علىٰ خلافه ، ومن قال إنَّ النَّاس وافقوا عبد الله علىٰ هذا الذي تخيَّله الزَّاعم من إثبات الحدّ ، قلنا له : لم تُصِبْ أيُّها الألمعي لوجوه عديدة ، منها : أنَّ الرِّوايات اختلفت عن ابن المبارك فبعضها يُذكر فيها لفظ (الحدّ) وبعضها لا يذكره ، ومنها : أنَّ لفظة حدّ لا علاقة لها بذات الله ، كما قدّمناه ، إنَّما هي عائدة علىٰ الدَّليل النَّقلي .

يضاف لذلك أنَّ عقيدة الأمَّة قامت علىٰ تنزيه الله عن الحدّ ، وبذلك قال علماء الأمَّة ، فمن ذلك : قال الشَّافعي في كتاب الفقه الأكبر صحيفة (٨) ما نصّه : "واعلموا أنَّ الحدَّ والنِّهاية لا يجوز علىٰ الله تعالىٰ" .

وقال الإمام أبو حنيفة في الفقه الأكبر –المنسوب إليه– ص(٥٧) من شرحه : "ولا حدَّ له ولا ضدَّ له" .

وَلَا يُقَال لَهُ : أَيْن (٤٤) وَلَا حَيْثُ (٤٥) ، يُرى لَا عَن مُقَابلَة وَلَا على مُقَابلَة ، كَانَ وَلَا مَكَان ، كَوَّن الْمَكَان ودبَّر الزَّمَان وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ .

وقال الإمام الطَّحاوي في عقيدته المشهورة التي ذكر في مقدِّمتها أنَّهَا عقيدة الإمام أبي حنيفة ، ومحمَّد بن الحسن ، وأبو يوسف ما نصّه : "وتعالى الله عن الحدود والغايات ، والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات السِّت كسائر المبتدعات" .

وأبطل الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في "لسان الميزان" (٥/ ١١٤) قول من قال بالحدِّ ، وبيَّن أَّن قول من قال لمن نفى الحدّ : "ساويت ربَّك بالشَّيء المعدوم إذ المعدوم لا حدَّ له نازل ، ساقط لا عبرة به باطل" .

وكذا قال الإمام الحافظ ابن دقيق العيد في كتابه "الاقتراح" ، والإمام الحافظ العلائي ، كما ذكر ذلك الإمام الحافظ السُّبكي في كتابه "قاعدة في الجرح والتَّعديل" (ص٣٠-٣١) .

قال الإمام الحافظ البيهقي في "الأسماء والصِّفات" ص(٤١٥) : "وما تفرَّد به الكلبي وأمثاله يُوجب الحدّ ، والحدُّ يوجبُ الحدث لحاجة الحدّ إلى حادّ خصَّه به ، والباري قديم لم يزل" . انظر : مجموع رسائل السقاف (١/ ١١٥ فما بعدها باختصار) .

(٤٤) قال الإمام أبو المظفَّر الأسفرايني في كتابه "التَّبصير في الدِّين وتمييز الفرقة النَّاجية عن الفرق الهالكين" في بيان اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة: " ... وَأَن تعلم أَنَّه لَا يجوز عَلَيْهِ الْكَيْفِيَّة والكميَّة والأينيَّة ، لأنَّ مَنْ لَا مثل لَهُ لَا يُمكن أَن يُقَال فِيهِ : كَيفَ هُوَ ؟ وَمن لَا عدد لَهُ لَا يُقَال فِيهِ : كم هُوَ ؟ وَمن لَا أوَّل لَهُ لَا يُقَال لَهُ مِم كَانَ ؟ وَمن لَا مَكَان لَهُ لَا يُقَال فِيهِ أَيْن كَانَ ؟ وَقد ذكرنَا من كتاب الله تَعَالَى مَا يدلُّ على التَّوحيد وَنفي التَّشبيه ، وَنفي الْمَكَان والجهة ، وَنفي الِابْتِدَاء والأوَّليَّة ، وَقد جَاءَ فِيهِ عَن أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ رَضِي الله عَنهُ أشفى الْبَيَان حِين قيل لَهُ : أَيْن الله فَقَالَ إِن الَّذِي أَيَّن الأين لَا يُقَال لَهُ أَيْن فَقيل لَهُ كَيفَ الله فَقَالَ إِن الَّذِي كَيفَ الكيف لَا يُقَال لَهُ كَيفَ " . انظر : التبصير في الدِّين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص١٦١) .

وجاء في " كنز العمال " عن الأصبغ بن نباتة قال: كنَّا جلوساً عند علي بن أبي طالب فأتاه يهودي ، فقال: يا أمير المؤمنين متى كان الله؟ فقمنا إليه فلهزناه حتى كدنا نأتي على نفسه، فقال عليٌّ: خلُّوا عنه، ثُمَّ قال : اسمع يا أخا اليهود ما أقول لك بأذنك واحفظه بقلبك، فإنَّما أحدِّثك عن كتابك الذي جاء به موسى بن عمران، فإن كنت قد قرأت كتابك وحفظته فإنَّك ستجده كما أقول، إنَّما يقال متى كان لمن لم يكن ثُمَّ كان، فأمَّا من يزل بلا كيف يكون كان بلا كينونة، كائن لم يزل قبل القبْل وبعد البعد لا يزال بلا كيف ولا غاية ولا منتهى . انظر : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١/ ٤٧٠ برقم ١٧٣٦) .

هَذَا مَذْهَب أهل السُّنَّة وعقيدة مَشَايِخ الطَّرِيق رَضِي الله عَنْهُم .

قَالَ الجُنَيْد رَضِي الله عَنهُ : مَتى يتَّصل من لَا شَبيه لَهُ وَلَا نَظِير لَهُ بِمن لَهُ شَبيه وَنَظِير .

وكما قيل ليحيى بن معَاذ الرَّازِيّ : أخبرنَا عَن الله عزَّ وَجلَّ ؟ قَالَ : إِلَه وَاحِد ، فقيل لَهُ : كَيفَ هُوَ ؟ فَقَالَ مَالك قَادر ، فَقيل لَهُ : أَيْن هُوَ ؟ فَقَالَ : بالمرصاد .

فَقَالَ السَّائِل : لم أَسأَلك عَن هَذَا ، فَقَالَ : مَا كَانَ غير هَذَا كَانَ صفة الْمَخْلُوق فَأَما صفته فَمَا أَخْبرت عَنهُ .

وكما سَأَلَ ابْن شاهين الجُنَيْد رَضِي الله عَنْهُمَا عَن معنى مَعَ ، فَقَالَ : مَعَ على مَعْنيين : مَعَ الْأَنْبِيَاء بالنُّصرة والكلاءة ، قَالَ الله تَعَالَى : ﴿إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى﴾ [طه:٤٦] ، وَمَعَ الْعَالم بِالْعلمِ والإحاطة ، قَالَ الله تَعَالَى : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] ، فَقَالَ ابْن شاهين : مثلك يصلح دَالاً للأُمَّة على الله .

وَسُئِلَ ذُو النُّون الْمصْرِيّ رَضِي الله عَنهُ عَن قَوْله تَعَالَى : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه:٥] ، فَقَالَ : أثبت ذَاته وَنفى مَكَانَهُ فَهُوَ مَوْجُود بِذَاتِهِ (٤٦) والأشياء بِحِكْمَتِهِ كَمَا شَاءَ .

---

(٤٥) كلمة حيث تدلُّ على المكان ، وهي ظرف في الأمكنة ، وهي بمنزلة حين في الأزمنة ...

(٤٦) جاء في حاشية إتحاف الكائنات (ص١١) : " سيأتي إن شاء الله تعالى في آخر مبحث الاستواء ، بيان أنَّ هذه العبارة مدسوسة على ابن أبي زيد ، وعلى فرض ثبوتها عنه فهي محمولة على محامل تليق بجلال الله تعالى " .

وقد رأيت كلاماً طيِّباً لمحقِّق عقيدة ابن أبي زيد أحببت أن أثبته هنا لما فيه من الفائدة ، قال :

قوله : "المجيد بذاته" . هذا ما جاء في الأصل ، أمَّا ما نقله السُّبكي فهو مبتور حيث حذفت لفظة (المجيد) هكذا يستقيم ضبط النَّص ، على أنَّ المجيد خبر ثاني "(لأنَّ) أو خبر لمبتدأ محذوف ، والجار والمجرور "بذاته" يتعلَّقان به لا بما تعلَّق به الظَّرف –أي : "فوق"– ، والمعنى : أنَّ مجده وعظمته ذاتيَّة ، ليست مكتسبة بالعرش ولا بغيره ؛ فغناه –سبحانه– مُطلق لا يفتقر إلى شيء من مخلوقاته . ولفظ المجيد إن كان في قواعد الإعراب يحتمل هنا الجر على أنَّه صفة للعرش ، والرَّفع على أنَّه خبر؛ فمجرَّد الاحتمال لا يكفي ، بل لا بَّد من الأدلَّة التي توجب أحد الوجهين أو ترجِّحه ، وقد قامت الأدلَّة على وجوب الرَّفع ، وهي :

– أنَّ ابن أبي زيد كان على مذهب السَّلف في الأصول ، كما صرَّح به الذَّهبي في ترجمته له في سير أعلام النُّبلاء (١٧/ ١٢) . وهذه الكلمة "بذاته" لم يثبت عن أحد من السَّلف أنَّه قالها .

– أنَّ الشَّارح رحمه الله لم يعرِّج على هذه اللفظة ، ولم يستشكلها ، وهي أولى بالاستشكال من لفظ "فوق" ، وإن كانت لفظة "فوق" تعني العلو ، ولا يلزم منها التَّمكُّن والاستقرار ، ولكن بيَّن وجه اعتراضه بأنَّ الفوقيَّة لم يرد

استعمالها في مثل هذا المقام المُشعر بالحسيَّة والاستقرار والتَّمكُّن في الشَّرع ، وإنَّما ورد استعمالها مطلقة كقوله تعالىٰ : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النحل : ٥٠] ، وكان علىٰ المصنِّف تحاشيها .

– أنَّ الشَّارح لو فهم من عبارة المؤلِّف "بذاته" ما فهمه بعض الشرَّاح؛ لبادر إلىٰ إنكار هذا اللفظ–؛ لأنَّ الشَّارح أشعري– ، وهو أولىٰ بالإنكار من لفظ الفوقيَّة ، إذ لم يسبق إلىٰ هذا الاستعمال ولم يخطر علىٰ بال الشَّارح هذا الفهم ، وهو أعلم بكلام المصنِّف . ولفظة "بذاته" لم ترد في الكتاب والسُّنَّة ولا في كلام الصَّحابة رضي الله عنهم . قال الحافظ الذَّهبي في كتابه (العلو للعلي العظيم) (٢/ ١٢٩٢) عند ذكرها في كلام ابن أبي زيد القيرواني : "وقد نقموا عليه في قوله (بذاته) فليته تركها" . وقال أيضاً في (سير أعلام النُّبلاء) (١٩/ ٦٠٦–٦٠٧) في ترجمة الإمام أبي الحسن بن الزَّاغوني البغدادي الحنبلي (المتوفىٰ سنة ٥٢٧هـ) بعد أن ذكر قوله من قصيدة له :

عالٍ علىٰ العرش الرَّفيع بذاته   سبحانه عن قول غاو ملحد

"قد ذكرنا أنَّ نقطة (بذاته) لا حاجة إليها ، وهي تشغب النُّفوس ، وتركها أولىٰ ، والله تعالىٰ أعلم" .

وقال الذَّهبي أيضاً في (سير أعلام النُّبلاء) (٢٠/ ٨٥–٨٦) عند ترجمة الإمام أبي القاسم التَّيمي الأصبهاني الملقَّب بقوام السُّنَّة (المتوفَّىٰ سنة ٥٣٥هـ) : "الصَّواب الكفّ عن إطلاق ذلك ، إذ لم يأت فيه نصٌّ ، ولو فرضنا أنَّ المعنىٰ صحيح ، فليس لنا أن نتفوَّه بشيء لم يأذن به الله ، خوفاً من أن يدخل القلب شيء من البدعة ، اللهمَّ احفظ علينا إيماننا" .

– أنَّ هذا الاستعمال يساير استعمال القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : **﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾** [البروج : ١٥] ، هي القراءة المشهورة (برفع المجيد) . والمجيد القويّ في ذاتيَّته ، ولذا ذيَّلتها الآية التي بعدها بقوله تعالىٰ : **﴿فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ﴾** [البروج : ١٦] ؛ لأنَّ عظمته ذاتيَّة وليست مكتسبة ممَّا خلق وذرأ ، وليس لأحد عليه سلطان فيما يريد ، بل إرادته مطلقة ، يفعل ما يريد .

– أنَّ ابن زيد أشعري المذهب ، والأشعريَّة لا يقولون بهذه الكلمة بل ينكرونها ، فحمل كلامه علىٰ ما يوافق مذهبه مقدَّم علىٰ حمله علىٰ غير مذهبه ثُمَّ الرَّد عليه . وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ ابن أبي زيد علىٰ مذهب أبي الحسن الأشعري : ذكر ابن عساكر له في كتابه (تبيين كذب المفتري) وعدّه من الأشاعرة ، ومن الذَّابِّين عن مذهبهم وأئمَّتهم؛ فقد قال عنه في (ص١٢٢) : "ومن الشُّيوخ المتأخِّرين المشاهير أبو محمَّد بن أبي زيد وشهرته تغني عن ذكر فضله ، اجتمع فيه العقل والدِّين والعلم والورع ، وكان يلقَّب بمالك الصَّغير . وخاطبه من بغداد رجل معتزلي يرغبه في مذهب الاعتزال ويقول له : أنَّه مذهب مالك وأصحابه ، فجاوبه بجواب من وقف عليه علم أنَّه كان نهاية في علم الأصول رحمه الله " .

وَسُئِلَ عَنهُ الشِّبلي رَضِي الله عَنهُ ، فَقَالَ : الرَّحْمَن لم يزل وَالْعرش مُحدث وَالْعرش بالرَّحمن اسْتَوَى .

وَسُئِلَ عَنْهَا جَعْفَر بن نصير ، فَقَالَ : اسْتَوَى علمه بِكُل شَيْء وَلَيْسَ شَيْء أقرب إِلَيْهِ من شَيْء .

وَقَالَ جَعْفَر الصَّادِق رَضِي الله عَنهُ ، : من زعم أَنَّ الله فِي شَيْء أَو من شَيْء أَو على شَيْء فقد أشرك إِذْ لَو كَانَ فِي شَيْء لَكَانَ محصوراً ، وَلَو كَانَ على شَيْء لَكَانَ مَحْمُولا ، وَلَو كَانَ من شَيْء لَكَانَ مُحدثاً .

وَقَالَ مُحَمَّد بن مَحْبُوب ، خَادِم أبي عُثْمَان المغربي ، : قَالَ لي أَبُو عُثْمَان المغربي يَوْماً : يَا مُحَمَّد لَو قَالَ لَك قَائِل : أَيْن معبودك أيش تَقول ؟ قلت : أَقُول حَيْثُ لم يزل .

قَالَ : فَإِن قَالَ : فَأَيْنَ كَانَ فِي الْأَزَل أيش تَقول ؟ قلت : حَيْثُ هُوَ الْآن .

يَعْنِي أَنَّه كَانَ وَلَا مَكَان فَهُوَ الْآن كَمَا كَانَ ، قَالَ : فارتضى ذَلِك منِّي وَنزع قَمِيصه وأعطانيه .

وَقَالَ أَبُو عُثْمَان المغربي : كنت أعتقد شَيْئاً من حَدِيث الْجِهَة فَلَمَّا قدمت بَغْدَاد زَالَ ذَلِك عَن قلبِي فَكتبت إِلَى أَصْحَابِي بِمَكَّة : أَنِّي أسلمت جَدِيداً .

قلت : هذا يبيِّن عدم دَّقة الذَّهبي رحمه الله حين أراد أن يُدافع عن ابن أبي زيد في قضيَّة (بذاته) حين ترجم له؛ فقال في سير أعلام النُّبلاء (١٧/ ١٢) : "وكان رحمه الله علىٰ طريقة السَّلف في الأصول ، لا يدري الكلام ولا يتأوَّل" .

ويبدو أنَّه لم يطلع علىٰ هذه الرِّسالة وما اشتملت عليه من علم غزير في علم الأصول (علم الكلام) .

وقال ابن عساكر أيضاً في موضع آخر (ص ٤٠٥-٤٠٨) : "وقد قرأت بخطِّ علي بن بقاء الورَّاق المحدِّث المصري ، رسالة كتب بها أبو محمَّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي –وكان مقدَّم أصحاب مالك رحمه الله بالمغرب في زمانه– إلىٰ علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي المعتزلي جواباً عن رسالة كتب بها إلىٰ المالكيين من أهل القيروان يُظهر نصيحتهم بما يدخلهم به في أقاويل أهل الاعتزال ، فذكر الرِّسالة بطولها في جزء –وهي معروفة– فمن جملة جواب ابن أبي زيد له أن قال : ... وذكرت الأشعري فنسبته إلىٰ الكفر ، وقلت أنَّه كان مشهوراً بالكفر ، وهذا ما علمنا أنَّ أحداً رماه بالكفر غيرك ، ولم تذكر الذي كفر به ، وكيف يكون مشهوراً بالكفر ، من لم ينسب هذا إليه أحد علمناه في عصره ، ولا بعد عصره؟ ... ثُمَّ قال : فكيف يسعك أن تكفِّر رجلاً مسلماً بهذا ، ولا سيَّما رجل مشهور أنَّه يرد علىٰ أهل البدع وعلىٰ القدريَّة والجهميَّة ، متمسِّك بالسُّنن" . أ .هـ .

فابن أبي زيد والقاضي عبد الوهَّاب كلاهما من مدرسة واحدة تؤيِّد الأشعري وتناصره ، وتناصر أقواله ، ولذا عدَّهما ابن عساكر في المشاهير الذين اقتدوا بمذهبه . وبهذا الضَّبط –أي : برفع المجيد– يرتفع اللبس والإشكال ، والاستعمال المحذور في اللفظ المذكور–أي : بذاته– الذي عيب علىٰ المصنِّف استعماله ، وكان سبباً في التَّعقُّب عليه ممَّن جاء بعده" . انظر : عقيدة ابن أبي زيد ، بتحقيق الدكتور : أحمد محمَّد نور سيف (ص١٧١-١٧٤) .

قَالَ : فَرجع كلُّ من كَانَ تَابعه عَن ذَلِك .

فَهَذِهِ كَلِمَات أَعْلَام أهل التَّوْحِيد وأئمَّة جُمْهُور الْأمَّة سوى هَذِه الشّرذمة الزَّائغة !!! وكتبهم طافحة بذلك ، وردّهم على هَذِه النَّازغة لَا يكَاد يحصر ، وَلَيْسَ عرضاً بذلك تقليدهم لمنع ذَلِك فِي أُصُول الدّيانَات بل إِنَّمَا ذكرت ذَلِك ليعلم ، أَنَّ مَذْهَب أهل السُّنَّة مَا قدَّمْنَاهُ .

ثمَّ إِنَّ قَوْلنَا إِن آيَات الصِّفَات وأخبارها على من يسْمعهَا وظائف التَّقْدِيس وَالْإِيمَان بِمَا جَاءَ عَن الله تَعَالَى وَعَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مُرَاد الله تَعَالَى وَمُرَاد رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والتَّصديق وَالِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ وَالسُّكُوت والإمساك عَن التَّصَرُّف فِي الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة ، وكفّ الْبَاطِن عَن التَّفكُّر فِي ذَلِك ، واعتقاد أَنَّ مَا خَفِي عَلَيْهِ مِنْهَا لم يخف عَن الله وَلَا عَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَسَيَأْتِي شرح هَذِه الوظائف إِن شَاءَ الله تَعَالَى ، فليت شعري فِي أَي شَيْء نخالف السَّلف ؟!! هَل هُوَ فِي قَوْلنَا : كَانَ وَلَا مَكَان أَو فِي قَوْلنَا : إِنَّه تَعَالَى كَوَّن الْمَكَان ؟!! أَو فِي قَوْلنَا : وَهُوَ الْآن على مَا عَلَيْهِ كَانَ ؟!! أَو فِي قَوْلنَا : تقدَّس الْحقُّ عَن الجسميَّة ومشابهتها ؟!! أَو فِي قَوْلنَا : يجب تَصْدِيق مَا قَالَه الله تَعَالَى وَرَسُوله بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَ ؟!! أَو فِي قَوْلنَا : يجب الِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ؟!! أَو فِي قَوْلنَا : نسكت عَن السُّؤَال والخوض فِيمَا لَا طَاقَة لنا بِهِ ؟!! أَو فِي قَوْلنَا : يجب إمْسَاك اللِّسَان عَن تَغْيِير الظَّوَاهِر بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَان .

وليت شعري فِي مَاذَا وافقوا هم السَّلف : هَل فِي دُعَائِهِمْ إِلَى الْخَوْض فِي هَذَا والحثّ على الْبَحْث مَعَ الْأَحْدَاث الغرين [٤٧] والعوام الطَّغَام الَّذين يعجزون عَن غسل مَحلِّ النَّجو وَإِقَامَة دعائم الصَّلَاة ؟!! أَو وافقوا السَّلف فِي تَنْزِيه الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَن الْجِهَة وَهل سمعُوا فِي كتاب الله أَو أثارة من علم عَن السَّلف أَنَّهم وصفوا الله تَعَالَى بِجِهَة الْعُلُوّ ، وَأَنَّ كلّ مَالا يصفه بِهِ فَهُوَ ضالٌّ مضلٌّ من فراخ الفلاسفة والهنود واليونان [٤٨] ﴿انْظُر كَيفَ يفترون على الله الْكَذِب وَكفى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء:٥٠] .

---

[٤٧] الغرين: زبد المَاء يبْقى فِي الْحَوْض لَا يقدر على شربه ، والطين يحملهُ السَّيْل ، وَقد يبْقى على وَجه الأَرْض رطبًا أَو يَابساً . انظر : المعجم الوسيط (٢/ ٦٥١) .

[٤٨] من المعلوم أنَّ الشَّيخ ابن تيمية استمرأ على وصف مخالفيه بأنَّهم أَفْرَاخُ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَأَتْبَاعُ الْهِنْدِ وَالْيُونَانِ وَوَرَثَةُ الْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضُلَّالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَشْبَاهُهُ ... ومن أقواله في ذلك : قال في مجموع الفتاوى (٥/ ١٢) : " كَيْفَ يَكُونُ خَيْرُ قُرُونِ الْأُمَّةِ أَنْقَصَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ - لَا سِيَّمَا الْعِلْمُ بِاَللَّهِ وَأَحْكَامِ أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ - مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِمْ؟ أَمْ كَيْفَ يَكُونُ أَفْرَاخُ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَأَتْبَاعُ الْهِنْدِ وَالْيُونَانِ وَوَرَثَةُ الْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ وَضُلَّالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَأَشْكَالُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ: أَعْلَمَ بِاَللَّهِ مِنْ وَرَثَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَهْلِ

وَنحن الْآن نبتدئ بإفساد مَا ذكره ، ثمَّ بعد ذَلِك نُقِيم الْحجَّة على نفي الْجِهَة والتَّشبيه وعَلى جَمِيع مَا يَدَّعِيهِ ، وَبِاللهِ الْمُسْتَعَان ، فَأَقُول :

ادَّعى أَوَّلاً أَنَّه يَقُول بِمَا قَالَ الله وَرَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار رَضِي الله عَنْهُم ، ثمَّ إِنَّه قَالَ مَا لم يقلهُ الله وَلَا رَسُوله وَلَا السَّابِقُونَ الْأَولونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار ، وَلَا شَيْئا مِنْهُ ، فَأَمَّا الْكتاب وَالسُّنَّة فسنبيِّن مُخَالفَته لَهما ، وَأَمَّا السَّابِقُونَ الْأَوَّلونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار ، فَذكره لَهُم فِي هَذَا الْموضع اسْتِعَارَة للتَّهويل !!! وَإِلَّا فَهُوَ لم يُورد من أَقْوَالهم كلمة وَاحِدَة لَا نفياً وَلَا إِثْبَاتاً ، وَإِذا تصفَّحت كَلَامه عرفت ذَلِك ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَن يكون مُرَاده بالسَّابقين الْأَوَّلين من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار مَشَايِخ عقيدته دون الصَّحَابَة . وَأخذ بعد هَذِه الدَّعْوَى فِي مدحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي مدح دينه ، وَأَنَّ أَصْحَابه أعلم النَّاس بذلك ، وَالْأَمر كَمَا قَالَه وَفَوق مَا قَالَه ، وَكَيف المدائح تستوفي مناقبه ، وَلَكِن كَلَامه كَمَا قَالَ أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب رَضِي الله عَنهُ : كلمة حقٍّ أُرِيْدَ بهَا بَاطِل .

ثمَّ أَخذ بعد ذَلِك فِي ذمِّ الْأَئِمَّة وأعلام الْأمَّة ، حَيْثُ اعْتَرَفُوا بِالْعَجزِ عَن إِدْرَاكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، مَعَ أَنَّ سيِّد الرُّسُل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"([٤٩]) ، وَقَالَ الصِّدِّيق

الْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ وَإِنَّمَا قَدَّمْت " هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ " لِأَنَّ مَنْ اسْتَقَرَّتْ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ عِنْدَهُ عَرَفَ طَرِيقَ الْهُدَى أَيْنَ هُوَ فِي هَذَا الْبَابِ وَغَيْرِهِ وَعَلِمَ أَنَّ الضَّلَالَ وَالتَّهَوُّكَ إنَّمَا اسْتَوْلَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ بِنَبْذِهِمْ كِتَابَ اللَّهَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَتَرْكِهِمْ الْبَحْثَ عَنْ طَرِيقَةِ السَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ وَالْتِمَاسِهِمْ عِلْمَ مَعْرِفَةِ اللهَّ مِمَّنْ لَمْ يَعْرِفْ اللهَّ بِإِقْرَارِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَبِشَهَادَةِ الْأُمَّةِ عَلَى ذَلِكَ وَبِدَلَالَاتِ كَثِيرَةٍ؛ وَلَيْسَ غَرَضِي وَاحِدًا مُعَيَّنًا وَإِنَّمَا أَصِفُ نَوْعَ هَؤُلَاءِ وَنَوْعَ هَؤُلَاءِ ..." .

([٤٩]) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٤٧ برقم ٧٥١) ، قال الأرنؤوط في تخريجه لأحاديث المسند : " إسناده قوي ، هشام بن عمرو- وهو الفزاري- لم يرو عنه غير حماد بن سلمة وهو أقدم شيخ له ، ووثقه ابن معين وأحمد وأبو حاتم ، وذكره ابن حبان في "الثقات" ، واحتج به أصحاب السنن الأربعة . وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦ و١٠/ ٣٨٦ ، وعبد بن حميد (٨١) ، والتِّرمذي (٣٥٦٦) وحسنه ، وأبو يعلى (٢٧٥) من طريق يزيد بن هارون ، بهذا الإسناد . وأخرجه الطيالسي (١٢٣) ، وأبو داود (١٤٢٧) ، والنسائي في "المجتبى" ٣/ ٢٤٨- ٢٤٩ ، وفي "الكبرى" (٧٧٥٣) ، والطبراني في "الدعاء" (٧٥١) ، والبيهقي ٣/ ٤٢ من طرق عن حماد بن سلمة ، به . وسيأتي برقم (٩٥٧) و (١٢٩٥) . قوله : "كما أثنيت" ، قال السندي : أي : أنت الذي أثنيت على ذاتك ثناءً يليق بك ، فمن يقدر على أداء حق ثنائك ، فالكافُ زائدةً ، والخطاب في عائد الموصول بملاحظة المعنى ، ويحتمل أن الكاف بمعنى "على" ، والعائد محذوف ، أي : أنت ثابت على أوصافٍ أثنيت بها على نفسك ، والجملةُ على الوجهين في محل التعليل ، وفيه إطلاق النفس عليه تعالى بلا مشاكلة ..." .

رَضِي الله عَنهُ : الْعَجز عَن دَرك الْإِدْرَاك إِدْرَاك ، وتجاسر الْمُدَّعِي على دَعْوَى الْمعرفَة ، وَأَنَّ ابْن الْحيض قد عرف الْقَدِيم على مَا هُوَ عَلَيْهِ وَلَا غرور وَلَا جهل أعظم مِمَّن يَدَّعِي ذَلِك ، فنعوذ بِاللهَّ من الخذلان .

ثمَّ أَخذ بعد ذَلِك فِي نِسْبَة مَذْهَب جُمْهُور أمَّة مُحَمَّد صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنَّه مَذْهَب فِراخ الفلاسفة وَأَتْبَاع اليونان والهنود ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم وَيُسْأَلُوْن﴾ [الزخرف:١٩] .

ثمَّ قَالَ : كتاب الله تَعَالَى من أَوَّله إِلَى آخِره ، وَسنة رَسُوله صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أَوَّلهَا إِلَى آخرهَا ، ثمَّ عَامَّة كَلَام الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ ، ثمَّ كَلَام سَائِر الْأَئِمَّة مَمْلُوء بِهَا هُوَ إِمَّا نَصّ وَإِمَّا ظَاهر فِي الله تَعَالَى أَنَّه فَوق كلِّ شَيْء وعَلى كلِّ شَيْء ، وَأَنَّه فَوق الْعَرْش ، وَأَنَّه فَوق السَّمَاء .

وَقَالَ فِي أثْنَاء كَلَامه وأواخر مَا زَعمه إِنَّه فَوق الْعَرْش حَقِيقَة .

وَقَالَهُ فِي مَوضِع آخر عَن السَّلف ، فليت شعري أَيْن هَذَا فِي كتاب الله تَعَالَى على هَذِه الصُّورَة الَّتِي نقلهَا عَن كتاب ربِّه وَسنَّة نبيِّه صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَهل فِي كتاب الله تَعَالَى كلمة مِمَّا قَالَه حَتَّى يَقُول إِنَّه فِي نَص ، وَالنَّص هُوَ الَّذِي لَا يحْتَمل التَّأْوِيل أَلْبَتَّة ، وَهَذَا مُرَاده ، فَإِنَّهُ جعله غير الظَّاهِر لعطفه لَهُ عَلَيْهِ ، وَأي آيَة فِي كتاب الله تَعَالَى نَصّ بِهَذَا الِاعْتِبَار ، فَأول مَا اسْتدلَّ بِهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب﴾ [فاطر:١٠] ، فليت شعري أَي نَصٍّ فِي الْآيَة أَو ظَاهر على أَنَّ الله تَعَالَى فِي السَّمَاء أَو على الْعَرْش ، ثمَّ نِهَايَة مَا يتَمَسَّك بِهِ أَنَّه يدلُّ على علوٍّ يُفهم من الصُّعُود ، وهيهات زلَّ حمَار الْعلم فِي الطِّين ، فَإِنَّ الصُّعُود فِي الْكَلَام كَيفَ يكون حَقِيقَة مَعَ أَنَّ الْمَفْهُوم فِي الْحَقَائِق أَنَّ الصُّعُود مَا صِفَات الْأَجْسَام ، فَلَيْسَ الْمُرَاد إِلَّا الْقبُول ، وَمَعَ هَذَا لَا حدّ وَلَا مَكَان (٥٠) .

---

(٥٠) والحقُّ في هذه المسألة أنَّ جمهور أهل العلم ذهبوا إلى ما يناقض ما ذهب إليه ابن تيمية في تفسير الآية ... وبالتَّالي فهي لا تصلح دليلاً على العلو الحسِّي لله تعالى ... وتالياً طائفة من أقوال أهل العلم في تفسير الآية الكريمة ....

قال الإمام ابن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " ومعنى قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب﴾ [فاطر:١٠] ، أي : إلى حيث لا يملك فيه الحكم إلَّا الله ، وهو كما يقال : ارتفع أمرهم إلى القاضي " . انظر : تفسير ابن فورك (٢/ ١٦٢) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضى (٤٠٦هـ) : " قوله سبحانه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠] ، وهذه استعارة . وليس المراد أنَّ هناك على الحقيقة شيئاً يوصف بالصُّعود ، ويرتقى من سفال إلى علو ، وإنَّما المراد أَنَّ القول الطيِّب والعمل الصَّالح متقبَّلان عند اللهّ تعالى ، واصلان إليه سبحانه ، بمعنى أنَّهما يبلغان رضاه ، وينالان زلفاه ، وأنَّه تعالى لا يضيعهما ولا يهمل الجزاء عليهما . وهذا كقول القائل لغيره : قد ترقَّى الأمر إلى

الأمير ، أي : بلغه ذلك على وجهه ، وعرفه على حقيقته ، وليس يريد به الارتقاء الذي هو الارتفاع ، وضدّه الانخفاض .

ووجه آخر : قيل إنَّ معنى ذلك صعود الأقوال والأعمال إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلَّا الله سبحانه،. كما يقال : ارتفع أمر القوم إلى القاضي ، إذا انتهوا إلى أن يحكم بينهم ، ويفصل خصامهم ، ووجه آخر : قيل إنَّ الله سبحانه لَمَّا كان موصوفاً بالعلوِّ على طريق الجلال والعظمة ، لا على طريق المدى والمسافة ، فكلُّ ما يتقرَّب به إليه من قول زكي ، وعمل مرضى ، فالإخبار عنه يقع بلفظ الصُّعود والارتفاع ، على طريق المجاز والاتِّساع " . انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٢٦٨) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " وكذلك لا شُبهة لهم في يقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ، لأنَّ صعود الكلم إلى الله تعالى لا يقتضي كونه في جهة العلو ، لأنَّ البارئ تعالى لا تحويه جهة؛ إذ كان موجوداً ولا جهة ، وإذا صحَّ ذلك وجب صرف هذا عن ظاهره وإجراؤه على المجاز؛ لبطلان إجرائه على الحقيقة " . انظر : شرح صحيح البخارى (١٠/ ٤٥٣) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ : الكلم الطيِّب هو الصِّادر عن عقيدة طيِّبة- يعني الشَّهادتين- عن إخلاص . وأراد به صعود قبول ، لأنَّ حقيقة الصُّعود في اللغة بمعنى الخروج- ولا يجوز في صفة الكلام .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] : أي يقبله ، ويقال : العمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب ، ويقال : الكلم الطيِّب ما يكون موافقا للسُّنَّة ، ويقال : هو ما يشهد بصحَّته الإذن والتَّوقيف ، ويقال : هو نطق القلب بالثَّناء على ما يستوجبه الرَّبّ ، ويقال : هو ما يكون دعاء للمسلمين ، ويقال : ما يتجرَّد حقَّاً للحقِّ ، ولا يكون فيه حظّ للعبد ، ويقال : ما هو مستخرج من العبد وهو فيه مفقود ،ويقال: هو بيان التَّنصُّل وكلمة الاستغفار " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ١٩٦) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : " وقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] إلى الله يصعد كلمة التَّوحيد ، وهو قول : لا إله إلَّا الله ، ومعنى يصعد : أَنَّه يعلم ذلك ، كما يقال : ارتفع الأمر إلى القاضي وإلى السُّلطان ، أي : علمه ، ويجوز أن يكون معنى إليه إلى سمائه ، وهو المحلُّ الذي (٤٦٥هـ) : " قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] : الكلم الطيِّب هو الصَّادر عن عقيدة طيِّبة- يعنى الشَّهادتين- لا يجري لأحد سواه فيه ملك ولا حكم ، فجعل صعوده إلى السَّماء صعود إليه " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٥٠٢) .

وقال الإمام الواحدي أيضاً : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] : إليه يصل الكلام الذي هو توحيده ، وهو قول : لا إله إلَّا الله ، يرفع ذلك الكلم الطيِّب ، والكلم الطيِّب : ذكر الله تعالىٰ والعمل الصَّالح : أداء فرائضه فمن كان حسناً وعمل صالحاً رفعه العمل ، ومعنىٰ الرَّفع : رفعه إلىٰ محلِّ القبول " . انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص٨٩٠)

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني (٤٨٩هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ، أَي : يقبل الله الْكَلم الطيِّب . وَعَن ابْن مَسْعُود قَالَ : مَا نحدِّثكم بِحَدِيث إِلَّا أَتَيْنَاكُم تَصْدِيق ذَلِك من كتاب الله تَعَالَىٰ ، ثُمَّ قَالَ : مَا من عبد يَقُول : سُبْحَانَ الله ، وَالْحَمْد لله ، وَلَا إِلَه إِلَّا الله ، وَالله أكبر ، وتبارك الله ، إِلَّا قبض عَلَيْهِنَّ ملك وضمَّهنَّ تَحت جنَاحه ، ثُمَّ يصعد بهَا إِلَىٰ السَّماء ، ثُمَّ لَا يمرُّ بِجمع من الْمَلَائِكَة إِلَّا اسْتَغْفرُوا لِقَائِلِهِنَّ حَتَّىٰ يَجِيء بِهِنَّ وَجه الرَّحْمَن ، ثُمَّ تَلا قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، وَقيل : الْكَلم الطيِّب هُوَ الدُّعَاء من الْعباد .

وَفِي بعض المسانيد بِرِوَايَة أنس عَن النَّبي أَنَّه قَالَ : " يَقُول الله تَعَالَىٰ كلّ يَوْم : أَنا الْعَزِيز ، فَمن أَرَادَ عزَّ الدَّاريْنِ فليُطع الْعَزِيز " . قال الشوكاني في الفوائد المجموعة (١/ ٤٤٤) : " رواه الخطيب، عن أنس مرفوعًا، وفي إسناده: داود بن عفان بن حبيب النيسابوري، كان يضع الحديث على أنس" .

وَقَوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ فِيهِ ثَلَاثَة أَقْوَال :

أَحدُهَا : مَا رُوِيَ عَن الْحسن وَسَعِيد بن جُبَير وَعِكْرِمَة والضَّحَّاك وَغَيرهم أَنهم قَالُوا : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، أَي : الْعَمَل الصَّالح يرفع الْكَلم الطيِّب .

وَالْقَوْل الثَّاني : قَول قَتَادَة؛ قَالَ : وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ أَي : يرفعهُ الله .

وَالْقَوْل الثَّالِث : وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ الْكَلم الطيِّب . وَأولىٰ الْأَقَاوِيل هُوَ الأوَّل" . انظر : تفسير القرآن (٤/ ٣٤٩) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ، أَيْ : يَقْبَلُ اللهُّ الْكَلِمَ الطيِّب . قَوْلُهُ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، أَيْ يَرْفَعُ العمل الصَّالح الكلام الطيِّب ، فَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ ﴿يَرْفَعُهُ﴾ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْكَلِمِ الطيِّب ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاس وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ . وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : الْكَلِمُ الطيِّب : ذِكْرُ اللهَّ ، وَالْعَمَلُ الصَّالح ، أَدَاءُ فَرَائِضِهِ ، فَمِنْ ذَكَرَ اللهَّ وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ رُدَّ كَلَامُهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ ، وَلَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّ ،ي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ ، فَمَنْ قَالَ حَسَناً وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ رَدَّ اللهَّ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، وَمَنْ قَالَ حَسَناً وَعَمِلَ صَالِحاً يَرْفَعُهُ الْعَمَلُ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ يَقُولُ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ .

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : " لَا يَقْبَلُ اللهُّ قَوْلاً إِلَّا بِعَمَلٍ وَلَا قَوْلاً وَلَا عَمَلاً إِلَّا بِنِيَّةٍ " . قال الذَّهبي في " تنقيح التَّحقيق في أحاديث التَّعليق" (١/ ٤٣) : " هَذَا خبر مُنكر، وَسَنَده مظلم، وَأَبُو عتبَة واه" .

وَقَالَ قَوْمٌ : الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ ﴿يَرْفَعُهُ﴾ رَاجِعَةٌ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالح ، أَيْ : الْكَلِمُ الطيِّب يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَادِراً عَنِ التَّوحيد ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْكَلْبِيِّ وَمُقَاتِلٍ : وَقِيلَ : الرَّفْعُ مِنْ صِفَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مَعْنَاهُ : الْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ . وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ الْعَمَلُ الصَّالح هُوَ الْخَالِصُ يَعْنِي أَنَّ الْإِخْلَاصَ سَبَبُ قَبُولِ الْخَيْرَاتِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الْكَهْفِ : ١١٠] . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٣/ ٦٩٠) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، والكلم الطيِّب : لا إله إلَّا الله . عن ابن عَبَّاس رضى الله عنهما : يعنى أنَّ هذه الكلم لا تقبل ، ولا تصعد إلى السَّماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ إلَّا إذا اقترن بها العمل الصَّالح الذي يحقِّقها ويصدِّقها فرفعها وأصعدها ، وقيل : الرَّافع الكلم ، والمرفوع العمل ، لأنَّه لا يقبل عمل إلَّا من موحِّد ، وقيل : الرَّافع هو الله تعالى ، والمرفوع العمل ، وقيل : الكلم الطيِّب : كلُّ ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك . وعن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " هو قول الرَّجل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أكبر، إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السَّماء فحيَّا بها وجه الرَّحْمَن ، فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه " ، وفي الحديث : " لا يقبل الله قولاً إلَّا بعمل ، ولا يقبل قولاً ولا عملاً إلَّا بنيَّة ، ولا يقبل قولًا وعملاً ونيَّة إلَّا بإصابة السُّنَّة " ، وعن ابن المقفع : قول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر

وقرئ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ على البناء للمفعول . و ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ على تسمية الفاعل ، من أصعد . والمصعد : هو الرَّجل ، أي : يصعد إلى الله عزَّ وجلَّ الكلم الطيِّب ، وإليه يصعد الكلام الطيِّب . وقرئ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، بنصب العمل والرَّافع الكلم أو الله عزَّ وجلَّ " . انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٦٠٢) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ، أي : التَّوحيد والتَّمجيد وذكر الله ونحوه، وقرأ الضَّحَّاك «إليه يُصعد» بضمِّ الياء، وقرأ جمهور النَّاس «الكلم» وهو جمع كلمة، وقرأ أبو عبد الرَّحمن «الكلام» ، و﴿الطَّيِّبُ﴾ الذي يستحسن سماعه الاستحسان الشَّرعي، وقال كعب الأحبار: إِّن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر لدويّاً حول العرش كدوي النَّحل تذكِّر بصاحبها، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ اختلف النَّاس في الضَّمير في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ على من يعود، فقالت فرقة يعود على الْعَمَلُ، واختلفت هذه الفرقة فقال قوم الفاعل بـ «يرفع» هو الْكَلِمُ ، أي : والعمل يرفعه الكلم ، وهو قول لا إله إلَّا الله ، لأنَّه لا يرتفع عمل إلَّا بتوحيد، وقال بعضهم: الفعل مسند إلى الله تعالى ، أي : «والعمل الصَّالح يرفعه هو» .

قال القاضي أبو محمَّد: وهذا أرجح الأقوال، وقال ابن عبَّاس وشهر بن حوشب ومجاهد وقتادة الضَّمير في **﴿يَرْفَعُهُ﴾** عائد علىٰ الْكَلِمُ ، أي : أنَّ العمل الصَّالح هو يرفع الكلم.

قال القاضي أبو محمَّد: واختلفت عبارات أهل هذه المقالة فقال بعضها ، وروي عن ابن عبَّاس أنَّ العبد إذا ذكر الله وقال كلاماً طيِّباً ، وأدَّىٰ فرائضه ارتفع قوله مع عمله، وإذا قال ولم يؤدِّ فرائضه ردَّ قوله علىٰ عمله، وقيل : عمله أولىٰ به.

قال القاضي أبو محمَّد: وهذا قول يردُّه معتقد أهل الحقِّ والسُّنَّة ، ولا يصحُّ عن ابن عبَّاس، والحقُّ أنَّ العاصي التَّارك للفرائض إذا ذكر الله تعالىٰ وقال كلاماً طيِّباً ، فإنَّه مكتوب له ، متقبَّل منه ، وله حسناته وعليه سيئاته، والله تعالىٰ يتَّقبل من كلِّ من اتَّقىٰ الشِّرك، وأيضاً فإنَّ الْكَلِمُ الطيِّب عمل صالح ، وإنَّما يستقيم قول من يقول إنَّ العمل هو الرَّافع لـ الْكَلِمُ ، بأن يتأوَّل أنَّه يزيد في رفعه وحسن موقعه إذا تعاضد معه، كما أنَّ صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك إذا تخلَّل أعماله كلم طيِّب وذكر لله كانت الأعمال، أشرف.

قال القاضي أبو محمَّد: فيكون قوله : **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** موعظة وتذكرة وحضَّاً علىٰ الأعمال، وذكر الثَّعلبي أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يقبل الله قولاً إلَّا بعمل ولا عمل إلَّا بنيَّة» ، ومعناه قولاً يتضمَّن أنَّ قائله عمل عملاً أو يعمله في الأنف، وأمَّا الأقوال التي هي أعمال في نفوسها كالتَّوحيد والتَّسبيح فمقبولة علىٰ ما قدَّمناه، وقرأت فرقة «والعمل» بالنَّصب «الصَّالح» علىٰ النَّعت ، وعلىٰ هذه القراءة فـ **﴿يَرْفَعُهُ﴾** مستند أمَّا إلىٰ الله تعالىٰ وأمَّا إلىٰ الْكَلِمُ، والضَّمير في **﴿يَرْفَعُهُ﴾** عائد علىٰ الْعَمَلُ لا غير" . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤٩٦-٤٩٧) .

وقال الإمام محمود بن أبىٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفىٰ : نحو ٥٥٠هـ) : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** : التَّوحيد والعمل الصَّالح يرفعه ، أي : يرتفع الكلم الطيِّب بالعمل الصَّالح ، أو العمل الصَّالح يرفعه الكلم الطيِّب ، إذ لا يقبل العمل إلَّا من موحد " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٦٨٤) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قوله تعالىٰ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** ، وقرأ ابن مسعود وأبو عبد الرَّحْمَن السَّلمي ، والنَّخعي ، والجحدري ، والشّيزري عن الكسائي : «يُصْعَدُ الكلامُ الطَّيِّبُ» وهو توحيده وذِكْره **وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** قال علي بن المديني : **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ ﴾** : لا إله إلَّا الله ، والعمل الصَّالح : أداء الفرائض واجتناب المحارم . وفي هاء الكناية في قوله تعالىٰ : **﴿يَرْفَعُهُ﴾** ثلاثة أقوال :

أَحَدُهَا : أنَّهَا ترجع إلىٰ الكَلِم الطيِّب فالمعنىٰ : والعمل الصَّالح يرفع الكَلِم الطيِّب ، قاله ابن عَبَّاس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضَّحَّاك . وكان الحسن يقول : يُعْرَض القولُ علىٰ الفعل ، فإن وافق القولَ الفعلُ قُبِل ، وإن خالف رُدَّ .

وَالثَّانِي : أَنَّهَا ترجع إِلىٰ العمل الصَّالح ، فالمعنىٰ : والعمل الصَّالح يرفعُه الكَلِم الطيِّب ، فهو عكس القول الأَوَّل ، وبه قال أبو صالح ، وشهر بن حوشب .

فاذا قلنا : إِنَّ الكَلِم الطيِّب هو التَّوحيد ، كانت فائدة هذا القول أَنَّه لا يُقْبَلُ عملٌ صالح إِلَّا من موحّد .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهَا ترجع إِلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، فالمعنىٰ : والعمل الصَّالح يرفعُه اللهُ إِليه ، أي : يَقْبَلُه . قاله قتادة " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٥٠٧-٥٠٨) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " واحتجَّ بعضهم بأنَّه علىٰ العرش بقوله تعالىٰ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر ١٠] ، وبقوله : **﴿وَهُوَ الْقَاهر فَوقَ عبَادِه﴾** [الأنعام ١٨] .

وجعلوا ذلك فوقيَّة حسِّية ، ونسوا أنَّ الفوقيَّة الحسيَّة إنَّما تكون لجسم أو جوهر ، وأنَّ الفوقيَّة قد تُطلق لعلوِّ المرتبة ، فيقال : فلان فوق فلان ، ثُمَّ إنَّه كما قال : **﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** ، قال : **﴿وَهُوَ مَعَكُم﴾** .

فمن حملها علىٰ العلم حمل خصمه الاستواء علىٰ القهر ، أخبرنا علي بن محمَّد بن عمر الدبَّاس ، قال : أنبأنا رزق الله بن عبد الوهَّاب التَّميمي ، قال : كان أحمد بن حنبل يقول : الاستواء صفة مسلَّمة ، وليست بمعنىٰ القصد ولا الاستعلاء ، قال : وكان أحمد لا يقول بالجهة للباري ، لأنَّ الجهات تخلَّىٰ عمَّا سواها ، وقال ابن حامد : الحقُّ يختصُّ بمكان دون مكان ومكانه الذي هو فيه هو وجود ذاته علىٰ عرشه " . انظر : دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنْزِيْه (ص١٣١-١٣٢) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " ... **الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ** : قَوْلُهُ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** تَقْرِيرٌ لِبَيَانِ الْعِزَّةِ ، وَذَلِكَ لأنَّ الكفَّار كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ لَا نَعْبُدُ مَنْ لَا نَرَاهُ وَلَا نَحْضُرُ عِنْدَهُ ، لأنَّ الْبُعْدَ مِنَ الْمَلِكِ ذِلَّةٌ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : إِنْ كُنْتُمْ لَا تَصِلُونَ إِلَيْهِ ، فَهُوَ يَسْمَعُ كَلَامَكُمْ وَيَقْبَلُ الطيِّب فَمَنْ قَبِلَ كَلَامَهُ وَصَعِدَ إِلَيْهِ فَهُوَ عَزِيزٌ وَمَنْ رَدَّ كَلَامَهُ فِي وَجْهِهِ فَهُوَ ذَلِيلٌ ، وأمَّا هَذِهِ الْأَصْنَامُ لَا يَتَبَيَّنُ عِنْدَهَا الذَّلِيلُ مِنَ الْعَزِيزِ إِذْ لَا عِلْمَ لَهَا فَكُلُّ أَحَدٍ يمسها وكذلك يرىٰ عملكم فَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً رَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئاً رَدَّهُ عَلَيْهِ فَالْعَزِيزُ مَنِ الَّذِي عَمَلُهُ لِوَجْهِهِ وَالذَّلِيلُ مَنْ يُدْفَعُ الَّذِي عَمِلَهُ فِي وَجْهِهِ ، وأمَّا هَذِهِ الْأَصْنَامُ فَلَا تَعْلَمُ شَيْئاً فَلَا عَزِيزَ يُرْفَعُ عِنْدَهَا وَلَا ذَلِيلَ ، فَلَا عِزَّةَ بِهَا بَلْ عَلَيْهَا ذِلَّةٌ ، وَذَلِكَ لأنَّ ذِلَّةَ السَّيِّدِ ذِلَّةٌ لِلْعَبْدِ وَمَنْ كَانَ مَعْبُودُهُ وَرَبُّهُ وَإِلَهُهُ حِجَارَةً أَوْ خَشَباً مَاذَا يَكُونُ هُوَ! .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي قَوْلِهِ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** وُجُوهٌ : أَحَدُهَا : كَلِمَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ هِيَ الطَّيِّبَةُ وَثَانِيهَا : سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ طَيِّبٌ ثَالِثُهَا : هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَرْبَعُ وَخَامِسَةٌ وَهِيَ تَبَارَكَ اللهُ وَالْمُخْتَارُ أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ هُوَ ذِكْرُ اللهِ أَوْ هُوَ للهِ كَالنَّصِيحَةِ وَالْعِلْمِ ، فَهُوَ إِلَيْهِ يَصْعَدُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** وَفِي الْهَاءِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : هِيَ عَائِدَةٌ إِلَىٰ الْكَلِمِ الطيِّب أَيِ الْعَمَلُ الصَّالح هُوَ الَّذِي يَرْفَعُهُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ

وَرَدَ فِي الْخَبَرِ «لَا يَقْبَلُ اللهُ قَوْلاً بِلَا عَمَلٍ» .

وَثَانِيهِمَا : هِيَ عَائِدَةٌ إِلَىٰ الْعَمَلِ الصَّالح وَعَلَىٰ هَذَا فِي الْفَاعِلِ الرَّافِعِ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : هو الكلم الطيِّب أي الْكَلِمُ الطيِّب يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح ، وَهَذَا يُؤَيِّدُهُ قوله تَعَالَىٰ : **﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** [النحل : ٩٧] ، وَثَانِيهِمَا : الرَّافِعُ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : مَا وَجْهُ تَرْجِيحِ الذِّكْرِ عَلَىٰ الْعَمَلِ عَلَىٰ الْوَجْهِ الثَّانِي حَيْثُ يَصْعَدُ الْكَلِمُ بِنَفْسِهِ وَيُرْفَعُ الْعَمَلُ بِغَيْرِهِ ، فَنَقُولُ الْكَلَامُ شَرِيفٌ ، فَإِنَّ امْتِيَازَ الْإِنْسَانِ عَنْ كُلِّ حَيَوَانٍ بِالنُّطْقِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾** [الْإِسْرَاءِ : ٧٠] أَيْ بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ وَالْعَمَلُ حَرَكَةٌ وَسُكُونٌ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَغَيْرُهُ ، وَالشَّرِيفُ إِذَا وَصَلَ إِلَىٰ بَابِ الْمَلِكِ لَا يُمْنَعُ وَمَنْ دُونَهُ لَا يَجِدُ الطَّرِيق إِلَّا عِنْدَ الطَّلَبِ وَيَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ إِنْ كَانَ عَنْ صِدْقٍ أَمِنَ عَذَابَ الدُّنيا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِراً أَمِنَ فِي نَفْسِهِ وَدَمِهِ وَأَهْلِهِ وَحَرَمِهِ فِي الدُّنيا وَلَا كَذَلِكَ الْعَمَلُ بِالْجَوَارِحِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾** [البقرة : ٨٢] ، وَوَجْهٌ آخَرُ : الْقَلْبُ هُوَ الْأَصْلُ وَقَدْ تقدَّم مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ،

وَقَالَ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ : «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»

وَمَا فِي الْقَلْبِ لَا يَظْهَرُ إِلَّا بِاللِّسَانِ وَمَا فِي اللسان لا يتبين صدقه إلا بالفعل ، فالقول أقرب إلىٰ القلب من الفعل ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ إِلَّا عَنْ قَلْبٍ ، وأَمَّا الْفِعْلُ قَدْ يَكُونُ لَا عَنْ قَلْبٍ كَالْعَبَثِ بِاللِّحْيَةِ وَلِأَنَّ النَّائِمَ لَا يَخْلُو عَنْ فِعْلٍ مِنْ حَرَكَةٍ وَتَقَلُّبٍ وَهُوَ فِي أَكْثَرِ الْأَمْرِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي نَوْمِهِ إِلَّا نَادِراً ، لِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْكَلَامَ بِالْقَلْبِ وَلَا كَذَلِكَ الْعَمَلُ ، فَالْقَوْلُ أَشْرَفُ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٦/ ٢٢٦) .

وقال الإمام أبو عبد القرطبي (٦٧١ هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** فِيهِ مَسْأَلَتَانِ الْأُولَىٰ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** وَتَمَّ الْكَلَامُ. ثُمَّ تَبْتَدِئُ **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** عَلَىٰ مَعْنَىٰ: يَرْفَعُهُ اللهُ، أَوْ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ: وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ مُتَّصِلًا عَلَىٰ مَا يَأْتِي بَيَانُهُ. والصُّعود هُوَ الْحَرَكَةُ إِلَىٰ فَوْقُ، وَهُوَ الْعُرُوجُ أَيْضًا. وَلَا يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ لِأَنَّهُ عَرَضٌ، لَكِنْ ضُرِبَ صُعُودُهُ مَثَلًا لِقَبُولِهِ، لأَنَّ مَوْضِعَ الثَّواب فَوْقُ، وَمَوْضِعَ الْعَذَابِ أَسْفَلُ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يُقَالُ ارْتَفَعَ الْأَمْرُ إِلَىٰ الْقَاضِي أَيْ عَلِمَهُ، فَهُوَ بِمَعْنَىٰ الْعِلْمِ. وَخُصَّ الْكَلَامُ وَالطِّبُّ بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ الثَّواب عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ **﴿إِلَيْهِ﴾** أَيْ إِلَىٰ اللهِ يَصْعَدُ. وَقِيلَ: يَصْعَدُ إِلَىٰ سَمَائِهِ وَالْمَحَلِّ الَّذِي لَا يَجْرِي فِيهِ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ حُكْمٌ. وَقِيلَ: أَيْ يَحْمِلُ الْكِتَابُ الَّذِي

كُتِبَ فِيهِ طَاعَاتُ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ. وَ ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ هُوَ التَّوحيد الصَّادِرُ عَنْ عَقِيدَةٍ طَيِّبَةٍ. وَقِيلَ: هُوَ التَّحْمِيدُ وَالتَّمْجِيدُ، وَذِكْرُ اللهِ وَنَحْوُهُ. وَأَنْشَدُوا:

لَا ترض من رجل حلاوة قوله ... حتى يُزَيِّنَ مَا يَقُولُ فَعَالُ

فَإِذَا وَزَنْتَ فَعَالَهُ بِمَقَالِـــــــهِ ... فَتَوَازَنَا فَإِخَاءُ ذَاكَ جَمَـــــــالُ

وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ، كَثَرِيدٍ بِلَا دَسَمٍ، وَسَحَابٍ بِلَا مَطَرٍ، وَقَوْسٍ بِلَا وَتَرٍ. وَفِيهِ قيل:

لا يكون المقـــال إِلَّا بفعل ... وكُلُّ قَوْلٍ بِلَا فَعَالٍ هَبَاءُ

إِنَّ قَوْلًا بِلَا فعـــــال جميل ... ونكاحاً بِلَا وَلِيٍّ سَـــــوَاءُ

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ

وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ" يُصْعِدُ" بِضَمِّ الْيَاءِ. وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ" الْكَلِمُ" جَمْعُ كَلِمَةٍ. وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ" الْكَلَامُ".

قُلْتُ: فَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا قَدْ يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْكَلِمِ وَبِالْعَكْسِ، وَعَلَيْهِ يُخَرَّجُ قَوْلُ أَبِي الْقَاسِمِ: أَقْسَامُ الْكَلَامِ ثَلَاثَةٌ، فَوَضَعَ الْكَلَامَ مَوْضِعَ الْكَلِمِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا: الْمَعْنَى وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ. وَفِي الْحَدِيثِ (لَا يَقْبَلُ اللهُ قَوْلًا إِلَّا بِعَمَلٍ، وَلَا يَقْبَلُ قَوْلًا وَعَمَلًا إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَلَا يَقْبَلُ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً إِلَّا بِإِصَابَةِ السُّنَّةِ). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ اللهَ وَقَالَ كَلَامًا طَيِّبًا وَأَدَّى فَرَائِضَهُ، ارْتَفَعَ قَوْلُهُ مَعَ عَمَلِهِ وإذا قال ابن قَوْلُهُ عَلَى عَمَلِهِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَهَذَا قَوْلٌ يَرُدُّهُ مُعْتَقَدُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلَا يَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَاصِيَ التَّارِكَ لِلْفَرَائِضِ إِذَا ذَكَرَ اللهَ وَقَالَ كَلَامًا طَيِّبًا فَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ لَهُ مُتَقَبَّلٌ مِنْهُ، وَلَهُ حَسَنَاتُهُ وَعَلَيْهِ سَيِّئَاتُهُ، وَاللهُ تَعَالَى يَتَقَبَّلُ مِنْ كُلِّ مَنِ اتَّقَى الشِّرْكَ. وأيضاً فَإِنَّ الْكَلَامَ الطيِّب عَمَلٌ صَالِحٌ، وإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْعَمَلَ هُوَ الرَّافِعُ لِلْكَلِمِ، بِأَنْ يُتَأَوَّلَ أَنَّهُ يَزِيدُهُ فِي رَفْعِهِ وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ إِذَا تَعَاضَدَ مَعَهُ. كَمَا أَنَّ صَاحِبَ الْأَعْمَالِ مِنْ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِذَا تَخَلَّلَ أَعْمَالَهُ كَلِمٌ طَيِّبٌ وَذِكْرُ اللهِ تَعَالَى كَانَتِ الْأَعْمَالُ أشرف، فيكون قول: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ مَوْعِظَةً وَتَذْكِرَةً وَحَضًّا عَلَى الْأَعْمَالِ.

وَأَمَّا الْأَقْوَالُ الَّتِي هِيَ أَعْمَالٌ فِي نُفُوسِهَا، كَالتَّوْحِيدِ وَالتَّسْبِيحِ فَمَقْبُولَةٌ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ:" إِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ بِذِكْرِ اللهِ إِنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ لَمْ يَنْفَعْ، لأنَّ مَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ فَهُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِ. وَتَحْقِيقُ هَذَا: أَنَّ الْعَمَلَ إِذَا وَقَعَ شَرْطًا فِي قَبُولِ الْقَوْلِ أَوْ مُرْتَبِطًا، فَإِنَّهُ لَا قَبُولَ لَهُ إِلَّا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرْطًا فِيهِ فَإِنَّ كَلِمَهُ الطيِّب يُكْتَبُ لَهُ، وَعَمَلَهُ السَّيِّئَ يُكْتَبُ عَلَيْهِ، وَتَقَعُ الْمُوَازَنَةُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يَحْكُمُ اللهُ بِالْفَوْزِ وَالرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ".

قُلْتُ: مَا قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ تَحْقِيقٌ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالح شَرْطٌ فِي قَبُولِ الْقَوْلِ الطَّيِّبِ.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْآثَارِ : أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ بِنِيَّةٍ صَادِقَةٍ نظرت الملائكة إِلَى عَمَلِهِ، فَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِقَوْلِهِ صَعِدَا جَمِيعًا، وَإِنْ كَانَ عَمَلُهُ. مُخَالِفًا وُقِفَ قَوْلُهُ حَتَّى يَتُوبَ مِنْ عَمَلِهِ . فَعَلَى هَذَا الْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطيِّب إِلَى اللهِ. وَالْكِنَايَةُ فِي ﴿يَرْفَعُهُ﴾ تَرْجِعُ إِلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَشَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكِ. وَعَلَى أَنَّ" الْكَلِمُ الطَّيِّبُ" هُوَ التَّوْحِيدُ، فَهُوَ الرَّافِعُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ، لِأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ الْعَمَلُ الصَّالح إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ. أَيْ : وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، فَالْكِنَايَةُ تَعُودُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَرُوِيَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ الْقُرْآنُ ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ الْقُرْآنُ. وَقِيلَ: تَعُودُ عَلَى اللهِ جَلَّ وَعَزَّ، أَيْ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالح يَرْفَعُهُ اللهُ عَلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، لأنَّ الْعَمَلَ تَحْقِيقُ الْكَلِمِ، وَالْعَامِلُ أَكْثَرُ تَعَبًا مِنَ الْقَائِلِ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْكَلَامِ، لأنَّ اللهَ هُوَ الرَّافِعُ الْخَافِضُ.

وَالثَّانِي والأَوَّل مَجَازٌ، وَلَكِنَّهُ سَائِغٌ جَائِزٌ. قَالَ النَّحَّاسُ: الْقَوْلُ الأَوَّل أَوْلَاهَا وَأَصَحُّهَا لِعُلُوِّ مَنْ قَالَ بِهِ، وَأَنَّهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ أَوْلَى، لأنَّ الْقُرَّاءَ عَلَى رَفْعِ الْعَمَلِ. وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى: وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ اللهُ، أَوِ الْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، لَكَانَ الِاخْتِيَارُ نَصْبَ الْعَمَلِ. وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا قَرَأَهُ مَنْصُوبًا إِلَّا شَيْئًا رُوِيَ عَنْ عِيسَى، بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: قَرَأَهُ أُنَاسٌ" وَالْعَمَلَ الصَّالح يَرْفَعُهُ اللهُ". وَقِيلَ: وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ صَاحِبَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ الْعِزَّةَ وَعَلِمَ أَنَّهَا تُطْلَبُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٣٢٩-٣٣١) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ بيان لما يطلب به العزَّة وهو التَّوحيد والعمل الصَّالح ، وصعودهما إليه مجاز عن قبوله إيَّاهما ، أو صعود الكَتَبَةُ بصحيفتهما ، والمستكن في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ لـ الْكَلِمُ ، فإنَّ العمل لا يقبل إلَّا بالَّتوحيد ، ويؤيِّده أنَّه نصب الْعَمَلُ ، أو لـ الْعَمَلُ، فإنَّه يحقِّق الإيمان ويقوِّيه ، أو لله ، وتخصيص العمل بهذا الشَّرف لما فيه من الكلفة . وقرئ ﴿يَصْعَدُ﴾ على البناءين ، والمصعد هو الله تعالى أو المتكلّم به أو الملك . وقيل ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يتناول الذِّكر والدُّعاء وقراءة القرآن .

وعنه عليه الصَّلاة والسَّلام «هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر ، فإذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السَّماء فحيا بها وجه الرَّحْمَن ، فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل» " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٥٥) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ ، ومعنى قوله ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى محلِّ القبول والرِّضا ، وكلّ ما اتَّصف بالقبول وُصف بالرِّفعة والصُّعود ، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلَّا حكمه ، والكلم الطيِّب كلمات التَّوحيد ، أي : لا إله إلَّا الله .

وكان القياس الطيبة ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلَّا التَّاء يذكَّر ويؤنَّث .

والعمل الصَّالح : العبادة الخالصة يعني ، والعمل الصَّالح يرفعه الكلم الطيِّب ، فالرَّافع الكلم والمرفوع العمل ، لأنَّه لا يقبل عمل إلَّا من موحِّد .

وقيل : الرَّافع الله والمرفوع العمل ، أي : العمل الصَّالح يرفعه الله ، وفيه إشارة إلىٰ أنَّ العمل يتوقَّف علىٰ الرَّفع ، والكلم الطيِّب يصعد بنفسه .

وقيل : العمل الصَّالح يرفع العامل ويشرِّفه ، أي : من أراد العزَّة فليعمل عملاً صالحاً ، فإنَّه هو الذي يرفع العبد " . انظر : تفسير النسفي (٣/ ٢٦٩) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي الشَّافعي (٧٣٣هـ) : " فَإِن قيل : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر:١٠] ، وَهَذَا ظَاهر فِي الْجِهَة ... قُلْنَا لَيْسَ الْمُرَاد بالغاية هُنَا غَايَة الْمَكَان بل غَايَة انْتِهَاء الْأُمُور إِلَيْهِ كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿**أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**﴾ [هود:١٢٣] ، وَقَول إِبْرَاهِيم الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلام : ﴿**إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الصافات:٩٩] ، ﴿**وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ**﴾ [الزمر:٥٤] ، ﴿**تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ [هود:٣] ، وَهُوَ كثير " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٥) .

وقال الإمام ابن جماعة أيضاً : " الْآيَة الرَّابِعَة قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [المعارج:٤] ، ﴿**تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ**﴾ [آل عمران:٥٥] .

اعْلَم أَنَّه قد تقدَّم الْكَلَام عَلَيْهِ فِي آيَة الاسْتوَاء ، ونزيد هَهُنَا أَنَّه إِذا ثَبت اسْتِحَالَة الْجِهَة فِي حَقِّه تَعَالَىٰ وَجب تَأْوِيل هَذِه الْآيَات ، وَأَنَّ الْمُرَاد يصعد ويعرج إِلَىٰ مَحلِّ أمره وإرادته ، أَو أَنَّ الْمُرَاد بالمعارج : الرُّتب والدَّرجات ، كَمَا ورد فِي دَرَجَات الجنَّة ، وَلَيْسَ الْمُرَاد بِهِ الدَّرَجَات الَّتِي هِيَ مراقي من سفل إِلَىٰ علو الرُّتْبَة والمنازل عِنْده تَعَالَىٰ ، وَفِي إفاضات النِّعم فِي الجنَّة وَمِنْه قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ [آل عمران:٥٥] ، وَقَوله : ﴿**بَل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ [النساء:١٥٨] إِلَىٰ مَحلِّ كرامته ، كَمَا يُقَال : رفع السُّلطان فلَاناً إِلَيْهِ ، لَيْسَ الْمُرَاد مَكَاناً وَلَا جِهَة علو ، بل قُرب رُتْبَة ومنزلة " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١١١) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ قيل : يعني لا إله إلَّا الله ، واللفظ يعُّم ذلك وغيره من الذِّكر ، والدُّعاء ، وتلاوة القرآن ، وتعليم العلم : فالعموم أولىٰ ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ**﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أَحَدُهَا : أنَّ ضمير الفاعل في يرفعه : الله وضمير المفعول للعمل الصَّالح ، فالمعنىٰ علىٰ هذا أنَّ الله يرفع العمل الصَّالح : أي يتقبَّله ويثيب عليه .

وَالثَّانِي : أنَّ ضمير الفاعل للكلام الطيِّب ، وضمير المفعول للعمل الصَّالح ، والمعنىٰ علىٰ هذا : لا يقبل عمل صالح إلَّا ممَّن له كلام طيب ، وهذا يصحُّ إن قلنا : إنَّ الكلم الطيِّب لا إله إلَّا الله ، لأنَّه لا يقبل العمل إلَّا من موِّحد .

والثَّالِثُ : أنَّ ضمير الفاعل للعمل الصَّالح ، وضمير المفعول للكلم الطيِّب ، والمعنىٰ علىٰ هذا أنَّ العمل الصَّالح هو الذي يرفع الكلم الطيِّب ، فلا يقبل الكلم إلَّا ممَّن له عمل صالح ، وروي هذا المعنىٰ عن ابن عَبَّاس ، واستبعده ابن عطيَّة وقال : لم يصح عنه ، لأنَّ اعتقاد أهل السُّنَّة أنَّ الله يتقبل من كلِّ مسلم . قال وقد يستقيم بأن يتأوَّل أنَّ الله يزيد في رفعه وحسن موقعه " . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٧٢) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : ﴿**يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ قيل : هو لا إله إلَّا الله ، وقيل : هو سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أكبر . روىٰ البغوي باسناده عن ابن مسعود قال : " إذا حدَّثتكم حديثاً أنبأتكم بمصداقه من كتاب الله عزَّ وجلَّ ، ما من عبد مسلم يقول : خمس كلمات سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله والله أكبر ، وتبارك الله ، إلَّا أخذهنَّ مَلَك تحت جناحه ثُمَّ يصعد بهنَّ فلا يمرُّ بهنَّ علىٰ جمع من الملائكة إلَّا استغفروا لقائلهنَّ حتَّىٰ يجيء بها وجه ربّ العالمين : ، ومصداقه من كتاب الله قوله : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ هذا حديث موقوف علىٰ ابن مسعود ، وفي إسناد الحجَّاج بن نصير ضعيف ، وقيل : الكلم الطيِّب ذكر الله تعالىٰ ، وقيل : معنىٰ ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ**﴾ ، أي : يقبل الكلم الطيِّب ، ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُه**﴾ ، قال ابن عبَّاس : أي يرفع العمل الصَّالح الكلم الطيِّب ، وقيل : الكلم الطيِّب ذكر الله ، والعمل الصَّالح أداء الفرائض ، فمن ذكر الله ولم يؤدِّ فرائضه ردّ كلامه علىٰ عمله ، وليس الإيمان بالتَّمنِّي ، وليس بالتَّحلِّي ، ولكن ما وقر في القلوب وصدَّقته الأعمال ، فمن قال حسناً وعمل غير صالح ردَّ الله عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً يرفعه العمل ، ذلك بأنَّ الله يقول ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ**﴾ ، وجاء في الحديث : " لا يقبل الله قولاً إَّلا بعمل ، ولا عملاً إلَّا بنيَّة " ، وقيل : الهاء في ﴿**يَرْفَعُهُ**﴾ راجعة إلىٰ العمل الصَّالح ، أي : الكلم الطيِّب يرفع العمل الصَّالح ، فلا يقبل عملاً إلَّا أن يكون صادراً عن توحيد، وقيل : معناه العمل الصَّالح يرفعه الله ، وقيل : العمل الصَّالح هو الخالص ، وذلك أنَّ الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال" . انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٥/ ٢٩٨-٢٩٩) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ : الذِّكْرَ وَالتِّلَاوَةَ وَالدُّعَاءَ . قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلف .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي محمَّد بْنُ إِسْمَاعِيلَ الأَحْمَسِيّ ، أَخْبَرَنِي جَعْفَرُ بْنُ عَوْن ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْنِ عَبْدِ اللهَّ الْمُسْعُودِيِّ ، عَنْ عَبْدِ اللهَّ بْنِ الْمُخَارِقِ ، عن أبيه المخارق بن سليم قال : قَالَ لَنَا عَبْدُ اللهَّ -هُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ-إِذَا

حَدَّثْنَاكُمْ حَدِيثاً أَتَيْنَاكُمْ بِتَصْدِيقِ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللهِ : إِنَّ الْعَبْدَ الْمُسْلِمَ إِذَا قَالَ : "سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ ، تَبَارَكَ اللهُ" ، أَخَذَهُنَّ مَلَكٌ فَجَعَلَهُنَّ تَحْتَ جَنَاحِهِ ، ثُمَّ صَعد بِهِنَّ إِلَى السَّماء فَلَا يمُرّ بِهِنَّ عَلَى جَمْعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا اسْتَغْفَرُوا لِقَائِلِهِنَّ ، حَتَّى يَجِيءَ بِهِنَّ وَجْهَ الرَّحْمَن عزَّ وجلَّ ، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللهِ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** .

وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، حدَّثنا ابْنُ عُلَيَّة ، أَخْبَرَنَا سَعِيدٌ الْجُرَيْرِي ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ : إِنَّ لِـ "سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ للهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ" لَدَوِيّاً حَوْلَ الْعَرْشِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، يُذَكِّرْنَ بِصَاحِبِهِنَّ ، وَالْعَمَلُ الصَّالح فِي الْخَزَائِنِ . وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ ، رَحِمَهُ اللهُ ، وَقَدْ رُوِيَ مَرْفُوعاً .

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حدَّثنا ابْنُ نُمَيْر ، حدَّثنا مُوسَى -يَعْنِي : ابْنَ مُسْلِمٍ الطَّحَّانَ -عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، عَنْ أَبِيهِ — أَوْ : عَنْ أَخِيهِ - عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللهِ ، مِنْ تَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَحْمِيدِهِ وَتَهْلِيلِهِ ، يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ ، يُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ أَلَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَلَّا يَزَالَ لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ بِهِ ؟ " . أخرجه أحمد في المسند (٣٠/ ٣١٢ برقم ١٨٣٦٢) ، قال الأرنؤوط : " إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير موسى بن مسلم الطحان، فمن رجال أصحاب السنن عدا الترمذي، وهو ثقة، ويُعرف بموسى الصغير. والشك في شيخ عون بن عبد الله- وهو ابن عتبة بن مسعود- لا يضر لأنه انتقال من ثقة إلى ثقة، فأبوه عبد الله وأخوه عبيد الله كلاهما ثقة، من رجال الشيخين. ابن نمير: هو عبد الله. وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" ٤/ ٢٦٩ من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد. وقال: غريب من حديث عون، تفرد به عنه موسى وهو أبو عيسى موسى بن مسلم الطحان، يعرف بالصغير. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٨٩ و١٣/ ٤٥٢- ومن طريقه الطبراني في "الدعاء" (١٦٩٣) - والحاكم ١/ ٥٠٠، وأبو نعيم في "الحلية" ٤/ ٢٦٩ من طريق عبد الله بن نمير، به. بالشك عن أبيه أو عن أخيه، وغيَّر محقق مصنف ابن أبي شيبة موسى بن مسلم إلى موسى بن سالم! ووقع عند الطبراني بدل موسى الطحان: موسى الجهني مع أن روايته من طريق ابن أبي شيبة! ووقع في مطبوع الحاكم: عن عون بن عبد الله، عن أبيه دون شك، مع أن رواية عبد الله بن نمير بالشك، كما نص عليه الطبراني. قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، لكنه وهم في تعيين موسى الراوي عن عون بن عبد الله، فسماه موسى بن سالم، وتابعه على وهمه الذهبي، فقد تعقبه بقوله: موسى بن سالم قال أبو حاتم: منكر الحديث. قلنا: وقد وهم الحاكم في تعيينه وهماً آخر سنذكره في الرواية (١٨٣٨٨) .وقد سلف في فضل التسبيح والتحميد والتهليل أحاديث كثيرة، منها عن ابن عمر، وابن عمرو، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس، سلفت على التوالي بالأرقام: (٤٦٢٧) و (٦٤٧٩) و (٦٧٤٠) و (٧١٦٧) و (٨١٠٢) و (١١٧١٣) و (١١٣٠٤) و (١٢٥٣٤) . قال السندي: قوله: "من جلال الله" أي لأجل جلاله. "من تسبيحه: بيان لمقدر، أي يذكرون ذكراً من تسبيحه. "يتعاطفون"، أي: يتعاطف تسبيحهم وتحميدهم، فهذا الضمير يقوم مقام العائد إلى الموصول الذي هو المبتدأ، ومثله قوله تعالى: (والذين يُتَوَفَّونَ منكم ويذرون أزواجاً يتربصن) [البقرة: ٢٣٤] أي: أزواجهم،

والمراد: تمثيل هذه الكلمات التي هي التسبيح وغيره، وهذا مبني على تشكل الأعمال والمعاني بأشكال، وهذا مما يدل عليه أحاديث كثيرة.

"لهن دويّ" بفتح الدال، وكسر الواو، وتشديد الياء: هو ما يظهر من الصوت، ويسمع من شدته وبعده في الهواء، شبيهاً يصوت النحل.

"يذَّكّرون": من التذكير" .

وَهَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي بِشْرٍ بَكْرُ بْنُ خَلَفٍ ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ ، عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عِيسَىٰ الطَّحَّانَ ، عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ ، عَنْ أَبِيهِ -أَوْ : عَنْ أَخِيهِ-عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاس : ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ : ذِكْرُ اللهَّ ، يُصْعَدُ بِهِ إِلَىٰ اللهَّ ، عزَّ وجلَّ ، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ : أَدَاءُ فَرَائِضِهِ . وَمَنْ ذَكَرَ اللهَّ وَلَمْ يُؤَدِّ فَرَائِضَهُ ، رُدَّ كَلَامُهُ عَلَىٰ عَمَلِهِ ، فَكَانَ أَوْلَىٰ بِهِ .

وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ : الْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلَامَ الطيِّب . وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ ، وَعِكْرِمَةُ ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخعِيّ ، والضَّحَّاك ، والسُّدِّيّ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ ، وشَهْر بْنُ حَوْشَب ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلف .

وَقَالَ إِيَاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْقَاضِي : لَوْلَا الْعَمَلُ الصَّالح لَمْ يُرْفَعِ الْكَلَامُ .

وَقَالَ الْحَسَنُ ، وَقَتَادَةُ : لَا يُقْبَلُ قولٌ إِلَّا بِعَمَلٍ " . انظر : تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٦) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : " قال المفسِّرون : الكَلِمُ الطيِّب قول لا إله إلَّا الله . وقيل : هو قول الرَّجل : سُبْحَان اللهَّ والْحَمْدُ للهَّ ولاَ إِلَه إلاَّ اللهَّ أَكْبَرُ . وعن ابن مسعود قال : إذا حَدَّثْتُكُمْ حَديثاً أنبأتكم بِمِصْدَاقِهِ من كتاب الله – عزَّ وجلَّ – ما مِن عبدٍ مسلم يقول خمس كلمات سُبْحَان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبرُ وتبارك الله إلا أحذهُنَّ ملكٌ فَجعَلَهُنَّ تحت جناحه ثُمَّ صعد بِهِنَّ ، فلا يمرّ بهن على جمع من الملائكة إلاَّ استغفروا لقائلهن حتى يَجِيءَ بهنَّ وَجْهَ ربِّ العالمين ومصداقيه من كتاب الله عزَّ وجلَّ قوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّب﴾ ، وقيل : الكلم الطيِّب : ذكر الله . وعن قتادة : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّب﴾ ، أي : يقبل اللهُّ الكلمَ الطيِّب .

قوله : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ العامَّة على الرَّفع ، وفيه وجهان :

أَحَدُهُمَا : أنَّه معطوف على» الكَلِمُ الطيِّب «فيكون صاعداً أيضاً .

و ﴿يَرْفَعُهُ﴾ على هذا استئناف إخبار من الله برفعهما ، وإنَّما وَحَّدَ الضَّمير وإن كان المراد الكلم والعمل ذهاباً بالضَّمير مذهب اسم الإشارة كقوله : ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذلك﴾ [البقرة : ٦٨] ، وقيل : لاشتراكهما في صفة واحدة وهي الصُّعود .

وَالثَّاني : أنَّه مبتدأ و «يرفعه» الخبر ، ولكن اختلفوا في فاعل «يَرْفَعُ» على ثلاثة أوجه :

أَحَدُهُمَا : أنَّه ضمير الله تعالى ، أي : والعمل على الصَّالح يرفعهُ الله إليه .

وَالثَّانِي : أنَّه ضمير العمل الصَّالح ، وضمير النَّصب على هذا وجهان :

أَحَدُهُمَا : أنَّه يعود علىٰ صاحب العمل ، أي : يرفع صَاحِبَهُ .

وَالثَّانِي : أنَّه ضمير الكلم الطيِّب ، أي : العمل الصَّالح يرفع الكلمَ الطيِّب . ونُقل هذا عن ابن عَبَّاس وسعيد بن جبير والحسن وعكرمة وأكثر المفسِّرين ، إلاَّ أنَّ ابن عطيَّة منع هذا عن ابن عَبَّاس ، وقال : لا يصحُّ؛ لأنَّ مذهب أهل السُّنَّة أنَّ الكلم الطيِّب مقبول وإن كان صاحبه عاصياً .

وَالثَّالِثُ : أنَّ ضمير الرَّفع للكلم والنَّصب للعمل ، أي : يرفع العَمَلَ ، وقرأ ابنُ أبي عَبَلَةَ وعِيسَىٰ بالنَّصب الْعَمَلَ الصَّالح علىٰ الاشتغال والضَّمير المرفوع لِلْكَلِمِ أو لله والمنصوب للْعَمَلِ " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٦/ ١١٠-١١١) .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني (٧٩١هـ) : " وأمَّا القائلون بحقيقة الجسميَّة والحيِّز والجهة ،فقد بنوا مذهبهم علىٰ قضايا وهميَّة كاذبة ، تستلزمها ، وعلىٰ ظواهر آيات وأحاديث تُشعر بها ، أمَّا الأَوَّل ... وأمَّا الثَّاني فكقوله تعالىٰ : ... **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** ... والجواب : أنَّهَا ظنيَّات سمعيَّة في معارضة قطعيَّات عقليَّة ، فيقطع بأنَّها ليست علىٰ ظواهرها ، ويفوَّض العلم بمعانيها إلىٰ الله تعالىٰ ، مع اعتقاد حقيقتها جرياً علىٰ الطَّريق الأسلم الموافق للوقف علىٰ **﴿إِلَّا الله﴾** في قوله تعالىٰ **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا الله﴾** أو تأوَّل تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدلَّة العقليَّة علىٰ ما ذكر في كتب التَّفاسير وشروح الأحاديث ، سلوكا للطَّريق الأحكم الموافق للعطف في إلَّا الله **﴿وَالرَّاسِخُوْنَ فِي العِلْمِ﴾** ، فإن قيل : إذا كان الدِّين الحقّ نفي الحيِّز والجهة ، فما بال الكتب السَّماويَّة والأحاديث النَّبويَّة مُشعرة في مواضع لا تحصىٰ بثبوت ذلك من غير أن يقع في موضع منها تصريح بنفي ذلك وتحقيق ، كما كرّرت الدّلالة علىٰ وجود الصَّانع ، ووحدته ، وعلمه ، وقدرته ، وحقيقة المعاد ، وحشر الأجساد ، في عدَّة مواضع ، وأكّدت غاية التَّأكيد ، مع أنَّ هذا أيضاً حقيق بغاية التَّأكيد والتَّحقيق لما تقرَّر في فطرة العقلاء مع اختلاف الأديان والآراء من التَّوجُّه إلىٰ العلو عند الدُّعاء ، ورفع الأيدي إلىٰ السَّماء ، أجيب بأنَّه لما كان التَّنْزِيْه عن الجهة ممَّا تقصر عنه عقول العامَّة حتَّىٰ تكاد تجزم بنفي ما ليس في الجهة ، كان الأنسب في خطاباتهم ، والأقرب إلىٰ صلاحهم ، والأليق بدعوتهم إلىٰ الحقّ ما يكون ظاهراً في التَّشبيه ، وكون الصَّانع في أشرف الجهات مع تنبيهات دقيقة علىٰ التَّنْزِيْه المطلق عمَّا هو من سمات الحدوث وتوجُّه العقلاء إلىٰ السَّماء ليس من جهة اعتقادهم أنَّه في السَّماء، بل من جهة أنَّ السَّماء قبلة الدُّعاء إذ منها تتوقَّع الخيرات والبركات وهبوط الأنوار ونزول الأمطار ، قال : تنبيه : لَّما ثبت أنَّ الواجب ليس بجسم ظهر أنَّه لا يتَّصف بشيء من الكيفيَّات المحسوسة بالحواس الظَّاهرة أو الباطنة ، مثل : الصُّورة ، واللون ، والطَّعم ، والرَّائحة ، واللذَّة ، والألم ، والفرح ، والغم ، والغضب ، ونحو ذلك ، إذ لا يعقل منها إلَّا ما يخصُّ الأجسام ، وإن كان البعض منها

مختصَّاً بذوات الأنفس ، ولأنَّ البعض منها تغيُّرات وانفعالات ، وهي على الله تعالى محال ... " . انظر : شرح المقاصد في علم الكلام (٢/ ٦٧-٦٨) .

وقال الإمام بدر الدِّين العينى (٨٥٥هـ) : " صعُود الْكَلم إِلَيْهِ لَا يَقْتَضِي كَونه فِي جِهَة ، إِذْ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا تحويه جِهَة ، إِذْ كَانَ مَوْجُودا وَلَا جِهَة ، وَوصف الْكَلم بالصُّعود إِلَيْهِ مجَاز ، لأنَّ الْكَلم عَرَضٌ ، وَالْعَرَضُ لَا يَصحُّ أَن ينْتَقل" . انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١٧) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ أي : التَّوحيد ، والتَّحميدُ ، وذكر الله ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ قيل : المعنى يرفعه الله ، وهذا أرجحُ الأقوال .

وقال ابن عَبَّاس وغيره : إنَّ العملَ الصَّالح هو الرَّافعُ للكَلِم ، وهذا التَّأويل إنَّما يستقيمُ بأن يتأوَّل على معنى أنَّه يَزِيد في رفعه وحُسْن موقِعِه .

وعن ابن مسعودٍ قال : " إذا حدَّثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه : " إنَّ العبد إذا قال : " سبحان الله والحمد للهَّ والله أكبر وتبارك الله " قَبَضَ عليهنَّ مَلَك فضمَّهن تحت جَنَاحه وصَعَدَ بهنَّ لا يمرُّ بهنَّ على جمع من الملائكة إلَّا استغفروا لقائلهنَّ حتَّى يُجاء بهنَّ وجهُ الرَّحْمَن سبحانه . ثُمَّ تلا عبد الله بن مسعود : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ**﴾. رواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد " . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٤/ ٣٨٤) .

وقال الإمام القسطلاني (٩٢٣هـ) : " وقوله جلَّ ذكره : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر : ١٠] ، أي : إلى محلِّ القبول والرِّضا ، وكلّ ما اتَّصف بالقبول وُصفَ بالرِّفعة والصُّعود " . انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣٩٦/١٠) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) : " قوله تعالى : ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب**﴾ ، وقيل : الكلم الطيِّب ذكر الله ، وعن قتادة ﴿**يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب**﴾ ، أي : يقبل الله الكلم الطيِّب ، وقيل : الكلم الطيِّب يتناول الذِّكر والدُّعاء وقراءة القرآن ، وعن الحاكم موقوفاً وعن الثَّعلبي مرفوعاً أنَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر ، إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السَّماء فحيَّا بها وجه الرَّحْمَن ، فإذا لم يكن عمل صالح لم تقبل» .

﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ**﴾ ، أي : يقبله فصعود الكلم الطيِّب والعمل الصَّالح مجاز عن قبوله تعالى إيَّاهما ، أو صعود الكتبة بصحفهما ، أو المستكن في يرفعه لله تعالى ، وتخصيص العمل بهذا الشَّرف لما فيه من الكُلفة ، وقال سفيان بن

عيينة : العمل الصَّالح هو الخالص يعني الإخلاص سبب قبول الخيرات من الأقوال والأفعال لقوله تعالى : **﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحِاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾** [الكهف : ١١٠] فجعل نقيض الصَّالح الشِّرك والرِّياء .

تنبيه : صُعُود الكلم الطيِّب والعمل الصَّالح مجاز عن قبوله تعالى إيَّاهما ، أو صعود الكَتَبَة بصحفهما والمستكنُّ في **﴿والعمل الصالح يرفعه﴾** لله تعالى ، وتخصيص العمل بهذا الشَّرف لما فيه من الْكلفة أو للكلم ، فإنَّ العمل لا يقبل إلَّا بالتَّوحيد أو للعمل ، فإنَّه يحقِّق الإيمان ويقوِّيه ، قال الرَّازي في «اللوامع» : «العلم لا يتمُّ إلَّا بالعمل ، كما قيل : العلم يهتف بالعمل فإن أجاب وإلَّا ارتحل» انتهى . وقد قيل :

لا ترض من رجل حلاوة قوله ... حتَّى يصدِّق ما يقول فعاله

فإذا وزنت مقـــــــــــاله بفعاله ... فتوازنا فإخـــــــــــاء ذاك جماله

وقال الحسن : **﴿الْكَلِمُ الطيِّب﴾** ذكر الله تعالى ، **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح﴾** أداء فرائضه ، فمن ذكر الله تعالى ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه على عمله ، وليس الإيمان بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّ ،ي ولكن ما وقر في القلوب وصدَّقته الأعمال ، فمن قال حسناً وعمل غير صالح ردّ الله تعالى عليه قوله ، ومن قال حسناً وعمل صالحاً رفعه الله " . انظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٣/ ٣١٥-٣١٦) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : " وقوله تعالى : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** بيان لما يُطلب به العزَّةُ وهو التَّوحيد والعملُ الصَّالح ، وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبولِه تعالى إيَّاهُما أو صعودُ الكَتَبَةِ بصحيفتهما ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ عبارةٌ عن كمالِ الاعتدادِ به ، كقولِه تعالى : **﴿هُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ﴾** ، أي : إليه يصلُ الكلمُ الطيِّب الذي به يُطلب العزَّةَ لا إلى الملائكةِ الموكَّلين بأعمالِ العبادِ فَقطَ ، وهو يعزُّ صاحَبهُ ، ويعطي طلبته بالذَّات ، والمستكّنُّ في **﴿يَرْفَعُه﴾** للكلم ، فإنَّ مدارَ قبولِ العملِ هو التَّوحيد ، ويُؤيده القراءةُ بنصب العمل أو العمل ، فإنَّه يحققُ الإيمانَ ويقوِّيه ، ولا يُنال الدَّرجاتُ العاليةُ إلَّا به ، وقرئ يُصعد من الإصعادِ على البناءين ، والمُصعدُ هو الله سبحانَه أو المتكلِّم به أو الملكُ ، وقيل : الكلمُ الطيِّب يتناول الذِّكرَ والدُّعاءَ والاستغفارَ وقراءةَ القُرآن .

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه : سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبرُ ، إذَا قالَها العبدُ عرجَ بها الملكُ إلى السَّماء فحيا بها وجَه الرَّحْمَن فإذا لم يكُن عمل صالحا لم تُقبل . وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما من عبدٍ مسلمٍ يقول خمس كلمات : سبحانَ الله ، والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، إلَّا أخذهنَّ ملكٌ فجعلهنَّ تحتَ جناحِه ثُمَّ صعدَ بهنَّ فما يمرُّ بهنَّ على جمعٍ من الملائكةِ إلَّا استغفرُوا لقائلهنَّ حتَّى يحيى بهنَّ وجَه ربِّ العالمين

ومصداقُه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ . انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٧/ ١٤٥-١٤٦)

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (١١٢٧هـ) : " ... ثمَّ بيَّن ما يطلب به العزَّة ، وهو الإيمان والعمل الصَّالح ، فقال : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ الضَّمير إلى الله تعالى وهو الظَّاهر.

والصُّعود الذَّهاب في المكان العالي ، استعير لما يصل من العبد إلى الله ، كما استُعير النُّزول لما يصل من الله إلى العبد.

والكلم بكسر اللام جنس كنمر ، كما ذهب إليه الجمهور ، ولذا وصف بالمذكَّر لا جمع كلمة ، كما ذهب إليه البعض ، وأصل الطيِّب الذي به يطلب العزَّة لا إلى الملائكة الموكَّلين بأعمال العباد فقط ، وهو يعزُّ صاحبه ويعطي مطلوبه بالذَّات.

وقال بعضهم : الكلم يتناول الدُّعاء ، والاستغفار ، وقراءة القرآن ، والذِّكر من قوله : "سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلَّا الله والله أكبر" ونحو ذلك ممَّا كان كلاماً طيِّباً.

وقيل : إليه يصعد أي : إلى سمائه ومحلِّ قبوله وحيث يكتب الأعمال المقبولة لا إلى الله كما قال : ﴿إِنَّ كِتَـابَ الابْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين : ١٨] ، وقال الخليل : ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] ، أي : ذاهب إلى الشَّام الذي أمرني بالذَّهاب إليه.

فالظَّاهر أنَّ الكتبة يصعدون بصحيفته إلى حيث أمر الله أن توضع أو يصعد هو بنفسه.

قال بعض الكبار : بعض الأعمال ينتهي إلى سدرة المنتهى ، وبعضها يتعدَّى إلى الجنَّة ، وبعضها إلى العرش ، وبعضها يتجاوز العرش إلى عالم المثال ، وقد يتعدَّى من عالم المثال إلى اللوح ثمَّ إلى المقام القلمي ثمَّ إلى العماء ، وذلك بحسب تفاوت مراتب العمَّال في الصِّدق والإخلاص وصحَّة التَّصوير والشُّهود والعيان.

فعلى هذا فبعض الأعمال يتجاوز السَّماء وعالم الأجسام كلَّها ، فيكون محلّ قبوله ما فوقها ممَّا ذكر ، فسدر الانتهاآت إذاً كثيرة بعضها فوق بعض إلى مرتبة العماء ، نسأل الله قبول الأعمال وصحَّة توجُّه البال وقوَّة الحال ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ الرَّفع يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرِّها ، وتارة في البناء إذا طوَّلته ، وتارة في الذِّكر إذا نوَّهته ، وتارة في المنزلة إذا شرَّفتها ، كما في "المفردات".

وفي مرجع المستكن في يرفعه وجوه :

الأَوَّلُ : أنَّه للكلم ، فإنَّ العمل لا يقبل إلَّا بالَّتوحيد ، ويؤيِّده القراءة بنصب العمل ، يعني : أنَّ التَّوحيد يصعد بنفسه ويرفع العمل الصَّالح بأن يكون سبباً لقبوله ، ألا ترى أنَّ أعمال الكفَّار مردودة مُحبطة لوجود الشِّرك.

وَالثَّانِي : أنَّه للعمل ، فإنَّه يحقِّق الإيمان ويقوِّيه ، ولا ينال الدَّرجات العالية إلَّا به كما في "الإرشاد".

وقال الشَّيخ : التَّوحيد إنَّما قبل بسبب الطَّاعة ، إذ هو مع العصيان لا ينفع ، أي : لا يمنع العقاب ، والأولىٰ ما في "الإرشاد" ، فإنَّ الأعمال كالمراقي ، وقول بلا عمل كثريد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر...

وَالثَّالِثُ : أنَّه تعالىٰ يعني يتقبَّله.

قال ابن عطيَّة : وهذا أرجح الأقوال ، وتخصيص العمل بهذا الشَّرف علىٰ هذا الوجه لما فيه من الكُلفة.

وقال في "حلِّ الرموز" : قالوا : كلمة "لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله" تصعد إلىٰ الله بنفسها وغيرها من الأذكار والأعمال ترفعها الملائكة ، كما قال تعالىٰ : **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** ، أي : يرفعه الحقّ ويقبله علىٰ أيدي الملائكة من الحفظة والسَّفرة ، وقد روي أنَّ دعوة اليتيم وكذا دعوة المظلوم تصعد إلىٰ الله بنفسها ، أي : من غير ملائكة.

وفيه معنىٰ آخر وهو أن يرفعه بمعنىٰ يجعله ذا قدْر وقيمة" . انظر : روح البيان (٧/ ٣٢٤-٣٢٥) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصذُوفي (١٢٢٤هـ) : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** كلمة التَّوحيد : لا إله إلَّا الله ، وما يلحقها من الأذكار ، والدُّعاء ، والقراءة . وعنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «هو سُبحان الله والحمدُ لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أكبرُ . إذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلىٰ السَّماء ، فحَيّا بها وَجْهَ الرَّحْمَن . وكان القياس : الطيبة ، ولكن كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلَّا التَّاء يُذكَّر ويؤنَّث . ومعنىٰ الصُّعود : القبول والرِّضا ، وكلّ ما اتَّصف بالقبول وُصف بالرِّفعة والصُّعود . **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾** كالعبادة الخالصة **﴿يَرْفَعُهُ﴾** الله تعالىٰ ، أي : يقبله . أو : الكلم الطيِّب ، فالرَّافع علىٰ هذا الكلم الطيِّب ، والمرفوع العمل الصَّالح ، أي : والعمل الصَّالح يرفعه الكلم الطيِّب لأنَّ العمل متوقف علىٰ التَّوحيد ، المأخوذ من الكلم الطيِّب وفيه إشارة إلىٰ أنَّ العمل يتوقَّف علىٰ الرَّفع ، والكَلِم الطيِّب يصعد بنفسه ، ففيه ترجيح الذِّكر علىٰ سائر العمل . وقيل : بالعكس ، أي : والعمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب ، فإذا لم يكن عمل صالح فلا يقبل منه الكلم الطيِّب . وقيل : والعمل الصَّالح يرفعُ العامل ويشرِّفه ، أي : مَن أراد العزَّة والرِّفعة فليعمل العمل الصَّالح ، فإنَّه هو الذي يرفع العبد " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٥٢٢-٥٢٣) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** ، أَيْ : إِلَىٰ اللهِ يَصْعَدُ لَا إِلَىٰ غَيْرِهِ ، وَمَعْنَىٰ صُعُودِهِ إِلَيْهِ : قَبُولُهُ لَهُ ، أَوْ صُعُودُ الْكَتَبَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِمَا يَكْتُبُونَهُ مِنَ الصُّحُف ، وَخَصَّ الْكَلِمَ الطيِّب بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ الثَّواب عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ كلام يتصف بكونه طيبا من ذكر الله ، وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ ، وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ ، وَتِلَاوَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِكَلِمَةِ التَّوحيد ، أَوْ بِالتَّحْمِيدِ وَالتَّمْجِيدِ . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِصُعُودِهِ : صُعُودُهُ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا . وَقِيلَ الْمُرَادُ بِصُعُودِهِ :

عِلْمُ اللهَّ بِهِ ، وَمَعْنَىٰ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطيِّب ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ ، وَشَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ ، والضَّحَّاك ، وَوَجْهُهُ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْكَلِمَ الطيِّب إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ الصَّالح . وَقِيلَ إِنَّ فَاعِلَ يَرْفَعُهُ : هُوَ الْكَلِمُ الطيِّب ، وَمَفْعُولَهُ : الْعَمَلُ الصَّالح ، وَوَجْهُهُ أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالح لَا يُقْبَلُ إِلَّا مَعَ التَّوحيد وَالْإِيمَانِ . وَقِيلَ : إِنَّ فَاعِلَ يَرْفَعُهُ ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَىٰ اللهَّ عزَّ وجلَّ . وَالْمَعْنَىٰ : أَنَّ اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح عَلَىٰ الْكَلِمِ الطيِّب ، لأنَّ الْعَمَلَ يُحَقِّقُ الْكَلَامَ . وَقِيلَ : وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ صَاحِبَهُ ، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ الْعِزَّةَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : الْمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَّ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح لِصَاحِبِهِ ، أَيْ : يَقْبَلُهُ ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ عَلَىٰ هَذَا : مُبْتَدَأً ، خَبَرُهُ : يَرْفَعُهُ ، وَكَذَا عَلَىٰ قَوْلِ مَنْ قَالَ : يَرْفَعُ صَاحِبَهُ . قَرَأَ الْجُمْهُورُ «يَصْعَدُ» مِنْ صَعِدَ الثُّلاثي . و ﴿الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ بِالرَّفْعِ عَلَىٰ الْفَاعِلِيَّةِ . وَقَرَأَ عَلِيٌّ ، وَابْنُ مَسْعُودٍ «يُصْعَدُ» بِضَمِّ حَرْفِ الْمُضَارَعَةِ مِنْ أَصْعَدَ ... " .

انظر : فتح القدير (٤/ ٣٩١) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) ، : " ... وقوله تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ إلىٰ آخره كالبيان لطريق تحصيل العزَّة وسلوك السَّبيل إلىٰ نيلها وهو الطَّاعة القوليَّة والفعليَّة ، وقيل : بيان لكون العزَّة كلّها لله تعالىٰ وبيده سبحانه لأنَّها بالطَّاعة وهي لا يعتدّ بها ما لم تقبل ، وقيل : استئناف كلام ، وعلىٰ الأوَّل المعوَّل . والْكَلِمُ اسم جنس جمعي عند جمع واحده كلمة ، والمراد بالكلم الطيِّب علىٰ ما في الكشَّاف والبحر عن ابن عَبَّاس لا إله إلَّا الله ، ومعنىٰ كونه طيِّباً علىٰ ما قيل إنَّ العقل السَّليم يستطيبه ويستلذّه لما فيه من الدَّلالة علىٰ التَّوحيد الذي هو مدار النَّجاة والوسيلة إلىٰ النَّعيم المقيم أو يستلذّه الشَّرع أو الملائكة عليهم السَّلام ، وقيل : إنَّه حسن يقبله العقل ولا يرده ، وإطلاق الكلم علىٰ ذلك إن كان واحده الكلمة بالمعنىٰ الحقيقي ظاهر لتضمُّنه عدَّة كلمات ، لكن في وصفه بالطيِّب بالنَّظر إلىٰ غير الاسم الجليل خفاء ، ولعلَّ ذلك باعتبار خصوصيَّة التَّركيب ، وإن كان واحده هنا الكلمة بالمعنىٰ المجازي كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود:١١٩] ، و ﴿كَلَّا أَنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون : ١٠٠] .

وقوله عليه الصَّلاة والسَّلام : «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد» .

وقولهم لا إله إلَّا الله كلمة التَّوحيد إلىٰ ما لا يحصىٰ كثرة ، فإطلاق الكلم علىٰ ذلك لتعدُّده بتعدُّد القائل : وكأنَّ القرينة علىٰ إرادة المعنىٰ المجازي للكلمة الصَّادق علىٰ الكلام الوصف بالطيِّب بناء علىٰ أن ما يستطيب ويستلذّ هو الكلام دون الكلمة العرية عن إفادة حكم تنبسط منه النَّفس أو تنقبض أو يقال : إن كثرة إطلاق الكلمة علىٰ الكلام وشيوعه فيما بينهم حتَّىٰ قال بعضهم كم نقل الحمصي في حواشي التَّصريح عن بعض شراح الأجروميَّة أنَّه حقيقة لغويَّة تغني عن القرينة ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في "الأسماء والصِّفات" عن الحبر

أنَّه فسَّر الكلم الطيِّب بذكر الله تعالىٰ ، وقيل : هو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر ، وهو ظاهر أثر أخرجه ابن مردويه والدَّيلمي عن أبي هريرة .

وقيل : هو سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر وتبارك الله ، وهو ظاهر أثر أخرجه جماعة عن ابن مسعود ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب أنَّه القرآن ، وقيل : هو الثَّناء بالخير علىٰ صالحي المؤمنين ، وقيل : هو الدُّعاء الذي لا ظلم فيه ، وقال الإمام وبه أقتدي : المختار أنَّه كلّ كلام هو ذكر الله تعالىٰ أو هو لله سبحانه كالنَّصيحة والعلم ، وأمَّا ما أفاده كلام الملا صدراً في أسفاره من أنَّه النُّفوس الطَّاهرة الزَّكيَّة فإنَّه تطلق الكلمة علىٰ النَّفس إذا كانت كذلك كما قال تعالىٰ في عيسىٰ عليه السَّلام : **﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾** [النساء : ١٧١] فلا ينبغي أن يعدّ في عداد أقوال المفسِّرين كما لا يخفىٰ ، وصعود الكلم إليه تعالىٰ مجاز مُرسل عن قبوله بعلاقة اللزوم واستعارة بتشبيه القبول بالصُّعود ، وجوَّز أن يجعل الكلم مجازاً عمَّا كتب فيه بعلاقة الحلول أو يقدر مضاف ، أي : إليه يصعد صحيفة الكلم الطيِّب ، أو يشبه وجوده الخارجي هنا ثُمَّ الكتابي في السَّماء بالصُّعود ثُمَّ يطلق المشبَّه به علىٰ المشبه ويشتق منه الفعل علىٰ ما هو المعروف في الاستعارة التبعيَّة ، وقيل : لا مانع من اعتبار حقيقة الصُّعود للكلم فلله تعالىٰ تجسيد المعاني ، وكون الصُّعود إليه عزَّ وجلَّ من المتشابه والكلام فيه شهير ، والكلام بعد ذلك كناية عن قبوله والاعتناء بشأن صاحبه ، وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر ، وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالىٰ وجهه وابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه والسَلمي وإبراهيم «يصعد» من أصعد للكلام الطيِّب بالنَّصب ، وقال ابن عطيَّة : وقرأ الضَّحَّاك «يصعد» بضم الياء ، ولم يذكر مبنياً للفاعل ، ولا مبنياً للمفعول ، ولا إعراب ما بعده ، وفي الكشَّاف وقرىء إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ الطيِّب علىٰ البناء للمفعول ، و**﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب﴾** من أصعد ، والمصعد هو الرَّجل ، أي : يصعد إلىٰ الله عزَّ وجلَّ الكلم الطيِّب ، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالىٰ عنهما إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ من صعد الكلام بالرَّفع .

﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ مبتدأ وخبر علىٰ المشهور ، واختلف في فاعل (يرفع) فقيل ضمير يعود علىٰ العمل الصَّالح وضمير النَّصب يعود علىٰ ٱلۡكَلِمُ ، أي : والعمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب ، وروي ذلك عن ابن عَبَّاس والحسن وابن جبير ومجاهد والضَّحَّاك وشهر بن حوشب علىٰ ما أخرجه عنه سعيد بن منصور وغيره .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في "الأسماء والصِّفات" عن ابن عَبَّاس أنَّه فسَّر العمل الصَّالح بأداء الفرائض ، ثُمَّ قال : فمن ذكر الله تعالىٰ وأدَّىٰ فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالىٰ فصعد به إلىٰ الله تعالىٰ ، ومن ذكر الله تعالىٰ ولم يؤدّ فرائضه ردّ كلامه علىٰ عمله وكان عمله أولىٰ به ، وتعقَّب ذلك ابن عطيَّة ، فقال : هذا

قول يردّ معتقد أهل السُّنَّة ولا يصحُّ عن ابن عَبَّاس ، والحقُّ أنَّ العاصي بترك فرائضه إذا ذكر الله تعالىٰ وقال كلاماً طيِّباً كتب له ذلك وتقبّل منه وعليه وزر ترك الفرائض ، والله تعالىٰ يتقبَّل من كلِّ من اتَّقىٰ الشِّرك ، انتهىٰ .
ولعلَّ المراد برفع العمل الصَّالح الكلم الطيِّب رفع قدْره وجعله بحيث يترتَّب عليه من الثَّواب ما لم يترتَّب عليه إذا كان بلا عمل ، وحديث : " لا يقبل الله قولاً إلَّا بعمل ، ولا يقبل قولًا وعملًا إلَّا بنيَّة ، ولا يقبل قولاً وعملاً ونيَّة إلَّا بإصابة السُّنَّة " المذكور في الكشَّاف لا أظنُّ صحَّته ، وقيل : إنَّه لو سلم صحَّته فالمراد نفي القبول التَّام ، ويجوز أن يكون المراد برفعه إيَّاه تحقيقه وتقويته ، وذلك باعتبار أنَّ الكلام الطيِّب هو الإيمان ، فإنَّه لا شكَّ أنَّ العمل الصَّالح يثبت الإيمان ويحقِّقه بإظهار آثاره ، إذ به يعلم التَّصديق القلبي ، وقيل : الفاعل ضمير يعود علىٰ الكلم الطيِّب وضمير النَّصب يعود علىٰ العمل الصَّالح ، أي : يرفع الكلم الطيِّب العمل الصَّالح .
ونسب أبو حيَّان هذا القول إلىٰ أبي صالح وشهر بن حوشب ، وأيّد بقراءة عيسىٰ وابن أبي عبلة «والعمل الصَّالح» بالنَّصب علىٰ الاشتغال ، وفيه بحث لعدم تعين ضمير الْكَلِمُ للفاعليَّة عليها ، ومعنىٰ رفع الكلم الطيِّب العمل الصَّالح قيل : أن يزيده بهجة وحسناً . ومن فسَّر الكلم الطيِّب بالتَّوحيد قال : معنىٰ ذلك جعله مقبولاً ، فإنَّ العمل لا يقبل إلَّا بالَّتوحيد ، وقيل : الفاعل ضميره تعالىٰ ، وضمير النَّصب يعود علىٰ العمل ، وأخرج ذلك ابن المبارك عن قتادة ، أي : والعمل الصَّالح يرفعه الله تعالىٰ ويقبله .
قال ابن عطيَّة : هذا أرجح الأقوال عندي ، وقيل : ضمير الفاعل يعود علىٰ العمل وكذا الضَّمير المنصوب ، والكلام علىٰ حذف مضاف ، أي : والعمل الصَّالح يرفع عامله ويشرِّفه ، ونسب ذلك أبو حيَّان إلىٰ ابن عَبَّاس ثُمَّ قال : ويجوز عندي أن يكون الْعَمَلُ معطوفاً علىٰ الْكَلِمُ ، ويَرْفَعُهُ استئناف أخبار ، أي : يرفعهما الله تعالىٰ ، ووحَّد الضَّمير لاشتراكهما في الصُّعود ، والضَّمير قد يجري مجرىٰ اسم الإشارة فيكون لفظه مفرداً ، والمراد به التَّثنية ، فكأنَّه قيل : ليس صعودهما من ذاتهما ، بل ذلك برفع الله تعالىٰ إيَّاهما اهـ ، وهو خلاف الظَّاهر جدّاً ، ومثله ما نسبه ابن عَبَّاس ، وأنا لا أظنُّ صحَّة نسبته إليه ، وعلىٰ التَّسليم يحتمل أنَّه رضي الله تعالىٰ عنه أراد بقوله العمل الصَّالح يرفع عامله ويشرِّفه بيان ما تشير إليه الآية في الجُملة . والذي يتبادر إلىٰ ذهني من الآية ما روي عن قتادة واختاره ابن عطيَّة ، وتخصيص العمل الصَّالح برفع الله تعالىٰ إيَّاه علىٰ ذلك قيل لما فيه من الكُلفة والمشقَّة إذ هو الجهاد الأكبر ، وظاهر هذا أنَّ العمل أشرف من الكلام ، ولا كلام في ذلك إذا أريد بالعمل الصَّالح ما يشمل العمل القلبي كالتَّصديق ، ولعلَّ الكلام عليه نظير قوله تعالىٰ : **﴿وَلَمَّا جاءَ مُوْسَى لِمِيقاتِنا﴾** [الأعراف : ١٤٣] ، وقوله سبحانه : **﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾** [الإسراء : ١] ، وكلام الإمام صريح في أنَّ الكلم الطيِّب المفسّر بالِّذكر أشرف من العمل ، حيث جعل صعود الكلم بنفسه دليل ترجيحه علىٰ العمل الذي يرفعه غيره ، وقال في وجه ذلك : الكلام

شريف ، فإنَّ امتياز الإنسان عن كلِّ حيوان بالنُّطق والعمل حركة وسكون يشترك فيه الإنسان وغيره ، والشَّريف إذا وصل إلىٰ باب الملك لا يمنع ومن دونه لا يجد الطَّريق إلَّا عند الَّطلب ، ويدلُّ علىٰ هذا أنَّ الكافر إذا تكلَّم بكلمة الشَّهادة أمن من عذاب الدَّارين إن كان ذلك عن صدق ، وأمن في نفسه ودمه وحرمه في الدُّنيا إن كان ظاهراً ، ولا كذلك العمل بالجوارح ، وأيضاً أنَّ القلب هو الأصل وما فيه لا يظهر إلَّا باللسان ، وما في اللسان لا يبين صدقه إلَّا بالفعل ، فالقول أقرب إلىٰ القلب من الفعل فيكون أشرف منه ، اهـ وفي القلب منه شيء فتدبر " . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١/ ٣٤٦-٣٤٨) .

وقال الإمام الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ . ولهذا التَّعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضَّخمة مغزاه وإيحاؤه . فهو إشارة إلىٰ أسباب العزَّة ووسائلها لمن يطلبها عند الله . القول الطيِّب والعمل الصَّالح . القول الطيِّب الذي يصعد إلىٰ الله في علاه ، والعمل الصَّالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع . ومن ثُمَّ يكرم صاحبه ويمنحه العزَّة والاستعلاء .

والعزَّة الصَّحيحة حقيقة تستقرُّ في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا النَّاس . حقيقة تستقرُّ في القلب فيستعلي بها علىٰ كلِّ أسباب الذِّلة والانحناء لغير الله . حقيقة يستعلي بها علىٰ نفسه أوَّل ما يستعلي . يستعلي بها علىٰ شهواته المذَّلة ، ورغائبه القاهرة ، ومخاوفه ومطامعه من النَّاس وغير النَّاس . ومتىٰ استعلىٰ علىٰ هذه فلن يملك أحد وسيلة لإذلاله وإخضاعه . فإنَّما تذلُّ النَّاس شهواتهم ورغباتهم ، ومخاوفهم ومطامعهم . ومن استعلىٰ عليها فقد استعلىٰ علىٰ كلِّ وضع وعلىٰ كلِّ شيء وعلىٰ كلِّ إنسان ... وهذه هي العزَّة الحقيقيَّة ذات القوَّة والاستعلاء والسُّلطان! إنَّ العزة ليست عناداً جامحاً يستكبر علىٰ الحقِّ ويتشامخ بالباطل . وليست طغياناً فاجراً يضرب في عتوٍّ وتجبُّر وإصرار . وليست اندفاعاً باغياً يخضع للنَّزوة ويذلّ للشَّهوة . وليست قوَّة عمياء تبطش بلا حقٍّ ولا عدل ولا صلاح ... كلَّا! إنَّما العزَّة استعلاء علىٰ شهوة النَّفس ، واستعلاء علىٰ القيد والذُّل ، واستعلاء علىٰ الخضوع الخانع لغير الله . ثُمَّ هي خضوع لله وخشوع وخشية لله وتقوىٰ ، ومراقبة لله في السرَّاء والضرَّاء ... ومن هذا الخضوع لله ترتفع الجباه . ومن هذه الخشية لله تصمد لكلِّ ما يأباه . ومن هذه المراقبة لله لا تغنىٰ إلَّا برضاه " . انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٣٠-٢٩٣١) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : "وَجُمْلَةُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافاً ابْتِدَائِيّاً بِمُنَاسَبَةِ تَفْصِيلِ الْغَرُورِ الَّذِي يُوقَعُ فِيهِ .

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ أَعْمَالَ الْمُؤْمِنِينَ هِيَ الَّتِي تَنْفَعُ لِيَعْلَمَ النَّاس أَنَّ أَعْمَالَ الْمُشْرِكِينَ سَعْيٌ بَاطِلٌ . وَالْقُرُبَاتُ كُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَىٰ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ ، فَالْأَقْوَالُ مَا كَانَ ثَنَاءً عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَاسْتِغْفَاراً وَدُعَاءً ، وَدُعَاءَ النَّاس إِلَىٰ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ . وَتَقَدَّمَ

ذِكْرُهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً﴾ [الأَحْزَاب:٧٠] . وَالْأَعْمَالُ فِيهَا قُرُبَاتٌ كَثِيرَةٌ . وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ أَصْنَامِهِمْ بِالثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ كَمَا قَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ : اعْلُ هُبَلَ ، وَكَانُوا يَتَحَنَّثُونَ بِأَعْمَالٍ مِنْ طَوَافٍ وَحَجٍّ وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مَشُوباً بِالْإِشْرَاكِ لِأَنَّهُمْ يَنْوُونَ بِهَا التَّقَرُّبَ إِلَىٰ الْآلِهَةِ فَلِذَلِكَ نَصَبُوا أَصْنَاماً فِي الْكَعْبَةِ وَجَعَلُوا هُبَلَ وَهُوَ كَبِيرُهُمْ عَلَىٰ سَطْحِ الْكَعْبَةِ ، وَجَعَلُوا إِسَافَا وَنَائِلَةَ فَوْقَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، لِتَكُونَ مَنَاسِكُهُمْ للهِ مَخْلُوطَةً بِعِبَادَةِ الْآلِهَةِ تَحْقِيقاً لِمَعْنَىٰ الْإِشْرَاكِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ . فَلَمَّا قُدِّمَ الْمَجْرُورُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أُفِيدَ أَنَّ كُلَّ مَا يُقَدَّمُ مِنَ الْكَلِمِ الطيِّب إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فـ الْعَمَلُ مُقَابِلُ الْكَلِمِ ، أَي : الْأَفْعَالُ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الْكَلَامِ ، وَضَمِيرُ الرَّفْعِ عَائِدٌ إِلَىٰ مَعَادِ الضَّمير الْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ : إِلَيْهِ وَهُوَ اسْمُ الْجَلَالَةِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ . والضَّمير الْمَنْصُوبُ مِنْ ﴿يَرْفَعُهُ﴾ عَائِدٌ إِلَىٰ الْعَمَلُ الصَّالح ، أَي : اللهُ يَرْفَعُ الْعَمَلَ الصَّالح .

والصُّعود : الْإِذْهَابُ فِي مَكَانٍ عَالٍ . وَالرَّفْع : نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ أَعْلَىٰ مِنْهُ ، فَالصُّعُودُ مُسْتَعَارٌ لِلْبُلُوغِ إِلَىٰ عَظِيمِ الْقَدْرِ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبُولِ لَدَيْهِ . وَ (الرَّفْعُ) : حَقِيقَتُهُ نَقْلُ الْجِسْمِ مِنْ مَقَرِّهِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ مِنْهُ وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ لِلْقَبُولِ عِنْدَ عَظِيمٍ ، لأنَّ الْعَظِيمَ تَتَخَيَّلُهُ التَّصَوُّرَاتُ رَفِيعَ الْمَكَانِ . فَيَكُونُ كُلٌّ مِنْ (يَصْعَدُ) وَ (يَرْفَعُ) تَبَعِيَّتَيْنِ قَرِينَتَيْ مَكْنِيَّةٍ بِأَنْ شُبِّهَ جَانِبُ الْقَبُولِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ بِمَكَانٍ مُرْتَفِعٍ لَا يَصِلُهُ إِلَّا مَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ .

فَقَوْلُهُ : الْعَمَلُ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ يَرْفَعُهُ ، وَفِي بِنَاءِ الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ عَلَىٰ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مَا يُفِيدُ تَخْصِيصَ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمُسْنَدِ ، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ سِيَاقُ جُمْلَتِهِ عَقِبَ سِيَاقَ جُمْلَةِ الْقَصْرِ الْمُشْعِرِ بِسَرَيَانِ حُكْمِ الْقَصْرِ إِلَيْهِ بِالْقَرِينَةِ لِاتِّحَادِ الْمَقَامِ إِذْ لَا يُتَوَهَّمُ أَنْ يُقْصَرَ صُعُودُ الْكَلِمِ الطيِّب عَلَىٰ الْجَانِبِ الْإِلَهِيِّ ثُمَّ يُجْعَلَ لِغَيْرِهِ شَرِكَةً مَعَهُ فِي رَفْعِ الْعَمَلِ الصَّالح ، تَعَيَّنَ مَعْنَىٰ التَّخْصِيصِ ، فَصَارَ الْمَعْنَىٰ : اللهُ الَّذِي يَقْبَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْوَالَهُمْ وَأَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ .

وَإِنَّمَا جِيءَ فِي جَانِبِ الْعَمَلِ الصَّالح بِالْإِخْبَارِ عَنْهُ بِجُمْلَةِ يَرْفَعُهُ وَلَمْ يُعْطَفْ عَلَىٰ الْكَلِمُ الطيِّب فِي حُكْمِ الصُّعود إِلَىٰ اللهِ مَعَ تَسَاوِي الْخَبَرَيْنِ لفائدتين :

أُوْلَاهُمَا : الْإِيمَاءُ إِلَىٰ أَنَّ نَوْعَ الْعَمَلِ الصَّالح أَهَمُّ مِنْ نَوْعِ الْكَلِمِ الطيِّب عَلَىٰ الْجُمْلَةِ لأنَّ مُعْظَمَ الْعَمَلِ الصَّالح أَوْسَعُ نَفْعاً مِنْ مُعْظَمِ الْكَلِمِ الطيِّب (عَدَا كَلِمَةَ الشَّهَادَتَيْنِ وَمَا وَرَدَ تَفْضِيلُهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي السُّنَّةِ مِثْلَ دُعَاءِ يَوْمِ عَرَفَةَ) فَلِذَلِكَ أُسْنِدَ إِلَىٰ اللهِ رَفْعُهُ بِنَفْسِهِ

كَقَوْلِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا طيبا تلقّاها الرحمان بِيَمِينِهِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ، فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ حَتَّىٰ تَصِيرَ مِثْلَ الْجَبَلِ» .

وَثَانِيهِمَا : أَنَّ الْكَلِمَ الطيِّب يَتَكَيَّفُ فِي الْهَوَاءِ فَإِسْنَادُ الصُّعود إِلَيْهِ مُنَاسِبٌ لِمَاهِيَّتِهِ ، وأَمَّا الْعَمَلُ الصَّالح فَهُوَ كَيْفِيَّاتٌ عَارِضَةٌ لِذَوَاتٍ فَاعِلَةٍ وَمَفْعُولَةٍ فَلَا يُنَاسِبُهُ إِسْنَادُ الصُّعود إِلَيْهِ

وَإِنَّمَا يَحْسُنُ أَنْ يُجْعَلَ مُتَعَلِّقاً لِرَفْعٍ يَقَعُ عَلَيْهِ وَيُسَخِّرُهُ إِلَى الِارْتِفَاعِ " . انظر : التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٧٢-٢٧٣) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " وقوله- سبحانه- : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** حضٌّ للمؤمنين على النُّطق بالكلام الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصَّالح .

و **﴿يَصْعَدُ﴾** من الصُّعود بمعنى الارتفاع إلى أعلى ، والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع ، يقال : صعد في السُّلَّم ويصعد صعوداً إذا ارتقاه وارتفع فيه

والْكَلِمُ اسم جنس جمعي واحده كلمة .

و **﴿الْكَلِمُ﴾** المراد بالكلم الطيِّب : كلُّ كلام يرضى الله- تعالى- من تسبيح وتحميد وتكبير . وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال الحسنة .

والمراد بصعوده : قبوله عند الله- تعالى- ورضاه عن صاحبه ، أو صعود صحائف هذه الأقوال الطيِّبة .

والمعنى : إليه- تعالى- وحده ، لا إلى غيره يصعد الكلم الطيِّب ، أي : يقبل عنده ، ويكون مرضيَّاً لديه ، أو إليه- وحده- تُرفع صحائف أعمال عباده ، الصَّادقين فيجازيهم بما يستحقُّون من ثواب ، والعمل الصَّالح الصَّادر عن عباده المؤمنين يرفعه الله- تعالى- إليه ، ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه .

فالفاعل لقوله **﴿يَرْفَعُهُ﴾** ضمير يعود على الله تعالى ، والضَّمير المنصوب يعود إلى العمل الصَّالح أي : يرفع الله- تعالى- العمل الصَّالح إليه ، ويقبله من أصحابه .

ومنهم من يرى أنَّ الفاعل لقوله **﴿يَرْفَعُهُ﴾** هو العمل الصَّالح ، والضَّمير المنصوب يعود إلى الكلم الطيِّب ، أي : أنَّ العمل الصَّالح هو الذي يرفع الكلم الطيِّب ، بأنَّه يجعله مقبولاً عند الله تعالى ، ومنهم من يرى العكس ، أي : أنَّ الكلم الطيِّب هو الذي يرفع العمل الصَّالح .

قال الشَّوكاني ما ملخَّصه : ومعنى : **﴿وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** أنَّ العمل الصَّالح يرفع الكلم الطيِّب ، كما قال الحسن وغيره ، ووجهه أنَّه لا يقبل الكلم الطيِّب إلَّا من العمل الصَّالح ، وقيل : إنَّ فاعل **﴿يَرْفَعُهُ﴾** هو الكلم الطيِّب ، ومفعوله العمل الصَّالح . ووجهه أنَّ العمل الصَّالح لا يُقبل إلَّا مع التَّوحيد والإيمان ، وقيل : إنَّ فاعل **﴿يَرْفَعُهُ﴾** ضمير يعود إلى الله تعالى .

والمعنى : أنَّ الله تعالى يرفع العمل الصَّالح على الكلم الطيِّب ، لأنَّ العمل يحقِّق الكلام ، وقيل : والعمل الصَّالح هو الذي يرفع صاحبه .

وأتبعها بقوله تَعَالَى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيْكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ﴾ (٥١) وَمَا أَدْرِي من أَيْن استنبط من هَذَا الْخَبَر أَنَّ الله تَعَالَى فَوق الْعَرْش من هَذِه الْآيَة ،

ويبدو لنا أنَّ أرجح هذه الأقوال : أن يكون الفاعل لقوله ﴿يَرْفَعُهُ﴾ هو الله تعالى ، وأنَّ الضَّمير المنصوب عائد إلى العمل الصَّالح ، لأنَّ الله تعالى هو الذي يقبل الأقوال الطيِّبة ، وهو سبحانه الذي يرفع الأعمال الصَّالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين " . انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١١/ ٣٣٠-٣٣١) .

(٥١) مِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَى العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَى : قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾** [آل عمران:٥٥] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنى الرَّفع الوارد في الآية الكريمة يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلى ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلى الاستدلال بالآية الكريمة على العلوِّ المكانيِّ لله تعالى ، والعياذ بالله تعالى ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للرَّفع الوارد في الآية :

(١) رافعك إلى السَّماء حيث لا ينفذ إلَّا حكمي، ولا يريد أن اللهَّ في السماء، وشبَّه رفعه إلى السَّماء بالموت؛ لأنَّه يفقد عند الرفع كما يفقد عند الموت، وقيل: الرفع هنا رفع المنزلة .

(٢) أي: إلى سمائي ومحلّ كرامتي، فجعل ذلك رفعاً إليه للتَّفخيم والتَّعظيم .

(٣) إلى مقرِّ ملائكتي ومحلِّ كرامتي، وعلى كلٍّ فالكلام على حذف مضاف ، إذ من المعلوم أنَّ البارئ سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الرَّفع الوارد في الآية :

قال الإمام أبو بكر الباقلَّاني المالكي (٤٠٣هـ) : **﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾** [ل عمران:٥٥] ، قالوا: وما الفائدة في أن يُرفع إليه أو إلى ملائكته ميتاً، وكيفَ يَرفعه إليه حيَّاً أو ميتاً وليس هو في مكانٍ ولا تحويه الأقطار، فيقال لهم: هذا من المقدَّم المؤخَّر فكأنّه قال: إنِّي رافِعُك إليَّ ومتوفِّيك، والواو لا توجبُ التَّرتيب، وإنَّما توجبُ الجمعَ بينَ المذكورين، وقد قال قوم : أنَّه أرادَ برفعه رفعَ درجته وتعظيمَ شأنه وتبليغه المنزلة التي مَن بلغها عَظُمت منزلته.

قالوا: وقولُه **﴿إليَّ﴾** ، أي: إلى موضع كرامتي ومواضع أوليائي وهو بمثابة قولِ إبراهيم: **﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾** [الصافات:٩٩] ، أي: إلى حيثُ أولياؤهُ وحيث يُعبد ويُذْكر.

وقال أكثر الأمَّة: أراد بقوله: **﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾** أنَّه رفَعهُ إلى السَّماء حيَّاً. وأنَّه لا يموتُ حتى ينزلَ فيصلِّي خلفَ المهدي، ويكون داعياً إلى شريعة نبيِّنا عليه السَّلام ، ومؤكِّداً لها غير داعٍ إلى شريعته " . انظر : الانتصار للقرآن (٢/ ٧٤٤-٧٤٥) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ قولان: أحدهما: رافعك إلى السَّماء. والثَّاني: معناه : رافعك إلى كرامتي " . انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ٣٩٧) .

وقال الإمام أبو سعد بن أبي سعيد المتولي النَّيسابوري (هـ٤٧٨) : " فإن استدلُّوا بظواهر الكتاب والسُّنَّة مثل قوله ... ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ .. وغير ذلك من الآيات والأخبار فلأصحابنا في ذلك طريقان :

أحدهما : الإعراض عن التَّأويل والإيمان بها كما جاءت ، والإيمان بها صحيح وإن لم يعرف معناها ، كما أنَّ إيماننا بجميع الأنبياء والملائكة صلوات الله عليهم والكُتب المنزلة من الله تبارك وتعالى صحيح وإن لم يعرف شيئاً في ذلك ، وإيماننا بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور صحيح وإن لم نعرف معناها ، وهذا الطَّريق أقرب إلى السَّلامة .

ومن أصحابنا من صار إلى التَّأويل ، والاختلاف صادر عن اختلاف القراءتين في قوله تعالى : ﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران:٧] .

فمن صار إلى الوقف على قوله : ﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾ [آل عمران:٧] أعرض عن التَّأويل وجعل قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] كلاماً مبتدأ ، ومعناه : أنَّ العلماء يقولون آمنَّا به ، ومن صار إلى الوقف على قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] فيكون معناه : أنَّ الله تعالى يعلم تأويله ، والرَّاسخون في العلم أيضاً يعلمون تأويله صار إلى التَّأويل .

ولكن الطَّريق في الجواب معهم أن نعارضهم بآيات تُخالف ظواهرها ظواهر هذه الآيات ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كانُوا﴾ [المجادلة:٧] ، وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤] ، وموجب الآيتين حلوله في كلِّ مكان وقال تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ ، ومقتضى ظاهرها أنَّه محيط بالعالم .

فإن أعرضوا عن تأويل هذه الآيات مع الإيمان بظواهرها والاعتقاد بأنَّه لا يكون في كلِّ مكان ، وأنَّه غير محيط بالعالم أعرضنا نحن عن التَّأويل وصرنا إلى الإيمان بما ورد مع الاعتقاد بأنَّ الحقَّ تعالى منزَّه عن المكان ، وإن صاروا إلى التَّأويل وقالوا : المراد بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ بالعلم لا بالذَّات ، وكذلك قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ يعني بالعلم ضرباً إلى التَّأويل ... وأمَّا قوله تعالى : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ معناه : إلى كرامتي ورحمتي " .

انظر: الغنية في أصول الدِّين (ص٧٥-٧٨ باختصار) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " وقوله: ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى سمائي ومحلِّ كرامتي، فجعل ذلك رفعاً إليه للتَّفخيم والتَّعظيم " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ٤٤٢) .

وقال أيضاً : " وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي : إلىٰ سمائي ومحلِّ كرامتي. فجعل ذلك رَفْعًا إليه ؛ للتَّفخيم والتَّعظيم، ومثله، قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] ، وإِنَّما ذهب إبراهيم عليه السَّلام من العراق إلىٰ الشَّام، والتَّقدير: إلىٰ أمر ربِّي، لأَنَّه أمره بذلك المكان " . انظر : التَّفْسِيرُ البَسِيْط (٥/ ٣٠٦) .

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ عن شهوتك، ولم يكن ذلك رفعاً مكانيَّاً، وإنَّما هو رفعة المحل " . انظر : تفسير الراغب الأصفهاني(المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة) (٢/ ٥٩٢) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلىٰ سمائي ومقرِّ ملائكتي " . انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٦٦) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالىٰ: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ عبارة عن نقله إلىٰ علو من سفل وقوله : ﴿إِلَيَّ﴾ إضافة تشريف لما كانت سماءه والجهة المكرَّمة المعظمة المرجوة، وإلَّا فمعلوم أنَّ الله تعالىٰ غير متحيِّز في جهة " . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٤٤٤) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " ... وَالْمُشَبِّهَةُ يَتَمَسَّكُونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي إِثْبَاتِ المكان لله تعالىٰ وأنَّه في السَّماء، وَقَدْ دَلَّلْنَا فِي الْمَوَاضِعِ الْكَثِيرَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ بِالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَةِ عَلَىٰ أَنَّه يَمْتَنِعُ كَوْنُهُ تَعَالَىٰ فِي الْمَكَانِ فَوَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظ عَلَىٰ التَّأْوِيلِ، وَهُوَ مِنْ وُجُوهٍ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ إِلىٰ مَحَلِّ كَرَامَتِي، وَجَعَلَ ذَلِكَ رَفْعًا إِلَيْهِ لِلتَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ [الصَّافَّاتِ: ٩٩] وَإِنَّمَا ذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعِرَاقِ إلى الشَّامِ وَقَدْ يَقُولُ السُّلْطَانُ: ارْفَعُوا هَذَا الْأَمْرَ إِلىٰ الْقَاضِي، وَقَدْ يُسَمَّىٰ الْحُجَّاجُ زُوَّارَ اللهِ، وَيُسَمَّىٰ الْمُجَاوِرُونَ جِيرَانَ اللهِ، وَالْمُرَادُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ التَّفْخِيمُ وَالتَّعْظِيمُ فَكَذَا هَاهُنَا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: فِي التَّأْوِيلِ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ مَعْنَاهُ : أَنَّه يُرْفَعُ إِلىٰ مَكَانٍ لَا يَمْلِكُ الْحُكْمَ عَلَيْهِ فِيهِ غَيْرُ اللهِ لِأَنَّ فِي الْأَرْضِ قد يتولىٰ الخلق أنواع الأحكام فأمَّا السَّموات فَلَا حَاكِمَ هُنَاكَ فِي الْحَقِيقَةِ وَفِي الظَّاهِرِ إِلَّا اللهُ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ بِأَنَّ اللهَ فِي مَكَانٍ لَمْ يَكُنِ ارْتِفَاعُ عِيسَىٰ إلى ذَلِكَ سَبَبًا لِانْتِفَاعِهِ وَفَرَحِهِ بَلْ إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِذَلِكَ لَوْ وَجَدَ هُنَاكَ مَطْلُوبَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالرَّوْحِ وَالرَّاحَةِ وَالرَّيْحَانِ، فَعَلَىٰ كِلَا الْقَوْلَيْنِ لَا بُدَّ مِنْ حَمْلِ اللَّفْظِ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ: وَرَافِعُكَ إِلىٰ مَحَلِّ ثَوَابِكَ وَمُجَازَاتِكَ، وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ إِضْمَارِ مَا ذَكَرْنَاهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهِ تَعَالَىٰ.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ صِفَاتِ عِيسَىٰ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وَالْمَعْنَىٰ مُخْرِجُكَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَمُفَرِّقٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَكَمَا عَظَّمَ شَأْنَهُ بِلَفْظِ الرَّفْعِ إِلَيْهِ أَخْبَرَ عَنْ مَعْنَىٰ التَّخْلِيصِ بِلَفْظِ التَّطْهِيرِ وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ الْمُبَالَغَةِ فِي إِعْلَاءِ شَأْنِهِ وَتَعْظِيمِ مَنْصِبِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

الصِّفَةُ الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ : ﴿**وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ**﴾ وَجْهَانِ :

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَعْنَىٰ: الَّذِينَ اتَّبَعُوا دِينَ عِيسَىٰ يَكُونُونَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، وَهُمُ الْيَهُودُ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ وَالِاسْتِعْلَاءِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ إخباراً عن ذلِّ اليهود وإنهم يكونوا مَقْهُورِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَأَمَّا الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَأَمَّا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَأَمَّا النَّصَارَىٰ فَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مُوَافَقَتَهُ فَهُمْ يُخَالِفُونَهُ أَشَدَّ الْمُخَالَفَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ صَرِيحَ الْعَقْلِ يَشْهَدُ أَنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ يَرْضَى بِشَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّا نَرَىٰ أَنَّ دَوْلَةَ النَّصَارَىٰ فِي الدُّنيا أَعْظَمُ وَأَقْوَىٰ مِنْ أَمْرِ الْيَهُودِ فَلَا نَرَىٰ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الدُّنيا مُلْكًا يَهُودِيًّا وَلَا بَلْدَةً مَمْلُوءَةً مِنَ الْيَهُودِ بَلْ يَكُونُونَ أَيْنَ كَانُوا بالذلة والمسكنة وَأَمَّا النَّصَارَىٰ فَأَمْرُهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ .

الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذِهِ الْفَوْقِيَّةِ الْفَوْقِيَّةُ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ رَفْعَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿**وَرافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ هُوَ الرِّفْعَةُ بِالدَّرَجَةِ وَالْمَنْقَبَةِ، لَا بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ، كَمَا أَنَّ الْفَوْقِيَّةَ فِي هَذِهِ لَيْسَتْ بِالْمَكَانِ بَلْ بِالدَّرَجَةِ وَالرِّفْعَةِ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٨/ ٢٣٨ فما بعدها) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١٩/٢) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ إلى سمائي ومقرِّ ملائكتي " . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (١/ ٢٥٩) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " اعْلَم أَنَّه قد تقدم الْكَلَام عَلَيْهِ فِي آيَة الاسْتوَاء ونزيد هَهُنَا أَنَّه إِذا ثَبت اسْتِحَالَة الْجِهَة فِي حَقه تَعَالَى وَجب تَأْوِيل هَذِه الْآيَات ... قَوْله تَعَالَى : ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيّ**﴾ ، وَقَوله : ﴿**بَل رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ**﴾ إلى محَلِّ كرامته كَمَا يُقَال : رفع السُّلْطَان فلَانا إِلَيْهِ لَيْسَ المُرَاد مَكَانا وَلَا جِهَة علو بل قرب رُتْبَة ومنزلة " . انظر : إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل (١/ ١١٢) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾ أي إلى السَّماء " . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٥٤)

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : " أخبر الله تعالى أنَّه رفع بتمامه إلى السَّماء بروحه وجسده جميعاً " . انظر : تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ٣٥٦) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الرَّفْعُ نَقْلٌ مِنْ سُفْلٍ إِلَى عُلُوٍّ و: إِلَيّ، إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ. وَالْمَعْنَى: إِلَى سَمَائِي وَمَقَرِّ مَلَائِكَتِي. وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْبَارِيَ تَعَالَى لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ فِي جِهَةٍ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْمُشَبِّهَةُ فِي ثُبُوتِ الْمَكَانِ لَهُ تَعَالَى. وَقِيلَ: إِلَى مَكَانٍ لَا يَمْلِكُ الْحُكْمَ فِيهِ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَا فِي الظَّاهِرِ إِلَّا أَنَا، بِخِلَافِ الْأَرْضِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَتَوَلَّى الْمَخْلُوقُونَ فِيهَا الْأَحْكَامَ ظَاهِرًا. وَقِيلَ: إِلَى مَحَلِّ ثَوَابِكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَفْعُهُ إِلَى السَّمَاءِ، سَمَاءُ الدُّنيا " . انظر : البحر المحيط في التفسير (٣/ ١٧٧) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : "وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: صَلَبُوا رَجُلًا شَبَّهُوهُ بِعِيسَى، وَرَفَعَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، عِيسَى إِلَى السَّماء حَيًّا " . انظر : تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٥٢) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي: ورافع عملك إليّ، كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ، والمرادُ منه: أنَّه تعالى بشره بقبول طاعاتِهِ وأعماله، وعرَّفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق – في نشر دينه، وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يُضيع أجره، ولا يهدر ثوابهُ " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٢٦٧) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " أمَّا قوله : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ فالمشبِّهة تمسَّكوا بمثله في إثبات المكان لله تعالى ، وأنَّه في السَّماء، لكن الدَّلائل القاطعة دلَّت على أنَّه متعال عن الحيِّز والجهة ، فوجب حمل هذا الظَّاهر على التَّأويل بأنَّ المراد : إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي ، ومثله قول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب من العراق إلى الشام، وقد سمي الحجاج زوّار الله، والمجاورون جيران الله. والمراد : التَّفخيم والتَّعظيم، أو المراد : إلى مكان لا يملك الحكم عليه هناك غير الله ، فإنَّ في الأرض ملوكاً مجازيَّة. ولئن سلم أنَّه تعالى يمكن أن يكون في مكان فليس رفع عيسى عليه السَّلام إلى ذلك المكان سبباً لبشارته ما لم يتيقَّن الثَّواب والكرامة والرّوح والرَّاحة، فلا بدَّ من صرف اللفظ عن ظاهره وهو أن يقال: المراد رفعه إلى محلِّ كرامته، وإذا لم يكن بدٌّ من الإضمار فلم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان له تعالى " . انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٢/ ١٧١) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالى: ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ عبارةٌ عَنْ نَقْلِهِ من سُفْلٍ إلى عُلْو، وإضافه اللهَّ سبحانه إضافةُ تشريفٍ، وإلَّا فمعلومٌ أنَّه سبحانه غَيْرُ متحيِّزٍ في جهةٍ " . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٥٣) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإِيجي الشَّافعيّ (٩٠٥هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى محلِّ كرامتي " . انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الشافعيّ ، (١/ ٢٥١) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى محلِّ كرامتي ومقرّ ملائكتي " . انظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٢٢٠) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي : إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " . انظر: تفسير أبي السعود) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢/ ٤٤) .

وقال الإمام ابن عجيبة (١٢٢٤هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/ ٣٦٠) .

وقال الإمام القاضي مولوي محمَّد ثناء الله الهندي الفاني فتي النَّقشبندى الحنفي العثماني المظهري (١٢٢٥هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى محلِّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي " . انظر : التفسير المظهري (٢/ ٥٦) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : " وأراد سبحانه بقوله: ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ رافعك إلى سمائي، وقيل: إلى كرامتي، وعلى كلٍّ فالكلام على حذف مضاف ، إذ من المعلوم أنَّ البارئ سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة، وفي رفعه إلى أي سماء خلاف ، والذي اختاره الكثير من العارفين أنَّه رفع إلى السَّماء الرَّابعة، وعن ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما أنَّه رفعه إلى السَّماء الدُّنيا فهو فيها يسبح مع الملائكة ... " . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢/ ١٧٤-١٧٥) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي (١٣١٦هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ من الأرض إلى محلِّ كرامتي وإلى محلّ ثوابك " . انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ١٢٨) .

وقال الدكتور وهبة بن مصطفى الزّحيلي : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي : إلى كرامتي " . انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٣/ ٢٣٨).

وقال الشَّيخ سعيد حوَّى (١٤٠٩هـ) : ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ ، أي: إلى سمائي، ومقرّ ملائكتي؛ بدليل رؤيته من رسولنا عليه الصَّلاة والسَّلام يوم المعراج في السَّماء " . انظر : الأساس في التفسير (٢/ ٧٧٠) .

ومِنَ الآيَاتِ التِيْ يَسْتَدِلُّوْنَ بِهَا عَلَىَ العُلُوِّ الحِسِّيِّ المَكَانِي لله تَعَالَىَ : قَوْلُهُ تَعَالَىَ : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء:١٥٨] .

والنَّاظر فيما قاله علماء الأمَّة في معنى الرَّفع الوارد في الآية الكريمة يجد أنَّ جمهورهم ذهب إلى ما يُخالف ما ذهب إليه المجسِّمة الذين ذهبوا إلى الاستدلال بالرَّفع على العلوِّ المكاني لله تعالى ، والعياذ بالله تعالى ...

فمن أشهر المعاني التي ذكرها العلماء للرَّفع الوارد في الآية :

(١) رَفعه إِلىٰ الْموضع الَّذِي لَا يُعبد فِيهِ إِلَّا الله ، وَلَا يذكر فِيهِ غَيره ، لَا علىٰ معنىٰ أَنَّه ارْتفع إِلَيْهِ كَمَا يترفَّع الْجِسْم من سفل إِلىٰ جسم فِي علو بِأَن يقرب مِنْهُ بالمسافة والمساحة .

(٢) أنَّه رفعه إلىٰ موضع لا يجري عليه حكم أحد من العباد ، فصار رفعه إلىٰ حيث لا يجري عليه حكم العباد رفعاً إليه .

(٣) أنَّه رفعه إلىٰ السَّماء ، والله متعال عن المكان ...

وفيما يلي طائفة من أقوال علماء الأمَّة في تفسير الرَّفع الوارد في الآية :

قال الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " وَأَمَّا قَوْله تَعَالَىٰ فِي قصَّة عِيسَىٰ **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** فَمَعْنَاه : رَفعه إِلىٰ الْموضع الَّذِي لَا يعبد فِيهِ إِلَّا الله ، وَلَا يذكر فِيهِ غَيره ، لَا علىٰ معنىٰ أَنَّه ارْتفع إِلَيْهِ كَمَا يترفع الْجِسْم من سفل إِلىٰ جسم فِي علوّ بِأَن يقرب مِنْهُ بالمسافة والمساحة " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٣٩٣)

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** فيه قولان: أحدهما: أنَّه رفعه إلىٰ موضع لا يجري عليه حكم أحد من العباد ، فصار رفعه إلىٰ حيث لا يجري عليه حكم العباد رفعاً إليه ، وهذا قول بعض البصريِّين. والثَّاني: أنَّه رفعه إلىٰ السَّماء ، وهو قول الحسن " . انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/ ٥٤٤) .

وقال الإمام الواحدي (٤٦٨هـ) : " ومعنىٰ **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** أي إلىٰ الموضع الذي لا يجري لأحد سوىٰ الله فيه حكم، وكان رفعه إلىٰ ذلك الموضع رفعًا إليه، لأنَّه رفع عن أن يجري عليه حكم أحد من العباد، كقوله: **﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾** [البقرة: ٢١٠] ، ولم تخرج الأمور اليوم من حكمه فترجع إليه، ولكن المعنىٰ أنَّ الأمور تصير بحيث لا يجري لأحد حكم فيها حقيقة ولا مجازًا سوىٰ الله تعالىٰ يوم القيامة.

يؤكِّد ما قلنا أنَّ الحسن قال: **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** إلىٰ السَّماء . كما قال: **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** [النساء: ١٠٠] ، وكانت الهجرة يومئذٍ إلىٰ المدينة، وكذلك ما أخبر به عن إبراهيم في قوله: **﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾** [الصافات: ٩٩] ، وكان ذاهبًا إلىٰ الشَّام، فجعل ذهابه إلىٰ الموضع الذي أمره ربه ذهابًا إلىٰ ربِّه " . انظر : التَّفْسِيرُ البَسِيْط (٧/ ١٨٥) .

وقال الإمام أيضاً : **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** أَيْ: إلىٰ الموضع الذي لا يجري لأحدٍ سوىٰ الله فيه حكمٌ وكان رفعُه إلىٰ ذلك الموضع رفعاً إليه لأنَّه رُفع عن أن يجري عليه حكم أحدٍ من العباد " . انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٠١)

وقال الإمام الرَّاغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) : " وقوله تعالىٰ: **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** قيل: معناه رقىٰ بشخصه كما هو إلىٰ السَّماء، وإليه ذهب – جماعة من أصحاب الحديث، وقيل معناه: مع ذلك أنَّه شرف مكانه من بين الأنام كقوله: **﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾** [مريم:٥٧] ، وكقول الشَّاعر :

بلغنا السَّما حسابنا لولا السَّما لحر بالسملة

وقول الآخر: لَنا بَيْتٌ على عُنُق الثُّرَيّا ...

وذكر قول ﴿إِلَيْه﴾ تنبيهاً على تعظيم المرفوع، لا إلى إشارة إلى حدٍّ محدود، تنبيهاً على أنَّه حصل له به أعلى الشَّرف، وإلى نحوه أشار ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ ، ﴿وَإِلَيهِ الْمَصِيرُ﴾ ، ومثل هذا يشار إليه ولا يمكن الكشف عن حقائقه باللفظ، وإنَّما يدركه الإنسان بحسب ما جعله له من نوره" . انظر : تفسير الراغب الأصفهاني (المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة) (٤/ ٢٢١-٢٢٢) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ يعني إلى سمائه وكرامته ، وعيسى عليه السَّلام حي في السَّماء الثَّانية على ما تضمَّن حديث الإسراء في ذكر ابني الخالة عيسى ويحيى ، ذكره البخاري في حديث المعراج ، وذكره غيره ، وهو هناك مُقيم حتى ينزله الله لقتل الدجَّال ، وليملأ الأرض عدلاً ، ويحيا فيها أربعين سنة ثمَّ يموت كما يموت البشر" . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ١٣٤) .

وقال الإمام محمود بن أبى الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفى: نحو ٥٥٠هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ إلى موضع لا يجري عليه أمر أحد من العباد " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٢٦١) .

وقال أيضاً : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ ، أي: رفعه إلى موضع لا يجري عليه أمر أحد من العباد، كقول إبراهيم: ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ ، أي: إلى حيث أمرني ربِّي" . انظر : باهر البرهان في معانى مشكلات القرآن (١/ ٣٩٧) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُشَبِّهَةُ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ فِي إِثْبَاتِ الْجِهَةِ.

وَالْجَوَابُ: الْمُرَادُ الرَّفْعُ إلى مَوْضِعٍ لَا يَجْرِي فِيهِ حُكْمُ غَيْرِ اللهَّ تَعَالَى كَقَوْلِهِ : ﴿وَإِلَى اللهَّ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٠] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهَّ وَرَسُولِهِ﴾ [النِّسَاءِ: ١٠٠] ، وَكَانَتِ الْهِجْرَةُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إلى الْمَدِينَةِ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصَّافَّاتِ: ٩٩] .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: رَفْعُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السَّماء ثَابِتٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ فِي آلِ عِمْرَانَ : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥] وَاعْلَمْ أَنَّه تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ عَقِيبَ مَا شَرَحَ أَنَّه وَصَلَ إلى عِيسَى أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ أَنَّه رَفَعَهُ إِلَيْهِ دَلَّ ذَلِكَ على أنَّ رفعه إلى أَعْظَمُ فِي بَابِ الثَّوَابِ مِنَ الْجَنَّةِ وَمِنْ كُلِّ مَا فِيهَا مِنَ اللَّذَّاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَفْتَحُ عَلَيْكَ بَابَ مَعْرِفَةِ السَّعَادَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (١١/ ١٦١) .

وقال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أحمد القرطبي (٦٧١هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مُسْتَأْنَفٍ، أَيْ إِلَى السَّماءِ، وَاللهُ تَعَالَى مُتَعَالٍ عَنِ الْمَكَانِ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) (٦/ ١٠) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ إلى حيث لا حكم فيه لغير الله أو إلى السَّماء " . انظر : تفسير النسفي (١/ ٢٤٩) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ أي : إلى سمائه وقد ورد في حديث الإسراء أنَّه في السَّماء الثَّانية " . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٢١٦) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ هَذَا إِبْطَالٌ لِمَا ادَّعَوْهُ مِنْ قَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، وَهُوَ حَيٌّ فِي السَّماء الثَّانِيَةِ عَلَى مَا صَحَّ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ. وَهُوَ هُنَالِكَ مُقِيمٌ حَتَّى يُنْزِلَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ لِقَتْلِ الدَّجَّالِ، وَلِيَمْلَأَهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا، وَيَحْيَا فِيهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ثم يَمُوتُ كَمَا تَمُوتُ الْبَشَرُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: رَفَعَ اللهُ عِيسَى إِلَيْهِ فَكَسَاهُ الرِّيشَ وَأَلْبَسَهُ النور، وقطع عنه المطعم والمشرب، فَصَارَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ، فَهُوَ مَعَهُمْ حَوْلَ الْعَرْشِ، فَصَارَ إِنْسِيًّا مَلَكِيًّا سَمَاوِيًّا أَرْضِيًّا. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِلَيْهِ﴾ عَائِدٌ إِلَى ﴿اللهُ﴾ تَعَالَى عَلَى حَذْفِ التَّقْدِيرِ إِلَى سَمَائِهِ، وَقَدْ جَاءَ ﴿وَرافِعُكَ إِلَيَّ﴾ . وَقِيلَ: إِلَى حَيْثُ لَا حُكْمَ فِيهِ إِلَّا لَهُ. وَلَا يُوَجَّهُ الدُّعَاءُ إِلَّا نَحْوَهُ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْأَوَّلِ " . انظر : البحر المحيط في التفسير (٤/ ١٢٨) .

وقال الإمام السَّمين الحلبي (٧٥٦هـ) : " وقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ ردٌّ لما ادَّعَوْه مِنْ قتله وصلبه. والضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على ﴿الله﴾ على حَذْفِ مضاف أي: إلى سمائِه ومحلِّ أمره ونهيه" . انظر : الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/ ١٤٨)

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (المتوفى بعد سنة ٨٨٠ هـ) : " وقوله : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ رَدٌّ لما ادَّعَوْهُ مِنْ قتله وصلبه ، والضَّمير في ﴿إليْه﴾ عائدٌ على ﴿الله﴾ على حَذْفِ مضاف ، أي : إلى سمائه ومحلِّ أمره ونهيه.

فصل : إثبات المشبِّهة للجهة ودفع ذلك : احتجَّ الْمُشَبِّهَةُ بقوله تعالى : ﴿بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ﴾ في إِثْبَات الجِهَةِ.

والجوابُ : أنَّ الْمُراد الرَّفْعُ إلى موضعٍ لا يَجْرِي فِيهِ حُكْمُ غير الله تعالى ؛ كقوله تعالى : ﴿وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمُوْرُ﴾ [آل عمران : ١٠٩] وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ﴾ [النساء : ١٠٠] ، وكانت الهِجْرَة في ذلك الوَقْت ، إلى الَمدِينَةِ. وقال إبراهيمُ : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات : ٩٩] . انظر : تفسير اللباب (١/ ١٦٦٣) .

وقال الإمام أبو زيد عبد الرَّحمن الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ : يعني: إلى سمائِهِ وكرامتِهِ، وعيسى- عليه السَّلام- في السَّماء على ما تضمَّنه حديثُ الإِسراء في ذِكْرِ ابني الخالةِ عيسى ويحيى، ذكره البخاريُّ في حديث المعراج، وذكره غيره، وهو هنالك مُقِيمٌ حتى يُنزله اللهَّ تعالى لِقَتْلِ الدَّجَّال، وليملأَ الأَرْضَ عَدْلاً وَيَحْيَا فيها أربعين سَنَةً، ثمَّ يموت، كما يموت البشر" . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٣٢٧) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ بما له من العظمة البالغة والحكمة الباهرة، رفع عيسىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ مكان لا يصل إليه حكم آدمي " . انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٥/ ٤٦٦- ٤٦٧) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمن الإيجي الشَّافعيّ (٩٠٥هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ فإنَّ السَّماء محلّ ظهور سلطانه " . انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٤٢٨) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني (٩٧٧هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ مكان لا يصل إليه حكم آدمي " . انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٣٤٤) .

وقال الإمام إسماعيل حقي الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ ردٌّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه.

قال الحسن البصري : أي إلىٰ السَّماء التي هي محلّ كرامة الله تعالىٰ ومقرّ ملائكته ولا يجري فيها حكم أحد سواه ، فكان رفعه إلىٰ ذلك الموضع رفعاً إليه تعالىٰ ، لأنَّه رفع عن أن يجري عليه حكم العباد ، ومن هذا القبيل قوله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ﴾ [النساء : ١٠٠] وكانت الهجرة إلىٰ المدينة ، وقوله : ﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ [الصافات : ٩٩] أي : إلىٰ موضع لا يمنعني أحد من عبادة ربِّي ، والحكمة في الرَّفع أنَّه تعالىٰ أراد به صحبة الملائكة ليحصل لهم بركته لأنَّه كلمة الله وروحه ، كما حصل للملائكة بركة صحبة آدم أبي البشر من تعلّم الأسماء والعلم وأنَّ مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم ، كما ذكر في الآية.

وقيل : رفع إلىٰ السَّماء لَمَّا لم يكن دخوله إلىٰ الوجود الدُّنيوي من باب الشَّهوة وخروجه لم يكن من باب المنيّة ، بل دخل من باب القدرة وخرج من باب العزَّة " . انظر : تفسير روح البيان (٢/ ٢٥٤) .

وقال الإمام ا بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ فهو في السَّماء الثَّانية مع يحيىٰ عليهما السَّلام " . انظر : البحر المديد (٢/ ١٨٠) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ أي : إلىٰ موضع لا يجري فيه حكم غير الله ، كما في الفخر، وهذا الوضع هو السَّماء الثَّالثة كما في حديث " الجامع الصغير " ، وفي بعض المعاريج أنَّه في السَّماء الثَّانية ردّ عليهم وإثبات لما هو الصَّحيح، وقد تقدَّم ذكر رفعه عليه السَّلام في آل عمران بما فيه كفاية ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في إنجاء عيسىٰ وتخليصه من اليهود ، وانتقامه منهم ، ورفعه إليه " . انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (٣/ ٢٩٢) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ أي : إلىٰ موضع لا يجري فيه حكم غير الله تعالىٰ ، ولا يصل إليه حكم آدمي ، وذلك الموضع هو السَّماء الثَّالثة " . انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (١/ ٢٤١) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ هذه الآية كآية آل عمران ﴿**إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وقد روي عن ابن عبَّاس أنَّه فسَّر التَّوفِّي بالإماتة، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض ، والمراد منه ومن الرَّفع : إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقرَّبه.

وقال ابن جرير نقلاً عن ابن جريج: فرفعه إيَّاه توفِّيه إيَّاه وتطهيره من الذين كفروا ، أي : فليس المراد الرَّفع إلىٰ السَّماء بالرُّوح والجسد ولا بالرُّوح فقط، وفي تفسير ابن عبَّاس : معنىٰ الرَّفع رفع الرُّوح، ولكن المشهور بين جمهرة المفسِّرين وغيرهم أنَّ الله تعالىٰ رفعه بروحه وجسده إلىٰ السَّماء بدليل حديث المعراج، إذ أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رآه هو وابن خالته يحيىٰ في السَّماء الثَّانية، وأنت ترىٰ أنَّه لا دليل لهم في ذلك ، إذ لو دلَّ هذا علىٰ ما يقولون لدلَّ علىٰ رفع يحيىٰ وسائر من رآهم من الأنبياء في سائر السَّموات ، ولا قائل بذلك.

وقال الرَّازي: المعنىٰ : رافعك إلىٰ محلِّ كرامتي، وجعله رفعاً للتَّفخيم والتَّعظيم ، كقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿**إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي**﴾ إنَّما ذهب من العراق إلىٰ الشَّام، والمراد رفعه إلىٰ مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلَّا الله " . انظر : تفسير المراغي (٦/ ١٤-١٥) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ أَيْ فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ. وَالرَّفْعُ:إِبْعَادُهُ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلىٰ عَالَمِ السَّمَاوَاتِ، وَ (إِلَىٰ) إِفَادَةُ الِانْتِهَاءِ الْمَجَازِيِّ بِمَعْنَىٰ التَّشْرِيفِ، أَيْ رَفَعَهُ اللهُ رَفْعَ قُرْبٍ وَزُلْفَىٰ." . انظر : التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (٦/ ٢٣) .

وقال الشَّيخ العلامة محمَّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشَّافعي : ﴿**بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ**﴾ أي: بل رفع الله سبحانه وتعالىٰ عيسىٰ بن مريم بروحه وجسده إلىٰ موضع لا يجري فيه حكمُ غيرِ الله تعالىٰ ولا يصل إليه حكم آدمي، وذلك الموضع هو السَّماء الثَّالثة كما في حديث "الجامع الصغير": "آدم في السَّماء الدُّنيا تعرض عليه أعمال ذريَّته، ويوسف في السَّماء الثَّانية، وابنا الخالة يحيىٰ وعيسىٰ في السَّماء الثَّالثة .. إلخ" وفي بعض كتب المعاريج أنَّه في السَّماء الثَّانية " . انظر : تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٧/ ٢٣) .

هَل ذَلِك بِدلَالَة الْمُطَابقَة أَو التَّضمُّن أَو الِالْتِزَام (٥٢) أَو هُوَ شَيْء أَخذه بطرِيق الْكَشْف والنَّفث فِي الرُّوع ؟!!
وَلَعَلَّه اعْتقد أَنَّ الرّفْع إِنَّمَا يكون فِي الْعُلُوّ فِي الْجِهَة ، فَإِن كَانَ كَمَا خطر لَهُ فَذَاك أَيْضاً لَا يعقل إِلَّا فِي الجسميَّة والحديَّة ، وَإِن لم يقل بهما فَلَا حَقِيقَة فِيمَا اسْتدلَّ بِهِ ، وَإِن قَالَ بهما فَلَا حَاجَة إِلَى المغالطة ، وَلَعَلَّه لم يسمع الرَّفْع فِي الْمرتبَة والتَّقريب فِي المكانة من اسْتِعْمَال الْعَرَب وَالْعرْف وَلَا فلَان رفع الله شَأْنه .
وأتبع ذَلِك قَوْله ﴿أأمِنْتُم مَنْ فِي السَّمَاء أَنْ يَخسِفَ بِكِمُ الأَرْض﴾ [الملك:١٦] ، وَخصَّ هَذَا الْمُسْتَدلّ من بِاللهَّ تَعَالَى ، وَلَعَلَّه لم يجوِّز أَنَّ الْمُرَاد بِهِ مَلَائِكَة الله تَعَالَى ، وَلَعَلَّه يَقُول : إِنَّ الْمَلَائِكَة لَا تفعل ذَلِك ، وَلَا أَنَّ جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام خسف بِأَهْل سدوم ، فَلذَلِك اسْتدلَّ بِهَذِهِ الْآيَة ، ولعلَّها هِيَ النَّص الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ (٥٣) .

---

(٥٢) من المعلوم أنَّ دلالة اللفظ الوضعيَّة على المعنى تنقسم إلى ثلاثة أنواع، وهي:

١ – دلالة المطابقة: وهي دلالة اللفظ على تمام المعنى الذي وضع له، كدلالة لفظ: الإنسان على الحيوان النَّاطق، وسُمّيت مطابقة لأنَّ اللفظ طابق معناه، وكدلالة لفظ البيع على الإيجاب والقبول.

٢ – دلالة التَّضمّن: وهي دلالة اللفظ على جزء المعنى الذي وُضع له، كدلالة لفظ: الإنسان على الحيوان فقط، أو على النَّاطق فقط، وسمِّيت تضمُّنًا لتضمُّنها إيَّاه، وكدلالة لفظ البيع على الإيجاب فقط، أو القبول فقط، وكما يقال: سقط البيت، ويراد سقفه، وانكسر خالد، ويراد رجله.

٣ – دلالة الالتزام: وهي دلالة اللفظ على معنى لازم له في الذِّهن، كدلالة لفظ: الأسد على الشَّجاعة، فالشَّجاعة معنى لازم لا ينفكُّ عن لفظ الأسد عند سماعه، فينتقل الذِّهن إليه، ومثل دلالة لفظ السُّكّر على الحلاوة، ولفظ الشَّمس على الضّوء، ولفظ البيع على انتقال ملكيَّة المبيع إلى المشتري، وملك الثَّمن إلى البائع، ودلالة الالتزام دلالة عقليَّة، وأمَّا دلالة المطابقة والتَّضمّن فلفظيَّتان، وقيل: الثَّلاث لفظيَّة . انظر : الوجيز في أصول الفقه الإسلامي ، محمَّد الزّحيلي (٢/ ١٣٧) .

(٥٣) ذهب أهل العلم في كلامهم على قوله تعالى : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾ إلى تأويلها بتأويلات عديدة ... وهذه طائفة من أقوالهم :

قال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : " ...ثُمَّ خوَّفهم ، فقال عزَّ وجلَّ : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾ ؟ قال الكلبي ، ومقاتل : يعني : أمنتم عقوبة من في السَّماء ؟ يعني : الرَّبّ تعالى إن عصيتموه . ويقال : هذا على الاختصار ، ويقال : أمنتم عقوبة من هو جار حكمه في السَّماء . قرأ أبو عمرو ، ونافع : أَمِنتُمْ بالمد ، والباقون بغير مد بهمزتين ، ومعناهما واحد ، وهو الاستفهام ، والمراد به التَّوبيخ . وقرأ ابن كثير بهمزة واحدة بغير مد ، على لفظ الخبر . ﴿أَنْ

﴿يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ، يعني : يغور بكم الأرض ، كما فعل بقارون . ﴿فَإِذا هِيَ تَمُورُ﴾ ، يعني : تدور بكم إلى الأرض السُّفلى" .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي أيضاً : ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ﴾ ، يعني : عذاب من في السَّماء " . انظر : بحر العلوم (٣/ ٤٧٧) .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " قَوْله جلّ وَعلا ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ، وَذَلِكَ بِمَعْنى الْقَهْر وَالتَّدْبِير والمفارقة لَهُ بالنَّعت وَالصِّفة دون التَّحيُّز فِي الْمَكَان وَالْمحلِّ والجهة " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٦٩) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن إبراهيم الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾ ، قال ابن عَبَّاس : أمنتم عذاب من في السَّماء أن عصيتموه . وقيل : معنى : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾ : قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته ، وقيل : إنَّما قال : ﴿مَنْ فِي السَّماء﴾ لأنّهم كانوا يعترفون بأنَّه إله السَّماء ، ويزعمون إنّ الأصنام آلهة الأرض ، وكانوا يدعون الله من جهة السَّماء ، وينتظرون نزول أمره بالرَّحمة والسَّطوة منها .

وقال المحقِّقون : معنى قوله : ﴿فِي السَّماء﴾ ، أي فوق السَّماء ، كقوله تعالى : ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ، أي : فوقها ، لا بالمماسَّة والتَّحيُّز ، ولكن بالقهر والتَّدبير " . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٣٥٩) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿مَنْ فِي السَّماء﴾ أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السَّماء ، فهم موكَّلون بالعذاب .

وخوَّفهم بالملائكة أن ينزلوا عليهم العقوبة من السَّماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خوَّفهم أن يرسلوا عليهم حجارة كما أرسلوا على قوم لوط . وبيَّن أنَّ من كذَّب قبل هؤلاء رسلهم كيف كانت عقوبتهم " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٦١٣) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ﴾ [الملك : ١٦] ، قال المفسِّرون : يعني : عقوبة من السَّماء ، أو عذاب من في السَّماء .

والمعنى : من في السَّماء سُلطانه ، ومُلكه ، وقُدرته ، لا بدَّ من أن يكون المعنى هذا ، لاستحالة أن يكون الله في مكان أو موصوفاً بجهة ، وأهل المعاني يقولون : من في السَّماء هو الملك الموكَّل بالعذاب وهو جبريل " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٢٩) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾ قدرته وسلطانه وعرشه " . انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص١١١٨) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾** ، قَالَ ابن عَبَّاس : أي عقاب مَنْ فِي السَّماء إِنْ عَصَيْتُمُوهُ " .

انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (٥/ ١٢٦) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : **﴿مَنْ فِي السَّماء﴾** فيه وجهان :

أَحَدُهُمَا : من ملكوته في السَّماء ، لأنَّها مسكن ملائكته وثَّم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه .

وَالثَّانِي : أنَّهم كانوا يعتقدون التَّشبيه ، وأنَّه في السَّماء ، وأنَّ الرَّحمة والعذاب ينزلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنَّه في السَّماء ، وهو متعال عن المكان أن يعذِّبكم بخسف أو بحاصب ، كما تقول لبعض المشبِّهة : أمَّا تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل ، إذا رأيته يركب بعض المعاصي " . انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٥٨٠-٥٨١) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالى : **﴿مَنْ فِي السَّماء﴾** جار على عرف تلقِّي البشر أوامر الله تعالى ، ونزول القدر بحوادثه ونعمه ونقمه وآياته من تلك الجهة ، وعلى ذلك صار رفع الأيدي والوجوه في الدُّعاء إلى تلك النَّاحية " . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٤١) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري أبو القاسم (المتوفى : نحو ٥٥٠هـ) : **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾** من الملائكة . أو من في السَّماء عرشه أو سلطانه أو في بمعنى فوق ، كقوله : **﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾** ، فيكون المراد العلوّ والظُّهور . أو المعنى : من هو المعبود في السَّماء ، وخصّ السَّماء للعبادة برفع الأيدي في الأدعية إليها ، ونزول الأقضية منها " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٨٢٦).

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : **﴿مَنْ فِي السَّماء﴾** ، قال ابن عَبَّاس : أمنتم عذاب مَنْ في السَّماء ، وهو الله عزَّ وجلَّ " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣١٥) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ﴾** .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾** [الْأَنْعَامِ : ٦٥] ، وَقَالَ : **﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ﴾** [الْقَصَصِ : ٨١] .

وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُشَبِّهَةَ احْتَجُّوا عَلَى إِثْبَاتِ الْمَكَانِ للهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾** ، وَالْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا يُمْكِنُ إِجْرَاؤُهَا عَلَى ظَاهِرِهَا بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ ، لأَنَّ كَوْنَهُ فِي السَّماء يَقْتَضِي كَوْنَ السَّماء مُحِيطاً بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ ، فَيَكُونُ أَصْغَرَ مِنَ السَّماء ، والسَّماء أَصْغَرُ مِنَ الْعَرْشِ بِكَثِيرٍ ، فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى شَيْئاً حَقِيراً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ ، وَذَلِكَ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مُحَالٌ ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : **﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ للهِ﴾** [الْأَنْعَامِ : ١٢] فَلَوْ

كَانَ اللهُ فِي السَّماء لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَالِكاً لِنَفْسِهِ وَهَذَا مُحَالٌ ، فَعَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ يَجِبُ صَرْفُهَا عَنْ ظَاهِرِهَا إِلَى التَّأْوِيلِ ، ثُمَّ فِيهِ وُجُوهٌ :

أَحَدُهَا : لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ الْآيَةِ : أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء عَذَابُهُ ، وَذَلِكَ لأَنَّ عَادَةَ اللهَّ تَعَالَى جَارِيَةٌ ، بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْزِلُ الْبَلَاءُ عَلَى مَنْ يَكْفُرُ بِاللهَّ وَيَعْصِيهِ مِنَ السَّماء فَالسَّمَاءُ مَوْضِعُ عَذَابِهِ تَعَالَى ، كَمَا أَنَّهُ مَوْضِعُ نُزُولِ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ .

وَثَانِيهَا : قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : كَانَتِ الْعَرَبُ مُقِرِّينَ بِوُجُودِ الْإِلَهِ ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ فِي السَّماء عَلَى وَفْقِ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ لَهُمْ : أَتَأْمَنُونَ مَنْ قَدْ أَقْرَرْتُمْ بِأَنَّهُ فِي السَّماء ، وَاعْتَرَفْتُمْ لَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى مَا يَشَاءُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ

وَثَالِثُهَا : تَقْدِيرُ الْآيَةِ : مَنْ فِي السَّماء سُلْطَانُهُ وَمُلْكُهُ وَقُدْرَتُهُ ، وَالْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ السَّماء تَفْخِيمُ سُلْطَانِ اللهَّ وَتَعْظِيمُ قُدْرَتِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿**وَهُوَ اللهُ فِي السَّماوات وَفِي الْأَرْضِ**﴾ [الْأَنْعَامِ : ٣] فَإِنَّ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ لَا يَكُونُ دُفْعَةً وَاحِدَةً فِي مَكَانَيْنِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ كونه في السموات وَفِي الْأَرْضِ نَفَاذَ أَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَجَرَيَانَ مَشِيئَتِهِ في السّموات وفي الأرض ، فكذا هاهنا .

وَرَابِعُهَا : لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : مَنْ فِي السَّماء الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِالْعَذَابِ ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام ، وَالْمَعْنَى أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ بِأَمْرِ اللهَّ وَإِذْنِهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿**فَإِذا هِيَ تَمُورُ**﴾ ، قَالُوا مَعْنَاهُ : إِنَّ اللهَّ تَعَالَى يُحَرِّكُ الْأَرْضَ عِنْدَ الْخَسْفِ بِهِمْ حَتَّى تَضْطَرِبَ وَتَتَحَرَّكَ ، فَتَعْلُو عَلَيْهِمْ وَهُمْ يُخْسَفُونَ فِيهَا ، فَيَذْهَبُونَ وَالْأَرْضُ فَوْقَهُمْ تَمُورُ ، فَتُلْقِيهِمْ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ" . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣٠/ ٥٩٢) .

وقال الإمام أبو العبَّاس أحمَدُ بنُ عُمَرَ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " فقوله تعالى : ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ ، وقولُ الأَمَةِ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال لها : أَيْنَ اللهُ ؟ فقالَتْ : فِي السَّماء ، ولم يُنْكِرْ عليها ذلك ، وما قد رُوِيَ عن بعض السَّلف أنَّهم كانوا يُطْلِقون ذلك : ليس على ظاهره ، بل هو مُؤَوَّلٌ تأويلاتٍ صحيحةً قد أبداها كثيرٌ من أهل العلمِ في كتبهم ، لكنَّ السَّلف ـ رضى الله عنهم ـ كانوا يجتنبون تأويلَ المتشابهات ، ولا يتعرَّضون لها ، مع عِلْمهم بأنَّ الله تعالى يستحيلُ عليه سِمَاتُ الْمُحْدَثَات ، ولوازمُ المخلوقات ، واستيفاءُ المباحث في علم الكلام " . انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/ ١٠١) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " قَوْلُه تَعَالَى : ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ**﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَأَمِنْتُمْ عَذَابَ مَنْ فِي السَّماء إِنْ عَصَيْتُمُوهُ. وَقِيلَ: تَقْدِيرُهُ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ وَعَرْشُهُ وَمَمْلَكَتُهُ. وَخَصَّ السَّماء وَإِنْ عَمَّ مُلْكُهُ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ الَّذِي تَنْفُذُ قُدْرَتُهُ فِي السَّماء لَا مَنْ يُعَظِّمُونَهُ فِي الْأَرْضِ. وَقِيلَ: هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ: إلى جبريل وهو الملك الموكَّل بالعذاب .

قُلْتُ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ: أَأَمِنْتُمْ خَالِقَ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ كَمَا خَسَفَهَا بِقَارُونَ **﴿إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾** ، أَيْ : تَذْهَبُ وَتَجِيءُ. وَالْمَوْرُ: الِاضْطِرَابُ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

رَمَيْنَ فَأَقْصَدْنَ الْقُلُوبَ وَلَنْ تَرَىٰ دَمًا مَائِرًا إِلَّا جَرَىٰ فِي الْحَيَازِمِ

جَمْعُ حَيْزُومٍ وَهُوَ وَسَطُ الصَّدْرِ. وَإِذَا خُسِفَ بِإِنْسَانٍ دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ فَهُوَ الْمَوْرُ. وَقَالَ الْمُحَقِّقُونَ: أَمِنْتُمْ مَنْ فَوْقَ السَّمَاءِ، كَقَوْلِهِ: **﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾** [التوبة: ٢] أَيْ : فَوْقَهَا لَا بِالْمُمَاسَّةِ وَالتَّحَيُّزِ لَكِنْ بِالْقَهْرِ وَالتَّدْبِيرِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمِنْتُمْ مَنْ عَلَى السَّمَاءِ، كقوله تعالى: **﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾** [طه: ٧١] أَيْ عَلَيْهَا. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ مُدِيرُهَا وَمَالِكُهَا، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ عَلَى الْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ، أَيْ وَالِيهَا وَأَمِيرُهَا. وَالْأَخْبَارُ فِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ مُنْتَشِرَةٌ، مُشِيرَةٌ إِلَى الْعُلُوِّ، لَا يَدْفَعُهَا إِلَّا مُلْحِدٌ أَوْ جَاهِلٌ مُعَانِدٌ. وَالْمُرَادُ بِهَا تَوْقِيرُهُ وَتَنْزِيهُهُ عَنِ السُّفْلِ وَالتَّحْتِ. وَوَصْفُهُ بِالْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ لَا بِالْأَمَاكِنِ وَالْجِهَاتِ وَالْحُدُودِ لِأَنَّهَا صِفَاتُ الْأَجْسَامِ. وَإِنَّمَا تُرْفَعُ الْأَيْدِي بِالدُّعَاءِ إِلَى السَّمَاءِ لِأَنَّ السَّمَاءَ مَهْبِطُ الْوَحْيِ، وَمَنْزِلُ الْقَطْرِ، وَمَحَلُّ الْقُدْسِ، وَمَعْدِنُ الْمُطَهَّرِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَإِلَيْهَا تُرْفَعُ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، وَفَوْقَهَا عَرْشُهُ وَجَنَّتُهُ، كَمَا جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ قِبْلَةً لِلدُّعَاءِ وَالصَّلَاةِ، وَلِأَنَّهُ خَلَقَ الْأَمْكِنَةَ وَهُوَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهَا، وَكَانَ فِي أَزَلِهِ قَبْلَ خَلْقِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ. وَلَا مَكَانَ لَهُ وَلَا زَمَانَ. وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢١٥-٢١٦) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " ... قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَاطِبَةً فَقِيهُهُمْ وَمُحَدِّثُهُمْ وَمُتَكَلِّمُهُمْ وَنُظَّارُهُمْ وَمُقَلِّدُهُمْ أَنَّ الظَّوَاهِرَ الْوَارِدَةَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾** ، وَنَحْوِهِ لَيْسَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا بَلْ مُتَأَوَّلَةٌ عِنْدَ جَمِيعِهِمْ ، فَمَنْ قَالَ بِإِثْبَاتِ جِهَةِ فَوْقُ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ وَلَا تَكْيِيفٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ تَأَوَّلَ **﴿فِي السَّمَاءِ﴾** ، أَيْ عَلَى السَّمَاءِ ، وَمَنْ قَالَ مِنْ دَهْمَاءِ النُّظَّارِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَأَصْحَابِ التَّنْزِيهِ بِنَفْيِ الْحَدِّ وَاسْتِحَالَةِ الْجِهَةِ فِي حَقِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَأَوَّلُوهَا تَأْوِيلَاتٍ بِحَسَبِ مُقْتَضَاهَا ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا سَبَقَ ، قَالَ : وَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي جَمَعَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ كُلَّهُمْ عَلَى وُجُوبِ الْإِمْسَاكِ عَنِ الْفِكْرِ فِي الذَّاتِ كَمَا أُمِرُوا وَسَكَتُوا لِحِيرَةِ الْعَقْلِ ، وَاتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ التَّكْيِيفِ وَالتَّشْكِيلِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ وُقُوفِهِمْ وَإِمْسَاكِهِمْ غَيْرُ شَاكٍّ فِي الوجود والموجود ، وَغَيْرُ قَادِحٍ فِي التَّوحيد ، بَلْ هُوَ حَقِيقَتُهُ ، ثُمَّ تَسَامَحَ بَعْضُهُمْ بِإِثْبَاتِ الْجِهَةِ خَاشِياً مِنْ مِثْلِ هَذَا التَّسَامُحِ ، وَهَلْ بَيْنَ التَّكْيِيفِ وَإِثْبَاتِ الْجِهَاتِ فَرْقٌ ؟ لَكِنْ إِطْلَاقُ مَا أَطْلَقَهُ الشَّرْعُ مِنْ أَنَّهُ **﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** ، وَأَنَّهُ **﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾** مَعَ التَّمَسُّكِ بِالْآيَةِ الْجَامِعَةِ لِلتَّنْزِيهِ الْكُلِّيِّ الَّذِي لَا يَصِحُّ فِي الْمَعْقُولِ غَيْرُهُ وهو قوله تعالى : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** عِصْمَةٌ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا كَلَامُ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى " . انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٥/ ٢٤-٢٥) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ، وَلَوْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا سَاكِنُ السَّماء ، لَمْ يَكُنْ مُؤْمِناً ، وَكَذَا لَوْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ سَاكِنُ السَّماء ؛ لأنَّ السُّكُونَ مُحَالٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ " . انظر : روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٠/ ٨٥) .

وقال الإمام البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾ ، يعني الملائكة الموكَّلين على تدبير هذا العالم ، أو الله تعالى على تأويل مَنْ فِي السَّماء أمره أو قضاؤه ، أو على زعم العرب ، فإنَّهم زعموا أنَّه تعالى في السَّماء " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٢٣٠) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿أأمِنتُم مَّن في السَّمَاء﴾ ، أي: من ملكوته في السَّماء ، لأنَّها مسكن ملائكته ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه ، فكأنَّه قال : أأمنتم خالق السَّماء وملكه ، أو لأنَّهم كانوا يعتقدون التَّشبيه ، وأنَّه في السَّماء ، وأنَّ الرَّحمة والعذاب ينزلان منه ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : أأمنتم من تزعمون أنَّه في السَّماء وهو متعالٍ عن المكان " . انظر : تفسير النسفي (٣/ ٥١٤) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " ... الْآيَة السَّابِعَة قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ ، وَقَوله تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ﴾ .

اعْلَم أَن الدَّلِيل الْعقلِيّ الْقَاطِع والنَّقلي الشَّائِع يدلَّان على أَنَّ الْآيَات الْمَذْكُورَة لَيست على ظَاهرهَا لوجوه :

الأوَّلُ : أَنَّ لَفظة " فِي" للظَّرفيَّة ، وَتَعَالَىٰ الله أَن يكون مظروفاً لخلق من خلقه .

وَأَيْضاً فقد قَالَ : ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماء إِلَه وَفِي الأَرْض إِلَه﴾ ، وَالْجمع بَينهمَا متناقض .

الثَّانِي : اعلم أَنَّ الْخصم يعْتَقد أَنَّ الرَّب تَعَالَىٰ على الْعَرْش ، وَالْآيَة تضَاد ذَلِك ، لأنَّ من هُوَ فِي السَّماء لَيْسَ هُوَ على مَا هُوَ أَعلَىٰ مِنْهَا بطبقات وآلاف سِنِين ، وَكَذَلِكَ لَا يَصحُّ أَن يُقَال لمن هُوَ فَوق سطح يسع لدار عَظِيمَة فِي وَسطهَا من أَسْفَل بَيت صَغِير إِنَّه فِي ذَلِك الْبَيْت ، مَعَ أَنَّ نِسْبَة الْعَرْش إِلَىٰ السَّماء أَضْعَاف أَضْعَاف ذَلِك السَّطْح بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ ذَلِك الْبَيْت .

وَأَيْضاً ، فَإِنَّ بعض الْخُصُوم يَقُول : إِنَّه على الْعَرْش ، وَقد قَامَ الدَّلِيل الْقَاطِع عِنْد الْعُقَلَاء أَنَّ نِسْبَة السَّماء إِلَىٰ الْعَرْش وعظمته قَلِيل جداً ، فكيف تسع مَعَ لطفها بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْعَرْش من هُوَ ملْء الْعَرْش مَعَ عَظمته ، فَإِنَّهُ يلْزم أمَّا اتِّساع السَّماء أَو تضاؤل الذَّات ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً .

الثَّالِثُ : اعْلَم أَنَّ السَّمَوَات كرية لقِيَام الدَّلِيل الْحسي والنَّقلي على ذَلِك ، فَإِن كَانَ فِي وَجههَا عنْدكُمْ فقد جعلتموه كفلك مِنْهَا ، وَإِن كَانَ فِي جِهَة الْبَعْض فترجيح من غير مُرَجّح .

فَإن قيل : المُرَاد بالسَّماء الجِنْس لَا المُسَمّىٰ الجَمِيع ، قُلْنَا : يلْزم التَّنَاقُض ، لأنَّ الْعَرْش خَارج السَّموَات ، وقلتم إِنَّه علىٰ الْعَرْش ، وأيضاً يلْزم التَّجزّيء أَو كَونه متحيِّز دَاخِلاً فِي حيِّزين ، كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَهُوَ الله فِي السَّمَاوَات﴾** ، وَالْكل محَال ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك . إِذا ثَبت ذَلِك تعيَّن أَّن المُرَاد أَمَّا مَلَائِكَة فِي السَّماء مسلَّطون علىٰ من شَاءَ الله من الكفَّار ، لأنَّ اللَّفْظَة تحتمله أَو أَنَّ المخاطبين كَانُوا يَعْتَقِدُونَ اعْتِقَاد المجسِّمة ، فَقيل لَهُم بِحَسب مَا كَانُوا يعتقدونه فِي زعمهم ، أَو أَنَّ المُرَاد التَّعْظِيم وعلوّ الرُّتْبَة وَالْقُدْرَة ، أَي : مَنْ فِي السَّماء ملكوته وسلطانه وَمَلَائِكَته ، فَيكون المُرَاد بالسَّماء الْعُلُوّ والرِّفعة .

فَإن قيل : **﴿فِي﴾** هَاهُنَا بِمَعْنىٰ علىٰ كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : **﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾** ، قُلْنَا : هَذَا مَرْدُود لوَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ ذَلِك خلاف الأَصْل وموضوع اللُّغَة الَّتِي نزل بهَا الْقُرْآن ، وممنوع عِنْد المُحَقِّقين من نحاة الْبَصْرَة ، بل هُوَ علىٰ بَابه لتمكُّنهم علىٰ الجُذُوع تمكُّن المظروف من ظرفه ، لأنَّهم لم يَكُونُوا مستعلين عَلَيْهَا بل كَانُوا مَعهَا .

الثَّانِي : لَو أُرِيد معنىٰ " علىٰ " كَانَ لَفظه أفخم وَأعظم ، فَإِنَّ قَوْله : من علىٰ السَّماء أفخم وَأعظم من قَوْله : **﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾** " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل (ص١١٣-١١٦) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾** ، قال ابن عبَّاس : يعني : عقاب من في السَّماء إن عصيتموه " .

انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٧/ ١٢٦) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : **﴿مَنْ فِي السَّماءِ﴾** : هَذَا مجَازٌ ، وَقَدْ قَامَ الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ علىٰ أن تَعَالَىٰ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ فِي جِهَةٍ ، وَمَجَازُهُ أَنَّ مَلَكُوتَهُ فِي السَّماء لأنَّ فِي السَّماء هُوَ صِلَةُ مَنْ ، فَفِيهِ الضَّمِيرُ الَّذِي كَانَ فِي الْعَامِلِ فِيهِ ، وَهُوَ اسْتَقَرَّ ، أَيْ مَنْ فِي السَّماء هُوَ ، أَيْ مَلَكُوتُهُ ، فَهُوَ عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ ، وَمَلَكُوتُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . لَكِنْ خَصَّ السَّماء بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا مَسْكَنُ مَلَائِكَتِهِ وَثَمَّ عَرْشُهُ وَكُرْسِيُّهُ وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ، وَمِنْهَا تَنْزِلُ قَضَايَاهُ وَكُتُبُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ ، أَوْ جَاءَ هَذَا عَلَىٰ طَرِيقِ اعْتِقَادِهِمْ ، إِذْ كَانُوا مُشَبِّهَةً ، فَيَكُونُ الْمَعْنَىٰ : أَأَمِنْتُمْ مَنْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ؟ وَهُوَ الْمُتَعَالِي عَنِ الْمَكَانِ .

وَقِيلَ : مَنْ عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ ، أَيْ خَالِقُ مَنْ فِي السَّماء . وَقِيلَ : مَنْ هُمُ الْمَلَائِكَةُ . وَقِيلَ : جِبْرِيلُ ، وَهُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْخَسْفِ وَغَيْرُهُ . وَقِيلَ : مَنْ بِمَعْنَىٰ عَلَىٰ ، وَيُرَادُ بِالْعُلُوِّ الْقَهْرُ وَالْقُدْرَةُ لَا بِالْمَكَانِ ، وَفِي التَّحْرِيرِ : الْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ فِي السَّماء بِمَعْنَىٰ الِاسْتِقْرَارِ ، لأنَّ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ وَالْمُجَسِّمَةِ أَنَّهُ عَلَىٰ الْعَرْشِ لَا يَقُولُ بِأَنَّهُ فِي السَّماء " . انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢٢٦-٢٢٧) .

وقال الإمام الشَّاطبي (٧٩٠هـ) : " وَالثَّالِثُ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النَّحل : ٥٠] ، **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾** [الملك : ١٦] ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا جَرَىٰ عَلَىٰ مُعْتَادِهِمْ فِي اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِإِلَهِيَّةِ

الْوَاحِدِ الْحَقِّ؛ فَجَاءَتِ الْآيَاتُ بِتَعْيِينِ الْفَوْقِ وَتَخْصِيصِهِ تَنْبِيهاً عَلَىٰ نَفْيِ مَا ادَّعَوْهُ فِي الْأَرْضِ؛ فَلَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ جِهَةٍ أَلْبَتَّةَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النَّحْلِ : ٢٦] ؛ فَتَأَمَّلْهُ ، وَاجْرِ عَلَىٰ هَذَا الْمَجْرَىٰ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ " . انظر : الموافقات (٤/ ١٥٥) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القُّمي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " واستدلال المشبِّهة بقوله : ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ظاهر . وأهل السُّنَّة يتأوَّلونه بوجوه منها : قول أبي مسلم : أنَّ العرب كانوا يقرُّون بوجود الإله ، لكنَّهم يزعمون أنَّه في السَّماء ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم :أَمِنْتُمْ مَنْ تزعمون أنَّه فِي السَّماء .ومنها قول جمع من المفسِّرين : أأمنتم من في السَّماء ملكوته أو سلطانه أو قهره ، لأنَّ العادة جارية بنزول البلاء من السَّماء . ومنها قول آخرين : أنَّ المراد جبرائيل يخسف بهم الأرض بأمر الله " . انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٣٢٨) .

وقال الإمام ابن عادل الدِّمشقي الحنبلي (المتوفى بعد ٨٨٠ هـ) : " قوله : ﴿مَّن فِي السَّمَآءِ﴾ ، مفعول ﴿أأَمِنتُمْ﴾ ، وفي الكلام حذف مضاف ، أي : أمنتم خالق السَّماوات . وقيل : " فِي " بمعنى " على " أي : على السَّماء ، كقوله : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه : ٧١] ، أي : على جذوع النَّخل .

وإنَّما احتاج القائل بهذين إلى ذلك ؛ لأنَّه اعتقد أنَّ " مَنْ " واقعة على الباري ، وهو الظَّاهر ، وثبت بالدَّليل القطعي أنَّه ليس بمتحيِّز لئلَّا يلزم التَّجسيم ، ولا حاجة إلى ذلك ؛ فإنَّ ﴿مَنْ﴾ هنا المراد بها : الملائكة سكان السَّماء ، وهم الذين يتولَّون الرَّحمة والنِّقمة .

وقيل : خوطبوا بذلك على اعتقادهم ؛ فإنَّ القوم كانوا مجسِّمة مشبِّهة ، والذي تقدَّم أحسن .

قال ابن الخطيب : هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتِّفاق المسلمين ؛ لأنَّ ذلك يقتضي إحاطة السَّماء به من جميع الجوانب ، فيكونُ أصغر منها ، والعرش أكبر من السَّماء بكثير ، فيكون حقيراً بالنسبة إلى العرش ، وهو باطل بالاتفاق ، ولأنَّه قال : ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأنعام : ١٢] ، فلو كان فيهما لكان مالكاً لنفسه ، فالمعنى : أمَّا من في السَّموات عذابه ، وأمَّا أنَّ ذلك ما كانت العرب تعتقد ، وأمَّا من في السَّماء سلطانه وملكه وقدرته ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام : ٣] ، فإنَّ الشَّيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين ، والغرض من ذكر السَّماء تفخيم سلطان الله ، وتعظيم قدرته ، والمراد الملك الموكَّل بالعذاب ، وهو جبريلُ يخسفها بإذن الله " . انظر : تفسير اللباب (١/ ٤٩٩٠) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿أأَمِنتُم﴾ ، أي : أيُّها المكذِّبون ، وخاطبهم بما كانوا يعتقدون ، مع أنَّه إذا حمل على الرُّتبة وأوَّل السَّماء بالعلو أو جعل كناية عن التَّصرُّف لأنَّ العادة جرت غالباً أنَّ من كان في شيء كان متصرِّفاً فيه صحَّ من غير تأويل ، فقال : ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ، أي : على زعمكم العالية قاهرة لكم ، أو المعنى : من الملائكة الغلاظ

الشِّداد الذي صرفهم في مصالح العباد ، أو المعنى : في غاية العلو رتبة ، أو أنَّ ذلك إشارة إلى أنَّ في السَّماء أعظم أمره ، لأنَّها ترفع إليها أعمال عباده ، وهي مهبط الوحي ، ومنزل القطر ، ومحلّ القُدس ، والسُّلطان ، والكبرياء ، وجهة العرش ، ومعدن المطهَّرين ، والمقرَّبين من الملائكة الذين أقامهم الله في تصريف أوامره ونواهيه ، والذي دعا إلى مثل هذا التَّأويل السَّائغ الماشي على لسان العرب قيام الدَّليل القطعي على أنَّه سبحانه ليس بمتحيِّز في جهة ، لأنَّه محيط فلا يُحاط به ، لأنَّ ذلك لا يكون إلَّا لمحتاج " . انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٧٧) .

وقال الإمام الإِيجي (٩٠٥هـ) : ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ، ملكوته وسلطانه " . انظر : تفسير الإيجي (٤/ ٣٤٣) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) : " ولما كان لم يكن بعد الاستعطاف إلَّا الإنذار ، قال تعالى مهِّدداً للمكذبين : ﴿أأمنتُم﴾ قرأ قنبل في الوصل بإبدال الهمزة بعد راء النّشور واواً ، وسهل الهمزة الثَّانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ، وحققها الباقون ، وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو وهشام والباقون بغير إدخال ، وقوله تعالى : ﴿مَنْ فِي السَّماءِ﴾ فيه وجوه :

أَحَدُهَا : من ملكوته في السَّماء لأنَّها مسكن ملائكته وثَّم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها ينزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه .

وَالثَّانِي : أنَّ ذلك على حذف مضاف ، أي : أأمنتم خالق من في السَّماء .

وَالثَّالِث : أنَّ في بمعنى على ، أي : على السَّماء ، كقوله : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوْعِ النَّخْل﴾ [طه : ٧١] ، أي : على جذوع النَّخل ، وإنَّما احتاج القائل بهذين الوجهين إلى ذلك لأنَّه اعتقد أنَّ من واقعة على الباري تعالى شأنه وهو الظَّاهر وثبت بالدَّليل القطعي أنَّه ليس بمتحيِّز لئلا يلزم التَّجسيم ، ولا حاجة إلى ذلك ، فإنَّ من هنا المراد بها الملائكة سكان السَّماء وهم الذين يتولَّون الرَّحمة والنِّقمة .

وَالرَّابِعُ : أنَّهم خوطبوا بذلك على اعتقادهم فإَّن القوم كانوا مجسِّمة مشبِّهة وأنَّه في السَّماء ، وأنَّ الرَّحمة والعذاب نازلان منه ، وكانوا يدعونه من جهتها ، فقيل لهم على حسب اعتقادهم : ﴿أأمنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ ، أي : من تزعمون أنَّه في السَّماء . قال الرَّازي : هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها بإجماع المسلمين ، لأنَّ ذلك يقتضي إحاطة السَّماء به من جميع الجوانب فيكون أصغر منها والعرش أكبر من السَّماء بكثير فيكون حقيراً بالنِّسبة إلى العرش ، وهو باطل بالاتِّفاق ، ولأنَّه تعالى قال : ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَات وَالأَرْض﴾ [الأنعام : ١٢] ، فلو كان فيها لكان مالكاً لنفسه ، فالمعنى : أمَّا من في السَّماء عذابه ، وأمَّا أن ذلك بحسب ما كانت العرب تعتقده ، وأمَّا من في السَّماء سلطانه وملكه وقدرته ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الله فِي السَّموات وَفِي الأَرْض﴾ [الأنعام : ٣] ، فإنَّ الشَّيء الواحد لا يكون دفعة في

مكانين ، والغرض من ذكر السَّماء تفخيم سلطان الله سبحانه وتعظيم قدرته ، والمراد الملك الموكَّل بالعذاب وهو جبريل عليه السَّلام" . انظر : السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ٣٣٤) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿**أأمنتُم مَنْ في السَّماءِ**﴾ ، أي : الملائكةَ الموكلينَ بتدبيرِ هذا العالمِ أو الله سبحانَهُ على تأويلِ من في السَّماء أمرُهُ وقضاؤهُ أو على زعمِ العربِ حيثُ كانُوا يزعمونَ أنَّه تعالَى في السَّماء ، أي : أأمنتُم منْ تزعمُونَ أنَّهُ في السَّماء وهُو متعالٍ عن المكانِ " . انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٩/ ٧) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿**أأمِنتُم مَنْ فِي السَّمَاء**﴾ من ملكوته وأسرار ذاته ، وعبَّر بها؛ لأنَّها منزل قضاياه ، وتدبيراته ووحيه ، ومسكن ملائكته وأوامره ونواهيه ، فكلُّ ما يظهر في الأرض إنَّما يقضي به في السَّماء ، وحينئذ يبرز ، فكأنَّه قال : أأمِنتم خالق السَّموات؟ وقال اللجائي : كلُّ شيء علا فهو سماء ، وسماء البيت : سقفه ، وليس المقصود في الآية سماء الدُّنيا؛ ولا غيرها من السَّبع الطِّباق ، وإنَّما المعنى : أأمِنتم مَن في العلو ، وهو علو الجلال ، وليس كون الله في سماء الحوادث من صفات الكمال ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً . هـ . وسيأتي في الإشارة تحقيقة عند أهل التَّوحيد . أي : أأمِنتم مَن في السَّماء أسرار ذاته " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ٩٨) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ**﴾ ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : يَعْنِي عُقُوبَةَ مَنْ فِي السَّماء ، وَقِيلَ ﴿**مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ : قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ وَعَرْشُهُ وَمَلَائِكَتُهُ ، وَقِيلَ : مَنْ فِي السَّماء مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ جِبْرِيلُ ، وَمَعْنَى ﴿**أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ**﴾ يَقْلَعهَا مُلْتَبِسَةً بِكُمْ كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ " . انظر : فتح القدير (٥/ ٣١٣) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : " ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ**﴾ فـ ﴿**أَنْ يَخْسِفَ**﴾ بدل اشتمال من " من " ، أي : أتأمنون يا أهل مكَّة من قد أقررتم بأنَّه في السَّماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء ، وهو متعال عن المكان أن يغور بكم الأرض بعد ما جعلها لكم ليِّنة " . انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (٢/ ٥٤٧) .

وقال الإمام ابن عابدين (١٢٥٢هـ) : " وقَوْله تَعَالَى : ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك : ١٦] فَلَا يَكْفُرُ بِإِطْلَاقِهِ عَلَيْهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَتْ حَقِيقَةُ الظَّرْفِيَّةِ غَيْرَ مُرَادَةٍ " . انظر : رد المحتار على الدر المختار (٣/ ٧١٩) .

وقال الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) : " ... ثَالِثاً : نقول لهؤلاء : إذا كنتم تأخذون بظواهر النُّصوص على حقيقتها ، فماذا تفعلون بمثل قوله تعالى : ﴿**أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**﴾ مع قوله : ﴿**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ**﴾

أتقولون إنَّه في السَّماء حقيقة أم في الأرض حقيقة أم فيهما معاً حقيقة ؟ وإذا كان في الأرض وحدها حقيقة فكيف تكون له جهة فوق ؟ وإذا كان فيهما معاً حقيقة فلماذا يقال له جهة فوق ولا يقال له جهة تحت ؟ ولماذا يُشار إليه فوق ولا يشار إليه تحت ؟ ثُمَّ ألا يعلمون أنَّ الجهات أمورٌ نسبيَّة ، فما هو فوق بالنِّسبة إلينا يكون تحتاً بالنِّسبة إلى غيرنا ، فأين يذهبون ! " . انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٩٤-٢٩٥) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : **﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماء أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ﴾** انْتِقَالٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ إِلَى التَّخْوِيفِ ، لِأَنَّهُ لَمَّا تَقَرَّرَ أَنَّهُ خَالِقُ الْأَرْضِ وَمُذَلِّلُهَا لِلنَّاسِ ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُمْ مَا رَعَوْا خَالِقَهَا حَقَّ رِعَايَتِهِ ، فَقَدِ اسْتَحَقُّوا غَضَبَهُ وَتَسْلِيطَ عِقَابِهِ بِأَنْ يُصَيِّرَ مَشْيَهُمْ فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ إِلَى تَجَلْجُلٍ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . فَالْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ وَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارٌ وَتَوْبِيخٌ وَتَحْذِيرٌ .

و **﴿مَنْ﴾** اسْمٌ مَوْصُولٌ ، وَصِلَتُهُ صَادِقٌ عَلَى مَوْجُودٍ ذِي إِدْرَاكٍ كَائِنٍ فِي السَّماء . وَظَاهِرُ وُقُوعِ هَذَا الْمَوْصُولِ عَقِبَ جُمَلِ **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً﴾** إِلَى قَوْلِهِ : **﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾** [المُلك : ١٥] أَنَّ الْإِتْيَانَ بِالْمَوْصُولِ مِنْ قَبِيلِ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ ، وَأَنَّ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ : أَأَمِنْتُمُوهُ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ، فَيَتَأَتَّى أَنَّ الْإِتْيَانَ بالموصول لما تأذن بِهِ الصِّلَةُ مِنْ عَظِيمِ تَصَرُّفِهِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الْقُوَى وَالْعَنَاصِرِ وَعَجَائِبِ الْكَائِنَاتِ ، فَيَصِيرُ قَوْلُهُ : **﴿مَنْ فِي السَّماء﴾** فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي يُعْطِي ظَاهِرُهُ مَعْنَى الْحُلُولِ فِي مَكَانٍ ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِاللهِ ، وَيَجِيءُ فِيهِ مَا فِي أَمْثَالِهِ مِنْ طَرِيقَتَيِ التَّفْوِيضِ لِلسَّلَفِ وَالتَّأْوِيلِ لِلْخَلَفِ رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ .

وَقَدْ أَوَّلُوهُ بِمَعْنَى : مَنْ فِي السَّماء عَذَابُهُ أَوْ قُدْرَتُهُ أَوْ سُلْطَانُهُ ، عَلَى نَحْوِ تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾** [الْفجْر : ٢٢] وَأَمْثَالِهِ ، وَخُصَّ ذَلِكَ بِالسَّماءِ لأنَّ إِثْبَاتَهُ للهِ تَعَالَى يَنْفِيهِ عَنْ أَصْنَامِهِمْ .

وَلَكِنَّ هَذَا الْمَوْصُولَ غَيْرُ مَكِينٍ فِي بَابِ الْمُتَشَابِهِ لِأَنَّهُ مُجْمَلٌ قَابِلٌ لِلتَّأْوِيلِ بِمَا يَحْتَمِلُهُ مَنْ أَن يكون مَا صدقه مَخْلُوقَاتٍ ذَاتَ إِدْرَاكٍ مَقَرُّهَا السَّماء وَهِيَ الْمَلَائِكَةُ ، فَيَصِحُّ أَنْ تَصْدُقَ مَنْ عَلَى طَوَائِفَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْأَمْرِ التَّكْوِينِيِّ فِي السَّماء وَالْأَرْضِ ، قَالَ تَعَالَى : **﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾** [الطَّلَاق : ١٢] ، وَيَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِاسْمِ الْمَوْصُولِ مَلَكٌ وَاحِدٌ مُعَيَّنٌ وَظِيفَتُهُ فِعْلُ هَذَا الْخَسْفِ ، فَقَدْ قِيلَ : إِنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالْعَذَابِ .

وَإِسْنَادُ فِعْلِ يَخْسِفَ إِلَى «الْمَلَائِكَةِ» أَوْ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ فَاعِلُ الْخَسْفِ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمَلَائِكَةِ **﴿قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ﴾** ... **﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾** ... **﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ﴾** [العنكبوت : ٣١- ٣٤] .

وَأتبعهُ بقوله تَعَالَى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَة وَالرُّوْحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤] ، والعروج والصُّعود شَيْء وَاحِد ، وَلَا دلَالَة فِي الْآيَة على أَنَّ العروج إِلَى سَمَاء وَلَا عرش وَلَا شَيْء من الْأَشْيَاء الَّتِي ادَّعَاهَا بِوَجْه من الْوُجُوه ، لِأَنَّ حَقِيقَته المستعملة فِي لُغَة الْعَرَب فِي الِانْتِقَال فِي حق الْأَجْسَام إِذْ لَا تعرف الْعَرَب إِلَّا ذَلِك ، فليت لَو أظهره واستراح من كِتْمَانه (٥٥) .

وَإِفْرَادُ ضَمِيرِ يَخْسِفَ مُرَاعَاةٌ لِلَفْظِ مَنْ إِذَا أُرِيدَ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مُرَاعَاةٌ لِلَّفْظِ وَالْمَعْنَىٰ إِذا كَانَ مَا صدق مَنْ مَلَكاً وَاحِداً . وَالْمَعْنَىٰ : تَوْبِيخُهُمْ عَلَىٰ سُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ رَبَّهُمْ كَأَنَّهُمْ آمِنُونَ مِنْ أَنْ يَأْمُرَ اللهُ مَلَائِكَتَهُ بِأَنْ يَخْسِفُوا الْأَرْضَ بِالْمُشْرِكِينَ " . انظر : التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣-٣٤) .

وقال الأستاذ وهبي سليمان غاوجي الألباني في مقدِّمته لكتاب : "إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التَّعطيل" : " ... ثَالِثاً نقُول لهَؤُلَاء : إِذا كُنْتُم تأخذون بظواهر النُّصُوص علىٰ حَقِيقَتهَا ، فَمَاذَا تَفْعَلُونَ بِمثل قَوْله تَعَالَى : **﴿أأمنتم من فِي السَّمَاءِ﴾** مَعَ قَوْله تَعَالَى : **﴿وَهُوَ الله فِي السَّمَاوَات وَفِي الأَرْض﴾** ؟ أتقولون إِنَّه فِي السَّماء حَقِيقَة أم فِي الأَرْض حَقِيقَة أم فيهمَا حَقِيقَة ، وَإِذا كَانَ فِي الأَرْض وَحدهَا حَقِيقَة ، فَكيف يكون لَهُ جِهَة فَوق ، وَإِذا كَانَ فيهمَا فلماذا يُقَال لَهُ جِهَة فَوق وَلَا يُقَال لَهُ جِهَة تَحت ؟ ولماذا يشار إِلَيْهِ فَوق وَلَا يشار إِلَيْهِ تَحت ، ثُمَّ أَلا يعلمُونَ أَنَّ الْجِهَات أُمُور نسبيَّة فَمَا هُوَ فَوق بِالنِّسْبَةِ لنا يكون تحتاًلا بِالنِّسْبَةِ لغيرنا فَأَيْنَ يذهبون " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص٦٧) .

(٥٥) ذهب أهل العلم في تفسير العروج الوارد في الآية الكريمة إلى ما يتناقض مع ما ذهب إليه مدَّعو السَّلفيَّة ... وهذه طائفة من أقوالهم :

قال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : **﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾** ، أي : إلى مكان الملك الذي أمره الله أن يعرج إليه ؛ كما قال إبراهيم : **﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾** ، أي : إلى أرض الشَّام . وكذلك : **﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾** ، أي : إلى المدينة ، ولم يكن الله بالمدينة " . انظر : تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون – آخر سورة السجدة (١/ ٤٦٥) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : **﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيهِ﴾** فيه ثلاثة أقاويل :

أَحَدُهَا : أنه جبريل يصعد إلى السَّماء بعد نزوله بالوحي ، قاله يحيى بن سلام .

الثَّانِي : أنَّه الملك الذي يدبِّر الأمر من السَّماء إلى الأرض ، قاله النقَّاش .

الثَّالِثُ : أنَّهَا أخبار أهل الأرض تصعد إليه مع حملتها من الملائكة ، قاله ابن شجرة " . انظر : تفسير الماوردي٤/ ٣٥٣-٣٥٤) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : " خاطب الخلقَ- علىٰ مقدار أفهامهم ويجوز لهم- عن الحقائق التي اعتادوا في تخاطبهم " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ١٣٩) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : ﴿ثمَّ يعرج إليه﴾ أَيْ : يرجع الأمر والتَّدبير إلىٰ السَّماء ويعود إليه بعد انقضاء الدُّنيا وفنائها " . انظر : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص٨٥٢) .

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني (٤٨٩هـ) : " وَقَوله : ﴿ثمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثُمَّ فِيهِ قَولَانِ :

أَحَدُهُمَا : ثُمَّ يعرج الْملك إِلَيْهِ بعد نُزُوله بِالْأَمر .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : ثُمَّ يعرج إِلَيْهِ ، أَي : يعرج الْأَمر إِلَيْهِ ، وَمعنىٰ عروج الْأَمر إِلَيْهِ : صيرورة الْأَمر كُله إِلَيْهِ ، وَسُقُوط أَمر الْخلق كلهم " . انظر : تفسير القرآن (٤/ ٢٤٣) .

وقال الإمام الكرماني (المتوفىٰ : نحو ٥٠٥هـ) : " قوله : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ . قوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلىٰ السَّماء ، ولفظ السَّماء مذكَّر ، وقيل : يعود إلىٰ الله سبحانه ، كقوله : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ، وفاعل يعرج في الظاهر الأمر ، وقيل : الملك " . انظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل (٢/ ٩٠٥) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي : يصير إليه ، ويثبت عنده ، ويكتب في صحف ملائكته كلّ وقت من أوقات هذه المدَّة : ما يرتفع من ذلك الأمر ويدخل تحت الوجود إلىٰ أن تبلغ المدَّة آخرها ، ثُمَّ يدبر أيضاً ليوم آخر ، وهلم جرا إلىٰ أن تقوم السَّاعة . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل عليه السَّلام من السَّماء إلىٰ الأرض . ثُمَّ يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو ردّه مع جبريل ، وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة ؛ لأنَّ المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصُّعود ؛ لأنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وهو يوم من أيَّامكم لسرعة جبريل ؛ لأنَّه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد ، وقيل : يدبر أمر الدُّنيا من السَّماء إلىٰ الأرض إلىٰ أن تقوم السَّاعة ، ثُمَّ يعرج إليه ذلك الأمر كلّه ؛ أي يصير إليه ليحكم فيه " . انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٣/ ٥١٥) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " ... اسْمُ جِنْسٍ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، والمَعْنىٰ: يُنَفِّذُ اللهُ تَعالىٰ قَضاءَهُ بِجَمِيعِ ما يَشاؤُهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَيْهِ خَبَرُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ مِن أيّامِ الدُنْيا مِقْدارُهُ - وإنَّ لَوْ يَسِيرُ فِيهِ السَيْرَ المَعْرُوفَ مِنَ البَشَرِ - أَلْفُ سَنَةٍ؛ لِأنَّ ما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ، هَذا أحَدُ الأقْوالِ، وهو قَوْلُ مُجاهِدٍ، وابْنِ عَبّاسٍ، وقَتادَةَ، وعِكْرِمَةَ، والضَحّاكِ. وقالَ مُجاهِدٌ أيْضًا: إنَّ المَعْنىٰ أنَّ الضَّمِيرَ في ﴿مِقْدارُهُ﴾ عائِدٌ عَلىٰ التَدْبِيرِ، أيْ: كَأنَ مِقْدارَ التَدْبِيرِ المُنْقَضِي فِي يَوْمِ القِيامَةِ أَلْفُ سَنَةٍ لَوْ دَبَّرَهُ البَشَرُ. وقالَ مُجاهِدٌ أيْضًا: المَعْنىٰ أنَّ اللهَ تَعالىٰ يُدَبِّرُ ويُلْقِي إلىٰ المَلائِكَةِ أُمُورَ أَلْفِ سَنَةٍ مِن عَدِّنا، وهو اليَوْمُ عِنْدَهُ، فَإذا فَرَغَتْ أَلْقىٰ إلَيْهِمْ مِثْلَها، فالمَعْنىٰ أنَّ الأُمُورَ تُنَفَّذُ عِنْدَهُ لِهَذِهِ المُدَّةِ، ثُمَّ تَصِيرُ إلَيْهِ آخِرًا؛

لِأَنَّ عاقِبَةَ الأُمُورِ إِلَيْهِ. وقِيلَ: المَعْنىٰ: يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماء إِلىٰ الأَرْضِ في مُدَّةِ الدُّنْيا، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ في يَوْمِ القِيامَةِ، ويَوْمُ القِيامَةِ مِقْدارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ مِن عَدِّنا، وهو عَلىٰ الكفَّار قَدْرُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لِهَوْلِهِ وشُنْعَتِهِ حَسْبَما في سُورَةِ ﴿سَأَلَ سائِلٌ﴾ [المعارج: ١] ، وسَنَذْكُرُ هُناكَ ما فِيهِ مِنَ التَّأْوِيلِ والأَقْوالِ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالىٰ.

وحَكىٰ الطَّبري في هَذِهِ الآيَةِ عن بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قالَ: "قَوْلُهُ: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ إِلىٰ آخَرِ الآيَةِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ قَبْلَ هَذا: ﴿فِي سِتَّةِ أَيّامٍ﴾ [السجدة: ٤] ، ومُتَّصِلٌ بِهِ، أَيْ أَنَّ تِلْكَ السِتَّةَ كُلُّ واحِدٍ مِنها مِن أَلْفِ سَنَةٍ".

قالَ القاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ: وهَذا قَوْلٌ ضَعِيفٌ مُكْرَهَةٌ أَلْفاظُ هَذِهِ الآيَةِ عَلَيْهِ، رادَّةٌ لَهُ الأَحادِيثُ الَّتِي تُثْبِتُ أَيّام خَلْقِ الله تَعالىٰ المَخْلُوقاتِ ، وحُكِيَ أَيْضًا عَنِ ابْنِ زَيْدٍ، عن بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّ الضَّمير في "مِقْدارُهُ" عائِدٌ عَلىٰ "العُرُوجِ"، والعُرُوجُ: الصُعُودُ، والمَعارِجُ: الأَدْراجُ الَّتِي يُصْعَدُ عَلَيْها.

وقالَتْ فِرْقَةٌ: مَعْنىٰ الآيَةِ: يُدَبِّرُ أَمْرَ الشَمْسِ في أَنَّها تَصْعَدُ وتَنْزِلُ في يَوْمٍ، وذَلِكَ قَدْرُ أَلْفِ سَنَةٍ.

قالَ القاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللهُ: وهَذا أَيْضًا ضَعِيفٌ، وظاهِرُ عَوْدِ الضَّمير في "إِلَيْهِ" عَلىٰ اسْمِ الله تَعالىٰ، كَما قالَ: ﴿ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] ، وكَما قالَ: ﴿مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] ، وهَذا كُلُّهُ بَرِيءٌ مِنَ التَحَيُّزِ. وقِيلَ: إِنَّ الضَّمير يَعُودُ عَلىٰ "السَماءِ" لِأَنَّها قَدْ تُذْكَرُ" . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٤١٣) .

وقال الإمام محمود بن أبىٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري (نحو ٥٥٠هـ) : " ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ : إلىٰ المكان الذي أمر أن يقوم فيه " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٦٦٣) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النَّيسابوريّ الغزنوي ، أبو القاسم ، الشَّهير بـ (بيان الحق) (المتوفىٰ : بعد ٥٥٣هـ) : " ثُمَّ يعرج إليه " ، أي : إلىٰ الموضع الذي فيه يثبت الأعمال والآجال . أو مكان الملك الذي أمره الله أن يقوم فيه . وقيل : إنَّه جبريل يصعد إلىٰ السَّماء بعد نزوله بالوحي " . انظر : باهر البرهان في معانىٰ مشكلات القرآن (٢/ ١١١٦) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : ﴿ثُمَّ يعرُج إليه﴾ ، أي : يعود إليه الأمر والتَّدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكّام وينفرد الله تعالىٰ بالأمر فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وذلك في يوم القيامة ، لأنَّ كل يوم من أيَّام الآخرة كألف سنة . وقال مجاهد : يقضي أمر ألف سنة في يوم واحد ، ثُمَّ يلقيه إلىٰ ملائكته فاذا مضت قضىٰ لألف سنة آخرىٰ ، ثُمَّ كذلك أبداً . وللمفسِّرين في المراد بالأمر ثلاثة أقوال : أحدها : أنَّه الوحي ، قاله السدِّي . والثَّاني : القضاء ، قاله مقاتل . والثَّالث : أمر الدُّنيا . و " يعرُج " بمعنىٰ يصعَد " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٤٣٨) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ مَعْنَاهُ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَهُ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ عَلَى عِبادِهِ وَتَعْرُجُ إِلَيْهِ أَعْمالُهُمُ الصَّالِحَةُ الصَّادِرَةُ عَلَى مُوافَقَةِ ذَلِكَ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ الْعَمَلَ أَثَرُ الْأَمْرِ . وَقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ فِيهِ وُجُوهٌ :

أَحَدُهَا : أَنَّ نُزُولَ الْأَمْرِ وَعُرُوجَ الْعَمَلِ فِي مَسَافَةِ أَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَهُوَ فِي يَوْمٍ فَإِنَّ بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ فَيَنْزِلُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَيَعْرُجُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، فَهُوَ مِقْدارُ أَلْفِ سَنَةٍ .

ثَانِيهَا : هُوَ أَنَّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى امْتِدَادِ نَفَاذِ الْأَمْرِ ، وَذَلِكَ لأَنَّ مَنْ نَفَذَ أَمْرُهُ غَايَةَ النَّفَاذِ فِي يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ وَانْقَطَعَ لَا يَكُونُ مِثْلَ مَنْ يَنْفُذُ أَمْرُهُ فِي سِنِينَ مُتَطَاوِلَةٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يَعْنِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِي زَمَانٍ يَوْمٌ مِنْهُ أَلْفُ سَنَةٍ ، فَكَمْ يَكُونُ شَهْرٌ مِنْهُ ، وَكَمْ تَكُونُ سَنَةٌ مِنْهُ ، وَكَمْ يَكُونُ دَهْرٌ مِنْهُ ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قوله ﴿مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] لأَنَّ تِلْكَ إِذَا كَانَتْ إِشَارَةً إِلَى دَوَامِ نَفَاذِ الْأَمْرِ ، فَسَوَاءٌ يُعَبَّرُ بِالْأَلْفِ أَوْ بِالْخَمْسِينَ أَلْفاً لَا يَتَفَاوَتُ إِلَّا أَنَّ الْمُبَالَغَةَ تَكُونُ فِي الخمسين أكثر وتبين فَائِدَتَهَا فِي مَوْضِعِهَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى : (وَفِي هَذِهِ لَطِيفَةٌ) وَهُوَ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَالَمَ الْأَجْسامِ وَالْخَلْقِ ، وَأَشَارَ إِلَى عَظَمَةِ الْمُلْكِ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَالَمَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَمْرِ بِقَوْلِهِ : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ والرُّوح من عالم الأمر كما قال تعالى : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإِسْرَاءِ : ٨٥] وَأَشَارَ إِلَى دَوَامِهِ بِلَفْظٍ يُوهِمُ الزَّمَانَ وَالْمُرَادُ دَوَامُ الْبَقَاءِ كَمَا يُقَالُ فِي الْعُرْفِ طَالَ زَمَانُ فُلَانٍ وَالزَّمَانُ لَا يَطُولُ ، وإِنَّمَا الْوَاقِعُ فِي الزَّمَانِ يَمْتَدُّ فَيُوجَدُ فِي أَزْمِنَةٍ كَثِيرَةٍ فَيَطُولُ ذَلِكَ فَيَأْخُذُ أَزْمِنَةً كَثِيرَةً ، فَأَشَارَ هُنَاكَ إِلَى عَظَمَةِ الْمُلْكِ بِالْمَكَانِ وَأَشَارَ إِلَى دوامه هاهنا بِالزَّمَانِ فَالْمَكَانُ مِنْ خَلْقِهِ وَمُلْكِهِ وَالزَّمَانُ بِحُكْمِهِ وَأَمْرِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فِي يَوْمٍ﴾ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ أَمْرُهُ فِي يَوْمٍ وَالْيَوْمُ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ فَيَكُونُ أَمْرُهُ فِي زَمَانٍ حَادِثٍ فَيَكُونُ حَادِثاً وَبَعْضُ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ اللهَ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى يَقُولُ بِأَنَّ أَمْرَهُ قَدِيمٌ حَتَّى الْحُرُوفِ ، وَكَلِمَةِ كُنْ فَكَيْفَ فُهِمَ مِنْ كَلِمَةِ عَلَى كَوْنُهُ فِي مَكَانٍ ، وَلَمْ يُفْهَمُ مِنْ كَلِمَةٍ فِي كَوْنُ أَمْرِهِ فِي زَمَانٍ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٥/ ١٤٠) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ قَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ: هُوَ جِبْرِيلُ يَصْعَدُ إِلَى السَّماءِ بَعْدَ نُزُولِهِ بِالْوَحْيِ. النَّقَّاشُ: هُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ. وَقِيلَ: أَنَّهَا أَخْبَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ إِلَيْهِ مَعَ حَمَلَتِهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَهُ ابْنُ شَجَرَةَ. ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ . وَقِيلَ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أَيْ : يَرْجِعُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَالتَّدْبِيرُ إِلَيْهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَعَلَى الْأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَالْكِنَايَةُ فِي ﴿يَعْرُجُ﴾ كِنَايَةٌ عَنِ الْمَلَكِ، وَلَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ مِنَ الْمَعْنَى، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحًا فِي ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ . قَوْلُهُ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] . وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِلَيْهِ﴾ يَعُودُ عَلَى السَّماءِ عَلَى لُغَةِ مَنْ يُذَكِّرُهَا،

أَوْ عَلَىٰ مَكَانِ الْمَلَكِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ، أَوْ عَلَىٰ اسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالْمُرَادُ إِلَىٰ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَقَرَّهُ فِيهِ، وَإِذَا رَجَعَتْ إِلَىٰ اللهِ فَقَدْ رَجَعَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ، أَيْ إِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ، فَإِنَّهُ إِلَيْهَا يَرْتَفِعُ مَا يُصْعَدُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ وَمِنْهَا يَنْزِلُ مَا يُهْبَطُ بِهِ إِلَيْهَا، ثَبَتَ مَعْنَىٰ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ. وَالْهَاءُ فِي ﴿مِقْدارُهُ﴾ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ التَّدْبِيرِ، وَالْمَعْنَىٰ: كَانَ مِقْدَارُ ذَلِكَ التَّدْبِيرِ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا، أَيْ يقضي أمر كل شي لِأَلْفِ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يُلْقِيهِ إِلَىٰ مَلَائِكَتِهِ، فَإِذَا مَضَتْ قَضَىٰ لِأَلْفِ سَنَةٍ أُخْرَىٰ، ثُمَّ كَذَلِكَ أَبَدًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقِيلَ: الْهَاءُ لِلْعُرُوجِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ يُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنْيَا إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ فَيَحْكُمُ فِيهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٦) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : " ثُمَّ يعرج إليه الأمر كلّه يوم القيامة . وقيل : يدبِّر المأمور به من الطَّاعات منزلاً من السَّماء إلىٰ الأرض بالوحي ، ثُمَّ لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلَّا في مدَّة متطاولة لقلَّة المخلصين والأعمال الخلص " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٤/ ٢٢٠) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْه﴾ ذلك الأمر كلّه ، أي : يصير إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، وهو يوم القيامة ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيَّام الدُّنيا ، ولا تمسّك للمشبهة بقوله : ﴿إِلَيْه﴾ في إثبات الجهة ، لأنَّ معناه : إلىٰ حيث يرضاه أو أمره ، كما لا تشبُّث لهم بقوله : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ ، إنِّي مهاجر إلىٰ ربِّي ، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ﴾ " . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٦) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عَبَّاس : المعنىٰ ينفذ الله ما قضاه من السَّماء إلىٰ الأرض ، ثُمَّ يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيَّام الدُّنيا مقداره لو سير فيه السَّير المعروف من البشر ألف سنة ، لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسمائة عام ، فالألف ما بين نزول الأمر إلىٰ الأرض وعروجه إلىٰ السَّماء ، وقيل : إنَّ الله يلقي إلىٰ الملائكة أمور ألف سنة من أعوام البشر وهو يوم من أيَّام الله ، فإذا فرغت ألقىٰ إليهم مثلها ، فالمعنىٰ أنَّ الأمور تنفذ عنده لهذه المدَّة ، ثُمَّ تصير إليه آخراً ، لأنَّ عاقبة الأمور إليه " .

انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ١٤١) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ : أَيْ يصعد ، خبر ذلك فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّام الدُّنيا ، مِقْدارُهُ : أَنْ لَوْ سِيرَ فِيهِ السَّيْرَ الْمَعْرُوفَ مِنَ الْبَشَرِ أَلْفَ سَنَةٍ ، لأنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ خَمْسمائَةِ عَامٍ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ أيضاً : الضَّمير فِي مِقْدَارُهُ عَائِدٌ عَلَىٰ التَّدْبِيرِ ، أَيْ كَانَ مِقْدَارُ التَّدْبِيرِ الْمُنْقَضِي فِي يَوْمٍ أَلْفَ سَنَةٍ لَوْ دَبَّرَهُ الْبَشَرُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ أيضاً : يُدَبِّرُ وَيُلْقِي إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أُمُورَ أَلْفِ سَنَةٍ مِنْ عِنْدِنَا ، وَهُوَ الْيَوْمُ عِنْدَهُ ، فَإِذَا فَرَغَتْ أَلْقَىٰ إِلَيْهِمْ مِثْلَهَا . فَالْمَعْنَىٰ : أَنَّ الْأُمُور تُنَفَّذُ عَنْهُ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ وَتَصِيرُ إِلَيْهِ آخِراً ، لأنَّ عَاقِبَةَ الْأُمُورِ إِلَيْهِ . وَقِيلَ : الْمَعْنَىٰ يُدَبِّرُهُ فِي الدُّنيا إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَيَنْزِلُ الْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ ، ثُمَّ تَعْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمِقْدَارُهُ مَا ذُكِرَ لِيَحْكُمَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حَيْثُ يَنْقَطِعُ

أَمْرُ الْأُمَرَاءِ ، أَوْ أَحْكَامُ الْحُكَّامِ ، وَيَنْفَرِدُ بِالْأَمْرِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ بِأَلْفِ سَنَةٍ ، وَهُوَ علىٰ الكفَّار قدر خمسين أَلْفِ سَنَةٍ حَسْبَمَا فِي سُورَةِ سَأَلَ سَائِلٌ ، وَتَأْتِي الْأَقْوَالُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ . وَقِيلَ : يَنْزِلُ الْوَحْيُ مَعَ جِبْرِيلَ مِنَ السَّماء إِلَىٰ الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَا كَانَ مِنْ قَبُولِ الْوَحْيِ أَوْ رَدِّهِ مَعَ جِبْرِيلَ ، وَذَلِكَ فِي وَقْتٍ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ أَلْفُ سَنَةٍ ، لأنَّ الْمَسَافَةَ مَسِيرَةُ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الْهُبُوطِ والصُّعود ، لأنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَهُوَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِكُمْ لِسُرْعَةِ جِبْرِيلَ ، لِأَنَّهُ يَقْطَعُ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ . قَالَ الزَّمخشري : وَبِدَايَةُ الْأَمْرِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، يُنْزِلُهُ مُدَبَّراً مِنَ السَّماء إِلَىٰ الْأَرْضِ ، ثُمَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ ، وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ بِهِ خَالِصاً كَمَا يُرِيدُهُ وَيَرْتَضِيهِ ، إِلَّا فِي مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ ، لِقِلَّةِ الْأَعْمَالِ للهِ وَالْخُلُوصِ مِنْ عِبَادِهِ ، وَقِلَّةِ الْأَعْمَالِ الصَّاعِدَةِ ، لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِالصُّعُودِ إِلَّا الْخَالِصُ ، وَدَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَلَىٰ أَثَرِهِ : قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ . انْتَهَىٰ .

وَقِيلَ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الشَّمْسِ فِي طُلُوعِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ وَغُرُوبِهَا فِي الْمَغْرِبِ ، وَمَدَارِهَا فِي الْعَالَمِ مِنَ السَّماء إِلَىٰ الْأَرْضِ ، لِأَنَّهَا عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ تَطْلُعُ إِلَىٰ أَنْ تَغْرُبَ ، وَتَرْجِعَ إِلَىٰ مَوْضِعِهَا مِنَ الطُّلُوعِ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ فِي الْمَسَافَةِ أَلْفُ سَنَةٍ . والضَّمير فِي إِلَيْهِ عَائِدٌ إِلَىٰ السَّماء ، لِأَنَّهَا تُذَكَّرُ ، وَقِيلَ : إِلَىٰ اللهِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَابِطٍ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنيا أَرْبَعَةٌ : جِبْرِيلُ لِلرِّيَاحِ وَالْجُنُودُ ، وَمِيكَائِيلُ لِلْقَطْرِ وَالْمَاءِ ، وَمَلَكُ الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل لِنُزُولِ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ .

وَقِيلَ : الْعَرْشُ مَوْضِعُ التَّدْبِيرِ ، وَمَا دُونَهُ مَوْضِعُ التَّفْصِيلِ ، وَمَا دون السَّموات مَوْضِعُ التَّعْرِيفِ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : الْأَمْرُ : الْوَحْيُ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : الْقَضَاءُ . وَقَالَ غَيْرُهُمَا : أَمْرُ الدُّنيا " . انظر : البحر المحيط في التفسير (٨/ ٤٣٠-٤٣١) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ : ﴿**يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّماء إِلَى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ أَيْ : يَتَنَزَّلُ أَمْرُهُ مِنْ أَعْلَىٰ السَّموات إِلَىٰ أَقْصَىٰ تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنزلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾ [الطَّلَاقِ : ١٢] .

وَتُرْفَعُ الْأَعْمَالُ إِلَىٰ دِيوَانِهَا فَوْقَ سَمَاءِ الدُّنيا ، وَمَسَافَةُ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَسُمْكُ السَّماء خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ ، والضَّحَّاك : النُّزول مِنَ الْمَلَكِ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَصُعُودُهُ فِي مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، وَلَكِنَّهُ يَقْطَعُهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾ . انظر : تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥٩)

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : " قوله : ﴿**ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**﴾ لما بين الخلق بين الأمر كما قال تعالىٰ : ﴿**أَلَا لَهُ الخلق والأمر**﴾ [الأعراف : ٥٤] يحكم الأمر ، وينزل القضاء ، والقدر من السَّماء إلىٰ الأرض . وقيل : ينزل الوحي مع جبريل عليه السَّلام بالأمر .

قوله : ﴿يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السَّماء إِلَى الأرض﴾ العاملة على بنائه للفاعل . وابن أبي عبلة على بنائه للمفعول . والأصل يعْرُجُ بِهِ ، ثُمَّ حذف الجار فارتفع الضَّمير واستتر . وهو شاذ يصلح لتوجيه مثلها ، والمعنى : أنَّ أمره ينزل من السَّماء على عباده ويعرج إليه أعمالهم الصَّالحة الصَّادرة على موافقة ذلك الأمر " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٥/ ٤٧٤) .

وقال الإمام الإِيجي (٩٠٥هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ذلك الأمر كلّه ، أي : يصير إلى الله لأنَّ يحكم فيه " . انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٣/ ٣٢٧) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يثبت في علمِه موجوداً بالفعل ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي في بُرهةٍ من الزَّمان متطاولةٍ ، والمرادُ بيانُ طول امتدادِ ما بين تدبيرِ الحوادث وحدوثِها من الزَّمان ، وقيل : يدبر أمرَ الحوادثِ اليوميَّةِ بإثباتها في اللَّوحِ المحفوظِ ، فينزِلَ بها الملائكةُ ثُمَّ تعرجُ إليه في زمانٍ هو كألف سنة ممَّا تعدُّون ، فإنَّ ما بين السَّماء والأرض مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ ، وقيل : يقضي قضاءَ ألفِ سنةٍ فينزل به المَلَكُ ثُمَّ يعرج بعد الألفِ لألفٍ أُخرَ ، وقيل : يدبِّر أمرَ الدُّنيا جميعاً إلى قيامِ السَّاعةِ ثُمَّ يعرج إليه الأمرُ كلُّه عند قيامها ، وقيل : يدبِّرُ المأمور به من الطَّاعاتِ منزلاً من السَّماء إلى الارض بالوحي ثُمَّ لا يعرجُ إليه خالصاً إلَّا في مدَّة متطاولة لقلَّة المخلصين والأعمال الخلَّص ، وأنت خبيرٌ بأنَّ قلَّةَ الأعمال الخالصةِ لا تقتضي بطءَ عروجِها إلى السَّماء بل قِلَّتَه " . انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٧/ ٨٠) .

وقال الإمام إسماعيل حقّي بن مصطفى الإستانبولي (١١٢٧هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ العروج ذهاب في صعود من عرج بفتح الرَّاء يعرج بضمِّها صعد ، أي : يصعد ذلك الأمر اليه تعالى ، ويثبت في علمه موجوداً بالفعل ، ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي : في برهة من الزَّمان متطاولة ، والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزَّمان " . انظر : روح البيان (٧/ ١٠٨) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿ثُمَّ يعرج إليه﴾ ذلك الأمر ، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة ، أو خمسين ألف سنة . فقد قيل : إنَّ مواقف يوم القيامة خمسون موقفاً ، كلُّ موقف ألف سنة . وقد حكى هذا ابن عطيَّة ، فقال : يُدبِّر الأمر في مدَّة الدُّنيا ، ﴿ثُمَّ يعرج إليه﴾ يوم القيامة . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ : مقداره ألف سنة من عَدِّنا . وهو على الكفَّار قدر خمسين ألف سنة لِهوله ، حسبما في سورة المعارج . هـ .

قلت : والتَّحقيق ، في الفرق بين الآيتين ، أنَّ الحقَّ تعالى ، حيث لم يختص بمكان دون مكان ، وكانت الأمكنة في حقِّه تعالى كلُّها واحدة ، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته ، كان العروج إنَّما هو إليه على كلِّ حال ، بعدت المسافة أو قربت . لكن لمَّا علَّقَ العروج بتدبير الأمور وتنفيذها ، قرَّب المسافة ليعلم العبد أنَّ القضاء نافذ فيه بسرعة

. ولَمَّا عَلَّقَ عروج الملائكة والرُّوح إلىٰ مطلق الذَّات المقدَّسة بَعَّدَ المسافة زيادة في علو شأنه ورفعة قدره " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٨٧) .

وقال الإمام المظهري (١٢٢٥هـ) : ﴿ثُمَّ يعرج اليه﴾ في يوم كان مقداره الف سنة مِمَّا تعدُّون ، إذ معناه يحكم الله تعالىٰ بالأمر وينزل به جبرئيل من السَّماء الىٰ الأرض ثُمَّ يعرج اليه جبرئيل في يوم من أَيَّام الدُّنيا ، وكان قدر سيره ألف سنة خمسمائة سنة نزوله وخمسمائة عروجه ، لأنَّ ما بين السَّماء والأرض خمسمائة عام ، يعني لو سار تلك المسافة واحد من بني آدم لم يقطعه إلَّا في ألف سنة ، لكنَّ الملائكة يقطعون في يوم واحد ، بل في أدنىٰ زمان " . انظر : التفسير المظهري (١٠/ ٦٢) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أَيْ : ثُمَّ يَرْجِعُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَيَعُودُ ذَلِكَ التَّدْبِيرُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي يَوْمٍ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ أَيَّام الدُّنيا ، وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ مَسَافَةِ النُّزول مِنَ السَّماء ، وَالطُّلُوعِ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا قَدَّمْنَا . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّذِي مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِنْ أَيَّام الدُّنيا ، وَذَلِكَ حِينَ يَنْقَطِعُ أَمْرُ الدُّنيا ، وَيَمُوتُ مَنْ فِيهَا . وَقِيلَ : هِيَ أَخْبَارُ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ إِلَيْهِ مَعَ مَنْ يُرْسِلُهُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَالْمَعْنَىٰ : أَنَّهُ يُثْبِتُ ذَلِكَ عِنْدَهُ ، وَيَكْتُبُ فِي صُحُفِ مَلَائِكَتِهِ مَا عَمِلَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ إِلَىٰ أَنْ تَبْلُغَ مُدَّةُ الدُّنيا آخِرَهَا .

وَقِيلَ : مَعْنَىٰ ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ : يَثْبُتُ فِي عِلْمِهِ مَوْجُوداً بِالْفِعْلِ فِي بُرْهَةٍ مِنَ الزَّمَانِ هِيَ مِقْدَارُ أَلْفِ سَنَةٍ ، وَالْمُرَادُ طُولُ امْتِدَادِ مَا بَيْنَ تَدْبِيرِ الْحَوَادِثِ ، وَحُدُوثِهَا مِنَ الزَّمَانِ ، وَقِيلَ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الْحَوَادِثِ الْيَوْمِيَّةِ بِإِثْبَاتِهَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَتَنْزِلُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ ، ثُمَّ تَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي زَمَانٍ هُوَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِنْ أَيَّام الدُّنيا . وَقِيلَ : يَقْضِي قَضَاءَ أَلْفِ سَنَةٍ فَتَنْزِلُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ ، ثُمَّ تَعْرُجُ بَعْدَ الْأَلْفِ لِأَلْفٍ آخَرَ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي هِيَ طَاعَاتٌ يُدَبِّرُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ ، وينزل بها ملائكته ، ثُمَّ لا يعرج إليه مِنْهَا إِلَّا الْخَالِصُ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ لِقِلَّةِ الْمُخَلِّصِينَ مِنْ عِبَادِهِ . وَقِيلَ : الضَّمير فِي ﴿يَعْرُجُ﴾ يَعُودُ إِلَىٰ الْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ لِأَنَّهُ مَفْهُومٌ مِنَ السِّيَاقِ ، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحاً فِي قَوْلِهِ : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ ، والضَّمير فِي ﴿إِلَيْهِ﴾ يَرْجِعُ إِلَىٰ السَّماء عَلَىٰ لُغَةِ مَنْ يُذَكِّرُهَا ، أَوْ إِلَىٰ مَكَانِ الْمَلِكِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَقَرَّهُ اللهُ فِيهِ . وَقِيلَ الْمَعْنَىٰ : يُدَبِّرُ أَمْرَ الشَّمْسِ فِي طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا ، وَرُجُوعِهَا إِلَىٰ مَوْضِعِهَا مِنَ الطُّلُوعِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ فِي الْمَسَافَةِ أَلْفَ سَنَةٍ . وَقِيلَ الْمَعْنَىٰ : أَنَّ الْمَلِكَ يَعْرُجُ إِلَىٰ اللهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ لَوْ سَارَهُ غَيْرُ الْمَلِكِ أَلْفَ سَنَةٍ ، لأَنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ مَسَافَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ، فَمَسَافَةُ النُّزول مِنَ السَّماء إِلَىٰ الْأَرْضِ ، وَالرُّجُوعِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَىٰ السَّماء أَلْفُ عَامٍ ، وَقَدْ رَجَّحَ هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْهُمُ ابْنُ جَرِيرٍ . وَقِيلَ : مَسَافَةُ النُّزول أَلْفُ سَنَةٍ ، وَمَسَافَةُ الطُّلُوعِ أَلْفُ

سَنَةٍ ، رُوِيَ ذَلِكَ عَنِ الضَّحَّاك . وَهَذَا الْيَوْمُ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ زَمَانٍ يَتَقَدَّرُ بِأَلْفِ سَنَةٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ مُسَمَّى الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ مُدَّةُ النَّهَارِ بَيْنَ لَيْلَتَيْنِ ، وَالْعَرَبُ قَدْ تُعَبِّرُ عن المدة باليوم " . انظر : فتح القدير (٤/ ٢٨٦) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : " والعروج إليه تعالىٰ : الصَّيرورة إليه سبحانه ، لا ليثبت في صحف الملائكة بل ليحكم جلَّ وعلا فيه .

و **﴿فِي يَوْمٍ﴾** متعلِّق بالعروج ولا تنازع ، والمراد بيوم مقداره كذا يوم القيامة ، ولا ينافي هذا قوله تعالىٰ : **﴿كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** [المعارج : ٤] بناء علىٰ أحد الوجهين فيه لتفاوت الاستطالة علىٰ حسب الشدَّة أو لأنَّ ثُمَّ خمسين موطنًا كلّ موطن ألف سنة ، وقيل : المعنىٰ ينزل الوحي مع جبريل عليه السَّلام من السَّماء إلىٰ الأرض ثُمَّ يرجع إليه تعالىٰ ما كان من قبوله أو ردّه مع جبريل عليه السَّلام في يوم مقدار مسافة السَّير فيه ألف سنة ، وهو ما بين السَّماء والأرض هبوطاً وصعوداً ، فالأمر عليه مراد به الوحي ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿يُلْقِي الرُّوح مِنْ أَمْرِهِ﴾** [غافر : ١٥] ، والعروج إليه تعالىٰ عبارة عن خبر القبول والرَّد مع عروج جبريل عليه السَّلام ، والتَّدبير والعروج في اليوم ، لكن علىٰ التَّوسُّع والتَّوزيع ، فالفعلان متنازعان في الظَّرف ، ولكن لا اختلاف في الصِّلة ، ولا تنافي الآية علىٰ هذا قوله تعالىٰ شأنه : **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** بناء علىٰ الوجه الآخر فيه ، وستعرفهما إن شاء الله تعالىٰ ، لأنَّ العروج فيه إلىٰ العرش وفيها الىٰ السَّماء الدُّنيا ، وكلاهما عروج إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ التَّجوُّز .

وقيل : المراد بالأمر المأمور به من الطَّاعات والأعمال الصَّالحات ، والمعنىٰ ينزل سبحانه ذلك مدبّراً من السَّماء إلىٰ الأرض ، ثُمَّ لا يعمل به ولا يصعد إليه تعالىٰ ذلك المأمور به خالصاً يرتضيه إلَّا في مدَّة متطاولة لقلَّة الخلَّص من العباد ، وعليه **﴿يُدَبِّرُ﴾** مضمَّن معنىٰ الإنزال و **﴿مِنَ﴾** و **﴿إِلَى﴾** متعلِّقان به ، ومعنىٰ العروج : الصُّعود ، كما في قوله تعالىٰ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب﴾** [فاطر : ١٠] ، والغرض من الألف استطالة المدَّة ، والمعنىٰ استقلال عبادة الخلَّص واستطالة مدَّة ما بين التَّدبير والوقوع ، وثُمَّ للاستبعاد ، واستدلَّ لهذا المعنىٰ بقوله تعالىٰ إثر ذلك : **﴿قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ﴾** [الأعراف : ١٠ ، المؤمنون : ٧٨ ، السجدة : ٩] لأنَّ الكلام بعضه مربوط بالبعض ، وقلة الشكر مع وجود تلك الإنعامات دالَّة علىٰ الاستقلال المذكور .

وقيل : المعنىٰ يدبِّر أمور الشَّمس في طلوعها من المشرق وغروبها في المغرب ، ومدارها في العالم من السَّماء إلىٰ الأرض ، وزمان طلوعها إلىٰ أن تغرب وترجع إلىٰ موضعها من الطُّلوع مقداره في المسافة ألف سنة ، وهي تقطع ذلك في يوم وليلة . هذا ما قالوه في الآية الكريمة في بيان المراد منها ، ولا يخفىٰ علىٰ ذي لبٍّ تكلُّف أكثر هذه الأقوال ، ومخالفته للظَّاهر جدًّاً ، وهي بين يديك فاختر لنفسك ما يحلو ، ويظهر لي أنَّ المراد بالسَّماء جهة العلو مثلها في قوله تعالىٰ : **﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماء﴾** [الملك : ١٦] وبعروج الأمر إليه تعالىٰ صعود خبره ، كما سمعت عن الجماعة و **﴿فِي**

يَوْمٍ﴾ متعلق بالعروج بلا تنازع ، وأقول : إنَّ الآية من المتشابه ، وأعتقد أنَّ الله تعالىٰ يدبِّر أمور الدُّنيا وشؤونها ويريدها متقنة وهو سبحانه مستو علىٰ عرشه ، وذلك هو التَّدبير من جهة العلو ، ثمَّ يصعد خبر ذلك مع الملك إليه عزَّ وجلَّ إظهاراً لمزيد عظمته جلَّت عظمته وعظيم سلطنته عظمت سلطنته ، إلىٰ حكم هو جلَّ وعلا أعلم بها ، وكلُّ ذلك بمعنىٰ لائق به تعالىٰ ، مجامع للتَّنزيه ، مباين للتَّشبيه حسبما يقوله السَّلف في أمثاله، وقول بعضهم: العرش موضع التَّدبير وما دون موضع التَّفصيل وما دون السَّماوات موضع التَّصريف فيه رائحة ما ممَّا ذكرنا، وأمَّا تقدير يوم العروج هنا بألف سنة وفي آية أخرىٰ بخمسين ألف سنة ، فقد كثر الكلام في توجيهه ، وقد تقدَّم لك بعض منه" . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١١/ ١١٩-١٢٠) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ تدبير الأمر : النَّظر في دابره وعاقبته ليجيء محمود المغبَّة ، وتدبير الأمر من السَّماء إلىٰ الأرض ، ثُمَّ عروجه إليه ، تمثيل لإظهار عظمته ، كما يصدر الملك أوامره ، ثُمَّ يتلقَّىٰ من أعوانه ما يدلُّ علىٰ تنفيذها " . انظر : تفسير المراغي (٢١/ ١٠٥) .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ، والتَّعبير يرسم مجال التَّدبير منظوراً واسعاً شاملاً : ﴿مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ليلقي علىٰ الحس البشري الظِّلال التي يطيقها ويملك تصوّرها ويخشع لها . وإلَّا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السَّماء إلىٰ الأرض .

ولكن الحسَّ البشري حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح ، ومتابعة التَّدبير شاملاً لهذه الرُّقعة الهائلة التي لا يعرف حتىٰ الأرقام التي تحدّد مداها! ثُمَّ يرتفع كلّ تدبير وكلُّ تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه . يرتفع إليه سبحانه في علاه في اليوم الذي قدره لعرض مآلات الأعمال والأقوال ، والأشياء والأحياء ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ . وليس شيء من هذا كلّه متروكاً سدىٰ ولا مخلوقاً عبثاً ، إنَّما يدبّر بأمر الله إلىٰ أجل مرسوم ... يرتفع . فكلُّ شيء وكّل أمر وكلُّ تدبير وكلُّ مآل هو دون مقام الله ذي الجلال ، فهو يرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء " .

انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٠٧-٢٨٠٨) .

وقال الإمام محمَّد الطاهر بن محمَّد بن محمَّد الطاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " ... وَالْعُرُوجُ : الصُّعود . وَضَمِيرُ ﴿يَعْرُجُ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْأَمْرِ ، وَتَعْدِيَتُهُ بِحَرْفِ الِانْتِهَاءِ مُفِيدَةٌ أَنَّ تِلْكَ الْأُمُورَ الْمُدَبَّرَةَ تَصْعَدُ إِلَى اللهَّ تَعَالَى ، فَالْعُرُوجُ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلْمَصِيرِ إِلَى تَصَرُّفِ الْخَالِقِ دُونَ شَائِبَةِ تَأْثِيرٍ مِنْ غَيْرِهِ وَلَوْ فِي الصُّورَةِ كَمَا فِي الدُّنيا مِنْ تَأْثِيرِ الْأَسْبَابِ . وَلَمَّا كَانَ الْجَلَالُ يُشَبَّهُ بِالرِّفْعَةِ فِي مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ شُبِّهَ الْمَصِيرُ إِلَى ذِي الْجَلَالِ بِانْتِقَالِ الذَّوَاتِ إِلَى الْمَكَانِ

الْمُرْتَفِع وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي اللُّغَةِ بِالْعُرُوجِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر : ١٠] ، أَيْ : يَرْفَعُهُ إِلَيْهِ .

وثُمَّ لِلتَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ لأنَّ مَرْجِعَ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ تَصَرُّفِهِ بَعْدَ صُدُورِهَا مِنْ لَدُنْهُ أَعْظَمُ وَأَعْجَبُ .

وَقَدْ أَفَادَ التَّرْكِيبُ أَنَّ تَدْبِيرَ الْأُمُورِ مِنَ السَّماء إِلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ وَقْتِ خَلْقِهِمَا وَخَلْقِ مَا بَيْنَهُمَا يَسْتَقِرُّ عَلَىٰ مَا دُبِّرَ عَلَيْهِ كُلٌّ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ حَالُ تَدْبِيرِهِ مِنِ اسْتِقْرَارِهِ ، وَيَزُولُ بَعْضُهُ وَيَبْقَىٰ بَعْضُهُ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، ثُمَّ يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلَّهُ فَيَصِيرُ إِلَىٰ اللهَّ مَصِيراً مُنَاسِباً لِحَقَائِقِهِ فَالذَّوَاتُ تَصِيرُ مَصِيرَ الذَّوَاتِ وَالْأَعْرَاضُ وَالْأَعْمَالُ تَصِيرُ مَصِيرَ أَمْثَالِهَا ، أَيْ : يَصِيرُ وَصْفُهَا وَوَصْفُ أَصْحَابِهَا إِلَىٰ عِلْمِ اللهِ وَتَقْدِيرِ الْجَزَاءِ ، فَذَلِكَ الْمَصِيرُ هُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْعُرُوجِ إِلَىٰ اللهَّ فَيَكُونُ الْحِسَابُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ يَوْمَئِذٍ .

وَالْيَوْمُ مِنْ قَوْلِهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي جَاءَ ذِكْرُهُ فِي آيَةِ سُورَةِ الْحَجِّ بِقَوْلِهِ : **﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾** ، وَمَعْنَىٰ تَقْدِيرِهِ بِأَلْفِ سَنَةٍ : أَنَّهُ تَحْصُلُ فِيهِ مِنْ تَصَرُّفَاتِ اللهَّ فِي كَائِنَاتِ السَّماء وَالْأَرْضِ مَا لَوْ كَانَ مِنْ عَمَلِ النَّاس لَكَانَ حُصُولُ مِثْلِهِ فِي أَلْفِ سَنَةٍ ، فَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ ذَلِكَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفَاتِ ، أَوْ بِقَطْعِ الْمَسَافَاتِ ، وَقَدْ فُرِضَتْ فِي ذَلِكَ عِدَّةُ احْتِمَالَاتٍ . وَالْمَقْصُودُ : التَّنْبِيهُ عَلَىٰ عِظَمِ الْقُدْرَةِ وَسَعَةِ مَلَكُوتِ اللهَّ وَتَدْبِيرِهِ .

وَيَظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ يَوْمُ السَّاعَةِ ، أَيْ سَاعَةُ اضْمِحْلَالِ الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ ، وَلَيْسَ الْيَوْمُ الْمَذْكُورُ هُنَا هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَذْكُورَ فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاس . وَلَمْ يُعَيِّنْ وَاحِداً مِنْهُمَا ، وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِ الْقُرَّاءِ تَعْيِينُ أَحَدِ الْيَوْمَيْنِ وَلَكِنْ حُصُولُ الْعِبْرَةِ بِأَهْوَالِهِمَا .

وَقَوْلُهُ فِي **﴿يَوْمٍ﴾** يَتَنَازَعُهُ كُلٌّ مِنْ فِعْلَيْ **﴿يُدَبِّرُ﴾** و**﴿يَعْرُجُ﴾** أَيْ يَحْصُلُ الْأَمْرَانِ فِي يَوْمٍ " . انظر : التحرير والتنوير (٢١/ ٢١٢-٢١٣) .

وقال الإمام محمَّد متولي الشَّعراوي (١٤١٨هـ) : **﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ...﴾** [السجدة : ٥] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثُمَّ يستقبل منها ؛ لأنَّ المدبِّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسمِّيها في عالمنا عمليَّة المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلِّف مجموعة من موظَّفيه بالعمل ، ثُمَّ لا يتركهم إنَّما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هي التي تعرج بالنَّتائج إليه سبحانه **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾** [السجدة : ٥] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوِك ؛ لذلك الذي يعمله البشر في ألف سنة تعمله الملائكة في يوم " . انظر : تفسير الشعراوي (١١/ ١١٧٩٧) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " وقوله : ﴿يَعْرُجُ﴾ من العروج بمعنىٰ الصُّعود والارتفاع والصَّيرورة إليه تعالىٰ .

والضَّمير في ﴿إليه﴾ يعود إلىٰ الأمر الذي دبره وأحكمه سبحانه .

أي : أنَّ الله تعالىٰ هو الذي يحكم شئون الدُّنيا السَّماويَّة والأرضيَّة إلىٰ أن تقوم السَّاعة ، وهو الذي يجعلها علىٰ تلك الصُّورة البديعة المتقنة ، ثُمَّ تصعد إليه تعالىٰ تلك الأمور والشُّئون المدبّرة ، في يوم ، عظيم هو يوم القيامة ﴿كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من أيَّام الدُّنيا .

قال الآلوسي ما ملخَّصه : وقوله : ﴿مِنَ السَّماء إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلِّقان بقوله :

يُدَبِّرُ ومن ابتدائيَّة ، وإلىٰ انتهائيَّة ، أي : يريده تعالىٰ علىٰ وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، منزلاً له من السَّماء إلىٰ الأرض ، وإنزاله من السَّماء باعتبار أسبابه ، فإنَّ أسبابه سماويَّة من الملائكة وغيرهم .

وقوله : ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي : ذلك الأمر بعد تدبيره ، وهذا العروج مجاز عن ثبوته في علمه ... أو عن كتابته في صحف الملائكة بأمره تعالىٰ " . انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١١/ ١٤٥) .

وَمِنَ الآيَاتِ التِيْ وَرَدَ فِيْهَا العُرُوْج : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] .

قال الإمام أبو عبد الله محمَّد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (٤٢٠هـ) : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، أي : تصعد الملائكة وجبريل عليهم السَّلام إلىٰ حيث يعطي الله تعالىٰ فيه الثَّواب أهل طاعته ، ويحلّ فيه العقاب بأهل معصيته ، وإنَّ ذلك في يوم هو يوم القيامة ، ويفعل الله تعالىٰ فيه من محاسبة عباده ، وتبليغ كلٍّ منهم حقَّه ما لا يكون مثله في الدُّنيا إلَّا في خمسين ألف سنة " . انظر : درة التنزيل وغرة التأويل (ص١٠٦٣) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " بَاب قَوْلِ اللهَّ تَعَالَىٰ : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] وَقَوْلِهِ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ... غرضه في هذا الباب رد شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله : ﴿ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٣ ، ٤] ، وقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ، وما تضمَّنته أحاديث الباب من هذا المعنىٰ ، وقد تقدَّم الكلام في الرَّد عليهم وهو أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت علىٰ أنَّ البارئ تعالىٰ ليس بجسم ولا محتاجاً إلىٰ مكان يحلُّه ويستقرُّ فيه ؛ لأنَّه تعالىٰ قد كان ولا مكان وهو علىٰ ما كان ، ثُمَّ خلق المكان فمحال كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ، ثُمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له هذا مستحيل ، فلا حجَّة لهم في قوله : ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ لأنَّه إنَّما أضاف المعارج إليه إضافة فعل ، وقد كان لا فعل له موجود ، وقد قال ابن عبَّاس في

قوله : ﴿ذِى الْمَعَارِجِ﴾ هو بمعنىٰ : العلو والرفعة ، وكذلك لا شبهة لهم في قوله تعالىٰ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] ، لأنَّ صعود الكلم إلىٰ الله تعالىٰ لا يقتضىٰ كونه في جهة العلو ، لأنَّ البارئ تعالىٰ لا تحويه جهة؛ إذ كان موجوداً ولا جهة ، وإذا صحَّ ذلك وجب صرف هذا عن ظاهره وإجراؤه علىٰ المجاز؛ لبطلان إجرائه علىٰ الحقيقة ، فوجب أن يكون تأويل قوله : ﴿ذِى الْمَعَارِجِ﴾ رفعته واعتلاؤه علىٰ خليقته وتنزيهه عن الكون في جهة؛ لأنَّ في ذلك ما يوجب كونه جسماً تعالىٰ الله عن ذلك ، وأمَّا وصف الكلام بالصعود إليه فمجاز أيضاً واتِّساع؛ لأنَّ الكلم عَرَض والعَرَض لا يصحُّ أن يفْعَل؛ لأنَّ من شرط الفاعل كونه حيَّاً قادراً عالماً مريداً ، فوجب صرف الصُّعود المضاف إلىٰ الكلم إلىٰ الملائكة الصَّاعدين به " . انظر : شرح صحيح البخاري ، ابن بطال (١٠/ ٤٥٢)

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : " وقوله : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] أي : إلىٰ الموضع الذي لا يجري لأحد سواه فيه حكم ، فجعل عروجهم إلىٰ ذلك الموضع عروجاً إليه ، كقول إبراهيم : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات : ٩٩] أي : إلىٰ حيث أمرني ربي بالذَّهاب إليه ، وقوله : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] قال عكرمة ، وقتادة : يعني يوم القيامة .

أَخْبَرَنَا محمَّد بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُطَّوِعِيُّ ، أنا أَبُو عَمْرٍو محمَّد بْنُ أَحْمَدَ الْحِيرِيُّ ، أنا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْمُثَنَّىٰ ، نا زُهَيْرٌ ، نا الْحَسَنُ بْنُ مُوسَىٰ ، نا ابْنُ لَهِيعَةَ ، نا دَرَّاجٌ ، أَنَّ أَبَا الْهَيْثَمِ حَدَّثَهُ ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ، قَالَ : قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ ، يَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مَا أَطْوَلَ هَذَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «وَالَّذِي نَفْسُ محمَّد بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ حَتَّىٰ يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»

ورَوىٰ ابن أبي مليكة ، عن ابن عَبَّاس ، أنَّه قال : في هذه الآية ، وفي قوله : ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ [الحج : ٤٧] : يومان ذكرهما الله في كتابه ، أكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم .

وقال قوم : معنىٰ الآية : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج : ٤] لو ولي الحساب غير الله .

هذا معنىٰ قول عطاء ، عن ابن عَبَّاس ، ومقاتل .

قال عطاء : ويفرغ الله في مقدار نصف يوم من أيَّام الدُّنيا " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٣٥١) .

وقال الإمام أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزَّمخشري جار الله (٥٣٨هـ) : ﴿ذِي الْمعارِجِ﴾ ذي المصاعد جمع معرج ، ثُمَّ وصف المصاعد وبعد مداها في العلو والارتفاع فقال : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ إلىٰ عرشه وحيث تهبط منه أوامره ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ كمقدار مدة خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ممَّا يعدّ النَّاس " . انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٦٠٩) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : احْتَجَّ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ اللهَّ فِي مَكَانٍ ، أَمَّا فِي الْعَرْشِ أَوْ فَوْقَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الأَوَّل : أَنَّ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللهَّ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأَنَّهُ ذُو الْمَعَارِجِ وَهُوَ إِنَّمَا يَكُونُ كَذَلِكَ لَوْ كَانَ فِي جِهَةِ فَوْقٍ .

والثَّاني : قَوْلُهُ : **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾** فَبَيَّنَ أَنَّ عُرُوجَ الْمَلَائِكَةِ وَصُعُودَهُمْ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي كَوْنَهُ تَعَالَى فِي جِهَةِ فَوْقٍ وَالْجَوَابُ : لَمَّا دَلَّتِ الدَّلَائِلُ عَلَى امْتِنَاعِ كَوْنِهِ فِي الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّأْوِيلِ ، فَأَمَّا وَصْفُ اللهَّ بِأَنَّهُ ذُو الْمَعَارِجِ فَقَدْ ذَكَرْنَا الْوُجُوهَ فِيهِ ، وأَمَّا حَرْفُ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ : **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾** فَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْمَكَانَ بَلِ الْمُرَادُ انْتِهَاءُ الْأُمُورِ إِلَى مُرَادِهِ كَقَوْلِهِ : **﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾** [هُودٍ : ١٢٣] الْمُرَادُ الِانْتِهَاءُ إِلَى مَوْضِعِ الْعِزِّ وَالْكَرَامَةِ كَقَوْلِهِ : **﴿إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾** [الصَّافَّاتِ : ٩٩] وَيَكُونُ هَذَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ دَارَ الثَّواب أَعْلَى الْأَمْكِنَةِ وَأَرْفَعُهَا "

. انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٣٠/ ٦٣٨) .

وقال الإمام أَحْمَدُ بنُ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ القرطبيُّ (٦٥٦هـ) : " ... ولذلك جاء في الرِّواية الأخرىٰ : " يرفع إليه عمل الليل بالنَّهار وعمل النَّهار بالليل " ، فجعل الباء مكان " قبل " . وهذا الحديث كقوله : "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنَّهار " . والهاء في **﴿إِلَيْه﴾** عائد إلىٰ الله تعالىٰ لكن علىٰ طريقة حذف المضاف ، والمراد به المحلّ الذي ينتهي إليه الملائكة بأعمال العباد ، ولعلّه سدرة المنتهىٰ كما تقدَّم في حديث الإسراء . وهذا كما تقول : رفع المال إلىٰ الملك ؛ أي إلىٰ خزانته . وعلىٰ هذا يحمل قوله تعالىٰ : **﴿إليه يصعد الكلم الطيِّب﴾** ، وقوله : **﴿تعرج الملائكة والرُّوح إليه﴾** ؛ أي : إلىٰ مقاماتهم في حضرته ، وإنَّما احتجنا إلىٰ إبداء هذا التَّأويل ؛ لئلَّا يتخيل الجاهل أنَّه مختصٌّ بجهة فوق فيلزمه التَّجسيم ، ويكفيك ممَّا يدلُّ علىٰ نفي الجهة في حقه قوله تعالىٰ : **﴿وهو معكم أينما كنتم ﴾** ، وما في معناه " .

انظر : المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٢٨) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " قوله : **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾** والضَّمير في **﴿إِلَيْهِ﴾** يعود علىٰ السَّماء علىٰ لغة من يذكرها ، أو علىٰ مكان الملك الذي يرجع إليه ، أو علىٰ اسم الله تعالىٰ ؛ والمراد إلىٰ الموضع الذي أقره فيه ، وإذا رجعت إلىٰ الله فقد رجعت إلىٰ السَّماء ، أي إلىٰ سدرة المنتهىٰ ؛ فإنه إليها يرتفع ما يصعد به من الأرض ومنها ينزل ما يهبط به إليها ؛ ثبت معنىٰ ذلك في صحيح مسلم . والهاء في **﴿مِقْدَارُهُ﴾** راجعة إلىٰ التَّدبير ؛ والمعنىٰ : كان مقدار ذلك التَّدبير ألف سنة من سني الدُّنيا ؛ أي يقضي أمر كلّ شيء لألف سنة في يوم واحد ، ثُمَّ يلقيه إلىٰ ملائكته ، فإذا مضت قضىٰ لألف سنة أخرىٰ ، ثُمَّ كذلك أبداً ؛ قاله مجاهد . وقيل : الهاء للعروج . وقيل : المعنىٰ أنّه يدبِّر أمر الدُّنيا إلىٰ أن تقوم السَّاعة ، ثُمَّ يعرج إليه ذلك الأمر فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة . وقيل : المعنىٰ يدبِّر أمر الشَّمس في طلوعها وغروبها ورجوعها إلىٰ موضعها من الطُّلوع ، في يوم كان مقداره في المسافة ألف سنة . وقال ابن

عَبَّاس : المعنىٰ كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة ؛ لأنَّ النُّزول خمسمائة والصُّعود خمسمائة . وروي ذلك عن جماعة من المفسِّرين ، وهو اختيار الطَّبري ؛ ذكره المهدوّي . وهو معنىٰ القول الأَوَّل ، أي : أنَّ جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة في يوم من أيَّامكم ؛ ذكره الزَّمخشري . وذكر الماوردي عن ابن عَبَّاس والضَّحَّاك أنَّ الملك يصعد في يوم مسيرة ألف سنة . وعن قتادة أنَّ الملك ينزل ويصعد في يوم مقداره ألف سنة ؛ فيكون مقدار نزوله خمسمائة سنة ، ومقدار صعوده خمسمائة علىٰ قول قتادة والسّدِّي . وعلىٰ قول ابن عَبَّاس والضَّحَّاك : النُّزول ألف سنة ، والصُّعود ألف سنة . ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي ممَّا تحسبون من أيَّام الدُّنيا . وهذا اليوم عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة من سني العالم ، وليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين ؛ لأنَّ ذلك ليس عند الله ، والعرب قد تعّبر عن مدَّة العصر باليوم ؛ كما قال الشَّاعر :

يومان يوم مقامات وأندية ويوم سير إلىٰ الأعداء تأويب

وليس يريد يومين مخصوصين ، وإنَّما أراد أنَّ زمانهم ينقسم شطرين ، فعبَّر عن كلِّ واحد من الشَّطرين بيوم . وقرأ ابن أبي عبلة : (يَعْرُجُ) علىٰ البناء للمفعول . وقرئ : (يَعُدُّونَ) بالياء . فأمَّا قوله تعالىٰ : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فمشكل مع هذه الآية . وقد سأل عبدالله بن فيروز الدَّيلمّي عبدالله بن عَبَّاس عن هذه الآية وعن قوله : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقال : أيَّام سمَّاها سبحانه ، وما أدري ما هي ؟ فأكره أن أقول فيها ما لا أعلم . ثُمَّ سئل عنها سعيد بن المسيّب فقال : لا أدري . فأخبرته بقول ابن عَبَّاس فقال ابن المسيّب للسَّائل : هذا ابن عَبَّاس اتقىٰ أن يقول فيها وهو أعلم منِّي . ثُمَّ تكلم العلماء في ذلك فقيل : إنَّ آية ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ هو إشارة إلىٰ يوم القيامة ، بخلاف هذه الآية . والمعنىٰ : أنَّ الله تعالىٰ جعله في صعوبته علىٰ الكفَّار كخمسين ألف سنة ؛ قاله ابن عَبَّاس . والعرب تصف أيَّام المكروه بالطُّول وأيَّام السُّرور بالقصر . قال :

وَيَومٍ كَظِلِّ الرُمحِ قَصَّرَ طولَهُ دَمُ الزِقِّ عَنّا وَاِصطِفاقُ المَزاهِرِ

وقيل : إنَّ يوم القيامة فيه أيَّام ؛ فمنه ما مقداره ألف سنة ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة . وقيل : أوقات القيامة مختلفة ، فيعّذب الكافر بجنس من العذاب ألف سنة ، ثُمَّ ينتقل إلىٰ جنس آخر مّدته خمسون ألف سنة . وقيل : مواقف القيامة خمسون موقفاً ؛ كلّ موقف ألف سنة . فمعنىٰ : ﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي : مقدار وقت ، أو موقف من يوم القيامة . وقال النحَّاس : اليوم في اللغة بمعنىٰ الوقت ؛ فالمعنىٰ : تعرج الملائكة والرُّوح إليه في وقت كان مقداره ألف سنة ، وفي وقت آخر كان مقداره خمسين ألف سنة . وعن وهب بن منبِّه : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال : ما بين أسفل الأرض إلىٰ العرش . وذكر الثَّعلبّي عن مجاهد وقتادة والضَّحَّاك في قوله تعالىٰ : ﴿﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أراد من الأرض إلىٰ سدرة المنتهىٰ التي فيها

جبريل . يقول تعالىٰ : يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيَّام الدُّنيا . وقوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ يعني إلىٰ المكان الذي أمرهم الله تعالىٰ أن يعرجوا إليه . وهذا كقول إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أراد أرض الشَّام . وقال تعالىٰ : ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ﴾ أي : إلىٰ المدينة " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٦-٨٨) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئناف لبيان ارتفاع تلك المعارج وبعد مداها علىٰ التَّمثيل والتَّخيُّل والمعنىٰ أنَّها بحيث لو قدر قطعها في زمان لكان في زمان يقدر بخمسين ألف سنة من سني الدُّنيا ، وقيل : معناه تعرج الملائكة والرُّوح إلىٰ عرشه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خمسين ألف سنة﴾ من حيث إنَّهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسان فيها لو فرض ، لا أنَّ ما بين أسفل العالم وأعلىٰ شرفات العرش مسيرة خمسين ألف سنة ، لأنَّ ما بين مركز الأرض ومقعر السَّماء الدُّنيا علىٰ ما قيل مسيرة خمسمائة عام ، وثخن كلّ واحدة من السَّموات السَّبع والكرسي والعرش كذلك ، وحيث قال ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يريد زمان عروجهم من الأرض إلىٰ محدب السَّماء الدُّنيا ، وقيل : ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلّق بـ واقِعٍ أو سَأَلَ إذا جعل من السَّيلان ، والمراد به يوم القيامة واستطالته إمَّا لشدَّته علىٰ الكفَّار أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات ، أو لأنَّه علىٰ الحقيقة كذلك ، والرُّوح جبريل عليه السَّلام ، وإفراده لفضله أو خلق أعظم من الملائكة " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٢٤٤)

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : " تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .
﴿تَعْرُجُ﴾ تصعد وبالياء علي ﴿الْمَلائِكَةُ والرُّوح﴾ ، أي : جبريل عليه السَّلام ، خصَّه بالذِّكر بعد العموم لفضله وشرفه أو خلق هم حفظة علىٰ الملائكة كما أنَّ الملائكة حفظة علينا أو أرواح المؤمنين عند الموت ﴿إِلَيْهِ﴾ إلىٰ عرشه ومهبط أمره ﴿في يوم﴾ من صلة تعرج ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدُّنيا لو صعد فيه غير الملك أو من صلة واقع أيقع في يوم طويل مقداره خمسين ألف سنة من سنينكم ، وهو يوم القيامة ، فإمَّا أن يكون استطالة له لشدَّته علىٰ الكفَّار أو لأنَّه علىٰ الحقيقة كذلك ، فقد قيل فيه خمسون موطناً كلّ موطن ألف سنة ، وما قدر ذلك علىٰ المؤمن إلَّا كما بين الظُّهر والعصر " . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٥٣٦) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي الشَّافعي (٧٣٣هـ) : " قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ ، وَقَوله : ﴿ثمَّ يَعْرجُ إِلَيْهِ﴾ الْآيَة . قُلْنَا لَيْسَ المُرَاد بالغاية هُنَا غَايَة الْمَكَان بل غَايَة انْتِهَاء الْأُمُور إِلَيْهِ ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ : ﴿أَلا إِلَى الله تصير الْأُمُور﴾ وَإِلَيْهِ يرجع الْأَمر كُله وَقَول إِبْرَاهِيم الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلام ﴿إِنِّي ذَاهِب إِلَى رَبِّي سيهدين﴾ ، ﴿وأنيبوا إِلَى

ربكُم وَأَسْلمُوا لَهُ﴾ ، ﴿تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وَهُوَ كثير ، فَالْمُرَاد الِانْتِهَاء إِلَى مَا أعده لِعِبَادِهِ وَالْمَلَائِكَة من الثَّواب والكرامة والمنزلة" . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٥-١٠٦) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، عَنْ مَعْمَر ، عَنْ قَتَادَةَ : ﴿تَعْرُجُ﴾ تَصْعَدُ .

وَأَمَّا الرُّوح فَقَالَ أَبُو صَالِحٍ : هُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ . يُشْبِهُونَ النَّاس ، وَلَيْسُوا أُنَاساً .

قُلْتُ : وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ جِبْرِيل ، وَيَكُونَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ . وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اسْمَ جِنْسٍ لِأَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ ، فَإِنَّهَا إِذَا قُبِضَتْ يُصعد بِهَا إِلَى السَّماء ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ الْبَرَاءِ . وَفِي الحديث الذي رواه الإمام أَحْمَدُ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، مِنْ حَدِيثِ الْمِنْهَال ، عَنْ زَاذَانَ ، عَنِ الْبَرَاءِ مَرْفُوعاً -الْحَدِيثُ بِطُولِهِ فِي قَبْضِ الرُّوح الطَّيِّبَةِ-قَالَ فِيهِ : "فَلَا يَزَالُ يُصْعَدُ بِهَا مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّماء السَّابِعَةِ" . وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهِ ، فَقَدْ تُكلم فِي بَعْضِ رُوَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ مَشْهُورٌ ، وَلَهُ شَاهِدٌ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَة فِيمَا تقدَّم مِنْ رِوَايَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ والتِّرمذي وَابْنُ مَاجَهْ ، مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ ، عَنْ محمَّد بْنِ عَمْرِو بْنِ عَطَاءٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ ، عَنْهُ وَهَذَا إِسْنَادٌ رِجَالُهُ عَلَى شَرْطِ الْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ بَسَطْنَا لَفْظَهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إِبْرَاهِيمَ : ٢٧] .

وَقَوْلُهُ : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ :

أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مَسَافَةُ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ، وَهُوَ قَرَارُ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ، وَذَلِكَ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، هَذَا ارْتِفَاعُ الْعَرْشِ عَنِ الْمَرْكَزِ الَّذِي فِي وَسَطِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ . وَذَلِكَ اتِّسَاعُ الْعَرْشِ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ مَسِيرَةُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَأَنَّهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي كِتَابِ صِفَةِ الْعَرْشِ . وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ :

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سَلَمَةَ ، حدَّثنا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ، أَخْبَرَنَا حَكَّام ، عَنْ عُمَر بْنِ مَعْرُوفٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاس قَوْلُهُ : ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ : مُنْتَهَى أَمْرِهِ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرَضِينَ إِلَى مُنْتَهَى أَمْرِهِ من فوق السَّموات مِقْدَارُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَيَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ . يَعْنِي بِذَلِكَ : تنزل الْأَمْرِ مِنَ السَّماء إِلَى الْأَرْضِ ، وَمِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّماء فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَذَلِكَ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ؛ لأنَّ مَا بَيْنَ السَّماء وَالْأَرْضِ مِقْدَارُ مَسِيرَةِ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ .

وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ ، عَنْ حَكَّام بْنِ سَلْمٍ ، عَنْ عُمَر بْنِ مَعْرُوفٍ ، عَنْ لَيْثٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلُهُ ، لَمْ يَذْكُرِ ابْنَ عَبَّاس .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حدَّثنا أَبِي ، حدَّثنا عَلِيُّ بْنُ محمَّد الطَّنافِسِيّ ، حدَّثنا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ ، حدَّثنا نُوحٌ الْمُؤَدَّبُ ، عَنْ عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ مُجَاهِدٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاس قَالَ : غِلَظُ كُلِّ أَرْضٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ كُلِّ أَرْضٍ إِلَىٰ أَرْضٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، فَذَلِكَ سَبْعَةُ آلَافِ عام . وغلظ كل سماء خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، وَبَيْنَ السَّماء إِلَىٰ السَّماء خَمْسُمِائَةِ عَامٍ ، فَذَلِكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ ، وَبَيْنَ السَّماء السَّابِعَةِ وَبَيْنَ الْعَرْشِ مَسِيرَةُ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ عَامٍ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾**

الْقَوْلُ الثَّاني : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ مُدَّةُ بَقَاءِ الدُّنيا مُنْذُ خَلَقَ اللهُ هَذَا الْعَالَمَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ ، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ :

حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَة ، أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** قَالَ : الدُّنيا عُمْرُهَا خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ . وَذَلِكَ عُمْرُهَا يَوْمَ سَمَّاهَا اللهُ تَعَالَىٰ يَوْمَ ، ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ﴾ قَالَ : الْيَوْمُ : الدُّنيا .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَخْبَرَنَا مَعْمَر ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجِيح ، عَنْ مُجَاهِدٍ -وَعَنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانٍ ، عَنْ عِكْرِمَةَ : **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** قَالَ : الدُّنيا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا مِقْدَارُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، لَا يَدْرِي أحدٌ كَمْ مَضَىٰ ، وَلَا كَمْ بَقِيَ إِلَّا اللهُ ، عزَّ وجلَّ .

الْقَوْلُ الثَّالِثُ : أَنَّهُ الْيَوْمُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الدُّنيا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٍ جِدّاً . قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ :

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ محمَّد بْنِ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ ، حدَّثنا بُهلول بْنُ الْمُورِقِ حدَّثنا مُوسَىٰ بْنُ عُبَيْدَةَ ، أَخْبَرَنِي محمَّد بْنُ كَعْبٍ : **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** قَالَ : هُوَ يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ الدُّنيا وَالْآخِرَةِ .

الْقَوْلُ الرَّابِعُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ :

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ الْوَاسِطِيُّ ، حدَّثنا عَبْدُ الرَّحْمَن بْنُ مَهْدِيٍّ ، عَنْ إِسْرَائِيلُ ، عَنْ سِمَاك ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاس : **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** قَالَ : يَوْمُ الْقِيَامَةِ . هَذَا وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ . وَرَوَاهُ الثَّوْرِيُّ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ ، عَنْ عِكْرِمَةَ **﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** يَوْمُ الْقِيَامَةِ . وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاك ، وَابْنُ زَيْدٍ .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاس فِي قَوْلِهِ :**﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** قَالَ : فَهَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ " . انظر : تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢١-٢٢٢) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : **﴿تَعْرُجُ الملائكة والرُّوح إِلَيْهِ﴾** ، أي : تصعد في المعارج التي جعلها الله لهم .

قال ابن عَبَّاس : الرُّوح : جبريلُ عليه السَّلام ، لقوله تعالىٰ : **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوح الأمين﴾** [الشعراء : ١٩٣] .

وقيل : هو ملكٌ آخر ، عظيمُ الخلقةِ .

وقال أبو صالح : إنَّه خلق من خلق الله ، كهيئة النَّاس وليس بالنَّاس .

وقال قبيصة بن ذؤيب : إنَّه روح الميِّت حين تُقبض .

قوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ ، أي : إلىٰ المكان الذي هو محلّهم ، وهو في السَّماء؛ لأنه محلُّ برِّه وكرامته وقيل : هو كقول إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي﴾ [الصافات : ٩٩] ، أي : إلىٰ الموضع الذي أمرني به .

وقيل : ﴿إليه﴾ إلىٰ عرشه .

قال شهاب الدِّين : الضَّمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ ، الظَّاهر عوده علىٰ الله تعالىٰ .

وقيل : يعود علىٰ المكان لدلالة الحال والسِّياق عليه . قوله : ﴿في يوم﴾ ، فيه وجهان :

أظهرهما : تعلُّقه بـ ﴿تَعْرُجُ﴾ .

والثَّاني : أنَّه يتعلَّق بـ ﴿دَافِع﴾ .

وعلىٰ هذا فالجملة من قوله : ﴿تعرجُ الملائكةُ﴾ معترضة ، و ﴿كَانَ مِقْدَاره﴾ صفةٌ لـ ﴿يوْم﴾ .

قال ابن الخطيب : الأكثرون علىٰ أنَّ قوله : «فِي يَوْمٍ» صلة قوله : ﴿تَعْرُجُ﴾ ، أي : يحصل العروج في مثل هذا اليوم .

وقال مقاتل : بل هذا من صلة قوله : ﴿بعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ، وعلىٰ هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير ، والتَّقدير : سأل سائل بعذاب واقع، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

وعلىٰ التَّقدير الأَوَّل ، فذلك اليوم ، أمَّا أن يكون في الآخرة ، أو في الدُّنيا . وعلىٰ تقدير أن يكون في الآخرة ، فذلك الطُّول أمَّا أن يكون واقعاً ، وأمَّا أن يكون مقدَّراً ، فإن كان معنىٰ الآية : إنَّ ذلك العُروجَ يقع في يوم من أيَّام الآخرة طوله خمسون ألف سنةٍ ، وهو يوم القيامة ، وهذا قول الحسن ، قال : وليس يعني أنَّ مقدار طوله هذا فقط؛ إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ، ولنفيت الجنَّة والنَّار عند انتهاء تلك الغاية ، وهذا غير جائز ، بل المراد : أنَّ موقفهم للحساب حين يفصل بين النَّاس خمسون ألف سنة من سني الدُّنيا بعد ذلك يستقر أهل النَّار في النَّار ، نعوذ بالله منها .

فصل في الاحتجاج لهذا القول :

قال القرطبي : واستدلَّ النحَّاس علىٰ صحَّة هذا القول بما روي عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : «مَا مِنْ رجُلٍ لَمْ يُؤدِّ زكَاةَ مالِهِ إلاَّ جعلَ لَهُ شُجَاعاً مِنْ نَارٍ تُكْوَىٰ بِهِ جبْهتُهُ وظَهْرُهُ وجَنْبَاهُ يَوْمَ القِيامَةِ فِي يَوْمٍ كَانَ مقْدارهُ خَمْسينَ أَلْفَ سَنةٍ حتَّىٰ يقْضِيَ الله بَيْنَ النَّاسِ» وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه يوم القيامةِ .

وقال إبراهيم التَّيمي : ما قدر ذلك اليوم علىٰ المؤمن إلَّا ما قدر ما بين ظهر يومنا وعصره .

وروي هذا المعنىٰ مرفوعاً عن النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال : «يحاسبكم الله تعالىٰ بمقدار ما بين الصَّلاتين»، ولذلك سمَّىٰ نفسه ﴿سَرِيْعُ الحِسَاب﴾ [المائدة : ٤٠] ، و ﴿أَسْرَعُ الحَاسِبِيْن﴾ [الأنعام : ٦٢] ، وإنَّما خاطبهم علىٰ قدر فهم الخلائقِ ، وإلَّا فلا يشغله شأن عن شأن ، وكما يرزقهم في ساعة يحاسبهم في لحظة ، قال تعالىٰ : ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان : ٢٨] .

والمعنىٰ : لو ولي محاسبة العباد في ذلك اليوم غير الله ، لم يفرغ منه في خمسين ألف سنة .

قال البغوي : هذا معنىٰ قول عطاء عن ابن عَبَّاس ومقاتل .

قال عطاء : ويفرغ الله منه في مقدار نصف يوم من أيَّام الدُّنيا .

واعلم أنَّ هذا الطُّول ، إنَّما يكون في حقِّ الكافرِ ، وأمَّا في حقِّ المؤمن فلا ، لما روىٰ أبو سعيد الخدري أنَّه قال : «قِيْلَ لرسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ما أطولَ هذا اليوم؟ فقال :" والذي نَفْسي بِيَدِهِ إنَّهُ ليَخِفُّ علىٰ المؤمنِ حتَّىٰ إنَّهُ يكُونُ أخفَّ من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلِّيهَا في الدُّنيا " .

وقال بعضهم : إنَّ ذلك ، وإن طال ، فيكون سبباً لمزيد السُّرورِ والرَّاحة لأهل الجنَّة ، ويكون سبباً لمزيد الحزنِ والغمِّ لأهل النَّار .

وأجيب : بأنَّ الآخرة دارُ جزاءٍ ، فلا بدَّ وأن يحصل للمثابين ثوابهم ، ودارُ الثَّواب هي الجنَّة لا الموقف ، فإذاً لا بدَّ من تخصيص طول الموقف بالكفَّار .

وقيل : هذه المدَّة علىٰ سبيل التَّقدير لا علىٰ التَّحقيق ، أي : تعرج الملائكةُ في ساعة قليلة ، هذه المدَّة علىٰ سبيل التَّقدير علىٰ التَّحقيق ، أي : تعرج الملائكُة ساعة قليلة ، لو أراد أهل الدُّنيا العروج إليها كان مقدار مدَّتهم خمسين ألف سنةٍ .

وعن مجاهد والحسن وعكرمة : هي مدَّة إقامة عمر الدُّنيا من أوَّل ما خلقت إلىٰ آخر ما بقي خمسون ألف سنةٍ ، وهو قول أبي مسلمٍ " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٩/ ٣٥٤-٣٥٦) .

وقال الإمام ابن الملِّقن (٨٠٤هـ) : " ... وقال : (وغرضه في هذا الباب ردُّ شبهة الجهميَّة المجسِّمة في تعلُّقها بظاهر قوله تعالىٰ : ﴿ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ ، وبقوله : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ ، وما تضَّمنته أحاديث الباب ، من هذا المعنىٰ ، وقد سلف الكلام في الَّردِّ عليهم ، وهو أنَّ الدَّلائل الواضحة قد قامت علىٰ أنَّ الباري تعالىٰ ليس بجسم ، ولا محتاجاً إلىٰ مكان يحلُّه ويستقرّ فيه؛ لأنَّه تعالىٰ قد كان ولا مكان وهو علىٰ ما كان ، ثُمَّ خلق المكان ، فمحالٌ كونه غنيَّاً عن المكان قبل خلقه إيَّاه ثُمَّ يحتاج إليه بعد خلقه له -هذا مستحيل- ، ولا حجَّة لهم في قوله : ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ، لأنَّه إنَّما أضاف المعارج إليه إضافة فعل ، وقد كان ولا فعل له موجود ، وقد قال ابن

عَبَّاس رضي الله عنهما في قوله : ﴿**ذِي الْمَعَارِجِ**﴾ ، هو بمعنىٰ : العلو والرِّفعة" . انظر : التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١/ ٢٢٦) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " قَالَ الْبَيْهَقِيُّ صُعُودُ الْكَلَامِ الطيِّب وَالصَّدَقَةِ الطَّيِّبَةِ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَبُولِ ، وَعُرُوجُ الْمَلَائِكَةِ هُوَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ فِي السَّماء ، وأمَّا مَا وَقَعَ مِنَ التَّعْبِيرِ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : " إِلَى اللهَّ " ، فَهُوَ عَلَىٰ مَا تقدَّم عَنِ السَّلف فِي التَّفْوِيضِ وَعَنِ الْأَئِمَّةِ بَعْدَهُمْ فِي التَّأْوِيلِ . وَقَالَ بن بَطَّالٍ : غَرَضُ الْبُخَارِيِّ فِي هَذَا الْبَابِ الرَّدُّ عَلَىٰ الْجَهْمِيَّةِ الْمُجَسِّمَةِ فِي تَعَلُّقِهَا بِهَذِهِ الظَّوَاهِرِ ، وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ اللهَّ لَيْسَ بِجِسْمٍ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَكَانٍ يَسْتَقِرُّ فِيهِ ، فَقَدْ كَانَ وَلَا مَكَانَ ، وإنَّما أَضَافَ الْمَعَارِجَ إِلَيْهِ إِضَافَةَ تَشْرِيفٍ ، وَمَعْنَىٰ الِارْتِفَاعِ إِلَيْهِ اعْتِلَاؤُهُ مَعَ تَنْزِيهِهِ عَنِ الْمَكَانِ ، انْتَهَىٰ . وَخَلْطُهُ الْمُجَسِّمَةَ بِالْجَهْمِيَّةِ مِنْ أَعْجَبِ مَا يُسْمَعُ " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٤١٦) .

وقال الإمام بدر الدِّين العينىٰ (٨٥٥هـ) : " بابُ قَوْلِ الله تَعَالَىٰ : ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ ، وقَوْله جلَّ ذِكْرُهُ ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّب وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَائِكَ هُوَ يَبُورُ**﴾ ، أَي : هَذَا بَاب فِي قَول الله عزَّ وجلَّ : ﴿**تعرج الْمَلَائِكَة**﴾ إِلَىٰ آخِره ، ذكر هَاتين القطعتين من الْآيَتَيْنِ الكريمتين وَأَرَادَ بِالْأولَىٰ الرَّد علىٰ الْجَهْمِية المجسمة فِي تعلقهم بِظَاهِر قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**مِّنَ اللهِّ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ وَقد تقرر أَن الله لَيْسَ بجسم فَلَا يَحْتَاج إِلَىٰ مَكَان يسْتَقرّ فِيهِ ، فقد كَانَ وَلَا مَكَان وإنَّما أَضَاف المعارج إِلَيْهِ إِضَافَة تشريف ، والمعارج جمع معرج كالمصاعد جمع مصعد والعروج الارتقاء ، يُقَال : عرج بِفَتْح الرَّاء يعرج بضَمِّهَا عروجاً ومعرجاً ، والمعرج المصعد وَالطَّرِيق الَّذِي تعرج فِيهِ الْمَلَائِكَة إِلَىٰ السَّماء ، والمعراج شَبيه سلَّم أَو درج تعرج فِيهِ الْأَرْوَاح إِذا قبضت وَحَيْثُ تصعد أَعمال بني آدم . وَقَالَ الْفراء : المعارج من نعت الله وَوصف بذلك نَفسه لأنَّ الْمَلَائِكَة تعرج إِلَيْهِ . وَقيل : معنىٰ قَوْله : ﴿**مِّنَ اللهَّ ذِي الْمَعَارِجِ**﴾ أَي : الفواضل الْعَالِيَة .

قَوْله : ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ اخْتلف فِيهِ . فَقيل : جِبْرِيل ، عَلَيْهِ السَّلام ، وَقيل : ملك عَظِيم تقوم الْمَلَائِكَة صفا وَيقوم وَحده صفا ، قَالَ الله عزَّ وجلَّ : ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوح وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَانُ وَقَالَ صَوَاباً**﴾ وَقيل : هُوَ خلق من خلق الله تَعَالَىٰ لَا ينزل ملك إِلاَّ وَمَعَهُ اثْنَان مِنْهُم ، وَعَن ابْن عَبَّاس : إِنَّه ملك لَهُ أحد عشر أَلف جنَاح وَأَلف وَجه يسبح الله إِلَىٰ يَوْم الْقِيَامَة . وَقيل : هم خلق كخلق بني آدم لَهُم أيد وأرجل .

وَأما الْآيَة الثَّانِيَة فَرد شبهتهم أيضاً لأنَّ صعُود الْكَلم إِلَيْهِ لَا يَقْتَضِي كَونه فِي جِهَة إِذْ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا تحويه جِهَة إِذْ كَانَ مَوْجُودا وَلَا جِهَة ، وَوصف الْكَلم بالصعود إِلَيْهِ مجَاز لأنَّ الْكَلم عرض وَالْعرض لَا يَصح أَن ينْتَقل .

قَوْله : الْكَلم الطيِّب قيل : الْقُرْآن ، وَالْعَمَل الصَّالح يرفعهُ الْقُرْآن ، وَعَن قَتَادَة : الْعَمَل الصَّالح يرفعهُ الله عزَّ وجلَّ ، وَالْعَمَل الصَّالح أَدَاء فَرَائض الله تَعَالَى " . انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١١٧-١١٨) .

وقال الإمام الإيجي (٩٠٥هـ) : ﴿تَعْرُجُ المَلائكَةُ والرُّوح﴾ : جبريل ، أو خلق أعظم من الملك يشبهون النَّاس ، وليسوا ناساً ، وعن بعض المفسِّرين : المراد أرواح المؤمنين ، فقد ورد أنَّهَا يصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السَّابعة ، " إِلَيْهِ " : إلى محلِّ قربته " . انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٣٦٩) .

وقال الإمام القسطلاني (٩٢٣هـ) : " باب قَوْلِ اللهَّ تَعَالَى :﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] وَقَالَ أَبُو جَمْرَةَ : عَنِ ابْنِ عَبَّاس بَلَغَ أَبَا ذَرٍّ مَبْعَثُ النَّبي -صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ لأَخِيهِ : اعْلَمْ لِي عِلْمَ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّماء . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُ الْكَلِمَ الطيِّب . يُقَالُ ذِي الْمَعَارِجِ : الْمَلاَئِكَةُ تَعْرُجُ إِلَى اللهَّ .

(باب قول الله تعالى : ﴿تعرج الملائكة﴾) تصعد في المعارج التي جعلها الله لهم (﴿والروح﴾) جبريل ، وخصَّه بالذِّكر بعد العموم لفضله وشرفه أو خلق هم حفظة على الملائكة كما أنَّ الملائكة حفظة علينا أو أرواح المؤمنين عند الموت (﴿إليه﴾ [المعارج : ٤]) أي إلى عرشه أو إلى المكان الذي هو محلُّهم وهو في السَّماء ، لأنَّها محلُّ برِّه وكرامته (وقوله جلَّ ذكره : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر : ١٠]) أي : إلى محلِّ القبول والرِّضا ، وكلّ ما اتَّصف بالقبول وصف بالرِّفعة والصُّعود .

(وقال أبو جمرة) : بالجيم والرَّاء نصر بن عمران الضبعي ممَّا سبق موصولاً في باب إسلام أبي ذر (عن ابن عبَّاس) -رضي الله عنهما- (بلغ أبا ذر مبعث النَّبي صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لأخيه) أنيس : بضم الهمزة مصغراً (اعلم لي علم هذا الرَّجل الذي يزعم أنَّه يأتيه الخبر من السَّماء) وهذا موضع التَّرجمة كما لا يخفى .

(وقال مجاهد) فيما وصله الفريابي (العمل الصَّالح يرفع الكلم الطيب) وقد أخرج البيهقي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عَبَّاس في تفسيرها الكلم الطيِّب ذكر الله والعمل الصَّالح أداء فرائض الله ، فمن ذكر الله ولم يؤدِّ فرائضه ردَّ كلامه . وقال الفرَّاء معناه أنَّ العمل الصَّالح يرفع الكلام الطيِّب إذا كان معه عمل صالح . وقال البيهقي صعود الكلام الطيِّب عبارة عن القبول (يقال) معنى ﴿ذِي المَعَارِجِ﴾ هو (الملائكة)العارجات (تعرج إلى الله) عزَّ وجلَّ ، ولأبي ذر عن الحموي والكشميهني إليه ، وفي قوله إلى الله ما تقدَّم عن السَّلف من التَّفويض ، وعن الخلف من التَّأويل ، وإضافة المعارج إليه تعالى إضافة تشريف ، ومعنى الارتفاع إليه : اعتلاؤه مع تنزيه عن المكان " . انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٩٦) .

وقال الإمام أبو الحسن محمَّد بن عبد الهادي السِّندي المدني ، الحنفي (١١٣٨هـ) : " قوله : **﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ﴾** : أي : إلىٰ عرشه " . انظر : حاشية السندي علىٰ صحيح البخاري (٤/ ١٣٦) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : " تعرج الملائكة والرُّوح إليه ، أمَّا الملائكة فتنتهي إلىٰ الدّهش والهيمان ، وأمَّا الرُّوح الصَّافية فتنتهي إلىٰ شهود الذَّات بالصَّحو والتَّمكين ، وهذا مقام خاصَّة الخاصَّة من النَّبيِّين والصِّدِّيقين ، تنتهي إلىٰ هذا المقام في زمن يسير ، إن سبقت العناية واتَّصل صاحبها بالخبير ، وفي زمن طويل إن لم يتَّصل بالخبير ، ولذلك قال تعالىٰ : **﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾** أي : يقطع ذلك في يوم كان مقداره لو صار بنفسه خمسن ألف سنة .

واعلم أنَّ الحقَّ تعالىٰ لا يتَّصف بقُرب ولا بُعد ، هو أقرب إلىٰ كلِّ شيء من كلِّ شيء ، وإنَّما بعّد النُّفوسَ جهلُها به تعالىٰ ووهْمُها وغفلتها ، فإذا ارتفع الجهل والوهم ، وَجَدت الحقّ كان قريباً وهي لا تشعر . قال الورتجبي : ليس للحقِّ مكان ومنتهىٰ ، حتَّىٰ أنَّ الخلق يعرجون إليه ، بل إنَّ ظهور عزته وجلاله في كلِّ ذرَّة عيانٌ ، فإذا رَفَعْتَ القربَ والبُعدَ من حيث المسافة ، وأدرجت الأوهام والأفهام؛ لم يكن بين الحقِّ والرُّوح فصل ، وصول الحقِّ لأهل الحقِّ بأقل طرفة ، فإنَّ الوصل منه ، وهو قريب غير بعيد " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ١٣٧) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : **﴿تعرج الملائكة والرُّوح إليه﴾** أي : تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم وقرأ الجمهور تعرج بالفوقيَّة ، وقرأ أبن مسعود وأصحابه والكسائي والسّلمي بالتَّحتيَّة ، والرُّوح جبريل ، أفرد بالذِّكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيِّد هذا قوله : **﴿نزل به الرُّوح الأمين﴾** ، وقيل : الرُّوح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل ، وقال أبو صالح : إنَّه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة النَّاس ، وليسوا من النَّاس ، وقال قبيصة بن ذؤيب : إنَّه روح الميِّت حين تُقبض ، والأَوَّل أولىٰ ، ومعنىٰ **﴿إليه﴾** إلىٰ المكان الذي ينتهون إليه ، وقيل : إلىٰ عرشه ، وقيل : هو كقول إبراهيم : **﴿إني ذاهب إلى ربي﴾** أي : إلىٰ حيث أمرني ربِّي **﴿في يوم كان مقدارة خمسين ألف سنة﴾** ، قال أبن إسحاق ، والكلبي ، ووهب بن منبِّه : أي عرج الملائكة إلىٰ المكان الذىٰ هو محلُّها في وقت كان مقداره علىٰ غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة ، وبه قال مجاهد " . انظر : فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدراية من علم التفسير (٥/ ٢٨٨) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : **﴿تعرج الملائكة والرُّوح إليه﴾** أي : تصعد في تلك المعارج التي جعلها الله لهم ، قرأ الجمهور تعرج بالفوقيَّة ، وقرئ بالتَّحتيَّة ، والرُّوح جبريل ، أفرد بالذِّكر بعد الملائكة لشرفه ، ويؤيِّد هذا قوله : **﴿نزل به الرُّوح الأمين﴾** ، وقيل : الرُّوح هنا ملك آخر عظيم غير جبريل ، وقال أبو صالح : إنَّه خلق من خلق الله سبحانه كهيئة النَّاس وليسوا من النَّاس ، وقال قبيصة بن ذؤيب : إنَّه روح الميِّت حين يقبض والأَوَّل أولىٰ ، ومعنىٰ **﴿إليه﴾** إلىٰ المكان الذي ينتهون إليه وقيل إلىٰ عرشه ، وقيل إلىٰ مهبط أمره من

السَّماء ، وقيل : هو كقول إبراهيم : ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ ، أي : إلىٰ حيث أمرني ربِّي " . انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٤/ ٣٠٩) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي تصعد في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليه السَّلام إلىٰ مواضع لو أراد واحد من أهل الدُّنيا أن يصعد إليها لبقي في ذلك الصُّعود خمسين ألف سنة ، لكنَّهم يصعدون إليها في الزَّمن القليل ، وليس المراد من ذكر الخمسين تحديد العدد ، بل المقصد أنَّ مقام القدس الإلهي بعيد المدىٰ عن مقام العباد ، فهم في المادَّة مغموسون ، وهناك عوالم ألطف وألطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكلّ عالم ألطف ممَّا قبله ، وكلَّما لطف العالم العلوي كان أشدّ قوَّة وهكذا : ﴿وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى﴾ " . انظر : تفسير المراغي (٢٩/ ٦٧) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفَّىٰ : بعد ١٣٩٠هـ) : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هو إشارة إلىٰ مدىٰ هذا العلو الذي لتلك المعارج ، التي يقوم عليها سلطان الله ، وأنَّ الملائكة والرُّوح ، تصعد هذه المعارج في يوم ... ولكن أي يوم هو؟

إنَّه يعدل خمسين ألف سنة من أزمان الدُّنيا ... أي : أنَّ ما يقطعه الملك في عروجه إلىٰ السَّماء في يوم واحد ، يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة بأقوىٰ ما يمكن أن يتوسَّل به من وسائل ، من صواريخ ، ومركبات كوكبيَّة وغيرها ... ، والمراد بالرُّوح ، أمَّا أن يكون جبريل عليه السَّلام ، أو أرواح البشر ، أو مخلوقات من عالم الرُّوح غير الملائكة . والمراد بهذا أنَّهَا مخلوقات ذات سرعة مطلقة من غير قيد المادَّة ومعوِّقاتها ... أنَّهَا أرواح ، لا أجساد لها ... " . انظر : التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١١٥٨) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : " والضَّمير في ﴿إِلَيْه﴾ يعود إلىٰ الله تعالىٰ .

أي : تصعد الملائكة وجبريل عليه السَّلام معهم ، إليه تعالىٰ ، والسَّلف علىٰ أنَّ هذا التَّعبير وأمثاله ، من المتشابه الذي استأثر – سبحانه – بعلمه . مع تنزيهه – عزَّ وجلَّ – عن المكان والجسميَّة ، ولوازم الحدوث ، التي لا تليق بجلاله .

وقيل : ﴿إليه﴾ ، أي : إلىٰ عرشه تعالىٰ أو إلىٰ محلِّ برِّه وكرامته .

قال القرطبي ما ملخَّصه : قوله : ﴿فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، أي : عروج الملائكة إلىٰ المكان الذي هو محلُّهم في وقت كان مقداره علىٰ غيرهم لو صعد ، خمسين ألف سنة " . انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٥/ ٩٣-٩٤)

وأردفه بقوله تَعَالَى ﴿يخَافُونَ رَبهم من فَوْقهم﴾ (°°) وَتلك أَيْضا لَا دلَالَة لَهُ فِيهَا عَن سَمَاء وَلَا عرش وَلَا أَنه فِي شَيْء من ذَلِك حَقِيقَة

وقال الإمام وهبة بن مصطفى الزُّحيلي : ﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي : تصعد إلى الله عزَّ وجلَّ في تلك المعارج الملائكة وجبريل عليهم السَّلام في مدَّة يوم يقدّر بخمسين ألف سنة من سنوات الدُّنيا لو أراد البشر الصُّعود إليها ، ولكن الملائكة الرَّوحانيِّين تصعد إليها في زمن قليل ، وليس المراد من الخمسين التَّحديد بعدد معيَّن ، بل المقصود الكثرة المطلقة وأن صعود الملائكة في مكان بعيد المدى .

وقوله : ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه أو حكمه أو إلى حيث تهبط أوامره أو إلى مواضع العزِّ والكرامة " . انظر : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (٢٩/ ١١٤) .

(°°) قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " القول في تأويل قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ، قال أبو جعفر : يعني تعالى ذكره بقوله : ﴿وَهُوَ﴾ ، نفسَه ، يقول : والله الظَّاهر فوق عباده ، ويعني بقوله : ﴿القَاهِر ﴾ ، المذلِّل المستعبد خلقه ، العالي عليهم . وإنَّما قال : ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، لأنَّه وصف نفسه تعالى ذكره بقهره إيَّاهم . ومن صفة كلّ قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه .

فمعنى الكلام إذاً : والله الغالب عبادَه ، المذللهم ، العالي عليهم بتذليله لهم ، وخلقه إيَّاهم ، فهو فوقهم بقهره إياهم ، وهم دونه " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (١١/ ٢٨٨) .

وقال الإمام علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن (٣٢٤هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، وأراد به القادر المستولي علي العباد ، فجعل قوله ﴿فوق﴾ بدلاً من قوله مستعل " . انظر : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (ص٥٣٢) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، يعني : القادر الغالب عليهم " . انظر : بحر العلوم (١/ ٤٧٤) .

وقال الإمام أبو بكر الباقلَّاني محمَّد بن الطيِّب (٤٠٣هـ) : " فإن قيل : إذا كان مرئيَّاً فأين هو ؟ قيل لهم : إن أردتم أين هو في وصف المنزلة والرِّفعة والجلال ، فهو كما وصف نفسه بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، وبقوله : " ﴿الرَّحْمَن على العرش استوى﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿وهو الذي في السَّماء إله وفي الأرض إله﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَاد﴾ قيل لهم : الأين سؤال عن مكان ، وليس هو ممَّا يحويه مكان ، لما قدَّمنا من الحجج والبراهين بحمد الله الملك المنَّان " . انظر : الإنصاف (ص٧٥) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسين بن محمَّد بن موسى بن خالد بن سالم النَّيسابوري السّلمي (٤١٢هـ) : " قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، قيل : جبرهم وقهرهم حتى لو استطاعوا عنه معدلاً ما أطاقوا ، يجحدون ظاهرين

وتكذبهم البواطن . وقال الحسين : القاهر يمحو به كل موجود . وقال بعضهم : قهرهم على الإيجاد والإظهار ، كما قهرهم على الموت والفناء . وقال بعضهم : القاهر : الآمر بالطَّاعة من غير حاجة ، والنَّاهي عن المعصية من غير كراهية ، والمُثيب من غير عوض ، والمعاقب من غير حقد ، لا يشتفي بالعقوبة ولا يتعزَّز بالطَّاعة " . انظر : تفسير السلمي وهو حقائق التفسير السلمي (١/ ١٩٥) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) : " قوله : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** الآية . المعنى : والله المُذلّل لعباده ، العالي عليهم علوّ قدرة وقهر ، لا علوّ انتقال من سفل ، بل استعلى على خلقه بقدرته فقهرهم بالموت وبما شاء من أمره ، لا إله إلَّا هو . ولما وصف نفسه تعالى بأنَّه المذلُّ القاهر ، ومن صفة القاهر أن يكون مستعلياً ، قال **﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** " .

وقال الإمام أبو محمَّد مكي بن أبي طالب أيضاً : " قوله : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** الآية . المعنى : وهو الغالب خلقه ، العالي عليهم بقدرته ، قد قَهَرَهم بالموت ، ليس كأصنامهم المقهورة ، المذللة ، المَعْلو عليها " . انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١٩٧٦-١٩٧٧) ، (٣/ ٢٠٤٧) ، بالترتيب .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : " قوله عزَّ وجلَّ : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** فيه قولان : أحدهما : أنَّ معناه القاهر لعباده ، وفوق صلة زائدة . والثَّاني : أنَّه بقهره لعباده مستعلٍ عليهم ، فكان قوله فوق مستعملاً على حقيقته كقوله تعالى : **﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [الفتح : ١٠] لأنَّها أعلى قوَّة . ويحتمل ثَالِثاً : وهو القاهر فوق قهر عباده ، لأنَّ قهره فوق كلِّ قهر . وفي هذا القهر وجهان : أحدهما : أنَّه إيجاد المعدوم ... " .

وقال الإمام الماوردي أيضاً : " قوله عزَّ وجلَّ : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** فيه وجهان : أحدهما : أنَّه أعلى قهراً ، فلذلك قال : **﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** . والثَّاني : أنَّ الأقدر إذا استحقَّ صفة المبالغة عبَّر عنه بمثل هذه العبارة ، فقيل : هو فوقه في القدرة ، أي : أقدر ، وفوقه في العلم أي : أعلم " . انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) ، (٢/ ٩٩) ، (٢/ ١٢٣) بالترتيب

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** . علت رتبة الأحديَّة صفة البشريَّة ، فهذا لم يزل وهذا لم يكن فحصل . ومتى يكون بقاء للحدثان مع وضوح سلطان التَّوحيد ؟ " .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري أيضاً : " فوق عباده بالقهر والرِّفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يعذِّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسّخطة " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (١/ ٤٦٤) ، (١/ ٤٧٩) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : " قوله : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** [الأنعام : ١٨] القهر : الغلبة ، والله القاهر القهَّار ، قهر خلقه بقدرته وسلطانه فصرفهم على ما أراد طوعاً وكرهاً ، يقال : أخذت الشَّيء قهراً .

إذا أخذته دون رضا صاحبه ، ومعنىٰ القاهر في صفة الله تعالىٰ : يعود إلىٰ أنَّه القادر الذي لا يعجزه شيء .

ومعنىٰ فوق ههنا : أنَّ قهره قد استعلىٰ عليهم فهم تحت التَّسخير والتَّذليل بما علاهم من الاقتدار الذي لا ينفكّ عنه أحد " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٢٥٨) .

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني التَّميمي (٤٨٩هـ) : ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ . قَوْله تَعَالَىٰ : ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ القاهر : الْغَالِب الَّذِي لَا يغلب ، وَقيل : هُوَ الْمُنْفَرد بِالتَّدْبِيرِ ، يجْبر الْخلق علىٰ مُرَاده ، وَقَوله : ﴿**فَوق عباده**﴾ هُوَ صفة الاستعلاء الَّذِي لله تَعَالَىٰ الَّذِي يعرفهُ أهل السُّنَّة " . انظر : تفسير القرآن (٢/ ٩٣) .

وقال الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي (٥٠٥هـ) : " فإن قيل : العرب إنَّما تفهم من قوله تعالىٰ : ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ ... الجهة والاستقرار ، وقد أُريد به غيره فهو متشابه؟ قلنا : هيهات! فإنَّ هذه كنايات واستعارات يفهمها المؤمنون من العرب ، المصدِّقون بأنَّ الله تعالىٰ ليس كمثله شيء ، وأنَّها مؤولة تأويلات تناسب تفاهم العرب " . انظر : المستصفىٰ في علم الأصول (١/ ٢٠٤) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ ، الْقَاهِرُ الْغَالِبُ ، وَفِي الْقَهْرِ زِيَادَةُ مَعْنًىٰ علىٰ القدرة ، وهو مَنْعُ غَيْرِهِ عَنْ بُلُوغِ الْمُرَادِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالتَّدْبِيرِ الَّذِي يُجْبِرُ الْخَلْقَ عَلَىٰ مُرَادِهِ فَوْقَ عِبادِهِ هُوَ صِفَةُ الِاسْتِعْلَاءِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِهِ اللهُ عزَّ وجلَّ " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٢/ ١١٥) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿**فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، كقوله : ﴿**وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾ . انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٢/ ١٢) .

وقال الإمام ابن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ) : " الْقاهِرُ إن أخذ صفة فعل ، أي : مظهر القهر بالصَّواعق والرِّياح والعذاب ، فيصحُّ أن يجعل فَوْقَ ظرفيَّة للجهة لأنَّ هذه الأشياء إنَّما تعاهدها العباد من فوقهم ، وإن أخذ الْقاهِرُ صفة ذات بمعنىٰ القدرة والاستيلاء فـ ﴿**فَوْقَ**﴾ لا يجوز أن تكون للجهة ، وإنَّما هي لعلو القدر والشَّأن علىٰ حدِّ ما تقول : الياقوت فوق الحديد " . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٠٠) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**﴾ القاهر : الغالب ، والقهر : الغلبة . والمعنىٰ : أنَّه قهر الخلق فصرّفهم علىٰ ما أراد طوعاً وكرهاً فهو المستعلي عليهم ، وهم تحت التَّسخير والتَّذليل " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٤) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : ﴿**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ ، فِيهِ مَسَائِلُ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : اعْلَمْ أَنَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ مَحْصُورَةٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ فَإِنْ قَالُوا : كَيْفَ أَهْمَلْتُمْ وُجُوبَ الْوُجُودِ .

قُلْنَا : ذَلِكَ عَيْنُ الذَّاتِ لَا صِفَةً قَائِمَةً بِالذَّاتِ لأنَّ الصِّفَةَ الْقَائِمَةَ بِالذَّاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَى الذَّاتِ وَالْمُفْتَقِرُ إِلَى الذَّاتِ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْغَيْرِ فَيَكُونُ مُمْكِناً لِذَاتِهِ وَاجِباً بِغَيْرِهِ فَيَلْزَمُ حُصُولُ وُجُوبٍ قَبْلَ الْوُجُوبِ وَذَلِكَ مُحَالٌ فَثَبَتَ أَنَّه عَيْنُ الذَّاتِ ، وَثَبَتَ أَنَّ الصِّفات الَّتِي هِيَ الْكَمَالَاتُ حَقِيقَتُهَا هِيَ الْقُدْرَةُ وَالْعِلْمُ فَقَوْلُهُ : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : **﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** إِشَارَةٌ إِلَى كَمَالِ الْعِلْمِ . وَقَوْلُهُ : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾** يُفِيدُ الْحَصْرَ وَمَعْنَاهُ أَنَّه لَا مَوْصُوفَ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ إِلَّا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَعِنْدَ هَذَا يَظْهَرُ أَنَّه لَا كَامِلَ إِلَّا هُوَ ، وَكُلُّ مَنْ سِوَاهُ فَهُوَ نَاقِصٌ .

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ : أَمَّا دَلَالَةُ كَوْنِهِ قَاهِراً عَلَى الْقُدْرَةِ فَلِأَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ مَا عَدَا الْحَقِّ سُبْحَانَهُ مُمْكِنٌ بِالْوُجُودِ لِذَاتِهِ ، وَالْمُمْكِنُ لِذَاتِهِ لَا يَتَرَجَّحُ وُجُودُهُ عَلَى عَدَمِهِ وَلَا عَدَمُهُ عَلَى وُجُودِهِ إِلَّا بِتَرْجِيحِهِ وَتَكْوِينِهِ وَإِيجَادِهِ وَإِبْدَاعِهِ فَيَكُونُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي قَهَرَ الْمُمْكِنَاتِ تَارَةً فِي طَرَفِ تَرْجِيحِ الْوُجُودِ عَلَى الْعَدَمِ ، وَتَارَةً فِي طَرَفِ تَرْجِيحِ الْعَدَمِ عَلَى الْوُجُودِ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ كَوْنُهُ قَاهِراً لَهُمْ بِالْمَوْتِ وَالْفَقْرِ وَالْإِذْلَالِ وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ﴾** [آل عِمْرَانَ : ٢٦] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . وأمَّا كونه حكيماً ، فلا يمكن حمله هاهنا عَلَى الْعِلْمِ ، لأنَّ الْخَبِيرَ إِشَارَةٌ إِلَى الْعِلْمِ فيلزم التكرار أنَّه لَا يَجُوزُ ، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى كَوْنِهِ مُحْكِماً فِي أَفْعَالِهِ بِمَعْنَى أَنَّ أَفْعَالَهُ تَكُونُ مُحْكَمَةً مُتْقَنَةً آمِنَةً مِنْ وُجُوهِ الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ وَالْخَبِيرُ هُوَ الْعَالِمُ بِالشَّيْءِ الْمَرْوِيِّ . قَالَ الْوَاحِدِيُّ : وَتَأْوِيلُهُ أَنَّه الْعَالِمُ بِمَا يَصِحُّ أَنْ يُخْبَرَ بِهِ قَالَ : وَالْخَبَرُ عِلْمُكَ بِالشَّيْءِ تَقُولُ : لِي بِهِ خَبَرٌ أَيْ عِلْمٌ وَأَصْلُهُ مِنَ الْخَبَرِ لِأَنَّهُ طَرِيقٌ مِنْ طُرُقِ الْعِلْمِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْمُشَبِّهَةُ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّه تَعَالَى مَوْجُودٌ فِي الْجِهَةِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ الْعَالَمِ ، وَهُوَ مَرْدُودٌ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ :

الْأَوَّل : أَنَّه لَوْ كَانَ مَوْجُوداً فَوْقَ الْعَالَمِ لَكَانَ أَمَّا أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ بِحَيْثُ لَا يَتَمَيَّزُ جَانِبٌ مِنْهُ مِنْ جَانِبٍ وأَمَّا أَنْ يَكُونَ ذَاهِباً فِي الْأَقْطَارِ مُتَمَدِّداً فِي الْجِهَاتِ . والأَوَّل : يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ فِي الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ كَالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ فَلَوْ جَازَ ذَلِكَ فَلِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إله العالم بعض الذرات المخلوطة بالهباءات الْوَاقِعَةِ فِي كُوَّةِ الْبَيْتِ وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي كَانَ مُتَبَعِّضاً مُتَجَزِّئاً ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ مُحَالٌ .

وَالثَّانِي : أنَّه أمَّا أن يكون غير متناه من كلِّ الجوانب فيلزم كون ذاته مخالطاً للقاذورات ،وهو باطل أو يكون متناهياً مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ ، وَحِينَئِذٍ يَصِحُّ عَلَيْهِ الزِّيَادَةُ والنقصان . وكل ما كان كذلك كان اختصاصه بمقداره المعين لِتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، فَيَكُونُ مُحْدَثاً أَوْ يَكُونُ مُتَنَاهِياً مِنْ بَعْضِ الْجَوَانِبِ دُونَ الْبَعْضِ ، فَيَكُونُ الْجَانِبُ الْمَوْصُوفُ بِكَوْنِهِ مُتَنَاهِياً غَيْرَ الْجَانِبِ الْمَوْصُوفِ بِكَوْنِهِ غَيْرَ مُتَنَاهٍ وَذَلِكَ يُوجِبُ الْقِسْمَةَ وَالتَّجْزِئَةَ .

وَالثَّالِثُ : أَمَّا أَنْ يُفَسَّرَ الْمَكَانُ بِالسَّطْحِ الْحَاوِي أَوْ بِالْبُعْدِ وَالْخَلَاءِ . فَإِنْ كَانَ الأَوَّل : فَنَقُولُ أَجْسَامُ العالِم متناهية فخارج العالِم لا خلا ولا ملا وَلَا مَكَانَ وَلَا حَيْثُ وَلَا جِهَةَ ، فَيَمْتَنِعُ حُصُولُ ذَاتِ اللهَّ تَعَالَىٰ فِيهِ . وَإِنْ كَانَ الثَّاني فَنَقُولُ الْخَلَاءُ مُتَسَاوِي الْأَجْزَاءِ فِي حَقِيقَتِهِ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، فَلَوْ صَحَّ حُصُولُ اللهَّ فِي جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ ذَلِكَ الْخَلَاءِ لَصَحَّ حُصُولُهُ فِي سَائِرِ الْأَجْزَاءِ ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ حُصُولُهُ فِيهِ بِتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ ، وَكُلُّ مَا كَانَ وَاقِعاً بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَحُصُولُ ذَاتِهِ فِي الْجُزْءِ مُحْدَثٌ . وَذَاتُهُ لَا تَنْفَكُّ عَنْ ذَلِكَ الْحُصُولِ وَمَا لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْمُحْدَثِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، فَيَلْزَمُ كَوْنُ ذَاتِهِ مُحْدَثَةً وهو محال .

وَالرَّابِعُ : أَنَّ الْبُعْدَ وَالْخَلَاءَ أَمْرٌ قَابِلٌ لِلْقِسْمَةِ وَالتَّجْزِئَةِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ ومفتقر إلى الموجد ويكون موجده موجودا قَبْلَهُ فَيَكُونُ ذَاتُ اللهَّ تَعَالَىٰ قَدْ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَ وُجُودِ الْخَلَاءِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيْثِ وَالْحَيِّزِ .

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا : فَبَعْدَ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ وَالْخَلَاءِ وَجبَ أَنْ تَبْقَىٰ ذَاتُ اللهَّ تَعَالَىٰ كَمَا كَانَتْ وَإِلَّا فَقَدَ وَقَعَ التَّغْيِيرُ فِي ذَاتِ اللهَّ تَعَالَىٰ وَذَلِكَ مُحَالٌ . وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجبَ الْقَوْلُ بِكَوْنِهِ مُنَزَّهاً عَنِ الْأَحَيازِ وَالْجِهَاتِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ .

وَالْخَامِسُ : أَنَّه ثَبَتَ أَنَّ الْعَالَمَ كُرَةٌ . وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالَّذِي يَكُونُ فوق رؤوس أَهْلِ الرَّيِّ يَكُونُ تَحْتَ أَقْدَامِ قَوْمٍ آخَرِينَ . وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ، فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ أَقْوَام بِأَعْيَانِهِمْ . أَوْ يُقَالَ : أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ الْكُلِّ . والأَوَّل : بَاطِلٌ ، لأنَّ كَوْنَهُ فَوْقاً لِبَعْضِهِمْ يُوجِبُ كَوْنَهُ تَحْتاً لِآخَرِينَ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ . والثَّاني : يُوجِبُ كَوْنَهُ تَعَالَىٰ مُحِيطاً بِكُرَةِ الْفَلَكِ فَيَصِيرُ حَاصِلُ الْأَمْرِ إِلَىٰ أَنَّ إِلَهَ الْعَالَمِ هُوَ فَلَكٌ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْأَفْلَاكِ وَذَلِكَ لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ .

وَالسَّادِسُ : هُوَ أَنَّ لَفْظَ الفوقيَّة فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَسْبُوقٌ بِلَفْظٍ وَمَلْحُوقٌ بِلَفْظٍ آخَرَ . أَمَّا أَنَّهَا مَسْبُوقَةٌ فَلِأَنَّهَا مَسْبُوقَةٌ بِلَفْظِ الْقَاهِرِ ، وَالْقَاهِرُ مُشْعِرٌ بِكَمَالِ الْقُدْرَةِ وَتَمَامِ الْمُكْنَةِ . وأمَّا أنَّهَا مَلْحُوقَةٌ بِلَفْظٍ فَلِأَنَّهَا مَلْحُوقَةٌ بِقَوْلِهِ عِبادِهِ وَهَذَا اللَّفْظُ مُشْعِرٌ بِالْمَمْلُوكِيَّةِ وَالْمَقْدُورِيَّةِ ، فَوَجَبَ حَمْلُ تِلْكَ الفوقيَّة عَلَىٰ فوقيَّة الْقُدْرَةِ لَا عَلَىٰ فوقيَّة الْجِهَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : مَا ذَكَرْتُمُوهُ عَلَىٰ الضِّدِّ مِنْ قَوْلِكُمْ إِنَّ قَوْلَهُ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ دَلَّ عَلَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ . فَلَوْ حَمَلْنَا لَفْظَ الْفَوْقِ عَلَىٰ فوقيَّة الْقُدْرَةِ لَزِمَ التَّكْرَارُ ، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَىٰ فوقيَّة الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ .

قُلْنَا : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتُمْ لِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ الذَّاتُ مَوْصُوفَةً بِكَوْنِهَا قَاهِرَةً لِلْبَعْضِ دُونَ الْبَعْضِ وَقَوْلُهُ فَوْقَ عِبادِهِ دَلَّ عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الْقَهْرَ وَالْقُدْرَةَ عَامٌّ فِي حَقِّ الْكُلِّ .

وَالسَّابِعُ : وَهُوَ أَنَّه تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ رَدّاً عَلَىٰ مَنْ يَتَّخِذُ غَيْرَ اللهَّ وَلِيّاً ، والتَّقدير : كَأَنَّهُ قَالَ أَنَّه تَعَالَىٰ فَوْقَ كُلِّ عِبَادِهِ ، وَمَتَىٰ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ امْتَنَعَ اتِّخَاذُ غَيْرِ اللهَّ وَلِيّاً . وَهَذِهِ النَّتِيجَةُ إِنَّمَا يَحْسُنُ تَرْتِيبُهَا عَلَىٰ تِلْكَ الْفَوْقِيَّاتِ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ تِلْكَ الفوقيَّة ، الفوقيَّة بِالْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ .

أَمَّا لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهَا الفوقيَّة بِالْجِهَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُفِيدُ هَذَا الْمَقْصُودَ لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ مُجَرَّدِ كَوْنِهِ حَاصِلاً فِي جِهَةٍ فَوْقَ أَنْ يَكُونَ التَّعْوِيلُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُفِيداً وَأَنْ يَكُونَ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ الْمَطَالِبِ لَازِماً . أمَّا إِذَا حملنا ذَلِكَ عَلَىٰ فوقيَّة الْقُدْرَةِ حَسُنَ تَرْتِيبُ هَذِهِ النَّتِيجَةِ عَلَيْهِ فَظَهَرَ بِمَجْمُوعِ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْمُرَادَ مَا ذَكَرْنَاهُ ، لَا مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ التَّشبيه ، واللهَّ أعلم " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (١٢/ ٤٩٥-٥٩٧) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾ الْقَهْرُ الْغَلَبَةُ، وَالْقَاهِرُ الْغَالِبُ، وَأُقْهِرَ الرَّجُلُ إِذَا صُيِّرَ بِحَالِ الْمَقْهُورِ الذَّلِيلِ، قَالَ الشَّاعِرُ :

تَمَنَّىٰ حُصَيْنٌ أَنْ يَسُودَ جِذَاعُهُ فَأَمْسَىٰ حُصَيْنٌ قَدْ أَذَلَّ وَأَقْهَرَا

وَقُهِرَ غُلِبَ. وَمَعْنَىٰ ﴿فَوْقَ عِبادِهِ﴾ فَوْقِيَّةُ الِاسْتِعْلَاءِ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ، أَيْ هُمْ تَحْتَ تَسْخِيرِهِ لَا فَوْقِيَّةَ مَكَانٍ، كَمَا تَقُولُ: السُّلطان فَوْقَ رَعِيَّتِهِ أَيْ بِالْمَنْزِلَةِ وَالرِّفْعَةِ. وَفِي الْقَهْرِ مَعْنَىٰ زَائِدٌ لَيْسَ فِي الْقُدْرَةِ، وَهُوَ مَنْعُ غَيْرِهِ عَنْ بُلُوغِ الْمُرَادِ"

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: (وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ) يَعْنِي فَوْقِيَّةَ الْمَكَانَةِ وَالرُّتْبَةِ لَا فَوْقِيَّةَ الْمَكَانِ وَالْجِهَةِ " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٩٩) ، (٧/ ٦) بالترتيب .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ تصوير لقهره وعلوِّه بالغلبة والقدرة . وَهُوَ الْحَكِيمُ في أمره وتدبيره " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢/ ١٥٧) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ مبدأ وخبر أي الغالب المقتدر ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ خبر بعد خبر ، أي : عالٍ عليهم بالقُدرة ، والقهر بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه " . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (١/ ٤٩٥)

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : " قوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعني : وهو الغالب لعباده ، القاهر لهم ، وهم مقهورون تحت قدرته ، والقاهر والقهَّار معناه : الذي يدبِّر خلقه بما يريد ، فيقع في ذلك ما يشقُّ عليهم ، ويثقل ويغم ويحزن ويفقر ويميت ، ويذل خلقه فلا يستطيع أحد من خلقه ردَّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره ، وهذا معنىٰ القاهر في صفة الله تعالىٰ ، لأنَّه القادر والقاهر الذي لا يعجزه شيء أراده ، ومعنىٰ فوق عباده هنا أنَّ قهره قد استعلىٰ علىٰ خلقه فهم تحت التَّسخير والتَّذليل بما علاهم به من الاقتدار والقهر الذي لا يقدر أحد علىٰ الخروج منه ولا ينفك عنه ، فكلُّ من قهر شيئاً ، فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة .

وقال ابن جرير الطَّبري : معنىٰ القاهر المتعبِّد خلقه العالي عليهم ، وإنَّما قال : ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، لأنَّه تعالىٰ وصف نفسه بقهره إيَّاهم ، ومن صفة كلِّ قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه ، فمعنىٰ الكلام إذاً : والله الغالب عباده المذلِّل لهم ، العالي عليهم بتذليله إيَّاهم ، فهو فوقهم بقهره إيَّاهم وهم دونه .

وقيل : فوق عباده هو صفة الاستعلاء الذي تفرَّد به الله عزَّ وجلَّ " .

وقال الإمام الخازن أيضاً : " قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، يعني : وهو العالي عليهم بقدرته ، لأنَّ كلَّ من قهر شيئاً وغلبه فهو مستعلٍ عليه بالقهر والقدرة ، فهو كما يقال : أمرُ فلانٍ فوقَ أمرِ فلانٍ ، يعني : أنَّه أقدر منه .

وأغلب هذا مذهب أهل التَّأويل في معنىٰ لفظة فوق في قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، وأمَّا مذهب السَّلف فيها : فإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق علىٰ جهة ، والقاهر هو الغالب لغيره المذلِّل له ، والله تعالىٰ هو القاهر لخلقه ، وقهر كل شيء بضدّه ، فقهر الحياة بالموت ، والإيجاد بالإعدام ، والغنىٰ بالفقر ، والنُّور بالظُّلمة " . انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٢/ ١٢٣) ، (٢/ ١٤٢) بالترتيب .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ الْقُدْرَةِ ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ كَمَالِ الْعِلْمِ ، أَمَّا كَوْنُهُ قَاهِراً فَلِأَنَّ مَا عَدَاهُ تَعَالَىٰ مُمْكِنُ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ ، وَالْمُمْكِنُ لِذَاتِهِ لَا يَتَرَجَّحُ وَجُودُهُ عَلَىٰ عَدَمِهِ وَلَا عَدَمُهُ عَلَىٰ وُجُودِهِ إِلَّا بِتَرْجِيحِهِ تَعَالَىٰ وَإِيجَادِهِ ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الَّذِي قَهَرَ الْمُمْكِنَاتِ تَارَةً فِي طُرُقِ تَرْجِيحِ الْوُجُودِ عَلَىٰ الْعَدَمِ وَتَارَةً فِي طُرُقِ تَرْجِيحِ الْعَدَمِ عَلَىٰ الْوُجُودِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قَوْلِهِ : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ﴾ .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي أيضاً : " ...قَالَ هُنَا ابْنُ عَطِيَّةَ : الْقَاهِرُ إِنْ أَخَذَ صِفَةَ فِعْلٍ ، أَيْ : مُظْهِرُ الْقَهْرِ بِالصَّوَاعِقِ وَالرِّيَاحِ وَالْعَذَابِ ، فَيَصِحُّ أَنْ تُجْعَلَ فَوْقَ ظَرْفِيَّةً لِلْجِهَةِ لأنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَعَاهُدُهَا لِلْعِبَادِ مِنْ فَوْقِهِمْ وَإِنْ أَخَذَ الْقَاهِرُ صِفَةَ ذَاتٍ بِمَعْنَىٰ الْقُدْرَةِ وَالِاسْتِيلَاءِ فَفَوْقَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْجِهَةِ وإنَّمَا هُوَ لِعُلُوِّ الْقَدْرِ وَالشَّأْنِ ، كَمَا تَقُولُ : الْيَاقُوتُ فَوْقَ الْحَدِيدِ " . انظر : البحر المحيط في التفسير (٤/ ٤٥٧) ، (٤/ ٥٣٨) بالترتيب.

وقال الإمام ابن كثير القرشي (٧٧٤هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ ، وَذَلَّتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ ، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَدَانَتْ لَهُ الْخَلَائِقُ ، وَتَوَاضَعَتْ لِعَظَمَةِ جَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعُلُوِّهِ وَقُدْرَتِهِ الْأَشْيَاءُ ، وَاسْتَكَانَتْ وَتَضَاءَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَحْتَ حُكْمِهِ وَقَهْرِهِ " .

وقال الإمام ابن كثير أيضاً : " وَقَوْلُهُ : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أَيْ : هُوَ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَضَعَ لِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ كُلُّ شَيْءٍ " . انظر : تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٤) ، (٣/ ٢٦٧) بالترتيب .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، وهو إشارة إلىٰ كمال القدرة " . انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٥٧) .

وقال الإمام نظام الدِّين القمِّي النَّيسابوري أيضاً : " من الدَّلائل الدالَّة علىٰ كمال قدرته وحكمته قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، والمراد منه : الفوقيَّة بالقدرة والتَّسخير ، كما يقال : أمر فلان فوق أمر فلان ، أي : أنَّه أعلىٰ

وأنفذ منه ، ولا ريب أنَّ الممكنات بأسرها تحت تصرُّف الواجب ، ينقلها من حيِّز العدم إلىٰ حالة الوجود ، وبالعكس ، ويتصرَّف فيها كيف يشاء ، علويَّات كن أو سفليَّات ، ذوات أو صفات ، نفوساً أو أبداناً ، أخلاطاً وأركاناً .

ومن جملة قهره : إرسال الحفظة – وهي جمع حافظ – علىٰ عبيده بضبط أعمالهم من الطَّاعات والمعاصي والمباحات ، لأنَّهم مطَّلعون علىٰ أقوال بني آدم لقوله : **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** [ق : ١٨] وعلىٰ أفعالهم بقوله : **﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾** [الانفطار : ١٢] وأمَّا صفات القلوب كالجهل والعلم ، فليس في الآيات ما يدلُّ علىٰ اطِّلاعهم عليها " . انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٣/ ٩٤) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله سبحانه : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** : القاهرُ إنْ أُخِذَ صِفَةَ فِعْلٍ ، أي : مظهر القَهْر بالصَّواعقِ والرِّياحِ والعذابِ ، فيصحُّ أنْ تجعل فَوْقَ ظرفيةً للجهةِ لأنَّ هذه الأشياء إنَّما تعاهَدَها العبادُ مِنْ فوقهم ، وإنْ أُخِذَ الْقاهِرُ صفَةَ ذَاتٍ ، بمعنىٰ القُدْرة والاستيلاء ، فـ فَوْقَ : لا يجوزُ أنْ تكون للجهةِ ، وإنَّما هي لعلُوِّ القَدْر والشَّأن علىٰ حدِّ ما تقولُ : اليَاقُوتُ فَوْقَ الحديد ، والأحرار فوق العبيد " . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٢/ ٤٧٥) .

وقال الإمام عبد الرَّحمَن بن عبد السَّلام الصفُّوري (٨٩٤هـ) : " قوله تعالىٰ : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** ، فالفوقيَّة هنا فوقيَّة عظمة ومنزلة ، ألا ترىٰ إلىٰ فرعون كيف وصف نفسه بالعظم علىٰ بني إسرائيل ، فقال : **﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾** ، ومعلوم أنَّه لم يكن مراده بالفوقيَّة هنا فوقيَّة المكان " . انظر : نزهة المجالس ومنتخب النفائس (ص٧) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحمَن بن محمَّد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشَّافعي (٩٠٥هـ) : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** : قهره استعلىٰ عليهم فهم تحت تسخيره " .

وقال الإمام الإِيجي الشَّافعي أيضاً : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** : تصوير لقهره وعلوه بالقدرة " . انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (١/ ٥٢٠) ، (١/ ٥٤٣) بالترتيب .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " قوله **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** ... والمراد بها العلو من غير جهة ، وقد قال فرعون : **﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾** ، ولا شكَّ أنَّه لم يرد العلو المكاني " . انظر : الاتقان في علوم القرآن (٤/ ١٣٦٧) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) : **﴿وهو القاهر﴾** أي : القادر الذي لا يعجزه شيء مستعلياً **﴿فوق عباده﴾** فهم مقهورون تحت قدرته ، وكلُّ من قهر شيئاً فهو مستعل عليه بالقهر والغلبة " . انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (١/ ٤١٤) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** تصويرٌ لقهره وعلوِّه بالغَلَبة والقُدرة " .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي أيضاً : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي هو المتصرِّفُ في أمورهم لاغيره يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة وتعذيباً وإثابةً إلى غير ذلك" . انظر : تفسير أبي السُّعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٣/ ١١٧) ، (٣/ ١٤٤) بالترتيب .

وقال الإمام علي بن سلطان القاري (١٠١٤هـ) : " قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام : ١٨] وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْقُدْرَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي أَذَلَّ الْجَبَابِرَةَ وَقَصَمَ ظُهُورَهُمْ بِالْإِهْلَاكِ نَحْوِهِ ، فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ : هُوَ مَنِ اضْمَحَلَّتْ عِنْدَ صَوْلَتِهِ صَوْلَةُ كُلِّ مُتَمَرِّدٍ أَوْ جَبَّارٍ ، وَبَادَتْ عِنْدَ سَطْوَتِهِ قُوَىٰ الْمُلُوكِ وَأَرْبَابِ التَّفَاخُرِ وَالِاسْتِكْبَارِ ، لَاسِيَّمَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] فَأَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْأَكَاسِرَةُ عِنْدَ ظُهُورِ هَذَا الْخِطَابِ؟ وَأَيْنَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ فِي هَذَا الْعِتَابِ؟ وَأَيْنَ أَهْلُ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْإِرْشَادِ؟ وَأَيْنَ آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ وَإِبْلِيسُ وَشِيعَتُهُ ، وَكَأَنَّهُمْ بَادُوا وَانْقَرَضُوا ، وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَغْنَوْا ، زَهَقَتِ النُّفُوسُ ، وَبَلَغَتِ الْأَرْوَاحُ ، وَتَبَدَّدَتِ الْأَجْسَامُ وَالْأَشْبَاحُ ، وَبَقِيَ الْمَوْجُودُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ ، وَمَا عَدَاهُ بَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَتَفَرَّقَتْ مِنْهُمُ الْأَعْضَاءُ وَالْأَوْصَالُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَهَرَ نُفُوسَ الْعَابِدِينَ بِحُقُوقِ عُبُودِيَّتِهِ ، وَقُلُوبَ الْعَارِفِينَ بِسَطْوَةِ قُرْبَتِهِ ، وَأَرْوَاحَ الْوَاجِدِينَ بِكَشْفِ حَقِيقَتِهِ ، فَالْعَابِدُ بِلَا نَفْسٍ لِاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ أَفْعَالِهِ عَلَيْهِ ، وَالْعَارِفُ بِلَا قَلْبٍ ، لِاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ ، وَالْوَاجِدُ بِلَا رُوحٍ لِاسْتِيلَاءِ كَشْفِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ ، فَمَتَىٰ أَرَادَ الْعَابِدُ خُرُوجَهُ عَنْ قَيْدِ مُجَاهَدَتِهِ ، قَهَرَتْهُ سَطْوَةُ الْعِتَابِ فَرَدَّتْهُ إِلَىٰ بَذْلِ الْمُهْجَةِ ، وَمَتَىٰ أَرَادَ الْعَارِفُ خُرُوجَهُ عَنْ مُطَّلَبَاتِ الْقُرْبَةِ ، قَهَرَتْهُ بِوَادِي الْهَيْبَةِ فَرَدَّتْهُ إِلَىٰ تَوْدِيعِ الْمُهْجَةِ ، فَشَتَّانَ بَيْنَ عَبْدٍ مَقْهُورِ أَفْعَالِهِ ، وَعَبْدٍ هُوَ مَقْهُورُ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ " . انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٦٨) .

وقال الإمام شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد بن عمر الخفَّاجي المصري الحنفي (١٠٦٩هـ) : " قوله : " تصوير لقهره وعلوّه بالغلبة والقدرة " يعني أنَّه استعارة تمثيلية فلا يلزم الجهة ، وقوله بالغلبة متعلِّق بعلوِّه ، ويحتمل أنّ الاستعارة في الظَّرف بأن شبَّه الغلبة بمكان محسوس ، وقيل : أنَّه كناية عن القهر والعلوّ بالغلبة والقدرة ، وهما متعلِّقان بالقهر والعلوّ على طريق اللفِّ والنَّشر ، والحاصل أنَّ قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ عبارة عن كمال القدرة ، كما أنَّ قوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ عبارة عن كمال العلم ، وفوق منصوب على الظَّرفيَّة معمول للقاهر ، أي : المستعلي فوق عباده بالرُّتبة والمنزلة والشَّرف ، والعرب تستعمل فوق لعلوّ المنزلة وتفوُّقها ، ومنه ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ . انظر : حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوِي ، المُسَمَّاة : عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوي (٤/ ٣٤) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (١١٢٧هـ) : " ... فقوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ عبارة عن كمال القدرة ، كما أنَّ قوله : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ عبارة عن كمال العلم ، قال المولى الفنارى في

تفسيره : الفوقيَّة من حيث القدرة لا من حيث المكان ، لعلو شأنه تعالى عن ذلك ، فإنَّه تعالى قاهر للممكنات معدومة كانت أو موجودة ، لأنَّه يقهر كلَّ واحد منهما بضدِّه ، فيقهر المعدومات بالإيجاد والتَّكوين ، والموجودات بالافناء والإفساد ، وفي التَّأويلات النَّجميَّة : وقد عمَّ قهره جميع عباده ، فقهر الكفَّار بموت القلوب وحياة النُّفوس ... " . انظر : روح البيان (٣/ ١٦-١٧) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : **﴿وَهُوَ الْقاهِرُ﴾** لجميع خلقه كلّهم في قبضته ، **﴿فَوْقَ عِبادِهِ﴾** بهذه القهريَّة والغلبة والقدرة " .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي أيضاً : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** بالقهر والغلبة " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٢/ ١٠٤) ، (٢/ ١٢٨) بالترتيب .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : " قوله : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** القهر الغلبة ، والقاهر الغالب ، وأقهر الرَّجل إذا صار مقهوراً ذليلاً ، ومنه قول الشَّاعر :

تمنَّى حصين أن يسود خزاعة فأمسى حصين قد أذلَّ وأقهرا

ومعنى : **﴿فوق عباده﴾** فوقيَّة الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ، لا فوقيَّة المكان ، كما تقول : السُّلطان فوق رعيَّته ، أي : بالمنزلة والرِّفعة ، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة ، وهو منع غيره عن بلوغ المراد " .

وقال الإمام الشَّوكاني أيضاً : " قوله **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** المراد فوقيَّة القدرة والرُّتبة ، كما يقال : السُّلطان فوق الرَّعيَّة ، وقد تقدَّم بيانه ... " . انظر : فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدراية من علم التفسير (٢/ ١٠٤) ، (٢/ ١٢٤) بالترتيب

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** ، القهر : الغلبة ، والقاهر الغالب ، وأقهر الرَّجل إذا صار مقهوراً ذليلاً ، ومن الأَوَّل قوله : **﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾** ، ومن الثَّاني : **﴿ فأما اليتيم فلا تقهر﴾** ، قيل : ومعنى فوق فوقيَّة الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم لا فوقيَّة المكان ، كما تقول : السُّلطان فوق رعيَّته ، أي : بالمنزلة والرِّفعة ، وقيل : هو صفة الاستعلاء الذي تفرَّد به سبحانه ، فهو على الذَّات ، وسمى الصِّفات . وقال ابن جرير الطَّبري : معنى القاهر المتعبِّد خلقه العالي عليهم . وإنَّما قال **﴿فوق عباده﴾** لأَنَّه تعالى وصف نفسه بقهره إيَّاهم ، ومن صفة كلّ قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه ، انتهى ، أي: استعلاء يليق به ، وقيل هو القاهر مستعلياً أو غالباً ، ذكره أبو البقاء والمهدوي ، وفي القهر معنى زائدة ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد " . انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (٤/ ١١٤-١١٥) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ بالقدرة والقوَّة ، وهذا إشارة إلى كمال القدرة " .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني أيضاً : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، أي وهو الغالب المتصرِّف في أمور عباده يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً ، إلى غير ذلك ، فالممكنات كلُّها مقهورة تحت قهر الله تعالى ، مسخَّرة تحت تسخير الله تعالى" . انظر : مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد (١/ ٣١٠) ، (١/ ٣٢٣) بالترتيب .

وقال الإمام القاسمي (١٣٣٢هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ، أي : هو الغالب بقدرته ، المستعلي فوق عباده ، يدبِّر أمرهم بما يريد ، فيقع في ذلك ما يشقُّ عليهم ، ويثقل ويغمّ ويحزن ، فلا يستطيع أحد منهم ردَّ تدبيره ، والخروج من تحت قهره وتقديره .

قال أبو البقاء : في ﴿فَوْقَ﴾ وجهان :

أَحَدُهُمَا : في موضع نصب على الحال من الضَّمير في ﴿القَاهِرُ﴾ ، أي : مستعلياً وغالباً .

وَالثَّانِي : في موضع رفع على أنَّه بدل من (القاهر) أو خبر ثان " . انظر : محاسن التأويل (٤/ ٣٢٧) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي : إنَّ الرَّبَّ من شأنه العزَّة والسُّلطان والعلو والكبرياء ، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ، فلا ينبغي للمؤمن أن يتَّخذ وليَّاً من عباده المقهورين تحت سلطان عزَّته ، المذلّلين لسنَّته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير الأمر في خلقه " . انظر : تفسير المراغي (٧/ ٩١) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي أيضاً : ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ، أي : أنَّه تعالى هو الغالب خلقه العالي عليهم بقدرته وسلطانه ، لا المقهورون من الأوثان والأصنام ، المغلوبون على أمرهم" . انظر : تفسير المراغي (٧/ ١٤٧) .

وقال الإمام الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ... فهو صاحب السُّلطان القاهر وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف في قبضة هذا السُّلطان لا قوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون ...

وهذه هي العبوديَّة المطلقة للألوهيَّة القاهرة ... وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع النَّاس– مهما ترك لهم من الحرِّية ليتصرَّفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة– إنَّ كلَّ نَفَس من أنفاسهم بقدر ، وكلّ حركة

في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه . وإن كان هذا النَّاموس يجري في كلِّ مرَّة بقدر خاص حتى في النَّفَس والحركة " . انظر : في ظلال القرآن (٢/ ١١٢٢) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى : بعد ١٣٩٠هـ) : " قوله تعالى : **﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾** ، أي : أنَّه ذو السُّلطان القائم فوق عباده ، يملكهم ولا يملكونه ، ويقضي عليهم ولا يقضون عليه ، ويعطي ويمنع ، ويعزُّ ويذل : **﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [آل عمران:٢٦] .

وليس سلطان الله سبحانه ، القائم فوق عباده ، الآخذ على جوارحهم ومشاعرهم ومدركاتهم- ليس بالسُّلطان المستبدّ الجهول ، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً .. وإنَّما هو سلطان قائم بالعدل ، والحكمة ، والعلم والقدرة ، وما كان كذلك ، فهو سلطان الرَّحمة والإحسان " . انظر : التفسير القرآني للقرآن (٤/ ١٤٤) .

وقال الإمام محمَّد الطَّاهر بن محمَّد بن محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾** .

هذه الجملة معطوفة على جملة : **﴿وإن يمسسك الله بضرّ﴾** [الأنعام : ١٧] الآية ، والمناسبة بينهما أنَّ مضمون كلتيهما يبطل استحقاق الأصنام العبادة . فالآية الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكون للأصنام تصرُّفٌ في أحوال المخلوقات ، وهذه الآية أبطلت أن يكون غير الله قاهراً على أحد أو خبيراً أو عالماً بإعطاء كلِّ مخلوق ما يناسبه ، ولا جرم أنَّ الإله تجب له القدرة والعلم ، وهما جماع صفات الكمال ، كما تجب له صفات الأفعال من نفع وضرّ وإحياء وإماتة ، وهي تعلّقات للقدرة أطلق عليها اسم الصِّفات عند غير الأشعري نظراً للعرف ، وأدخلها الأشعري في صفة القدرة لأنّها تعلُّقات لها ، وهو التَّحقيق .

ولذلك تتنزَّل هذه الآية من التي قبلها منزلة التَّعميم بعد التَّخصيص لأنَّ التي قبلها ذكرت كمال تصرُّفه في المخلوقات ، وجاءت به في قالب تثبيت الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما قدَّمنا ، وهذه الآية أوعت قدرته على كلّ شيء ، وعلمه بكلّ شيء ، وذلك أصل جميع الفعل والصُّنع .

والقاهر الغالب المُكرِه الذي لا ينفلت من قدرته من عُدِّي إليه فعل القهر .

وقد أفاد تعريف الجزأين القصر ، أي : لا قاهر إلاّ هو ، لأنَّ قهر الله تعالى هو القهر الحقيقي الذي لا يجد المقهور منه ملاذاً ، لأنّه قهر بأسباب لا يستطيع أحد خلق ما يدافعها . وممَّا يشاهد منها دوماً النَّوم وكذلك الموتُ . سبحان من قهر العباد بالموت . و **﴿فوق﴾** ظرف متعلّق بـ **﴿القَاهِرُ﴾** ، وهو استعارة تمثيليَّة لحالة القاهر بأنَّه كالذي يأخذ

المغلوب من أعلاه فلا يجد معالجة ولا حراكاً . وهو تمثيل بديع ، ومنه قوله تعالىٰ حكاية عن فرعون **﴿وإنّا فوقهم قاهرون﴾** [الأعراف : ١٢٧] .

ولا يفهم من ذلك جهة هي في علوّ كما قد يتوهَّم ، فلا تعدُّ هذه الآية من المتشابهات .

والعباد : هم المخلوقون من العقلاء ، فلا يقال للدَّوابّ عباد الله ، وهو في الأصل جمع عبد لكن الاستعمال خصَّه بالمخلوقات ، وخصَّ العبيد بجمع عبد بمعنىٰ المملوك .

ومعنىٰ القهر فوق العباد أنَّه خالق ما لا يدخل تحت قُدرهم بحيث يوجدُ ما لا يريدون وجوده كالموت ، ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل بكثير من الأشياء ، بحيث إنَّ كلَّ أحد يجد في نفسه أموراً يستطيع فعلها وأموراً لا يستطيع فعلها وأموراً يفعلها تارة ولا يستطيع فعلها تارة ، كالمشي لمن خَدِرت رِجْله ؛ فيعلم كلّ أحد أنَّ الله هو خالق القُدر والاستطاعات لأنَّه قد يمنعها ، ولأنَّه يخلق ما يخرج عن مقدور البشر ، ثُمَّ يقيس العقل عوالم الغيب علىٰ عالم الشَّهادة . وقد خلق الله العناصر والقوىٰ وسلَّط بعضها علىٰ بعض ، فلا يستطيع المدافعة إلاّ ما خوَّلها الله " . انظر : التحرير والتنوير (٧/ ١٦٤-١٦٥) .

وقال الإمام محمَّد متولي الشَّعراوي (١٤١٨هـ) : " يقول سبحانه : **﴿وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ...﴾** [الأنعام : ٦١] .

وكلمة «قاهر» إذا سمعتها تتطلَّب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففي ذلك ميزانان بين مجالين . وما دام هو قاهراً ففي أي مجال وبأية طريقة سيكون الطَّرف الثَّاني مقهوراً له؟ إنَّنا نعلم أنَّ كلَّ شيء في الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنىٰ فأفقر ، وقهر الفقر فأغنىٰ . وقهر الصحَّة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكلُّ شيء في الوجود مقهور لله حتىٰ الرُّوح التي جعلها الله مصدر الحسّ والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه علىٰ المكان الذي لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الرُّوح . وهذا يوضح لنا أنَّ الرُّوح في الجسم هي المسيطرة ، لكن من ينقض البنية التي تسكنها الرُّوح يُذْهبُ الرُّوح ويخرجها من الجسم . ومرَّة يقهر المادَّة بالرُّوح ، فيأخذ الرُّوح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويتحوَّل الجسم إلىٰ رمَّة . إذن فسبحانه يقهر الرُّوح ، ويقهر المادَّة ، ولا توجد متقابلات في الوجود عالية ومتأبِّية ومتمرِّدة عليه – سبحانه – : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** [الأنعام : ٦١] .

والقاهر هو المتحكِّم بقدرة شاملة علىٰ المقهور . وانظر أي تقابل في الحياة تجده مديناً وخاضعا لصفة القهر . **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** ، وكلمة «فَوْقَ» تقتضي مكانيَّة . ولكن المكانيَّة تحديد ، وما دام القهر يتطلَّب قدرة ، فهل يعني ذلك أنَّ القادر لا بدَّ أن يكون في مكان أعلىٰ؟ لأنَّنا نجد – علىٰ سبيل المثال ولله المثل الأعلىٰ – من يضع قنبلة تحت

العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضي الفوقيَّة المكانيَّة ، إذن فالفوقيَّة المرادة هي فوقيَّة الاستعلاء ، ونحن عندما تكلَّمنا عن الحقِّ سبحانه وتعالىٰ أوضحنا أن نلتزم بإطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، فهو ذات لا ككل الذَّوات . وصفاته ليست ككلِّ الصِّفات ، وكذلك نأتي ونقول في فعله ، وعلىٰ سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلىٰ زمن ويحتاجون إلىٰ علاج ، وكلّ جزئيَّة من الفعل تحتاج إلىٰ جزئيَّة من الزَّمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلىٰ زمن؟ لا؛ لأنَّه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العمليَّة ، إنَّما يفعل سبحانه ب «كن» ، إذن القهر في قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ هو قهر الاستعلاء ، ولذلك يقول لنا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «ينزل ربنا إلىٰ السَّماء الدُّنيا كلّ ليلة لآخر رمضان» . ففي آية ليلة ينزل فيها الله؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك؟ أم الليلة التي تشرق الشَّمس فيها في مكان ، وتغيب عن مكان آخر؟ إذن ، فكلُّ واحد من المليون من الثَّانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أنَّ الله معك ومع غيرك ، باسطاً لك ولغيرك يده . ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] .

لذلك لا تفهم قول رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النَّهار ، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشَّمس من مغربها» . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معيَّن؛ لأنَّ يده مبسوطة في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان وليس كمثله شيء .

﴿وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ، وعباده من مادة العين والباء والدَّال ، ومفردها «عَبْد» ، وجمعها يكون مرَّة «عبيداً» وأخرىٰ «عِبادا» . و «العباد» هم المقهورون لله فيما لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضاً المنقادون لحكم الله فيما لهم فيه اختيار؛ لأنَّ الإنسان مقهور في بعض الأمور ولا تصرف له فيها : لا تصرُّف له في نَفَسه ، ولا تصرف له في نبضات قلبه ، ولا تصرُّف له في حركة المعدة ، ولا تصرُّف له في حركة الأمعاء ، ولا تصرُّف له في حركة الحالبين ، ولا تصرُّف له في حركة الكُلْيَة ، وكلّها مسائل تشمل المؤمن والكافر ، والكلِّ مقهور فيها .

إنَّ من رحمة الله أنَّنا مقهورون فيها ولا رأىٰ لنا؛ لأنَّه لو كان لنا رأي في مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظِّم عمليَّة تنفُّسنا في أثناء النَّوم؟ . إذن فمن رحمة الله أنَّ منع عنَّا الاختيار في بعض الأمور التي تمسّ حياتنا . ومن رحمة الله أنَّ كلاًّ منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمي الطَّعام؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلىٰ بالعمل؟!! .

إذن فكلُّ أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أمَّا الأمر الذي لك فيه اختيار فهو مناط التَّكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : «افعل» إلَّا وأنت صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك «لا تفعل» إلَّا وأنت صالح أن تفعل ، إذن الأمور الاختياريَّة هي التي وردت فيها «افعل» و «لا تفعل» . وهي الأمور التي فيها التَّكليف . ومن

ثُمَّ الْفَوْقِيَّة ترد لمعنيين :

أَحدهمَا : نِسْبَة جسم إِلَى جسم بِأَن يكون أَحدهمَا أَعلَى وَالْآخر أَسْفَل ، بِمَعْنى أَنَّ أَسْفَل الْأَعْلَى من جَانب رَأس الْأَسْفَل ، وَهَذَا لَا يَقُول بِهِ من لَا يجسم ، وَبِتَقْدِير أَن يكون هُوَ الْمُرَاد ، وَأَنه تَعَالَى لَيْسَ بجسم ، فَلم لَا يجوز أَن يكون ﴿مِنْ فَوْقِهِم﴾ صلَة لـ ﴿يخَافُونَ﴾ وَيكون تَقْدِير الْكَلَام : يخَافُونَ من فَوْقهم رَبهم ، أَي : أَنَّ الْخَوْف من جِهَة الْعُلُوّ ، وَأَنَّ الْعَذَاب يَأْتِي من تِلْكَ الْجِهَة .

يطع ربّنا في منهج التّكليف يصبح وكأنّه مقهور للحكم ، ويكون ممَّن يسمِّيهم الله «عباداً» ، فكأنَّهم تنازلوا عن اختيارهم في الأحكام التّكليفيَّة ، وقالوا : ياربّ لن نفعل إلَّا ما يريده منهجك .

وكلٌّ منهم ينفذ حكم الله فيما له اختيار ألا ينفذه . أمَّا العبيد فهم من يتمرَّدون على التّكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحقّ : **﴿قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ...﴾** [الزمر : ٥٣] .

ويوضِّح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول : **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً﴾** [الفرقان : ٦٣] .

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم في الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفَّ به ، وهم في الأمور التي لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكلُّ الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أمَّا المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدَة في القرآن وهي التي تثير بعض الجدل في مثل هذا الموضوع . ساعة يقول الحقّ سبحانه وتعالى عمَّا يحدث في الآخرة : **﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ ...﴾** [الفرقان : ١٧] .

وكأنَّ **﴿عبادي﴾** هنا أطلقت على الضالَّين ، ويقول : نعم؛ لأنَّ الكلّ في الآخرة عباد؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن في الدُّنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمرَّدون في الاختيارات .

﴿وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ [الأنعام : ٦١] .

ومع مجيء معنى القهر يرسل الحقّ حفظة ، وإذا كان القهر يعني الغلبة والتَّملُّك والسَّيطرة والقدرة ، فهو قهَّار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول في موقع آخر : **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾** [الرعد : ١١] .

وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن؛ لأنَّ الضَّعيف حين يقهره جبَّار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهَّار الأعلى ، وفي هذا تذكير للقوي نسبيَّاً أنَّ هناك قهَّاراً فوق كلِّ الكائنات ، فالله قهَّار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوي عن قهره ، فيمتنع عن الذَّنب ، وتمتنع عنه العقوبة ، وفي ذلك رحمة له " . انظر : تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٧٧-٣٦٨١) .

وَثَانِيهِمَا : بِمَعْنى الْمرتبَة ، كَمَا يُقَال : الْخَلِيفَة فَوق السُّلْطَان ، وَالسُّلْطَان فَوق الْأَمِير ، وكما يُقَال : جلس فلَان فَوق فلَان ، وَالْعلم فَوق الْعَمَل ، والصِّباغة فَوق الدِّباغة .

وَقد وَقع ذَلِك فِي قَوْله تَعَالَى حَيْثُ قَالَ :﴿ورَفَعنَا بَعضَهم فَوقَ بَعض دَرَجَات﴾، وَلم يطلع أحدُهم على أكتاف الآخر ، وَمن ذَلِك قَوْله تَعَالَى : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهم قَاهرون﴾، وَمَا ركبت القبط أكتاف بني إِسْرَائِيل وَلَا ظُهُورهمْ .

وَأَرْدَفَ ذَلِك بقوله تَعَالَى : ﴿الرَّحْمَن عَلَى الْعَرْش اسْتَوَى﴾، وَورد هَذَا فِي كتاب الله فِي سِتَّة مَوَاضِع من كِتَابه وَهِي عُمْدَة المشبهة وَأقوى معتمدهم حَتَّى إِنَّهُم كتبوها على بَاب جَامع همذان فلصرف الْعِنَايَة إِلَى إيضاحها فَنَقُول : إِمَّا أَنَّهم يعزلون الْعقل بِكُل وَجه وَسبب وَلَا يلتفتون إِلَى مَا سمِّي فهماً وإدراكاً فمرحباً بفعلهم وَبقول ﴿الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى﴾ وَإِن تعدوا هَذَا إِلَى أَنَّه مستو على الْعَرْش ، فَلَا حبَّاً وَلَا كَرَامَة ، فَإِنَّ الله تَعَالَى مَا قَالَه ، مَعَ أَنَّ عُلَمَاء الْبَيَان كالمتَّفقين على أَنَّ فِي اسْم الْفَاعِل من الثُّبُوت مَا لَا يفهم من الْفِعْل ، وَإِن قَالُوا هَذَا يدلُّ على أَنَّه فَوْقه ، فقد تركُوا مَا التزموه ، وبالغوا فِي التَّنَاقُض والتَّشهِّي والجرأة ، وَإِن قَالُوا : بل نبقي الْعقل ونفهم مَا هُوَ المُرَاد ، فَنَقُول لَهُم : مَا هُوَ الاسْتوَاء فِي كَلَام الْعَرَب ؟ فَإِن قَالُوا : الْجُلُوس والاستقرار ، قُلْنَا : هَذَا مَا تعرفه الْعَرَب إِلَّا فِي الْجِسْم ، فَقولُوا : يَسْتَوِي جسم على الْعَرْش وَإِن قَالُوا جُلُوس واستقرار نسبته إِلَى ذَات الله تَعَالَى كنسبة الْجُلُوس إِلَى الْجِسْم [٥٦] .

---

(٥٦) مسألة جلوس الله على العرش وردت عن مجاهد ، رواها عنه الطَّبري في التَّفسير (١٥/ ١٤٥) ، قال : " وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ ذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْعَثَهُ إِيَّاهُ، هُوَ أَنْ يُقَاعِدَهُ مَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ . ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حدَّثنا عَبَّادُ بْنُ يَعْقُوبَ الْأَسَدِيُّ، قَالَ: ثنا ابْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ لَيْثٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] قَالَ: يُجْلِسُهُ مَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ " .

وهذه الرِّواية ضعيفة جداً ، وعلَّتها الليث بن أبي سليم ، قال ابن حجر في التَّقريب (ص٥١٩) : "صدوق اختلط جدَّاً ولم يتميَّز حديثه فتُرك" . يضاف لذلك أنَّ هناك رواية صحيحة عن مجاهد بيَّن فيها أَّن المقام المحمود هو الشَّفاعة العظمى ، وقد رواها الطَّبري في تفسيره (١٥/ ١٤٩) . وقد أجمع المسلمون على أنَّ المراد بالمقام المحمود إنَّما هو الشَّفاعة العظمى ، كما نقل ابن عبد البر في التَّمهيد (١٩/ ٦٤) .

وبالرَّغم من ذلك كلِّه فقد ذهب ابن تيمية –غفر الله له– إلى اعتقاد إقعاد الله تعالى لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العرش معه ، فقال في الفتاوى (٤/ ٣٧٤) : "فقد حدَّث العلماء المرضيُّون وأولياؤه المقرَّبون أنَّ محمَّداً رسول الله لى الله عليه وسلم يُجلسه ربُّه على العرش معه" .

وفي كتابه بيان تلبيس الجهميَّة (١/ ٥٧٢) قال : "وروىٰ أيضاً عثمان بن سعيد قال : حدَّثنا عبد الله بن رجاء ، حدَّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الله بن خليفة ، قال : أتت امرأة سوداء إلىٰ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت : ادع الله أن يدخلني الجنَّة ، فعظَّم الرَّب ، وقال : إنَّ كرسيَّه وسع السَّماوات والأرض ، وإنَّه ليقعد عليه فما يفضل منه إلَّا قدر أربعة أصابع ومدّ أصابعه الأربعة ، وإنَّ له أطيطاً كأطيط الرَّحل الجديد إذا ركبه من ثقله" .

والحديث واه جداً ، قال الأستاذ السقَّاف في هامش دفع شبه التَّشبيه (ص٢٤٧) : "رواه البزَّار (١/ ٢٩ برقم ٣٩ كشف الأستار) ، والطَّبري في تفسيره ، وأبو يعلىٰ في مسنده كما قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٩) من طريق أبي إسحاق السَّبيعي عن عبد الله بن خليفة عن سيِّدنا عمر مرفوع . قلت : وفي السَّند علَّتان : الأولىٰ : أنَّ أبا إسحاق السَّبيعي اختلط بآخره كما في التَّقريب وغيره . والثَّانية : عبد الله بن خليفة ، قال عنه الذَّهبي في الميزان : لا يكاد يعرف ، وقال عنه ابن كثير في البداية والنِّهاية (١/ ١١) في سماعه من عمر نظر" .

وبالرَّغم من ضعف الحديث الشَّديد –كما تبيَّن– إلَّا أن ابن تيمية قال في الفتاوىٰ (١٦/ ٤٣٥) : "وطائفة من أهل الحديث تردّه لاضطرابه ، كما فعل ذلك أبو بكر الإسماعيلي وابن الجوزي وغيرهم ، لكن أكثر أهل السُّنَّة قبلوه ، وفيه قال : إنَّ عرشه أو كرسيَّه وسع السَّماوات والأرض ، وإنَّه يجلس عليه فما يفضل منه إلَّا قدر أربعة أصابع أو فما يفضل منه إلَّا قدر أربعة أصابع ، وإنَّه ليئط به أطيط الرَّحل الجديد براكبه" .

ثمَّ أسهب ابن تيمية في الكلام علىٰ هذا الحديث فقال في مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٤٣٥-٤٣٨) : "لكن كثير ممَّن رواه رووه بقوله : "أنَّه ما يفضل منه إلَّا أربعة أصابع" ، واعتقد القاضي ، وابن الزَّاغوني ، ونحوهما ، صحَّة هذا اللفظ ، فأمروّه وتكلَّموا علىٰ معناه بأنَّ ذلك القدر لا يحصل عليه الاستواء . وذكر عن ابن العايذ أنَّه قال : هو موضع جلوس محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . والحديث قد رواه ابن جرير الطَّبري في تفسيره وغيره ، ولفظه : "وإنَّه ليجلس عليه ، فما يفضُل منه قدْر أربعة أصابع" بالنفي .

فلو لم يكن في الحديث إلَّا اختلاف الرِّوايتين ، هذه تنفي ما أثبتت هذه ، ولا يمكن مع ذلك الجزم بأنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد الإثبات ، وأنَّه يفضل من العرش أربعة أصابع لا يستوي عليها الرَّب . وهذا معنىٰ غريب ليس له قط شاهد في شيء من الرِّوايات ، بل هو يقتضي أن يكون العرش أعظم من الرَّب وأكبر !!! وهذا باطل مخالف للكتاب والسُّنَّة ، وللعقل ، ويقتضي أيضاً أنه إنَّما عرف عظمة الرَّب بتعظيم العرش المخلوق ، وقد جعل العرش أعظم منه ، فما عظم الرَّب إلَّا بالمقايسة بمخلوق ، وهو أعظم من الرَّب ، وهذا معنىٰ فاسد ، مخالف لما علم من الكتاب والسُّنَّة والعقل . فإنَّ طريقة القرآن في ذلك أن يبيِّن عظمة الرَّب ، فإنَّه أعظم من كلِّ ما يعلم عظمته ، فيذكر عظمة المخلوقات ويبيِّن أنَّ الرَّب أعظم منها . كما في الحديث الآخر الذي في سنن أبي داود والتِّرمذي

وغيرهما –حديث الأطيط– لما قال الأعرابي : إنا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله تعالى ، فسبح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثُمَّ قال : ويحك أتدري ما تقول؟ أتدري ما الله؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنَّ عرشه على سماواته هكذا –وقال بيده مثل القبَّة– وإنَّه ليئطُّ به أطيط الرَّحل الجديد براكبه" .

فبيَّن عظمة العرش ، وأنَّه فوق السَّماوات مثل القبَّة ، ثُمَّ بيَّن تصاغره لعظمة الله ، وأنَّه يئطُّ به أطيط الرَّحل الجديد براكبه ، فهذا فيه تعظيم العرش ، وفيه أنَّ الرَّب أعظم من ذلك كما في الصَّحيحين عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : "أتعجبون من غيْرة سعد؟ لأنا أغير منه والله أغير منِّي" . (أخرجه البخاري ، ص١٣٠٦ برقم ٦٨٤٦ ، مسلم ، ص٦٠٧ برقم ١٤٩٩) . وقال : "لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن" . أخرجه البخاري ، ص٢٠٧ برقم ١٠٤٤ ، مسلم ، ص٣٤٩ برقم ٩٠١) ، ومثل هذا كثير .

وهذا وغيره يدلُّ على أنَّ الصَّواب في روايته النَّفي ، وأنَّه ذكر عظمة العرش ، وأنَّه مع هذه العظمة فالرَّبُّ مستو عليه كلّه لا يفضل منه إلَّا قدر أربعة أصابع ، وهذه غاية ما يقدّر به في المساحة من أعضاء الإنسان ، كما يقدر في الميزان قدره فيقال : ما في السَّماء قدر كف سحاباً . فإن النَّاس يقدرون الممسوح بالباع والذِّراع ، وأصغر ما عندهم الكفّ ، فإذا أرادوا نفي القليل والكثير قدّروا به ، فقالوا : ما في السَّماء قدر كفّ سحاباً ، كما يقولون في النَّفي العام : **﴿إنَّ الله لا يظلم مثقال ذرَّة﴾** ، **﴿ولا يملكون من قطمير﴾** ، ونحو ذلك! .

فبيَّن الَّرسول أنَّه لا يفضل من العرش شيء ، ولا هذا القدر اليسير الذي هو أيسر ما يقدر به وهو أربع أصابع ، وهذا معنى صحيح موافق للغة العرب ، وموافق لما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة ، موافق لطريقة بيان الرَّسول ، له شواهد . فهو الذي يجزم بأنَّه في الحديث . ومن قال : (ما يفضُل إلَّا مقدار أربعة أصابع) فما فهموا هذا المعنى فظنُّوا أنَّه استثنى ، فاستثنوا ، فغلطوا ، وإنَّما هو توكيد للنَّفي وتحقيق للنَّفي العام ، وإلَّا فأي حكمة في كون العرش يبقى منه قدر أربعة أصابع خالية ، وتلك الأصابع أصابع من النَّاس ، والمفهوم من هذا أصابع الإنسان ، فما بال هذا القدر اليسير لم يستو الرَّب عليه! .

والعرش صغير في عظمة الله تعالى ، وقد جاء حديث رواه ابن أبي حاتم في قوله تعالى : **﴿لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** [الأنعام : ١٠٣] لمعناه شواهد تدلُّ على هذا . فينبغي أنا نعتبر الحديث ، فنطابق بين الكتاب والسُّنَّة ، فهذا هذا والله أعلم!" .

قلت : والحديث الذي احتجَّ به ابن تيمية هنا حديث مُنكر ، أكَّد ذلك الأستاذ السَّقَّاف في تعليقه على دفع شبه التَّشبيه (ص ٢٦٦-٢٦٧) ، حيث قال : "رواه أبو داود في سننه (٤/ ٢٣٢ برقم ٤٧٢٦) ، وابن أبي عاصم في سنته (٢٥٢) ، وفي سنده :

أ- وهب بن جرير : قال فيه ابن حبَّان : كان يخطئ ، وكان عفَّان يتكلَّم فيه ، وغمزه أحمد فعرَّض به مع أنَّه من رجال السِّتَّة ، كذا في التَّهذيب (١١/ ١٤٢ فكر) .

ب- وأبوه جرير له أوهام واختلط .

ج- محمَّد بن إسحاق ، عنعن هذا الحديث فلا حُجة بحديثه إذا عنعن عند من يحسِّن حديثه ، والحقيقة أنَّه قد كذَّبه ، وطعن فيه جماعة من كبار الأئمَّة كما في ترجمته في التَّهذيب (٩/ ٣٤ فكر) ، فقد طعن فيه الإمام أحمد بن حنبل ، وكذَّبه الإمام مالك أيضاً ، وسليمان التَّيمي ، ويحيى القطَّان ، ووهيب بن خالد . وهؤلاء من أئمَّة هذا الشَّأن .

د- جبير بن محمَّد مقبول كما في التَّقريب ، والرَّاجح أنَّه لم يتابعه فيه يعقوب بن عتبة وإنَّما رواه عنه .

وهذا الحديث هو الذي صنَّف فيه الحافظ ابن عساكر كتابه : "بيان الوهم والتَّخليط فيما أخرجه أبو دود من حديث الأطيط" .

وعلى أيَّة حال فإنَّ ابن تيمية يرجِّح رواية الجلوس على الكرسي برمته على الرِّواية التي صرَّحت بترك ما مقداره أربعة أصابع من الفراغ . يؤكِّد ذلك ما قاله في منهاج السُّنَّة (١/ ٢٦١) ، حيث قال : "فإذا قيل : أنَّه ما يفضل من العرش أربعة أصابع ،كان المعنى : ما يفضل منه شيء ، والمقصود بيان أنَّ الله أعظم وأكبر من العرش" .

وهذا الكلام يوحي بالتَّجسيم الصَّريح والعياذ بالله ...

ثمَّ إذا كان الأمر كذلك فأين سيكون جلوس سيدنا محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ابن تيمية وعند غيره من أتباعه ومريديه؟!

ولَّما كانت طريقة ابن تيمية هي اللفّ والدَّوران عن طريق بث الفكرة التي يريد ثُمَّ محاولة التَّملُّص منها ، كما ذكر ذلك ابن الزّملكاني في مناظرته الشَّهيرة له ، فإنَّ ابن تيمية قال بعد إثباته السَّابق للجلوس : "ومن المعلوم أنَّ الحديث

إن لم يكن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله فليس علينا منه ، وإن كان قاله فلم يجمع بين النَّفي والإثبات ، فإن كان قاله بالنَّفي لم يكن قاله بالإثبات ، والذين قالوه بالإثبات ذكروا فيه ما يناسب أصولهم ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فهذا وأمثاله سواء كان حقّاً أو باطلاً لا يقدح في مذهب أهل السُّنَّة ولا يضرُّهم ، لأنَّ بتقدير أن يكون باطلاً ليس هو قول جماعتهم ، بل غايته أنَّه قد قالته طائفة ورواه بعض النَّاس وإذا كان باطلاً ردَّه جمهور أهل السُّنَّة كما يردُّون غير ذلك ، فإنَّ كثيراً من المسلمين يقول كثيراً من الباطل ، فما يكون هذا ضار لدين المسلمين ..." . انظر : منهاج السُّنَّة (١/ ٦٢١) .

والغريب في هذا الأمر أن نجد من يسمُّون أنفسهم بالحنابلة يدافعون عن هذا الهراء ، فقد جاء في كتاب أقاويل الثِّقات للكرمي الحنبلي (ص١١٩) : "قال الحنابلة : أمَّا هذا الحديث فنحن لم نقله من عند أنفسنا ، فقد رواه عامة أئمَّة الحديث في كتبهم التي قصدوا فيها نقل الأخبار الصَّحيحة ، وتكلَّموا على توثقة رجاله وتصحيح طرقه ، ورواه من الأئمَّة جماعة ، أحدهم أحمد ، وأبو بكر الخلَّال صاحبه ، وابن بطَّة ، والدَّارقطني في كتاب الصِّفات الذي جمعه وضبط طرقه وحفظ عدالة رواته ، وهو حديث ثابت لا سبيل إلى دفعه وردّه ، إلَّا بطريق العناد والمكابرة ..."

.

فهذا الكلام عليه عدَّة مؤاخذات ، هي :

١ –أمَّا نسبة هذا الأمر للإمام أحمد فهذا لم يثبت عنه ، وينقصه الدَّليل .

٢– وما استشهاده بابن بطَّة ، فابن بطَّة رجل مجسم ، قال الإمام الحافظ ابن حجر في ترجمته في لسان الميزان (٤/ ١٣٣) : "قال أبو القاسم الأزهري : ابن بطَّة ضعيف ضعيف ، وقد وقفت لابن بطَّة على أمر استعظمته واقشعرَّ جِلدي منه . قال ابن الجوزي في الموضوعات : أخبرنا علي بن عبيد الله الزَّاغوني ، أخبرنا علي بن أحمد البسري ، أنبأنا أبو عبد الله ابن بطَّة ، حدَّثنا إسماعيل بن محمَّد الصفَّار ، حدَّثنا الحسن بن عرفة ، حدَّثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال النَّبي محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "كلَّم الله تعالى موسى يوم كلَّمه وعليه جبَّة صوف ، وكساء صوف ، ونعلان من جلد حمار غير ذكي ، فقال من ذا العبراني الذي يكلِّمني من الشَّجرة؟ قال : أنا الله ..." .

٣– وأمَّا استشهاده بالدَّارقطني ، فهذا من أعجب العجب ، لأنَّ هذا الكتاب لا يثبت للدَّارقطني ، ونحن ننزِّه ساحة الحافظ الدَّارقطني عن مثل ما جاء في كتاب الصِّفات من سقط الكلام ، ويكفي أن يكون في سند كتاب الصِّفات وكذا كتاب الرُّؤية للدَّارقطني الكذَّابان المجسِّمان : ابن كادش والعشَّاري .

ومن الغريب أيضاً أنَّ أغلب الكُتب التي يعتمد عليها من ذهبوا هذا المذهب اشتملت على ذكر مسألة الجلوس هذه ، حيث فسَّروا بها المقام المحمود الوارد في قوله تعالى : **﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾** [الإسراء : ٧٩] .

فعلى سبيل المثال جاء في كتاب السُّنَّة للخلَّال ذكر هذا الكلام المتهافت ، وخصصت له أكثر من خمسين صفحة ، واشتمل على تسع وسبعين رواية كل منها يهاتف الأخرى .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل اعتبروا أن من لم يؤمن بذلك : كافراً زنديقاً خارجًا من الدِّين .

فقد جاء في الرِّواية رقم (٢٥٣) (ص٢١٩) : "ليس ينكر حديث ابن فضيل عن ليث عن مجاهد إلَّا الجهمية" .

ولَّما خالفهم الإمام التِّرمذي في ذلك بدَّعوه وكذَّبوه وكفَّروه و ...

فالعرب لَا تعرف هَذَا حَتَّى يكون هُوَ الْحَقِيقَة ، ثمَّ الْعَرَب تفهم اسْتِوَاء الْقدح الَّذِي هُوَ ضدّ الاعوجاج ، فوصفوه بذلك وتبرءوا مَعَه من التَّجسيم ، وسدُّوا بَاب الْحمل على غير الْجُلُوس ، وَلَا يسدُّونه فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿وَهُوَ مَعكُمْ أَيْن مَا كُنْتُم﴾ [الحديد:٤] **، وَقَوله تَعَالَى : ﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** [ق:١٦] (٥٧) **، وَلَا تَقولُوا مَعَهم بِالْعلمِ .**

فقد جاء في الرِّواية رقم (٢٦٦ ص٢٤٤) قوله : "فبلغني أنَّ قوماً ممَّن طرد إلىٰ طرسوس من أصحاب التِّرمذي المبتدع أنكروه ..." .

وجاء في (ص ٢٣٦) : " ... أنَّ هذا التِّرمذي الذي ردَّ حديث مجاهد ما رآه قط عند محِّدث ولا يعرفه بالطَّلب ، وأنَّ هذا الحديث لا ينكره إلا مبتدع جهمي ، فنحن نسأل الله العافية من بدعته وضلالته ، فما أعظم ما جاء به هذا من الضَّلالة والبدع ، عمد إلىٰ حديث فيه فضيلة للنَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأراد أن يزيله ويتكلَّم في من رواه ... " .

وجاء في الرِّواية برقم (٢٦٩) (ص ٢٣٤) : " ...وأنا أشهد علىٰ هذا التِّرمذي أنَّه جهمي خبيث" .

وجاء في الرِّواية رقم (٢٧٣) ص(٢٣٧) : " ...أنَّ هذا الرَّجل المعروف بالتِّرمذي قد تبيَّن لنا ولأصحابنا بدعته وإلحاده في الدِّين" . . .

وجاء في مقالات الإمام الكوثري (ص٣٤٧) قوله : "والتَّاريخ يحدِّثنا أنَّهم سألوا الإمام ابن جرير الطَّبري عن المقام المحمود ببغداد ينتظرون منه أن يوافقهم علىٰ زيغهم القائل بإقعاد الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنبه –جلَّ جلاله– علىٰ العرش ، فنهرهم قائلاً :

سُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ له أَنِيْس وَلَا لَه فِي عَرْشِهِ جَلِيْس

فثاروا عليه يرمونه بالمحابر والأحجار حتىٰ أوشكوا أن يقتلوه ، وقد تمكَّنت الجنود بشقِّ الأنفس من استنقاذ هذا الإمام الجليل من أيديهم حتَّىٰ أوصلوه إلىٰ بيته ، وعاش تحت حراسة الجنود في بيته إلىٰ أن مات سنة (٣١٠ هـ) ، ولم ينفع سعيه في إرضائهم بإدخال كليات في تفسيره ، وفي بعض كتبه الأخر ، والمُكره له أحكام ، والحكاية مبسوطة في تجارب الأمم لابن مسكويه ، ومعجم الأدباء لياقوت ، وكامل ابن الأثير" .

(٥٧) قال الإمام الأخفش الأوسط (٢١٥هـ) : " قال : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** يقول : أَمْلَكُ بِهِ وأَقْرَبُ إِلَيْهِ في المقدرة عليه " . انظر : معانىٰ القرآن (٢/ ٥٢٢) .

وقال الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني (٢٨٠هـ) : " قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾** أَيْ : نَحْنُ نَعْلَمُ مِنْهُ مَا ظهر وَمَا بطن ، مَا غِيبَ مِنْهُ الْجُلُودُ ، وَوَارَاهُ الْجَوْفُ ،

وأخفته الصُّدُور وَأَنْتُم لاتبصرون ، فَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ بِذَلِكَ ..." . انظر : نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عزَّ وجلَّ من التَّوحيد (١/ ٤٤٨-٤٤٩) .

وهنا اضطرَّ أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدَّارمي السِّجستاني إلى التَّأويل حتى لا يصطدم مع معتقده القاضي بأنَّه تعالى على العرش .

وقال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " وقد اختلف أهل العربيَّة في معنى قوله **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** فقال بعضهم : معناه : نحن أملك به ، وأقرب إليه في المقدرة عليه .وقال آخرون : بل معنى ذلك **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** بالعلم بما تُوَسْوس به نفسه " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٢/ ٣٤٢) .

وقال الإمام الطَّبري أيضاً : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾** يقول : ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم " . انظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٢٣/ ١٥٧) .

وقال الإمام الزجَّاج (٣١١هـ) : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** ، أي : نَعلَمُ ما يخفي وما يكنّه في نفسه " . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٥/ ٤٤) .

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَمِنْهُم من يَقُول هُوَ بِكُل مَكَان بقوله : **﴿مَا يكون من نجوى ثَلَاثَة إِلَّا هُوَ رابعهم﴾** ، وَقَوله **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** ، وَقَوله : **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم وَلَكِن لَا تبصرون﴾** ، وَقَوله **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماء إِلَه وَفِي الأَرْض﴾** ، وظنُّوا أَنَّ القَوْل بِأَنَّهُ فِي مَكَان دون مَكَان يُوجب الْحَدّ ، وكلّ ذي حدّ مقصّر عَمَّا هُوَ أعظم مِنْهُ ، وَذَلِكَ عيب وَآفَة ، وَفِي ذَلِك إِيجَاب الْحَاجة إِلَى الْمَكَان مَعَ مَا فِيهِ إِيجَاب الْحَد ، إِذْ لَا يحْتَمل أَن يكون أعظم من الْمَكَان ، لما هُوَ سخف فِي الْمُتَعَارف أَن يخْتَار أُحُدُ مَكَاناً لَا يَسعهُ ، فَيصير حدُّ الْمَكَان حَدّه ، جلَّ رَبنَا عَن ذَلِك وَتَعَالَى " . انظر : التَّوحيد (ص٦٨) .

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) : **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** أَي : بالسُّلطان وَالْقُوَّة وبألوهيته فِي الْبِقَاع كلهَا ، لِأَنَّهَا أمكنة الْعِبَادَة " . انظر : التَّوحيد (ص٧١) .

وقال الإمام الماتريدي (٣٣٣هـ) : " وَالله تَعَالَى لم يزل وَلَا يزَال بِلَا تغير وَلَا زَوَال وَلَا انْتِقَال من حَال إِلَى حَال وَلَا تحرّك وَلَا قَرَار ، إِذْ هُوَ وصف اخْتِلَاف الْأَحْوَال ، وَمن تخْتَلف الْأَحْوَال عَلَيْهِ فَهُوَ غير مفارق لَهَا ، وَمن لَا يُفَارق الْأَحْوَال وَهنَّ أَحْدَاث فَيجب بهَا الْوَصْف بالإحداث ، وَفِي ذَلِك سُقُوط الوحدانيَّة ثُمَّ الْقدَم ثُمَّ جرى لتدبير الْغَيْر عَلَيْهِ إِذْ حَال من الْأَحْوَال لَو كَانَت لذاته لم يجز تغيرها مَا دَامَت ذَاته فَثَبت بذلك الْغَيْر لتغير الْأَحْوَال عَلَيْهِ وبنقله من حَال إِلَى حَال وَذَلِكَ دَلِيل تعاليه عَن الْوَصْف بِالْمَكَانِ إِذْ قد ثَبت أَن كَانَ وَلَا مَكَان وَلَيْسَ فِي الْإِضَافَة إِلَى أَنَّه على الْعَرْش اسْتَوَى تثبيت مَكَان كَمَا لم يكن فِي قَوْله **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** ، وَقَوله **﴿مَا يكون من نجوى**

ثَلَاثَة إِلَّا هُوَ رابعهم﴾ ، وَقَوله **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم﴾** ذَلِك على أَن القَوْل بِالْمَكَانِ لَيْسَ من نوع التَّعْظِيم والتبجيل بل الْأَمْكِنَة إِنَّمَا شرفت بِهِ وتفاوتت أقدارها بتفضيله مَكَانا على مَكَان يَجعله مَخْصُوصاً لأخيار خلقه أَو لما جعل لعبادته وتعظيمه فِيهِ فَأَما أَن يكون أحد تعلو رتبته بِالْمَكَانِ من مُلُوك الأَرْض أَو الأخيار فَلَيْسَ بِهِ فَكيف بِالْملكِ الْجَبَّار الَّذِي مَا ارْتَفع قدر مَكَان وَلَا جلّ خطره إِلَّا بِهِ وَإِذا كَانَ كَذَلِك بَطل أَن يكون فِي الْإِضَافَة تَعْظِيمه ثُمَّ يكون فِيمَا بعد ذَلِك للْحَاجة وَهُوَ يتعالى عَنْهَا فَلذَلِك لم يجب بقوله **﴿الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى﴾** معنى الْكَوْن فِي الْمَكَان إِذْ ذَلِك الْحَرْف يعبر بِهِ عَن الْعُلُوّ والجلال ومحال مثله لَهُ بخلقه فَثَبت أَن ذَلِك من الْوَجْه الَّذِي يسْتَحقّهُ بِذَاتِهِ من الْعُلُوّ والرفعة وَمَا هُوَ بِذَاتِهِ عَلَيْهِ فَهُوَ كَانَ كَذَلِك وَلَا خلق لم يجز الْوَصْف لَهُ بالخلق وَلَا قُوَّة إِلَّا بِاللَّه " . انظر : التَّوحيد (ص١٠٥) .

وقال الإمام السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾** يعني : أمر الله تعالى ، وهو ملك الموت أقرب إليه منكم ، حين أتاه لقبض روحه وَلكِنْ لاَّ تُبْصِرُونَ ما حضر الميت " . انظر : بحر العلوم ٣/ ٣٧٧) .

وقال الإمام الشَّريف الرَّضى (٤٠٦هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** ، وأراد سبحانه أنَّه يعلم غيب الإنسان ووساوس إضماره ، ونجيّ أسراره . فكأنَّه باستبطانه ذلك منه أقرب إليه من وريده . لأنَّ العالم بخفايا قلبه ، أقرب إليه من عروقه وعصبه ، وليس القرب هاهنا من جهة المسافة والمساحة ، ولكن من جهة العلم والإحاطة " . انظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن (٢/ ٣١٠) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسين النَّيسابوري السّلمي (٤١٢هـ) : " قوله تعالى : **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** قال الواسطي رحمة الله عليه : أي نحن أولى به واحقّ ، لأنَّا جمعناه بعد الافتراق ، وأنشأناه بعد العدم ، ونفخنا فيه الرُّوح فالأقرب إليه من هو أعلم به منه بنفسه . قال أيضاً في هذه الآية : به عرفت نفسك وبه عرفت روحك كان ذلك إظهار النُّعوت على قدْر طاقة الخلق ، فأمَّا الحقيقة فلا يتحمَّلها أحد سماعاً . قال بعضهم : القُرب لعبد شاهد بقلبه قُرب الله منه فتقرَّب إلى الله بطاعته ، وجمع همَّه بين يديه بدوام ذكره في علانيته وسرِّه " . انظر : تفسير السلمي وهو حقائق التفسير (٢/ ٢٦٦-٢٦٧) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسين النَّيسابوري السّلمي أيضاً : " قوله تعالى : **﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾** ، قال ابن عطاء : إنَّما ذكر هذا ليعرفوا أقربه منهم ، لأنَّ بينه وبينهم مسافة ، ولكن خطاب التَّحذير والتَّرهيب . قال بعضهم : يتقرَّب المتقرِّبون إليه بأنواع الطَّاعات لعلمهم بعلم الله بهم وقدرته عليهم ، ومن تحقَّق بذلك كان كعامر بن عبد قيس حين قال : ما نظرت إلى شيء إلَّا ورأيت الله أقرب إليَّ منه . كما قال بعضهم :

وتحقَّقتك في سرِّي فناجاك لساني فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعاني

إن يكن غيبك التَّعظيم عن لحظ عياني فلقد سيَّرك الوجد من الأحشاء داني

قال الجنيد : قُرب الحقِّ إلى قلوب العبيد على حسب ما يرى من قُرب قلوب عبيده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلبك . وقال بعضهم : إنَّ لله عباداً قُربهم منه بما هو قريب منهم ، فكانوا قريبين منه بما هو قريب إليهم . وقال أبو الحسين الثَّوري : قُرب القُرب في معنى ما يشيرون إليه بعد البُعد . وقال أبو يعقوب السُّوسي : ما دام العبد في القُرب لم يكن قرباً حتى يغيب عن القُرب بالقُرب ، فإذا ذهب عن رؤية القُرب بالقُرب فذاك قرب " . انظر : تفسير السلمي وهو حقائق التفسير (٢/ ٣٠٢-٣٠٣) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي : أعلم به ، وأقدر عليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، لأنَّ أبعاضه ، وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب علم الله سبحانه عن جميع ذلك شيء" . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٩٨) .

وقال الإمام الثَّعلبي أيضاً : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ بالقدرة والعلم ولا قدرة لكم على دفع شيء عنه . قال عامر بن عبد قيس : ما نظرت إلى شيء إلَّا رأيت الله سبحانه أقرب إليَّ منه . وقال بعضهم : أراد : ورسلنا الذين يقبضون " . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/ ٢٢٣) .

وقال الإمام مكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد﴾ ، أي : ونحن أقرب إلى الإنسان من قتل العاتق ، وقيل معناه : ونحن أملك به وأقرب إليه . وقيل : معناه : ونحن أقرب إليه في العلم بما توسوس به نفسه من حبل الوريد . وهنا من الله جلَّ ذكره زجر للإنسان عن إضمار المعصية " . انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٠٣٦-٧٠٣٧) .

وقال الإمام أبو محمَّد مكي بن أبي طالب القرطبي المالكي أيضاً : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ، أي : ورسلنا أقرب إلى الميِّت منكم يقبضون روحه ولكن لا تبصرونهم ، وهذا كلُّه جواب لمن ادَّعى أنَّه يمتنع من الموت ويدفعه " . انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (١١/ ٧٢٩٥) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : " وفي قوله : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِن حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ تأويلان : أحدهما : ونحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه . الثَّاني : ونحن أملك به من حبل وريده ، مع استيلائه عليه . ويحتمل ثَالِثَاً : ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده ، الذي هو من نفسه ، لأنَّه عرق يخالط القلب ، فعلم الرَّب أقرب إليه من علم القلب " . انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/ ٣٤٦-٣٤٧) .

وقال الإمام ابن حزم الظَّاهري (٤٥٦هـ) : " قَالَ أَبُو محمَّد ذهبت الْمُعْتَزلَة إِلَىٰ أَن الله سُبْحَانَهُ وَتعَالَىٰ فِي كل مَكَان وَاحْتَجُّوا بقول الله تَعَالَىٰ **﴿مَا يكون من نجوى ثَلَاثَة إِلَّا هُوَ رابعهم﴾** ، وَقَوله تَعَالَىٰ **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** وَقَوله تَعَالَىٰ **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم وَلَكِن لَا تبصرون﴾**

قَالَ أَبُو محمَّد : قَول الله تَعَالَىٰ يجب حمله علىٰ ظَاهره مَا لم يمْنَع من حمله علىٰ ظَاهره نَص آخر أَو إِجْمَاع أَو ضَرُورَة حسّ ، وَقد علمنَا أَنَّ كلَّ مَا كَانَ فِي مَكَان فَإِنَّهُ شاغل لذَلِك الْمَكَان ، وَمَالِي لَهُ ، ومتشكِّل بشكل الْمَكَان ، وَالْمَكَان متشكِّل بشكله ، وَلَا بُدَّ من أحد الْأَمريْنِ ضَرُورَة ، وَعلمنَا أَنَّ مَا كَانَ فِي مَكَان فَإِنَّهُ متناه بتناهي مَكَانهُ ، وَهُوَ ذُو جِهَات سِتّ أَو خمس متناهية فِي مَكَانهُ ، وَهَذِه كلهَا صِفَات الْجِسْم ، فَلَمَّا صَحَّ مَا ذكرنَا علمنَا أَنَّ قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** ، **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم﴾** ، وَقَوله تَعَالَىٰ **﴿مَا يكون من نجوى ثَلَاثَة إِلَّا هُوَ رابعهم﴾** إِنَّمَا هُوَ التَّدْبِير لذَلِك والإحاطة بِهِ فَقَط ضَرُورَة لانْتِفَاء مَا عدا ذَلِك ، وأيضاً فَإِن قَوْلهم : فِي كلِّ مَكَان خطأ ، لِأَنَّهُ يلْزم بِمُوجب هَذَا القَوْل أَنَّه يمْلَأ الْأَمَاكِن كلَّهَا ، وَأَن يكون مَا فِي الْأَمَاكِن فِيهِ الله ، تَعَالَىٰ الله عَن ذَلِك . وَهَذَا محَال ، فَإِن قَالُوا : هُوَ فِيهَا بِخِلَاف كَون المتمكِّن فِي الْمَكَان ، قيل لَهُم : هَذَا لَا يعقل وَلَا يقوم عَلَيْهِ دَلِيل ، وَقد قُلْنَا أَنه لَا يجوز إِطْلَاق اسْم علىٰ غير مَوْضُوعه فِي اللُّغَة إِلَّا أَن يَأْتِي بِهِ نَصٌّ فيقف عِنْده ، وندري حِينَئِذٍ أَنه مَنْقُول إِلَىٰ ذَلِك الْمَعْنىٰ الآخر ، وَإِلَّا فَلَا ، فَإِذْ قد صَحَّ مَا قد ذكرنَا فَلَا يجوز أَن يُطلق القَوْل بِأَنَّ الله تَعَالَىٰ فِي كلِّ مَكَان لَا علىٰ تَأْوِيل وَلَا غَيره ، لِأَنَّهُ حكم بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْأَمْكِنَة لَكِن يُطلق القَوْل بِأَنَّهُ تَعَالَىٰ مَعنا فِي كلِّ مَكَان ، وَيكون قَوْلنَا حينئذٍ فِي كلِّ مَكَان إِنَّمَا هُوَ من صلَة الضَّمِير الَّذِي هُوَ النُّون وَالْألف اللَّذَان فِي مَعنا لَا مِمَّا يخبر بِهِ عَن الله تَعَالَىٰ ، وَهَذَا هُوَ معنىٰ قَوْله **﴿هُوَ مَعَهم أَيْن مَا كَانُوا﴾** ، **﴿وَهُوَ مَعكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُم﴾** ، وَذهب قوم إِلَىٰ أَنَّ الله تَعَالَىٰ فِي مَكَان دون مَكَان ، وَقَوْلهمْ هَذَا يفْسد بِمَا ذكرنَا آنِفا وَلَا فرق... ". انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٩٦-٩٧) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** فحبل الوريد أقرب أجزاء نفسه إلىٰ نفسه ، والمراد من ذلك العلم والقدرة ، وأنَّه يسمع قولهم ، ولا يشكل عليه شيء من أمرهم . وفي هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وسكون وأنس قلب لقوم " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٤٥٠) .

وقال الإمام القشيري أيضاً : " ... نحن أقرب إليه منكم بالعلم والرُّؤية والقدرة ... ولكن لا تبصرون! ويقال : أقرب ما يكون العبد من الحقِّ عندما يتمُّ استيلاء ذكره وشهوده عليه ، فينتفىٰ إحساس العبد بغيره ، وعلىٰ حسب انتفاء العلم والإحساس بالأغيار- حتىٰ عن نفسه- يكون تحقّق العبد في سرِّه حتّىٰ لا يرىٰ غير الحقّ .

فالقرب والبعد معناهما : أنَّ العبد في أوان صحوه وأنَّه لم يؤخذ- بعد- عن نفسه فإذا أخذ عنه فلا يكون إلَّا الحق ... لأنَّه حينئذ لا قُرب ولا بُعد " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٥٢٦) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق : ١٦] بالعلم " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٦٤) .

وقال الإمام السَّمعاني التَّميمي الحنفي (٤٨٩هـ) : " وَقَوله : ﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ﴾ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الله تَعَالَىٰ أقرب إِلَيْهِ من كلِّ شَيْء حَتَّىٰ إِنَّه أقرب إِلَيْهِ من مماته وحياته ، وحياة الْإِنْسَان بِهَذَا الْعرق ، حَتَّىٰ إِذا انْقَطع لم يبْق حَياً " . انظر : تفسير القرآن ٥/ ٢٣٩) .

وقال الإمام أبو المظفَّر السَّمعاني أيضاً : " وَقَوله : ﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم﴾ أي : بِالْقُدْرَةِ ، وَقد قيل ملك الْمَوْت وأعوانه ، يَعْنِي : أَنَّهم أقرب إِلَىٰ الْميِّت مِنْكُم" . انظر : تفسير القرآن (٥/ ٢٣٩) .

وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ ، أَعْلَمُ بِهِ ، مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، لأنَّ أَبْعَاضَهُ وَأَجْزَاءَهُ يَحْجُبُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، وَلَا يَحْجُبُ علم الله شيء " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٢٧٢) .

وقال الإمام البغوي أيضاً : " وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ، بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ . وَقِيلَ : وَرُسُلُنَا الَّذِينَ يَقْبِضُونَ رُوحَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ، وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ، الَّذِينَ حَضَرُوهُ " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٥/ ٢٢)

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ مجاز ، والمراد : قرب علمه منه ، وأنَّه يتعلَّق بمعلومه منه ومن أحواله تعلُّقاً لا يخفىٰ عليه شيء من خفيَّاته ، فكأنَّ ذاته قريبة منه ، كما يقال : الله في كلِّ مكان ، وقد جلَّ عن الأمكنة . وحبل الوريد : مثلٌ في فرط القُرب ، كقولهم : هو منِّي مقعد القابلة ومعقد الإزار " . انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/ ٣٨٧) .

وقال الإمام الزَّمخشري أيضاً : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يا أهل الميِّت بقدرتنا وعلمنا ، أو بملائكة الموت " . انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/ ٤٦٨) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالىٰ : ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ يحتمل أن يريد ملائكته ورسله ، ويحتمل أن يريد بقدرتنا وغلبتنا " . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٢٢٩) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ ، أي : بالعِلْم ... والمعنىٰ : ونحن أقربُ إليه حين يَتلقَّىٰ المتُلقِّيان ، وهما الملَكان الموكَّلان بابن آدم يتلقيَّانِ عمله ... " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٥٩).

وقال الإمام ابن الجوزي : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فيه قولان : أحدهما : ملك الموت أدنىٰ إليه من أهله ، ﴿وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ الملائكة ، رواه أبو صالح عن ابن عَبَّاس . والثَّاني : ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ بالعلم والقدرة والرُّؤية " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٢٣٠) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَقَالَ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق : ١٦] ، وَقَالَ : **﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ﴾** [الْمُجَادَلَةِ : ٧] وَالْمُسْلِمُونَ يَقُولُونَ إِنَّهُ تَعَالَىٰ بِكُلِّ مَكَانٍ وَيُرِيدُونَ بِهِ التَّدْبِيرَ وَالْحِفْظَ وَالْحِرَاسَةَ إِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ فَنَقُولُ : لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ أُولَئِكَ الْحَاضِرِينَ مَنْ كَانَ قَائِلاً بِالتَّشْبِيهِ ، فَقَدْ كَانَ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَفِي الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مَنْ هَذِهِ طَرِيقَتُهُ ، فَإِذَا سَأَلُوهُ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام فَقَالُوا : أَيْنَ رَبُّنَا؟ صَحَّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ : فَإِنِّي قَرِيبٌ ، وَكَذَلِكَ إِنْ سَأَلُوهُ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام فَقَالُوا : هَلْ يَسْمَعُ رَبُّنَا دُعَاءَنَا؟ صَحَّ أَنْ يَقُولَ فِي جَوَابِهِ : فَإِنِّي قَرِيبٌ فَإِنَّ الْقَرِيبَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ يَسْمَعُ كَلَامَهُ ، وَإِنْ سَأَلُوهُ كَيْفَ نَدْعُوهُ بِرَفْعِ الصَّوْتِ أَوْ بِإِخْفَائِهِ؟ صَحَّ أَنْ يجب أن بِقَوْلِهِ : فَإِنِّي قَرِيبٌ ، وَإِنْ سَأَلُوهُ هَلْ يُعْطِينَا مَطْلُوبَنَا بِالدُّعَاءِ؟ صَلَحَ هَذَا الْجَوَابُ أيضاً ، وَإِنْ سَأَلُوهُ إِنَّا إِذَا أَذْنَبْنَا ثُمَّ تُبْنَا فَهَلْ يَقْبَلُ اللهُ تَوْبَتَنَا؟ صَلَحَ أَنْ يُجِيبَ بِقَوْلِهِ : فَإِنِّي قَرِيبٌ أَيْ فَأَنَا الْقَرِيبُ بِالنَّظَرِ لَهُمْ وَالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْهُمْ ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ مُطَابِقٌ لِلسُّؤَالِ عَلَىٰ جَمِيعِ التَّقْدِيرَاتِ ...

وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : **﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾** فِيهِ سِرٌّ عَقْلِيٌّ ، وَذَلِكَ لأَنَّ اتِّصَافَ مَاهِيَّاتِ الْمُمْكِنَاتِ بِوُجُودَاتِهَا إِنَّمَا كَانَ بِإِيجَادِ الصَّانِعِ ، فَكَانَ إِيجَادُ الصَّانِعِ كَالْمُتَوَسِّطِ بَيْنَ مَاهِيَّاتِ الْمُمْكِنَاتِ وَبَيْنَ وُجُودَاتِهَا فَكَانَ الصَّانِعُ أَقْرَبَ إِلَى مَاهِيَّةِ كُلِّ مُمْكِنٍ من وجود تلك الماهية إليها ، بل هاهنا كَلَامٌ أَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ الصَّانِعَ هُوَ الَّذِي لِأَجْلِهِ صَارَتْ مَاهِيَّاتُ الْمُمَكَّنَاتِ مَوْجُودَةً فَهُوَ أيضاً لِأَجْلِهِ كَانَ الْجَوْهَرُ جَوْهَراً وَالسَّوَادُ سَوَاداً وَالْعَقْلُ عَقْلاً وَالنَّفْسُ نَفْساً ، فَكَمَا أَنَّ بِتَأْثِيرِهِ وَتَكْوِينِهِ صَارَتِ الْمَاهِيَّاتُ مَوْجُودَةً فَكَذَلِكَ بِتَأْثِيرِهِ وَتَكْوِينِهِ صَارَتْ كُلُّ مَاهِيَّةٍ تِلْكَ الْمَاهِيَّةَ ، فَعَلَىٰ قِيَاسِ مَا سَبَقَ كَانَ الصَّانِعُ أَقْرَبَ إِلَىٰ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْمَاهِيَّةِ إِلَىٰ نَفْسِهَا ... " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٥/ ٢٦٢) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾** المراد قرب علمه منه" . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٣٦٤) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " اتّفق الْمُسلمُونَ كلهم علىٰ تَنْزِيه الله تَعَالَىٰ عَمَّا يَقْتَضِيهِ ظَاهر تِلْكَ النُّصُوص القرآنية من إِثْبَات الْمَكَان والجوارح والأعضاء وطرو الْحَوَادِث عَلَيْهِ تمسكا بالمحكم من النُّصُوص الدَّالَّة علىٰ ذَلِك وتنفيذاً لأمر الله عزَّ وجلَّ ولتحذيره من اتِّبَاع الْمُتَشَابه والخوض فِي تَأْوِيله مَعَ ترك الْمُحكم الْوَاضِح .

وَبعد أَن اتَّفقُوا علىٰ ذَلِك وَهَذَا هُوَ الْقدر الَّذِي يجب أَن يَعْتَقِدهُ كل مُسلم اخْتلفُوا فِي موقفهم من تِلْكَ النُّصُوص المتشابهة إِلَىٰ مذهبين :

أَوَّلُهمَا : تمسَّك بِهِ السَّلف المتقدِّمون .

وَثَانِيْهِمَا : جنح إِلَيْهِ من بعدهمْ من الْمُتَأَخِّرين من منتصف الْقرن الرَّابع ، فَذهب السَّلف إِلَىٰ عدم الْخَوْض فِي تَأْوِيل وَتَفْسِير تفصيلي لهَذِهِ النُّصُوص والاكتفاء بتنزيه الله تَعَالَىٰ عَن كلِّ نقص ومشابهة للحوادث ، وسبيل ذَلِك التَّأْوِيل الإجمالي لهَذِهِ النُّصُوص وتحويل الْعلم التَّفصيلي بِالْمَقْصُودِ مِنْهَا إِلَىٰ الله عزَّ وَجلَّ .

أَمَّا ترك هَذِه النُّصُوص علىٰ ظَاهرهَا دون تَأْوِيل سَوَاء كَانَ إجماليّاً أَو تفصيليّاً فَهُوَ غير جَائِز ، وَهُوَ شَيْء لم يجنح إِلَيْهِ سلف وَلَا خلف ، كَيفَ وَلَو فعلت ذَلِك لحمَّلت عقلك معاني متناقضة فِي كثير من هَذِه الصِّفَات ... " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص٥٥) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي أيضاً : " ... الْآيَة السَّادِسَة عشر قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** ، **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم﴾** ، **﴿فَإِنِّي قريب أُجِيب دَعْوَة الداع﴾** ، **﴿إِن رَبِّي قريب مُجيب﴾**

إِذا ثَبت تَنْزِيه الرَّب تَعَالَىٰ عَن الحيِّز والجهة والقُرب الْحسِّي والبُعد الْعرفِيّ وَجب تَأْوِيل ذَلِك علىٰ مَا يَلِيق بجلاله ، وَهُوَ قُرب علمه وَرَحمته ولطفه ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿إِنَّ رحمت الله قريب من الْمُحْسِنِينَ﴾** أَو قرب الْمنزلَة عِنْده كَمَا يُقَال : السُّلطان قريب من فلَان ، إِذا كَانَت لَهُ عِنْده منزله رفيعة ، وَالسَّيِّد قريب من غلمانه ، إِذا كَانَ يتنازل مَعَهم فِي مخاطبتهم وملاطفتهم ، وَلَيْسَ الْمُرَاد هَهُنَا قرب مَسَافَة وَلَا مَكَان . وَإِذا كَانَ ذَلِك مُسْتَعْملاً فِي لِسَان الْعَرَب وَالْعرْف وَجب حمله عَلَيْهِ لِاسْتِحَالَة ظَاهر الْمسَافَة فِي حقِّ الرَّبِّ تَعَالَىٰ " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٣٥-١٣٦) .

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة (٧٥١هـ) : " وأبلغ وأكفىٰ من ذَلِك كُله قَول الله عزَّ وجلَّ **﴿فلولا إِذا بلغت الْحُلْقُوم وَأَنْتُم حِينَئِذٍ تنْظرُون وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم وَلَكِن لَا تبصرون﴾** أي : أقرب إِلَيْهِ بملائكتنا وَرُسُلنَا وَلَكِنَّكُمْ لَا ترونهم فَهَذَا أول الْأَمر وَهُوَ غير مرئىٰ لنا وَلَا مشَاهد وَهُوَ فِي هَذِه الدَّار " . انظر : الرُّوح في الكلام علىٰ أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة (ص٦٥) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** هو عرق كبير في العنق ، وهما وريدان عن يمين وشمال ، وهذا مثل في فرط القرب ، والمراد به : قرب علم الله واطلاعه علىٰ عبده " . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٣٠٢) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** بيان لكمال علمه ، أي : نحن أعلم به منه ، والوريد العرق الذي يجري فيه الدَّم ويصل إلىٰ كلِّ جزء من أجزاء البدن ، وهو بين الحلقوم والعلباوين ، ومعنىٰ الآية : أنَّ أجزاء الإنسان وأبعاضه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب عن علم الله شيء . وقيل : يحتمل أن يكون

المعنىٰ ونحن أقرب إليه بنفوذ قدرتنا فيه ، ويجري فيه أمرنا كما يجري الدَّم في عروقه " . انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٦/ ٢٣٥) .

وقال الإمام الخازن أيضاً : " ونحن أقرب إليه منكم " ، أي : بالعلم والقدرة والرُّؤية ، وقيل : ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إلىٰ الميِّت منكم " . انظر : تفسير الخازن المسمىٰ لباب التأويل في معاني التنزيل (٧/ ٢٧) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : " **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾** بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ، **﴿وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾** : مِنَ الْبَصِيرَةِ بِالْقَلْبِ ، أَوْ أَقْرَبُ : أَيْ : مَلَائِكَتُنَا وَرُسُلُنَا " . انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٩٤) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** يَعْنِي : مَلَائِكَتُهُ تَعَالَىٰ أقربُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ . وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَىٰ الْعِلْمِ فَإِنَّمَا فَرَّ لِئَلَّا يَلْزَمَ حُلُولٌ أَوِ اتِّحَادٌ ، وَهُمَا مَنْفِيَّانِ بِالْإِجْمَاعِ ، تَعَالَىٰ اللهُ وَتَقَدَّسَ ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَقْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، وإِنَّمَا قَالَ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضِرِ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾** [الْوَاقِعَةِ : ٨٥] ، يَعْنِي مَلَائِكَتَهُ . وَكَمَا قَالَ تَعَالَىٰ **﴿إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** [الْحِجْرِ : ٩] ، فَالْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ بِالذِّكْرِ –وَهُوَ الْقُرْآنُ– بِإِذْنِ اللهِ ، عزَّ وجلَّ . وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ بِإِقْدَارِ اللهِ لَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ" . انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٩٨) .

وقال الإمام ابن كثير أيضاً : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾** أَيْ : بِمَلَائِكَتِنَا" . انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/ ٥٤٨) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي (٧٧٥هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾** ... والمعنىٰ : ونحنُ أقرب إليه منكم بالقدرة والعلم والرُّؤية " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٨/ ٤٤٣) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾** بالقدرة والعلم أو بملائكة الموت " . انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٤٥) .

وقال الإمامان : جلال الدِّين المحلِّي (٨٦٤هـ) ، وجلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَب إِلَيْهِ﴾** بِالْعِلْمِ" . انظر : تفسير الجلالين (ص٦٩٠) ، (ص٧١٧) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالىٰ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** : عبارة عن قُدْرَةِ الله علىٰ العبد ، وكونُ العبد في قبضة القدرة والعلم قد أُحِيط به ، فالقُرب هو بالقدرة والسُّلطان ، إذ لا يَنْحَجِبُ عن علم اللهَّ لا باطنٌ ولا ظاهر" . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٢٨١-٢٨٢) .

وقال الإمام الثَّعالبي أيضاً : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾** أي : بالقدرة والعلم ، ولا قدرةَ لكم على دفع شيء عنه ، وقيل : المعنى : وملائكتنا أقربُ إليه منكم ، ولكن لا تبصرونهم ، وعلى التأويل الأَوَّل من البصر بالقلب " . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٧٣) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : **﴿وَنَحْنُ أقربُ إِلَيْهِ مِنْ حبل الوريد﴾** أعلمُ بحالِه ممنْ كانَ أقربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريدِ عبرَ عنْ قُربِ العلمِ بقُربِ الذاتِ تجوزاً لأنَّهُ موجبٌ لَهُ " . انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) (٨/ ١٢٨) ، (٨/ ٢٠١) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي (١٠٣٣هـ) : " فَقَوله سُبْحَانَهُ **﴿وَلَقَد خلقنَا الْإِنْسَان ونعلم مَا توسوس بِهِ نَفسه وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾** قَالَ الْمُفَسِّرُونَ جَمِيعاً : هُوَ كِنَايَة عَن الْعلم بِهِ وبأحواله ، أَي : وَنحن أعلم بِحَالِهِ مِمَّن كَانَ أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد ، فَهُوَ تجوز بِقرب الذَّات لقرب الْعلم ، لِأَنَّهُ مُوجبه بِحَيْثُ لَا يخفى عَلَيْهِ شَيْء من خفياته فَكَأَن ذَاته قريبَة مِنْهُ .

قَالَ الإِمَام أَبُو حَيَّان : كَمَا يُقَال : إِنَّه تَعَالَى فِي كل مَكَان ، أَي : بِعِلْمِهِ وَهُوَ تَعَالَى منزه عَن الْأَمْكِنَة ، انْتهى .

وَالَّذِي يدلُّ على أَنَّ الْمُرَاد بِالْقُربِ هُوَ الْقُرب بِالْعلمِ سِيَاق الْآيَة فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : **﴿وَلَقَد خلقنَا الْإِنْسَان ونعلم مَا توسوس بِهِ نَفسه﴾** ثُمَّ قَالَ **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ﴾** أَي بِالْعلمِ الْمَفْهُوم من نعلم وحبل الوريد مثل فِي فرط الْقرب كَقَوْل الْعَرَب هُوَ مني مقْعد الْقَابِلَة ومعقد الْإِزَار وَالْحَبل الْعرق فَشبه بِوَاحِد " . انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص٩٨) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي أيضاً : " وأَمَّا قَوْله تَعَالَى **﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ مِنْكُم وَلَكِن لَا تبصرون﴾** فَالْمُرَاد بِهِ قرب أعوان ملك الْمَوْت من المحتضر بِدَلِيل سِيَاق الْآيَة وَهُوَ قَوْله تَعَالَى **﴿فلولا إِذا بلغت الْحُلْقُوم وَأَنْتُم حِينَئِذٍ تنْظرُون﴾** [الْوَاقِعَة : ٨٣ ،٨٤] ، وَنحن أَي : ملائكتنا ، وَعبَّر بهم عَنهُ سُبْحَانَهُ لأَنَّهم رسله ومأموروه أَو الْمُرَاد : وَنحن أقرب إِلَيْهِ أَي بِالْعلمِ .

فَإِن قيل لَو كَانَ الْمُرَاد بِهِ الْعلم لمَا صَحَّ أَن يَقُول : **﴿وَلَكِن لَا تبصرون﴾** ، لأنَّ الْعلم لَا يبصر ، بل كَانَ يَقُول : **﴿وَلَكِن لَا تبصرون﴾** ، لأنَّ الْعلم لَا يبصر .

فَجَوَابه : أَنَّ تبصرون يُطلق على الْبَصَر بِالْعينِ ، وَيُطلق على الشُّعُور وَالْعلم بِالْغَيْبِ ، كَمَا قَالَه أهل اللُّغَة ، لِأَنَّهُ يُقَال : بصرته بعيني وبصرته بقلبي ، فارتفع الْإِشْكَال" . انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٠١) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي (١١٢٧هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ ، أي : الىٰ المحتضر علما وقدرة وتصرُّفاً ، قال بعضهم : عبَّر عن العلم بالْقرب الذي هو أقوىٰ سبب الاطلاع مِنْكُمْ ، حيث لا تعرفون حاله إلَّا ما تشاهدونه من آثار الشَّدة من غير أن تقفوا علىٰ كُنهها وكيفيَّتها وأسبابها ، ولا أن تقدروا علىٰ دفع أدنىٰ شيء منها ، ونحن المتولُّون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت الذين يقبضون روحه " .

انظر : روح البيان (٩/ ٣٣٩) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿ونحن أقربُ إليه﴾ في جميع أحواله ، في حياته ، ووقت مجيء سكرة الموت ، أي : شدَّته الذَّاهبة بالعقل ، ملتبسة بِالْحَقِّ ، أي : بحقيقة الأمر ، وجلاء الحال ، من سعادة الميِّت أو شقاوته " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٤٥٠) ، (٧/ ٣٠٣) .

وقال الإمام المظهري (١٢٢٥هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي : إلىٰ الإنسان ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الحبل العرق ، وإضافته الىٰ الوريد من قبيل شجرة الأراك ويوم الجمعة للبيان والجملة حال ثان من فاعل خلقنا ، والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتي العنق ، متَّصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه . قيل سمِّي وريدان لأنَّ الرُّوح يرده ، واختلف أقوال العلماء في تصوير هذه الأقربيَّة ، فقال علماء الظَّاهر : المراد قُرب علمه منه . قال البيضاوي : معناه نحن أعلم بحاله ممَّن كان أقرب إليه من حبل الوريد ، ففيه تجوُّز لقُرب الذَّات لقرب العلم ، لأنَّه موجبه ، وحبل الوريد مثلٌ يُضرب لكمال القُرب ، يقال : الموت أدنىٰ لي من الوريد . قال البغوي : معناه نحن أعلم به منه ، لأنَّ أبعاضه وأجزائه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب عن علم الله شيء ، وعلىٰ هذا التَّأويل يلزم جواز أن يقال : الطَّبيب أقرب إلىٰ المريض من حبل الوريد ، فإنَّ المريض لا يعلم بعض أحواله من الصحَّة والمرض ما يعلمه الطَّبيب ، ولو بالاستدلال ، لا سيَّما إذا كان شيء عديم العلم والعقل يعلم بعض أحواله وهو لا يعلم شيئاً من أحوال نفسه " .

انظر : التفسير المظهري (٩/ ٦٧) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : " ... كَقَوْلِهِ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ ضَمَائِرِ الْقُلُوبِ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْإِخْبَارِ مِنَ اللهَّ عزَّ وجلَّ ، بِأَنَّهُ أَمْلَكُ لِقُلُوبِ عِبَادِهِ مِنْهُمْ ، وَأَنَّهُ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا إِذَا شَاءَ ، حَتَّىٰ لَا يُدْرِكَ الْإِنْسَانُ شَيْئاً إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ عزَّ وجلَّ ، وَلَا يَخْفَاكَ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ هَذِهِ الْمَعَانِي " . انظر : فتح القدير (٢/ ٣٤٢) .

وقال الإمام الشَّوكاني أيضاً : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ ، أَيْ : بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرُّؤْيَةِ ، وَقِيلَ : أَرَادَ وَرُسُلُنَا الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ قَبْضَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴿وَلكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أَيْ : لَا تُدْرِكُونَ ذَلِكَ لِجَهْلِكُمْ بِأَنَّ اللهَّ أَقْرَبُ إِلَى عَبْدِهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، أَوْ لَا تُبْصِرُونَ مَلَائِكَةَ الْمَوْتِ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ الْمَيِّتَ وَيَتَوَلَّوْنَ قَبْضَهُ " . انظر : فتح القدير (٥/ ١٩٤) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ أي : نعلم به وبأحواله لا يخفىٰ علينا شيء من خفيَّاته علىٰ أنَّه أطلق السَّبب وأريد المسبّب ، لأنَّ القرب من الشَّيء في العادة سبب العلم به وبأحواله أو الكلام من باب التَّمثيل ، ولا مجال لحمله علىٰ القُرب المكاني لتنزُّهه سبحانه عن ذلك " . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٣/ ٣٢٨) .

وقال الإمام الألوسي أيضاً : ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ**﴾ أي : المحتضر المفهوم من الكلام مِنْكُمْ ، والمراد بالقرب العلم ، وهو من إطلاق السَّبب وإرادة المسبّب ، فإنَّ القُرب أقوىٰ سبب للاطلاع والعلم ، وقال غير واحد : المراد القُرب علماً وقدرة ، أي : نحن أقرب إليه من كلِّ ذلك منكم ، حيث لا تعرفون من حاله إلَّا ما تشاهدونه من آثار الشدَّة من غير أن تقفوا علىٰ كنهها وكيفيَّتها وأسبابها الحقيقيَّة ، ولا أن تقدروا علىٰ مباشرة دفعها إلَّا بما لا ينجع شيئاً ، ونحن المستولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ، ﴿**وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ**﴾ ، لا تدركون كوننا أقرب إليه منكم لجهلكم بشؤوننا ، وقد علمت أنَّ الخطاب للكفَّار ، وقيل : لا تدركون كنّه ما يجري عليه ، علىٰ أنَّ الاستدراك من تنظرون ، والابصار من البصر بالعين تجوّز به عن الإدراك أو هو من البصيرة بالقلب ، وقيل : أُريد بأقربيَّته تعالىٰ إليه منهم أقربيَّة رسله عزَّ وجلَّ ، أي : ورسلنا الذين يقبضون روحه ويعالجون إخراجها أقرب إليه منهم ، ولكن لا تبصرونهم " . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٤/ ١٥٧-١٥٨) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿**ونحن أقرب إليه**﴾ ، أي : إلىٰ الإنسان ، لأنَّ أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً ، ولا يحجب علىٰ الله شيء " . انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٣/ ١٦٧) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ ، أي : ونحن أقرب إلىٰ الإنسان من العرق الذي يجري فيه الدَّم ، ويصل إلىٰ كلِّ جزء من أجزاء البدن بعلمنا بحاله ، وبنفوذ قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدَّم في عروقه " . انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٤٤٦)

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي (١٣١٦هـ) : ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ**﴾ ، أي : ونحن أقرب إلىٰ الميِّت من أهله الحاضرين عنده بعلمنا وقدرتنا ، ولكن لا تدركون ذلك لجهلكم بشئوننا " . انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٤٨٧) .

وقال الإمام القاسمي (١٣٣٢هـ) : " قوله تعالىٰ : ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ تمثيل للقُرب المعنوي ، بالصُّورة الحسيَّة المشاهدة . وقد جعل ذاك القرب أتمّ من غاية القرب الصُّوريّ ، الذي لا اتِّصال أشدّ منه في الأجسام ، إذ لا مسافة بين الجزء المتَّصل به وبينه .

قال الشِّهاب : تجوّز بقرب الذَّات عن قرب العلم ، لتنزُّهه عن القُرب المكاني ، أمَّا تمثيلاً ، وأمَّا من إطلاق السَّبب وإرادة المسبّب ، لأنَّ القُرب من الشَّيء سبب للعلم به وبأحواله في العادة . والمعنىٰ : أنَّه تعالىٰ أعلم بأحواله ، خفيِّها وظاهرها ، من كلِّ عالِمٍ . وقد ضرب المثل في القرب بحبل الوريد ، لأنَّ أعضاء المرء وعروقه متَّصلة علىٰ طريق الجزئيَّة ، فهي أشدّ من اتِّصال ما اتَّصل به من الخارج . وخصَّ هذا لأنَّ به حياته ، وهو بحيث يشاهده كلُّ أحد " .
انظر : محاسن التأويل (٩/ ١١) .

وقال الإمام المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، أي : ونحن أعلم به وبخفيَّات أحواله لا يخفىٰ علينا شيء من أمره " . انظر : تفسير المراغي (٢٦/ ١٥٩) .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الوريد الذي يجري فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصِّور القبضة المالكة ، والرَّقابة المباشرة . وحين يتصوَّر الإنسان هذه الحقيقة لا بدَّ يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ علىٰ كلمة لا يرضى الله عنها . بل ما جرؤ علىٰ هاجسة في الضَّمير لا تنال القبول . وإنَّها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة ." . انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٦٢) . وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفىٰ : بعد ١٣٩٠هـ) : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ .

في هذه الآية عرض آخر لقدرة الله سبحانه وتعالىٰ ، وقد غاب مفهوم هذه القدرة عن عقول هؤلاء المشركين ... وفي إعادة هذا العرض لقدرة الله ، تذكير لهم ببعض مظاهرة هذه القدرة ، ليراجعوا عقولهم مرَّة أخرىٰ ، وليرجعوا من طريق الضَّلال الذي هم سائرون فيه . . .

فالله سبحانه ، هو الذي خلق هذا الإنسان من تراب الأرض ، فجعل منه هذا الكائن العاقل ، السَّميع ، البصير ، وهو سبحانه الذي يعلم من أمر هذا الإنسان ما توسوس به نفسه من خواطر ، وما يضطرب فيها من خلجات . .

وهو سبحانه أقرب إلىٰ الإنسان– كلّ إنسان– من حبل الوريد " . انظر : التفسير القرآني للقرآن (١٣/ ٤٧٨) .

وقال الإمام محمَّد الطاهر بن محمَّد بن محمَّد الطَّاهر بن عاشور التُّونسي (١٣٩٣هـ) : " وَجُمْلَةُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنْ مَفْعُولِ تَنْظُرُونَ الْمَحْذُوفِ ، أَوْ مُعْتَرِضَةٌ وَالْوَاوُ اعْتِرَاضِيَّةٌ . وَأَيّاً مَا كَانَتْ فَهِيَ احْتِرَاسٌ لِبَيَانِ أَنَّ ثَمَّةَ حُضُوراً أَقْرَبَ مِنْ حُضُورِهِمْ عِنْدَ الْمُحْتَضِرِ وَهُوَ حُضُورُ التَّصْرِيفِ لِأَحْوَالِهِ الْبَاطِنَةِ . وَقُرْبُ اللَّهِ : قُرْبُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِهِ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ [الْفَجْرِ : ٢٢] أَوْ قُرْبُ مَلَائِكَتِهِ الْمُرْسَلِينَ لِتَنْفِيذِ أَمْرِهِ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِهِ : ﴿وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ﴾ [الْأَعْرَاف : ٥٢] ، أَيْ جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ بِكِتَابٍ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الْأَعْرَاف : ٣٧] . انظر : التحرير والتنوير (٢٧/ ٣٤٤) .

وَإِن قُلْتُمْ ذَلِك فَلم تحلُّونه عَاماً وتحرِّمونه عَاماً ؟ وَمن أَيْن لكم أَن لَيْسَ الاسْتوَاء فعلاً من أَفعاله تَعَالَى فِي الْعَرْش ؟ فَإِن قَالُوا : لَيْسَ هَذَا كَلَام الْعَرَب .

قُلْنَا : وَلَا كَلَام الْعَرَب اسْتَوَى بِالْمَعْنَى الَّذِي تقولونه بِلَا جسم .

وَلَقَد رام الْمُدَّعِي التَّفلُّت من شرك التَّجسيم بِمَا زَعمه من أَنَّ الله تَعَالَى فِي جِهَة ، وَأَنَّه اسْتَوَى على الْعَرْش اسْتِوَاء يَلِيق بجلاله .

فَنَقُول لَهُ : قد صرت الْآن إِلَى قَوْلنَا فِي الاسْتوَاء ، وَأَمَّا الْجِهَة فَلَا تلِيق بالجلال .

وَأخذ على الْمُتَكَلِّمين قَوْلهم : إِنَّ الله تَعَالَى لَو كَانَ فِي جِهَة ، فإِمَّا أَن يكون أكبر أَو أَصْغَر أَو مُسَاوِياً ، وكل ذَلِك محَال .

قَالَ : فَلم يفهموا من قَول الله تَعَالَى :﴿على الْعَرْش﴾ إِلَّا مَا يثبتون لأي جسم كَانَ على أَي جسم كَانَ .

قَالَ : وَهَذَا اللَّازِم تَابع لهَذَا الْمَفْهُوم وَأما اسْتِوَاء يَلِيق بِجلَال الله فَلَا يلْزمه شَيْء من اللوازم .

فَنَقُول لَهُ أتميميَّاً مرّة وقيسيَّاً أُخْرَى ؟ إِذا قلت : اسْتَوَى اسْتِوَاء يَلِيق بِجلَال الله ، فَهُوَ مَذْهَب الْمُتَكَلِّم ،ين وَإِن قلت : اسْتِوَاء هُوَ اسْتِقْرَار واختصاص بِجِهَة دون أُخْرَى ، لم يجد ذَلِك تخلُّصاً من التَّرديد الْمَذْكُور ، والاستواء بِمَعْنى الِاسْتِيلَاء .

وَأشْهد لَهُ فِي هَذِه الْآيَة أَنَّهَا لم ترد قطّ إِلَّا فِي إِظْهَار العظمة وَالْقُدْرَة وَالسُّلْطَان وَالْملك ، وَالْعرب تكنِّي بذلك عَن الْملك ، فَيَقُولُونَ : فلَان اسْتَوَى على كرْسِي المملكة ، وَإِن لم يكن جلس عَلَيْهِ مرَّة وَاحِدَة ، ويريدون بذلك الْملك .

وَأَمَّا قَوْلهم : فَإِن حملتم الاسْتوَاء على الِاسْتِيلَاء لم يبْق لذكر الْعَرْش فَائِدَة ، فَإِن ذَلِك فِي حقِّ كلِّ الْمَخْلُوقَات ، فَلَا يخْتَص بالعرش .

فَالْجَوَاب عَنهُ : أَنَّ كلَّ الموجودات لمَّا حواها الْعَرْش كَانَ الِاسْتِيلَاء عَلَيْهِ اسْتِيلَاء على جَمِيعهَا ، وَلَا كَذَلِك غيره ، وَأَيْضاً فكناية الْعَرَب السَّابِقَة ترجِّحه ، وَقد تقدَّم الْكَلَام عَن السَّلف فِي معنى الاسْتوَاء ، كجعفر الصَّادِق ، وَمن تقدَّم .

وَقَوْلهمْ : اسْتَوَى بمعنى استولى إِنَّمَا يكون فِيمَا يدافع عَلَيْهِ (٥٨) ، قُلْنَا : واستوى بمعنى جلس أَيْضا إِنَّمَا يكون فِي جسم ، وَأَنْتُم قد قُلْتُمْ : إِنَّكُم لَا تَقولُونَ بِهِ وَلَو وصفوه تَعَالَى بالاستواء على الْعَرْش لما أَنْكَرْنَا عَلَيْهِم ذَلِك بل نعدهم إِلَى مَا يشبه التَّشْبِيه أَو هُوَ التَّشْبِيه الْمَحْذُور ، وَالله الْمُوفق .

---

(٥٨) من المعلوم أَنَّ العديد من أهل العلم تأَوَّلوا الاستواء على العرش بالقهر والاستيلاء ، ومنهم على سبيل المثال :

(١) قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿اسْتَوَى﴾ : " عَلَا عَلَيْهَا عُلُوَّ مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ لَا عُلُوَّ انْتِقَالٍ وَزَوَالٍ " . انظر : تفسير الطَّبري (١/ ٤٥٧) .

(٢) وقال الإمام الزَّجَّاج (٣١١هـ) : " معنىٰ ﴿اسْتَوَى﴾ استولىٰ " . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٣٥٠) .

(٣) قال الإمام الجصَّاص (٣٧٠هـ) : " قَالَ الْحَسَنُ : اسْتَوَىٰ بِلُطْفِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَقِيلَ : اسْتَوْلَىٰ " . انظر : أحكام القرآن (٤٩/٥)

(٤) قال الإمام محمود بن أبىٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري أبو القاسم ، نجم الدِّين (المتوفىٰ : نحو ٥٥٠هـ) : " استولىٰ بالاقتدار ونفوذ السُّلطان " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (١/ ٤٥٠) .

(٥) قال الإمام الزجَّاجي (٣٣٧هـ) في كتابه "اشتقاق أسماء الله" (ص١٠٩) : " والعلي والعالي أيضًا: القاهر الغالب للأشياء. تقول العرب: علا فلان فلانًا: أي : غلبه وقهره، كما قال الشَّاعر:

فلمَّا علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعىٰ لنسر وكاسر

يعني : غلبناهم ، وقهرناهم ، واستولينا عليهم.

وكذلك قيل في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ﴾ ، قالوا: معناه: قهر أهلها وغلبهم واستولىٰ عليه " .

(٦) وقال الإمام أبو الليث نصر بن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم السَّمرقندي (٣٧٣هـ) في " بحر العلوم" (٢/ ٣٩٠) : " ويقال : استوىٰ استولىٰ" .

(٧) قال الإمام أبو بكر بن فورك الأصبهاني (٤٠٦هـ) في كتابه " مشكل الحديث وبيانه " (ص٣٨٩) : " ... لِأَنَّ إستواءه علىٰ الْعَرْش سُبْحَانَهُ لَيْسَ علىٰ معنىٰ التَّمَكِين والإستقرار ، بل هُوَ علىٰ معنىٰ الْعُلُوّ بالقهر وَالتَّدْبِير وإرتفاع الدرجَة بِالصّفةِ علىٰ الْوَجْه الَّذِي يَقْتَضِي مباينة الْخلق" .

(٨) قال الإمام أبو محمَّد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين (٤٣٨هـ) قال في كفاية المعتقد" علىٰ ما نقله الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) في " إتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين " (٢/ ١٠٩) :" أمَّا ما ورد من ظاهر الكتاب والسُّنَّة ما يوهم بظاهرها تشبيهاً فللسَّلف فيه طريقان :

إحْدَاهُمَا : الإعراض فيها عن الخوض فيها وتفويض عملها إلىٰ الله تعالىٰ ، وهذه طريقة ابن عبَّاس وعامَّة الصَّحابة ، وإليها ذهب كثير من السَّلف ، وذلك مذهب من يقف علىٰ قوله : ﴿**ومايعلم تأويله إلَّا الله**﴾ ، ولا يستبعد أن يكون لله تعالىٰ سرٌّ فى كتابه ، والصَّحيح أنَّ الحروف المقطَّعة من هذا القبيل ، ويعلم بالدَّليل يقيناً أنَّ ركناً من أركان العقيدة ليس تحت ذلك السِّر، لأنَّ الله تعالىٰ لا يؤخِّر البيان المفتقر إليه عن وقت الحاجة ، ولا يكتم كتماناً ، والطَّريقة الثَّانية الكلام فيها وفي تفسيرها بأن يردّها عن صفات الذَّات إلىٰ صفات الفعل ، فيُحمل النُّزول علىٰ قرب الرَّحم ، واليد

علىٰ النِّعمة ، والاستواء علىٰ القهر والقدرة . وقد قال صلَّىٰ الله عليه وسلم : " كلتا يديه يمين" ، ومن تأمَّل هذا اللفظ انتفىٰ عن قلبه ريبة التَّشبيه ، وقد قال تعالىٰ : **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** ، وقال : **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾** ، فكيف يكون علىٰ العرش ساعة كونه سادسهم إلَّا أن يردّ ذلك إلىٰ معنىٰ الإدراك والإحاطة ، لا إلىٰ معنىٰ المكان والاستقرار والجهة والتَّحديد اهـ" .

(٩) قال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) في " النُّكت والعيون" : **﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾** فيه قولان: أحدهما: معناه : استوىٰ أمره علىٰ العرش ، قاله الحسن. والثَّاني: استولىٰ علىٰ العرش ، كما قال الشَّاعر:

قد اسْتَوَىٰ بِشْرٌ علىٰ العِرَاقِ   مِن غَيْرِ سَيْفٍ ودم مُهْرَاقٍ" .

(١٠) قال الإمام البيهقي (٤٥٨هـ) في الأسماء والصِّفات" (٢/٣٠٧) : " وَفِيمَا كَتَبَ إِلَيَّ الْأُسْتَاذُ أَبُو مَنْصُورِ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ مُتَأَخِّرِي أَصْحَابِنَا ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الِاسْتِوَاءَ هُوَ الْقَهْرُ وَالْغَلَبَةُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الرَّحْمَنَ غَلَبَ الْعَرْشَ وَقَهَرَهُ، وَفَائِدَتُهُ الْإِخْبَارُ عَنْ قَهْرِهِ مَمْلُوكَاتِهِ، وَأَنَّهَا لَمْ تَقْهَرْهُ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْعَرْشَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ الْمَمْلُوكَاتِ، فَنَبَّهَ بِالْأَعْلَى عَلَى الْأَدْنَى، قَالَ: وَالِاسْتِوَاءُ بِمَعْنَى الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ شَائِعٌ فِي اللُّغَةِ، كَمَا يُقَالُ: اسْتَوَىٰ فُلَانٌ عَلَى النَّاحِيَةِ إِذَا غَلَبَ أَهْلَهَا، وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ:

قَدِ اسْتَوَىٰ بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

يُرِيدُ: أَنَّهُ غَلَبَ أَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ مُحَارَبَةٍ ... " .

(١١) قال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) في " الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" (ص٦٩١) : **﴿اسْتَوَى﴾** أي : استولىٰ " .

(١٢) قال الإمام أبو إسحاق الشيرازي (٤٧٦هـ) في كتابه الإشارة إلىٰ مذهب أهل الحق" (ص٢٤٠) : " ومنهم من قال : الاستواء بمعنىٰ الاستيلاء ، استوىٰ علىٰ العرش ، أي : استولىٰ عليه ، يقال : استوىٰ فلان علىٰ الملك ، أي استولىٰ عليه " .

(١٣) قال الإمام أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني الشَّافعي (٤٧٨هـ) في كتابه "الإرشاد" : " فإن استدلوا بظاهر قوله تعالىٰ : **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾** [سورة طه :٥] ، فالوجه معارضتهم بآي يساعدوننا علىٰ تأويلها ، منها قوله تعالىٰ : **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾** [سورة الحديد : ٤] ، وقوله تعالىٰ : **﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾** [سورة الرعد : ٣٣] فنسائلهم عن معنىٰ ذلك ، فإن حملوه علىٰ كونه معنا بالإحاطة والعلم ، لم يمتنع منا حمل الاستواء علىٰ القهر والغلبة ، وذلك شائع في اللغة ، إذ العرب تقول : استوىٰ فلان علىٰ الممالك إذا احتوىٰ علىٰ مقاليد الملك واستعلىٰ علىٰ الرقاب . وفائدة تخصيص العرش بالذكر أنه اعظم المخلوقات في ظن البرية ، فنص عليه

تنبيهاً بذكره علىٰ ما دونه . فإن قيل : الاستواء بمعنىٰ الغلبة ينبئ عن سبق مكافحة ومحاولة ، قلنا : هذا باطل ، إذ لو أنبأ الاستواء عن ذلك لأنبأ عنه القهر . ثُمَّ الاستواء بمعنىٰ الاستقرار بالذات ينبئ عن اضطراب واعوجاج سابق ، والتزام ذلك كفر ..." .

(١٤) الإمام عبد الرَّحْمَن بن محمَّد الشَّافعي المعروف بالمتولي [ت٤٧٨هـ] قال في كتابه "الغنية" في دفع شبهة من منع تفسير الاستواء بالقهر ما نصه : "فإن قيل الاستواء إذا كان بمعنىٰ القهر والغلبة فيقتضي منازعة سابقة وذلك محال فيوصفه . قلنا : والاستواء بمعنىٰ الاستقرار يقتضي سبق الاضطراب والاعوجاج ، وذلكمحال في وصفه"اهـ .

(١٥) النحوي أبو الحسن علي بن فضّال المجاشعي [ت٤٧٩هـ] في كتابه النكت في القرءان الكريم .

٢٠ .اللغوي أبو القاسم الحسين بن محمَّد المعروف بالراغب الأصبهاني [ت٥٠٢هـ] قال في كتابه "المفردات" ما نصه : "ومتىٰ عدّي– أي الاستواء – بـ "علىٰ" اقتضىٰ معنىٰ الاستيلاء كقوله : {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ } [سورة طه]"اهـ .

٢١ .الشيخ الفقيه أبو حامد الغزالي الشَّافعي [ت٥٠٥هـ] قال في كتابه "إحياء علوم الدين" عندما تكلم عن الاستواء ما نصه : "وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء" اهـ

٢٢ .المتكلم أبو المعين ميمون بن محمَّد النسفي الحنفي [ت٥٠٨هـ] قال في كتابه"تبصرة الأدلة" بعد أن ذكر معاني الاستواء وأن منها الاستيلاء ما نصه : "فعلىٰ هذا يحتمل أن يكون المراد منه : استولىٰ علىٰ العرش الذي هو أعظم المخلوقات وتخصيصه بالذكر كان تشريفا له" ، ثُمَّ قال : وتزييف (بعض) الأشعرية هذا التأويل لمكان أن الاستيلاء يكون بعد الضعف . وهذا لا يتصور في الله تعالىٰ ، ونسبتهم هذا التأويل إلىٰ المعتزلة ليس بشيء ، لأنَّ أصحابنا أولوا هذا التأويل ولم تختص به المعتزلة . وكون الاستيلاء إن كان في الشاهد عقيب الضعف ولكن لم يكن هذا عبارة عن استيلاء عن ضعف في اللغة ، بل ذلك يثبت علىٰ وفاق العادة كما يقال علم فلان ، وكان ذلك في المخلوقين بعد الجهل ، ويقال قدر ، وكان ذلك بعد العجز ، وهذا الاطلاق جائز في الله تعالىٰ علىٰ إرادة تحقق العلم والقدرة بدون سابقة الجهل والعجز ، فكذا هذا . "اهـ .

٢٣ .الإمام أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري [ت٥١٤هـ] الذي وصفه الحافظ عبد الرزاق الطبسي بإمام الأئمة . قال في كتابه "التذكرة الشرقية" ما نصه : فإن قيل أليس الله يقول {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ } [سورة طه] فيجب الأخذ بظاهره ، قلنا : الله يقول أيضاً {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [سورة الحديد] ، ويقول تعالىٰ {أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ } [سورة فصلت :٥٤] فينبغي أيضاً أن نأخذ بظاهر هذه الآيات حتىٰ يكون

علىٰ العرش وعندنا ومعنا ومحيطا بالعالم محدقا به بالذات في حالة واحدة . والواحد يستحيل أن يكون بذاته في حالة واحدة بكل مكان . قالوا قوله تعالىٰ {وَهُوَ مَعَكُمْ }يعني بالعلم ، و : { بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ }إحاطة العلم ، قلنا : وقوله تعالىٰ {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ } قهر وحفظ وأبقىٰ'' انتهىٰ .

يعني أنهم قد أولوا هذه الآيات ولم يحملوها علىٰ ظواهرها فكيف يعيبون علىٰ غيرهم تأويل ءاية الاستواء بالقهر ، فما هذا التحكم؟!

ثم قال القشيري رحمه الله : ''ولو أشعر ما قلنا توهم غلبته لأشعر قوله : {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام : ١٨] بذلك أيضاً حتىٰ يقال كان مقهورا قبل خلق العباد هيهات إذ لم يكن للعباد وجود قبل خلقه إياهم بل لو كان الأمر علىٰ ما توهمه الجهلة من أنه استواء بالذات لأشعر ذلك بالتغيير واعوجاج سابق علىٰ وقت الاستواء فإن البارئ تعالىٰ كان موجودا قبل العرش ، ومن أنصف علم أن قول من يقول العرش بالرب استوىٰ أمثل من قول من يقول الرب بالعرش استوىٰ ، فالرب إذا موصوف بالعلو وفوقية الرتبة والعظمة ومنزه عن الكون في المكان وعن المحاذاة'' اهـ .

٢٤ .القاضي الشيخ أبو الوليد محمَّد بن أحمد المالكي قاضي الجماعة بقُرْطُبة المعروف بابن رشد الجد [ت٥٢٠هــ] قال ما نصه :''والاستواء في قوله تعالىٰ : { ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } [سورة الأعراف] معناه استولىٰ قاله الواحدي وقيل معناه القهر والغلبة''اهــ ، ذكره ابن الحاج المالكي في كتابه ''المدخل'' موافقاً له ومقــراً لكلامه .

٢٥ .العلامة الفقيه الأصولي أبو الثناء محمود بن زيد اللامشي الحنفي الماتريدي[ت٥٢٢هـ] قال ما نصه : ''ووجه ذلك أن الاستواء قد يُذكر ويراد به الاستقرار ، وقد يذكر ويراد به الاستيلاء فيحمل عليالاستيلاء دفعا للتناقض ، وإنَّما خص العرش بالذكر تعظيما له كما خصه بالذكر في قولهتعالىٰ : {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [سورةالتوبة :١٢٩] وإن كان هو رب كل شيء''اهـ .

٢٦ .المفسر أبو محمَّد عبد الحق بن عطية الأندلسي [ت٥٤١هـ] قال في تفسيره : وقيل المعنىٰ : استولىٰ كما قال الشاعر :

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق   من غير سيف ودم مهراق

وهذا إنَّما يجيء في قوله تعالىٰ : {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ }والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث ، ويبقىٰ استواء القدرة والسلطان .اهـ وقال : وقد تقدَّم القول في كلام النَّاس في الاستواء ، واختصاره أن أبا المعالي رجّح أنه استوىٰ بقهره وغلبته ، وقال القاضي ابن الطيِّب وغيره : {اسْتَوَىٰ} في هذا الموضع استولىٰ .اهـ

٢٧ .القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض اليحصبي السبتي المالكي [ت٥٤٤هـ] ذكر في كتابه مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار عدة أقوال في تفسير ءاية الاستواء : وقال بعضهم : هو إظهار لآياته لا مكان لذاته . .وقيل : استوىٰ بمعنىٰ العلو بالعظمة ، . . وقيل : استوىٰ قهر .اهـ

٢٨ .الحافظ الكبير محدث الشام المؤرخ أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله [ت٥٧١هــ] قال ما نصه :

خـلق السَّماء كــمـا يشـــــا ء بــلا دعــائـمـمســتـقـلــه

لا لـــلـتـحـيــز كـي تـكـــــو ن لــــذاتـه جـــهـة مــقـلـــه

رب عــلىٰ الـــعـرش اسـتــوىٰ قـــهـــرا ويـــنـزل لا بـــنـقـلـه

٢٩ .الشيخ نور الدِّين أحمد بن محمود بن أبىٰ بكر الصابونىٰ [ت٥٨٠هـ] في كتابه البداية من الكفاية .

٣١ .المفسّر فخر الدِّين الرازي الشَّافعي [ت٦٠٦هـ] قال في تفسيره ما نصه : ''فثبت أن المراد استواؤه علىٰ عالمالأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ''اهــ ، وقال في موضع ءاخر ما نصه : ''قال بعض العلماء : المراد من الاستواء الاستيلاء'' ثُمَّ قال في دفع شبهة من قال الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز :'' إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية'' .اهـ ، وقال في كتابه''أساس التقديس'' : ''وإذا ثبت هذا ظهر أنه ليس المراد من الاستواء الاستقرار ، فوجب أن يكون المراد هو الاستيلاء والقهر ونفاذ القدر وجريان الأحكام الإلهية ، وهذا مستقيم علىٰ قانون اللغة فقد قال الشاعر :

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق من غير سيف ودم مهراق

() الإمام الآمدي () : " الحنبلي ثُمَّ الشَّافعي [ت٦٣١هـ] ذكر في كتابه ''أبكار الأفكار'' أن تفسير الاستواء بالاستيلاء والقهر هو من أحسن التأويلات وأقربها .

٣٤ .العالِم النحوي الفقيه المالكي أبو عمرو عثمان بن عمر ابن الحاجب [ت٦٤٦هـ] قال في أماليه : فإنما أتىٰ بـ''علىٰ'' لـما في الاستواء من معنىٰ الاستعلاء ، ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ { ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } ،وقوله[للشاعر] : قد استوىٰ بشر علىٰ العراق'' .اهـ يريد بذلك علو القهر ، بدليل قوله في عقيدته عن الله : وعدم حلوله في المتحيز ، وعدم اتحاده بغيره ، وعدم حلوله فيه ، واستحالة كونه في جهة .اهـ

٣٥ .الشيخ عبد العزيز بن عبد السَّلام الشَّافعي [ت٦٦٠هـ] قال في كتابه''الإشارة إلىٰ الإيجاز'' : استواؤه علىٰ العرش وهو مجاز عن استيلائه علىٰ ملكه وتدبيره إياه .اهـ

٣٦ .المفسر أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي [ت٦٧١هـ] قال في تفسيره : وقيل : علا دون تكييف ولا تحديد ، واختاره الطَّبري . ويذكر عن أبي العالية الرياحي في هذه الآية أنه يقال : استوىٰ بمعنىٰ أنه ارتفع . قال

البيهقي : ومراده من ذلك – والله أعلم – ارتفاع أمره ، وهو بخار الماء الذي وقع منه خلق السَّماء . وقيل : إن المستوىٰ الدخان . وقال ابن عطية : وهذا يأباه وصف الكلام . وقيل : المعنىٰ استولىٰ ، كما قال الشاعر :

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق   من غير سيف ودم مهراق

قال ابن عطية : وهذا إنَّما يجيء في قوله تعالىٰ : {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ } قلت : قد تقدَّم في قول الفراء عليّ وإليّ بمعنىٰ . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في سورة "الأعراف" إن شاء الله تعالىٰ . والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع الحركة والنقلة . اهـ

وقال الإمام القرافي (٦٨٤هـ) : " وَمعنىٰ قَول مَالك الاستواء غَيْرُ مَجْهُولٍ : أَنَّ عُقُولَنَا دَالَّتْنَا عَلَى الِاسْتِوَاءِ اللَّائِقِ بِاللَّهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهُوَ الِاسْتِيلَاءُ دُونَ الْجُلُوسِ وَنَحْوِهِ مِمَّا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْأَجْسَامِ " . انظر : الذخيرة (١٣/ ٢٤٣) .

وقال الإمام النَّسفي : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ } [الفرقان : ٥٩] استولىٰ " . انظر : تفسير النسفى (٢/ ٥١ ، ٢/ ١٣٣ ، ٢/ ٢٠١ ، ٣/ ٤٧ ، ٣/ ٢٣٠ ، ٤/ ١٧٥) .

وقال الإمام ناصر الدِّين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمَّد الشِّيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ) : " استوىٰ أمره أو استولىٰ ، وعن أصحابنا أنَّ الاستواء علىٰ العرش صفة لله بلا كيف ، والمعنىٰ : أن له تعالىٰ استواء علىٰ العرش علىٰ الوجه الذي عناه منزَّهاً عن الاستقرار والتمكُّن ، والعرش الجسم المحيط بسائر الأجسام سمِّي به لارتفاعه ، أو للتَّشبيه بسرير الملك ، فإنَّ الأمور والتَّدابير تنزل منه " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ١٦) .

وإتماماً للفائدة في موضوع الاستواء ، أرىٰ أن أنقل بعض الكلام الطيِّب لبعض علماء الأمة الذين وضّحوا وفصّلوا الكلام في هذه البابة . . .

قال الإمام الغزالي في "الاقتصاد في الاعتقاد" (ص٨٣ فما بعدها) :

"الدَّعوىٰ الثَّامنة : الله والعرش" :

ندَّعي أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن أن يوصف بالاستقرار علىٰ العرش ، فإنَّ كلَّ متمكّن علىٰ جسم والمستقرّ عليه مقدَّر لا محالة ، فإنَّه أمَّا أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً ، وكل ذلك لا يخلو عن التَّقدير ، وإنه لو جاز أن يماسّه جسم من هذه الجهة لجاز أن يماسّه من سائر الجهات ، فيصير محاطاً به ، والخصم لا يعتقد ذلك بحال وهو لازم علىٰ مذهبه بالضَّرورة . وعلىٰ الجملة لا يستقُّر علىٰ الجسم إلَّا جسم ، ولا يحلُّ فيه إلَّا عَرَض ، وقد بان بأنَّه تعالىٰ ليس بجسم ولا عَرَض فلا يحتاج إلىٰ إقران هذه الدَّعوىٰ بإقامة البرهان ...

أمَّا الاستواء فهو نسبته للعرش لا محالة ، ولا يمكن أن يكون للعرش إليه نسبة إلَّا بكونه معلوماً أو مراداً أو مقدوراً عليه أو محلَّاً مثل محل العَرَض أو مكاناً مثل مستقر الجسم ، ولكن بعض هذه النِّسبة تستحيل عقلاً ، وبعضها لا

يصلح اللفظ للاستعارة به له . فإن كان في جملة هذه النِّسبة مع أنَّه لا نسبة سواها نسبة لا يحيلها العقل ولا ينبو عنها اللفظ ، فليعلم أنَّهَا المراد ، أمَّا كونه مكاناً أو محلّاً كما كان للجوهر والعَرَض ، إذ اللفظ يصلح له ولكن العقل يُحيله كما سبق ، وأمَّا كونه معلوماً ومراداً فالعقل لا يُحيله ولكن اللفظ لا يصلح له . وأمَّا كونه مقدوراً عليه وواقعاً في قبضة القدرة ومسخراً له مع أنَّه من أعظم المقدورات ويصلح الاستيلاء عليه لأنَّ يتمدَّح به ويتبعه به على غيره الذي هو دونه في العظم ، فهذا ممَّا يحيله العقل ويصلح له اللفظ ، فاخلق بأن يكون هو المراد قطعاً ، أمَّا صلاح اللفظ له فظاهر عن الخبير بلسان العرب ، وإنَّمَا ينبو عن فهم مثل هذا أفهام المتطفِّلين على لغة العرب ، النَّاظرين إليها من بعد ، الملتفتين إليها التفات العرب إلى لسان التُّرك ، حيث لم يتعلَّموا منها إلَّا أوائلها ، فمن المستحسن في اللغة أن يقال : استوى الأمير على مملكته ، حتَّى قال الشَّاعر :

قد استوى بِشْر على العراق   من غير سيف ودم مهراق

ولذلك قال بعض السَّلف: يفهم من قوله تعالى : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه : ٥] ما فُهِم من قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [فصلت : ١١]

وقال الإمام الطاهر بن عاشور في "التَّحرير والتَّنوير" (٨/ ١٦٢- ١٦٦) : " وَالِاسْتِوَاءُ حَقِيقَتُهُ الِاعْتِدَالُ، وَالَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ وَالْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِي الِارْتِفَاعِ وَالِاعْتِلَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي صِفَةِ جِبْرِيلَ ﴿فَاسْتَوى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى * ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى﴾ [النَّجم: ٦- ٨] .

وَالِاسْتِوَاءُ لَهُ مَعَانٍ مُتَفَرِّعَةٌ عَنْ حَقِيقَتِهِ، أَشْهَرُهَا الْقَصْدُ وَالِاعْتِلَاءُ، وَقَدِ الْتُزِمَ هَذَا اللَّفْظُ فِي الْقُرْآنِ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ عِنْدَ الْإِخْبَارِ عَنْ أَحْوَالٍ سَمَاوِيَّةٍ، كَمَا فِي هَذَا الْآيَةِ. وَنَظَائِرُهَا سَبْعُ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ: هُنَا. وَفِي يُونُسَ، وَالرَّعْدِ، وَطه، وَالْفُرْقَانِ، وَأَلَمْ .

السَّجْدَةِ، وَالْحَدِيدِ، وَفُصِّلَتْ. فَظَهَرَ لِي أَنَّ لِهَذَا الْفِعْلِ خُصُوصِيَّةً فِي كَلَامِ الْعَرَبِ كَانَ بِسَبَبِهَا أَجْدَرَ بِالدَّلَالَةِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُرَادِ تَبْلِيغُهُ مُجْمَلًا مِمَّا يَلِيقُ بِصِفَاتِ اللهِ وَيُقَرِّبُ إِلَى الأفهام من مَعْنَى عَظَمَتِهِ، وَلِذَلِكَ اخْتِيرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي فَسَّرَهُ بِهَا الْمُفَسِّرُونَ.

فَالِاسْتِوَاءُ يُعَبِّرُ عَنْ شَأْنٍ عَظِيم من شؤون عَظَمَةِ الْخَالِقِ تَعَالَى، اخْتِيرَ التَّعْبِيرُ بِهِ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيلِ: لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَقْرَبُ مَعَانِي الْمَوَادِّ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْمَعْنَى الْمُعَبِّرِ عَنهُ من شؤونه تَعَالَى، فَإِنَّ اللهَّ لَمَّا أَرَادَ تَعْلِيمَ مَعَانٍ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ لَمْ يَكُنْ يَتَأَتَّى ذَلِكَ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِأَمْثِلَةٍ مَعْلُومَةٍ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعَانِي الْمُغَيَّبَةِ بِعِبَارَاتٍ تُقَرِّبُهَا مِمَّا يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ الاستعارات التّمثيليّة والتّخييليّة فِي مِثْلِ هَذَا.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَتَلَقَّوْنَ أَمْثَالَهَا بِلَا بَحْثٍ وَلَا سُؤَالٍ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا الْمَقْصُودَ الْإِجْمَالِيَّ مِنْهَا فَاقْتَنَعُوا بِالْمَعْنَى مُجْمَلًا، وَيُسَمُّونَ أَمْثَالَهَا بِالْمُتَشَابِهَاتِ، ثُمَّ لَمَّا ظَهَرَ عَصْرُ ابْتِدَاءِ الْبَحْثِ كَانُوا إِذَا سُئِلُوا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُونَ: اسْتَوَى اللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَلَا نَعْرِفُ لِذَلِكَ كَيْفًا، وَقَدْ بَيَّنْتُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الْمُتَشَابِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ﴾** فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ [٧] ، فَكَانُوا يَأْبَوْنَ تَأْوِيلَهَا. وَقَدْ حَكَى عِيَاضٌ فِي «الْمَدَارِكِ» عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ مَالِكًا فَقَالَ: الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. كَيْفَ اسْتَوَى يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَسَكَتَ مَالِكٌ مَلِيًّا حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا بِدْعَةٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ ضَالًّا» وَاشْتُهِرَ هَذَا عَنْ مَالِكٍ فِي رِوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ قَالَ لِمَنْ سَأَلَهُ: «وَأَظُنُّكَ رَجُلَ سُوءٍ أَخْرِجُوهُ عَنِّي» وَأَنَّهُ قَالَ : «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ» . وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْهَا: «فَقَالَ: فَعَلَ اللَّهُ فِعْلًا فِي الْعَرْشِ سَمَّاهُ اسْتِوَاءً» . قَدْ تَأَوَّلَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ تَأْوِيلَاتٍ، أَحْسَنُهَا: مَا جَنَحَ إِلَيْهِ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالِاسْتِوَاءِ الِاسْتِيلَاءُ بِقَرِينَةِ تَعْدِيَتِهِ بِحَرْفِ عَلَى، وَأَنْشَدُوا على وَجه الاستيناس لِذَلِكَ قَوْلَ الْأَخْطَلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ   بِغَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وَأَرَاهُ بَعِيدًا، لِأَنَّ الْعَرْشَ مَا هُوَ إِلَّا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِلْإِخْبَارِ بِاسْتِيلَائِهِ عَلَيْهِ، مَعَ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْأَخْطَلُ قَدِ انْتَزَعَهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَقَدْ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: إِنَّ مَعَانِيَهُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ تَعْدِيَتِهِ بِعَلَى أَوْ بِإِلَى، قَالَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ مُجَاهِدٍ: اسْتَوَى عَلَا عَلَى الْعَرْشِ، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ارْتَفَعَ فَسَوَّى خَلْقَهُنَّ.

وَأَحْسَبُ أَنَّ اسْتِعَارَتَهُ تَخْتَلِفُ بِقَرِينَةِ الْحَرْفِ الَّذِي يُعَدَّى بِهِ فِعْلُهُ، فَإِنْ عُدِّيَ بِحَرْفِ (عَلَى) كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا فَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ مَعْنَى الِاعْتِلَاءِ، مُسْتَعْمَلٌ فِي اعْتِلَاءٍ مَجَازِيٍّ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى التَّمَكُّنِ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أُرِيدَ مِنْهُ التَّمْثِيلُ، وَهُوَ تَمْثِيلُ شَأْنِ تَصَرُّفِهِ تَعَالَى بِتَدْبِيرِ الْعَوَالِمِ، وَلِذَلِكَ نَجِدُهُ بِهَذَا التَّرْكِيبِ فِي الْآيَاتِ السَّبْعِ وَاقِعًا عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَالْمَعْنَى حِينَئِذٍ: خَلَقَهَا ثُمَّ هُوَ يُدَبِّرُ أُمُورَهَا تَدْبِيرَ الْمَلِكِ أُمُورَ مَمْلَكَتِهِ مُسْتَوِيًا عَلَى عَرْشِهِ. وَمِمَّا يُقَرِّبُ هَذَا الْمَعْنَى

قول النَّبيء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ» .

وَلِذَلِكَ أَيْضا عقب هَذَا التَّرْكِيبَ فِي مَوَاقِعِهِ كُلِّهَا بِمَا فِيهِ مَعْنَى التَّصَرُّفِ كَقَوْلِهِ هُنَا **﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾** إِلَخْ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ [٣] : **﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾** ، وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ [٢] : **﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ﴾** . وَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ [٤، ٥] : **﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾** . وَكَمَالُ هَذَا التَّمْثِيلِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ كُلُّ جُزْءٍ

مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُمَثَّلَةِ مُشَبَّهًا بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُمَثَّلِ بِهَا، فَيَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ مَوْجُودٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُمَثَّلَةِ مُشَابِهًا لِعَرْشِ الْمَلِكِ فِي الْعَظَمَةِ، وَكَوْنِهِ مَصْدَرَ التَّدْبِيرِ وَالتَّصَرُّفِ الْإِلَهِيِّ يَفِيضُ عَلَى الْعَوَالِمِ قُوَى تَدْبِيرِهَا. وَقَدْ دَلَّتِ الْآثَارُ الصَّحِيحَةُ مِنْ أَقْوَالِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى وُجُودِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَظِيمِ الْمُسَمَّى بِالْعَرْشِ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ.

فَأَمَّا إِذَا عُدِّيَ فِعْلُ الِاسْتِوَاءِ بِحَرْفِ اللَّامِ فَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى مَعْنَى تَعَلُّقِ الْإِرَادَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: **﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾** [الْبَقَرَة: ٢٩] . وَقَدْ نَحَا صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» نَحْوًا مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، إِلَّا أَنَّهُ سَلَكَ بِهِ طَرِيقَةَ الْكِنَايَةِ عَنِ الْمُلْكِ: يَقُولُونَ اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى الْعَرْشِ يُرِيدُونَ مَلَكَ.

وَالْعَرْشُ حَقِيقَتُهُ الْكُرْسِيُّ الْمُرْتَفِعُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ، قَالَ تَعَالَى: **﴿وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾** [النمل: ٢٣] ، وَقَالَ: **﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾** [يُوسُف: ١٠٠] ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرِهَا مُسْتَعْمَلٌ جُزْءًا مِنَ التَّشْبِيهِ الْمُرَكَّبِ، وَمِنْ بَدَاعَةِ هَذَا التَّشْبِيهِ أَنْ كَانَ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهَةِ مُمَاثِلًا لِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْهَيْئَةِ الْمُشَبَّهِ بِهَا، وَذَلِكَ أَكْمَلُ التَّمْثِيلِ فِي الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَمَا قَدَّمْتُهُ آنِفًا. وَإِذْ قَدْ كَانَ هَذَا التَّمْثِيلُ مَقْصُودًا لِتَقْرِيبِ شَأْنٍ من شؤون عَظَمَةِ مُلْكِ اللَّهِ بِحَالِ هَيْئَةٍ مِنَ الْهَيْئَاتِ الْمُتَعَارَفَةِ، نَاسَبَ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى مَا هُوَ شِعَارُ أَعْظَمِ الْمُدَبِّرِينَ لِلْأُمُورِ الْمُتَعَارَفَةِ أَعْنِي الْمُلُوكَ، وَذَلِكَ شِعَارُ الْعَرْشِ الَّذِي مِنْ حَوْلِهِ تَصْدُرُ تَصَرُّفَاتُ الْمَلِكِ، فَإِنَّ تَدْبِيرَ اللَّهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ يَكُونُ صُدُورُهُ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ عَمَلَ بَعْضِهِمْ مِثْلِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَلَكِ الْمَوْتِ، وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ بَعْضَهَا: فَذَكَرَتْ مَلَكَ الْجِبَالِ، وَمَلَكَ الرِّيَاحِ، وَالْمَلَكَ الَّذِي يُبَاشِرُ تَكْوِينَ الْجَنِينِ، وَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَاقِبَتَهُ، وَكَذَلِكَ أَشَارَ الْقُرْآنُ إِلَى أَنَّ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الْعُلْوِيَّةِ مَوْجُودًا مُنَوَّهًا بِهِ سَمَّاهُ الْعَرْشَ ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ. وَلَمَّا ذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَذَكَرَ الْعَرْشَ ذَكَرَهُ بِمَا يُشْعِرُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ قَبْلَ هَذَا الْخَلْقِ. وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ الْعَرْشَ أَعْظَمُ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهِنَّ، مِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أنّ النّبيء صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» .

وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَانِ وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» .

وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْعَرْشَ هُوَ الْكُرْسِيُّ وَأَنَّهُ الْمُرَادُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾** ، كَمَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ [٢٥٥] .

وَقَدْ دَلَّتْ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ: **﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾** عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ أَيْ وَأَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اسْتِوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَمْ يُحْدِثْ تَغْيِيرًا فِي تَصَرُّفَاتِ اللَّهِ بِزِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ،

وَلِذَلِكَ ذُكِرَ الِاسْتِوَاءُ عَلَىٰ الْعَرْشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلَعَلَّ الْمَقْصِدَ مِنْ ذَلِكَ إِبْطَالُ مَا يَقُولُهُ الْيَهُودُ: إِنَّ اللهَ اسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ فَهُوَ كَالْمَقْصِدِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾** [ق: ٣٨] " .

وقال الإمام العزَّامي في "البراهين السَّاطعة" (ص٢٥٠ فما بعدها) : "إنَّ الاستواء مذكور في كتاب الله ، ومعلوم معناه في لغة العرب ، وغير مجهول استعماله في المعاني المتعدِّدة : فمن عرفها عرف ما يراد بالاستواء على العرش في حقِّ الله ، وحينئذ لا يجد محلَّاً للكيف ولا لُّلسؤال إلَّا عن مرض في القلب ، أو عجمة في الفهم ، وجهل بأسرار هذه اللغة التي أنزل الله بها القرآن ، وجرىٰ علىٰ أساليبهم في التَّخاطب وطرق محاوراتهم في أنواع المجازات ، وأصناف الكنايات ، ومن استبحر في علم ذلك لم يخف عليه ما يراد من كلامهم . والاستواء من تلك الألفاظ العربيَّة يكون لازماً فيكون له معنىٰ ، ومتعدِّياً بإلىٰ فيكون له معنىٰ آخر ، وبعلىٰ فيكون له معنىٰ ثالث ، وباختلاف المجرور بعلىٰ يختلف المعنىٰ المراد به أيضاً ، فيقال : استوىٰ الزَّرع ، إذا أدرك ، واستوىٰ الشَّاب ، إذا تكامل شبابه ، واستوىٰ إليه ، إذا قصد إليه بالإرادة والتَّوجُّه ، واستوىٰ علىٰ الدَّابَّة ، إذا ركب عليها ، واستوىٰ علىٰ السَّرير ، إذا قعد عليه .

وكان ممَّا سبق قبل نزول القرآن أنَّ من روادف المُلك الجلوس علىٰ السَّرير والاستواء علىٰ عرش المملكة ، ثُمَّ شاع التَّجوّز بهذا التَّركيب عن تولِّي المملكة والقيام بالَّتصرّف فيها حتىٰ صار يقال : استوىٰ علىٰ عرش المملكة الفلانيَّة ، إذا تولّىٰ مُلكها ، ويقال : ثُلَّ عرشه ، إذا زال عنه المُلك ، وكثر ذلك حتىٰ أصبح لا يكاد يلتفت الذِّهن إلىٰ المعنىٰ الأصلي الأوَّل المنقول منه ، فإذا سمع العربي : استوىٰ فلان علىٰ عرش العراق أو علىٰ عرش مصر لم يخطر بباله قعود علىٰ عرش ولا جلوس علىٰ سرير ، بل يسبق فهمه إلىٰ المعنىٰ المراد بهذا التَّركيب ، وهو أنَّه تولَّىٰ المُلك علىٰ ذلك القطر ، ولو لم يكن له عرش ، بل لو قيل بدل هذا التَّركيب : جلس فلان علىٰ عرش المملكة الفلانَّية أو قعد ، لم يتوجَّه ذهن صاحب السَّليقة العربيَّة والعارف بأساليبها إلىٰ قعود ولا إلىٰ عرش ، بل إلىٰ أنَّه قد ملك وقام بأمر المُلك ، حتَّىٰ لو فرض أنَّه ذهب السَّامع إلىٰ تلك المملكة ورأىٰ ذلك الملك لا يجلس علىٰ سرير ولا عرش له ، ولكنَّه هو القائم بالملك يقعد للحكم كيف اتَّفق ويجلس للرَّعيَّة علىٰ الحصير أو علىٰ الأرض لم يخطر بباله أنَّه قد كذَّبه محدثه لجلوسه علىٰ عرش تلك المملكة ، بل يستيقن أنَّ الخُبر (بالضَّم) قد صدَّق الخَبر (بالفتح) .

فإنَّه لم يفهم من ذكر القعود علىٰ العرش إلَّا الإخبار بأَّنه هو الملك ، ولو أنَّه حين ذهب إلىٰ تلك المملكة رأىٰ المحدث عنه قاعداً علىٰ سرير الملك ، ولكنَّه ليس بحاكم ولا ملك ، وإنَّما الملك رجل آخر سواه لجزم حينئذ بكذب محدثه ، ولو أنَّ محدثه اعتذر إليه بأنَّه قصد المعنىٰ الأوَّلي المنقول منه لم يقبل له عذراً ورآه عن الأسلوب العربي المعتاد بمعزل ، إذ المقصود بذكر هذا التَّركيب الإخبار بالملك إثباتاً ونفياً .

فإذا قال القائل : إنَّ فلاناً جلس على عرش كذا من الأقطار أو لم يستو عليه ، كان معنى كلامه المتعارف عند المخاطبين أنَّه هو الملك في الإثبات أو ليس هو الملك في النَّفي ، ولم يزل الأمر على ذلك في العربيَّة مهيعاً مسلوكاً وطريقاً مألوفاً حتى نزل القرآن العزيز ، والعربيَّة في أوج فصاحتها ومنتهى بلاغتها . فخاطبها بما بزّ أساليبهم وأعجز مصاقعهم في كلّ معنى من المعاني التي أراد تنويرهم ببيانها ، وإخراجهم من ظلماتها إلى نورها .

وكان ممَّا شاع بينهم الشِّرك على أنواع متنوِّعة وأشكال مختلفة ، بل الشِّرك كان شائعاً بين أصناف البشر كلّها ، وكان منهم الإشراك به تعالى في الخالقيَّة فيقولون بخالقين أو أكثر ، ومنهم من يشرك به في الملك ، فيقولون : إنَّ له ملك السَّماوات ، وأمَّا الأرض ففيها معه شركاء يتصرَّفون في الملك ، فهدم الله هذا وهذا فقال : **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الأعراف : ٥٤] فبيَّن بالجملة الأولى أنَّ الواحد في خلق العوالم كلّها لا خالق معه ولا شريك له في الخلق ، ثُمَّ بيّن بالجملة الثَّانية أنَّه المنفرد بالملك ، لا شريك له في مُلكه ، لا في العوالم العليا ولا في العوالم السُّفلى ، ولذلك ختم الآية بهذه الجملة الشَّريفة الآتية في أروع أسلوب وأعذب بيان وهي قوله تعالى : **﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الأعراف : ٥٤] مقدّماً الخبر لإفادة الحصر ، والمعنى أنَّ الخلق له لا لسواه ، وهو إجمال الجملة الأولى ، وأنَّ الأمر له لا لغيره ، وهو معنى الجملة الثَّانية ، والأمر من لوازم الملك كما لا يخفى ، فحاصل الكلام : أنَّ ربكم هو الخالق لا خالق سواه ، وهو الملك المتفرِّد بالملك ، لا ملك سواه ، وظاهر أنَّ الملك الذي هو التَّصرُّف من الملك كما يشاء في الأشياء الموجودة إنَّما هو بعد إيجادها على ما شاء لها من أقدار وأشكال وصفات ، ولهذا أتى بثم .

وقد علمت ممَّا أسفلنا أنَّ معنى الملك يؤدَّى بعدة ألفاظ ، كقعد على العرش ، وجلس عليه ، وعلا عليه ، ولكن القرآن العزيز مع كونه كرَّر هذا المعنى في سبعة مواضع منه وعادته التَّفنُّن لم يأت بجلس ولا بعلا ولا نحوهما ، وإنَّما اختار استوى لأنَّها أعذب مبنى وأثرى معنى : فإنَّ في معنى الاستواء فوق إفادة الملك الإشارة إلى أنَّه تصرُّف فيه على السَّواء (وهو القسط والعدل) ولا توجد هذه الإشارة في غير هذا اللفظ الشَّريف ، وترى القرآن في هذه المواضع كّلها ما ذكر الاستواء على العرش إلَّا بعد ذكر خلقه للعوالم أو رفعه للسَّماوات بغير عمد ، كما يعلم من استقراء الآيات الشَّريفة ، والخلق الذي هو الإيجاد على قدر مخصوص لا يكون إلَّا ممَّن وجب وجوده وتنزَّه عن الإمكان فضلاً عن الحدوث ولوازمه ، وكذلك رفع السَّماوات بغير عمد ، فهو قرينة لفظيَّة تصرف معنى الاستواء عمَّا يتوهَّمه الجاهلون ويخطر بأسارى الأوهام والسَّاقطين عن درجة أهل الأفهام ، ومن أجل ذلك قالوا : الاستواء معلوم وغير مجهول ، والكيْف غير معقول وصدَّقوا ، إذ الكيْف الذي يُسأل عنه إنَّما يتصوّر إذا كان هذا الاستواء جلوس جسم على جسم ، وقد عرفت أنَّه إذا قيل : جلس فلان على عرش القطر الفلاني ، لم يرد منه جلوسه على

السَّرير ، وإنَّما يُراد منه تولي المُلك ، مع أنَّ من شأن فلان الجلوس ، فكيف إذا قيل ذلك فيمن تسجد الأجسام لعزَّته ، ويتعالىٰ عن أن تشابهه ، ويتقدَّس سبحانه أن يمسَّ ساحة حماه شيء من لوازمها؟! وإنِّي اذكر إخواننا المصريين بحادثة لا تزال عالقة بالأذهان ، منها يستبين ما قرَّرنا في ذلك فضل استبانة .

انتقل صاحب الجلالة الملك فؤاد الأوَّل تغمَّده الله برحمته إلىٰ جوار ربه سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف ، وولِّي عهده جلالة الملك فاروق حرسه الله بلندن عاصمة الإنجليز ، فأجريت المراسيم المعتادة ، وولىٰ ولي العهد ملك أبيه ، وأرسلت البرقيَّات من رياسة الوزارة يومئذ إلىٰ جلالته لتهنئته بالاستواء علىٰ عرش مصر ، وكان هذا الكلام صدقاً لا يرتاب في صدقه من سمعه ، ولم يخطر ببال أحد فضلاً عن أن يقوله أنَّ هذا كذب ، لأنَّه لم يجلس علىٰ العرش ، بل لم يجيء بعد إلىٰ القطر ، لأنَّه لم يفهم أحد من هذا الكلام جلوساً علىٰ سرير ولا علوّاً علىٰ عرش ، وإنَّما الذي يستقرّ في الأذهان أنَّه قد تولَّى ملك أبيه ولا منازع له فيه . فكيف يقول القائل بملء شدقيه ، إنَّه تعالىٰ في جهة الفوق ، جالس علىٰ عرشه ، وأهل السَّماء أقرب إليه من أهل الأرض؟ بل قال عثمان بن سعيد الدَّارمي في كتابه (النَّقض) الذي طبع في هذه البلاد : إنَّ من هو علىٰ ظهر الجبل أقرب إلىٰ الله تعالىٰ ممَّن هو أسفله ، فهل هذا ينسب إلىٰ كتاب الله ، وكتاب الله يقول للرَّسول الأعظم : **﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾** [العلق : ١٩] ، والنَّبي المصطفىٰ عليه الصَّلاة والسَّلام يقول : "أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد" ، والله يقول : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق : ١٦] ، ويخاطب سبحانه الحاضرين عند المحتضر فيقول تعالىٰ : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾** [الواقعة : ٨٥] إلىٰ غير ذلك في الكتاب والسُّنَّة وهو كثير جداً ، وأهل العلم يعلمون المراد به علىٰ ما تقتضيه العربيَّة التي نزل القرآن بها ، فمن اعتقد في الله جهة الفوق أو الاستقرار علىٰ العرش أخذاً له من قوله تعالىٰ : **﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾** [الأعراف : ٥٤] فقد أتىٰ من قبل قلبه الأعجمي ، وفهمه الملتوي ، والقرآن في واد وهو في واد ، وفي المصباح مادَّة : سوىٰ : (واستوىٰ علىٰ سرير الملك كناية عن التَّملُّك وإن لم يجلس عليه) أهـ . قلت بل وإن لم يكن هناك سرير .

ولولا ما ورد في الكتاب وصحاح السُّنَّة أنَّه تبارك وتعالىٰ خلق مخلوقاً جعله أعلىٰ المملكة وسمَّاه عرشاً ، ما أفادت هذه الآيات الكريمات وجود عرش ، فإنَّ العرب قد استعملت نحو هذا التَّركيب في إفادة الملك ، ومن اَتسع علمه بأسرار البلاغة وجد الكثير من هذا النَّوع ، وهو ما يسمَّىٰ في عرف علماء البيان بالتَّمثيل والاستعارة التَّمثيليَّة ، وهذا الضّرب من المجاز لا يستطيعه إلَّا فرسان البيان ، كقول أحدهم لمن رآه يعزم علىٰ الأمر مرَّة ويعدل عن عزمه مرَّة أخرىٰ : مالي أراك تقدَّم رِجْلاً وتؤخّر أخرىٰ ، ولا رجل ولا تقديم لها ولا تأخير ، وإنَّما هو معنىٰ الإقدام والإحجام ، أورده في هذه الصُّورة الحسيَّة . فاعلم ذلك ولا تكن أسير التَّقليد ، فإنَّ المركب في هذا المجاز التَّمثيلي

نقل من معناه الأصلي إلى ذلك المعنى المقصود من غير أن يقصد بكلٍّ واحد من ألفاظه إلى معنى مجازي يخصّه ، كما هو مبسوط في موضعه من علم البيان" .

وقد أبدع الأستاذ حامد عبد الرَّحْمَن في عرضه لمسألة الاستواء في رسالته القيِّمة : "شرح معنى الاستواء" المطبوعة بذيل كتاب "المشبِّهة والمجسِّمة" للشيخ عبد الرَّحْمَن خليفة الأزهري ، حيث ذهب إلى تفسير الاستواء بالتَّدبير ...

قال في رسالته آنفة الذِّكر (ص٨ فم بعدها باختصار وتصرف) : "المفهوم من الآية لأوَّل وهلة أنَّه تعالى خلق السَّماوات والأرض –ثمَّ دبَّرها وأمرها بما أراده منها فصارت مسخَّرة بأمره– فله الخلق والأمر ، وهذا دليل على تمام القدرة ، وإذن يجب أن يفهم من الاستواء المعنى المطابق لذلك . فنقول وبالله التَّوفيق :

أَوَّلاً : حيث أنَّ كلمة (خلق) فعلٌ حادث فما عطف عليه (بثم) حادث أيضاً ، والحادث لا يكون صفة لذات القديم جلَّ وعلا .

ثَانِياً : يجب أن يُفهم من (استوى) المعنى الذي يصح أن يكون متأخِّراً عن خالق السَّماوات والأرض ، وليس ذلك إلَّا الكناية عن تدبير الملك ، فحسب اصطلاح اللغة يقال : استوى فلان على سرير الملك كناية عن قيامه بتدبير المملكة وإن لم يكن هناك سرير .

وقد جاء في "المصباح المنير في غريب الشَّرح الكبير للرَّافعي" لمؤلفه أحمد بن علي الفيُّومي المتوفَّى سنة (٧٧٠هـ) الجزء الأَوَّل (صفحة ٣١٩) : "استوى على سرير الملك : كناية عن التَّملُّك ، وإن لم يجلس عليه ، كما قيل : مبسوط اليد ، ومقبوض اليد ، كناية عن الجُود والبُخل" .

وقال الكوثري في تعليقه على السَّيف الصَّقيل (ص١٣٦) : "ألفت نظر القارئ الكريم إلى أنَّ الاستواء لم يذكر في تلك الآيات إلَّا بصيغة الفعل المقرونة بأداة التَّراخي في بعضها ، وذلك نصٌّ على أنَّ الاستواء فعلٌ من أفعال الله سبحانه لا صفة ذات له تعالى ، وجلَّ الإله أن تحدث له صفة بعد أن لم تكن ، ومن قال إنَّه مستو نطق بما لم يأذن الله به كائناً من كان ، ومن زاد وقال : استوى بذاته بمعنى استقرَّ فهو عابد وثن خيالي إن لم يكن عاميَّاً" .

وبذلك يكون المفهوم من (استوى) بمعنى : (قام بتدبير المخلوقات) مناسباً لخلق السَّماوات والأرض ومرتَّباً عليه ، لأنَّ التَّدبير لا يكون إلَّا بعد الخلق ، ويؤيِّد ذلك ما يفهم من قوله تعالى : **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾** [الأعراف ٥٤] ، ولذلك يذكر الاستواء بعد الخلق دائماً .

ويؤكِّده أيضاً قوله تعالى : **﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾** [الأعراف : ٥٤] فهو لف ونشر مرتّب ، فالخلق يشير إلى خلق السَّماوات والأرض ، والأمر يشير إلى الاستواء على العرش .

ويؤيِّد هذا المعنىٰ آية من سورة يونس نصّها : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس : ٣] فذكرُ التَّدبير بعد الاستواء هو كالتَّفسير له .

ثَالِثَاً : أمَّا إذا فُهم من (استوىٰ) معنىٰ جلس ، فينبني عليه جملة الاستحالات ، وهي :

أ–أن المعنىٰ يكون هكذا : (أنَّ الله تعالىٰ خلق السماوات والأرض ثُمَّ جلس تعالىٰ علىٰ العرش) ، وهذا يستلزم أنَّه قبل خلق السَّماوات والأرض لم يكن جالساً علىٰ العرش؟ .

ب–فأين كان جالساً؟ وإن لم يكن جالساً علىٰ العرش قبل خلقها ، فما الدَّاعي لجلوسه تعالىٰ علىٰ العرش بعد خلقها ، وما العلاقة بين خلقه تعالىٰ لها وبين جلوسه تعالىٰ علىٰ العرش ، فهل لم يكن في إمكانه خلقها إلَّا وهو تعالىٰ غير جالس علىٰ العرش؟

ج–وهل كان العرش خالياً من الجلوس وقت خلق السَّماوات والأرض أم كان مشغولاً بغيره تعالىٰ؟

د–وإن كان تعالىٰ مستغنياً عن العرش قبل خلق السَّماوات والأرض فما الذي أوجب احتياجه تعالىٰ إليه .

هـ–وما الموجب لترتيب الجلوس علىٰ العرش علىٰ خلق السَّماوات والأرض؟ ولماذا لم يكن الجلوس قبل خلقها؟ فالعقل يقضي بأنَّ الجلوس بمعنىٰ التَّدبير حاصل من بعد خلقها ، أمَّا مجرَّد الجلوس فلا معنىٰ له ولا فائدة .

و–وإن عدم الجلوس أوَّلاً ثُمَّ حصوله ثانياً بعد خلقها يستلزم الحركة بعد السُّكون ، وهما حادثان فكيف يتَّصف بهما القديم جلَّ وعلا .

ز–أنَّه لا تعظيم ولا بلاغة في ذكر مجرَّد الجلوس علىٰ العرش بعد خلق السَّماوات والأرض ، لأنَّه يدلُّ علىٰ حصول تعب استوجب الجلوس علىٰ العرش للاستراحة ، كما أنَّه ليس مختصَّاً بالإله ولا مدح فيه .

ح–إنَّ جلوس الملوك علىٰ العرش ليس جلوساً عاديَّاً ، ولكنَّه له معنىٰ خاص بإصدار الأوامر اللازمة لتدبيرهم المملكة ، ولذلك يكون جلوسهم مصحوباً بإلقاء خطبة العرش لبيان تدبيرهم . أمَّا جلوسهم المعتاد فلا يكون علىٰ العرش أصلاً حتىٰ لو جلس علىٰ العرش في غير الميعاد المحدّد لبيان برنامج تدبيره ، فلا يعبَّر عنه بأنَّه جالس علىٰ العرش ، كما أنَّ الملك يعتبر جالساً علىٰ العرش وإن كان متغيِّباً في جهات أخرىٰ ، فهذا الجلوس كناية عن قيامه بالحكم والتَّدبير .

ط–ولو كان الجلوس صفة للذَّات الإلهيَّة لكان قديماً ، وهذا يستلزم أمَّا قِدَم العرش ، وهذا محال ، وأمَّا حدوث الجلوس وحدوث الذَّات الإلهيَّة ، وهذا مُحال أيضاً .

ي-إن قيل : إنَّه تعالىٰ فوق العرش ، ولكنَّه يبعد عنه بمسافة فهذا أيضاً محال ، لأنَّه ينافي الجلوس ، ولأنَّه تعالىٰ يكون محمولاً في الفضاء ومحدوداً في أسفله ، وهذا يستلزم تحديده تعالىٰ من جميع الجهات لضرورة تماثلها حكماً ، وهذا كلّه مستحيل علىٰ القديم جلَّ وعلا ...

ولزيادة تأكيد استحالته علىٰ الله تعالىٰ نورد الآيات المناقضة لمعنىٰ الاستقرار علىٰ العرش والأدلَّة الكونيَّة ، فنقول : الآيات المناقضة لمعنىٰ الاستقرار ثلاث ، وهي :

أَوَّلاً : قال الله تعالىٰ في سورة الحديد : **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** [الحديد : ٤] .

فإذا فُهم من الاستواء والمعيَّة ظاهرهما الذي هو الظَّرفيَّة المكانيَّة لزم التَّناقض ، لأنَّ الاستقرار علىٰ العرش يمنع المعيّة المكانيَّة مع أهل الأرض ، والتَّناقض في كلامه تعالىٰ محال ، ولزم اتِّصاف القديم جلّ وعلا بصفات الحوادث ، وهي المعيَّة المكانيَّة وما يتبعها وهو محال .

فإن قيل : المقصود من المعيَّة لازمها هو (العلم) بقصد التَّخلُّص من مماثلة الحوادث .

فالجواب : كذلك المقصود من الاستواء لازمه وهو تدبير المملكة الإلهيَّة ، لأنَّ الموجب في الاستواء والمعيَّة واحد ، وهو ضرورة ملاحظة التَّقديس عن مماثلة الحوادث .

وفضلاً عن ذلك فإنَّ الموجبات لفهم الاستواء بالتَّدبير أكثر من موجبات فهم المعيَّة بلازمها -كما سيأتي بيانه- مناسب لمعنىٰ التَّدبير للمملكة ومرتبط به في المعنىٰ بخلاف معنىٰ الاستقرار الذي لا يتوقَّف عليه التَّدبير .

وكونه تعالىٰ معنا بعلمه وصفاته كما يليق بتقديسه ، وكونه بصيراً بأعمالنا ، كل هذا يدلُّ علىٰ المراقبة ، والمراقبة تقتضي الإجراءات والتَّصرُّفات التي أرادها تعالىٰ بكلِّ مخلوق ، وهذا كلُّه يدخل ضمن التَّدبير بخلاف الاستقرار .

ثَانِيَاً : قال الله تعالىٰ في سورة (ق) : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق : ١٦] ، وفي سورة الواقعة : **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾** [الواقعة ٨٥] ، فلو فهم الاستواء علىٰ العرش بمعنىٰ الاستقرار المكاني لزم التَّناقض مع هذه الآيات ، والتَّناقض في كلام الله تعالىٰ مُحال .

فإن قيل : إنَّ الاستقرار هو الأمر بالحكم والتَّصرُّف ، رجع الأمر إلىٰ معنىٰ تدبير المملكة الذي أشرنا إليه .

ثَالِثَاً : قال الله تعالىٰ في سورة الأنعام : **﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّماوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾** [الأنعام : ٣] فلو فُهم الاستواء بمعنىٰ الاستقرار للزم التَّناقض مع هذه الآية الشَّريفة ، والتَّناقض في كلام الله تعالىٰ مُحال .

رَابِعَاً : قال الله تعالىٰ : ﴿**وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجائِها وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**﴾ [الحاقة : ١٧] ، فلو كان تعالىٰ مستقرَّاً علىٰ العرش لكان محمولاً بالملائكة المحمولين بقدرته ، ولكانوا أقوىٰ وأولىٰ بتدبير الملك ، ولكان مفتقراً لمن يحمله ، وكلُّ هذا من صفات الحوادث الفقراء العجزة ، ولكنَّه تعالىٰ قديم غنيٌّ عمَّا سواه ، قادر لا نهاية لقدرته .

أمَّا الأدلَّة الكونيَّة المناقضة لمعنىٰ الاستقرار علىٰ العرش فهي :

أَوَّلَاً : بما أنَّ الأرض كرويَّة والسَّماوات محيطة بها ، والعرش فوق السَّماوات ، فلو كان الاستواء علىٰ العرش بمعنىٰ الاستقرار المكاني لزم اتِّصافه تعالىٰ بما لا يليق بعلوِّه ورفعة شأنه علىٰ خلقه ، ولزم التَّغيُّر في صفاته تعالىٰ ، وكلُّ هذا محال للأدلَّة الآتية :

أ- أنَّ أهل الأرض يفهمون أنَّ الله تعالىٰ فوقهم علىٰ فرض أنَّه مستقرٌّ علىٰ العرش ، ولكن إذا دارت الأرض نصف يوم وجاء الليل وانعكس الأمر ، فيفهمون أنَّ ربَّ العزَّة تعالىٰ تحتهم وهو محال من وجهين : ارتفاع المخلوق علىٰ الخالق جلَّ وعلا ، وتغيُّر صفات الخالق سبحانه ، وما أدَّىٰ إلىٰ المحال فهو مُحال .

ب- أنَّ أهل الأرض في القسم المقابل يفهمون أنَّ ربَّ العزَّة تعالىٰ ليس فوقهم بل تحتهم ، وهذا محال لأنَّه لا يصحُّ أن الخالق تعالىٰ فوق قوم وتحت آخرين ، فإذا دارت الأرض نصف يوم انقلب حال هؤلاء فصاروا يفهمون أنَّ ربَّ العزَّة تعالىٰ فوقهم بعد أن كان تعالىٰ في نظرهم تحتهم ، والتَّغيُّر في صفات القديم تعالىٰ محال .

ثَانِيَاً : أنَّ الاستقرار المكاني علىٰ العرش ضروري لملوك الأرض ، لأنَّه يتوقف عليه الاعتراف بتقلّدهم المُلك والخضوع لأوامرهم وأحكامهم .

أمَّا ملك المُلوك والممالك ، فلا يتوقَّف مُلكه علىٰ هذا ، فإنَّه تعالىٰ ملك قبل أن يخلق العرش وما حواه من السَّماوات والأرض ، كما أنَّه تعالىٰ قهر عباده علىٰ تنفيذ ما أراد ، فكلّهم مسخَّرون بقدرته طوعاً وكرهاً ، عرفوا أنَّه تعالىٰ ملكهم أو لم يعرفوا ، فنسبة الجلوس والاستقرار علىٰ العرش إليه تعالىٰ محال ، لأنَّ فيه تشبيه بملوك الأرض وإيهام أن الخضوع لإرادته يتوقّف علىٰ هذا الاستقرار ، وكلُّ هذا محال .

ثَالِثَاً : لو كان الله تعالىٰ مستقرَّاً علىٰ العرش لتخيَّل الفكر مكاناً أعلىٰ من العرش بآلاف الأميال ، ولجاز عقلاً أن يرتفع الإله تعالىٰ إلىٰ ذلك المكان الأعلىٰ ، فعدم ارتفاعه إليه يحتاج إلىٰ مرجِّح لأنَّه لا ترجيح بلا مرجِّح ، والاحتياج إلىٰ المرجِّح من صفات الحوادث ، ولكنَّه تعالىٰ قديم .

رَابِعَاً : لو كان مستقرَّاً علىٰ العرش لاقتضىٰ الحال أحد ثلاثة أمور : أمَّا أن يكون تعالىٰ مساوياً للعرش أو زائداً عليه ، أو ناقصاً عنه ، وكلُّ هذا تحديد ، وتقييد وهما من صفات الحوادث ، ولكنَّه تعالىٰ قديم ، وحيث أنَّ فهم الاستواء علىٰ العرش بمعنىٰ الاستقرار قد أدَّىٰ إلىٰ هذه المُحالات فهو مُحال .

فإن قيل : فما حكمة وجود العرش ، وما حكمة الإخبار بأنَّه تعالىٰ استوىٰ عليه ، وما سبب توجُّه الضَّمائر إلىٰ العرش؟

فالجواب : أنَّ حكمة وجوده يعلمها الله تعالىٰ ، ولسنا مكلَّفين بالبحث عنها ، ولكن يمكن فهم بعض الحكم وهي :

١-أنَّه تصدر منه الأوامر والأحكام إلىٰ الملائكة لتنفذِّها في العوالم.

٢-أنَّه تعالىٰ أخبر بأنَّه خلق السَّماوات والأرض ثُمَّ استوىٰ علىٰ العرش يدبِّر الأمر .

وهذا هو سبب اتِّجاه السَّائلين بضمائرهم وأفكارهم للعرش انتظاراً لتحقيق مسألتهم ، وإجابة ملتمسهم من ربِّهم سبحانه وتعالىٰ ، لا أنَّه تعالىٰ فوق العرش -كما أنَّ المصلِّي يتَّجه بوجهه للقبلة في الصَّلاة ، وليس الله تعالىٰ في القبلة" .

ونختم هذا الفصل بذكر فتوىٰ في هذا الموضوع صدرت من شيخ الإسلام بحقٍّ ورأس المحقِّقين الأعلام أستاذ الأساتذة الشَّيخ سليم البِشْري ، تغمَّده الله برحمته وأعلىٰ في الفراديس درجاته . ونصّ السُّؤال والجواب نقلاً عن كتاب "شمس الحقيقة والهداية في الرَّدّ علىٰ أهل الضَّلالة والغواية " للعلَّامة المحقِّق ، والنَّقي الموفَّق الشَّيخ أحمد بن العلَّامة الكبير الشَّيخ علي بدر شيخ معهد بلصفورة ، وهو رافع السُّؤال إلىٰ شيخ الإسلام رحمه الله . قال : "ما قولكم دام فضلكم في رجل من أهل العلم هنا ، الذين يوصفون بالَّتفقُّه في الدِّين ، تظاهر باعتقاد ثبوت جهة الفوقيَّة لله سبحانه وتعالىٰ ، ويدَّعي أنَّ ذلك مذهب السَّلف ، وتبعه علىٰ ذلك البعض القليل من النَّاس ، وجمهور أهل العلماء يُنكرون عليه ، والسَّبب في تظاهره بهذا المعتقد -كما عرض عليّ هو بنفسه ذلك- عثوره علىٰ كتاب لبعض علماء الهند نقل فيه صاحبه كلاماً كثيراً عن ابن تيمية في إثبات الجهة للباري سبحانه وتعالىٰ ، وليكن معلوماً أنَّه يعتقد الفوقيَّة الذَّاتية له جلّ ذكره ، يعني أنَّ ذاته سبحانه فوق العرش- بمعنىٰ ما قابل التَّحت- مع التَّنْزِيه ، ويخطِّئ أبا البركات الدَّردير رحمه الله في قوله في خريدته :

منزَّه عن الحلول والجهة والاتِّصال والانفصال والسَّفه

يخطِّئه في موضعين في البيت ، قوله : والانفصال . الشَّيخ اللقاني في قوله :

ويستحيل ضدّ ذي الصِّفات في حقِّه كالكون والجهات

وبالجملة هو مخطِّئ لكلِّ من يقول بنفي الجهة مهما كان قدْره ، ويستدلُّ أيضاً بنصِّ كتاب آخر غير الكتاب المتقدِّم ذكره ، وهو تفسير الشَّيخ الآلوسي المسمَّىٰ بروح المعاني ، عند قوله تعالىٰ : ﴿**وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ**﴾ [الأنعام : ١٨] مع أنَّ المطَّلع علىٰ عبارة الآلوسي يجده في آخر عبارته ذكر ما يؤخذ منه أنَّه غير جازم بذلك . ويستدلُّ علىٰ ذلك بمثل قوله تعالىٰ : ﴿**وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ**﴾ [الأنعام : ١٨] ، ﴿**يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل : ٥٠] ، ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر : ١٠] ، وبقوله صلىٰ الله عليه وسلم للجارية التي أراد سيِّدها عتقها : "أين الله؟

فقالت : في السماء" مع ما هو معلوم لفضيلتكم من أنَّهَا كانت خرساء وأشارت إلىٰ السَّماء كما هو منصوص في بعض مؤلفات حجة الإسلام الغزالي ، وقد تعرّض لذلك السيد محمَّد مرتضىٰ في شرحه للإحياء ، ويستدّل أيضاً بقوله صلىٰ الله عليه وسلم في حجَّة الوداع : "اللهمَّ اشهد" أشار بأصبعه إلىٰ السَّماء ، ويورد علىٰ من ينازعه في ذلك سؤال الكرَّاميَّة المشهور ، وهو قولهم : إنَّ نفيه عن الجهات السِّت إخبار عن عدمه ، ولا يخفىٰ علىٰ فضيلتكم أنَّ الكلام في مسألة الجهة شهير ، إلَّا إنَّه من المعلوم أنَّ قول فضيلتكم سيَّما في مثل هذا الأمر هو الفصل ، وأرجو أن يكون عليه إمضاؤكم بخطّكم والختم ولا مؤآخذة ، لا زلتم محفوظين ولمذهب أهل السُّنَّة والجماعة ناصرين آمين .

وهذا نصُّ جوابه حفظه الله : إلىٰ حضرة الفاضل العلَّامة الشَّيخ أحمد علي بدر خادم العلم الشَّريف ببلصفورة :

قد أرستلم بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٣٢٥هـ مكتوباً مصحوباً بسؤال عن حكم من يعتقد بثبوت الجهة لله تعالىٰ ، فحرَّرنا لكم الجواب الآتي ، وفيه الكفاية لمن اتَّبع الحقَّ وأنصف ، جزاكم الله عن المسلمين خيراً .

اعلم أيَّدك الله بتوفيقه ، وسلك بنا وبك سواء طريقه ، أنَّ مذهب الفرقة النَّاجية وما عليه أجمع السّنيُّون أنَّ الله تعالىٰ منزَّه عن مشابهة الحوادث ، مخالف لها في جميع صفات الحدوث ، ومن ذلك تنزُّهه عن الجهة والمكان ، كما دلَّت علىٰ ذلك البراهين القطعيَّة ، فإنَّ كونه في جهة يستلزم قدم الجهة أو المكان وهما ما سوىٰ الله تعالىٰ بإجماع من أثبت الجهة ومن نفاها ، ولأنَّ المتمكِّن يستحيل وجود ذاته بدون المكان مع أنَّ المكان يمكن وجوده بدون التمكّن لجواز الخلاء ، فيلزم إمكان الواجب ووجوب الممكن وكلاهما باطل ، ولأنَّه لو تحيَّز لكان جوهراً لاستحالة كونه عَرَضاً ، ولو كان جوهراً فإمَّا أن ينقسم وأمَّا أن لا ينقسم ، وكلاهما باطل ، فإنَّ غير المنقسم هو الجزء الذي لا يتجزَّأ ، وهو أحقر الأشياء ، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً . والمنقسم جسم ، وهو مركَّب ، والتَّركيب ينافي الوجوب الذاتي ، فيكون المركَّب ممكناً يحتاج إلىٰ علَّة مؤثِّرة ، وقد ثبت بالبرهان القاطع أنذَه تعالىٰ واجب الوجود لذاته ، غنيٌّ عن كلِّ ما سواه ، مفتقر إليه من عداه ، سبحانه ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير ...

هذا وقد خذل الله أقواماً أغواهم الشَّيطان وأزلَّهم ، اتَّبعوا أهواءهم وتمسَّكوا بما لا يُجدي ، فاعتقدوا ثبوت الجهة ، تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، واتَّفقوا علىٰ أنَّهَا جهة فوق ، إلَّا أَنهم افترقوا ، فمنهم من اعتقد أنَّه جسم مماسّ للسَّطح الأعلىٰ من العرش ، وبه قال الكرَّاميَّة واليهود ، وهؤلاء لا نزاع في كُفرهم ، ومنهم من أثبت الجهة مع التَّنْزِيْه ، وأنَّ كونه فيها ليس ككون الأجسام ، وهؤلاء ضُلاَّل فُسَّاق في عقيدتهم ، وإطلاقهم علىٰ الله ما لم يأذن به الشَّارع ، ولا مريَّة أن فاسق العقيدة أقبح وأشنع من فاسق الجارحة بكثير ، لا سيَّما من كان داعية أو مُقتدىٰ به .

ومن نسب إليه القول بالجهة من المتأخِّرين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام بن تيمية الحرَّاني الحنبلي الدِّمشقي من علماء القرن الثَّامن ، في ضمن أمور نُسبت إليه خالف الإجماع فيها عملاً برأيه وشنَّع عليه معاصروه ، بل البعض

منهم كفَّروه ، ولقي من الذُّل والهوان ما لقي ، وقد انتدب بعض تلامذته للذبِّ عنه ، وتبرئته ممَّا نسب إليه ، وساق له عبارات أوضح معناها ، وأبان غلط النَّاس في فهم مراده ، واستشهد بعبارات له أخرىٰ صريحة في دفع الُّتهمة عنه ، وأنَّه لم يخرج عمَّا عليه الإجماع ، وذلك هو المظنون بالرَّجل لجلالة قدره ورسوخ قدمه .

وما تمسَّك به المخالفون القائلون بالجهة أمور واهية وهمية ، لا تصحُّ أدلَّة عقليَّة ونقليَّة ، وقد أبطلها العلماء بما لا مزيد عليه ، وما تمسَّكوا به ظواهر آيات وأحاديث موهمة كقوله تعالىٰ : **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾** [طه : ٥] ، وقوله : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾** [فاطر : ١٠] ، وقوله : **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** [المعارج : ٤] ، وقوله : **﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ﴾** [الملك : ١٦] ، وقوله : **﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾** [الأنعام : ١٨] ، وكحديث : "إنَّه تعالىٰ ينزل إلىٰ السَّماء الدُّنيا كلّ ليلة" وفي رواية : "في كلِّ ليلة جمعة فيقول : هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟" ، وكقوله للجارية الخرساء : "أين الله؟ فأشارت إلىٰ السَّماء" ، حيث سأل بأين التي للمكان ولم ينكر عليها الإشارة إلىٰ السَّماء ، بل قال : أنَّهَا مؤمنة .

ومثل هذا يُجاب عنها بأنَّها ظواهر ظنيَّة لا تعارض الأدلَّة القطعيَّة اليقينيَّة الدالَّة علىٰ انتفاء المكان والجهة ، فيجب تأويلها وحملها علىٰ محامل صحيحة لا تأباها الدَّلائل والنُّصوص الشَّرعيَّة ، أمَّا تأويلاً إجماليَّاً بلا تعيين للمراد منها كما هو مذهب السَّلف ، وأمَّا تأويلاً تفصيليَّاً بتعيين محاملها وما يراد منها كما هو رأي الخلف ، كقولهم : إَّن الاستواء بمعنىٰ الاستيلاء ، كما هو في قول القائل :

قد استوىٰ بِشْر علىٰ العراق　　　من غير سيف ودم مهراق

وصعود الكلم الطيِّب إليه بقبوله إيَّاه ورضاه به ، لأنَّ الكلم عَرَضٌ يستحيل صعوده وقوله : **﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ﴾** [الملك : ١٦] : أي أمره وسلطانه أو ملك من ملائكته موكّل بالعذاب ، وعروج الملائكة والرُّوح إليه ، صعودهم إلىٰ مكان يتقرّب إليه فيه . وقوله : **﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾** [الأنعام : ١٨] ، أي : بالقدرة والغلبة ، فإن كل من قهر غيره وغلبه فهو فوقه أي عال عليه بالقهر والغلبة ، كما يقال : أمر فلان فوق أمر فلان ، أي أنه أقدر منه وأغلب . ونزوله إلىٰ السَّماء محمول علىٰ لطفه ورحمته وعدم المعاملة بما يستدعيه علوّ رتبته وعظم شأنه علىٰ سبيل التمثيل ، وخصّ الليل لأنه مظنّة الخلوة والخضوع وحضور القلب . وسؤاله الجارية (بأين) استكشاف لما يظن بها اعتقاده من أينية المعبود كما يعتقده الوثنيون ، فلما أشارت إلىٰ السَّماء فهم أنَّهَا أرادت خالق السَّماء ، فاستبان أنَّهَا ليست وثنية ، وحكم بإيمانها ، وقد بسط العلماء في مطوّلاتهم تأويل كل ما ورد من أمثال ذلك ، عملاً بالقطعي وحملاً للظني عليه ، فجزاهم الله عن الدِّين وأهله خير الجزاء .

ومن العجيب أن يدع مسلم قول جماعة المسلمين وأئمّتهم ويتشدَّق بترّهات المبتدعين وضلالتهم ، أمَّا سمع قول الله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء : ١١٥] ، فليتُب إلىٰ الله تعالىٰ من تلطّخ بشيء من هذه القاذورات ، ولا يتّبع خطوات الشَّيطان فإنَّه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولا يحملنَّه العناد علىٰ التّمادي والإصرار عليه ، فإنَّ الرُّجوع إلىٰ الصَّواب عين الصَّواب ، والتَّمادي علىٰ الباطل يفضي إلىٰ أشدِّ العذاب : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف : ١٧] ، نسأل الله تعالىٰ أن يهدينا جميعاً سواء السَّبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلَّىٰ الله تعالىٰ وسلَّم علىٰ سيِّدنا محمَّد وصحبه أجمعين ومن اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين . أملاه الفقير إليه سبحانه (سليم البشري) خادم العلم والسَّادة المالكيَّة بالأزهر عفىٰ الله عنه آمين" . انظر : فرقان القرآن (ص٦٣-٦٧) .

وللاستزادة في موضوع الاستواء انظر : التَّوحيد للماتريدي (ص٦٧ فما بعدها) ، المسامرة شرح المسايرة (ص٤٤-٤٨) ، أصول الدِّين للغزنوي (ص٧٣-٧٥) ، منهج السَّلف في فهم النصوص ، محمَّد بن علوي المالكي (ص١٥-١٩) ، مقالات الإسلاميين (١/ ٢٨٥) ، الجامع الصحيح للربيع بن حبيب (ص٢٤٣-٢٤٦) ، ردود علىٰ شبهات السلفية (ص٧١ فما بعدها) ، العقيدة النظامية (ص٣٣-٣٤) ، الإشارة إلىٰ الإيجاز (ص١١٠) ، السيف الصقيل (ص٨٧ ، ٩٧) ، إتحاف السَّادة المتقين (٢/ ١٠٦) ، الإباضية للدكتور صابر طعيمة (ص٩٧-٩٩) ، تنزيه القرآن عن المطاعن (ص١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٥٣) ، شرح الأصول الخمسة (ص٢٢٦-١١٧) ، المختصر في أصول الدِّين (ص٣٣٣) ، (ضمن رسائل التَّوحيد والعدل) ، غاية المرام للأمدي (ص٢٤١) ، أبكار الأفكار (١/ ٤٧٩) ، العواصم من القواصم (ص٢١٤-٢١٦) ، الاعتقاد للبيهقي (ص٩٣) ، أصول الدِّين للبغدادي (ص١١٢-١١٤) ، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (٣/ ٤٨-٤٩) ، التفويض في صفات الله تعالىٰ بين السَّلف والخلف للباحث (ص١١٣-١٢٢) ، تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه للسُّيوطي (ص١١٤) ، حاشية الشهاب الخفاجي علىٰ البيضاوي (٤/ ٢٩٠-٢٩١) ، طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ١٨ فما بعدها) ، حاشية الأمير علىٰ إتحاف المريد شرح جوهرة التَّوحيد (ص١٨١-١٨٢) ، قانون التأويل لابن العربي (ص٣٧٦-٣٧٨) ، تأويلات أهل السنة للماتريدي (ص٤٣٦-٤٣٧) ، حاشية الدسوقي علىٰ أم البراهين (ص٢٠١ فما بعدها) ، الجواهر في بيان عقائد الأكابر (ص١٠٠-١٠٤) ، المطالب العالية (٢/ ٥٢-٥٤) ، المواقف (ص٢٧١-٢٧٢) ، التبصير في الدِّين (ص١٤٠) ، الإرشاد (ص٤٠) ، الغنية (ص٧٣-٧٥) ، الفرق بين الفرق (ص١٢١) ، هدي الساري (ص١٣٦) ، فتح الباري (١/ ٥٠٨) ، (١٣/ ٤٠٤-٤٠٧) ، مفاهيم يجب أن تصحح (ص١٤-١٧) .

وَاسْتدلَّ بقوله تَعَالَى حِكَايَة عَن فِرْعَوْن :﴿يَا هامان ابْن لي صرحا لعَلي أبلغ الْأَسْبَاب أَسبَاب السَّمَاوَات فَأطلع إِلَى إِلَه مُوسَى﴾ (٥٩) ، فليت شعري كَيفَ فهم من كَلَام فِرْعَوْن أَن الله تَعَالَى فَوق السَّمَوَات وَفَوق

---

(٥٩) قال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿فأَطَّلعَ إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾ فيه قولان : أحدهما : أنَّه غلبه الجهل على قول هذا أو تصوّره . الثَّاني : أنَّه قاله تمويهاً على قومه مع علمه باستحالته ، قاله الحسن " . انظر : تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/ ١٥٦) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : " السَّبب ما يتوصَّل به إلى الشَّيء ، أي : لعلِّي أصل إلى السَّماء فأطّلع إلى إله موسى ، ولو لم يكن من المضاهاة بين من قال : إنَّ المعبود في السَّماء وبين الكافر إلَّا هذا لكفى به خزيا لمذهبهم .

وقد غلط فرعون حين توهّم أنّ المعبود في السَّماء ، ولو كان في السَّماء لكان فرعون مصيبا في طلبه من السَّماء .

قوله جلَّ ذكره : ﴿وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ﴾ .

أخبر أنَّ اعتقاده بأنَّ المعبود في السَّماء خطأ ، وأنَّه بذلك مصدود عن سبيل الله " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٣٠٦) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ [غافر : ٣٦] يعني : الطّرق من سماء إلى سماء . ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [غافر : ٣٧] بالرَّفع نسق على قوله : ﴿أَبْلُغُ الأَسْبَابَ﴾ ، أي : لعلِّي أبلغ ولعلي أَطَّلع ، ومن نصب جعله جواباً للفعل بالفاء على معنى : إنِّي إذا بلغت اطَّلعت ، ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾ [غافر : ٣٧] ، أي : فيما يقول من أنَّ له ربّاً في السَّماء ، وما قال موسى له ذلك قطّ ، ولكنَّه لما قال له : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣] ، قال موسى : ﴿رَبُّ السَّموات وَالأَرْضِ﴾ [الشعراء : ٢٤] ظنَّ فرعون باعتقاده الباطل أنَّه لَّما لم يره في الأرض ، أنَّه في السَّماء ، فرام الصُّعود إلى السَّماء ، لرؤية إله موسى ، وكذلك ومثل ما وصفنا ، ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر : ٣٧] ، قال ابن عَبَّاس : صدَّه الله عن سبيل الهدى " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٣-١٤) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَفِي الْآيَةِ مَسَائِلُ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : احْتَجَّ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُشَبِّهَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي إِثْبَاتِ أن الله في السَّموات وَقَرَّرُوا ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ :

الْأَوَّل : أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مِنَ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ اللَّهِ ، وَكُلُّ مَا يَذْكُرُهُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَذَلِكَ إِنَّمَا يَذْكُرُهُ لِأَجْلِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَّ مُوسَى يَصِفُ اللَّهَ بِذَلِكَ ، فَهُوَ أيضاً يَذْكُرُهُ كَمَا سَمِعَهُ ، فَلَوْلَا أَنَّهُ سَمِعَ مُوسَى يَصِفُ اللَّهَ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي السَّماء وَإِلَّا لَمَا طَلَبَهُ فِي السَّماء .

الْوَجْهُ الثَّاني : أَنَّهُ قَالَ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً ، وَلَمْ يُبَيِّنْ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي مَاذَا ، وَالْمَذْكُورُ السَّابِقُ مُتَعَيِّنٌ لِصَرْفِ الْكَلَامِ إِلَيْهِ فَكَأَنَّ التَّقدير فَأَطَّلِعَ إِلَى الْإِلَهِ الَّذِي يَزْعُمُ مُوسَى أَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي السَّماء ، ثُمَّ قَالَ : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾ ، أَيْ وَإِنِّي

لَأَظُنُّ مُوسَىٰ كَاذِباً فِي ادِّعَائِهِ أَنَّ الْإِلَهَ مَوْجُودٌ فِي السَّماء ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ دِينَ مُوسَىٰ هُوَ أَنَّ الْإِلَهَ مَوْجُودٌ فِي السَّماء .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ : الْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَوْ وُجِدَ إِلَهٌ لَكَانَ مَوْجُوداً فِي السَّماء عِلْمٌ بَدِيهِيٌّ مُتَقَرِّرٌ فِي كُلِّ الْعُقُولِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الصِّبْيَانَ إِذَا تَضَرَّعُوا إِلَى اللهِ رَفَعُوا وُجُوهَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ إِلَى السَّماء ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ مَعَ نِهَايَةِ كُفْرِهِ لَمَّا طَلَبَ الْإِلَهَ فَقَدْ طَلَبَهُ فِي السَّماء ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ الْإِلَهَ مَوْجُودٌ فِي السَّماء عِلْمٌ مُتَقَرِّرٌ فِي عَقْلِ الصِّدِّيقِ وَالزِّنْدِيقِ وَالْمُلْحِدِ والموحد وَالْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ .

فَهَذَا جُمْلَةُ اسْتِدْلَالَاتِ الْمُشَبِّهَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَالْجَوَابُ : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالَ يَكْفِيهِمْ فِي كَمَالِ الْخِزْيِ وَالضَّلَالِ أَنْ جَعَلُوا قَوْلَ فِرْعَوْنَ اللَّعِينَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَىٰ صِحَّةِ دِينِهِمْ ، وأَمَّا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام فَإِنَّهُ لَمْ يَزِدْ فِي تَعْرِيفِ إِلَهِ الْعَالَمِ عَلَىٰ ذِكْرِ صِفَةِ الْخَلَّاقِيَّةِ فَقَالَ فِي سُورَةِ طه : **﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾** [طه : ٥٠] ، وَقَالَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : **﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾** ...**﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما﴾** [الشُّعَرَاءِ : ٢٦ ، ٢٨] ، فَظَهَرَ أَنَّ تَعْرِيفَ ذَاتِ اللهِ بِكَوْنِهِ فِي السَّماء دِينُ فِرْعَوْنَ وَتَعْرِيفَهُ بِالْخَلَّاقِيَّةِ وَالْمَوْجُودِيَّةِ دِينُ مُوسَىٰ ، فَمَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ كَانَ عَلَىٰ دِينِ فِرْعَوْنَ ، وَمَنْ قَالَ بِالثَّانِي كَانَ عَلَىٰ دِينِ مُوسَىٰ ، ثُمَّ نَقُولُ لَا نُسَلِّمُ أَنَّ كُلَّ مَا يَقُولُهُ فِرْعَوْنُ فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَىٰ فَذَلِكَ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام ، بَلْ لَعَلَّهُ كَانَ عَلَىٰ دِينِ الْمُشَبِّهَةِ فَكَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِلَهَ لَوْ كَانَ مَوْجُوداً لَكَانَ حَاصِلاً فِي السَّماء ، فَهُوَ إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الِاعْتِقَادَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ لَا لِأَجْلِ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَهُ مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : **﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾** ، فَنَقُولُ لَعَلَّهُ لَمَّا سَمِعَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام قَالَ : **﴿رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾** ظنَّ أنَّه عنىٰ به أنَّه ربّ السَّموات ، كَمَا يُقَالُ لِلْوَاحِدِ مِنَّا إِنَّهُ رَبُّ الدَّارِ بِمَعْنَىٰ كَوْنِهِ سَاكِناً فِيهِ ، فَلَمَّا غَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِ ذَلِكَ حَكَىٰ عَنْهُ ، وَهَذَا لَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ ، فَإِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ بَلَغَ فِي الْجَهْلِ وَالْحَمَاقَةِ إِلَىٰ حَيْثُ لَا يَبْعُدُ نِسْبَةُ هَذَا الْخَيَالِ إِلَيْهِ ، فَإِنِ اسْتَبْعَدَ الْخَصْمُ نِسْبَةَ هَذَا الْخَيَالِ إِلَيْهِ كَانَ ذَلِكَ لَائِقاً بِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَلَىٰ دِينِ فِرْعَوْنَ وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَعْظِيمُهُ .

وأَمَّا قَوْلُهُ إِنَّ فِطْرَةَ فِرْعَوْنَ شَهِدَتْ بِأَنَّ الْإِلَهَ لَوْ كَانَ مَوْجُوداً لَكَانَ فِي السَّماء ، قُلْنَا نَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّ فِطْرَةَ أَكْثَرِ النَّاس تُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ صِحَّةَ ذَلِكَ لَا سِيَّمَا مَنْ بَلَغَ فِي الْحَمَاقَةِ إِلَىٰ دَرَجَةِ فِرْعَوْنَ فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ سَاقِطٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اخْتَلَفَ النَّاس فِي أَنَّ فِرْعَوْنَ هَلْ قَصَدَ بِنَاءَ الصَّرْحِ لِيَصْعَدَ مِنْهُ إِلَى السَّماء أَمْ لَا؟ أَمَّا الظَّاهِرِيُّونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَقَدْ قَطَعُوا بِذَلِكَ ، وَذَكَرُوا حِكَايَةً طَوِيلَةً فِي كَيْفِيَّةِ بِنَاءِ ذَلِكَ الصَّرْحِ ، وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ بَعِيدٌ وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يُقَالَ فِرْعَوْنُ لَا يَخْلُو أَمَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَجَانِينِ أَوْ كَانَ مِنَ الْعُقَلَاءِ ، فَإِنْ قُلْنَا إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَجَانِينِ لَمْ يَجُزْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ إِرْسَالُ الرَّسُولِ إِلَيْهِ ، لأَنَّ الْعَقْلَ شَرْطٌ فِي التَّكْلِيفِ ، وَلَمْ يَجُزْ مِنَ اللهِ أَنْ يَذْكُرَ حِكَايَةَ كَلَامِ مَجْنُونٍ فِي الْقُرْآنِ ، وأَمَّا إِنْ قُلْنَا : إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْعُقَلَاءِ فَنَقُولُ : إِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ بِبَدِيهَةِ عَقْلِهِ أَنَّهُ يَتَعَذَّرُ فِي قُدْرَةِ الْبَشَرِ وَضْعُ بِنَاءٍ يَكُونُ

أَرْفَعَ مِنَ الْجَبَلِ الْعَالِي ، وَيَعْلَمُ أيضاً بِبَدِيهَةِ عَقْلِهِ أَنَّهُ لَا يَتَفَاوَتُ فِي الْبَصَرِ حَالُ السَّماء بَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْفَلِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ أَعْلَى الْجِبَالِ ، وَإِذَا كَانَ هَذَانِ الْعِلْمَانِ بَدِيهِيَّيْنِ امْتَنَعَ أَنْ يَقْصِدَ الْعَاقِلُ وَضْعَ بِنَاءٍ يَصْعَدُ مِنْهُ إِلَى السَّماء ، وَإِذَا كَانَ فَسَادُ هَذَا مَعْلُوماً بِالضَّرُورَةِ امْتَنَعَ إِسْنَادُهُ إِلَى فِرْعَوْنَ ، وَالَّذِي عِنْدِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ مِنَ الدَّهْرِيَّةِ وَغَرَضُهُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْكَلَامِ إِيرَادُ شُبْهَةٍ فِي نَفْيِ الصَّانِعِ وَتَقْرِيرُهُ أَنَّهُ قَالَ : إِنَّا لَا نَرَى شَيْئاً نَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ إِلَهُ الْعَالَمِ فَلَمْ يَجُزْ إِثْبَاتُ هَذَا الْإِلَهِ ، أَمَّا إِنَّهُ لَا نَرَاهُ فَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مَوْجُوداً لَكَانَ فِي السَّماء وَنَحْنُ لَا سَبِيلَ لنا إلى صعود السَّموات ، فَكَيْفَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَاهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ لِأَجْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي بَيَانِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ صُعُودُ السَّموات قال **﴿يَا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ﴾** ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَمَّا عَرَفَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ هَذَا الطَّرِيق مُمْتَنِعٌ كَانَ الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَةِ وُجُودِ اللهِ بِطَرِيقِ الْحِسِّ مُمْتَنِعاً ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾** [الْأَنْعَامِ : ٣٥] وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَلَبَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ وَضَعَ سُلَّماً إِلَى السَّماء ، بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَمَّا عُرِفَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى مُمْتَنِعٌ فَقَدْ عُرِفَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ الْمَقْصُودِ ، فَكَذَا هَاهُنَا غَرَضُ فِرْعَوْنَ من قوله : **﴿يَا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾** يَعْنِي أَنَّ الِاطِّلَاعَ عَلَى إِلَهِ مُوسَى لَمَّا كَانَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِهَذَا الطَّرِيق وَكَانَ هَذَا الطَّرِيق مُمْتَنِعاً ، فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ مِنْهُ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْإِلَهِ الَّذِي يُثْبِتُهُ مُوسَى فَنَقُولُ هَذَا مَا حَصَّلْتُهُ فِي هَذَا الْبَابِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ فَاسِدَةٌ لِأَنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ ثَلَاثَةٌ الْحِسُّ وَالْخَبَرُ وَالنَّظَرُ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ انْتِفَاءِ طَرِيقٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْحِسُّ انْتِفَاءَ الْمَطْلُوبِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام كَانَ قَدْ بَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ أَنَّ الطَّرِيق فِي مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى إِنَّمَا هُوَ الْحُجَّةُ وَالدَّلِيلُ كَمَا قَالَ : **﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾** ... **﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾** [الشُّعَرَاءِ : ٢٦ ، ٢٨] إِلَّا أَنَّ فِرْعَوْنَ لِخُبْثِهِ وَمَكْرِهِ تَغَافَلَ عَنْ ذَلِكَ الدَّلِيل ، وَأَلْقَى إِلَى الْجُهَّالِ أَنَّهُ لَمَّا كان لا طريق إلى الْإِحْسَاسُ بِهَذَا الْإِلَهِ وَجَبَ نَفْيُهُ ، فَهَذَا مَا عِنْدِي فِي هَذَا الْبَابِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ جَوَاهِرَ الْأَفْلَاكِ وَحَرَكَاتِهَا بِحَيْثُ تَكُونُ هِيَ الْأَسْبَابُ لِحُدُوثِ الْحَوَادِثِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْأَسْفَلِ ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ﴾** ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ أَسْبَاباً إِلَّا لِحَوَادِثِ هَذَا الْعَالَمِ قَالُوا وَيُؤَكِّدُ هَذَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ ص **﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ﴾** [ص : ١٠] أَمَّا الْمُفَسِّرُونَ فَقَدْ ذَكَرُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ﴾** أَنَّ المراد بأسباب السَّموات طُرُقُهَا وَأَبْوَابُهَا وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا ، وَكُلُّ مَا أَدَّاكَ إِلَى شَيْءٍ فَهُوَ سَبَبٌ كَالرَّشَادِ وَنَحْوِهِ ..." . انظر : مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥١٤-٥١٦) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " وَأَسْبَابُ السَّمَاءِ أَبْوَابُهَا فِي قول قتادة والزُّهري والسدِّي والأخفش، وأنشد:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ... - وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: أَسْبَابُ السَّموات طُرُقُهَا. وَقِيلَ: الْأُمُورُ الَّتِي تَسْتَمْسِكُ بِهَا السَّمَوَاتُ. وَكَرَّرَ أَسْبَابَ تَفْخِيمًا، لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا أُبْهِمَ ثُمَّ أُوضِحَ كَانَ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ. وَاللهُ أَعْلَمُ. **﴿فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾** فَأَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ مُشْرِفٍ عَلَيْهِ. تَوَهَّمَ أَنَّهُ جِسْمٌ تَحْوِيهِ الْأَمَاكِنُ. وكان فرعون يَدَّعِي الْأُلُوهِيَّةَ وَيَرَىٰ تَحْقِيقَهَا بِالْجُلُوسِ فِي مَكَانٍ مُشْرِفٍ. وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ "فَأَطَّلِعُ" بِالرَّفْعِ نَسَقًا عَلَىٰ قَوْلِهِ: **﴿أَبْلُغُ﴾** وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ وَالسُّلَمِيُّ وَعِيسَىٰ وَحَفْصٌ" فَأَطَّلِعَ" بِالنَّصْبِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: عَلَىٰ جَوَابِ" لَعَلَّ" بِالْفَاءِ. النَّحَّاسُ: وَمَعْنَىٰ النَّصْبِ خِلَافُ مَعْنَىٰ الرَّفْعِ، لِأَنَّ مَعْنَىٰ النَّصْبِ مَتَىٰ بَلَغْتُ الْأَسْبَابَ اطَّلَعْتُ. وَمَعْنَىٰ الرَّفْعِ **﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ﴾** ثُمَّ لَعَلِّي أَطَّلِعُ بَعْدَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ ثُمَّ أَشَدُّ تَرَاخِيًا مِنَ الْفَاءِ. **﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً﴾** ، أَيْ وَإِنِّي لَأَظُنُّ مُوسَىٰ كَاذِبًا فِي ادِّعَائِهِ إِلَهًا دُونِي، وَإِنَّمَا أَفْعَلُ مَا أَفْعَلُ لِإِزَاحَةِ الْعِلَّةِ. وَهَذَا يُوجِبُ شَكَّ فِرْعَوْنَ فِي أَمْرِ اللهِ. وَقِيلَ: إِنَّ الظَّنَّ بِمَعْنَىٰ الْيَقِينِ أَيْ وَأَنَا أَتَيَقَّنُ أَنَّهُ كَاذِبٌ وَإِنَّمَا أَقُولُ مَا أقول لإزالة الشبهة عمن لا أتيقن مَا أَتَيَقَّنُهُ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٣١٤-٣١٥) .

وقال الإمام ناصر الدِّين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمَّد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ) : " فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ عطف علىٰ أَبْلُغُ . وقرأ حفص بالنصب علىٰ جواب الترجي ولعله أراد أن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل علىٰ الحوادث الأرضية ، فيرىٰ هل فيها ما يدل علىٰ إرسال الله إياه ، أو إن يرىٰ فساد قول موسىٰ بأن أخباره من إله السَّماء يتوقف علىٰ إطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتىٰ إلا بالصعود إلىٰ السَّماء وهو مما لا يقوىٰ عليه الإنسان ، وذلك لجهله بالله وكيفية استنبائه . وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً في دعوىٰ الرسالة " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٥٨) .

وقال الإمام ابن كثير (٧٧٤هـ) : " وَقَوْلُهُ : **﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾** قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، وَأَبُو صَالِحٍ : أَبْوَابَ السَّموات . وقيل : طرق السَّموات **﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ كَاذِباً﴾** ، وَهَذَا مِنْ كُفْرِهِ وَتَمَرُّدِهِ ، أَنَّهُ كَذَّبَ مُوسَىٰ فِي أَنَّ اللهَ ، عزَّ وجلَّ ، أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾** أَيْ : بِصَنِيعِهِ هَذَا الَّذِي أَرَادَ أَنْ يُوهِمَ بِهِ الرَّعِيَّةَ أَنَّهُ يَعْمَلُ شَيْئاً يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَىٰ تَكْذِيبِ مُوسَىٰ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ﴾** قَالَ ابْنُ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، وَمُجَاهِدٌ : يَعْنِي إِلَّا فِي خَسَارٍ " . انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٤) .

وقال الإمام أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (٧٧٥هـ) : " {ياهامان ابن لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إلىٰ إله موسىٰ} [غافر : ٣٦ ، ٣٧] فطلب الإله في السَّماء ، فعلمنا أنَّ وصف الإله بالخلاقية ، وعدم وصفه بالمكَانِ والجهة دين موسىٰ وجميع الأنبياء ووصفه تعالىٰ بكونه في السَّماء دينُ فرعون ، وإخوانه مِنَ الكَفَرَةِ .

ومنها قوله تعالىٰ في هذه الآية : {إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ استوىٰ عَلَىٰ العرش} . وكلمة " ثُمَّ " للتراخي وهذا يدلُّ علىٰ أَنَّهُ تعالىٰ إِنَّمَا استوىٰ علىٰ العرش بعد تخليق السَّموات والأرض ، فإنْ كان المُرَادُ من الاستواء الاستقرار؛ لَزِمَ أن يقال : أَنَّهُ ما كان مستقراً علىٰ العرش ، بل كان مُعْوَجاً مُضطرباً ، ثُمَّ استوىٰ عليه بعد ذلك ، وذلك يُوجِبُ وصفه بصِفَاتِ الأَجْسامِ من الاضطراب والحركة تَرَاةً ، والسُّكون أخرىٰ ، وذلك لا يَقُوله عاقِلٌ " . [انظر : اللباب في علوم الكتاب ، أبو حفص سراج الدِّين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، (٩/ ١٤٩) ، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمَّد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م] .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النيسابوري (٨٥٠هـ) : " وأمَّا فرعون فقد طلب الإله في السَّماء في قوله فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ [القصص : ٣٨] فعلمنا أن التَّنْزِيْه دين موسىٰ ووصفه بالمكان والحيز دين فرعون . والجواب لا نزاع في أن حقيقة ذاته كما هي لا يعلمها إلا هو والبسائط المحضة لا تعرف إلا بلوازم ، وطلب فرعون إنَّمَا كان مذموما لأنه تصور أن يكون الإله شخصا مثله علىٰ تقدير وجوده لقوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي [القصص : ٣٨] " . [انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النيسابوري ، (٣/ ٢٥١) ، تحقيق : الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٦هـ] .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النيسابوري (٨٥٠هـ) : " استدل كثير من المشبهة بالآية علىٰ أن الله في السَّماء قالوا : إن بديهة فرعون قد شهدت بأنه في ذلك الصوب وأنه سمع من موسىٰ أنه يصف الله بذلك وإلا لما رام بناء الصرح . والجواب أن بديهة فرعون لا حجة فيها ، وسماعه ذلك من موسىٰ ممنوع . وقد يطعن بعض اليهود بل كلهم في الآية بأن تواريخ بني إسرائيل تدل علىٰ أن هامان لم يكن موجودا في زمان موسىٰ وفرعون وإنَّمَا ولد بعدهما بزمان طويل ، ولو كان مثل هذا الشخص موجودا في عصرهما لنقل لتوفرت الدواعي علىٰ نقله . والجواب أن الطعن بتاريخ اليهود المنقطع الوسط لكثرة زمان الفترة أولىٰ من الطعن في القرآن المعجز المتواتر أولاً ووسطاً وآخراً " . [انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النيسابوري ، (٦/ ٣٦-٣٧) ، تحقيق : الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلميه ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٦هـ] .

وقال الإمام إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (٨٨٥هـ) : " أسباب السماوات " ، أي : الأمور الموصلة إليها ، وكل ما أداك إلىٰ شيء فهو سبب إليه .

ولما ذكر هذا السبب ، ذكر المسبب عنه فقال : " فاطَّلع " ، أي : فلعله يتسبب عن ذلك ويتعقبه أني أتكلف الطلوع " إلىٰ إله موسىٰ " فيكون كما ترىٰ عطفاً علىٰ " أبلغ " ، ونصبه حفص عن عاصم علىٰ الجواب تنبيهاً علىٰ أن ما أبرزه الخبيث في عداد الممكن إنَّما هو تمني محال غير ممكن في العادة .

ولما كان من جملة إرادته بذلك مع إيقاف قومه إلىٰ وقت ما عن المتابعة أن يخيلهم بأن يقول : طلعت فبحثت عما قال موسىٰ فلم أقف له علىٰ صحة ، قدم لهم قوله مبيناً لحاله إذ ذاك لما ظن من ميل قلوبهم إلىٰ تصديق موسىٰ عليه السَّلام : " وإني لأظنه " ، أي : موسىٰ " كاذباً " فترك الكلام علىٰ احتمال أن يريد في الرسالة أو في الإلهية .

ولما كان هذا أمراً عجيباً ، وهو كون أحد يظن أنه يخيل للعقول أنه يصعد إلىٰ السَّماء ، وأن الإله الذي هو غني عن كل شيء وقد كان ولا شيء معه يكون في السَّماء ، أو في محل من المحال ، فإن كل حال في شيء يحتاج إلىٰ محله ، وكل محتاج عاجز ولا يصلح العاجز للإلهية لو لم يجئ عن الله لما كان أهلاً لأنَّ يصدق" . [انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي ، (٦/ ٥١٣) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م] .

وقال الإمام أبو السعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفىٰ (٩٨٢هـ) : " {فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إله موسىٰ} بالنصبِ علىٰ جوابِ الترجِّي وقرئ بالرفع عطفا علىٰ أبلغُ ولعلَّه أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ ليرصُدَ منْهُ أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدلُّ علىٰ إرسالِ الله تعالَىٰ إيَّاهُ أو أنْ يَرَىٰ فسادَ قوله عليه الصَّلاة والسَّلام بأنَّ إخبارَهُ من إلِه السَّماء يتوقفُ علىٰ اطِّلاعِه عليهِ ووصولِه إليهِ وذلكَ لا يتأتَّىٰ إلا بالصُّعودِ إلىٰ السَّماء وهُو ممَّا غافر ٣٨ ٤٢ لا يقْوَىٰ عليهِ الإنسانُ وما ذاكَ إلا لجهلِه بالله سبحانَهُ وكيفيةِ استنبائِه {وَإِنّى لاَظُنُّهُ كاذبا} فيما يدعيه من الرسالة أيِّ ومثَلَ ذلكَ التزيينِ البليغِ المُفْرطِ {زُيّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوء عَمَلِهِ} فانهمكَ فيهِ انهماكاً لا يرْعَوِي عنه بحال {وَصُدَّ عَنِ السبيل} أي سبيلِ الرشادِ والفاعلُ في الحقيقةِ هُو الله تعالَىٰ " . [انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) ، أبو السعود العمادي محمَّد بن محمَّد بن مصطفىٰ ، (٧/ ٢٧٦-٢٧٧) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت] .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولىٰ أبو الفداء (١١٢٧هـ) : " فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ بقطع الهمزة ونصب العين علىٰ جواب الترجي اىٰ انظر اليه قال في تاج المصادر الاطلاع ديده ورشدن . وفي عين المعاني الاستعلاء علىٰ شيء لرؤيته وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ اىٰ موسىٰ كاذِباً فيما يدعيه من الرسالة يقول الفقير لم يقل كذابا كما قال عند إرساله اليه لأنَّ القائل هنا هو فرعون وحده وحيث قال كذاب رجع المبالغة الى فرعون وهارون وقارون فافهم اعلم أن اكثر المفسرين حملوا هذا الكلام علىٰ ظاهره وذكروا في كيفية بناء ذلك الصرح حكاية سبقت

في القصص وقال بعضهم ان هذا بعيد جدا من حيث أن فرعون ان كان مجنونا لم يجز حكاية كلامه ولا إرسال رسول يدعوه وان كان عاقلا فكل عاقل يعلم بديهة انه ليس في قوة البشر وضع بناء ارفع من الجبل وانه لا يتفاوت في البصر حال السَّماء بين ان ينظر من أسفل الجبل ومن أعلاه فامتنع اسناده الى فرعون فذكروا لهذا الكلام توجهين يقربان من العقل الأَوَّل انه أراد ان يبنى له هامان رصدا في موضع عال ليرصد منه احوال الكواكب التي هى اسباب سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها ما يدل على إرسال الله إياه والثَّاني ان يرى فساد قول موسى عليه السَّلام بأن اخباره من اله السَّماء ويتوقف على اطلاعه عليه ووصوله اليه وذلك لى يتأتى الا بالصعود الى السَّماء وهو مما لا يقوى عليه إلا لسان وان كان اقدر اهل الأرض كالملوك فاذا لم يكن طريق الى رؤيته وإحساسه وجب نفيه وتكذيب من ادعى أنه رسول من قبله وهو موسى فعلى هذا التوجيه الثَّاني يكون فرعون من الدهرية الزنادقة وشبهته فاسدة لأنه لا يلزم من امتناع كون الحس طريقا الى معرفة الله امتناع معرفته مطلقا إذ يجوز ان يعرف بطريق النظر والاستدلال بالآثار كما قال ربكم آبائكم الأولين وقال رب المشرق والمغرب وما بينهما ولكمال جهل اللعين بالله وكيفية استنبائه أورد الوهم المزخرف في صورة الدَّليل وقال الكلبي اشتغل فرعون بموسى ولم يتفرغ لبنائه وقال بعضهم قال فرعون ذلك تمويها وبعضهم قال لغلبة جهله والظاهر أن الله تعالى إذا شاء يعمى ويصم من شاء فخلى فرعون ونفسه ليتفرغ لبناء الصرح ليرى منه آية اخرى له وتتأكد العقوبة وذلك لأنَّ الله تعالى هدمه بعد بنائه على ما سبق في القصص وأيضاً هذا من مقتضى التكبر والتجبر الذي نقل عنه كما مثله عن بخت نصر فانه أيضاً لغاية عتوه واستكباره بنى صرحا ببابل على ما سبقت قصته وأيضاً كيف يكون من الدهرية والمنقول المتواتر عنه أنه كان يتضرع الى الله تعالى في خلوته لحصول مهامه ومن الله الفهم والعناية والدراية ويدل على ما ذكرنا أيضاً قوله تعالى وَكَذلِكَ اى ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط زُيِّنَ آرايش داده شد لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ اى عمله السيّء فانهمك فيه انهما كالا يرعوى عنه بحال وَصُدَّ صرف ومنع عَنِ السَّبِيلِ اى سبيل الرشاد والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى وبالتوسط هو الشيطان ولذا قال زين لهم الشيطان أعمالهم وهذا عند اهل السنة وأمَّا عند المعتزلة فالمزين والصاد هو الشيطان وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ ونبود مكر فرعون در ساختن قصر ودر ابطال

آيات إِلَّا فِي تَبابٍ اى خسار وهلاك وفي التأويلات النجمية يشير الى أن من ظن أن الله سبحانه وتعالى في السَّماء كما ظن فرعون فانه فرعون وقته ولو لم يكن من المضاهاة بين من يعتقد أن الله سبحانه في السَّماء وبين الكافر الا هذا لكفى به في زيغ مذهبه وغلط اعتقاده فان فرعون غلط إذ توهم ان الله في السَّماء ولو كان في السَّماء لكان فرعون مصيبا في طلبه من السَّماء وقوله وكذلك إلخ يدل على أن اعتقاده بأن الله في السَّماء خطأ وانه بذلك مصدود عن سبيل الله وما كيد فرعون في طلب الله من السَّماء الا في تباب اى خسران وضلال انتهى وعن النَّبي عليه السَّلام ان

الله تعالىٰ احتجب عن البصائر كما احتجب عن الابصار وان الملأ الأعلىٰ يطلبونه كما تطلبونه أنتم يعنىٰ لو كان في السَّماء لما طلبه اهل السَّماء ولو كان في الأرض لما طلبه اهل الأرض فاذا هو الآن علىٰ ما كان عليه قبل من التنزه عن المكان وفي هدية المهديين إذا قال الله في السَّماء وأراد به المكان يكفر اتفاقا لأنه ظاهر في التجسيم وان لم يكن له نية يكفر عند أكثرهم وان أراد به الحكاية عن ظاهر الاخبار لا يكفر وعن معاوية بن الحكم السلمىٰ رضى الله عنه أنه قال أتيت رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم فقلت يا رسول الله ان جارية لى كانت ترعىٰ غنما لى فجئتها وفقدت شاة من الغنم فسألتها عنها فقالت أكلها الذئب فاسفت عليها وكنت من بنىٰ آدم فلطمتها اىٰ علىٰ وجهها وعلىٰ رقبتها أفأعتقها عنها فقال لها رسول الله اين الله فقالت في السَّماء فقال من انا فقالت أنت رسول الله فقال عليه السَّلام أعتقها فانها مؤمنة .

اعلم انه قد دل الدَّليل العقلي علىٰ استحالة حصر الحق في اينية والشارع لما علم أن الجارية المذكورة ليس في قوتها ان تتعقل موجدها الأعلىٰ تصوير في نفسها خاطبها بذلك ولو أنه خاطبها بغير ما تصورته في نفسها لارتفعت الفائدة المطلوبة ولم يحصل القبول فكان من حكمته عليه السَّلام ان سأل مثل هذه الجارية بمثل هذا السؤال وبمثل هذه العبارة ولذلك لما اشارت الىٰ السَّماء قال فيها أَنَّهَا مؤمنة يعنىٰ مصدقة بوجود الله تعالىٰ ولم يقل أَنَّهَا عالمة لانها صدقت قول الله وهو الله في السَّموات ولو كانت عالمة لم تقيده بالسماء فعلم أن للعالم ان يصحب الجاهل في جهله تنزلا لعقله والجاهل لا يقدر علىٰ صحبته العالم بغير تنزل كذا في الفتوحات المكية وفيه أيضاً أنه لا يلزم من الايمان بالفوقية الجهة فقد ثبتت فانظر ماذا ترىٰ وكن اهل السنة من الورىٰ انتهىٰ " . [انظر : روح البيان ، إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولىٰ أبو الفداء ، (٨/ ١٨٣-١٨٥) ، دار الفكر ، بيروت] .

وقال الإمام أبو العباس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (١٢٢٤هـ) : " يقول الحق جلّ جلاله : وَقَالَ فِرْعَوْنُ ، تمويهاً علىٰ قومه ، وجهلاً منه : يا هامانُ وزيره ابْنِ لِي صَرْحاً أي : قصراً عالياً ، وقيل : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفىٰ علىٰ الناظر وإن بَعُد منه .

يقال : صَرِح الشَّيء : إذا ظهر . لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أي : الطرق . ثُمَّ أبدل منها تفخيماً لشأنها ، وإظهاراً أنه يقصد أمراً عظيماً :

أَسْبابَ السَّماواتِ أي : طرُقها وأبوابها ، وما يُؤدّي إليها ، وكل ما أدّاك إلىٰ الشَّيء فهو سبب إليه ، فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ أي : فأنظر إليه وأتحقق وجوده ، قرأه حفص بالنصب ، جواب التمني ، والباقي بالرفع ، عطفاً علىٰ «أبلغ» .

قال البيضاوي : ولعله أراد أن يبني له صرحاً في موضع عال ، يرصد منه أحوال الكواكب ، التي هي أسباب سماوية ، تدلّ علىٰ الحوادث الأرضية ، فيرىٰ هل فيها ما يدلّ علىٰ إرسال الله تعالىٰ إياه ، أو أن يرىٰ فساد قوله عليه

السَّلام فإنّ إخباره عن إله السَّماء يتوقف علىٰ اطلاعه ووصوله إليه ، وذلك لا يتأتىٰ إلا بالصعود للسماء ، وهو مما لا يقوىٰ عليه الإنسان ، وما ذلك إلا لجهله بالله وكيفية استنبائه . هـ .

قلت : والظاهر أنه كان مجسّماً ، يعتقد أن الله في السَّماء ، وأن اطلاعه إليه إنَّما كان ليرىٰ هل ثُمَّ إله ، وإن قوله : وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أي : في ادّعاء إله غيري ، بدليل قوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «١» مع أنَّ هذا كله إنَّما هو تمويه منه علىٰ قومه ، وجرأة علىٰ الله ، لا حقيقة له " . [انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، أبو العباس أحمد بن محمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي ، (٥/ ١٣٤) ، تحقيق : أحمد عبد الله القرشي رسلان ، نشر : الدكتور حسن عَبَّاس زكي ، القاهرة ، الطبعة : ١٤١٩هـ] .

وقال الإمام شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ) : " وأراد بقوله : يا هامان أوقد لي علىٰ الطين إلخ إعلام النَّاس بفساد دعواه تلك بناء علىٰ توهمه أنه تعالىٰ إن كان كان في السَّماء بأنه لو كان رسولا منه تعالىٰ فهو ممن يصل إليه ، وذلك بالصعود إليه وهو مما لا يقوىٰ عليه الإنسان فيكون من نوع المحال بالنسبة إليه فما بنىٰ عليه وهي الرسالة منه تعالىٰ مثله ، فقوله : فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لإظهار عدم إمكان الصُّعود الموقوف عليه صحة دعوىٰ الرسالة في زعمه ولعل للتهكم .

الثاني أنه أراد أيضاً نفي العلم بالوجود دون الوجود نفسه لكنه كان في نفي العلم ملبسا علىٰ قومه كاذبا فيه حيث كان يعلم أن لهم إلها غيره هو إله الخلق أجمعين ، وهو الله عزَّ وجلَّ وأراد بقوله : وَإِنِّي إلخ إني لأظنه كاذبا في دعوىٰ الرسالة كما في سابقه ، وأراد بقوله يا هامان إلخ طلب أن يجعل له ما يزيل به شكه في الرسالة ، وذلك بأن يبني له رصدا في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب الدالة علىٰ الحوادث الكونية بزعمه فيرىٰ هل فيها ما يدل علىٰ إرسال الله تعالىٰ إياه .

وتعقب بأنه لا يناسب قوله : فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ إلا أن يراد فأطلع علىٰ حكم إله موسىٰ بأوضاع الكواكب والنظر فيها هل أرسل موسىٰ كما يقول أم لا؟ فيكون الكلام علىٰ تقدير مضاف وإِلىٰ فيه بمعنىٰ علىٰ ، وجوز علىٰ هذا الوجه أن يكون قد أراد بإله موسىٰ الكواكب فكأنه قال لعلي أصعد إلىٰ الكواكب التي هي إله موسىٰ فأنظر هل فيها ما يدل علىٰ إرسالها إياه أو لعلي أطلع علىٰ حكم الكواكب التي هي إله موسىٰ في أمر رسالته وهو كما ترىٰ ، وبالجملة هذا الوجه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه . الثالث أنه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده وبظنه كاذبا ظنه كاذبا في إثباته إلها غيره ويفسر الظن باليقين كما في قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج   سراتهم في الفارسي المسرد

فإثبات الظن المذكور لا يدفع إرادة ذلك النفي ، وجوز بعضهم إبقاءه علىٰ ظاهره ، وقال في دفع المنافاة : يمكن أن يقال : الظاهر أن كلامه الأَوَّل كان تمويها وتلبيسا علىٰ القوم ، والثَّاني كان مواضعة مع صاحب سره هامان فإثبات الظن في الثَّاني لا يدفع أن يكون العلم في الأَوَّل لنفي المعلوم ، وفيه أنه يأبىٰ ذلك سوق الآية ، والفاء في فأوقد لي وطلبه بناء الصرح راجيا الصُّعود إلىٰ إله موسىٰ عليه السَّلام أراد به التهكم كأنه نسب إلىٰ موسىٰ عليه السَّلام القول بأن إلهه في السَّماء فقال : يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً [غافر : ٣٦] لأصعد إلىٰ إله موسىٰ متهكما به ، وهذا نظير ما إذا أخبرك شخص بحياة زيد وأنه في داره ، وأنت تعلم خلاف ذلك فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكما به يا غلام أسرج لي الدابة لعلي أذهب إلىٰ فلان وأستأنس به بل ما قاله فرعون أظهر في التهكم مما ذكر فطلبه بناء الصرح بناء علىٰ هذا لا يكون منافيا لما ادعاه أولا وآخرا من العلم واليقين .

وقال بعضهم في دفع ما قيل : من المنافاة : أنَّهَا إنَّمَا تكون لو لم يكن قوله : لعلي أطلع إلخ علىٰ طريق التسليم والتنزل ، وقال آخر في ذلك : إن اللعين كان مشركا يعتقد أن من ملك قطرا كان إلهه ومعبود أهله فما أثبته في قوله : لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلخ الإله لغير مملكته وما نفاه إلهها كما يشير إليه قوله لكم ولا يخلو عن بحث .

وفي الكشاف القول بالمناقضة بين بناء الصرح وما ادعاه من العلم واليقين إلا أنه قال قد خفيت علىٰ قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف علىٰ نفسه سوطه وسيفه وإذا فتح هذا الباب جاز إبقاء الظن علىٰ ظاهره من غير حاجة إلىٰ دفع التناقض ، والأولىٰ عندي السعي في دفع التناقض فإذا لم يمكن استند في ارتكاب المخذول إياه إلىٰ جهله أو سفهه وعدم مبالاته بالقوم لغباوتهم أو خوفهم منه أو نحو ذلك ، واعترض القول بأنه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده فقال في التحقيق : وذكره غيره أيضاً إنه غير سديد فإن عدم العلم بالشيء لا يدل علىٰ عدمه لا سيما عدم علم شخص واحد . وقال القاضي البيضاوي : هذا في العلوم الفعلية صحيح لأنها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاؤها ولا كذلك العلوم الانفعالية ورد بأن غرض قائل ذلك أن عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ولا شك أنه كذلك فأطلق المسبب وأريد السبب لا أن بينهما ملازمة كلية علىٰ أنه لما كان من أقوىٰ أسباب عدم العلم لأنه المطرد جاز أن يطلق ويراد به الوجود إذ لا يشترط في فن البلاغة اللزوم العقلي بل العادي والعرفي كاف أيضاً وقد يقول أحد منا لا أعلم ذلك أي لو كان موجودا لعلمته إذا قامت قرينة وهذا الاستعمال شائع في عرفي العرب والعجم عند العامة والخاصة ومنه قول المزكي : إذا سئل عن عدالة الشهود لا أعلم كيف ، وكان المخذول يدعي الإلهية ، ثُمَّ الظاهر أن الكلام علىٰ تقدير إرادة نفي الوجود كناية لا مجاز ، وبالجملة ما ذكر وجه وجيه وتعيين الأوجه مفوض إلىٰ ذهنك والله تعالىٰ الموفق .

واستدل بعض من يقول : إن الله تعالىٰ في السَّماء بالمعنىٰ الذي أراده سبحانه في قوله عزَّ وجلَّ : أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماء [الملك : ١٦] حسبما يقول السَّلف بهذه الآية ، ووجه ذلك بأن فرعون لو لم يسمع من موسىٰ عليه السَّلام أن إلهه في السَّماء لما قال : فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلىٰ إله موسىٰ فقوله ذلك دليل السماع إلا أنه أخطأ في فهم المراد مما سمعه فزعم أن كونه تعالىٰ في السَّماء بطريق المظروفية والتمكن ونحوهما مما يكون للأجسام ، وأنت تعلم أن هذا الاستدلال في غاية الضعف وإثبات مذهب السَّلف لا يحتاج إلىٰ أن يتمسك له بمثل ذلك " . [انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدِّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، (١٠/ ٢٨٩-٢٩٠) ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٤١٥هـ] .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : " (فأطلع إلىٰ إله موسىٰ) أي انظر إليه ، وأطلع علىٰ حاله ، قرأ الأعرج السلمي وعيسىٰ بن عمر وحفص بالنصب علىٰ جواب الأمر في قوله ابن لي ، وهذا رأىٰ البصريين . أو علىٰ جواب الترجي كما قال أبو عبيدة وغيره وهذا رأىٰ الكوفيين .

قال النحاس معنىٰ النصب خلاف معنىٰ الرفع لأنَّ معنىٰ النصب متىٰ بلغت الأسباب اطلعت ، وقرأ الجمهور بالرفع عطفاً علىٰ أبلغ فهو علىٰ هذا داخل في حيز الترجي ، ومعناه لعلي أبلغ ، ولعلي أطلع بعد ذلك ، وقيل غير ذلك ، وفي هذا دليل علىٰ أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم ، وبمنزلة من فهم حقائق الأشياء سافلة جداً .

(وإني لأظنه) أي موسىٰ (كاذباً) في ادعائه بأن له إلهاً غيري ، مستوياً علىٰ العرش فوق السَّموات أو فيما يدعيه من الرسالة قيل : قال فرعون ذلك تمويهاً وتلبيساً ، وتخليطاً علىٰ قومه ، وإلا فهو يعرف ويعتقد حقيقة الإله ، وأنه ليس في جهة العلو ، ولكنه أراد التلبيس علىٰ قومه توصلاً لبقائهم علىٰ الكفر ، فكأنه يقول . لو كان إله موسىٰ موجوداً لكان له محل ، ومحله أمَّا الأرض وأمَّا السَّماء ، ولم نره في الأرض فيبقىٰ أن يكون في السَّماء ، والسَّماء لا توصل إليها إلا بسلم قاله الحفناوي " . [انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن ، أبو الطيِّب محمَّد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي ، (١٢/ ١٩٠-١٩١) ، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر ، صَيدَا ، بَيروت ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م] .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : " (وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ . أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلىٰ إِلهِ مُوسىٰ) أي وقال فرعون بعد سماعه عظة المؤمن وتحذيره له من بأس الله إذا كذب بموسىٰ وقتله : يا هامان ابن لى قصرا منيفا عالى الذّرا رفيع العماد ، علّنى أبلغ أبواب السَّماء وطرقها ، حتىٰ إذا

وصلت إليها رأيت إله موسىٰ ، ولا يريد بذلك إلا الاستهزاء والتهكم ، وتكذيب دعوىٰ الرسالة من رب السَّموات والأرض .

والخلاصة- إن هذا نفى لرسالته من عند ربه .

ثم أكد هذا النفي الضمنىٰ بالتصريح به بقوله : (وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً) أي وإنى لأظنه كاذبا فيما يقول ويدّعىٰ من أن له في السَّماء ربّا أرسله إلينا ، وقد قال هذا تمويها وتلبيسا علىٰ قومه ، توصلا بذلك إلىٰ بقائهم علىٰ الكفر ، وإلا فهو يعلم أن الإله ليس في جهة العلو فحسب ، وكأنه يقول : لو كان إله موسىٰ موجودا لكان له محل ، ومحله أمَّا الأرض وأمَّا السَّماء ، ولم نره في الأرض ، فإذا هو في السَّماء ، والسَّماء لا يتوصل إليها إلا بسلم ، فيجب أن نبنىٰ الصرح لنصل إليه " . [انظر : تفسير المراغي ، أحمد بن مصطفىٰ المراغي ، (٢٤/ ٧١-٧٢) ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابىٰ الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة : الأولىٰ ، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م] .

وقال الإمام سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (١٣٨٥هـ) : " يا هامان ابن لي بناء عاليا لعلي أبلغ به أسباب السماوات ، لأنظر وأبحث عن إله موسىٰ هناك «وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً» . . هكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور ، كي لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه ، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه . وبعيد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه .

وبعيد أن يكون جادا في البحث عن إله موسىٰ علىٰ هذا النحو المادي الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدا يبعد معه هذا التصور . إنَّما هو الاستهتار والسخرية من جهة . والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرىٰ . وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن! وكل هذه الفروض تدل علىٰ إصراره علىٰ ضلاله ، وتبجحه في جحوده " . انظر : في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٨٣) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمي النيسابوري () : " ...ومنها أن فرعون طلب حقيقة الإله في قوله : " وما رب العالمين " [الشعراء : ٢٣] ، ولم يزد موسىٰ علىٰ ذكر الأوصاف . وأمَّا فرعون فقد طلب الإله في السَّماء في قوله : " فاطلع إلىٰ إله موسىٰ " [القصص : ٣٨] فعلمنا أن التنزية دين موسىٰ ووصفه بالمكان والحيز دين فرعون .

والجواب : لا نزاع في أن حقيقة ذاته كما هي لا يعلمها إلا هو والبسائط المحضة لا تعرف إلا بلوازم ، وطلب فرعون إنَّما كان مذموماً لأنه تصور أن يكون الإله شخصاً مثله علىٰ تقدير وجوده لقوله : " ما علمت لكم من إله غيري " [القصص : ٣٨] " . [انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين

الْعَرْش يطلع إِلَى إِلَه مُوسَى أما أَن إِلَه مُوسَى فِي السَّمَوَات فَمَا ذكره وعَلى تَقْدِير فهم ذَلِك من كَلَام فِرْعَوْن فَكيف يسْتَدلّ بِظَنّ فِرْعَوْن وفهمه مَعَ إِخْبَار الله تَعَالَى عَنهُ أَنه زين لَهُ سوء علمه وَأَنه حاد عَن سَبِيل الله عز وَجل وَأَن كَيده فِي ضلال مَعَ أَنه لما سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَقَالَ وَمَا رب السَّمَوَات لم يتَعَرَّض مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام للجهة بل لم يذكر إِلَّا أخص بِالصِّفَاتِ وَهِي الْقُدْرَة على الاختراع وَلَو كَانَت الْجِهَة ثَابِتَة لَكَانَ التَّعْرِيف بهَا أولى فَإِن الْإِشَارَة الحسية من أقوى المعرفات حسا وَعرفا وَفرْعَوْن سَأَلَ بِلَفْظَة مَا فَكَانَ الْجَواب بالتحيز أولى من الصّفة وَغَايَة مَا فهمه من هَذِه الْآيَة وَاسْتدلَّ بِهِ فهم فِرْعَوْن فَيكون عُمْدَة هَذِه العقيدة كَون فِرْعَوْن ظَنّهَا فَيكون هُوَ مستندها فليت شعري لم لَا ذكر النِّسْبَة إِلَيْهِ كَمَا ذكر أَن عقيدة سَادَات أمة مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذين خالفوا اعْتِقَاده فِي مَسْأَلَة التحيز والجهة الَّذين ألحقهم بالجهمية [٦٠] مُتَلَقَّاة من لبيد بن الأعصم الْيَهُودِيّ الَّذِي سحر النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَختم الْآيَات الْكَرِيمَة بالاستدلال بقوله ﴿تَنْزِيل من حَكِيم حميد﴾ ﴿منزل من رَبك بِالْحَقِّ﴾ ، وَمَا فِي الْآيَتَيْنِ لَا عرش وَلَا كرْسِي وَلَا سَمَاء وَلَا أَرض بل مَا فيهمَا إِلَّا مُجَرّد التَّنْزِيل وَمَا أَدْرِي من أَي الدلالات استنبطها الْمُدَّعِي فَإِن السَّمَاء لَا تفهم من التَّنْزِيل فَإِن التَّنْزِيل قد يكون من السَّمَاء وَقد يكون من غَيرهَا وَلَا تَنْزِيل الْقُرْآن كَيفَ يفهم مِنْهُ النُّزُول الَّذِي هُوَ انْتِقَال من فَوق إِلَى أَسْفَل فَإِن الْعَرَب لَا تفهم ذَلِك فِي كَلَام سَوَاء كَانَ من عرض أَو غير عرض وكما تطلق الْعَرَب النُّزُول على الِانْتِقَال تطلقه على غَيره كَمَا جَاءَ فِي كِتَابه الْعَزِيز ﴿وأنزلنا الْحَدِيد فِيهِ بَأْس شَدِيد﴾ ، قَوْله تَعَالَى : ﴿وَأنزل لكم من الْأَنْعَام ثَمَانِيَة أَزوَاج﴾ ، وَلم ير أحد قطّ قِطْعَة حَدِيد نازلة من السَّمَاء فِي الْهَوَاء وَلَا جملا يحلق من السَّمَاء إِلَى الأَرْض فَكَمَا جوز هُنَا أَن النُّزُول غير الِانْتِقَال من الْعُلُوّ إِلَى السّفل فليجوزه هُنَاكَ .

هَذَا آخر مَا اسْتدلَّ بِهِ من الْكتاب الْعَزِيز وَقد ادّعى أَولا أَنه يَقُول مَا قَالَه الله وَأَن مَا ذكره من الْآيَات دَلِيل على قَوْله إِمَّا نصا وَإِمَّا ظَاهرا وَأَنت إِذا رَأَيْت مَا ادَّعَاهُ وأمعنت النّظر فِيمَا قُلْنَاهُ واستقريت هَذِه الْآيَات لم تَجِد فِيهَا كلمة على وفْق مَا قَالَه أَولا وَلَا نصا وَلَا ظَاهرا أَلْبَتَّة وكل أَمر بعد كتاب الله تَعَالَى وَالدَّعْوَى عَلَيْهِ خلل .

القمي النيسابوري ، () ، تحقيق : الشيخ زكريا عميران ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة : الأولى ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٦م] .

[٦٠] من المعلوم أنَّ الجهميَّة في معتقدهم كفَّار ، وقد اعتادوا على نعت الأشاعرة ومن وافقهم بأنَّهم جهميَّة ...

ثمَّ اسْتدلَّ من السُّنَّة بِحَدِيث الْمِعْرَاج ، وَلم يرد فِي حَدِيث الْمِعْرَاج أَنَّ الله فَوق السَّمَاء أَو فَوق الْعَرْش حَقِيقَة وَلَا كلمة وَاحِدَة من ذَلِك ، وَهُوَ لم يسْرد حَدِيث الْمِعْرَاج ، وَلَا بَيَّن الدّلَالَة مِنْهُ حَتَّى نجيب عَنهُ، فَإِن بَيَّن وَجه الِاسْتِدْلَال عَرفْنَاهُ كَيفَ الْجَواب .

وَاسْتدلَّ بنزول الْمَلَائِكَة من عِنْد الله تَعَالَى ، وَالْجَوَاب عَن ذَلِك : أَنَّ نزُول الْمَلَائِكَة من السَّمَاء إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ السَّمَاء مقرّهم ، والعنديَّة لَا تدلُّ على أَنَّ الله فِي السَّمَاء ، لِأَنَّهُ يُقَال فِي الرُّسُل الْآدَمِيّين إِنَّهُم من عِنْد الله وَإِن لم يَكُونُوا نزلُوا من السَّمَاء ، على أَنَّ العنديَّة قد يُرَاد بهَا الشَّرف والرُّتبة ، قَالَ الله تَعَالَى : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب﴾ ، وتستعمل فِي غير ذَلِك ، كَمَا قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِكَايَة عَن ربِّه عزَّ وَجلَّ :" أَنا عِنْد ظنِّ عَبدِي بِي " (٦١) .

(٦١) أخرجه أحمد في المسند (١٢/ ٣٨٦ برقم ٧٤٢٢) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : إسناده صحيح على شرط الشيخين . أبو معاوية : هو محمَّد بن خازم الضرير ، وابن نمير : هو عبد الله ، والأعمش : هو سليمان بن مهران ، وأبو صالح : هو ذكوان السمّان . وأخرجه التِّرمذي (٣٦٠٣) من طريق ابن نمير وأبي معاوية ، بهذا الإسناد ، وقال : حسن صحيح . وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) (٢) و (٢١) ، وابن ماجه (٣٨٢٢) ، والنسائي في "الكبرىٰ" (٧٧٣٠) ، وابن خزيمة في "التوحيد" ١/ ١٥ من طريق أبي معاوية وحده ، به . وليس عند ابن خزيمة : "وإن اقترب إلي شبرا ..." إلىٰ آخر الحديث . وأخرجه ابن خزيمة في "التوحيد" ١/ ١٦ ، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص ٢٨٤ من طريق عبد الله بن نمير وحده ، به . وليس عند ابن خزيمة أيضاً : "وإن اقترب . ." إلىٰ آخر الحديث . وأخرجه البخاري (٧٤٠٥) ، والبغوي (١٢٥١) من طريق حفص بن غياث ، ومسلم (٢٦٧٥) (٢) ، وابن حبان (٨١١) من طريق جرير ، وأبو نعيم في "الحلية" ٩/ ٢٦-٢٧ من طريق سفيان الثوري ، ثلاثتهم عن الأعمش ، به . وسيأتي مطولا ومختصرا من طريق أبي صالح ، عن أبي هريرة برقم (٩٣٥١) و (١٠٢٢٤) و (١٠٦٨٤) و (١٠٧٠٤) و (١٠٧٨٢) و (١٠٩٠٩) . وأخرجه البخاري (٧٥٠٥) ، والخطيب في "تاريخ بغداد" ٧/ ١٠٩ من طريق الأعرج ، عن أبي هريرة مختصرا بقوله : "قال الله : أنا عند ظن عبدي بي" ، وزاد الخطيب : "وأنا معه حيث يذكرني" . وأخرجه مسلم (٢٦٧٥) (٣) ، والبغوي (١٢٥٢) من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة ، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إن الله قال : إذا تلقاني عبدي بشبر تلقيته بذراع ، وإذا تلقاني بذراع ، تلقيته بباع ، وإذا تلقاني بباع ، جئته أتيته بأسرع" . وزاد البغوي في أوله : "أنا عند ظن عبدي بي" ، وهذه الزيادة من هذه الطَّرِيق ستأتي برقم (٨١٧٨) . وأخرجه أبو يعلىٰ (٦٦٠١) من طريق سعيد بن أبي سعيد ، عن أبي هريرة من قوله : "إذا اقترب إلي شبرا ..." إلىٰ آخر الحديث . وسيأتي الحديث من طرق أخرىٰ عن أبي هريرة ، وبألفاظ متقاربة مطولة ومختصرة ، انظر (٨١٧٨) و (٨٦٥٠) و (٩٠٧٦) و (٩٦١٧) و (٩٧٤٩) و (١٠٢٥٣) و (١٠٤٩٨) و (١٠٩٦٨) و (١٠٩٧٥) . وفي الباب عن أنس ، وواثلة بن الأسقع ، وأبي ذر الغفاري ، وستأتي أحاديثهم علىٰ التوالي ٣/ ٢٧٧ ، و٣/ ٤٩١ ، و١٥/ ٤٧ . قوله عزَّ وجلَّ : "أنا مع عبدي حين يذكرني" ، قال النووي في "شرح مسلم" ١٧/ ٢ : أي : معه

وَذكر عروج الْمَلَائِكَة وَقد سبق وَرُبمَا شدّ فقار ظَهره وقوى منَّة منته بِلَفْظَة {إِلَى رَبهم} ، وَأَنَّ {إِلَى} لانْتِهَاء الْغَايَة ، وَأَنَّهَا فِي قطع الْمسَافَة ، وَإِذا سكت عَن هَذَا لم يتَكَلَّم بِكَلَام الْعَرَب ، فَإِنَّ الْمسَافَة لَا تفهم الْعَرَب مِنْهَا إِلَّا مَا تنْتَقل فِيهِ الْأَجْسَام ، وَهُوَ يَقُول إِنَّهُم لَا يَقُولُونَ بذلك ، وَقد قَالَ الْخَلِيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿إِنِّي ذَاهِب إِلَى رَبِّي﴾ ، وَلَيْسَ الْمُرَاد بذلك الِانْتِهَاء الَّذِي عناه الْمُدَّعِي بالِاتِّفَاقِ فَلم يجترئ على ذَلِك فِي كتاب الله تَعَالَى وَلَا يُجَاب بِهِ فِي خبر الْوَاحِد

وَذكر قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحاً وَمَسَاءً " (٦٢) ، وَلَيْسَ الْمُرَاد بِمن هُوَ الله تَعَالَى وَلَا ذكر النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِك وَلَا خصّه بِهِ وَمن أَيْن للْمُدَّعِي

بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية . وقوله : "فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي" ، قال المازري : النفس تطلق في اللغة على معان : منها الدم ، ومنها نفس الحيوان ، وهما مستحيلان في حق الله تعالى ، ومنها الذات ، والله تعالى له ذات حقيقة ، وهو المراد بقوله تعالى : (في نفسي) ، ومنها الغيب ، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) [المائدة : ١١٦] ، أي : ما في غيبي ، فيجوز أن يكون أيضاً مراد الحديث ، أي : إذا ذكرني خاليا أثابه الله وجازاه عما عمل بما لا يطلع عليه أحد . وقوله : "وإن اقترب إليَّ شبراً ..." إلى آخر الحديث ، قال النَّووي : هذا الحديث من أحاديث الصِّفات ، ويستحيل إرادة ظاهره ، ومعناه : من تقرَّب إليَّ بطاعتي ، تقرَّبت إليه برحمتي والتَّوفيق والإعانة ، وإن زاد زدت ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي ، أتيته هرولة ، أي : صببت عليه الرَّحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود ، والمراد : أنَّ جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقرُّبه" .

(٦٢) أخرجه ابن حبان في الصحيح (١/ ٢٠٥ برقم ٢٥) ، قال الأرنؤوط في تخريجه لصحيح ابن حبان : " إسناده صحيح على شرط الشيخين : أبو خيثمة : هو زهير بن حرب ، وجرير : هو ابن عبد الحميد ، وأخرجه مسلم "١٠٦٤" "١٤٥" في الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، من طريق عثمان بن أبي شيبة ، عن جرير ، بهذا الإسناد . وأخرجه أحمد ٣/ ٤-٥ ، ومسلم "١٠٦٤" "١٤٦" من طريق محمَّد بن فضيل ، عن عمارة بن القعقاع بهذا الإسناد . وأخرجه البخاري "٤٣٥١" في المغازي : باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى اليمن قبل حجة الوداع ، ومسلم "١٠٦٤" "١٤٤" من طريق عبد الواحد ، عن عمارة بن القعقاع ، به . وأخرجه البخاري "٣٣٤٤" في الأنبياء : باب قوله تعالى : {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ} ، و"٤٦٦٧" في التفسير : باب {وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ} ، و"٧٤٣٢" في التَّوحيد : باب قول الله تعالى : {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ والرُّوح إِلَيْهِ} ، وأحمد ٣/ ٦٨ و٧٣ ، وعبد الرزاق في "المصنف" "١٨٦٧٦" ، وأبو داود "٤٧٦٤" في السنة : باب الخوارج ، والنسائي ٧/ ١١٨ ، في تحريم الدم : باب من شهر سيفه ثُمَّ وضعه في النَّاس ، من طريق سفيان الثوري ، عن أبيه سعيد بن مسروق ، عن عبد الرَّحْمَن بن أبي نُعْم ، عن أبي سعيد . وأخرجه مسلم "١٠٦٤" "١٤٣" من طريق أبي الأحوص ، عن سعيد بن مسروق ، عن عبد الرَّحْمَن بن أبي نُعْم ، به . وأخرجه الطيالسي "٢٢٣٤" ، والنسائي

أَنه لَيْسَ الْمُرَاد بِمن الْمَلَائِكَة فَإِنَّهُم أكبر الْمَخْلُوقَات علما بِاللَّه تَعَالَى وأشدهم اطلاعا على الْقرب وهم يعلمُونَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمِين وَهُوَ عِنْدهم فِي هَذِه الرُّتْبَة فَليعلم الْمُدَّعِي أَنه لَيْسَ فِي الحَدِيث مَا يَنْفِي هَذَا وَلَا مَا يثبت مَا ادَّعَاهُ ، ثمَّ ذكر حَدِيث الرّقية (رَبنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاء تقدس اسْمك أَمرك فِي السَّمَاء وَالْأَرْض كَمَا رزقك فِي السَّمَاء) الحَدِيث .

وَهَذَا الحَدِيث بِتَقْدِير ثُبُوته فَالَّذِي ذكره النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ (رَبنَا الَّذِي فِي السَّمَاء تقدس اسْمك) مَا سكت النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فِي السَّمَاء فلأي معنى نقف نَحن عَلَيْهِ ونجعل تقديس اسْمك كلَاما مستأنفا هَل فعله رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَكَذَا أَو أَمر بِهِ وَعند ذَلِك لَا يجد الْمُدَّعِي مخلصا إِلَّا أَن يَقُول الله تقدس اسْمه فِي السَّمَاء وَالْأَرْض فَلم خصصت السَّمَاء بِالذكر فَنَقُول لَهُ مَا معنى تقدس إِن كَانَ الْمُرَاد بِهِ التَّنْزِيه من حَيْثُ هُوَ تَنْزِيه فَذَلِك لَيْسَ فِي سَمَاء وَلَا أَرض إِذْ التَّنْزِيه نفي النقائص وَذَلِكَ لَا تعلق لَهُ بجرباء وَلَا غبراء فَإِن الْمُرَاد أَن الْمَخْلُوقَات تقدس وتعترف بالتنزيه فَلَا شكّ أَن أهل السَّمَاء مطبقون على تنزيهه تَعَالَى كَمَا أَنه لَا شكّ أَن فِي أهل الأَرْض من لم ينزه وَجعل لَهُ ندا وَوَصفه بِمَا لَا يَلِيق بجلاله فَيكون تَخْصِيص السَّمَاء بِذكر التَّقْدِيس فِيهَا لانفراد أَهلهَا بالإطباق على التَّنْزِيه كَمَا أَنه سُبْحَانَهُ لما انْفَرد فِي الْملك فِي يَوْم الدّين عَمَّن يتَوَهَّم ملكه خصصه بقوله تَعَالَى {مَالك يَوْم الدّين} وكما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد دمار من ادّعى الْملك وَالْملك {لمن الْملك الْيَوْم لله الْوَاحِد القهار}

وَأعَاد هَذَا الْمُدَّعِي الحَدِيث من أَوله وَوصل إِلَى أَن قَالَ فَلْيقل رَبنَا الَّذِي فِي السَّمَاء قَالَ وَذكره ووقف على قَوْله فِي السَّمَاء فليت شعري هَل جوز أحد من الْعلمَاء أَن يفعل مثل هَذَا وَهل هَذَا إِلَّا مُجَرّد إِيهَام أَن سيد الْمُرْسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِم قَالَ (رَبنَا الله فِي السَّمَاء)

٥/ ٨٧ في الزكاة : باب المؤلفة قلوبهم ، والبيهقي في "دلائل النبوة" ٦/ ٤٢٦ من طرق ، عن سعيد بن مسروق ، عن عبد الرَّحْمَن بن أبي نُعْم ، به .

وأخرجه البخاري "٣٦١٠" و"٦٩٣٣" ، ومسلم "١٠٦٤" "١٤٨" ، من طريق الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد . وأخرجه البخاري أيضاً "٥٠٥٨" ، ومسلم "١٠٦٤" "١٤٧" من طريقين يحيى بن سعيد ، عن محمَّد بن إبراهيم ، عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد . وأخرجه البخاري أيضاً "٦١٦٣" ، والبيهقي في "دلائل النبوة" ٦/ ٤٢٧ من طريق الأوزاعي ، عن الزهري ، عن أبي سلمة والضَّحَّاك ، عن أبي سعيد . وفي الباب عن جابر عند أحمد ٣/ ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، وعن أبي برزة عنده أيضاً ٤/ ٤٢١ ، وعن أبي بكرة ٥/ ٤٢ .

وَأما حَدِيث الأوعال (٦٣) وَمَا فِيهِ من قَوْله (وَالْعرش فَوق ذَلِك كُله وَالله فَوق ذَلِك كُله) فَهَذَا الحَدِيث قد كثر مِنْهُم إِيهَام الْعَوام أَنهم يَقُولُونَ بِهِ ويروجون بِهِ زخارفهم وَلَا يتركون دَعْوَى من دعاويهم عاطلة من

---

(٦٣) أخرج حديث الأوعال أحمد وغيره ، قال أحمد في المسند (٣/ ٢٩٢ برقم ١٧٧٠) : " حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ الْعَلاءِ، عَنْ عَمِّهِ شُعَيْبِ بْنِ خَالِدٍ، حَدَّثَنِي سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمِيرَةَ ، عَنْ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَطْحَاءِ، فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ " قَالَ: قُلْنَا: السَّحَابُ، قَالَ: " وَالْمُزْنُ " قُلْنَا: وَالْمُزْنُ، قَالَ: " وَالْعَنَانُ "، قَالَ: فَسَكَتْنَا، فَقَالَ: " هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ " قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَفَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ رُكَبِهِنَّ وَأَظْلافِهِنَّ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ " . قال الأرنؤوط : " إسناده ضعيف جداً، يحيى بن العلاء- وهو الرازي البجلي- قال عمرو بن علي الفلاس والنسائي والدارقطني: متروك الحديث، وقال أحمد: كذاب يضع الحديث، وقال أبو داود: ضعفوه، وسماك بن حرب- وإن كان صدوقاً- كان ربما لُقن، فإذا انفرد بأصل لم يكن حجةً كما قال الحافظ في "التهذيب"، وقد تفرد بالرواية عن عبد الله بن عميرة كما قال مسلم في "الوحدان" ص ١٤٠، وعبد الله بن عَميرة ذكره العقيلي وابن عدي في جملة الضعفاء، وقال الذهبي؟ لا يعرف، وذكره ابن حبان في "الثقات" على عادته في توثيق المجاهيل، وهو إلى ذلك معضل بإسقاط الأحنف بن قيس من

الإسناد، وبإثباته فهو منقطع، فإنه لا يعلم له سماع منه فيما قاله البخاري.

وأخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في "العرش" (١٠) ، وأبو يعلى (٦٧١٣) ، والحاكم ٢/ ٥٠١ من طريق عبد الرزاق، بهذا الإسناد. إلا أن الحاكم زاد فيه "عن الأحنف بن قبس"!

وأخرجه ابنُ طهمان في "مشيخته" (١٨) ، ومن طريقه أبو داود (٤٧٢٥) ، والآجري في "الشريعة" ص ٢٩٢- ٢٩٣، والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص ٣٩٩، والجورقاني في "الأباطيل والمناكير" ١/ ٧٧ - ٧٨، وأخرجه أبو داود (٤٧٢٤) ، والترمذي (٣٣٢٠) ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٥٧٧) ، وابن خزيمة في "التوحيد" ص ١٠١- ١٠٢، واللالكائي في "شرح أصول الاعتقاد" ٣/ ٣٨٩-٣٩٠ من طريق عمرو بن أبي قيس، كلاهما (إبراهيم بن طهمان وعمرو بن أبي قبس) عن سماك بن حرب، عن عبد الله بن عَميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس- وبعضهم يزيد فيه على بعض. ووقع عندهم: "إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ... ".

التحلي بِهَذَا الحَدِيث وَنحن نبين أَنهم لم يَقُولُوا بِحرف وَاحِد مِنْهُ وَلَا اسْتَقر لَهُم قدم بِأَن الله تَعَالَى فَوق الْعَرْش حَقِيقَة بل نقضوا ذَلِك وإيضاح ذَلِك بِتَقْدِيم مَا أخر هَذَا الْمُدَّعِي قَالَ فِي آخر كَلَامه وَلَا يظنّ الظَّان أَن هَذَا يُخَالف ظَاهر قَوْله تَعَالَى {وَهُوَ مَعكُمْ أَيْن مَا كُنْتُم} وَقَول النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِذا قَامَ أحدكُم إِلَى الصَّلَاة فَإِن الله قبل وَجهه)

وَنَحْو ذَلِك قَالَ فَإِن هَذَا غلط ظَاهر وَذَلِكَ أَن الله تَعَالَى مَعنا حَقِيقَة فَوق الْعَرْش حَقِيقَة قَالَ كَمَا جمع الله بَينهمَا فِي قَوْله {هُوَ الَّذِي خلق السَّمَاوَات وَالْأَرْض فِي سِتَّة أَيَّام ثمَّ اسْتَوَى على الْعَرْش يعلم مَا يلج فِي الأَرْض وَمَا يخرج مِنْهَا وَمَا ينزل من السَّمَاء وَمَا يعرج فِيهَا وَهُوَ مَعكُمْ أَيْن مَا كُنْتُم وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير} قَالَ هَذَا الْمُدَّعِي بملء مَا ضغتيه من غير تكْتم وَلَا تلعثم فقد أخبر الله تَعَالَى أَنه فَوق الْعَرْش وَيعلم كل شَيْء وَهُوَ مَعنا أَيْنَمَا كُنَّا كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيث الأوعال (وَالله فَوق الْعَرْش وَهُوَ يعلم مَا أَنْتُم عَلَيْهِ) فقد فهمت أَن هَذَا الْمُدَّعِي ادّعى أَن الله فَوق الْعَرْش حَقِيقَة وَاسْتدلَّ بقوله تَعَالَى {ثمَّ اسْتَوَى على الْعَرْش} وَجعل أَن ذَلِك من الله تَعَالَى خبر أَنه فَوق الْعَرْش وَقد علم كل ذِي ذهن قويم وفكر مُسْتَقِيم أَن لفظ {اسْتَوَى على الْعَرْش} لَيْسَ مرادفا للفظ فَوق الْعَرْش حَقِيقَة وَقد سبق منا الْكَلَام عَلَيْهِ وَلَا فِي الْآيَة مَا يدل على الْجمع الَّذِي ادَّعَاهُ وَلَا بَين التَّقْرِيب فِي الِاسْتِدْلَال بل سرد آيَة من كتاب الله تَعَالَى لَا يدرى هَل حفظهَا أَو نقلهَا من الْمُصحف ثمَّ شبه الْآيَة فِي الدّلَالَة على الْجمع بِحَدِيث الأوعال قَالَ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ (وَالله فَوق الْعَرْش) وَقد علمت أَنه لَيْسَ فِي الحَدِيث مَا يدل على الْمَعِيَّة بل لَا مدْخل لمع فِي الحَدِيث قَالَ وَذَلِكَ أَن مَعَ إِذا أطلقت فَلَيْسَ ظَاهرهَا فِي اللُّغَة إِلَّا للمقارنة الْمُطلقَة من غير وجوب مماسة وَلَا محاذاة

وأخرج قصة الأوعال الحاكم ٢/ ٥٠٠ من طريق شريك، عن سماك، به موقوفاً.

وسيأتي برقم (١٧٧١) .

ويأتي نحوه في مسند أبي هريرة ٢/ ٣٧٠، وهو ضعيف أيضاً، ويخرج هناك.

البطحاء: هي المُحَصَبُ، وهو موضع معروف بمكة. والعنان: السحاب. وكِثَف - بكسر الكاف وفتح الثاء- بوزن غِلَظ ومعناه، قال أحمد شاكر: ولكن مادة "كثف" لم أجد منها هذا الوزن، أعني كسر الكاف وفتح الثاء، بل قالوا: كَثُف يكْثف كثافة، بضم الثاء في الماضي والمضارع، وفتح الكاف في المصدر. والأوعال: جمع وَعِل بفتح الواو وضمها مع كسر العين، وأصله تيس الجبل، والمراد هنا ملائكة على صورة الأوعال على ما قاله ابن الأثير في"النهاية".

عَن يَمِين أَو شمال فَإِذا قيدت بِمَعْنى من الْمعَانِي دلّت على الْمُقَارنَة فِي ذَلِك الْمَعْنى فَإِنَّهُ يُقَال مَا زلنا نسير وَالْقَمَر مَعنا والنجم مَعنا

وَيُقَال هَذَا الْمَتَاع مَعنا وَهُوَ لمجامعته لَك وَإِن كَانَ فَوق رَأسك فَإِنَّمَا الله مَعَ خلقه حَقِيقَة وَهُوَ فَوق الْعَرْش حَقِيقَة ثمَّ هَذِه الْمَعِيَّة تخْتَلف أَحْكَامهَا بِحَسب الْمَوَارِد فَلَمَّا قَالَ {يعلم مَا يلج فِي الأَرْض وَمَا يخرج مِنْهَا وَمَا ينزل من السَّمَاء وَمَا يعرج فِيهَا وَهُوَ مَعكُمْ أَيْن مَا كُنْتُم وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير} دلّ ظَاهر الْخطاب على أَن حكم هَذِه الْمَعِيَّة ومقتضاها أَنه مطلع عَلَيْكُم عَالم بكم

قَالَ وَهَذَا معنى قَول السّلف إِنَّه مَعَهم بِعِلْمِهِ

قَالَ وَهَذَا ظَاهر الْخطاب وَحَقِيقَته

قَالَ وَكَذَلِكَ فِي قَوْله تَعَالَى {مَا يكون من نجوى ثَلَاثَة} الْآيَة وَفِي قَوْله تَعَالَى {لَا تحزن إِن الله مَعنا} {إِن الله مَعَ الَّذين اتَّقوا وَالَّذين هم محسنون} {إِنَّنِي مَعَكُمَا أسمع وَأرى}

قَالَ وَيَقُول أَبُو الصَّبِي لَهُ من فَوق السّقف لَا تخف أَنا مَعَك

تَنْبِيها على الْمَعِيَّة الْمُوجبَة لحكم الْحَال

فليفهم النَّاظر أدب هَذَا الْمُدَّعِي فِي هَذَا الْمثل وَحسن أَلْفَاظه فِي استثمار مقاصده

ثمَّ قَالَ ففرق بَين الْمَعِيَّة وَبَين مقتضاها الْمَفْهُوم من مَعْنَاهَا الَّذِي يخْتَلف باخْتلَاف الْمَوَاضِع

فليفهم النَّاظر هَذِه الْعبارَة الَّتِي لَيست بِالْعَرَبِيَّةِ وَلَا بالعجمية فسبحان المسبح باللغات الْمُخْتَلفَة

قَالَ فلفظ الْمَعِيَّة قد اسْتعْمل فِي الْكتاب وَالسّنة فِي مَوَاضِع يَقْتَضِي فِي كل مَوضِع أمورا لَا يقتضيها فِي الْموضع الآخر

هَذِه عِبَارَته بحروفها

ثمَّ قَالَ فإمَّا أَن تخْتَلف دلالتها بِحَسب الْمَوَاضِع أَو تدل على قدر مُشْتَرك بَين جَمِيع مواردها وَإِن امتاز كل مَوضِع بخاصية فليفهم تَقْسِيم هَذَا الْمُدَّعِي وَحسن تصرفه

قَالَ فعلى التَّقْدِيرَيْنِ لَيْسَ مقتضاها أَن تكون ذَات الرب مختلطة بالخلق حَتَّى يُقَال صرفت عَن ظَاهرهَا

ثمَّ قَالَ فِي مَوضِع آخر من علم أَن الْمَعِيَّة تُضَاف إِلَى كل نوع من أَنْوَاع الْمَخْلُوقَات كإضافة الربوبية مثلا وَأَن الاسْتوَاء على الْعَرْش لَيْسَ إِلَّا الْعَرْش وَأَن الله تَعَالَى يُوصف بالعلو والفوقية الْحَقِيقِيَّة وَلَا يُوصف بالسفول وَلَا بالتحتية قطّ لَا حَقِيقَة وَلَا مجَازًا علم أَن الْقُرْآن على مَا هُوَ عَلَيْهِ من غير تَحْرِيف

فليفهم النَّاظر هَذِه الْمُقدمَات القطعية وَهَذِه الْعبارَات الرائقة الجلية وَحصر الاسْتوَاء على الشَّيْء فِي الْعَرْش مِمَّا لَا يَقُوله عَاقل فضلا عَن جَاهِل

ثمَّ قَالَ من توهم أَن كَون الله فِي السَّمَاء بِمَعْنى أَن السَّمَاء تحيط بِهِ وتحويه فَهُوَ كَاذِب إِن نَقله عَن غَيره وضال إِن اعتقده فِي ربه وَمَا سمعنَا أحدا يفهمهُ من اللَّفْظ وَلَا رَأينَا أحد نَقله عَن أحد

فليستفد النَّاظر أَن الْفَهم يسمع

قَالَ وَلَو سُئِلَ سَائِر الْمُسلمين هَل يفهمون من قَول الله تَعَالَى وَرَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَن الله تَعَالَى فِي السَّمَاء تحويه لبادر كل أحد مِنْهُم إِلَى أَن يَقُول هَذَا شَيْء لَعَلَّه لم يخْطر ببالنا وَإِذا كَانَ الْأَمر هَكَذَا فَمن التَّكَلُّف أَن يَجْعَل ظَاهر اللَّفْظ شَيْئا محالا لَا يفهمهُ النَّاس مِنْهُ ثمَّ يُرِيد أَن يتأوله

قَالَ بل عِنْد الْمُسلمين أَن الله فِي السَّمَاء وَهُوَ على الْعَرْش وَاحِد إِذْ السَّمَاء إِنَّمَا يُرَاد بِهِ الْعُلُوّ فَالْمَعْنى الله فِي الْعُلُوّ لَا فِي السّفل

هَكَذَا قَالَ هَذَا الْمُدعى فليثن النَّاظر على هَذِه بالخناصر وليعض عَلَيْهَا بالنواجذ وليعلم أَن الْقَوْم {يخربون بُيُوتهم بِأَيْدِيهِم وأيدي الْمُؤمنِينَ}

قَالَ وَقد علم الْمُسلمُونَ أَن كرسيه تَعَالَى وسع السَّمَوَات وَالْأَرْض وَأَن الْكُرْسِيّ فِي الْعَرْش كحلقة ملقاة بِأَرْض فلاة وَأَن الْعَرْش خلق من مخلوقات الله تَعَالَى لَا نِسْبَة لَهُ إِلَّا قدرَة الله وعظمته وَكَيف يتَوَهَّم متوهم بعد هَذَا أَن خلقا يحصره ويحويه وَقد قَالَ تَعَالَى {ولأصلبنكم فِي جُذُوع النّخل} وَقَالَ تَعَالَى {فسيروا فِي الأَرْض} بِمَعْنى على وَنَحْو ذَلِك وَهُوَ كَلَام عَرَبِيّ حَقِيقَة لَا مجَاز وَهَذَا يُعلمهُ من عرف حقائق معنى الْحُرُوف وَأَنَّهَا متواطئة فِي الْغَالِب

هَذَا آخر مَا تمسك بِهِ

فَنَقُول أَولا مَا معنى قَوْلك إِن مَعَ فِي اللُّغَة للمقارنة الْمُطلقَة من غير مماسة وَلَا محاذاة وَمَا هِيَ الْمُقَارنَة فَإِن لم يفهم من الْمُقَارنَة غير صفة لَازِمَة للجسمية حصل الْمَقْصُود وَإِن فهم غَيره فليتنبه حَتَّى تنظر هَل تفهم الْعَرَب من الْمُقَارنَة ذَلِك أَو لَا

ثمَّ قَوْله فَإِذا قيدت بِمَعْنى من الْمعَانِي دلّت على الْمُقَارنَة فِي ذَلِك الْمَعْنى

فَنَقُول لَهُ وَمن نحا ذَلِك فِي ذَلِك

قَوْله إِنَّهَا فِي هَذِه الْمَوَاضِع كلهَا بِمَعْنى الْعلم

قُلْنَا من أَيْن لَك هَذَا فَإِن قَالَ من جِهَة قَوْله تَعَالَى {مَا يكون من نجوى ثَلَاثَة إِلَّا هُوَ رابعهم} الْآيَة دلّ ذَلِك على الْمَعِيَّة بِالْعلمِ وَأَنه على سَبِيل الْحَقِيقَة

فَنَقُول لَهُ قد كلت بالصاع الوافي فَكل لنا بِمثلِهِ وَاعْلَم أَن فَوق كَمَا يسْتَعْمل فِي الْعُلُوّ فِي الْجِهَة كَذَلِك يسْتَعْمل فِي الْعُلُوّ فِي الْمرتبَة والسلطنة وَالْملك وَكَذَلِكَ الاسْتوَاء فيكونان متواطئين كَمَا ذكرته حرفا بِحرف وَقد قَالَ الله تَعَالَى {وَهُوَ القاهر فَوق عباده}[] (٦٤) ، وَقَالَ تَعَالَى {وَفَوق كل ذِي علم عليم} وَقَالَ الله تَعَالَى

---

(٦٤) قال الإمام الزجَّاج (٣١١هـ) : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** ، أي : يخافون ربَّهم خوف مُخْلِدِين مُعظِّمين " . انظر : معاني القرآن وإعرابه (٣/ ٢٠٣) .

وقال الإمام أبو الليث السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** ، أي : يخافون الله تعالى . وروي عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قال : «إن لله تَعَالَى مَلائِكَةً فِي السَّماء السَّابعة سجودا مُنْذُ خَلَقَهُمُ الله تَعَالَى إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، تُرْعَدُ فَرَائِصُهُمْ مِنْ مَخَافَةِ الله تَعَالَى ، فَإِذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ رَفعُوا رُؤُوسَهُمْ فَقَالُوا : ما عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** ، أي : يخافون خوفا ، معظمين ، مجلّين . ويقال : خوفهم بالقهر والغلبة والسُّلطان . ويقال : معناه يخافون ربهم الذي على العرش كما وصف نفسه ، والطَّريق الأَوَّل أصحّ كقوله : **﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾** [الفتح : ١٠] ، أي : بالقهر والغلبة والسُّلطان " . انظر : بحر العلوم (٢/ ٢٧٦) .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني (٤٠٦هـ) : " وَقَالَ : **﴿يخَافُونَ رَبهم من فَوْقهم﴾** ، وَأطلق الْمُسلمُونَ أَن الله تَعَالَى فَوق خلقه كَانَ حمله على أولى وَعَلَيْهِ يتَأَوَّل أيضاً قَوْله : **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماء إِلَه وَفِي الأَرْض إِلَه﴾** ، أَي : هُوَ فَوق السَّماء إِلَه وَفَوق الأَرْض إِلَه ، أنْشد بَعضهم : هم صلبوا العبدىّ فِي جذع نَخْلَة ، مَعْنَاهُ على جذع نَخْلَة .

وَاعْلَم أَنا إِذا قُلْنَا : إِنَّ الله عزَّ وجلَّ فَوق مَا خلق ، لم يرجع بِهِ إِلَى فوقيَّة الْمَكَان والارتفاع على الْأَمْكِنَة بالمسافة والإشراف عَلَيْهَا بالممارسة لشَيْء مِنْهَا ، بل قَوْلنَا إِنَّه فَوْقهَا يحْتَمل وَجْهَيْن :

أَحَدُهُمَا : أَنَّه يُرَاد بِهِ أَنه قاهر لَهَا ، مستول عَلَيْهَا ، إِثْبَاتاً لإحاطة قدرته بهَا وشمول قهره لَهَا ، وَكَونهَا تَحت تَدْبيره جَارِيَة على حسب علمه ومشيئته .

وَالْوَجْهُ الثَّاني : أَن يُرَاد أَنَّه فَوْقهَا على معنى أَنَّه مباين لَهَا بِالصّفةِ والنَّعت ، وَأَن مَا يجوز على المحدثات من الْعَيْب وَالنَّقْص وَالْعجز والآفة وَالْحَاجة لَا يَصح شَيْء من ذَلِك عَلَيْهِ ، ولا يجوز وَصفه بِهِ ، وَهَذَا أيضاً مُتَعَارَف فِي اللُّغَة أَن يُقَال : فلَان فَوق فلَان ، وَيُرَاد بذلك رفْعَة الْمرتبَة والمنزلة ، وَالله عزَّ وجلَّ فَوق خلقه على الْوَجْهَيْنِ جَمِيعاً .

وَإِنَّمَا يمْتَنع الْوَجْه الثَّالِث ، وَهُوَ أَن يكون على معنى التَّحيُّز فِي جِهَة الاختصاص ببقعه دون بقْعَة ، وَإِذا قُلْنَا أَنه فَوق الْأَشْيَاء على هَذَا الْوَجْه ، قُلْنَا أيضاً فِي تَأْوِيل إِطْلَاق القَوْل بِأَنَّهُ فِيهَا على مثل هَذَا الْمَعْنى ، وَقد رَأينَا فِي اللُّغَة تعاقب هذَيْن الحرفين على الْوَجْه الَّذِي ذكرنَا شواهده من آي الْقُرْآن وَالشّعر " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص١٧٣-١٧٤) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني : يخافون قدرة ربّهم أن يأتيهم بالعذاب من فوقهم ، ويدلُّ عليه قوله : ﴿وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ ما يؤمرون يعني الملائكة ، وقيل : معناه يخافون ربَّهم الذي فوقهم بالقول والقدرة ، فلا يعجزه شيء ، ولا يغلبه أحد ، يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾ ، وقوله إخباراً عن فرعون : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾ . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٦/ ٢١)

وقال الإمام مكي بن أبي طالب القرطبي المالكي (٤٣٧هـ) : " قال تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ﴾ ، أي يخاف هؤلاء الملائكة التي في السَّموات والأرض والدَّواب ربَّهم أن يعذِّبهم إن عصوا أمره " . انظر : الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره ، وأحكامه ، وجمل من فنون علومه (٦/ ٤٠٠٩) .

وقال الإمام الماوردي (٤٥٠هـ) : ﴿يخافون رَبَّهم من فوقهم﴾ فيه وجهان :

أَحَدُهُمَا : يعني عذاب ربِّهم من فوقهم لأنَّ العذاب ينزل من السَّماء .

الثَّانِي : يخافون قدرة الله التي هي فوق قدرتهم وهي في جميع الجهات " . انظر : تفسير الماوردي (٣/ ١٩٢) .

وقال الإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥هـ) : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ ، يخافون الله أن ينزل عليهم عذابا من فوق رءوسهم " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٢/ ٣٠٠).

وقال الإمام الواحدي النيسابوري (٤٦٨هـ) : " وفي هذه الآية قولان : أحدهما أنَّ الآية من باب حذف المضاف على تقدير : يخافون من عقاب ربِّهم من فوقهم ، لأنَّ أكثر ما يأتي العقاب المهلك إنَّما يأتي من فوق ، والآخر : أنَّ الله تعالى لَّما كان موصوفاً بأنَّه عليّ متعال علوّ الرُّتبة في القدرة ، حسن أن يقال : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ليدلَّ على أنَّه في أعلى مراتب القادرين ، وهذا معنى قول ابن عَبَّاس في رواية مجاهد ، قال : ذلك مخافة الإجلال .

واختاره الزجَّاج ، فقال : يخافون ربَّهم خوف مجلِّين .

ويدلُّ على صحَّة هذا المعنى قوله : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وقوله إخبارا عن فرعون : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف : ١٢٧] ، وذهب بعض النَّاس إلى أنَّ قوله : من فوقهم من صفة الملائكة ، والمعنى أنَّ الملائكة الذين هم فوق بني آدم ، وفوق ما في الأرض من دابَّة يخافون الله مع علو رتبتهم ، فلأن يخاف من دونهم أولى " .

انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٦٥) .

وقال الإمام أبو سعيد عبدالرَّحمن بن محمَّد المتولي الشَّافعي (٤٧٨هـ) : " فإن استدلُّوا بظواهر الكتاب والسُّنَّة مثل قوله سبحانه وتعالى ... **﴿يخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِم﴾** ... فلأصحابنا في ذلك طريقان :

أَحَدُهُمَا : الإعراض عن التَّأويل ، والإيمان بها كما جاءت ، والإيمان بها صحيح وإن لم يعرف معناها، كما أنَّ إيماننا بجميع الأنبياء والملائكة صلوات الله عليهم والكتب المنزلة من الله تبارك وتعالى صحيح وإن لم يعرف شيئاً في ذل ،ك وإيماننا بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور صحيح وإن لم نعرف معناها ، وهذا الطَّرِيق أقرب إلى السَّلامة .

ومن أصحابنا من صار إلى التَّأويل والاختلاف صادر عن اختلاف القراءتين في قوله تعالى : **﴿مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾** .

فمن صار إلى الوقف على قوله : **﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾** أعرض عن التَّأويل وجعل قوله : **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾** كلاماً مبتدأ ، ومعناه أنَّ العلماء يقولون آمنَّا به ، ومن صار إلى الوقف على قوله : **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾** فيكون معناه : أنَّ الله تعالى يعلم تأويله والرَّاسخون في العلم أيضاً يعلمون تأويله، صار إلى التَّأويل .

ولكن الطَّرِيق في الجواب معهم أن نعارضهم بآيات تُخالف ظواهرها ظواهر هذه الآيا ،ت وذلك مثل قوله تعالى وذلك مثل قوله تعالى : **﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كانُوا﴾** ، وقوله تعالى : **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾** ، وموجب الآيتين حلوله في كلِّ مكان ، وقال تعالى : **﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾** ، ومقتضى ظاهرها انه محيط بالعالم .

فإن أعرضوا عن تأويل هذه الآيات مع الإيمان بظواهرها والاعتقاد بأنَّه لا يكون في كلِّ مكان ، وأنَّه غير محيط بالعالم أعرضنا نحن عن التَّأويل وصرنا إلى الإيمان بما ورد مع الاعتقاد بأنَّ الحقَّ تعالى منزَّه عن المكان وإن صاروا إلى التَّأويل وقالوا : المراد بقوله تعالى : **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾** بالعلم لا بالذَّات ، وكذلك قوله تعالى : **﴿أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾** ، يعني : بالعلم ضرباً إلى التَّأويل ... وقلنا المراد ... وقوله : **﴿يخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** ، معناه : يخافون ربَّهم أن ينزل عليهم عذاباً من فوقهم ، وإنَّما خصَّ جهة فوق لأنَّ الله تعالى أجرى سنته أن ينزل العذاب من فوق " . انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص٧٥-٧٨ باختصار) .

وقال الإمام محمود بن حمزة بن نصر ، أبو القاسم برهان الدِّين الكرماني ، ويعرف بتاج القرَّاء (المتوفى : نحو ٥٠٥هـ) : " قوله : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** ، أي : يخافون ربِّهم أن ينزل عليهم عذاباً من فوقهم ، وليس قوله : **﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** حالاً من ربِّهم ، تعالى الله عن الجهة والمكان . وقيل : فوق علوّ لا فوق مكان " . انظر : غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٦٠٦) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ﴾ عام لجميع الحيوان ، وقوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما : الفوقيَّة التي يوصف بها الله تعالىٰ ، فهي فوقيَّة القدْر والعظمة والقهر والسُّلطان ، والآخر : أن يتعلق قوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ بقوله يَخافُونَ ، أي : يخافون عذاب ربِّهم من فوقهم ، وذلك أنَّ عادة عذاب الأمم إنَّما أتىٰ من جهة فوق " . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٩٩) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن بن الحسين النَّيسابوري (المتوفىٰ : نحو ٥٥٠هـ) : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ : أي عذابه وقضاءه ، إذ قدرته فوق ما أعارهم من القوىٰ والقدر ، كقوله : ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾ ، أو لمّا وصف الله بالتَّعالي علىٰ معنىٰ لا قادر أقدر منه ، وأنَّ صفته في أعلىٰ مراتب صفات القادرين حسن القول ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ ليدلّ علىٰ هذا المعنىٰ " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٤٨٤) .

وقال الإمام محمود بن أبي الحسن علي بن الحسين النَّيسابوريّ الغزنوي الشَّهير بـ (بيان الحق) (المتوفىٰ : بعد ٥٥٣هـ) : ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ ، أي : عذابه وقضاءه . وقيل : معناه أنَّ قدرته فوق ما أعارهم من القوىٰ والقدر ، علىٰ مجاز : ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ . انظر : باهر البرهان في معانىٰ مشكلات القرآن (٢/ ٨٠١) .

وقال الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمَن بن عبد الله بن أحمد السّهيلي (٥٨١هـ) : " قَوْلِهِ تَعَالَىَ : ﴿يَخَافُونَ رَبّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النّحْلَ :٥٠] ، أَيْ : يَخَافُونَ عِقَاباً يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَهُوَ عِقَابُ رَبّهِمْ " . انظر : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (٦/ ٢٣٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " وفي قوله : ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ قولان ، ذكرهما ابن الأنباري :

أَحَدُهُمَا : أنَّه ثناءٌ علىٰ الله تعالىٰ ، وتعظيم لشأنه ، وتلخيصه : يخافون ربَّهم عالياً رفيعاً عظيماً .

وَالثَّانِي : أنه حال ، وتلخيصه : يخافون ربَّهم معظّمين له عالمين بعظيم سلطانه " . انظر : زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٦٤)

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " المسألة الثَّانِيَةُ : قَالَتِ الْمُشَبِّهَةُ قَوْلُهُ تَعَالَىَ : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْإِلَهَ تَعَالَىٰ فَوْقَهُمْ بِالذَّاتِ .

وَاعْلَمْ أَنَّا بَالَغْنَا فِي الْجَوَابِ عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَىَ : ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾ [الأنعام : ١٨] والذي نزيده هاهنا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ مَعْنَاهُ : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ مُحْتَمِلاً لِهَذَا الْمَعْنَىٰ سَقَطَ قَوْلُهُمْ ، وأيضاً يَجِبُ حَمْلُ هَذِهِ الْفَوْقِيَّةِ عَلَىٰ الْفَوْقِيَّةِ بِالْقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ كَقَوْلِهِ : ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾ [الْأَعْرَافِ : ١٢٧] ، وَالَّذِي يُقَوِّي هَذَا الوجه أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا قَالَ : يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَجَبَ أَنْ

يَكُونَ الْمُقْتَضِىٰ لِهَذَا الْخَوْفِ هُوَ كَوْنُ رَبِّهِمْ فَوْقَهُمْ لِمَا ثَبَتَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ أَنَّ الْحُكْمَ الْمُرَتَّبَ عَلَىٰ الْوَصْفِ يُشْعِرُ بِكَوْنِ الْحُكْمِ مُعَلَّلاً بِذَلِكَ الْوَصْفِ .

إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ : هَذَا التَّعْطِيلُ إِنَّمَا يَصِحُّ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِالْفَوْقِيَّةِ الْفَوْقِيَّةَ بِالْقَهْرِ وَالْقُدْرَةِ لِأَنَّهَا هِيَ الْمُوجِبَةُ لِلْخَوْفِ ، أَمَّا الْفَوْقِيَّةُ بِالْجِهَةِ وَالْمَكَانِ فَهِيَ لَا تُوجِبُ الْخَوْفَ بِدَلِيلِ أَنَّ حَارِسَ الْبَيْتِ فَوْقَ الْمَلِكِ بِالْمَكَانِ وَالْجِهَةِ مَعَ أَنَّهُ أَخَسُّ عَبِيدِهِ فَسَقَطَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٠/ ٢١٨) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " ومعنىٰ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي : عقاب ربهم وعذابه ، لأنَّ العذاب المهلك إنَّما ينزل من السَّماء . وقيل : المعنىٰ يخافون قدرة ربهم التي هي فوق قدرتهم ؛ ففي الكلام حذف . وقيل : معنىٰ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني الملائكة ، يخافون ربهم وهي من فوق ما في الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف من دونهم أولىٰ ؛ دليل هذا القول قوله تعالىٰ : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعني الملائكة " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١١٣) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافونه أن يرسل عذاباً من فوقهم ، أو يخافونه وهو فوقهم بالقهر ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣/ ٢٢٩) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي الشَّافعي ، بدر الدِّين (٧٣٣هـ) : " الْآيَة الثَّانِيَة : ... قوله تَعَالَىٰ : ﴿يَخَافُونَ رَبهم من فَوْقهم﴾

اعْلَم أَنَّ لَفْظَة فَوق فِي كَلَام الْعَرَب تسْتَعْمل بِمَعْنىٰ الحيِّز العالي ، وتستعمل بِمَعْنىٰ الْقُدْرَة وَبِمَعْنىٰ الرُّتْبَة الْعليَّة ، فَمن فوقية الْقُدْرَة : ﴿يَد الله فَوق أَيْديهم﴾ ، ﴿وَهُوَ القاهر فَوق عباده﴾ ، فَإِن قرينَة ذكر الْقَهْر يدلُّ علىٰ ذَلِك ، وَمن فوقية الرُّتْبَة : ﴿وَفَوق كل ذِي علم عليم﴾ ، لم يقل أحد إِنَّ الْمُرَاد فوقيَّة الْمَكَان بل فوقيَّة الْقَهْر والقدريَّة والرُّتبة .

وَإِذا بَطل بِمَا قدَّمْنَاهُ مَا سنذكر من إِبْطَال الْجِهَة فِي حقِّ الرَّب تَعَالَىٰ تعيَّن أَنَّ الْمُرَاد فوقيَّة الْقَهْر وَالْقُدْرَة والرُّتبة ، وَلذَلِك قرنه بِذكر الْقَهْر كَمَا قدَّمنَا .

وَيدلُّ علىٰ مَا قُلْنَاهُ أَنَّ فوقيَّة الْمَكَان من حَيْثُ هِيَ لَا تَقْتَضِي فَضِيلَة لَهُ ، فكم من غُلَام أَو عبد كَائِن فَوق مسكن سَيِّده وَلَا يُقَال : الْغُلَام فَوق السُّلطان أَو السَّيِّد علىٰ وَجه الْمَدْح ، إِذا قصد الْمَكَان لم يكن فِيهِ مدحه ، بل الْفَوْقِيَّة الممدوحة فوقيَّة الْقَهْر وَالْغَلَبَة والرُّتبة وَلذَلِك ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِم﴾ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يخَاف الْخَائِف من هُوَ أَعلَىٰ مِنْهُ رُتْبَة ومنزلة وأقدر عَلَيْهِ مِنْهُ ، فَمَعْنَاه : يخَافُونَ رَبهم الْقَادِر عَلَيْهِم القاهر لَهُم ، وَحَقِيقَته يخَافُونَ عَذَاب رَبهِّم ، لأنَّ حَقِيقَة الذَّات المقدَّسة لَا تخَاف ، وإنَّمَا الْمخوف فِي الْحَقِيقَة عَذَابه وبطشه وانتقامه ، وَإِذا ثَبت ذَلِك فَلَا جِهَة .

وَله وَجه آخر ، وَهُوَ أَن يكون : **﴿مِنْ فَوْقِهِم﴾** مُتَعَلِّقاً بِعَذَاب رَبهم الْمُقدر ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله تَعَالَى : **﴿قل هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُم﴾** الْآيَة .

فقد بَان بِمَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ الْمُرَاد بالفوقيَّة فِي الْآيَات الْقَهْر وَالْقُدْرَة والرُّتبة أَو فوقيَّة جِهَة الْعَذَاب لَا فوقية الْمَكَان لَهُ " .

انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٠٨-١٠٩) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** هذا إخبار عن الملائكة ، وهو بيان نفي الاستكبار ، ويحتمل أن يريد فوقيَّة القدرة والعظمة أو يكون من المشكلات التي يمسك عن تأويلها ، وقيل : معناه يخافون أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم " . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٢٨) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني (٧٧٥هـ) : " استدلَّ المشبِّهة بقوله تعالىٰ : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ﴾** علىٰ أنَّه – تعالىٰ – فوقهم بالذَّات .

والجواب : أنَّ معناه : يخافون ربَّهم؛ من أن ينزل عليهم العذاب من فوقهم ، وإذا احتمل اللفظ هذا المعنىٰ؛ سقط استدلالهم ، وأيضاً يجب حمل هذه الفوقيَّة علىٰ الفوقيَّة بالقدرة ، والقهر والغلبة؛ لقوله تعالىٰ : **﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾** [الأعراف : ١٢٧] .

ويقوِّي هذا الوجه أنه تعالىٰ قال : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ﴾** فوجب أن يكون المقتضي لخوفهم هو كون ربِّهم فوقهم؛ لأنَّ الحكم المرتب علىٰ وصف يشعر بكون ذلك الحكم معلَّلاً بذلك الوصف ، وهذا التَّعليل ، إنَّما يصدح إذا كان المراد بالفوقيَّة ، القهر والقدرة؛ لأنَّها هي الموجبة للخوف ، وأمَّا الفوقيَّة بالجهة ، والمكان ، فلا توجب الخوف؛ لأنَّ حارس البيت فوق الملك بالمكان والجهة مع أنَّه أخسُّ عبيده " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٧٥) .

وقال الإمام الشَّاطبي (٧٩٠هـ) : " ... وَالثَّالِثُ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النَّحل : ٥٠] ، **﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾** [الملك : ١٦] وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا جَرَىٰ عَلَىٰ مُعْتَادِهِمْ فِي اتِّخَاذِ الْآلِهَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِإِلَهِيَّةِ الْوَاحِدِ الْحَقِّ؛ فَجَاءَتِ الْآيَاتُ بِتَعْيِينِ الْفَوْقِ وَتَخْصِيصِهِ تَنْبِيهاً عَلَىٰ نَفْيِ مَا ادَّعَوْهُ فِي الْأَرْضِ؛ فَلَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ إِثْبَاتِ جِهَةٍ أَلْبَتَّةَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النَّحل : ٢٦] ؛ فَتَأَمَّلْهُ ، وَاجْرِ عَلَىٰ هَذَا الْمَجْرَىٰ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ " . انظر : الموافقات (٤/ ١٥٥) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " ... قَوْلُهُ : "فِي السَّماء " ، ظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ ، إِذِ اللهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الْحُلُولِ فِي الْمَكَانِ ، لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ جِهَةُ الْعُلُوِّ أَشْرَفَ مِنْ غَيْرِهَا أَضَافَهَا إِلَيْهِ إِشَارَةً إِلَىٰ عُلُوِّ الذَّاتِ والصِّفات ، وَبِنَحْوِ هَذَا أَجَابَ غَيْرُهُ عَنِ الْأَلْفَاظِ الْوَارِدَةِ مِنَ الْفَوْقِيَّةِ وَنَحْوِهَا ، قَالَ الرَّاغِبُ : فَوْقَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَكَانِ ، وَالزَّمَانِ ، وَالْجِسْمِ ، وَالْعَدَدِ ، وَالْمَنْزِلَةِ ، وَالْقَهْرِ :

الْأَوَّلُ : بِاعْتِبَارِ الْعُلُوِّ ، وَيُقَابِلُهُ : تَحْتَ ، نَحْوَ **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً من فَوْقكُم أَو من تَحت أَرْجُلِكُم﴾** .

والثَّاني : بِاعْتِبَارِ الصُّعود وَالِانْحِدَارِ ، نَحْوَ **﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾** .

وَالثَّالِثُ : فِي الْعَدَدِ ، نَحْوَ **﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوق اثْنَتَيْنِ﴾** .

وَالرَّابع : فِي الْكِبَرِ وَالصِّغَرِ ، كَقَوْلِهِ : **﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾** .

وَالْخَامِسُ : يَقَعُ تَارَةً بِاعْتِبَارِ الْفَضِيلَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ نَحْوَ **﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَات﴾** ، أَوِ الْأُخْرَوِيَّةِ نَحْوَ **﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة﴾** .

وَالسَّادِسُ : نَحْوَ قَوْلِهِ **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾** ، **﴿يَخَافُوْنَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقهم﴾** . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٢١٤) .

وقال الإمام الثَّعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله سبحانه : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ﴾** : عامٌّ لجميع الحيوان ، و **﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** : يريد : فوقية القَدْر والعَظَمة والقَهْر " . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٤٢٦) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " وَمِنْ ذَلِكَ صِفَةُ الْفَوْقِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : ... **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْعُلُوُّ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ وَقَدْ قَالَ : فِرْعَوْنُ : **﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾** وَلَا شَكَّ أَنَّهُ لَمْ يُرِدِ الْعُلُوَّ الْمَكَانِيَّ " . انظر : الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢) .

وقال الإمام أحمد بن غانم النّفراوي الأزهري المالكي (١١٢٦هـ) : " قَالَ تَعَالَى : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** [النحل : ٥٠] مَعْنَاهُ يَخَافُونَ عَذَابَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ إنْ عَصَوْهُ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ " . انظر : الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ٢٠٨) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** هو تقرير ، وبيان لنفي الاستكبار عنهم ، أي : يخافون عظمة ربِّهم من فوقهم إذ هم محاطون بأفلاك أسرار الجبروت ، مقهورون تحت القدرة والمشيئة ، أو : يخافون عذاب ربِّهم أن يُرْسَل عليهم من فوقهم ، أو : يخافون رَّبهم وهو من فوقهم بالقهر والغلبة " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن (٣/ ١٣٥) .

وقال الإمام المظهري ، محمَّد ثناء الله (١٢٢٥هـ) : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** أي : يخافونه أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو يخافونه وهو فوقهم ، أي : غالب عليهم بالقهر كقوله : **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾** " . انظر : التفسير المظهري (٥/ ٣٤٥) .

وقال الإمام الشَّوكاني (١٢٥٠هـ) : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ الْحَالِ ، أَيْ : حَالَ كَوْنِهِمْ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، أَوْ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ لِبَيَانِ نَفْيِ اسْتِكْبَارِهِمْ ، وَمِنْ آثار الخوف عدم الاستكبار ، ومن فوقهم متعلِّق بيخافون عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ ، أَيْ : يَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، أَوْ يَكُونُ حَالاً مِنَ الرَّبِّ ، أَيْ : يَخَافُونَ رَبَّهُمْ حَالَ كَوْنِهِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَقِيلَ : مَعْنَىٰ **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** يَخَافُونَ الْمَلَائِكَةَ فَيَكُونُ عَلَىٰ حَذْفِ الْمُضَافِ ، أَيْ : يَخَافُونَ مَلَائِكَةَ رَبِّهِمْ كَائِنِينَ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَهُوَ تَكَلُّفٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وإِنَّمَا اقْتَضَىٰ مِثْلَ هَذِهِ التأويلات البعيدة المحاماة عَلَىٰ مَذَاهِبَ قَدْ رَسَخَتْ فِي الْأَذْهَانِ ، وَتَقَرَّرَتْ فِي الْقُلُوبِ ، قِيلَ : وَهَذِهِ الْمَخَافَةُ هِيَ مَخَافَةُ الْإِجْلَالِ ، وَاخْتَارَهُ الزَّجَّاجُ فَقَالَ : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ﴾** خَوْفَ مُجِلِّينَ ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ هَذَا الْمَعْنَىٰ قَوْلُهُ : **﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾** ، وَقَوْلُهُ إِخْبَاراً عَنْ فِرْعَوْنَ : **﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ﴾** . انظر : فتح القدير (٣/ ٢٠٠) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** ، وهذه الجملة بيان لقوله : **﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾** أو حال من ضميره ، أي خائفين لمالك أمرهم خوف هيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر " . انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (١/ ٥٩٥) .

وقال الإمام محمَّد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ) : " إِذَا سَمِعَ لَفْظَ الْفَوْقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾** ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْفَوْقَ اسْمٌ مُشْتَرَكٌ يُطْلَقُ لِمَعْنَيَيْنِ ؛

أَحَدُهُمَا : نِسْبَةُ جِسْمٍ إِلَىٰ جِسْمٍ بِأَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَعْلَىٰ وَالْآخَرُ أَسْفَلَ ، يَعْنِي : أَنَّ الْأَعْلَىٰ مِنْ جَانِبِ رَأْسِ الْأَسْفَلِ ، وَقَدْ يُطْلَقُ لِفَوْقِيَّةِ الرُّتْبَةِ ، وَبِهَذَا الْمَعْنَىٰ يُقَالُ : الْخَلِيفَةُ فَوْقَ السُّلطان وَالسُّلْطَانُ فَوْقَ الْوَزِيرِ ، وَكَمَا يُقَالُ الْعِلْمُ فَوْقَ الْعِلْمِ ، والأَوَّل : يَسْتَدْعِي جِسْماً يُنْسَبُ إِلَىٰ جِسْمٍ .

وَالثَّانِي : لَا يَسْتَدْعِيهِ ، فَلْيَعْتَقِدِ الْمُؤْمِنُ قَطْعاً أَنَّ الأَوَّل غَيْرَ مُرَادٍ ، وَأَنَّهُ عَلَىٰ الله – تَعَالَىٰ – مُحَالٌ ، فَإِنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الْأَجْسَامِ أَوْ لَوَازِمِ أَعْرَاضِ الْأَجْسَامِ ، وَإِذَا عَرَفَ نَفْيَ هَذَا الْمُحَالِ فَلَا عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَعْرِفْ أَنَّهُ لِمَاذَا أُطْلِقَ وَمَاذَا أُرِيدَ؟ فَقِسْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَاهُ مَا لَمْ نَذْكُرْهُ .

(الْوَظِيفَةُ الثَّانِيَةُ – الْإِيمَانُ وَالتَّصْدِيقُ) وَهُوَ أَنَّهُ يَعْلَمُ قَطْعاً أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ أُرِيدَ بِهَا مَعْنًى يَلِيقُ بِجَلَالِ الله وَعَظَمَتِهِ ، وَأَنَّ رَسُولَ الله – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَادِقٌ فِي وَصْفِ الله – تَعَالَىٰ – بِهِ ، فَلْيُؤْمِنْ بِذَلِكَ وَلْيُوقِنْ بِأَنَّ مَا قَالَهُ صِدْقٌ وَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلْيَقُلْ آمَنَّا وَصَدَّقْنَا ، وَأَنَّ مَا وَصَفَ اللهُ – تَعَالَىٰ – بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ فَهُوَ كَمَا وَصَفَهُ ، وَحَقٌّ بِالْمَعْنَىٰ الَّذِي أَرَادَهُ وَعَلَىٰ الْوَجْهِ الَّذِي قَالَهُ وَإِنْ كُنْتَ لَا تَقِفُ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ ، فَإِنْ قُلْتَ : التَّصْدِيقُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ التَّصَوُّرِ ، وَالْإِيمَانُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ التَّفَهُّمِ ، فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ إِذَا لَمْ يَفْهَمِ الْعَبْدُ مَعَانِيَهَا كَيْفَ يَعْتَقِدُ صِدْقَ قَائِلِهَا فِيهَا؟ فَجَوَابُكَ أَنَّ التَّصْدِيقَ بِالْأُمُورِ الْجُمْلِيَّةِ لَيْسَ بِمُحَالٍ ، وَكُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ أُرِيدَ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ

{يَد الله فَوق أَيْديهم} ، وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَة عَن قوم فِرْعَوْن {وَإِنَّا فَوْقهم قاهرون} وَقَالَ تَعَالَى {ورفعنا بَعضهم فَوق بعض دَرَجَات} وَمَعْلُوم أَنه لَيْسَ المُرَاد جِهَة الْعُلُوّ فأعد الْبَحْث وَقل فَوق الْعَرْش بِالِاسْتِيلَاءِ

مَعَانٍ ، وَأَنَّ كُلَّ اسْمٍ فَلَهُ مُسَمًّى إِذَا نَطَقَ بِهِ مَنْ أَرَادَ مُخَاطَبَةَ قَوْمٍ قَصَدَ ذَلِكَ الْمُسَمَّى فَيُمْكِنُهُ أَنْ يَعْتَقِدَ كَوْنَهُ صَادِقاً مُخْبِراً عَنْهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، فَهَذَا مَعْقُولٌ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ ، بَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ أُمُورٌ جُمْلِيَّةٌ غَيْرُ مُفَصَّلَةٍ وَيُمْكِنُ التَّصْدِيقُ ، كَمَا إِذَا قَالَ فِي الْبَيْتِ حَيَوَانٌ أَمْكَنَ أَنْ يُصَدَّقَ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ إِنْسَانٌ أَوْ فَرَسٌ أَوْ غَيْرُهُ ، بَلْ لَوْ قَالَ فِيهِ شَيْءٌ أَمْكَنَ تَصْدِيقَهُ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا ذَلِكَ الشَّيء ، فَكَذَلِكَ مَنْ سَمِعَ الاِسْتِوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ فَهِمَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَنَّهُ أُرِيدَ بِذَلِكَ نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ إِلَى الْعَرْشِ فَيُمْكِنُهُ التَّصْدِيقُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ تِلْكَ النِّسْبَةَ هِيَ نِسْبَةُ الاِسْتِقْرَارِ عَلَيْهِ أَوِ الْإِقْبَالِ عَلَى خَلْقِهِ أَوْ الاِسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ بِالْقَهْرِ أَوْ بِمَعْنًى آخَرَ مِنْ مَعَانِي النِّسْبَةِ فَأَمْكَنَ التَّصْدِيقُ بِهِ ، وَإِنْ قُلْتَ : فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي مُخَاطَبَةِ الْخَلْقِ بِمَا لَا يَفْهَمُونَ؟ فَجَوَابُكَ : أَنَّهُ قَصَدَ بِهَذَا الْخِطَابِ تَفْهِيمَ مَنْ هُوَ أَهْلُهُ ، وَهُمُ الْأَوْلِيَاءُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَقَدْ فَهِمُوا ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ مَنْ خَاطَبَ الْعُقَلَاءَ بِكَلَامٍ أَنْ يُخَاطِبَهُمْ بِمَا يَفْهَمُ الصِّبْيَانُ وَالْعَوَامُّ " . انظر : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (٣/ ١٤٧) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾** أي : يخاف هؤلاء الملائكة ، والدَّواب التي في الأرض ربّهم الذي هو من فوقهم بالقّوة والقهر أن يعذّبهم إن عصوه ، ويفعلون ما أمرهم به ، فيؤدُّون حقوقه ويجتنبون سخطه " . انظر : تفسير المراغي (١٤/ ٩٠) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى : بعد ١٣٩٠هـ) : " وقوله تعالى : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾** ، هو وصف للملائكة الذين دأبهم العبادة ، وشأنهم السُّجود لله ... فهم مع منزلتهم عند الله يخافون ربَّهم الذي علا بسلطانه على كلِّ سلطان " . انظر : التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٠٥) .

وقال الإمام محمَّد سيِّد طنطاوي (١٤٣١هـ) : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾** ، أي : أنَّ من صفات الملائكة ، أنَّهم يخافون ربهم الذي هو من فوقهم بجلاله وقهره وعلوِّه – بلا تشبيه ولا تمثيل " . انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٨/ ١٦٥) .

وقال الإمام محمَّد محمود الحجازي : **﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** فوقية مكانة لا مكان ، وهم يفعلون ما يؤمرون " . انظر : التفسير الواضح (٢/ ٣١٤) .

وقال الإمام محمَّد علي الصَّابوني : **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾** أي : يخافون جلال الله وعظمته ، ويمتثلون أوامره على الدَّوام " . انظر : صفوة التفاسير (٢/ ١١٩) .

وَكَذَا فِي حَدِيث الأوعال وَمَا فعلته فِي مَعَ فافعله فِي فَوق وَخرج هَذَا كَمَا خرجت ذَلِك وَإِلَّا اترك الْجَمِيع

ثمَّ قَوْله وَمن علم أَن الْمَعِيَّة تُضَاف إِلَى كل نوع من أَنْوَاع الْمَخْلُوقَات وَأَن الاسْتوَاء على الشَّيْء لَيْسَ إِلَّا الْعَرْش

قُلْنَا حَتَّى نبصر لَك رجلا استعملها يعلم مَا تَقوله من غير دَلِيل فَإنَّك إِن لم تقم دلَالَة على ذَلِك وَإِلَّا أبرزت لَفْظَة تدل على تَحت فَوق للاستواء فِي جِهَة الْعُلُوّ فليت شعري من أَيْن تعلم أَن الْمَعِيَّة بِالْعلمِ حَقِيقَة وَأَن آيَة الاسْتوَاء على الْعَرْش وَحَدِيث الأوعال دالان على صفة الربوبية بالفوقية الْحَقِيقِيَّة اللَّهُمَّ غفرا هَذَا لَا يكون إِلَّا بالكشف وَإِلَّا فالأدلة الَّتِي نصبها الله تَعَالَى لتعرف بهَا ذَاته وَصِفَاته وشرائعه لم يُورد هَذَا الْمُدَّعِي مِنْهَا حرفا وَاحِداً على وفْق دَعْوَى وَلَا ثَبت لَهُ قدم إِلَّا فِي مهوى

ثمَّ قَوْله لَا يُوصف الله تَعَالَى بالسفول والتحتية لَا حَقِيقَة وَلَا مجَازاً لَيْت شعري من ادّعى لَهُ هَذِه الدَّعْوَى حَتَّى يُكَلف الْكَلَام فِيهَا

ثمَّ إِن قَوْله بعد ذَلِك من توهم كَون الله تَعَالَى فِي السَّمَاء بِمَعْنى أَن السَّمَاء تحيط بِهِ وتحويه فَهُوَ كَاذِب إِن نَقله عَن غَيره وضال إِن اعتقده فِي ربه

أَيهَا الْمُدَّعِي قل مَا تفهم وافهم مَا تَقول وكلم النَّاس كَلَام عَاقل لعاقل تفِيد وتستفيد إِذا طلبت أَن تستنبط من لَفْظَة فِي الْجِهَة وحملتها على حَقِيقَتهَا هَل يفهم مِنْهَا غير الظَّرْفِيَّة أَو مَا فِي مَعْنَاهَا وَإِذا كَانَ كَذَلِك فَهَل يفهم عَاقل أَن الظّرْف يَنْفَكّ عَن إحاطة بِبَعْض أَو جَمِيع مَا يلْزم ذَلِك وَهل جرى هَذَا على سمع وَهل من يخاطر أَن فِي على حَقِيقَتهَا فِي جِهَة وَلَا يفهم مِنْهَا احتواء وَلَا إحاطة بِبَعْض وَلَا كل فَإِن كَانَ المُرَاد أَن يعْزل النَّاس عُقُولهمْ وتتكلم أَنْت وهم يقلدون ويصدقون لم تأمن أَن بعض المسئولين من الْمُخَالفين للملة يَأْمُرك بذلك وَيثبت الْبَاطِل عَلَيْك

ثمَّ قَوْلك لَو سُئِلَ سَائِر الْمُسلمين هَل يفهمون من قَول الله تَعَالَى وَرَسُوله أَن الله فِي السَّمَاء تحويه لبادر كل وَاحِد مِنْهُم إِلَى أَن يَقُول هَذَا شَيْء لَعَلَّه لم يخْطر ببالنا

فَنَقُول مَا الَّذِي أردْت بذلك إِن أردْت أَن هَذَا اللَّفْظ لَا يُعْطي هَذَا الْمَعْنى فإياك أَن تسْأَل عَن هَذَا من هُوَ عَارِف بِكَلَام الْعَرَب فَإِنَّهُ لَا يصدقك فِي أَن هَذَا اللَّفْظ لَا يُعْطي هَذَا مَعَ كَون فِي للظرفية وَأَنَّهَا على حَقِيقَتهَا فِي الْجِهَة وَإِن أردْت أَن الْعُقُول تأبى ذَلِك فِي حق الله تَعَالَى فلسنا نَحن مَعَك إِلَّا فِي تَقْدِير هَذَا وَنفي كل مَا يُوهم نقصا فِي حق الله تَعَالَى

ثمَّ قَوْلك عِنْد الْمُسلمين أَن الله فِي السَّمَاء وَهُوَ على الْعَرْش وَاحِد

لَا يَنْبَغِي أَن تضيف هَذَا الْكَلَام إِلَّا إِلَى نَفسك أَو إِلَى من تلقيت هَذِه الوصمة مِنْهُ وَلَا تجْعَل الْمُسلمين يرتبكون فِي هَذَا الْكَلَام الَّذِي لَا يعقل

ثمَّ استدللت على أَن كَون الله فِي السَّمَاء وَالْعرش وَاحِد بِأَن السَّمَاء إِنَّمَا يُرَاد بهَا الْعُلُوّ فَالْمَعْنى أَن الله فِي الْعُلُوّ لَا فِي السّفل

قل لي هَل قَالَ الله تَعَالَى وَرَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالسَّابِقُونَ الْأَولونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار رَضِي الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ أَن الله تَعَالَى فِي الْعُلُوّ لَا فِي السّفل وكل مَا قلت من أول الْمُقدمَة إِلَى آخرهَا لَو سلم لَك لَكَانَ حَاصِلَة أَن الله تَعَالَى وصف نَفسه بِأَنَّهُ اسْتَوَى على الْعَرْش وَأَن الله تَعَالَى فَوق الْعَرْش

وَأما أَن السَّمَاء الْمُرَاد بهَا جِهَة الْعُلُوّ فَمَا ظفرت كَفاك بنقله

ثمَّ قَوْلك قد علم الْمُسلمُونَ أَن كرسيه تَعَالَى وسع السَّمَوَات وَالْأَرْض وَأَن الْكُرْسِيّ فِي الْعَرْش كحلقة ملقاة بِأَرْض فلاة

فليت شعري إِذا كَانَ حَدِيث الأوعال يدلك على أَن الله فَوق الْعَرْش فَكيف يجمع بَينه وَبَين طُلُوع الْمَلَائِكَة إِلَى السَّمَاء الَّتِي فِيهَا الله وَكَيف يكون مَعَ ذَلِك فِي السَّمَاء حَقِيقَة ولعلك تَقول إِن الْمُرَاد بهما جِهَة الْعُلُوّ تَوْفِيقاً فليت شعري أيمكن أَن تَقول بعد هَذَا التَّوْفِيق العاري عَن التَّوْقِيف والتوفيق إِن الله فِي السَّمَاء حَقِيقَة وعَلى السَّمَاء حَقِيقَة وَفِي الْعَرْش حَقِيقَة وعَلى الْعَرْش حَقِيقَة ثمَّ حَقِيقَة السَّمَاء هِيَ هَذِه الْمُشَاهدَة المحسوسة يُطلق عَلَيْهَا هَذَا الِاسْم من لم يخْطر بِبَالِهِ السمو وَأما أصل الِاشْتِقَاق فَذَلِك لَا مزية لَهَا فِيهِ على السّقف والسحاب فَتَبَارَكَ الله خَالق الْعُقُول

ثمَّ قَوْلك بعد ذَلِك الْعَرْش من مخلوقات الله تَعَالَى لَا نِسْبَة لَهُ إِلَّا قدرَة الله وعظمته

وَقع إِلَيْنَا إِلَّا قدرَة الله فَإِن كَانَت بِأَلف لَام ألف كَمَا وَقع إِلَيْنَا فقد نفيت الْعَرْش وَجعلت الْجِهَة هِيَ العظمة وَالْقُدْرَة وَصَارَ معنى كلامك جِهَة الله عَظمته وَقدرته

والآن قلت مَا لَا يفهم وَلَا قَالَه أحد وَإِن كَانَ كلامك بِأَلف لَام يَاء فقد صدقت وَقلت الْحق وَمن قَالَ خلاف ذَلِك ولعمري قد رممنا لَك هَذَا الْمَكَان ولقناك إِصْلَاحه

ثمَّ قلت : كَيفَ يتَوَهَّم بعد هَذَا أَنَّ خلقاً يحصره أَو يحويه ؟

قُلْنَا : نعم وَمن أَي شَيْء بلاؤنا إِلَّا مِمَّن يَدَّعِي الْحصْر أَو يُوهِمهُ ؟

ثمَّ قلت : وَقد قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ولأصلبنكم فِي جُذُوع النّخل﴾ أَو مَا علمت أَن التَّمَكُّن الاستقراري حَاصِل فِي الْجذع فَإِن تمكن المصلوب فِي الْجذع كتمكن الْكَائِن فِي الظّرْف وَكَذَلِكَ الحكم فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿قل سِيرُوا

فِي الأَرْض﴾ ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ الْجواب عَن حَدِيث الأوعال وَحَدِيث قبض الرّوح وَحَدِيث عبد الله بن رَوَاحَة رَضِي الله عَنهُ وَحَدِيث أُميَّة بن أبي الصَّلْت وَمَا قَالَ من قَوْله:

(مجدوا الله فَهُوَ أهل لمجد ··· رَبنَا فِي السَّمَاء أَمْسَى كَبِيرا)

فَيُقَال للْمُدَّعِي : إِن كنت ترويه فِي السَّمَاء فَقَط وَلَا تتبعها أَمْسَى كَبِيراً ، فَرُبمَا يُوهم مَا تدَّعيه ، لَكِن لَا يبْقى شعراً وَلَا قافية ، وَإِن كَانَ قَالَ : رَبّنَا فِي السَّمَاء أَمْسَى كَبِيراً ، فَقل مثل مَا قَالَ أُميَّة ، وَعند ذَلِك لَا يدرى هَل هُوَ كَمَا قلت أَو قَالَ : إِنَّ الله كَبِير فِي السَّمَاء .

فَإِن قلت : وَهُوَ كَبِير فِي الأَرْض فَلم خصّت السَّمَاء ؟

قُلْنَا : التَّخْصِيص بِمَا أَشرنَا إِلَيْهِ من أَن تَعْظِيم أهل السَّمَوَات أَكثر من تَعْظِيم أهل الأَرْض لَهُ ، فَلَيْسَ فِي الْمَلَائِكَة من ينحت حجرا ويعبده وَلَا فيهم دهري وَلَا معطل وَلَا مشبه وخطاب أُميَّة لكفار الْعَرَب الَّذين اتَّخذُوا هُبل وَمَنَاة وَاللات والعزى وَغير ذَلِك من الأنداد وَقد علمت الْعَرَب أَن أهل السَّمَاء أعلم مِنْهُم حَتَّى كَانُوا يتمسكون بِحَدِيث الْكَاهِل الَّذِي كَانَ يتلقف من الجني الَّذِي يسترق الْكَلِمَة من الْملك فيضيف إِلَيْهَا مائَة كذبة فَكيف اعْتِقَادهم فِي الْمَلَائِكَة فَلذَلِك احْتج عَلَيْهِم أُميَّة بِالْمَلَائِكَةِ هَذَا لَيْسَ بِبَعِيد وَلَا خِلَافه قَطْعِيّ ثمَّ قَالَ من الْمَعْلُوم بِالضَّرُورَةِ أَن الرَّسُول الْمبلغ عَن الله أَلْقى إِلَى أمته المدعوين أَن الله تَعَالَى على الْعَرْش وَأَنه فَوق السَّمَاء فَنَقُول لَهُ هَذَا لَيْسَ بِصَحِيح بِالصَّرِيحِ بل أَلْقى إِلَيْهِم أَن الله اسْتَوَى على الْعَرْش هَذَا الَّذِي تَوَاتر من تَبْلِيغ هَذَا النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذكره الْمُدَّعِي من هَذَا الْإِخْبَار فأخبار آحَاد [٦٥] لَا يصدق عَلَيْهَا

---

[٦٥] نقلنا في كتابنا " الإِمْدَادُ وَالإِسْعَادُ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ أَخَذَ بِالآحَادِ فِي الاعْتِقَاد" عن جمهرة كبيرة من أهل العلم أنَّ أخبار الآحاد لا يُؤخذ بها في باب الاعتقاد ، وأنَّها لا تفيد إلَّا الظَّن ... والعقائد لا تُبنىٰ إلَّا علىٰ القطع واليقين ...

وللاستزادة في هذه المسألة انظر : تهذيب الآثار وتفصيل الثَّابت عن رسول الله من الأخبار (٢/ ٧٦٨) ، أحكام القرآن للجصَّاص (٥/ ٢٧٩) ، الفصول في الأصول (١/ ١٦٢-١٦٣) ، (١/ ١٦٨) ، (١/ ١٩٥) ، (٣/ ٩٣) ، أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) " (٣/ ١٨٩٨) ، تمهيد الأوائل في تلخيص الدَّلائل (ص٤٤١) ، الانتصار للقرآن (١/ ٢٢٨) ، (٢/ ٥٤٩) ، مشكل الحديث وبيانه (ص٤٤) ، كتاب أصول الدِّين للبغدادي (ص١٢) ، الفَرق بين الِفرق وبيان الفرقة النَّاجية (ص٣١٢) ، (ص٣١٢) ، المعتمد في أصول الفقه (٢/ ٩٢) ، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشَّافعي وهو شرح مختصر المزني (١٦/ ٨٧) ، الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (١/ ١١٢) ، الأسماء والصِّفات للبيهقي (٢/ ٢٠٠) ، العدّة في أصول الفقه (٣/ ٨٠٣) ، (٣/ ٨٨٨) ، (٣/ ٨٩٨) ، الكفاية في علم الرِّواية (ص٤٣٢) ، الفقيه و المتفقِّه (١/ ٢٧٨) ، (١/ ٣٥٤) ، التَّمهيد لما في الموطَّأ من المعاني والأسانيد(١/ ٧) ، جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٤٢) ، لطائف الإشارات (٣/ ٣٤) ، الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنىٰ الدَّليل(ص٢٣٤) ، إحكام الفصول في أحكام الأصول (ص٢٤١- ٢٤٢) ، تحقيق المذهب من أنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب (ص٦٦) ، المنتقىٰ شرح الموطَّإ (٤/ ١٥٦) ،

التَّبصرة في أصول الفقه" (ص٢٩٨) ، اللمع في أصول الفقه (ص٧٢) ، كتاب التَّلخيص في أصول الفقه، الجويني (٢/ ٣٤) ، البرهان في أصول الفقه (١/ ٢٣١) ، الورقات، الجويني (ص٢٥) ، أصول البزدوي (كنز الوصول الى معرفة الأصول) (ص١٥٨) ،المبسوط(١/ ٣٣) ، (٣/ ١٤٤) ، (١٦/ ٢١٣) ، أصول السَّرخسي (١/ ٣٢١) ، (١/ ٣١٩) ، قواطع الأدلَّة في الأصول(١/ ٣٦٦) ، (١/ ٣٧٤) ، (٢/ ١٠٩) ، الاصطلام في الخلاف بين الإمامين الشَّافعي وأبي حنيفة (١/ ٢٠٥) ، الاصطلام في الخلاف بين الإمامين الشَّافعي وأبي حنيفة (٢/ ٣٢٠) ، أحكام القرآن ، الكيا الهراسي (٢/ ٣٧٨) ، (ص١١٦) ، (١/ ١٥٨) ، التَّمهيد في أصول الفقه ، الكَلْوَذَاني (٣/ ٧٨) ، الوصول إلىٰ الأصول (٢ / ١٧٢ – ١٧٤) ، المُعْلم بفوائد مسلم" (٣/ ٢٩٢) ، ميزان الأصول في نتائج العقول (١/ ٤٣٣-٤٣٤) ، ميزان الأصول في نتائج العقول (١/ ٤٤٨) ، (ص٤٣٤) ، إعراب القرآن (٢/ ٤١٣) ، المحصول في أصول الفقه (ص١١٥) ، شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ المُسَمَّىٰ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (١/ ١٦٨) ، (١/ ١٧٥) ، بذل النَّظر في الأصول(ص٤٥٥) ، بدائع الصَّنائع في ترتيب الشَّرائع (١/ ١٤) ، (٢/ ٦٩) ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد (٤/ ٧٠) ، نواسخ القرآن، ابن الجوزي (١/ ١٤٣) ، المحصول، الرازي (١/ ٢٠٣) ، (٤/ ٣٥٥) ، أساس التَّقديس(ص٣٠٦) ، التَّفسير الكبير ، الرازي (١/ ١٧٣) ، (٢/ ٥٠١) ، (٣/ ٥٠٣) ، (٦/ ٥٠٢) ، جامع الأصول في أحاديث الرَّسول (١/ ١٢٥) ، روضة النَّاظر وجنة المناظر في أصول الفقه علىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل (١/ ٣٠٢-٣٠٣) ، مباحث التَّفسير لابن المظفَّر (وهو استدركات وتعليقات علىٰ تفسير الكشف والبيان للثَّعلبي)(ص١٤٩) ، منتهىٰ الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل (ص٧١) ، المسودة في أصول الفقه (ص٢٤٠) ، (٢٤٤) ، المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤/ ٥٩) ، الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢) ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحَّجاج(١/ ٢٠) ، (١/ ١٣٠) ، المجموع شرح المهذب (مع تكملة السبكي والمطيعي) (٤/ ٣٤٢) ، شرح فتح القدير ، السّيواسي (٣/ ١٥٩) ، شرح تنقيح الفصول (ص٣٥٨) ، نفائس الأصول في شرح المحصول (٧/ ٣١٧١) ، التَّحصيل من المحصول(١/ ٤٢٥) ، المختصر في علم أصول الحديث النَّبوي، ابن النَّفيس (ص١١٥ باختصار) ، إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (١/ ٢١٢) ، (٢/ ١١٩) ، نهاية الوصول في دراية الأصول (١/ ١٠٣) ، (٢/ ٥١٩) ، (٦/ ٢٣٣٠) ، البلبل في أصول الفقه علىٰ مذهب أحمد بن حنبل (ص٤٢) ، الإشارات الإلهيَّة إلي المباحث الأصوليَّة (ص٢٧٨) ، الانتصارات الإسلاميَّة في كشف شُبه النَّصرانيَّة (١/ ٢٤٣) ، منهاج السُّنَّة النَّبويَّة في نقض كلام الشِّيعة القدريَّة (٤/ ٩٥) ، (٨/ ٣٥٧) ، نقد مراتب الإجماع(ص٣٠٤) ، المستدرك علىٰ مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٢/ ٦٨) ، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي(٢/ ٣٧٠) ، المنهل الرَّوي في مختصر علوم الحديث النَّبوي(ص٣٢) ، قواعد الأصول ومعاقد الفصول وهو مختصر كتاب تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل (ص٧٥-٧٦) ، تقريب الوصول إلي علم الأصول (مطبوع مع : الإشارة في أصول الفقه) (ص١٧٩) ، تذكرة الحفَّاظ، الذهبي (١/ ١١) ،جامع التَّحصيل في أحكام المراسيل (ص٧٣) ، جامع التَّحصيل في أحكام المراسيل" (ص٧٣) ، تحقيق المراد في أنَّ النَّهي يقتضي الفساد (ص١١٢) ، آكام المرجان في أحكام الجان " (ص١٩٤) ، نهاية السُّول شرح منهاج الوصول (ص١٣) ، (ص٢٦٣) ، (ص٣٩٧) ، الإبهاج في شرح المنهاج (١/ ٣٨) ، الدَّراري في شرح صحيح البخاري (٢٥/ ١٤) ، الموافقات " (١/ ٢٨) ، (٣/ ٣٣٩) ، شرح التَّلويح علىٰ التَّوضيح (٢/ ٥) ، (٢/ ٧) ، شرح المقاصد في علم الكلام (٢/ ١٩٨) ، البحر المحيط في أصول الفقه (٦/ ١٣٢) ، (٦/ ١٣٦) ، سلاسل الذَّهب (ص٣٢١) ، شرح التَّبصرة والتَّذكرة (١/ ١٠٥) ، كتاب التَّعريفات" (ص٩٧) ، تيسير البيان لأحكام القرآن (ص١٤١-١٤٣) ، الغيث الهامع شرح جمع الجوامع (ص٤١٦-٤١٧) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٦٦٥) ، نزهة النَّظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر" (ص٥١) ، فتح الباري (٤/ ٣٦٦) ، (١٣/ ٢٣٨) ، لسان الميزان (٧/ ٣٥٩) ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري(١١/ ٢٧٣) ، فتح القدير لابن الهمام (٣/ ١٥٩) ، شرح الورقات في أصول

الفقه (ص١٩٣) ، الأنجم الزَّاهرات على حلِّ ألفاظ الورقات في أصول الفقه (ص٢١٣-٢١٤) ، مهيع الوصول إلى علم الأصول(ص٢٠) ، التَّقرير والتَّحبير (١/ ٢٩٤) ، المختصر في علم الأثر (مطبوع ضمن كتاب: رسالتان في المصطلح) (ص١٦٧) ، فتح المغيث بشرح ألفيَّة الحديث (١/ ٣٢) ، الوجيز في أصول الفقه للكراماستي (ص١٤٧) ، الإتقان في علوم القرآن (١/ ٢٦٦) ، (٣/ ١٣) ، تدريب الرَّاوي في شرح تقريب النَّواوي (١/ ٧٥) ، فتح الباقي بشرح ألفيَّة العراقي (١/ ٩٨-٩٩) ، (١/ ١٣٠-١٣١) ، فتاوى الرَّملي(١/ ١٢٧) ، قفو الأثر في صفوة علوم الأثر(ص٤٩) ، تيسير التَّحرير " (٣/ ٧٦) ، الصَّواعق المحرقة على أهل الرَّفض والضَّلال والزَّندقة (١/ ١١٠) ، (١/ ١٧٤) ، شرح الشِّفا ، القاري (١/ ٥٤٦) ، شرح نخبة الفكر في مصطلحات أهل الأثر ، القاري (ص٢١٥) ، (ص٢١٧) ، (ص٢١٨) ، اليواقيت والدُّرر في شرح نخبة ابن حجر، المناوي (١/ ٣٠٢) ، اليواقيت والدُّرر في شرح نخبة ابن حجر (١/ ٣١٢-٣١٣) ، الكليَّات معجم في المصطلحات والفروق اللغويَّة (ص٤٤) ، (ص٤١٦-٤١٧) ، مسلم الثبوت في أصول الفقه (٢/ ١٢١-١٢٢ باختصار) ، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك(٢/ ٢٧٨) ، الفواكه الدَّواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/ ١٥٧) ، روح البيان (٢/ ٣٢٣) ، (٦/ ٣٤١) ، (٨/ ٢١٥) ، حاشية السِّندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه) (١/ ٥٦٠) ، سُبُل السَّلام (١/ ٥٢٢) ، لوائح الأنوار السَّنيَّة ولواقح الأفكار السنيَّة (١/ ١٤٩-١٥٠) ، اتحاف السَّادة المتَّقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٢/ ١٠٤-١٠٥) ، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول(١/ ١٣٣) ، فتح القدير للشَّوكاني(٥/ ٧٦) ، (٥/ ١٣٤) ، حاشية العطَّار على شرح الجلال المحلِّي على جمع الجوامع (٢/ ٢٣١) ، ردُّ المحتار على الدُّر المختار(١/ ٩٥) ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن (٧/ ٣٩٠) ، تفسير المنار(١/ ١١٤) ، (٣/ ٢٦١) ، (١١/ ٢٩٩) ، تفسير جزء عم لمحمد عبده (ص١٨٣) ، قواعد التَّحديث من فنون مصطلح الحديث (ص١٤٧-١٤٨) ، (٨/ ١٢٢) ، العرف الشَّذي شرح سنن التِّرمذي " (١/ ٤٥) ، الأصل الجامع لإيضاح الدُّرر المنظومة في سلك جمع الجوامع (٢/ ٦٧) ، الفقه على المذاهب الأربعة (٥/ ٤٠٧) ، مناهل العِرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٤١) ، (٢/ ٢٤٧) ، في تفسير المراغي (١١/ ١٠٥) ، (٢٣/ ١٢٥) ، علم أصول الفقه، عبد الوهَّاب خلَّاف (ص٤٢) ، قصص الأنبياء ، عبد الوهَّاب النَّجَّار (المقدمة/ س/ ٤) ، (المقدمة/ع/ ٧) ، الاسلام عقيدة وشريعة ، محمود شلتوت (ص٧٤-٧٦ باختصار) ، السُّنَّة ومكانتها في التَّشريع الإسلامي(ص٣٥-٣٦) ، (ص١٦٠-١٦١) ، في ظلال القرآن (٦/ ٤٠٠٨) ، التَّحرير والتَّنوير «تحرير المعنى السَّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» " (١/ ١٣٩) ، (٤/ ٢٧٩) ، (٢٨/ ٣٤٠) ، قواعد في علوم الحديث، التَّهانوي (ص٥٦) ، أصول الفقه ، أبو زهرة (ص١٠٨-١٠٩) ، علم مصطلح الحديث ، العثيمين (ص٥) ، السُّنَّة النَّبويَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث " (ص٥٧) ، دستور الوحدة الثَّقافيَّة بين المسلمين" (٥٠-٥٤ باختصار) ، محمد الغزالي ، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٣٨١) ، الحديث في علوم القرآن والحديث لحسن أيوب (ص١٨٠) ، الجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها على المذهب الرَّاجح (ص١٠٢) : ، (ص٤٢٢) ، المُهَذَّبُ في عِلْمِ أُصُولِ الفِقْهِ المُقَارَنِ "(١/ ١٩) ،(٢/ ٦٨٤-٦٨٥) ، عبد الكريم بن علي بن محمَّد النّملة ، أصول الفقه الإسلامي" (١/ ٤٥٥) للأستاذ الدكتور وهبه الزّحيلي ، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي" (١/ ٢٠٨-٢٠٩) للأستاذ الدكتور محمَّد مصطفى الزّحيلي ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان في روابي علوم القرآن ، محمَّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي (١٢/ ٢٢٨) ، مُوْسُوعَة القَواعِد الفِقْهِيَّة، محمَّد صدقي بن أحمد بن محمَّد آل بورنو أبو الحارث الغزّي (٨/ ٣١) ، (١٢/ ١٩٠) ، الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة (٢٥/ ٢٦٦) ، الشَّرح على شرح جلال الدِّين المحلِّي للورقات ، أحمد بن عبد الله بن حميد (ص٢٠٥) ...

جمع كَثْرَة وَلَا حجَّة لَهُ فِيهَا وَذَلِكَ وَاضح لمن سمع كَلَام الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزله على اسْتِعْمَال الْعَرَب وإطلاقاتها وَلم يدْخل عَلَيْهَا غير لغتها

ثمَّ قلت كَمَا فطر الله جَمِيع الْأُمَم عربهم وعجمهم فِي الْجَاهِلِيَّة وَالْإِسْلَام إِلَّا من اجتالته الشَّيَاطِين عَن فطرته

هَذَا كَلَام من أَوله إِلَى آخِره معَارض بالميل وَالتَّرْجِيح مَعاً

ثمَّ قلت عَن السّلف فِي ذَلِك من الْأَقْوَال مَا لَو جمعته لبلغت مِائَتَيْنِ ألوفا

فَنَقُول إِن أردْت بالسلف سلف المشبهة كَمَا سَيَأْتِي فِي كلامك فَرُبمَا قاربت وَإِن أردْت سلف الْأمة الصَّالِحين فَلَا حرفا وَلَا شطر حرف وَهَا نَحن مَعَك فِي مقَام مقَام ومضمار مضمار بحول الله وقوته

ثمَّ قلت لَيْسَ فِي كتاب الله تَعَالَى وَلَا سنة رَسُول وَلَا عَن أحد من سلف الْأمة لَا من الصَّحَابَة وَلَا من التَّابِعين حرف وَاحِد يُخَالف ذَلِك لَا نَص وَلَا ظَاهر

قُلْنَا وَلَا عَنْهُم كَمَا ادعيت أَنْت وَلَا نَص وَلَا ظَاهر وَقد صدرت أَولا أَنَّك تَقول مَا قَالَه الله وَرَسُوله وَالسَّابِقُونَ الْأَولونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار ثمَّ دارت الدائرة على أَن المُرَاد بالسابقين الْأَوَّلين من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار مَشَايِخ عقيدتك وعزلت الْعشْرَة وَأهل بدر وَالْحُدَيْبِيَة عَن السَّبق وَالتَّابِعِينَ عَن الْمُتَابَعَة وتولي هَؤُلَاءِ لَا غير ﴿الله أعلم حَيْثُ يَجْعَل رسَالَته﴾

ثمَّ قَوْلك لم يقل أحد مِنْهُم إِنَّه لَيْسَ فِي غير السَّمَاء وَلَا إِنَّه لَيْسَ على الْعَرْش وَلَا إِنَّه فِي كل مَكَان وَلَا إِن جَمِيع الْأَمْكِنَة بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاء وَلَا إِنَّه دَاخل الْعَالم وَلَا خَارجه وَلَا مُتَّصِل وَلَا مُنْفَصِل

قُلْنَا لقد عممت الدَّعْوَى فَذكرت مَا لم تحط بِهِ علما وَقد ذكرنَا لَك عَن جَعْفَر الصَّادِق والجنيد والشبلي وجعفر بن نصير وَأبي عُثْمَان المغربي رَضِي الله عَنْهُم مَا فِيهِ كِفَايَة فَإِن طعنت فِي نقلنا أَو فِي هَذِه السَّادة طَعنا فِي نقلك وفيمن أسندت إِلَيْهِ من أهل عقيدتك خَاصَّة فَلم يوافقك على مَا ادعيته غَيرهم

ثمَّ إِنَّك أَنْت الَّذِي قد قلت مَا لم يقلهُ الله وَلَا رَسُوله وَلَا السَّابِقُونَ الْأَولونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار وَلَا من التَّابِعين وَلَا من مَشَايِخ الْأمة الَّذين لم يدركوا الْأَهْوَاء فَمَا نطق أحد مِنْهُم بِحرف فِي أَن الله تَعَالَى فِي جِهَة الْعُلُوّ وَقد قلت وصرحت وبحثت وفهمت بِأَن مَا ورد من أَنه فِي السَّمَاء وَفَوق السَّمَاء وَفِي الْعَرْش وَفَوق الْعَرْش المُرَاد بِهِ جِهَة الْعُلُوّ فَقل لنا من قَالَ هَذَا هَل قَالَه الله أَو رَسُوله أَو السَّابِقُونَ الْأَولونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار أَو التَّابِعين لَهُم بِإِحْسَان فَلم تهول علينا بالأمور المغمغمة وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَان

ثمَّ اسْتدلَّ على جَوَاز الْإِشَارَة الحسية إِلَيْهِ بالأصابع وَنَحْوهَا بِمَا صَحَّ أَنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خطْبَة عَرَفَات جعل يَقُول (أَلا هَل بلغت) فَيَقُولُونَ نعم

فيرفع أُصْبُعه إِلَى السَّمَاء وينكتها إِلَيْهِم وَيَقُول (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) غير مرّة

وَمن أَي دلَالَة يدل هَذَا على جَوَاز الْإِشَارَة إِلَيْهِ هَل صدر مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنه رفع أُصْبُعه ثمَّ نكتها إِلَيْهِم هَل فِي ذَلِك دلَالَة على أَن رَفعه كَانَ يُشِير بِهِ إِلَى جِهَة الله تَعَالَى وَلَكِن هَذَا من عَظِيم مَا رسخ فِي ذهن هَذَا الْمُدَّعِي من حَدِيث الْجِهَة حَتَّى إِنَّه لَو سمع مَسْأَلَة من عويص الْفَرَائِض والوصايا وَأَحْكَام الْحيض لقَالَ هَذِه دَالَّة على الْجِهَة

ثمَّ أَتَى بالطامة الْكُبْرَى والداهية الدهياء وَقَالَ فَإِن كَانَ الْحق مَا يَقُوله هَؤُلَاءِ السَّابِقُونَ النافون من هَذِه الْعبارَات وَنَحْوهَا دون مَا يفهم من الْكتاب وَالسّنة إِمَّا نصا أَو ظَاهرا كَيفَ يجوز على الله تَعَالَى ثمَّ على رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمَّ على خير الْأمة أَنهم يَتَكَلَّمُونَ دَائِما بِمَا هُوَ نَص أَو ظَاهر فِي خلاف الْحق ثمَّ الْحق الَّذِي يجب اعْتِقَاده لَا يبوحون بِهِ قطّ وَلَا يدلون عَلَيْهِ لَا نصا وَلَا ظَاهرا حَتَّى يَجِيء أَنْبَاط الْفرس وَالروم وأفراخ الهنود يبينون للْأمة العقيدة الصَّحِيحَة الَّتِي يجب على كل مؤلف أَو فَاضل أَن يعتقدها لَئِن كَانَ مَا يَقُوله هَؤُلَاءِ المتكلمون المتكلفون هُوَ الِاعْتِقَاد الْوَاجِب وهم مَعَ ذَلِك أحيلوا على مُجَرّد عُقُولهمْ وَأَن يدفعوا لمقْتَضى قِيَاس عُقُولهمْ مَا دلّ عَلَيْهِ الْكتاب وَالسّنة نصا أَو ظَاهرا لقد كَانَ ترك النَّاس بِلَا كتاب وَلَا سنة أهْدى لَهُم وأنفع على هَذَا التَّقْدِير بل كَانَ وجود الْكتاب وَالسّنة ضَرَرا مَحْضا فِي أصُول الدّين فَإِن حَقِيقَة الْأَمر على مَا يَقُوله هَؤُلَاءِ أَنكُمْ يَا معشر الْعباد لَا تَطْلُبُوا معرفَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَا يسْتَحق من الصِّفَات نفيا وَلَا إِثْبَاتاً لَا من الْكتاب وَلَا من السّنة وَلَا من طَرِيق سلف الْأمة وَلَكِن انْظُرُوا أَنْتُم فَمَا وجدتموه مُسْتَحقّا لَهُ من الصِّفَات فصفوه بِهِ سَوَاء كَانَ مَوْجُودا فِي الْكتاب وَالسّنة أَو لم يكن وَمَا لم تَجِدُوهُ مُسْتَحقّا لَهُ فِي عقولكم فَلَا تصفوه بهَا

ثمَّ قَالَ هما فريقان أَكْثَرهم مَا يَقُول مَا لم تثبته عقولكم فانفوه وَمِنْهُم من يَقُول بل توقفوا فِيهِ

وَمَا نَفَاهُ قِيَاس عقولكم الَّذِي أَنْتُم فِيهِ مُخْتَلفُونَ ومضطربون اخْتِلَافا أَكثر من جَمِيع الِاخْتِلَاف على وَجه الأَرْض فانفوه وَإِلَيْهِ عِنْد الشَّارِع فَارْجِعُوا فَإِن الْحق الَّذِي تعبدتكم بِهِ وَمَا كَانَ مَذْكُورا فِي الْكتاب وَالسّنة مِمَّا يُخَالف قياسكم هَذَا أَو يثبت مَا لم تُدْرِكهُ عقولكم على طَرِيقَة أَكْثَرهم فاعلموا أنني امتحنتكم بتنزيله لَا لِتَأْخُذُوا الْهدى مِنْهُ لَكِن لتجتهدوا فِي تَخْرِيجه على شواذ اللُّغَة وَوَحْشِي الْأَلْفَاظ وغرائب الْكَلَام أَو تسكتوا عَنهُ مفوّضين علمه إِلَيّ

هَذَا حَقِيقَة الأَمر على رَأْي الْمُتَكَلّمين

هَذَا مَا قَالَه وَهُوَ الْموضع الَّذِي صرع فِيهِ وتخبطه الشَّيْطَان من الْمس فَنَقُول مَا تَقول فِيمَا ورد من ذكر الْعُيُون بِصفة الْجمع وَذكر الْجنب وَذكر السَّاق الْوَاحِد وَذكر الْأَيْدِي فَإِن أَخذنَا بظَاهِر هَذَا يلْزمنَا إِثْبَات شخص لَهُ وَجه وَاحِد عَلَيْهِ عُيُون كَثِيرَة وَله جنب وَاحِد وَعَلِيهِ أيد كَثِيرَة وَله سَاق وَاحِد فَأَي شخص يكون فِي الدُّنْيَا أبشع من هَذَا وَإِن تصرفت فِيهِ هَذَا بِجمع وتفريق بالتأويل فَلم لَا ذكره الله وَرَسُوله وَسلف الْأمة

وَقَوله تَعَالَى فِي الْكتاب الْعَزِيز {الله نور السَّمَاوَات وَالْأَرْض} فَكل عَاقل يعلم أَن النُّور الَّذِي على الْحِيطَان والسقوف وَفِي الطّرق والحشوش لَيْسَ هُوَ الله تَعَالَى وَلَا قَالَت الْمَجُوس بذلك فَإِن قلت بِأَنَّهُ هادي السَّمَوَات وَالْأَرْض ومنورها فَلم لَا قَالَه الله تَعَالَى وَلَا رَسُوله وَلَا سلف الْأمة

وَورد قَوْله تَعَالَى: ﴿وَنحن أقرب إِلَيْهِ من حَبل الوريد﴾ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَن يكون الله دَاخل الزردمة فَلم لَا بَينه الله وَلَا رَسُوله وَلَا سلف الْأمة .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿واسجد واقترب﴾ ، وَمَعْلُوم أَن التَّقَرُّب فِي الْجِهَة لَيْسَ إِلَّا بالمسافة فَلم لَا بَينه الله تَعَالَى وَلَا رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا سلف الْأمة

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿فأينما توَلّوا فثم وَجه الله﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَجَاء رَبك﴾ (٦٦) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿فَأتى الله بنيانهم من الْقَوَاعِد﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿مَا يَأْتِيهم من ذكر من رَبهم مُحدث﴾ ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِكَايَة عَن

---

(٦٦) قال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمَّد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدُّنيا (٢٨١هـ) : " دثنا يُوسُفُ ، دثنا أَبُو أُسَامَةَ ، دثنا الْأَجْلَحُ ، عَنِ الضَّحَّاك قَالَ : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللهُ السَّمَاوَاتِ فَتَشَقَّقَتْ بِأَهْلِهَا ، وَنَزَلَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَأَحَاطُوا بِالْأَرْضِ ، ثُمَّ الثَّانِيَةَ ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ ، حَتَّى عَدَّ سَبْعاً صَفّاً دُونَ صَفٍّ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر : ٢٢] " . انظر : الأهوال (ص١٢٥) .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ) : " وأجمعوا على أنَّه عزَّ وجلَّ يجيء يوم القيامة والملك صفّاً صفّاً لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذِّب منهم من يشاء ، كما قال ، وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ، وإنَّما يكون المجيء حركة وزوالاً إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً ، فإذا ثبت أنَّه عزَّ وجلَّ ليس بجسم ولا جوهر لم يجب أن يكون مجيئه نقلة أو حركة ، ألا ترى أنَّهم لا يريدون بقولهم : جاءت زيداً الحمى أنَّهَا تنقلت إليه ، أو تحرَّكت من مكان كانت فيه إذ لم تكن جسماً ولا جوهراً ، وإنَّما مجيئها إليه وجودها به .

وأنَّه عزَّ وجلَّ ينزل إلى السَّماء الدُّنيا ، كما روي عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وليس نزوله نقله ، لأنَّه ليس بجسم ولا جوهر ، وقد نزل الوحي على النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند من خالفنا " . انظر : رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص١٢٨-١٢٩) .

وقال الإمام الجصَّاص الحنفي (٣٧٠هـ) : " وقَوْله تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَّ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب : ٥٧] بِمَنْزِلِهِ : إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَوْلِيَاءَ اللهَّ ﴿وَجَاءَ رَبُّك﴾ [الفجر : ٢٢] كَقَوْلِهِ : ﴿جَاءَ أَمْرُ رَبِّك﴾ . فَتَصِيرُ الدَّلَائِلُ الْمُوجِبَةُ لِكَوْنِ اللَّفْظِ مَجَازاً هِيَ الْمُوجِبَةَ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً " . انظر : الفصول في الأصول (١/ ١٤٠) .

وقال الإمام السَّمرقندي (٣٧٣هـ) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ قال بعضهم : هذا من المكتوم الذي لا يفسَّر ، وقال أهل السُّنَّة وجاء ربُّك بلا كيف ، وقال بعضهم : معناه : وجاء أمر ربِّك بالحساب " . انظر : بحر العلوم (٣/ ٥٨٠) .

وقال الإمام الخطَّابي (٣٨٨هـ) : " مذهب علماء السَّلف وأئمَّة الفقهاء أن يجروا مثل هذه الأحاديث على ظاهرها ، وأن لا يريغوا لها المعاني ، ولا يتأوَّلوها لعلمهم بقصور علمهم عن دركها .

حدَّثنا الزَّعفراني ، حدَّثنا ابن أبي خيثمة ، حدَّثنا عبد الوهَّاب بن نجدة الحوطي ، حدَّثنا بقية عن الأوزاعي ، قال كان مكحول والزُّهري يقولان : أمرُّوا الأحاديث كما جاءت .

قلت : وهذا من العلم الذي أُمرنا أن نؤمن بظاهره وأن لا نكشف عن باطنه ، وهو من جملة المتشابه الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ في كتابه ، فقال : ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ [آل عمران : ٧] الآية؛ فالمحكم منه يقع به العلم الحقيقي والعمل ، والمتشابه يقع به الإيمان والعلم بالظَّاهر ونُوكل باطنه إلى الله سبحانه؛ وهو معنى قوله :﴿وما يعلم تأويله إلاّ الله﴾ [آل عمران : ٧] ، وإنَّما حظ الرَّاسخين في العلم أن يقولوا : ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ [آل عمران : ٧] ، وكذلك كلّ ما جاء من هذا الباب في القرآن كقوله : ﴿هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وقوله ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ [الفجر : ٢٢] ، والقول في جميع ذلك عند علماء السَّلف هو ما قلنا ، وقد روي مثل ذلك عن جماعة من الصَّحابة ، وقد زلَّ بعض شيوخ أهل الحديث ممَّن يرجع إلى معرفته بالحديث والرِّجال ، فحاد عن هذه الطَّريقة حين روى حديث النُّزول ثُمَّ أقبل يسأل نفسه عليه ، فقال : إن قال قائل كيف ينزل ربُّنا إلى السَّماء ؟ قيل له : ينزل كيف شاء ، فإن قال : هل يتحرَّك إذا نزل أم لا ؟ فقال : إن شاء تحرَّك وإن شاء لم يتحرَّك .

قلت : وهذا خطأ فاحش ، والله سبحانه لا يوصف بالحركة ، لأنَّ الحركة والسُّكون يتعاقبان في محِّل واحد ، وإنَّما يجوز أن يوصف بالحركة من يجوز أن يوصف بالسُّكون ، وكلاهما من أعراض الحدث وأوصاف المخلوقين ، والله جلَّ وعزَّ متعال عنهما ، ليس كمثله شيء ، فلو جرى هذا الشَّيخ عفا الله عنَّا وعنه على طريقة السَّلف الصَّالح ، ولم يدخل نفسه فيما لا يعنيه ، لم يكن يخرج به القول إلى مثل هذا الخطأ الفاحش ، وإنَّما ذكرت هذا لكي يتوقَّى الكلام فيما كان من هذا النَّوع فإنَّه لا يثمر خيراً ، ولا يفيد رشداً ، ونسأل الله العصمة من الضَّلال والقول بما لا يجوز من الفاسد المحال " . انظر : معالم السنن (٤/ ٣٣١-٣٣٢) .

وقال الإمام الباقلاني المالكي (٤٠٣هـ) : " ... أنَّه يجيء ويأتي بغير زوالٍ ولا انتقالٍ ولا تكييف ، بل يجبُ تسليمُ ذلك على ما رُوي وجاء به القرآن .

والجواب الآخر : أنَّه يَفْعل معنىً يُسميه مجيئاً وإتياناً فيقال : جاء الله بمعنى أنَّه فعلَ فعلاً كأنّه جائيا ، كما يقال أحسنَ الله ، وأنعم وتفضَّلَ ، على معنى أنَّه فعل فعلاً استوجبَ به هذه الأشياء .

ويمكن أن يكون أراد بذلك إتيان أمْرِه وحُكمِه والأهوالِ الشَّديدةِ التي توعَّدهم بها وحذَّرهم من نزولها ، ويكون ذلك نظيراً لقوله عزَّ وجلَّ : **﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾** ، ولا خلافَ في أنَّ معنى هذه الآية أنَّ أمْره وحُكْمَه إيَّاهم وعقوبته ونكالَه ، وكذلك قوله : **﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾** . انظر : الانتصار للقرآن (ص٧٣٦) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني ، أبو بكر (٤٠٦هـ) : " وأمَّا قَوْله تَعَالَى **﴿وَجَاء رَبك وَالْملك صفا صفا﴾** فَمنهمْ من قَالَ : إِنَّ مَعْنَاهُ جَاءَ رَبك بِالْملكِ صفًّا ، وَزعم أَن الْوَاو هُنَا بِمَعْنى الْبَاء .

وَمِنْهُم من : قَالَ جَاءَ رَبُّك وَالْملك أَمر رَبِّك وَحكمه ، يُرِيد أَمر الْقِيَامَة وَمَا يخْتَص بِهِ ذَلِك الْوَقْت من أمره الْمَخْصُوص وَحكمه الَّذِي لَا يَقع الشّركَة فِيهِ بِالدُّعَاءِ والنِّداء .

وَقد بَينَّا فِيمَا قبل أَنَّه لَا تدافع بَين أهل اللُّغَة فِي قَوْلهم : ضرب الْأَمِير اللص ، ونادى الْأَمِير فِي الْبَلَد بِكَذَا ، وإنَّما يُرَاد بذلك أَن ذَلِك الْفِعْل وَقع بأَمْره وَعَن حكمه ، فيضاف الْفِعْل إِلَيْهِ بِاللَّفْظِ الَّذِي يُضَاف إِلَى من فعله وتولَّاه ، وَنَظِير ذَلِك قَوْله عزَّ وجلَّ فِي قصَّة قوم لوط :**﴿فطمسنا أعينهم﴾** ، وَكَانَ الطَّمس للأعين من الْمَلَائِكَة بِأَمْر الله عزَّ وجلَّ .

وَإِذا كَانَ مثله مُتَعَارَف فِي اللُّغَة وإنَّما ورد الْخطاب فِي الْقُرْآن على الْمُتَعَارف فِي اللُّغَة والمعهود فِيمَا بَين أَهلهَا لم يُنكر أَن يحمل على ذَلِك قَوْله تَعَالَى : **﴿وَجَاء رَبك﴾** " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٢٠٨) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني ، أبو بكر أيضاً : " ... وأمَّا قَوْله : " وَيَقُولُونَ فَإِذا جَاءَ رَبنَا عَرفْنَاهُ " ، فَتَأْوِيل مَجِيء الرَّب على مَا تقدَّم ذكره فِي تَأْوِيل الْآيَة من قَوْله **﴿وَجَاء رَبك﴾** ، وَأَن ذَلِك بظُهُور فعل لَا بتحويل من مَكَان إِلَى مَكَان " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٤١٥) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني أيضاً : " وأمَّا اللَّفْظ الآخر الَّذِي ذكره فِي الْخَبَر وَهُوَ قَوْله : " فَيَجِيء الله تبَارك وَتَعَالَى فيهم " ، فتأويله على نَحْو قَوْله تَعَالَى **﴿وَجَاء رَبك وَالْملك صفا صفا﴾**

أَحدهمَا : أَن يكون الْمُرَاد بِهِ إِظْهَار فعل يُسمى مجيئاً .

وَالثَّانِي : أَن يكون يَجِيء فيهم أَي يَجِيء بهم وَهَذَا نَحْو مَا رُوِيَ عَن ابْن عَبَّاس فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى ﴿**فِي ظلل من الْغَمَام**﴾ أَن مَعْنَاهُ بظلل وَمَا ذكرنَا فِي تَأْوِيل النُّزول والمجيء فَهُوَ تَأْوِيل الهبوط وَأَن ذَلِك أيضاً لَيْسَ هُوَ بِمَعْنى التَّحْوِيل من مَكَان إِلَى مَكَان " . انظر : مشكل الحديث وبيانه (ص٤٧٢) .

وقال الإمام ابن فورك الأنصاري الأصبهاني أيضاً : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ ، أي : جاء بجلائل آياته ، فحصل عن جلائل الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأنه ، ويجوز : جاء ظهر بضرورة المعرفة ، كما يوصف به ما تقوم مقام الرُّؤية " . انظر : تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون - آخر سورة السجدة (٣/ ٢١٨) .

وقال الإمام محمَّد بن الحسين السلمي (٤١٢هـ) : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ**﴾ [الآية : ٢٢] . قال الواسطي رحمه الله : ظهرت قدرة ربِّك وقد استوت الأمور . وقال بعضهم : الحقُّ ليس له تحوُّل من مكان إلى مكان ، وكيف له التَّحوُّل والتَّنقُّل ، ولا مكان له ولا آذان له ، ولا يجري عليه وقت لأنَّ في جريان الوقت على الشَّيء قوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ، والحقُّ متنزِّه أن تحوى صفاته الطَّبائع أو تحيط به الصُّدور " . انظر : تفسير السلمي (٢/ ٣٩٤) .

وقال الإمام الثَّعلبي (٤٢٧هـ) : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ قال الحسن : أمره وقضاؤه ، وقال أهل الإشارة : ظهر قدرة ربِّك ، وقد استوت الأمور ، وأنَّ الحقَّ لا يوصف بتحوُّل من مكان إلى مكان ، وأنَّى له التَّحوُّل والتَّنقُّل ولا مكان له ولا أوان ، ولا يجري عليه وقت وزمان ، لأنَّ في جريان الوقت على الشَّيء فوت الأوقات ، ومن فاته شيء فهو عاجز ، والحقُّ ينزَّه أن تحوي صفاته الطَّبائع ، أو تحيط به الصُّدور " . انظر : الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٠/ ٢٠١) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " ولا فرق بين الإتيان والمجيء والنُّزول إذا أضيف جميع ذلك إلى الأجسام التي يجوز عليها الحركة والنُّقلة التي هي تفريغ مكان وشغل غيره ، فإذا أضيف ذلك إلى من لا يليق به الانتقال والحركة كان تأويل ذلك على حسب ما يليق بنعته وصفته عزَّ وجلَّ " . انظر : شرح صحيح البخاري (٣/ ١٣٧) .

وقال الإمام ابن بطَّال أيضاً : " وقيل معنى قوله تعالى : ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ ، أي : اعمل بما فيه ، فأمَّا إضافته فعل القراءة إليه بقوله : ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**﴾ والقارئ لكلامه تعالى على محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جبريل دونه تعالى ، فهذه إضافة فعل فعله في غيره ، كما تقول : قتل الأمير اللص وصلبه ، وهو لم يل ذلك بنفسه ، إنَّما أمر من فعله . ففيه بيان لما يشكل من كلِّ فعل ينسب إلى الله تعالى ، ممَّا لا يليق به فعله من الإتيان ، والنُّزول ، والمجيء ، أنَّ ذلك الفعل إنَّما هو منتسب إلى الملك المرسل به ، كقوله : ﴿**وَجَاء رَبُّكَ**﴾ [الفجر : ٢٢] ، والمجيء مستحيل عليه لاستحالة الحركة ، وإنَّما معناه : وجاء أمر ربِّك ورسول ربِّك ، فكما استحالت عليه الحركة والانتقال ، كذلك استحالت عليه القراءة المعلومة منَّا لأنها محاولة حركة أعضاء وآلات ، والله يتعالى عن ذلك ، وعن شبه الخليقة في قول أو عمل " .

انظر : شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٢٦-٥٢٧) .

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : " ... وَقد حمد الله إِبْرَاهِيم خَلِيله وَرَسُوله وَعَبده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِذْ بَيَّن لِقَوْمِهِ بنقلة الْقَمَر أَنَّه لَيْسَ رَبّاً ، فَقَالَ **﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِيْن﴾** ، وكل منتقل عَن مَكَان فَهُوَ آفل عَنهُ ، تَعَالَىٰ الله عَن هَذَا ، وَكَذَلِكَ القَوْل فِي قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾** ، وَقَوله تَعَالَىٰ :**﴿هَل ينظرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله فِي ظلل من الْغَمَام وَالْمَلَائِكَة وَقضي الْأَمر﴾** ، فَهَذَا كُله علىٰ مَا بَينَّا من أَنَّ الْمَجِيء والإتيان يَوْم الْقِيَامَة فعل يَفْعَله الله تَعَالَىٰ فِي ذَلِك الْيَوْم يُسمَّىٰ ذَلِك الْفِعْل مجيئاً وإتياناً ، وَقد روِّينا عَن أَحْمد بن حَنْبَل رَحمَه الله أَنَّه قَالَ : وَجَاءَ رَبُّكَ إِنَّمَا مَعْنَاهُ : وَجَاء أَمر رَبِّك " . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ١٣٢) .

وقال الإمام ابن عبد البر النمري القرطبي (٤٦٣هـ) : " وَقَدْ قَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾** ، وَلَيْسَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً وَلَا زَوَالاً وَلَا انْتِقَالاً ، لأنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ الْجَائِي جِسْماً أَوْ جَوْهَراً ، فَلَمَّا ثَبَتَ أَنَّه لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا جَوْهَرٍ لَمْ يَجِبْ أَنْ يَكُونَ مَجِيئُهُ حَرَكَةً وَلَا نَقْلَةً ، وَلَوِ اعْتَبَرْتَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ : جَاءَتْ فُلَاناً قِيَامَتُهُ وَجَاءَهُ الْمَوْتُ ، وَجَاءَهُ الْمَرَضُ ، وَشِبْهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ نَازِلٌ بِهِ وَلَا مَجِيءَ لَبَانَ لَكَ ، وَبِاللهِ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ " . انظر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/ ١٣٧) .

وقال الإمام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** ، أي : الملائكة بأمره . ويقال : يفعل فعلا فيسمِّيه مجيئاً " . انظر : لطائف الإشارات (تفسير القشيري) (٣/ ٧٢٧) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري (٤٦٨هـ) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] . قال ابن عَبَّاس في رواية الكلبي ، والحسن : وجاء أمر ربِّك ، وقضاء ربِّك ، لأنَّ في يوم القيامة تجيء جلائل آيات الله ، وتظهر العظائم .

وقال أهل المعاني : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، أي : وجاء ظهوره بضرورة المعرفة ، وضرورة المعرفة بالشَّيء تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، ولمَّا صارت هذه المعارف بالله في ذلك اليوم ضرورة ، صار ذلك كظهوره ، وتجليه للخلق ، فقيل : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** ، أي : زالت الشُّبهة ، وارتفعت الشُّكوك ، كما ترتفع عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكُّ فيه " . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٤٨٤-٤٨٥) .

وقال الإمام الواحدي النَّيسابوري أيضاً : " وقوله : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** معنىٰ هذا كمعنىٰ قوله : **﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾** [البقرة : ٢١٠] وقد مرَّ . علىٰ أنَّ الحسن قد قال في هذه الآية : جاء أمر ربِّك وقضاء ربِّك ، فيكون هذا من باب حذف المضاف ، ونحو هذا روي عن الكلبي : وجاء أمر ربِّك .

وذكر أهل المعاني في هذا قولين :

أَحَدُهُمَا : أنَّ المعنىٰ : وجاء جلائل آياته ، لأنَّ هذا يكون يوم القيامة ، وفي ذلك اليوم تظهر العظائم ، وجلائل الآيات ، فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لشأنها .

الثَّانِي : أنَّ المعنىٰ : وجاء ظهوره بضرورة المعرفة ، وضرورة المعرفة التي تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، ولَمَّا صارت المعارف في ذلك اليوم بالله تعالىٰ ضرورة ، صار ذلك كظهوره ، وتجليه للخلق ، فقيل : وَجَاءَ رَبُّكَ ، أي زالت الشُّبهة ، وارتفعت الشُّكوك كما ترتفع عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكّ فيه ، وهذه أوجه في هذه الآية صحيحة " .
انظر : التَّفْسِيرُ البَسِيْط (٢٣/ ٥١٧-٥١٩) .

وقال الإمام أبو سعيد عبدالرحمن بن محمَّد (٤٧٨) : " ... ومنه قوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والملك﴾** ، وقوله تعالىٰ : **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة﴾** ، والمراد به : جاء أمر ربِّك ، ويأتيهم أمر الله تعالىٰ .
والدَّليل عليه : أنَّ الله تعالىٰ ذكر في سورة الأنعام أخباراً عن إبراهيم أنَّه استدلَّ بأفول الشَّمس والقمر والكواكب علىٰ أنَّهَا ليست بآلهة ، وتبرَّأ منها ، ولو كان الباري يجوز عليه الإتيان والمجيء لبطلت الدّلالة " . انظر : الغنية في أصول الدِّين (ص١١٥) .

وقال الإمام علي بن فَضَّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني (٤٧٩هـ) : " ... قال الحسن : المعنىٰ : وجاء أمر ربِّك وقضاء رِّبك ، وقال المتكلِّمون : يفعل الله فعلاً يسمِّيه مجيئاً ، ومثل هذا قول النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ينزل ربُّنا في كلِّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا " أي : أمره وهذا كما تقول : ضرب الأمير فلاناً ، أي : ضربه صاحبه بأمره ، ولا يجوز أن يكون المجيء انتقالاً ؛ لأنَّ الانتقال لا يصحُّ علىٰ القديم تعالىٰ " . انظر : النكت في القرآن الكريم (في معاني القرآن الكريم وإعرابه) (ص٥٥٥) .

وقال الإمام السَّمعاني (٤٨٩هـ) : " وَقَوله : **﴿وَجَاء رَبك﴾** ، وَهُوَ من الْمُتَشَابه الَّذِي يُؤمن بِهِ وَلَا يُفَسَّر ، وَقد أَّول بَعضهم : وَجَاء أَمر رَبِّك ، وَالصَّحِيح مَا ذكرنَا " . انظر : تفسير القرآن (٦/ ٢٢٢) .
وقال الإمام الرَّاغب الأصفهانىٰ (٥٠٢هـ) : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾** [الفجر : ٢٢] ، فهذا بالأمر لا بالذَّات ، وهو قول ابن عَبَّاس رضي الله عنه " . انظر : المفردات في غريب القرآن (ص٢١٢) .
وقال الإمام البغوي (٥١٠هـ) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾** ، قَالَ الْحَسَنُ : جَاءَ أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : يَنْزِلُ حكمه " .
انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٥/ ٢٥٢) .

وقال الإمام أبو الوفاء ، علي بن عقيل بن محمَّد بن عقيل البغدادي الظَّفري (٥١٣هـ) : " وإذا وردَ في القرآن : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾** [هود : ١٠٥] ، فأوهم أنَّه يزولُ وينتقلُ ، أزالَ هذا التَّوهُّمَ عن المجيء المضافِ إليه ، والإتيانِ الواقعِ عليه : قولُه سبحانه : **﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** [الأنعام : ٧٥] ، **﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾** إلىٰ قوله **﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾** [الأنعام : ٧٦] ، فأبان عن الأفول ، وهو الغروبُ بعد الطُّلوع : أنَّه يخرجُ عن صفةِ

القِدَمِ والإلهيَّة ، وقامَ دليلُ العقلِ : أنَّ من يتحرَّكُ وينتقلُ ، وخارجٌ من حالٍ إلىٰ حال ، محدَثٌ " . انظر : الوَاضِح في أصُول الفِقه (٤/ ٢٠-٢١) .

وقال الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (٥٤٣هـ) : " قولُه : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾** الآية ، اعْلَم أنَّه لم يُرِدْ به مجيءَ الانتقالِ والاتيانِ .

وقال بعض العلماء : إنَّ الواو هاهنا بمعنىٰ الباء .

ومنهم من قال : جاءَ أَمْرُ ربِّكَ وحُكْمُه ، يريدُ أمر الله في القيامة وما يختصّ به ذلك .

وقال آخر : يحتمل وَجَاءَ رَبُّكَ بالملائكة ، فيكون المجيءُ للملائكة .

وتحقيقُ القولِ في هذا : أنَّ كلَّ فِعْلٍ يضافُ إلىٰ الله تعالىٰ ممَّا يتعلَّقُ بأبداننا يتعالىٰ الله عنه ، وإنَّما المرادُ به مخلوقاته ، وذلك جائزٌ من وجهين :

إمَّا بأنْ يفعلَ فِعْلاً فيسمَّىٰ إتياناً .

وإمَّا أنْ تأتي الملائكة بأمْرِهِ ، كما قال الله تعالىٰ : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾** بخَفْضِ الهاء وبرفعها ، فَبِرَفْعِها يكونُ الفعْلُ المسمَّىٰ إثباتاً مخصوصاً بالظُّلَلِ . وبكسرها يكون الفعلُ المسمَّىٰ إثباتاً عامّاً فيه " . انظر : المسالِك في شرح مُوَطَّأ مالك (٣/ ٤٥٦) .

وقال الإمام إسماعيل بن محمَّد بن الفضل بن علي الأصبهاني الملقَّب بقوام السُّنَّة (٥٣٥هـ) : " قال الحسن : المعنىٰ : وجاء أمر ربِّك وقضاء ربِّك ، وقال المتكلِّمون : يفعل الله فعلاً يسمِّيه مجيئاً " . انظر : إعراب القرآن (ص٥٢١) .

وقال الإمام الزَّمخشري (٥٣٨) : " فإن قلت : ما معنىٰ إسناد المجيء إلىٰ الله ، والحركة والانتقال إنَّما يجوزان علىٰ من كان في جهة ، قلت : هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه : مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلّها ووزرائه وخواصِّه عن بكرة أبيهم " . انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (٤/ ٧٥٤-٧٥٥) .

وقال الإمام ابن عطيَّة الأندلسي (٥٤٢هـ) : " وقوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾** معناه : وجاء قدره وسلطانه وقضاؤه ، قال منذر بن سعيد : معناه ظهوره للخلق هنالك ليس مجيء نقلة " . انظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٥٢) .

وقال الإمام محمود بن أبىٰ الحسن بن الحسين النَّيسابوري (٥٥٠هـ) : " وَجاءَ رَبُّكَ " : أمره وقضاؤه " . انظر : إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٨٧٦) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] أي : جاء أمره " . انظر : دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنْزِيْه (ص١١٠) .

وقال الإمام ابن الجوزي أيضاً : " قلت : قال القاضي أبو يعلى عن أحمد بن حنبل أنَّه قال في قوله تعالى : ﴿يأتيهم﴾ قال : المراد به قدرته وأمره ، قال : وقد بيَّنه في قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ، ومثل هذا في القرآن : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، قال : إنَّما هو قدرته " . انظر : دفع شبه التَّشبيه بأكف التَّنْزِيْه ، (ص١٤١) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَاعْلَمْ أَنَّهُ ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ أَنَّ الْحَرَكَةَ عَلَىٰ اللهَّ تَعَالَىٰ مُحَالٌ ، لأنَّ كُلَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ جِسْماً وَالْجِسْمُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ أَزَلِيّاً فَلَا بُدَّ فِيهِ مِنَ التَّأْوِيلِ ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مَقَامَهُ ، ثُمَّ ذَلِكَ الْمُضَافُ مَا هُوَ؟ فِيهِ وُجُوهٌ .

أَحَدُهَا : وَجَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بِالْمُحَاسَبَةِ وَالْمُجَازَاةِ .

وَثَانِيهَا : وَجَاءَ قَهْرُ رَبِّكَ كَمَا يُقَالُ جَاءَتْنَا بَنُو أُمَيَّةَ أَيْ قَهْرُهُمْ .

وَثَالِثُهَا : وَجَاءَ جَلَائِلُ آيَاتِ رَبِّكَ لأنَّ هَذَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَظْهَرُ الْعَظَائِمُ وَجَلَائِلُ الْآيَاتِ ، فَجُعِلَ مَجِيئُهَا مَجِيئاً لَهُ تَفْخِيماً لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ .

وَرَابِعُهَا : وَجَاءَ ظُهُورُ رَبِّكَ ، وَذَلِكَ لأنَّ مَعْرِفَةَ اللهَّ تَصِيرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ضَرُورِيَّةً فَصَارَ ذَلِكَ كَظُهُورِهِ وَتَجَلِّيهِ لِلْخَلْقِ ، فَقِيلَ : وَجاءَ رَبُّكَ أَيْ زَالَتِ الشُّبْهَةُ وَارْتَفَعَتالشُّكُوكُ .

خَامِسُهَا : أَنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ لِظُهُورِ آيَاتِ اللهَّ وَتَبْيِينِ آثَارِ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ، مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ بِمُجَرَّدِ حُضُورِهِ مِنْ آثَارِ الْهَيْبَةِ وَالسِّيَاسَةِ مَا لَا يَظْهَرُ بِحُضُورِ عَسَاكِرِهِ كُلِّهَا وَسَادِسُهَا : أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُرَبِّي ، وَلَعَلَّ مَلَكاً هُوَ أَعْظَمُ الْمَلَائِكَةِ هُوَ مُرَبِّي لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ فَكَانَ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢١/ ١٥٩) .

وقال الإمام يوسف بن أبي بكر بن محمَّد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (٦٢٦هـ) : " من فصول المجاز في المجاز اللغوي الرَّاجع على : حكم الكلمة في الكلام : هو عند السَّلف رحمهم الله أن تكون الكلمة منقولة عن حكم لها أصلي على غيره كما في قوله علت كلمته ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ فالأصل وجاء أمر ربِّك ، فالحكم الأصلي في الكلام لقوله ربّك هو الجر وأمَّا الرَّفع فمجاز " . انظر : مفتاح العلوم (ص٣٩٢) .

وقال الإمام الحَرَالِّيُّ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَسَنٍ التُّجِيْبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ (٦٣٨هـ) ، في أثناء حديثه عن المتشابه : " ... وأمَّا الرُّتبة الثَّانية فمتشابه الخطاب المفصَّل ، المشتمل على إخبار الله عن نفسه وتنزُّلات أمره ، ورتب إقامات خلقه بإبداع كلمته ، وتصيير حكمته ، وباطن ملكوته ، وعزيز جبروته ، وأحوال أيامه .

وأوَّل ذلك في ترتيب القرآن إخباره عن استوائه في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماء وَهِيَ دُخَانٌ﴾ إلى قوله : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ إلى سائر ما أخبر عنه من عظيم شأنه ، في جملة آيات متعدِّدات كقوله تعالى ... ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ إلى سائر ما أخبر فيه عن تنزُّلات أمره وتسوية خلقه ، وما أخبر عنه حبيبه محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من محفوظ الأحاديث التي عرف بها أمَّته ما يحملهم في عبادتهم على الانكماش والجدّ والخشية والوجل والإشفاق ، وسائر الأحوال المُشار إليها في حرف المحكم ، من نحو حديث النُّزول ، والنَّعلين ، والصُّورة ، والضَّحك ، والكفّ ، والأنامل ، وحديث التَّقرذُب بالنَّوافل ، وغير ذلك من الأحاديث التي ورد بعضها في الصَّحيحين ، واعتنى بجمعها الحافظ المتفنِّن أبو الحسين الدَّارقطني رحمه الله ، ودوَّن بعض المتكلَّمين جملة منها لمقصد التَّأويل .

وشدَّد النكير في ذلك أيمَّة المحدِّثين ، يؤثر عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، أنَّه قال : آيات الصِّفات ، وأحاديث الصِّفات صناديق مُقفلة ، مفاتيحها بيد الله ، تأويلها تلاوتها ، وعلى ذلك أيمَّة الفقهاء وفتياهم لعامَّة المؤمنين .

والذي أجمعت عليه الصَّحابة ولقّنته العرب كلّها أنَّ ورود ذلك من الله ، ومن رسوله ، ومن الأيمَّة ، إنَّما لمقصد الإفهام ، لا لقصد الإعلام ، فلذلك لم تستشكل الصَّحابة منه شيئاً قط ، بل كلَّما كان وارده عليهم أكثر ، كانوا به أفرح ، وللخطاب به أفهم ، حتى قال بعضهم ، لما ذكر النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "أنَّ الله يضحك من عبده" لانعدم الخير من ربٍّ يضحك . وهم وسائر العلماء بعدهم صنفان :

إمَّا متوقِّف عنه في حد الإيمان ، قانع بما أفاد من الإفهام .

وإمَّا مفتوح عليه بما هو هو في صفاء الإيقان ، وذلك أنَّ الله ، سبحانه ، تعرَّف لعباده في الأفعال والآثار في الآفاق ، وفي أنفسهم تعليماً ، وتعرَّف للخاصَّة منهم بالأوصاف العليا والأسماء الحسنى ، ممَّا يمكنهم اعتباره تعجيزاً ، فجاوزوا حدود التَّعلُّم بالإعلام إلى عجز الإدراك ، فعرفوا أن لا معرفة لهم . وذلك هو حدُّ العرفان ، وإحكام قراءة هذا الحرف المتشابه في منزل القرآن ، وتحققوا أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ فتهدفوا بذلك لما يفتحه الله على من يحبّه من صفاء الإيقان ، والله يُحبُّ المحسنين " . انظر : تراث أبي الحسن الحَرَالِّي المراكشي في التفسير (١/ ٨٢-٨٦ باختصار) .

وقال الإمام عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني ، البغدادي ثُمَّ المصري (٦٥٤هـ) : " ... والضّرب الثَّالث من المبالغة : إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة ، والإخبار عنه مجاز ، كقول من رأى موكباً عظيماً أو جيشاً خضمَّاً : جاء الملك نفسه وهو يعلم حقيقة أنَّ ما جاء جيشه ، وقد جاء من ذلك في

الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والملك صَفًّاً صَفًّاً﴾ فجعل مجيء جلائل آياته مجيئاً له سبحانه " . انظر : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن (ص١٥١) .

وقال الإمام زين الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرَّازي (٦٦٦هـ) : " ... فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ الانتقال والحركة على الله محالان لأنَّهما من خواصِّ الكائن في جهة ؟

قلنا : قال ابن عَبَّاس رضى الله عنهما ، وجاء أمر ربِّك ، لأنَّ في القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ ، وقيل : معناه وجاء ظهور ربِّك لضرورة معرفته يوم القيامة ، ومعرفة الشَّيء بالضَّرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، فمعناه : زالت الشُّكوك وارتفعت الشُّبهة ، كما ترتفع عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكّ فيه " . انظر : أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل (ص٥٧١) .

وقال الإمام أبو عبد الله القرطبي (٦٧١ هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ: أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ، قَالَهُ الْحَسَنُ. وَهُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ. وَقِيلَ: أَيْ جَاءَهُمُ الرَّبُّ بِالْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، أَيْ بِظُلَلٍ. وَقِيلَ: جَعَلَ مَجِيءَ الْآيَاتِ مَجِيئًا لَهُ، تَفْخِيمًا لِشَأْنِ تِلْكَ الْآيَاتِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ: (يَا بْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، وَاسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، وَاسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي). وَقِيلَ: ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ زَالَتِ الشُّبَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَصَارَتِ الْمَعَارِفُ ضَرُورِيَّةً، كَمَا تَزُولُ الشُّبَهُ وَالشَّكُّ عِنْدَ مَجِيءِ الشَّيءِ الَّذِي كَانَ يُشَكُّ فِيهِ. قَالَ أَهْلُ الْإِشَارَةِ: ظَهَرَتْ قُدْرَتُهُ وَاسْتَوْلَتْ ، وَاللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَا يُوصَفُ بِالتَّحَوُّلِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَأَنَّى لَهُ التَّحَوُّلُ وَالِانْتِقَالُ، وَلَا مَكَانَ لَهُ وَلَا أَوَانَ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ وَقْتٌ وَلَا زَمَانٌ، لِأَنَّ فِي جَرَيَانِ الْوَقْتِ عَلَى الشَّيء فَوْتُ الْأَوْقَاتِ، وَمَنْ فاته شي فَهُوَ عَاجِزٌ" . انظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ٥٥) .

وقال الإمام القُرافي (٦٨٤هـ) : " فَفِي الْقُرْآنِ ﴿وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر : ٢٢] فَعَبَّرَ – تَعَالَى – عَنْ أَمْرِهِ الْوَارِدِ مِنْ قِبَلِهِ بِاللَّفْظِ الْخَاصِّ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ مِنْ بَابِ إطْلَاقِ لَفْظِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ وَلَفْظِ الْمُؤَثِّرِ عَلَى الْأَثَرِ ، وَهُوَ مَجَازٌ مَشْهُورٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَمَسْطُورٌ فِي كُتُبِ الْمَجَازِ وَالْحَقِيقَةِ وَفِي التَّوْرَاةِ جَاءَ اللهُ مِنْ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعَيْنِ وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ إشَارَةً إلَى التَّوْرَاةِ النَّازِلَةِ بِطُورِ سَيْنَاءَ وَالْإِنْجِيلِ النَّازِلِ بِسَاعَيْنِ مَوْضِعٌ بِالشَّامِ وَالْقُرْآنِ النَّازِلِ بِمَكَّةَ وَاسْمُهَا فَارَانُ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ أَنَّ الْحَقَّ جَاءَ مِنْ سَيْنَاءَ ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ وَكَثُرَ ظُهُورُهُ وَعَلَنُهُ بِتَقْوِيَةِ الْإِنْجِيلِ لَهُ فَإِنَّ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلام – بُعِثَ لِنُصْرَةِ التَّوْرَاةِ وَتَقْوِيَتِهَا وَإِرَادَةِ الْعَلَانِيَةِ وَالظُّهُورِ ، وَاسْتُكْمِلَ الْحَقُّ وَاسْتُوْفِيَتْ الْمَصَالِحُ وَوَصَلَ الْبَيَانُ وَالْكَمَالُ فِي الشَّرْعِ إلَى أَقْصَى غَايَاتِهِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْكُتُبُ بِاسْمِ اللهِ – تَعَالَى؛ لِأَنَّهَا مِنْ جِهَتِهِ وَقِبَلِهِ عَلَى الْمَجَازِ كَمَا تقدَّم ... " . انظر : الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٤/ ٢٤٦-٢٤٧) ، (٤/ ٢٧٢) .

وقال الإمام ناصر الدِّين البيضاوي (٦٨٥هـ) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ أي : ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السُّلطان من آثار هيبته وسياسته " . انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٣١١) .

وقال الإمام النَّسفي (٧١٠هـ) : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قهره وسلطانه ، فإنَّه واحداً من الملوك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره وخواصِّه ، وعن ابن عَبَّاس : أمره وقضاؤه " . انظر : تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) (٣/ ٦٤١) .

وقال الإمام ابن الحاج (٧٣٧هـ) : " ... كَمَا يُصْنَعُ بِمَا جاءَ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ التَّشبيه ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَالْإِتْيَانِ فِي قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة : ٢١٠] ، وَالْمَجِيءِ فِي قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر : ٢٢] ، انْتَهَى . وَذَلِكَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ﴾ [البقرة : ٢١٠] أَيْ عَذَابُهُ ، وَنِقْمَتُهُ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ ، وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِهِ ، وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ ، وَجَاءَ رَبُّكَ .

الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الظُّهُورَ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الدُّنيا ، وَالْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وإِنَّمَا الْحِجَابُ مِنَّا ، فَإِذَا كَشَفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحِجَابَ عَنَّا ظَهَرَ لَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ غَيْرِ حَدٍّ ، وَلَا تَكْيِيفٍ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ الصُّورَةِ ، وَالْكَيْفِيَّةِ " . انظر : المدخل (٢/ ١٤٨) .

وقال الإمام محمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عمر ، أبو المعالي ، جلال الدِّين القزويني الشَّافعي ، المعروف بخطيب دمشق (٧٣٩هـ) : " ... وأدلة الحذف كثيرة ، منها : ... ومنها أن يدلَّ العقل على الحذف والتَّعيين . كقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، أي أمر ربِّك أو عذابه أو بأسه ، وقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ أي : عذاب الله أو أمره " . انظر : الإيضاح في علوم البلاغة (٣/ ١٩٥) .

وقال الإمام ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ) : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ تأويله عند المتأوِّلين : جاء أمره وسلطانه . وقال المنذر بن سعيد : معناه : ظهوره للخلق هنالك . وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل " . انظر : التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٨١) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ اعلم أنَّ هذه الآية من آيات الصِّفات التي سكت عنها وعن مثلها عامَّة السَّلف وبعض الخلف ، فلم يتكلَّموا فيها وأجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ، وقالوا : يلزمنا الإيمان بها وأجراؤها على ظاهرها ، وتأوَّلها بعض المتأخِّرين ، وغالب المتكلِّمين ، فقالوا : ثبت بالدَّليل العقلي أنَّ الحركة على الله محال ، فلا بدَّ من تأويل الآية .

فقيل في تأويلها : وجاء أمر ربِّك بالمحاسبة والجزاء .

وقيل : جاء أمر ربِّك وقضاؤه .

وقيل : وجاء دلائل آيات ربِّك فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لتلك الآيات " . انظر : تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل (٧/ ٢٤٦) .

وقال الإمام شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطِّيبي (٧٤٣هـ) : " واعلم أنَّ للنَّاس فيما جاء من صفات الله ما يشبه صفات المخلوقين تفصيلاً ، وذلك أنَّ المتشابه قسمان : قسم يقبل التَّأويل ، وقسم لا يقبله ، بل علمه مختصٌّ بالله تعالى ، ويقفون عند قوله : **﴿ومَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ﴾** كالنَّفس في قوله تعالى : **﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ولا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾** والمجيء في قوله : **﴿وجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾** وتأويل فواتح السور ، مثل **﴿حَمْ﴾** و **﴿الم﴾** من هذا القبيل " . انظر : شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) (٣/ ٥٤٣) .

وقال الإمام أبو حيَّان الأندلسي (٧٤٥هـ) : **﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾** ، قَالَ الْقَاضِي مُنْذِرُ بْنُ سَعِيدٍ : مَعْنَاهُ ظُهُورُهُ لِلْخَلْقِ هُنَالِكَ ، وَلَيْسَ بِمَجِيءِ نُقْلَةٍ ، وَكَذَلِكَ مَجِيءُ الطَّامَّةِ وَالصَّاخَّةِ . وَقِيلَ : وَجَاءَ قُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ . وَقَالَ الزَّمخشري : هُوَ تَمْثِيلٌ لِظُهُورِ آيَاتِ اقْتِدَارِهِ وَتَبْيِينِ آثَارِ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، مُثِّلَتْ حَالُهُ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ ظَهَرَ بِحُضُورِهِ مِنْ آثَارِ الْهَيْبَةِ وَالسِّيَاسَةِ مَا لَا يَظْهَرُ بِحُضُورِ عَسَاكِرِهِ كُلِّهَا وَوُزَرَائِهِ وَخَوَاصِّهِ " . انظر : البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٧٥) .

وقال الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم ، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللهَّ (٧٤٥هـ) : " ... وذلك أن ندرك من الكلام ما يوقفنا على أمور تشعرنا بالتَّفرقة بينهما ، وذلك من أوجه أربعة : ... " وثالثها " : أنَّهم إذا علَّقوا الكلمة بما يستحيل عقلاً تعلّقها به ، علم أنَّهَا في أصل اللغة غير موضوعة لها فيعلم كونها مجازاً فيها ، وهذا كقوله تعالى في النُّقصان : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، فإنَّه يستحيل عقلاً تعلُّق المجيء بالذَّات ، لاستحالته عليها ، فيعلم أنَّ استعمالها مجاز بالنُّقصان ، وأنَّ الأصل وجاء أمر ربِّك " . انظر : الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٥١) .

وقال الإمام ابن عادل الحنبلي الدِّمشقي النُّعماني (٧٧٥هـ) : " قوله : **﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾** ، أي : جاء أمره وقضاؤه . قاله الحسن ، وهو من باب حذف المضاف .

وقيل : جاءهم الرَّبُّ بالآيات ، كقوله تعالى : **﴿إلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام﴾** [البقرة : ٢١٠] ، أي : بظلل .

وقيل : جعل مجيء الآيات مجيئاً له ، تفخيماً لشأن تلك الآيات ، كقوله تعالى في الحديث : " يَا ابْنَ آدم مَرضتُ فلَمْ تعُدنِي ، واسْتسْقَيتُكَ فَلَمْ تَسقِنِي ، واسْتطعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي " .

وقيل : زالت الشُّبَه ، وارتفعت الشُّكوك ، وصارت المعارف ضروريَّة ، كما تزول الشُّبَه والشُّكوك عند مجيء الشَّيء الذي كان يشكُّ فيه ، وقيل : وجاء قهر ربِّك ، كما تقول : جاءتنا بنو أميَّة ، أي : قهرهم .

قال أهل الإشارة : ظهرت قدرته واستوت ، والله – سبحانه وتعالىٰ – لم يوصف بالتَّحوُّل من مكان إلىٰ مكان ، وأنَّىٰ له التَّحوُّل والانتقال ، ولا مكان ولا أوان ، ولا يجري عليه وقت ولا زمان ؛ لأنَّ في جريان الوقت علىٰ الشَّيء فوات الأوقات ، ومن فاته الشَّيء ، فهو عاجز " . انظر : اللباب في علوم الكتاب (٢٠/ ٣٣١) .

وقال الإمام عضد الدِّين الإيجي (٧٥٦هـ) : " وَجَاءَ رَبُّكَ " أي : أمره " . انظر : كتاب المواقف (٣/ ٣٨) .

وقال الإمام الزَّركشي (٧٩٤هـ) : " قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾** قِيلَ : اسْتِعَارَةُ الْوَاوِ مَوْضِعَ الْبَاءِ لِمُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُمَا فِي مَعْنَىٰ الْجَمْعِ إِذِ الْبَاءُ مَوْضُوعَةٌ لِلْإِلْصَاقِ وَهُوَ جَمْعٌ وَالْوَاوُ مَوْضُوعَةٌ لِلْجَمْعِ وَالْحُرُوفُ يَنُوبُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَتَقُولُ عُرْفاً : جَاءَ الْأَمِيرُ بِالْجَيْشِ إِذَا كَانَ مَجِيئُهُمْ مُضَافاً إِلَيْهِ بِتَسْلِيطِهِ أَوْ بِأَمْرِهِ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلَكَ إِنَّمَا يَجِيءُ بِأَمْرِهِ عَلَىٰ مَا قَالَ تَعَالَىٰ : **﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ﴾** فَصَارَ كَمَا لَوْ صَرَّحَ بِهِ وَقَالَ : جَاءَ الملك بأمر ربِّك وهو كقوله : **﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾** أَيِ : اذْهَبْ أَنْتَ بِرَبِّكَ أَيْ بِتَوْفِيقِ رَبِّكَ وَقُوَّتِهِ ، إِذْ مَعْلُومٌ أَنَّه إِنَّمَا يُقَاتِلُ بِذَلِكَ مِنْ حَيْثُ صَرْفُ الْكَلَامِ إِلَىٰ الْمَفْهُومِ فِي الْعُرْفِ " . انظر : البرهان في علوم القرآن (٢/ ٨٣-٨٤) .

وقال الإمام الزركشي أيضاً : " وَقَدْ يَخْرُجُ الْكَلَامُ مَخْرَجَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْأَعْظَمِ الأكبر للمبالغة وَهُوَ مَجَازٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾** ،ف جَعَلَ مَجِيءَ جَلَائِلِ آيَاتِهِ مَجِيئاً لَهُ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الْمُبَالَغَةِ " . انظر : البرهان في علوم القرآن (٣/ ٥٣) .

وقال الإمام الزركشي أيضاً : " ... وَمِنْهَا : أَنْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهِمَا أَيْ عَلَىٰ الْحَذْفِ وَالتَّعْيِينِ كَقَوْلِهِ تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** ،أَيْ أَمْرُهُ أَوْ عَذَابُهُ أَوْ مَلَائِكَتُهُ لأنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَىٰ أَصْلِ الْحَذْفِ وَلِاسْتِحَالَةِ مَجِيءِ البارئ عَقْلاً لأنَّ الْمَجِيءَ مِنْ سِمَاتِ الْحُدُوثِ وَدَلَّ الْعَقْلُ أيضاً عَلَىٰ التَّعْيِينِ وَهُوَ الْأَمْرُ وَنَحْوُهُ وَكَلَامُ الزَّمخشري يَقْتَضِي أَنَّه لَا حَذْفَ أَلْبَتَّةَ ، فَإِنَّهُ قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَمْثِيلٌ مَثَّلَتْ حَالَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ بِحَالِ الْمَلِكِ إِذَا حَضَرَ بِنَفْسِهِ " . انظر : البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٠٩) .

وقال الإمام الزَّركشي أيضاً : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾** ، أَيْ : أَمْرُ رَبِّكَ " . انظر : البرهان في علوم القرآن (٣/ ١٤٨) .

وقال الإمام الزَّركشي الشَّافعي أيضاً : " أنَّ كلّ ما ورد في الكتاب والسُّنَّة الصَّحيحة من الصِّفات اللائقة بجلاله ، نعتقد ظاهر المعنىٰ وما ورد فيهما من المشكل ممَّا ظاهره الاتصاف بالحدوث والتَّغيُّر كقوله تعالىٰ : **﴿وجاء ربك والملك﴾** ، وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((ينزل ربُّنا كل ليلة)) ، فإنَّا ننزِّه الله تعالىٰ عند سماعه عمَّا لا يليق به .

وللعلماء فيه مذهبان مشهوران ، فمنهم من يفوِّض علمه إلىٰ الله تعالىٰ ويسكت عن التَّأويل بشرط الجزم بالتَّنزيه والتَّقديس ، واعتقاد عدم إرادة الظَّواهر المفضية للحدوث والتَّشبيه ، وهذا مذهب السَّلف رحمهم الله تعالىٰ ، ولهذا يقفون علىٰ قوله تعالىٰ : **﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾** ثُمَّ يبتدئون **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِه ﴾** ، وقالوا : أمرُّوها كما جاءت بلا كيف ، فقولهم : كما جاءت ردٌّ علىٰ المعطِّلة ، وقولهم بلا كيف ردٌّ علىٰ المشبِّهة ، ومنهم من يقول بالتَّأويل وهو مذهب الخلف ، وشرطوا كون التَّأويل لإيفاء بجلال الله تعالىٰ وكون المؤول متَّسعاً في لغة العرب ... " . انظر : تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدِّين السبكي (٤/ ٦٧٦-٦٧٧) .

وقال الإمام الزركشي أيضاً : " ... وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ " مِنْهَاجِ الْوُصُولِ " عَنْ أَحْمَدَ أَنَّه قَالَ فِي قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] أَيْ : أَمْرُ رَبِّك " . انظر : البحر المحيط في أصول الفقه (٥/ ٤٣) .

وقال الإمام سعد الدِّين مسعود بن عمر بن عبد الله التَّفتازاني (٧٩٣هـ) : " وأمَّا القائلون بحقيقة الجسميَّة والحيِّز والجهة فقد بنوا مذهبهم علىٰ قضايا وهميَّة كاذبة تستلزمها ، وعلىٰ ظواهر آيات وأحاديث تُشعر بها ، أمَّا الأوَّل فكقولهم ... وأمَّا الثَّاني فكقوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** ... والجواب أنَّهَا ظنيَّات سمعيَّة في معارضة قطعيَّات عقليَّة ، فيقطع بأنَّها ليست علىٰ ظواهرها ، ويفوَّض العلم بمعانيها إلىٰ الله تعالىٰ مع اعتقاد حقيقتها جرياً علىٰ الطَّريق الأسلم الموافق للوقف علىٰ إلَّا الله في قوله تعالىٰ : **﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾** ، أو تأوَّل تأويلات مناسبة موافقة لما عليه الأدلَّة العقليَّة ، علىٰ ما ذكر في كتب التَّفاسير وشروح الأحاديث ، سلوكاً للطريق الأحكم الموافق للعطف في إلَّا الله **﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾** ... " . انظر : شرح المقاصد في علم الكلام (٢/ ٦٦-٦٧) .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني (٧٩٢هـ) : " ... ومنها أن يدلَّ العقل عليهما " أي : علىٰ الحذف وتعيين المحذوف نحو **﴿وَجَاءَ رَبُّك﴾** فالعقل يدلُّ علىٰ امتناع مجيء الرَّب تعالىٰ وتقدَّس ، ويدلُّ علىٰ تعيين المراد أيضاً . " أي أمره أو عذابه " فالأمر المعيَّن الذي دَّل عليه العقل هو أحد الأمرين لا أحدهما علىٰ التَّعيين " . انظر : مختصر المعاني (ص١٦٥) .

وقال الإمام سعد الدِّين التَّفتازاني أيضاً : " فصل في بيان معنىٰ آخر يطلق عليه لفظ المجاز علىٰ سبيل الاشتراك أو التَّشابه : (وقد يطلق المجاز علىٰ كلمة تغير حكم اعرابها) أي : حكمها الذي هو الإعراب علىٰ أنَّ الإضافة للبيان ، أي : تغيّر إعرابها من نوع إلىٰ نوع آخر (بحذف لفظ أو زيادة لفظ) فالاول "كقوله تعالىٰ : **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** ، وقوله تعالىٰ : **﴿وَاسْئَل الْقَرْيَةَ﴾** ، و الثَّاني مثل قوله تعالىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾** ، أي : جاء " أمر ربك " لاستحالة المجيء علىٰ الله تعالىٰ " . انظر : مختصر المعاني (ص٢٤١) .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) : " ... وقال : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾ [الفجر :٢٢] ، ولم يتأوَّل الصَّحابة ولا التَّابعون شيئاً من ذلك ، ولا أخرجوه عن مدلوله ، بل روي عنهم؛ يدلُّ على تقريره والإيمان به وامراره كما جاء؟

وقد روي عن الإمام أحمد ، أنَّه قال في مجيئه : هو مجيء أمره ، وهذا ممَّا تفرَّد به حنبل عنه .

فمن أصحابنا من قال : وهم حنبل فيما روى ، وهو خلاف مذهبه المعروف المتواتر عنه ، وكان أبو بكر الخلال وصاحبه لا يثبتان بما تفرد به حنبل ، عن أحمد رواية .

ومن متأخِّريهم من قال : هو رواية عنه ، بتأويل كلّ ما كان من جنس المجيء والإتيان ونحوهما .

ومنهم من قال : إنَّما قال ذلك إلزاماً لمن ناظره في القرآن ، فأنَّهم استدُّلوا على خلقه بمجيء القرآن ، فقال : إنَّما يجيء ثوابه ، كقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، أي : كما تقولون أنتم في مجيء الله ، أنَّه مجيء أمره ، وهذا أصح المسالك في هذا المروي ، وأصحابنا في هذا على ثلاث فرق :

فمنهم من يثبت المجيء والإتيا ن ، ويصرِّح بلوازم ذلك في المخلوقات ، وربَّما ذكروه عن أحمد من وجوه لا تصحُّ أسانيدها عنه .

ومنهم من يتأوَّل ذلك على مجيء أمره .

ومنهم من يقرُّ ذلك ، ويمرّه كما جاء ، ولا يفسِّره ، ويقول : ه ومجيء وإتيان يليق بجلال الله وعظمته سبحانه ، وهذا هو الصَّحيح عن أحمد ، ومن قبله من السَّلف ، وهو قول إسحاق وغيره من الأئمَّة " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٢٨-٢٣٠) .

وقال الإمام ابن رجب الحنبلي أيضاً : " ومن جملة صفات الله التي نؤمن بها ، وتمرُّ كما جاءت عندهم : قوله تعالى :﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾ [الفجر :٢٢] ونحو ذلك ممَّا دلَّ على إتيانه ومجيئه يوم القيامة ، وقد نصَّ على ذلك أحمد وإسحاق ، وغيرهما .

وعندهما : أنَّ ذلك من أفعال الله الاختياريَّة التي يفعلها بمشيئته واختياره . وكذلك قاله الفضيل بن عياض وغيره من مشايخ الصُّوفيَّة أهل المعرفة .

وقد ذكر حرب الكرماني أنَّه أدرك على هذا القول كلّ من أخذ عنه العلم في البلدان ، سمَّى منهم : أحمد وإسحاق والحميدي وسعيد بن منصور .

وكذلك ذكره أبو الحسن الأشعري في كتابه المسمَّىٰ بـ – الإبانة – ، وهو من أجلِّ كتبه ، وعليه يعتمد العلماء وينقلون منه ، كالبيهقي ، وأبي عثمان الصَّابوني ، وأبي القاسم ابن عساكر ، وغيرهم ، وقد شرحه القاضي أبو بكر ابن الباقلاني " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٣٦) .

وقال الإمام الفيروزآبادىٰ (٨١٧هـ) : " بصيرة في المجيء والجيئة : وقد ورد في القرآن علىٰ خمسة عشر وجهاً :

الأَوَّلُ : جَيْئة الهَيْبة من الملِك والملَك **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والملك صَفّاً صَفّاً﴾** ... والجَيْئة والمجيء بمعنىٰ الإتيان لكن المجيء أَعمّ ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة ، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصولُ ، والمجيء يقال اعتباراً بالحصول .

وقد يقال : جاءَ في الأَعيان والمعاني ، وربّما يكون مجيئهُ بذاته وبأَمره ، ولمن قصد مكاناً أَو عملاً أَو زماناً قال تعالىٰ **﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات﴾** ، **﴿فَإِذَا جَاءَ الخوف﴾** ، **﴿فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾** أَي : قصدوا الكلام وتعمّدوهُ ، فاستعمل فيه المجيء كما استعمل فيه القصد . وقوله تعالىٰ **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** فهذا بالأَمر لا بالذّات ، وهو قول ابن عَبَّاس . ويقال : جاء بكذا وأَجاءَه . قال تعالىٰ : **﴿فَأَجَآءَهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة﴾** قيل أَلجأَها ... " .

انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ٤١١-٤١٣ باختصار) .

وقال الإمام ولي الدِّين أبي زرعة أحمد بن عبد الرَّحيم العراقي (٨٢٦هـ) : " لاَ تَنْحَصِرُ صِفَاتُ اللهَّ العَلِيَّةِ فِي الثَّمانيةِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُهَا ، بَلْ نقولُ بِكُلِّ مَا وَرَدَ فِي الكتَابِ أَو السُّنَّةِ الصّحيحةِ ، ثُمَّ إِنْ كَانَ ظَاهِرُ المَعْنَىٰ لاَ إِشكَالَ فِيهِ اعتقدنَاه كَما وَرَدَ .

وإِن كَانَ مُشْكِلَ المَعْنَىٰ يُوهِمُ ظَاهِرُه الحُدُوثَ أَو التّغيُّرَ ، كَقَوْلِهِ تعَالَىٰ : **﴿وجَاءَ رَبُّكَ﴾** ، وقولِهِ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلام : " يَنْزِلُ رَبُّنَا فِي كُلّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنيا " فإِنَا نُنَزِّهُ اللهَّ تعَالَىٰ عِنْدَ سماعِه عَمَّا لاَ يَلِيقُ بِهِ ، ولأَئمتِنَا فِيهِ مَذْهَبَانِ مشهورَانِ .

أَحَدُهُما : تفويضُ المُرَادِ مِنْهُ إِلَىٰ اللهَّ تعَالَىٰ ، وَالسكُوتُ عَنِ التَّأْوِيلِ مَعَ الجَزْمِ بِأَنَّ الظّواهرَ المُؤَدِّيَةَ إِلَىٰ الحدوثِ أَو التَّشبيه غَيْرُ مُرَادَةٍ وهو مذهبُ السَّلف ، وسُئِلَ مَالِكٌ-رَحِمَهُ اللهُّ-عَنْ قَوْلِهِ تعَالَىٰ : **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾** فقَالَ : الاستوَاءُ معلومٌ ، وَالكَيْفُ مجهولٌ ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجبٌ ، وَالسؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ .

وقَالَ التِّرمذي فِي الكلاَمِ علَىٰ حديثِ الرّؤْيَةِ : المذهبُ فِي هذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ الأَئمةِ مِثْلُ سُفْيَانَ الثّوْرِيِّ ومَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَابْنِ المُبَارَكِ وسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَوَكِيعٍ وَغَيْرِهم : أَنَّهُمْ قَالُوا : تُرْوَىٰ هذه الأَحَاديثُ كَمَا جاءَتْ ، ونُؤْمِنُ بِهَا ، ولاَ يُقَالَ : كيفَ؟ ولاَ نُفَسِّرُ ولاَ نَتوَهَّمُ ، وهو الذي اختَارَه أَهْلُ الحديثِ .

ثَانِيهُمَا : أَنَّا نُؤَوِّلُهَا علَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلاَلِ اللهَّ تعَالَىٰ بِشَرْطِ كَوْنِ المُتَأَوِّلِ مُتَّسِعاً فِي لُغَةِ العربِ .

وَقَدْ قِيلَ : مَذْهَبُ السَّلف فِي هذَا أَسْلَمُ ، ومذهبُ الخَلَفِ أَحْكَمُ لِزَعْمِ قَائِلِه : أَنَّه وَقَفَ عَلَىٰ المُرَادِ وَاهتدَىٰ إِلَيْهِ بِالدليلِ ، أَوْ أُعْلِمَ لِتَوَقُّفِهِ عَلَىٰ زِيَادةِ عِلْمٍ وَاتسَاعٍ فِيهِ .

وكَانَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ يَذْهَبُ إِلَىٰ التَّأْوِيلِ أَوَّلاً ثُمَّ رَجِعَ عَنْهُ فَقَالَ فِي الرِّسَالةِ النِّظَامِيَّةِ : وَالذي نَرْتَضِيهِ رَأْياً ونَدِينُ اللهَّ بِهِ عَقْداً اتبَاعُ سَلَفِ الأُمَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ دَرَجُوا عَلَىٰ تَرْكِ التّعَرُّضِ لمعَانِيهَا .

وقَالَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين بْنُ عبدِ السَّلام : طريقةُ التَّأْوِيلِ بِشرطِه أَقربُهَا إِلَىٰ الحَقِّ .

وتَوَسَّطَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّين بْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ فقَالَ : إِذَا كَانَ التَّأْوِيلُ قريباً علَىٰ مَا يقتضِيه لِسَانُ العربِ لمْ يُنْكَرْ ، وإِنْ كَانَ بَعِيداً تَوَقَّفْنَا عَنْهُ ، وآمَنَّا بِمَعْنَاه علَىٰ الوَجْهِ الذي أُرِيدَ بِهِ مَعَ التَّنْزِيه .

قَدْ : ومَا كَانَ معنَاه مِنْ هذه الأَلْفَاظِ ظَاهراً مفهوماً مِنْ تَخَاطُبِ العربِ قُلْنَا بِهِ وأَوَّلْنَاهُ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ ..." . انظر : الغيث الهامع شرح جمع الجوامع (ص٧٤١-٧٤٣) .

وقال الإمام ابن الوزير (٨٤٠هـ) : " ... وقال تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] أي : أمر ربِّك " . انظر : العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٥/ ٢٢٦) ، (٥/ ٢٣١) .

وقال الإمام نظام الدِّين الحسن بن محمَّد بن حسين القمِّي النَّيسابوري (٨٥٠هـ) : " قوله : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ أي : أمره بالجزاء والحساب أو قهره أو دلائل قدرته . ويجوز أن يكون تمثيلاً لهول ذلك اليوم كما إذا حضر الملك بنفسه وجنوده كان أهيب " . انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٤٩٨-٤٩٩) .

وقال الإمام كمال الدِّين محمَّد بن عبد الواحد السِّيواسي المعروف بابن الهمام (٨٦١هـ) : " قَوْله تَعَالَىٰ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] أَيْ : أَمْرُ رَبِّك " . انظر : فتح القدير (٩/ ١٥٧) .

وقال الإمامان : جلال الدِّين المحلي (٨٦٤هـ) ، وجلال الدِّين السُّيوطي (٩١١هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبّك﴾ أَيْ : أَمْره " . انظر : تفسير الجلالين (ص٨٠٧) .

وقال الإمام الثعالبي (٨٧٥هـ) : " وقوله تعالىٰ : ﴿وَجاءَ رَبُّكَ﴾ معناه جَاءَ أَمرُهُ وقضاؤه ، وقال منذرُ بنُ سعيد : معناه ظهورُه للخَلْقِ ، هنالك ليس مجيءَ نَقَلةٍ وكذلك مجيءُ الصاخَّةِ ، ومجِيء الطامةِ " . انظر : الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٥٨٨) .

وقال الإمام البقاعي (٨٨٥هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : أمر المحسن إليك بإظهار رفعتك العظمىٰ في ذلك اليوم الأعظم لفصل القضاء بين العباد بشفاعتك ﴿وَالمَلَكُ﴾ أي : هذا النَّوع حال كون الملائكة مصطفين ﴿صَفّاً صَفّاً﴾ أي : موزعاً اصطفافهم علىٰ أصنافهم كلّ صنف صف علىٰ حدة ، ويحيط أهل السَّماء الدُّنيا بالجنِّ والإنس ، وأهل كلّ سماء كذلك ، وهم علىٰ الضّعف ممَّن أحاطوا به حتىٰ يحيطوا أهل السَّماء السَّابعة بالكلِّ وهم علىٰ الضعف من

جميع من أحاطوا به من الخلائق ، ومعنىٰ مجيئه سبحانه وتعالىٰ بعد أن ننفي عنه أن يشبه مجيء شيء من الخلق ، لأنَّه سبحانه وتعالىٰ ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإذا صحَّحنا العقد في ذلك في كلِّ ما كان من المتشابه ، قلنا في هذا إنَّه مثل أمره سبحانه وتعالىٰ في ظهور آيات اقتداره وتبيين آثار قدرته وقهره وسلطانه بحال الملك إذا حضر بنفسه فظهر بحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بظهور عساكره كلّها خالية عنه ، فمجيئه عبارة عن حكمه وإظهار عظمته وبطشه وكلّ ما يظهره الملوك إذا جاؤوا إلىٰ مكان ، وهو سبحانه وتعالىٰ شأنه حاضر مع المحكوم بينهم بعلمه وقدرته ، لم يوصف بغيبة أصلاً أزلاً ولا أبداً ، فحضوره في ذلك الحال وبعده كما كان قبل ذلك من غير فرق أصلاً ، ولم يتجدَّد شيء غير تعليق قدرته علىٰ حسب إرادته بالفصل بين الخلق ، ولو غاب في وقت أو أمكنت غيبته بحيث يحتاج إلىٰ المجيء لكان محتاجاً ، ولو كان محتاجاً لكان عاجزاً ، ولو عجز أو أمكن عجزه في حال من الأحوال لم يصلح للالهيَّة – تعالىٰ الله عمَّا يقول الظَّالمون والجاحدون علوَّاً كبيراً " . انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٨/ ٤٢١) .

وقال الإمام الإِيجي الشَّافعي (٩٠٥هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ : لفصل القضاء جيئة تليق بقدُسه من غير حركة ونقلة " . انظر : تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٤٨٧-٤٨٨) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " وأمَّا : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ : أَمْرُهُ ف،َإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ الْمُشَاهَدَةُ " . انظر : الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٦٥) .

وقال الإمام السيوطي أيضاً : " ... وَمِنْ ذَلِكَ صِفَةُ الْمَجِيءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، ﴿أو يَأتِيَ رَبُّك﴾ أَيْ : أَمْرُهُ لأنَّ الْمَلَكَ إِنَّمَا يَأْتِي بِأَمْرِهِ أَوْ بِتَسْلِيطِهِ كَمَا قَالَ : تَعَالَىٰ : ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فَصَارَ كَمَا لَوْ صَرَّحَ بِهِ ، وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا﴾ أَيْ : اذْهَبْ بِرَبِّكَ أَيْ بِتَوْفِيقِهِ وَقُوَّتِهِ " . انظر : الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢) .

وقال الإمام السُّيوطي أيضاً : " ... ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ : أَمْرُهُ بِمَعْنَىٰ عَذَابِهِ ، لأنَّ الحق دَلَّ عَلَىٰ اسْتِحَالَةِ مَجِيءِ الْبَارِئِ لأنَّه مِنْ سِمَاتِ الْحَادِثِ وَعَلَىٰ أن الجائي أمره " . انظر : الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١٩٥) .

وقال الإمام السُّيوطي أيضاً : " ...ومن ذلك صفة المجيء في قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّك﴾ [الفجر : ٢٣] . " أو يأتي رَبُّك " ، أي : أمره ، لأنَّ الملك مجيء بأمره أو بتسليطه ، كما قال تعالىٰ : " وهم بأمره يَعْمَلُون " ، فصار كما لو صرَّح به . وكذا قوله : ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، أي : اذهب بربِّك ، أي بتوفيقه وقربه " . انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (١/ ١١٥) .

وقال الإمام السُّيوطي أيضاً : " ... ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، أي أمره ، بمعنىٰ عذابه ، لأنَّ العقل دلَّ علىٰ استحالة مجيء الباري ، لأنَّه من سمات الحادث ، وعلىٰ أنَّ الجائي أمره " . انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (١/ ٢٣٥٠٢٣٦) .

وقال الإمام السُّيوطي أيضاً : " ... وأمَّا ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، أي : أمره ، فإنَّ المراد به أهوال القيامة والمشاهدة " . انظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ويُسمَّىٰ (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) (٣/ ٤٨٦) .

وقال الإمام زكريَّا بن محمَّد بن أحمد بن زكريَّا الأنصاري السّنيكي (٩٢٦هـ) : " قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، أي : أمر ربِّك " . انظر : إعراب القرآن العظيم (ص٥٥٩) .

وقال الإمام زكريَّا بن محمَّد بن أحمد بن زكريَّا الأنصاري السّنيكي أيضاً : " قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : أمرُه " . انظر : فتح الرَّحْمَن بكشف ما يلتبس في القرآن (ص٦١١) .

وقال الإمام أبو الحسن المالكي (٩٣٩هـ) : " قال تعالىٰ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ وعدل عن لفظ الآية وعبَّر بالمستقبل قصد بذلك تفسيرها ، لأنَّ العرب تعبر بالماضي عن المستقبل إذا تحقَّق وقوعه وإسناد المجيء إليه تعالىٰ مصروف عن ظاهره إجماعاً ، إذ يستحيل عليه الجهات والأمكنة والتَّحوُّل ، فالسَّلف الصَّالح قالوا : هذا من السِّر المكتوم الذي لا يفَّسر ، وكان مالك وغيره يقول في هذه الآية وأمثالها : اقرؤوها كما جاءت بلا كيف ، وجمهور المتكلِّمين أوَّلها ، فمنهم من قال : معنىٰ مجيئه تعالىٰ ظهوره ، لأنَّ الظُّهور في العادة لا يكون إلَّا بمجيء وانتقال ، فعبَّر عن المسبَّب باسم السَّبب ، ومنهم من قال : جاء أمره ونهيه ، فهو من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وأوَّل يوم القيامة من النَّفخة الثانية إلىٰ استقرار الخلق في الدَّارين الجنَّة والنَّار ، والألف واللام في الملك للجنس ، وهو معطوف علىٰ ربِّك ، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ، بناء علىٰ أنَّ الفعل ينصب علىٰ المعطوف والمعطوف عليه انصبابة واحدة ، لأنَّ مجيء الله تعالىٰ مغاير لمجيء الملك في الحقيقة " . انظر : كفاية الطالب الرباني لرسالة أبي زيد القيرواني (١/ ١١٠-١١١) .

وقال الإمام الخطيب الشَّربيني الشَّافعي (٩٧٧هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قال الحسن : أمره وقضاؤه " . انظر : السراج المنير في الإعانة علىٰ معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (٤/ ٥٣٥) .

وقال الإمام أبو السُّعود العمادي (٩٨٢هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : ظهرتْ آياتُ قُدرتِه وآثارُ قهرِه مثلَ ذلكَ بما يظهرُ عندَ حضورِ السُّلطان من أحكامِ هيبتِه وسياستِه ، وقيلَ : جاءَ أمرُهُ تعالَىٰ وقضاؤُه علىٰ حذفِ المضافِ للتَّهويلِ " .

انظر : تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم) (٩/ ١٥٧) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (١٠٣٣هـ) : " وَقَالَ الطَّيِّبِيّ : اعْلَم أَن للنَّاس فِيمَا جَاءَ من صِفَات الله فِيمَا يشبه صِفَات المخلوقين تَفْصِيلاً وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَشَابه قِسْمَانِ : قسم يقبل التَّأْوِيل وَقسم لَا يقبله بل علمه مُخْتَصّ بِاللهَّ تَعَالَىٰ ويقفون عِنْد قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَمَا يعلم تَأْوِيله إِلَّا الله﴾** [آل عمرَان ٧] كالنَّفس فِي قَوْله :**﴿تعلم مَا فِي نَفسِي وَلَا أعلم مَا فِي نَفسك﴾** [الْمَائِدَة : ١١٦] ، والمجيء فِي قَوْله **﴿وَجَاء رَبك وَالْملك﴾** [الْفجْر : ٢٢] ، وَتَأْوِيل فواتح السُّور مثل الٓمٓ وحم من هَذَا الْقَبِيل .

وَذكر الشَّيْخ السَّهروردي فِي كتاب العقائد : أخبر الله تَعَالَىٰ أَنَّه اسْتَوَىٰ علىٰ الْعَرْش ، وَأخْبر رَسُوله بالنُّزول ، وَغير ذَلِك مِمَّا جَاءَ فِي الْيَد والقدم والتَّعجُّب ، فكلُّ مَا ورد من هَذَا الْقَبِيل دَلَائِل التَّوحيد ، فَلَا يتَصَرَّف فِيهِ بتشبيه وَلَا تَعْطِيل ، فلولا إِخْبَار الله تَعَالَىٰ وإخبار رَسُوله مَا تجاسر عقل أَن يحوم حول ذَلِك الْحمىٰ وتلاشىٰ دونه عقل الْعُقَلَاء ولبِّ الألبَّاء .

قَالَ الطَّيِّبِيّ : هَذَا الْمَذْهَب هُوَ الْمُعْتَمد عَلَيْهِ وَبِه يَقُول السَّلف الصَّالح وَمن ذهب إِلَىٰ التَّأْوِيل شَرط فِيهِ أَن يكون مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ تَعْظِيم الله تَعَالَىٰ وجلاله وتنزيهه وكبريائه ، وَمَا لَا تَعْظِيم فِيهِ فَلَا يجوز الْخَوْض فِيهِ ، فَكيف بِمَا يُؤَدِّي إِلَىٰ التَّجسيم والتَّشبيه ، انْتهىٰ .

وَهُوَ كَلَام فِي غَايَة التَّحْقِيق إِلَّا أَنَّ ترك التَّأْوِيل مُطلقاً وتفويض الْعلم إِلَىٰ الله أسلم " . انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٦١-١٦٢) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف الكرمىٰ المقدسي الحنبلىٰ أيضاً : " وَمن الْمُتَشَابه : الْمَجِيء فِي قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَجَاء رَبك وَالْملك صفا صفا﴾** [الْفجْر ٢٢] ، وَقَوله : **﴿هَل ينظرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيهم الله﴾** [الْبَقَرَة : ٢١٠] ، فمذهب السَّلف فِي هَذَا وَأَمْثَاله السُّكُوت عَن الْخَوْض فِي مَعْنَاهُ ، وتفويض علمه إِلَىٰ الله تَعَالَىٰ ، كَمَا مرت الْإِشَارَة إِلَيْهِ أول الْكتاب " . انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص١٩٧) .

وقال الإمام إسماعيل حقي بن مصطفىٰ الإستانبولي الحنفي الخلوتي (١١٢٧هـ) : **﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾** أي : ظهرت آيات قدرته وآثار قهره مثل ذلك بما يظهر عند حضور السُّطان بنفسه من أحكام هيبته وسياسته ، فإنه عند حضوره ظهر ما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصِّه وعساكره ، وقال الامام أحمد : جاء أمره وقضاؤه علىٰ حذف المضاف للتهويل . وفي التَّأويلات النَّجميَّة : تجلَّىٰ في المظهر الجلالي القهري " . انظر : تفسير روح البيان (١٠/ ٣٣٢) .

وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن مصطفىٰ بن عثمان ، أبو سعيد الخادمي الحنفي (١١٥٦هـ) : " وأَمَّا النُّصُوصُ الظَّوَاهِرُ فِي التَّجَسُّمِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْمَكَانِ نَحْوَ قَوْله تَعَالَىٰ **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾** [طه : ٥] ، **﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾** [الفجر : ٢٢] ، **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾** [فاطر : ١٠] .

قَالَ صَاحِبُ الْمَوَاقِفِ أَنَّهَا ظَوَاهِرُ ظَنِّيَّةٌ لَا تُعَارِضُ الْيَقِينِيَّاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ نَفْيِ الْمَكَانِ ، فَلَزِمَ أَنَّهَا مُتَشَابِهَاتٌ ، فَنُفَوِّضُ عِلْمَهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلف أَوْ نُؤَوِّلُهَا بِنَحْوِ الاِسْتِيلَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] ، أَيْ : أَمْرُ رَبِّك ، وَ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطيِّبُ﴾ ، أَيْ : يَرْتَضِيهِ (وَلَا يُجْرَىٰ عَلَيْهِ زَمَانٌ) ، لأنَّ الزَّمَانَ مُتَجَدِّدٌ يُقَدَّرُ بِهِ مُتَجَدِّدٌ آخَرُ كَمَا هُوَ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَوْ مِقْدَارُ الْحَرَكَةِ ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُمَا ، لأنَّ التَّجَدُّدَ لَا يُتَصَوَّرُ فِي الْقَدِيمِ وَكَذَا الْمِقْدَارُ (وَلَيْسَ لَهُ جِهَةٌ مِنْ الْجِهَاتِ السِّتِّ وَلَا هُوَ فِي جِهَةٍ مِنْهَا) ، وَهِيَ فَوْقُ تَحْتُ وَيَمِينُ وَيَسَارُ وَقُدَّامُ وَخَلْفُ ، وَالْجِهَةُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ نَفْسُ الْمَكَانِ بِإِضَافَةِ جِسْمٍ آخَرَ إلَيْهِ ، فَإِذَا انْتَفَتْ الْجِسْمِيَّةُ وَالْمَكَانِيَّةُ تَنْتَفِي الْجِهَةُ ، لِأَنَّهَا مِنْ خَوَاصِّ الْأَجْسَامِ ، وَلِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَوْ كَانَ فِي جِهَةٍ أَوْ زَمَانٍ لَزِمَ قِدَمُ الْمَكَانِ أَوْ الزَّمَانِ ، وَلِأَنَّهُ أَمَارَةُ الْإِمْكَانِ لِلِافْتِقَارِ إلَيْهِ ... " .

انظر : بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (١/ ١٥٩) .

وقال الإمام ابن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصُّوفي (١٢٢٤هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : تجلَّىٰ لفصل قضائه بين عباده ، وعن ابن عَبَّاس : أمره وقضاؤه " . انظر : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٧/ ٣٠٢) .

وقال الإمام المظهري ، محمَّد ثناء الله (١٢٢٥هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ عطف علىٰ ﴿دُكَّت﴾ ، وهيٰ من المتشابهات ، وقد ذكرنا ما فيها من القول السَّلف والخلف وأصحاب القلوب في سورة البقرة في قوله تعالىٰ : ﴿أَن يَأْتِيَهُم اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ﴾ . انظر : التفسير المظهري (١٠/ ٢٥٩).

وقال الإمام الشَّوكاني اليمني (١٢٥٠هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيْ : جَاءَ أَمْرُهُ وَقَضَاؤُهُ وَظَهَرَتْ آيَاتُهُ ، وَقِيلَ : الْمَعْنَىٰ : أَنَّهَا زَالَتِ الشُّبَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَظَهَرَتِ المعارف ، وصارت ضروريَّة ، كما يزول الشَّكُّ عن مَجِيءِ الشَّيءِ الَّذِي كَانَ يُشَكُّ فِيهِ ، وَقِيلَ : جاء قهر ربّك وسلطانه وانفراده وَالتَّدْبِيرِ مِنْ دُونِ أَنْ يَجْعَلَ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ " .

انظر : فتح القدير (٥/ ٥٣٥) .

وقال الإمام الألوسي (١٢٧٠هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قال منذر بن سعيد : معناه ظهر سبحانه للخلق هنالك وليس ذلك بمجيء نقلة وكذلك مجيء الطَّامَّة والصَّاخَّة . وقيل : الكلام علىٰ حذف المضاف للتَّهويل ، أي : وجاء أمر ربِّك وقضاؤه سبحانه . واختار جمعٌ أنَّه تمثيل لظهور آيات اقتداره تعالىٰ وتبيين آثار قدرته عزَّ وجلَّ وسلطانه ، عزَّ سلطانه ، مثِّلت حاله سبحانه في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر لمحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصِّه عن بكرة أبيهم ، وأنت تعلم ما للسَّلف في المتشابه من الكلام " . انظر : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١٥/ ٣٤٢-٣٤٣) .

وقال الإمام أبو الطيِّب محمَّد صدِّيق خان القِنَّوجي (١٣٠٧هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : جاء أمره وقضاؤه ، وظهرت آياته ، وقيل : المعنىٰ أنَّهَا زالت الشُّبه في ذلك اليوم ، وظهرت المعارف ، وصارت ضروريَّة ، كما يزول الشَّكُّ عند

برء الشَّيء الذي كان يشكّ فيه ، وقيل : جاء قهر ربِّك وسلطانه وانفراده بالأمر والتَّدبير من دون أن يجعل إلىٰ أحد من عباده شيئاً من ذلك ، وقيل : تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه ، وقيل : جاء أمر ربِّك بالمحاسبة والجزاء ، وقيل غير ذلك .

والحقذُ أنَّ هذه الآية من آيات الصِّفات التي سكت عنها وعن مثلها عامَّة سلف الأمَّة وأئمَّتها وبعض الخلف ، فلم يتكلَّموا فيها ، بل أجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ، وقالوا : يلزمنا الإيمان بها وإجراؤها علىٰ ظاهرها ، والتَّأويل ديدن المتكلِّمين ودين المتأخِّرين ، وهو خلاف ما عليه جمهور السَّلف الصَّالحين " . انظر : فتحُ البيان في مقاصد القرآن (١٥/ ٢٣٠) .

وقال الإمام محمَّد بن عمر نووي الجاوي البنتني (١٣١٦هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : جاء ظهوره وقهره ، أي : حصل تجلِّيه تعالىٰ علىٰ الخلائق ، أي : زالت الشُّبهة ، وارتفعت الشُّكوك ، وظهر سلطان قهره " . انظر : مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (٢/ ٦٣١) .

وقال الإمام محمَّد عبد العظيم الزُّرْقاني (١٣٦٧هـ) : " ... والمجيء في قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ بمجيء أمره " . انظر : مناهل العرفان في علوم القرآن (٢/ ٢٩١) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ أي : وتجلَّت لأهل الموقف السَّطوة الإلهيَّة ، كما تتجلَّىٰ أبَّهة الملك للأعين إذا جاء الملك في جيوشه ومواكبه ، ولله المثل الأعلىٰ " . انظر : تفسير (٣٠/ ١٥٢) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي (١٣٧١هـ) : " وأدلَّة الحذف كثيرة ، منها : ... العقل الدَّال عليهما معاً ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكُ﴾ أي : أمره ، أو عذابه .

ويرىٰ صاحب " الكشَّاف " أنَّ هذا ليس من باب الحذف ، وإنَّما هو تمثيل لظهور قدرته وتبيين لسلطانه وقهره ، فمثّلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسِّياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصِّه علىٰ بكرة أبيهم " . انظر : علوم البلاغة " البيان ، المعاني ، البديع " (ص١٨٧) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفىٰ المراغي أيضاً : " في المجاز بالحذف أو الزِّيادة . كما توصف الكلمة بالمجاز لنقلها عن معناها الأصلي ، كما تقدَّم ، كذلك توصف بالمجاز بطريق الاشتراك اللفظي إذا تغيَّر حكم إعرابها الأصلي بواسطة حذف لفظ أو زيادته . فالحذف كقوله تعالىٰ : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ ، إذ الأصل أهل القرية ، فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل هو الجر فحذف المضاف وأعطىٰ المضاف إليه إعرابه ، ونظيره "وجاء ربُّك" أي : أمر ربِّك " . انظر : علوم البلاغة " البيان ، المعاني ، البديع (ص٢٩٠) .

وقال الإمام محمود بن عبد الرَّحيم صافي (١٣٧٦هـ) : " وجملة : "جَاءَ ربُّكَ- أي أمره- " في محلِّ جرّ معطوفة على جملة دُكّت ... وورد ذلك في الآية التي نحن بصددها ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي : أمر ربِّك " . انظر : الجدول في إعراب القرآن الكريم (٣٠/ ٣٢٦-٣٢٧) .

وقال الشَّهيد سيِّد قطب إبراهيم حسين الشَّاربي (١٣٨٥هـ) : " ... فأمَّا مجيء ربِّك والملائكة صفّاً صفّاً ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض . ولكنَّا نحسّ وراء التَّعبير بالجلال والهول " . انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٠٦) .

وقال الإمام عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى : بعد ١٣٩٠هـ) : " وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ أي : جاء أمر الله وسلطانه ، ونصبت موازين الحساب ، ووقف الملائكة في المحشر جنداً حرّاساً ، ينفِّذون أمر الله ، ويسوقون أهل الضَّلال إلى النَّار ، وأهل الإيمان إلى الجنَّة " . انظر : التفسير القرآني للقرآن (١٦/ ١٥٦١) .

وقال الإمام عبد المتعال الصَّعيدي (١٣٩١هـ) : " وأدلَّة الحذف كثيرة ، منها : ...ومنها أن يدلَّ العقل على الحذف والتَّعيين؛ كقوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢] أي : أمر ربِّك أو عذابه أو بأسه ، وقوله : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة : ٢١٠] أي : عذاب الله أو أمره " . انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (٢/ ٣٤٣-٣٤٤) .

وقال الإمام عبد المتعال الصَّعيدي أيضاً: " فصل : المجاز بالحذف والزِّيادة : واعلم أنَّ الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلها عن معناها الأصلي كما مضى؛ تُوصَف به أيضاً لنقلها عن إعرابها الأصلي إلى غيره لحذف لفظ أو زيادة لفظ؛ أمَّا الحذف فكقوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ ، أي : أهل القرية ؛ فإعراب القرية في الأصل هو الجر ، فحذف المضاف وأعطي المضاف إليه إعرابه ، ونحوه قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ ، أي : أمر ربِّك " . انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (٣/ ٥٣٤) .

وقال الإمام عبد الرَّحمَن بن محمَّد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النَّجدي (١٣٩٢هـ) : " قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ هو من مجاز اللغة تقديره : وجاء أمر ربك " . انظر : حاشية مقدمة التفسير (المقدمة والحاشية كلاهما للشيخ ابن قاسم رحمه الله) (١/ ٨٣) .

وقال الإمام محمَّد الطاهر بن محمَّد بن محمَّد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ) : " وَإِسْنَادُ الْمَجِيءِ إِلَى اللهِ أَمَّا مَجَازٌ عَقْلِيٌّ ، أَيْ جَاءَ قَضَاؤُهُ ، وأَمَّا اسْتِعَارَةٌ بِتَشْبِيهِ ابْتِدَاءِ حِسَابِهِ بِالْمَجِيءِ " . انظر : التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) (٣٠/ ٣٣٧) .

وقال الإمام محمَّد الأمين بن محمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٣٩٣هـ) : " وَجَاءَ رَبُّكَ " مِنْ آيَاتِ الصِّفات مَوَاضِعُ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ .

وَتَقَدَّمَ لِلشَّيْخِ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - مِرَاراً فِي الْأَضْوَاءِ فِي عِدَّةِ مَحَلَّاتٍ ؛ وَلْيُعْلَمْ أَنَّهَا وَالاِسْتِوَاءُ وَحَدِيثُ النُّزول وَالْإِتْيَانُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : " هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ " .

وَقَدْ أَوْرَدَ الشَّيْخُ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - مَبْحَثَ آيَاتِ الصِّفات كَامِلَةً فِي مُحَاضَرَةٍ أَسْمَاهَا : " آيَاتُ الصِّفات " ، وَطُبِعَتْ مُسْتَقِلَّةً .

كَمَا تقدَّم لَهُ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ - فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ " ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِصِفَةِ الْمَجِيءِ بِذَاتِهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ جَمِيعَ الصِّفات مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، أَيْ : أَنَّهَا ثَابِتَةٌ للهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَبْدَأِ : " لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ لِلْمَخْلُوقِ ، فَثَبَتَ اسْتِوَاءٌ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ لِلْمَخْلُوقِ .

وَكَذَلِكَ هُنَا كَمَا ثَبَتَ اسْتِوَاءٌ ثَبَتَ مَجِيءٌ ، وَكَمَا ثَبَتَ مَجِيءٌ ثَبَتَ نُزُولٌ .

وَالْكُلُّ مِنْ بَابِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، أَيْ : عَلَىٰ مَا قَالَ الشَّافعي - رَحِمَهُ اللهُ - : نَحْنُ كُلِّفْنَا بِالْإِيمَانِ ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِصِفَاتِ اللهِ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِاللهِ عَلَىٰ مُرَادِ اللهِ ، وَلَيْسَ عَلَيْنَا أَنْ نُكَيِّفَ ، إِذِ الْكَيْفُ مَمْنُوعٌ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ " . انظر : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٥٢٧) .

وقال الإمام عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (١٣٩٨هـ) : ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ**﴾ جلَّت عظمته ، وهذا تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبيين لآثار قهره وسلطانه ، لأنَّ الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من أمارات الهيبة وعلامات العزَّة وإشارات العظمة ما لا يحضر بحضور غيره من خواصّه ... وهذه من آيات الصِّفات التي سكت عن تفسيرها السَّلف الصَّالح وبعض الخلف وأجروها علىٰ حالها ، كما جاءت من غير تأويل ولا تشبيه ولا تكييف ، والتزموا فيها الإيمان بظاهرها ، وتأوَّلها المتكلِّمون وبعض المتأخِّرين فقالوا : جاء أمره أو قضاؤه أو دلائل آياته ، وجعلوا مجيئها مجيئاً له تفخيماً وإجلالاً ، لأنَّ الحركة والسُّكون محال عليه جلَّ شأنه ولكلِّ وجهة ، واجراؤها علىٰ ما هي عليه أولىٰ " . انظر : بيان المعاني ، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني ، (١/ ١٤٩-١٥٠) .

وقال الإمام محمَّد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (١٤٠٢هـ) : ﴿**وَجَآءَ رَبُّكَ**﴾ أي : جاء أمره وقضاؤه ، وظهرت آيات عظمته وقدرته " . انظر : أوضح التفاسير (ص٧٤٩) .

وجاء في التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ أي : وجاءَ أَمر ربِّك وقضاؤُه بحذف المضاف للتَّهويل ، واختار جماعة أنَّه تمثيل لظهور آيات اقتداره ، ووضوح آثار قدرته وسلطانه – عزَّ وجلَّ – ورأي السَّلف – رضي الله عنهم – أنَّه مجيء من غير تكييف ولا تمثيل نؤمن به ولا نطلب معناه " . انظر : التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٠/ ١٩٠٥) .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي (١٤٤٢هـ) : " ...وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ ، وليس مجيئه حركة ، ولا زوالاً ، ولا انتقالاً ، لأنَّ ذلك إنَّما يكون إذا كان الجائي جسماً ، أو جوهراً ، فلمَّا ثبت أنَّه ليس بجسم ولا جوهر لم يجب أن يكون مجيئه حركة ، ولا نقلة ، ولو اعتبرت ذلك بقولهم : جاءت فلاناً قيامته ، وجاءه الموت ، وجاءه المرض ، وشبه ذلك مما هو موجود نازل به ، ولا مجيء ، لبان لك . وبالله العصمة والتَّوفيق " . انظر : شرح سنن النسائي المسمىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (١٤/ ٢٧٧) .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي أيضاً : " ... ومثل قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ [الفجر : ٢٢] كلُّهم يقول : ينزل ، ويتجلَّىٰ ، ويجيء بلا كيف ، لا يقولون : كيف يجيء؟ ، وكيف يتجلَّىٰ؟ ، وكيف ينزل؟ ، ولا من أين جاء؟ ، ولا من أين تجلَّىٰ؟ ، ولا من أين ينزل؟ ، لأنَّه ليس كشيء من خلقه ، وتعالىٰ عن الأشياء ، ولا شريك له " . انظر : شرح سنن النسائي المسمىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (١٤/ ٢٨٢) .

وقال الإمام محمَّد بن علي بن آدم بن موسىٰ الإثيوبي الوَلَّوِي أيضاً نقلاً عن البيهقي : " قوله تعالىٰ : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾ ، والنُّزول ، والمجيء صفتان منفيَّتان عن اللهَّ تعالىٰ من طريق الحركة ، والانتقال من حال إلىٰ حال ، بل هما صفتان من صفات اللهَّ تعالىٰ ، بلا تشبيه ، جلَّ اللهَّ تعالىٰ عما تقول المعطِّلة لصفاته ، والمشبِّهة بها علوّاً كبيراً " . انظر : شرح سنن النسائي المسمىٰ " ذخيرة العقبىٰ في شرح المجتبىٰ " (٢٢/ ٣٤١) .

ربه عز وَجل (من تقرب إِلَيّ شبْراً تقرَّبت إِلَيْهِ ذِرَاعا وَمن تقرَّب إِلَيّ ذِرَاعاً تقربت مِنْهُ باعا وَمن أَتَانِي يمشي أَتَيْته هرولة) (٦٧) ، وَمَا صَحَّ فِي الحَدِيث (أجدُ نفس الرَّحْمَن من قبل الْيَمَن) وَمن قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(٦٧) قال الإمام ابن قتيبة الدَّينوري (٢٧٦هـ) : " وَنَحْنُ نَقُولُ : إِنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ ، وإِنَّمَا أَرَادَ : مَنْ أَتَانِي مُسْرِعاً بِالطَّاعَةِ ، أَتَيْتُهُ بِالثَّوَابِ أَسْرَعَ مِنْ إِتْيَانِهِ ، فَكَنَّى عَنْ ذَلِكَ بِالْمَشْيِ وَبِالْهَرْوَلَةِ ، كَمَا يُقَالُ فُلَانٌ مُوضِعٌ فِي الضَّلَالِ – وَالْإِيضَاعُ : سَيْرٌ سَرِيعٌ- لَا يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ يَسِيرُ ذَلِكَ السَّيْرَ ، وإِنَّمَا يُرَادُ أَنَّهُ يُسْرِعُ إِلَى الضَّلَالِ ، فَكَنَّى بِالْوَضْعِ عَنِ الْإِسْرَاعِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : **﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾** ، وَالسَّعْيُ : الْإِسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ ، وَلَيْسَ يُرَادُ أَنَّهُمْ مَشَوْا دَائِماً ، وإِنَّمَا يُرَادُ : أَنَّهُمْ أَسْرَعُوا بِنِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَالله أعلم " . انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٣٢٧) .

وقال الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله ابن البنَّا الحنبلي البغدادي (٤٧١ هـ) : " قال ابن قتيبة : ومعناه عندنا من تقرب بالطَّاعة وأتاني بها أتيته بالثَّواب أسرع من إتيانه ، فكنَّى عن ذلك بالمشي وبالهرولة ، كما قال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾** ، والسَّعي الإسراع في المشي ، وليس يريد أنَّهم مشوا ، وإنَّما أسرعوا بنياتهم وأعمالهم " . انظر : المختار في أصول السنة (ص١٦١) .

وقال الإمام ابن بطَّال (٤٤٩هـ) : " وأمَّا وصفه تعالى بأنَّه يتقرب إلى عبده ، ووصفه بالتَّقرُّب إليه ووصفه بإتيانه هرولة ، فإنَّ التَّقرُّب والإتيان والمشي والهرولة محتملة للحقيقة والمجاز ، وحملها على الحقيقة يقتضي قطع المسافات وتواقي الأجسام ، وذلك لا يليق بالله تعالى ، فاستحال حملها على الحقيقة ، ووجب حملها على المجاز؛ لشهرة ذلك في كلام العرب ، فوجب أن يكون وصف العبد بالتَّقرُّب إليه شبراً وذراعاً وإتيانه ومشيه معناه : التَّقرب إليه بطاعته وأداء مفترضاته ، ويكون تقرُّبه تعالى من عبده قوله تعالى : "أتيته هرولة" أي : أتاه ثوابي مسرعاً . قال الطَّبري : وإنَّما مثَّل القليل من الطَّاعة بالشِّبر من الدُّنو منه والضِّعف من الكرامة والثَّواب بالذِّراع ، فجعل ذلك دليلاً على مبلغ كرامته لمن أكرم عليه مجاوز حدّه إلى ما بينه عزَّ وجلَّ " . انظر : شرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٢٩-٤٣٠).

وقال الإمام المازري المالكي (٥٣٦هـ) : " وأمَّا قوله : "وإن تَقَرَّب مِنّي شِبرا تقرّبت منه ذراعا" وَقَوله : "وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" فمجاز كلُّه ، وإنَّما هو تمثيل بالمحسوسات وتفاوتها في الإسراع والدُّنوّ ، فإنَّما المراد أنَّ من دنَا منِّي بالطَّاعة دنوت منه بالإثابة (وكنت بالإثابة) أسْرعَ منه بالطَّاعةِ ، وأنَّ من أتاني بحسنةٍ جازيته بعشر ، فكنَّى عن التَّضعيف بالسُّرعة ودنوِّ المسافة . فهذا الذي يليق بالله سبحانه . وأمَّا المشي بَطِيُّه وسريعه ، والتَّقرُّب بالذِّراع والباع فَمِن صفات الأجسام ، والله سبحانه ليس بجسم ، ولا يجوز عليه تنقُّل ولا حركةٌ ولا سكون ، وهذا واضح بَيِّنٌ " .

انظر : المُعْلم بفوائد مسلم (٣/ ٣٢٤) .

وقال الإمام عياض بن موسىٰ بن عياض بن عمرون اليحصبي (٥٤٤هـ) : " وأمَّا قوله : " وإن تقرَّب منِّي شبراً تقرَّبت منه ذراعاً " ، وقوله : " وإن أتاني يمشىٰ أتيته هرولة " فمجاز كلُّه ، وإنَّما هو تمثيل بالمحسوسات وتفاوتها في الإسراع والدُّنو ، وإنَّما المراد : أنَّ من دنىٰ منِّي بالطَّاعة دنوت منه بالإنابة ، وكنت بالإنابة أسرع منه بالطَّاعة ، أو أنَّ من أتاني بحسنة جازيته بعشر ، فكنَّىٰ عن التَّضعيف بالسُّرعة ودنو المسافة ، فهذا الذىٰ يليق بالله سبحانه . وأمَّا المشي بطيؤه وسريعة – والتَّقرب بالذِّراع والباع ، فمن صفات الأجسام ، والله – سبحانه – ليس بجسم ، ولا يجوز عليه تنقل ولا حركة ولا سكون ، وهذا واضح بيِّن .

قال القاضي : قيل يجوز أن يكون معنىٰ قوله : " من تقرب إلىّ شبراً " : أي : بالقصد والنيَّة ، قربته توفيقاً وتيسيراً ذراعاً ، وإن تقرَّب إلىٰ بالعزم والاجتهاد ذراعاً قربته بالهداية والرِّعاية باعاً ، وإن أتاني معرضاً عمَّن سواي مقبلاً إليَّ أدنيته ، وحلَّت بينه وبين كلّ قاطع ، وسبقت به كلَّ مانع ، وهو معنىٰ الهرولة " . انظر : شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِي عِيَاض المُسَمَّىٰ إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم (٨/ ١٧٣-١٧٤) .

وقال الإمام القَاضِي عياض أيضاً : " قَوْله : " أَتَيْته هرولة " وأهرول ويهرولون ، قَالَ وَكِيع : مَعْنَاهُ فِي سرعَة وَإجَابَة قَالَ الْخَلِيل الهرولة بَين الْمَشْي والعدو . قَالَ القَاضِي رَحمَه الله : وَمَعْنَاهُ فِي حق الله تَعَالَىٰ الَّذِي لَا تجوز عَلَيْهِ الْحَرَكَة والانتقال سرعَة إجَابَته لعَبْدِهِ وَقرب تقريبه من هدايته وَرَحمته " . انظر : مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٢/ ٢٦٨) .

وقال الإمام إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني الحمزي ، أبو إسحاق ابن قرقول (٥٦٩هـ) : " قوله : " أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " معناه : في سرعة وإجابة . قال الخليل : الهرولة بين المشي والعدو . قَالَ القاضي : ومعناه هنا في حقِّ الله عزَّ وجلَّ الذي لا تجوز عليه الحركة والانتقال : سرعة إجابته ، وقرب قبول توبة العبد ، وقرب تقرُّبه من هدايته ورحمته " . انظر : مطالع الأنوار علىٰ صحاح الآثار (٦/ ١٢٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي (٥٩٧هـ) : " وليس المراد به دنو الاقتراب ، وإنَّما المراد قرب المنزل والحظ " . انظر : صيد الخاطر (ص١٣٢) .

قال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " رُوِيَ فِي الْخَبَرِ «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً" ، أي : من أقبل إلي بِطَاعَتِهِ أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ بِهِدَايَتِي وَإِرْشَادِي بِأَنْ أَشْرَحَ لَهُ صَدْرَهُ وَأُسَهِّلَ أَمْرَهُ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) ، (٢٧/ ٥٨٨) .

وقال الإمام الرَّازي أيضاً ، في تعليقه علىٰ الحديث : " إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمَجَازِيِّ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٨/ ٢٣٩) .

وقال الإمام ابن الأثير (٦٠٦هـ) : " الْهَرْوَلَةُ : بَيْنَ المَشْي والْعَدْوِ ، وَهُو كِنَايَة عَنْ سُرْعَة إجابة اللهَّ تَعالَى ، وقَبُولِ تَوْبَة العَبْد ، ولُطْفه وَرَحْمَته " . انظر : النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٦١) .

وقال الإمام القرطبي (٦٧١ هـ) : " ... ويتأول في قوله عليه السَّلام : "من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" قرب بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول " . انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ٩٠) .

وقال الإمام النَّووي (٦٧٦هـ) : " أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " ، أَيْ : صَبَبْتُ عَلَيهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْتُهُ بِهَا وَلَمْ أحْوِجْهُ إِلَى المَشْيِ الكَثِيرِ في الوُصُولِ إِلَى المَقْصُودِ " . انظر : رياض الصالحين (ص١٤٧) .

وقال الإمام ابن منظور (٧١١هـ) : " الهَرْوَلَة : بَيْنَ العَدْوِ وَالْمَشْيِ ، وَقِيلَ : الهَرْوَلَة بَعْدَ العَنَق ، وَقِيلَ : الهَرْوَلَة الإِسراع . الْجَوْهَرِيُّ : الهَرْوَلَة ضرْب مِنَ العَدْو وَهُوَ بَيْنَ الْمَشْي والعَدْو . وَفِي الْحَدِيثِ : " مَن أَتاني يَمْشِي أَتيْته هَرْوَلَة " ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ سُرْعَةِ إِجابة اللهَّ عزَّ وجلَّ وَقَبُولِ تَوْبَةِ الْعَبْدِ ولُطْفه وَرَحْمَتِهِ " . انظر : لسان العرب (١١/ ٦٩٥-٦٩٦) . وقال الإمام النووي أيضاً : " هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الصِّفات ، وَيَسْتَحِيلُ إِرَادَةُ ظَاهِرِهِ ، وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي أَحَادِيثِ الصِّفات مَرَّاتٍ ، وَمَعْنَاهُ : مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي وَالتَّوْفِيقِ وَالْإِعَانَةِ ، وَإِنْ زَادَ زِدْتُ ، فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، أَيْ : صَبَبْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْتُهُ بِهَا وَلَمْ أُحْوِجْهُ إِلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يكون تضعيفه عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي رِوَايَةِ محمَّد بن جعفر : وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ جِئْتُهُ أَتَيْتُهُ ، هَكَذَا هُوَ فِي أَكْثَرِ النُّسَخِ جِئْتُهُ أَتَيْتُهُ ، وَفِي بَعْضِهَا : جِئْتُهُ بِأَسْرَعِ فَقَطْ ، وَفِي بَعْضِهَا : أَتَيْتُهُ ، وَهَاتَانِ ظَاهِرَتَانِ ، والأَوَّل صَحِيحٌ أيضاً ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا لِلتَّوْكِيدِ ، وَهُوَ حَسَنٌ ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ اخْتِلَافِ اللَّفْظِ ، وَاللهَّ أَعْلَمُ " .

انظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجَّاج (١٧/ ٣-٤) .

وقال الإمام سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطُّوفي الصرصري ، أبو الرَّبيع ، نجم الدِّين (٧١٦هـ) : " ... وذكر حديث أبي هريرة وأبي ذر : " من تقرَّب مني ذراعاً تقرَّبت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " .

قلت : ووجه سؤاله منه : أنَّ ظاهره التَّجسيم . قلت : وقد سبق تقرير قاعدة هذه الأحاديث . ثُمَّ الجواب عن هذا من وجهين :

أحدهما : أنَّ الحديث مؤول عندنا على التَّقرُّب بالرَّحمة واللطف والإكرام ، كما يقال : فلان قريب من السُّلطان ، والأمير قريب من فلان يعنى تقارب القلوب والمنزلة ، وأنا وإن كنت أثريًّا !!! في آيات الصِّفات وأخبارها ، إلَّا أن المجاز عندي في هذا الحديث ظاهر غالب ، فلا يتوقَّف في تأويله إلَّا جامد ... " . انظر : الانتصارات الإسلاميَّة في كشف شبه النصرانية (٢/ ٧٠١-٧٠٢) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي (٧٣٣هـ) : " ...وَحَيْثُ نسب إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى فَالْمُرَاد بِهِ الْمُبَالغَة فِي إِظْهَار الإقبال والرِّضى ، كَقَوْلِه : "فَإِن أَتَانِي يمشي أَتَيْته هرولة" ، تَمْثِيل للْمُبَالَغَة فِي إسراع المجازاة والإقبال " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل (ص١٦٩) .

وقال الإمام ابن جماعة الكناني الحموي أيضاً : " وأَمَّا قَوْله فِي الْقرب شبْراً وذراعاً وباعاً وَالْمَشْي والهرولة ، فَإِنَّهُ تَمْثِيل للإقبال عَلَيْهِ بِالرَّحْمَةِ والإجابة لَهُ ، وتعظيم أجره وثوابه على مِقْدَار الْعَمَل الَّذِي تقرَّب بِهِ ، فَأُرِيد تَمْثِيل ذَلِك بِمن أقبل على صَاحبه ومحبّه قدر شبر ، فَأقبل عَلَيْهِ ذِرَاعاً وَكَمن مَشى إِلَى صَاحبه فهرول صَاحبه إِلَيْهِ قبولا لَهُ وتكريماً ، وَقيل مَعْنَاهُ توفيقه وتيسير الْعَمَل المتقرّب بِهِ عَلَيْهِ " . انظر : إيضاح الدَّليل في قطع حجج أهل التعطيل ، (ص١٩١) .

وقال الإمام أحمد بن عبد الوهَّاب بن محمَّد بن عبد الدَّائم القرشي التيمي البكري ، شهاب الدِّين النّويري (٧٣٣هـ) : " قُرب بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول " . انظر : نهاية الأرب في فنون الأدب (١٦/ ٣٠٠) .

وقال الإمام الخازن (٧٤١هـ) : " وهذا من أحاديث الصِّفات ، ويستحيل إرادة ظاهره ، فلا بدَّ من التَّأويل ، فعلى هذا يكون ذكر الشِّبر والذِّراع والباع والمشي والهرولة استعارة ، ومجازاً ، فيكون المراد بقُرب العبد من الله تعالى القُرب بالذِّكر والطَّاعة والعمل الصَّالح ، والمراد بقُرب الله من العبد قرب نعمه وألطافه وبرِّه وكرمه وإحسانه إليه ، وفيض مواهبه ورحمته عليه ، والمعنى : كلَّما زاد بالطَّاعة والذِّكر زدت بالبر والإحسان ، وإن أتاني في طاعتي أتيته هرولة ، أي : صببت عليه الرَّحمة صبَّاً وسبقته بها " . انظر : تفسير الخازن المسمَّى لباب التأويل في معاني التنزيل (١/ ١٢٦) .

وقال الإمام شرف الدِّين الحسين بن عبد الله الطِّيبي (٧٤٣هـ) : " هذا الحديث من أحاديث الصِّفات ، ويستحيل إرادة ظاهرة . ومعناه : من تقرَّب إليَّ بطاعتي تقرَّبت إليه برحمتي والتَّوفيق في الإعانة ، وإن زاد زدت ، وإن أتاني يمشي ويسرع في طاعتي أتيته هرولة ، أي : صببت عليه الرَّحمة ، وسبقته بها ، ولم أحوجه إلي المشي الكثير في الوصول إليَّ المقصود ، والمراد أنَّ جزاءه يكون تضعيفه على حساب تقرُّبه .

الهرولة ضرب من التَّسرُّع في السَّير ، وهو فوق المشي ودون العدو ، وهذه أمثال يقرب بها المعنى المراد منها إلى أفهام السَّامعين . والمراد منها : أنَّ الله تعالي يكافئ العبد ويجازيه في معاملاته التي يقع بها التَّقرُّب إلى الله بأضعاف ما يتقرَّب العبد به إلى الله . وسمِّي الثَّواب تقرُّباً مشاكلة وتحسيناً ، ولأنَّه من أجله وبسببه ، كقوله تعالى : **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾** . وقيل : تقرُّب الباري سبحانه إليه بالهداية ، وشرح صدره لما تقرَّب به ، وكأنَّ المعنى : إذا قصد ذلك وعمله أعنته عليه وسهلته له " . انظر : شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) (٥/ ١٧٢٣-١٧٢٤) .

وقال الإمام ابن الملقِّن (٨٠٤هـ) : " ووصفه تعالىٰ لنفسه بأنَّه يتقرَّب إلىٰ عبده ، ووصف العبد بالتَّقرُّب إليه ، ووصفه بإتيانه هرولة ، فإنَّ التَّقرُّب والإتيان ، وإن كان يحتمل الحقيقة والمجاز وحملها علىٰ الحقيقة يقتضي قطع المسافات وترائي الأجسام ، وذلك لا يليق به تعالىٰ ، فاستحال حملها عليه ، فتعيَّن المجاز لشهرة ذلك في كلام العرب ، فوجب أن يكون وصف العبد بالتَّقرُّب إليه شبراً أو ذراعاً ، وإتيانه ومشيه هرولة معناه : التَّقرُّب إليه بطاعته وأداء مفروضاته ، ويكون تقرُّبه تعالىٰ من عبده وإتيانه كذلك عبارة عن إثابته علىٰ طاعته من رحمته ، ويكون معنىٰ قوله : " أتيته هرولة " أي : أتاه ثوابي مُسْرعاً " . انظر : التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٣/ ٢٥٠) .

وقال الإمام أبو الفضل زين الدِّين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (٨٠٦هـ) : " أَيْ صَبَبْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْته بِهَا ، وَلَمْ أُحْوِجْهُ إلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُصُولِ إلَى الْمَقْصُودِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُونُ تَضْعِيفُهُ عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ " . انظر : طرح التثريب في شرح التقريب (٨/ ٢٣٥) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) : " قَالَ بن بَطَّالٍ : وَصَفَ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى عَبْدِهِ ، وَوَصَفَ الْعَبْدَ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ،وَوَصَفَهُ بِالْإِتْيَانِ وَالْهَرْوَلَةِ ، كُلُّ ذَلِكَ يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ وَالْمَجَازَ ، فَحَمْلُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ يَقْتَضِي قَطْعَ الْمَسَافَاتِ وَتَدَانِي الْأَجْسَامِ ، وَذَلِكَ فِي حَقِّهِ تَعَالَى مُحَالٌ ، فَلَمَّا اسْتَحَالَتِ الْحَقِيقَةُ تَعَيَّنَ الْمَجَازُ لِشُهْرَتِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، فَيَكُونُ وَصْفُ الْعَبْدِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ شِبْراً وَذِرَاعاً وَإِتْيَانُهُ وَمَشْيُهُ مَعْنَاهُ : التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ ، وَأَدَاءِ مُفْتَرَضَاتِهِ وَنَوَافِلِهِ ، وَيَكُونُ تَقَرُّبُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ عَبْدِهِ واتيانه وَالْمَشْي عبارَة عَن إثابته عَلَى طَاعَتِهِ وَتَقَرُّبِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً ، أَيْ : أَتَاهُ ثَوَابِي مُسْرِعاً .

وَنُقِلَ عَنِ الطَّبَرِي أَنَّهُ إِنَّمَا مَثَّلَ الْقَلِيلَ مِنَ الطَّاعَةِ بِالشِّبْرِ مِنْهُ ، وَالضِّعْفُ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالثَّوَابُ بِالذِّرَاعِ ، فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلاً عَلَى مَبْلَغِ كَرَامَتِهِ لِمَنْ أَدْمَنَ عَلَى طَاعَتِهِ أَنَّ ثَوَابَ عَمَلِهِ لَهُ عَلَى عَمَلِهِ الضِّعْفُ ، وَأَنَّ الْكَرَامَةَ مُجَاوَزَةٌ حَدَّهُ إِلَى مَا يُثِيبُهُ اللهُ تَعَالَى .

وَقَالَ بن التِّينِ : الْقُرْبُ هُنَا نَظِيرُ مَا تقدَّم فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ قُرْبُ الرُّتْبَةِ وَتَوْفِيرُ الْكَرَامَةِ ، وَالْهَرْوَلَةُ كِنَايَةٌ عَنْ سُرْعَةِ الرَّحْمَةِ إِلَيْهِ وَرِضَا اللهَّ عَنِ الْعَبْدِ وَتَضْعِيفِ الْأَجْرِ ، قَالَ : وَالْهَرْوَلَةُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَشْيِ السَّرِيعِ ، وَهِيَ دُونَ الْعَدْوِ .

وَقَالَ صَاحِبُ الْمَشَارِقِ : الْمُرَادُ بِمَا جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ سُرْعَةُ قَبُولِ تَوْبَةِ اللهَّ لِلْعَبْدِ أَوْ تَيْسِيرُ طَاعَتِهِ وَتَقْوِيَتُهُ عَلَيْهَا وَتَمَامُ هِدَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، وَاللهُّ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ .

وَقَالَ الرَّاغِبُ : قُرْبُ الْعَبْدِ مِنَ اللهَّ التَّخْصِيصُ بِكَثِيرٍ مِنَ الصِّفات الَّتِي يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ اللهُّ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ اللهُّ تَعَالَى ، نَحْوَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالرَّحْمَةِ ، وَغَيْرِهَا ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِإِزَالَةِ الْقَاذُورَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ

مِنَ الْجَهْلِ وَالطَّيْشِ وَالْغَضَبِ وَغَيْرِهَا بِقَدْرِ طَاقَةِ الْبَشَرِ ، وَهُوَ قُرْبٌ رُوحَانِيٌّ لَا بَدَنِيٌّ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : " إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ مِنِّي شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٥١٣) .

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني أيضاً : " وَقَالَ الْكِرْمَانِيُّ : لَمَّا قَامَتِ الْبَرَاهِينُ عَلَى اسْتِحَالَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَى وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَةٍ قَلِيلَةٍ جَازَيْتُهُ بِثَوَابٍ كَثِيرٍ ، وَكُلَّمَا زَادَ فِي الطَّاعَةِ أَزِيدُ فِي الثَّواب ، وَإِنْ كَانَتْ كَيْفِيَّةُ إِتْيَانِهِ بِالطَّاعَةِ بِطَرِيقِ التَّأَنِّي يَكُونُ كَيْفِيَّةُ إِتْيَانِي بِالثَّوَابِ بِطَرِيقِ الْإِسْرَاعِ . وَالْحَاصِلُ أَنَّ الثَّواب رَاجِحٌ عَلَى الْعَمَلِ بِطَرِيقِ الْكَيْفِ وَالْكَمِّ ، وَلَفْظُ الْقُرْبِ وَالْهَرْوَلَةِ مَجَازٌ عَلَى سَبِيلِ الْمُشَاكَلَةِ أَوِ الِاسْتِعَارَةِ أَوْ إِرَادَةِ لَوَازِمِهَا " .
انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٣/ ٥١٤) .

وقال الإمام بدر الدِّين العينى (٨٥٥هـ) : " قَوْله : هرولة أَي : إتياناً هرولة ، والهرولة الْإِسْرَاع وَنَوع من الْعَدو ، وأمثال هَذِه الإطلاقات لَيْسَ إلاَّ على سَبِيل التَّجوُّز ، إِذْ الْبَرَاهِين الْعَقْلِيَّة القاطعة قَائِمَة على استحالتها على الله تَعَالَى ، فَمَعْنَاه : من تقرَّب إليّ بِطَاعَة قَليلَة أُجَازِيهِ بِثَوَاب كثير ، وَكلَّما زَاد فِي الطَّاعَة أَزِيد فِي الثَّواب ، وَإِن كَانَ كَيْفيَّة إِتْيَانه بِالطَّاعَةِ على التأني يكون كَيْفيَّة إتياني بالَّثواب على السُّرعة . فالغرض أَنَّ الثَّواب رَاجِح على الْعَمَل مضاعف عَلَيْهِ كَمَا وكيفاً ، وَلَفظ : النَّفس والتَّقرُّب والهرولة ، إِنَّمَا هُوَ مجَاز على سَبِيل المشاكلة ، أَو على طَرِيق الِاسْتِعَارَة ، أَو على قصد إِرَادَة لوازمها ، وَهُوَ من الْأَحَادِيث القدسية الدَّالَّة على كرم أكْرم الأكرمين وأرحم الرَّاحِمِينَ " . انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري٢٥/ ١٠١) .

وقال الإمام السُّيوطي (٩١١هـ) : " أَي صببت عَلَيْهِ الرَّحْمَة وسبقته بهَا " . انظر : الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر (٦/ ٤٤) .

وقال الإمام القسطلاني (٩٢٣هـ) : " ومن " أتاني يمشي أتيته هرولة " إسراعاً ، يعني : من تقرَّب إليَّ بطاعة قليلة جازيته بمثوبة كثيرة ، وكلَّما زاد في الطَّاعة زدت في ثوابه وإن كان كيفيَّة إتيانه بالطَّاعة على التَّأنِّي فإتياني بالَّثواب له على السُّرعة والتَّقرُّب ، والهرولة مجاز على سبيل المشاكلة أو الاستعارة أو قصد إرادة لوازمها وإلاّ فهذه الإطلاقات وأشباهها لا يجوز إطلاقها على الله تعالى إلَّا على المجاز لاستحالتها عليه تعالى " . انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٣٨٢) .

وقال الإمام القسطلاني أيضاً : " أي : مسرعاً ، أي من تقرَّب بطاعة قليلة جازيته بثواب كثير ، ولفظ التَّقرُّب والهرولة إنَّما هو على طريق المشاكلة أو الاستعارة أو المراد لازمها " . انظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/ ٤٦٤).

وقال الإمام جمال الدِّين ، محمَّد طاهر بن علي الصدِّيقي الهندي الفَتَّنِي الكجراتي (٩٨٦هـ) : " وهو كناية عن سرعة إجابة الله تعالىٰ وقبول توبة العبد ولطفه ورحمته " . انظر : مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار (٥/ ١٥٤) .

وقال الإمام علي بن سلطان محمَّد ، أبو الحسن نور الدِّين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ) : " أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " : وَهِيَ الْإِسْرَاعُ فِي الْمَشْيِ دُونَ الْعَدْوِ ، أَيْ : صَبَبْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ ، وَقِيلَ : أَيْ : مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي بِسُهُولَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَحْمَتِي بِسُرْعَةٍ . قَالَ الطِّيبِيُّ : وَهِيَ حَالٌ أَيْ : مُهَرْوِلاً ، أَوْ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ؛ لأنَّ الْهَرْوَلَةَ نَوْعٌ مِنَ الْإِتْيَانِ ، فَهُوَ كَرَجَعْتُ الْقَهْقَرَىٰ ، لَكِنَّ الْحَمْلَ عَلَىٰ الْحَالِ أَوْلَىٰ؛ لأنَّ قَرِينَةَ يَمْشِي حَالٌ لَا مَحَالَةَ . قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : وَهَذَا كَالشَّرْحِ لِمَا أَفْهَمَهُ إِعْطَاءُ الْعَشْرِ ، وَالزِّيَادَةُ فِي مُقَابَلَةِ الْحَسَنَةِ مِنْ أَنَّ سِعَةَ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ بَلَغَتِ الْغَايَةَ الَّتِي مَا وَرَاءَهَا غَايَةٌ " . انظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٥٤٣) .

وقال الإمام المناوي القاهري (١٠٣١هـ) : " أتيته هرولة " وهو الإسراع في المشي ، أي : أوصل إليه رحمتي بسرعة ، قال النَّووي : معناه : من تقرَّب إليَّ بطاعتي تقرَّبت إليه برحمتي ، وإن زاد زدت ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة ، أي : صببت عليه الرَّحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه إلىٰ المشي الكثير في الوصول إلىٰ المقصود . وقال في المطامح : الذِّراع والباع والشِّبر والهرولة ونحوها مقامات وأحوال مختلفة في الإجابة بحسب اختلاف درجات الخلق عند الحقِّ سبحانه . وقال القاضي : العبد لا يزال يتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بأنواع الطَّاعات وأصناف الرِّياضات ، ويترقَّىٰ من مقام إلىٰ آخر أعلىٰ منه حتَّىٰ يحبّه فيجعله مستغرقاً بملاحظة جناب قدُسه ، بحيث ما لاحظ شيئاً إلَّا لاحظ ربَّه ، فما التفت إلىٰ حاس ومحسوس ، وصانع ومصنوع ، وفاعل ومفعول إلَّا رأىٰ الله، وهو آخر درجات السَّالكين ، وأوَّل درجات الواصلين " . انظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤/ ٤٨٢) .

وقال الإمام مرعي بن يوسف بن أبىٰ بكر بن أحمد الكرمىٰ المقدسي الحنبلىٰ (١٠٣٣هـ) : " قَوْله : "وَمن أَتَانِي يمشي أَتَيْته هرولة " ، فَقَالُوا لَيْسَ المُرَاد بِهِ دنوّ الذَّات ، وإِنَّمَا المُرَاد قرب المنهل والحظ " . انظر : أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصِّفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص٢٢١) .

وقال الإمام محمَّد علي بن محمَّد بن علَّان الصدِّيقي الشَّافعي (١٠٥٧هـ) : " قال الكرماني : قامت البراهين القطعيَّة علىٰ استحالة هذه الإطلاقات علىٰ الله تعالىٰ ، فهي إذن علىٰ سبيل التَّجوُّز . والمعنىٰ : من أتىٰ شيئاً من الطَّاعات ولو قليلاً قابلته عليه بأضعاف من الإثابة والإكرام ، وكلَّما زاد في الطَّاعة زدته في الثَّواب ، وإن كان إتيانه بالطَّاعة علىٰ التَّأنِّي تكون كيفيَّة إتياني بالثَّواب علىٰ السُّرعة ، فالغرض أنَّ الثَّواب راجع علىٰ العمل مضاعف عليه ، وإطلاق النَّفس والتَّقرُّب والهرولة وهي من الإسراع ونوع من العدْو عليه تعالىٰ ، إنَّما هو مجاز علىٰ سبيل المشاكلة أو علىٰ

طريق الاستعارة أو على قصد إرادة لوازمها ، وهو من الأحاديث الدالَّة على كرم أكرم الأكرمين " . انظر : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢/ ٣١٣) .

وقال الإمام محمَّد علي بن محمَّد بن علَّان الصدِّيقي الشَّافعي أيضاً : " قال الباجي : وهو قدر أربعة أذرع (ومن أتاني يمشي) وأسرع نحو طاعتي (أتيته هرولة) ، أي : صببتُ عليه الرَّحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى مزيد مشي في وصوله لمراده ، والمقصود أنَّ جزاءه يكون على حسب عمله وتقرُّبه ، والهرولة بفتح الهاء وسكون الرَّاء وهي إسراع في المشي دون الخَبَب ، قال المصنِّف : هذا الحديث من أحاديث الصِّفات ، ومستحيل إرادة ظاهره لما فيه من باب التَّمثيل كما سيأتي ، قال القرطبي : إن قيل مقتضى ظاهر الخطاب أنَّ جزاء الحسنة بمثلها إذ الذِّراع شبران والباع ذراعان ، وتقدَّم في الكتاب والسُّنَّة أنَّ أقلَّ ما يجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف لا تحصى فما وجه الجمع؟ قلنا : هذا الحديث ما سيق لبيان مقدار عدد الأجور وعدد تضاعيفها ، وإنَّما سيق لتحقيق أنَّ الله تعالى لا يضيع عمل عامل قليلاً كان أو كثيراً ، وأنَّ الله يسرع إلى قبوله وإلى مضاعفة الثَّواب عليه إسراع من جيء إليه بشيء فبادر لأخذه وتبشبش له بشبشة من سرته ووقع منه الموقع ، ألا ترى إلى قوله : " وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" ، وفي لفظ آخر «أسرعت إليه» ولا تتقدَّر الهرولة والإسراع بضعفي المشي ، وأمَّا عدد الأضعاف فيؤخذ من حديث آخر لا من هذا الحديث ... أتيته هرولة " : أي صببت عليه الرَّحمة صبَّاً وسبقته بها ، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود) قال القرطبي : هذه الجمل أمثال ضربت لمن عمل من الطاعات وقصد به التَّقرُّب إلى الله تعالى تدلُّ على أنَّه تعالى لا يضيع أجر محسن ، وإن قلَّ عمله ، بل يقبله ويثيبه مضاعفاً ، ولا يفهم من الحديث الخطا بنقل الأقدام إلَّا من ساوى الحمر في الأفهام " . انظر : دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/ ٣١٠ -٣١١) .

وقال الإمام الصَّنعاني (١١٨٢هـ) : " أتيته هرولة " هي الإسراع في المشي ، قال النَّووي : معناه : من تقرَّب إليَّ بطاعاتي تقرَّبت إليه برحمتي ، وإن زاد زدته ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة ، أي : صببتُ عليه الرَّحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود " . انظر : التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ (٧/ ٦٠٥) .

وقال الإمام محمَّد بن محمَّد بن الحسيني الزَّبيدي الشَّهير بمرتضى (١٢٠٥هـ) : " قال النَّووي : معناه من تقرَّب إليَّ بطاعتى تقرَّبت اليه برحمتى ، وإن زاد زدت ، فإن أتاني يمشى وأسرع في طاعتي أتيته هرولة ، أي : صببتُ عليه الرَّحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود " . انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدِّين (٨/ ٣٣٣) .

وقال الإمام الزَّبيدي (١٢٠٥هـ) : " الهَرْوَلَةُ : بَيْنَ العَدْوِ والمَشْيِ ... وقِيل : هُوَ الإِسْراعُ فِي المَشْيِ ، وَمِنْهُ هَرْوَلَة الطّائِف . وَفِي الحَدِيْثِ : " مَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " وَهُوَ كِنَايَة عَن سُرْعَةِ إِجَابَة اللهِ – عزَّ وجلَّ – وَقَبُول تَوْبَةِ

العَبْدِ ولُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ . وَقِيْلَ : الهَرْوَلَةُ فَوْقَ المَشْيِ وَدُونَ الخَبَبِ ، والخَبَبُ دُونَ العَدْو " . انظر : تاج العروس من جواهر القاموس (٣١/ ١٣١) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد بن إسماعيل الطَّحطاوي الحنفي (١٢٣١هـ) : " قوله (من أتاني سعياً أتيته هرولة) أي : من اجتهد في طاعتي قابلته بأعظم منها " . انظر : حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح (ص٢٥٤) .

وقال الإمام المباركفوري (١٣٥٣هـ) : " أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً " أَيْ : صَبَبْتُ عَلَيْهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْتُهُ بِهَا وَلَمْ أُحْوِجْهُ إِلَى الْمَشْيِ الْكَثِيرِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُونُ تَضْعِيفَهُ عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ انْتَهَى . وكذا قال الطيبي والحافظ والعيني وبن بطان وبن التِّينِ وَصَاحِبُ الْمَشَارِقِ وَالرَّاغِبُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ " . انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي (١٠/ ٤٧) .

وقال الإمام أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ) : " أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي ، بأن أشرح له صدره ، وأسهّل له أمره " . انظر : تفسير المراغي (٢٥/ ٢٦) .

وقال الإمام فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحريملي النجدي (١٣٧٦هـ) : " أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» أيْ : صَبَبْتُ عَلَيهِ الرَّحْمَةَ وَسَبَقْتُهُ بِهَا وَلَمْ أحْوِجْهُ إِلَى المَشْيِ الكَثِيرِ في الوُصُولِ إِلَى المَقْصُودِ " . انظر : تطريز رياض الصالحين (ص٢٨٠) .

وقال الإمام عبد القادر بن ملّا حويش السيِّد محمود آل غازي العاني (١٣٩٨هـ) : " وهذا من أحاديث الصِّفات وهي كآيات الصِّفات ... وبينَّا أنَّ السَّلف الصَّالح يتركونها على حالها ، والخلف النَّاجح يؤولونها ، فيقولون في مثل هذا الحديث : من تقرَّب إليَّ بالطَّاعات تقرَّبت برحمتي ومن أتاني أتته رحمتي أو خيري وبركتي بحسب ما يناسب المقام " . انظر : بيان المعاني (٣/ ٤٣٣) .

وقال الشيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) : " وذهب بعض النَّاس إلى أنَّ قوله تعالى في هذا الحديث القدسي : "أتيته هرولة" يراد به : سرعة قبول الله تعالى وإقباله على عبده المتقرّب إليه ، المتوجه بقلبه وجوارحه ، وأنَّ مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل . وعلَّل ما ذهب إليه بأنَّ الله تعالى قال : "ومن أتاني يمشي" ومن المعلوم أنَّ المتقرِّب إلى الله عزَّ وجلَّ ، الطَّالب للوصول إليه ، لا يتقرَّب ويطلب الوصول إلى الله تعالى بالمشي فقط ، بل تارة يكون بالمشي كالسَّير إلى المساجد ، ومشاعر الحج ، والجهاد في سبيل الله ، ونحوها . وتارة بالركوع والسجود ونحوهما . وقد ثبت عن النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد ، بل قد يكون التقرُّب إلى الله تعالى وطلب الوصول إليه والعبد مضطجع على جنبه ، كما قال الله تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ**

(الْحجر الْأسود يَمِين الله فِي الأَرْض) وَمن قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِكَايَة عَن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (أَنا جليس من ذَكرنِي)

وكل هَذِه هَل تأمن من المجسِّم أَن يَقُول لَك ظواهر هَذِه كَثْرَة تفوت الْحصْر أَضْعَاف أَحَادِيث الْجِهَة فَإِن كَانَ الْأَمر كَمَا يَقُول فِي نفي الجسميَّة مَعَ أَنَّه لم يَأْتِ فِي شَيْء من هَذِه مَا يبن خلاف ظواهرها لَا عَن الله تَعَالَى وَلَا عَن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَن سلف الْأمَّة فَحِينَئِذٍ يَكِيل لَك المجسم بصاعك وَيَقُول لَك لَو كَانَ الْأَمر كَمَا قلت لَكَانَ ترك النَّاس بِلَا كتاب وَلَا سنة أَهْدى لَهُم .

وَإِن قلت إِن العمومات قد بيّنت خلاف ظواهر هَذِه لم نجد مِنْهَا نافيا للجسمية إِلَّا وَهُوَ ناف للجهة .

ثمَّ مَا يُؤمنك من تناسخي يفهم من قَوْله : ٱُّٱّٰ ئر ئز ئم ئن ئى ّ [الإنفطار:٨] مذْهبه من معطل يفهم من قَوْله تَعَالَى : ٱُّٱ بج بح بخ ّ [يس:٣٦] مُرَاده فَحِينَئِذٍ لَا تَجِد مساغاً لما تغصُّ بِهِ من ذَلِك إِلَّا الْأَدِلَّة الْخَارِجَة عَن هَذِه الْأَلْفَاظ ثمَّ صَار حَاصِل كلامك أَن مقَالَة الشَّافِعِيَّة وَالْحَنَفِيَّة والمالكية يلْزمهَا أَن يكون ترك النَّاس بِلَا كتاب وَلَا سنة أَهْدى لَهُم أفتراهم يكفرونك بذلك أم لَا .

ثمَّ جعلت أَن مُقْتَضى كَلَام الْمُتَكَلِّمين أَن الله تَعَالَى وَرَسُوله وَسلف الْأمة تركُوا العقيدة حَتَّى بَينهَا هَؤُلَاءِ فَقل لنا إِن الله وَرَسُوله وَسلف الْأمة بينوها ثمَّ انقل عَنْهُم أَنهم قَالُوا كَمَا تَقول إِن الله تَعَالَى فِي جِهَة الْعُلُوّ لَا فِي جِهَة السّفل وَإِن الْإِشَارَة الحسية جَائِزَة إِلَيْهِ فَإِذا لم تَجِد ذَلِك فِي كتاب الله تَعَالَى وَلَا كَلَام رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا كَلَام أحد من الْعشْرَة وَلَا كَلَام أحد من السَّابِقين الْأَوَّلين من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار رَضِي الله عَنْهُم فعد على نَفسك باللائمة وَقل لقد أَلزمت الْقَوْم بِمَا لَا يلْزمهُم وَلَو لَزِمَهُم لَكَانَ عَلَيْك اللوم .

ثمَّ قلت عَن الْمُتَكَلِّمين إِنَّهُم يَقُولُونَ مَا يكون على وفْق قِيَاس الْعُقُول فقولوه وَإِلَّا فانفوه .

قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ ، وقال النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمران بن حصين : "صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب .

قال : فإذا كان كذلك ، صار المراد بالحديث بيان مجازاة الله تعالى العبد على عمله ، وأنَّ من صدق في الإقبال على ربّه وإن كان بطيئاً جازاه الله تعالى بأكمل من عمله وأفضل ، وصار هذا هو ظاهر اللفظ بالقرينة الشَّرعيَّة المفهومة من سياقه " . انظر : القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى (ص٧١) .

وقال الشَّيخ محمَّد بن صالح بن محمَّد العثيمين (١٤٢١هـ) : " أتيته هرولة " أي : صببتُ عليه الرَّحمة ، وسبقته بها ، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود " . انظر : شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٠٥) .

وَالْقَوْم لم يَقُولُوا ذَلِك بل قَالُوا صفة الْكَمَال يجب ثُبُوتهَا لله وَصفَة النَّقْص يجب نَفيهَا عَنهُ .
كَمَا قَالَه الإِمَام أَحْمد رَضِي الله عَنهُ قَالُوا وَمَا ورد من الله تَعَالَى وَمن رَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليعرض على لُغَة الْعَرَب الَّتِي أرسل الله تَعَالَى مُحَمَّداً بلغتهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﭐﱡﭐ لى لي ما **مم نر نز نم** ﱠ [إبراهيم:٤] فَمَا فهمت الْعَرَب فافهمه وَمن جَاءَك بِمَا يُخَالفهُ فانبذ كَلَامه نبذ الْحذاء المرقع وَاضْرِبْ بقوله حَائِط الحش
ثمَّ نعقد فصلا إِن شَاءَ الله تَعَالَى بعد إِفْسَاد مَا نزع بِهِ فِي سَبَب وُرُود هَذِه الْآيَات على هَذَا الْوَجْه فَإِنَّهُ إِنَّمَا تلقف مَا نَزغ بِهِ فِي مُخَالفَة الْجَمَاعَة وأساء القَوْل على الْملَّة من حثالة الْمَلَاحِدَة الطاعنين فِي الْقُرْآن وسنبين إِن شَاءَ الله تَعَالَى ضلالهم وَيعلم إِذْ ذَاك من هُوَ من فراخ الفلاسفة والهنود ثمَّ لَو استحيى الغافل لعرف مِقْدَار عُلَمَاء الْأمة رَحِمهم الله تَعَالَى ثمَّ هَل رأى من رد على الفلاسفة والهنود وَالروم وَالْفرس غير هَؤُلَاءِ الَّذين جعلهم فراخهم وَهل اتكلوا فِي الرَّد على هَذِه الطوائف على قوم لَا عقل لَهُم وَلَا بَصِيرَة وَلَا إِدْرَاك ثمَّ يذرونهم يستدلون على إِثْبَات الله تَعَالَى فِي الْحجَّاج على منكره بِالنَّقْلِ وعَلى منكري النُّبُوَّة بِالنَّقْلِ حَتَّى يصير مُضْغَة للماضغ وضحكة للمستهزئ وشماتة لِلْعَدو وفرحا للحسود وَفِي قصَّة الْحسن بن زِيَاد اللؤْلُؤِي عِبْرَة للمعتبر
ثمَّ أَخذ بعد هَذَا فِي أَن الْأُمُور الْعَامَّة إِذا نفيت عَنْهَا إِنَّمَا يكون دلالتها على سَبِيل الإلغاز
قُلْنَا وَكَذَلِكَ المجسم يَقُول لَك دلَالَة الْأُمُور الْعَامَّة على نفي الجسمية إلغاز
ثمَّ قَالَ بعد هَذَا يَا سُبْحَانَ الله كَيفَ لم يقل الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْماً مَا الدَّهْر وَلَا أحد من سلف الْأمة هَذِه الْآيَات وَالْأَحَادِيث لَا تعتقدوا مَا دلّت عَلَيْهِ فَيُقَال لَهُ مَا الَّذِي دلّت عَلَيْهِ حَتَّى يَقُولُوا إِنَّه لَا يعْتَقد هَذَا تشنيع بحت
ثمَّ يَقُول لَك المجسم يَا سُبْحَانَ الله لم يقل رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أحد من سلف الْأمة إِن الله تَعَالَى لَيْسَ بجسم وَلَا قَالُوا لَا تعتقدوا من الْأَحَادِيث الموهمة للجسمية ظواهرها ثمَّ اسْتدلَّ بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صفة الْفرْقَة النَّاجِية (هُوَ من كَانَ على مثل مَا أَنا عَلَيْهِ الْيَوْم وأصحابي) قَالَ الْمُدَّعِي فَهَلا قَالَ من تمسك بِظَاهِر الْقُرْآن فِي آيَات الِاعْتِقَاد فَهُوَ ضال وَإِنَّمَا الْهدى رجوعكم إِلَى مقاييس عقولكم
فَليعلم النَّاظر أَنه هَا هُنَا باهت وزخرف وتشبع بِمَا لم يُعْطه فَإِنَّهُ قد ثَبت أَن طَرِيق رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه رَضِي الله عَنْهُم الْكَفّ عَن ذَلِك فَمَا نَحن الآمرون بِهِ وَأَنه هُوَ لَيْسَ بساكت بل طَرِيقه الْكَلَام وَأمر الدهماء بِوَصْف الله تَعَالَى بِجِهَة الْعُلُوّ وتجويز الْإِشَارَة الحسية إِلَيْهِ فليت شعري من الْمُوَافق رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه وَلَكِن صدق الْقَائِل رمتني بدائها وانسلت

ثمَّ المجسم يَقُول لَهُ حَذْو النَّعْل بالنعل مَا قَالَه لنا ونقول لَهُ لم لَا قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاجِية من قَالَ إِن الله فِي جِهَة الْعُلُوّ وَإِن الْإِشَارَة الحسية إِلَيْهِ جَائِزَة فَإِن قَالَ هَذِه طَرِيقَة السّلف وطَرِيقَة الصَّحَابَة قُلْنَا من أَيْن لَك هَذَا ثمَّ لَا تأمن من كل مُبْتَدع أَن يَدعِي ذَلِك

ثمَّ أَفَادَ الْمُدَّعِي وَأَسْندَ أَن هَذِه الْمقَالة مَأْخُوذَة من تلامذة الْيَهُود وَالْمُشْركين وضلال الصابئين

قَالَ فَإِن أول من حفظ عَنهُ هَذِه الْمقَالة الْجَعْد بن دِرْهَم وَأَخذهَا عَنهُ جهم ابْن صَفْوَان وأظهرا فنسبت مقَالَة الْجَهْمِية إِلَيْهِ قَالَ والجعد أَخذهَا عَن أبان بن سمْعَان وَأَخذهَا أبان من طالوت بن أُخْت لبيد بن الأعصم وَأَخذهَا طالوت من لبيد الْيَهُودِيّ الَّذِي سحر النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم

قَالَ وَكَانَ الْجَعْد هَذَا فِيمَا يُقَال من أهل حران

فَيُقَال لَهُ أَيهَا الْمُدَّعِي أَن هَذِه الْمقَالة مَأْخُوذَة من تلامذة الْيَهُود قد خَالَفت الضَّرُورَة فِي ذَلِك فَإِنَّهُ مَا يخفى على جَمِيع الْخَواص وَكثير من الْعَوام أَن الْيَهُود مجسمة مشبهات فَكيف يكون ضد التجسيم والتشبيه مأخوذا عَنْهُم وَأما الْمُشْركُونَ فَكَانُوا عباد أوثان وَقد بيّنت الْأَئِمَّة أَن عَبدة الْأَصْنَام تلامذة المشبهة وَأَن أصل عبَادَة الصَّنَم التَّشْبِيه فَكيف يكون نَفْيه مأخوذا عَنْهُم وَأما الصابئة فبلدهم مَعْرُوف وإقليمهم مَشْهُور وَهل نَحن مِنْهُ أَو خصومنا وَأما كَون الْجَعْد ابْن دِرْهَم من أهل حران فالنسبة صَحِيحَة وترتيب هَذَا السَّنَد الَّذِي ذكره سيسأله الله تَعَالَى عَنهُ وَالله من وَرَائه بالمرصاد وليت لَو أتبعه أَن سَنَد دَعْوَاهُ وعقيدته أَن فِرْعَوْن ظن أَن إِلَه مُوسَى فِي السَّمَاء

ثمَّ أَضَاف الْمقَالة إِلَى بشر المريسي وَذكر أَن هَذِه التأويلات هِيَ الَّتِي أبطلتها الْأَئِمَّة ورد بهَا على بشر وَأَن مَا ذكره الْأُسْتَاذ أَبُو بكر بن فورك وَالْإِمَام فَخر الدّين الرَّازِيّ قدس الله روحهما هُوَ مَا ذكره بشر وَهَذَا بهرج لَا يثبت على محك النّظر القويم وَلَا معيار الْفِكر الْمُسْتَقيم فَإِنَّهُ من الْمحَال أَن تنكر الْأَئِمَّة على بشر أَن يَقُول مَا تَقوله الْعَرَب وَهَذَانِ الإمامان مَا قَالَا إِلَّا مَا قالته الْعَرَب وَمَا الْإِنْكَار على بشر إِلَّا فِيمَا يُخَالف فِيهِ لُغَة الْعَرَب وَأَن يَقُول عَنْهَا مَا لم تقله ثمَّ أَخذ بعد ذَلِك فِي تَصْدِيق عزوته إِلَى الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار رَضِي الله عَنْهُم وَشرع فِي النَّقْل عَنْهُم فَقَالَ قَالَ الْأَوْزَاعِيّ كُنَّا والتابعون متوافرون نقُول إِن الله تَعَالَى ذكره فَوق عَرْشه

فَنَقُول لَهُ : أول مَا بدأت بِهِ الْأَوْزَاعِيّ وطبقته وَمن بعدهمْ فَأَيْنَ السَّابِقُونَ الْأَولونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار وَأما قَول الْأَوْزَاعِيّ فَأَنت قد خالفته وَلم تقل بِهِ لِأَنَّك قلت إِن الله لَيْسَ فَوق عَرْشه لِأَنَّك قررت أَن الْعَرْش وَالسَّمَاء لَيْسَ المُرَاد بهما إِلَّا جِهَة الْعُلُوّ وَقلت المُرَاد من فَوق عَرْشه وَالسَّمَاء ذَلِك فقد خَالَفت قَول الْأَوْزَاعِيّ

صَرِيحاً مَعَ أَنَّك لم تقل قطّ مَا يفهم فَإِن قررت أَن السَّمَاء فِي الْعَرْش كحلقة ملقاة فِي فلاة فَكيف تكون هِيَ هُوَ ثمَّ من أَيْن لَك صِحَة هَذَا النَّقْل عَن الْأَوْزَاعِيّ

وَبعد مساحتك فِي كل ذَلِك مَا قَالَ الْأَوْزَاعِيّ الله فَوق الْعَرْش حَقِيقَة فَمن أَيْن لَك هَذِه الزِّيَادَة

وَنقل عَن مَالك بن أنس وَالثَّوْري وَاللَّيْث وَالْأَوْزَاعِيّ أَنهم قَالُوا فِي أَحَادِيث الصِّفَات أمروها كَمَا جَاءَت فَيُقَال لَهُ لم لَا أَمْسَكت على مَا أمرت بِهِ الْأَئِمَّة بل وصفت الله بِجِهَة الْعُلُوّ وَلم يرد بذلك خبر وَلَو بذلت قرَاب الأَرْض ذَهَبا على أَن تسمعها من عَالم رباني لم تفرح بذلك بل تصرفت ونقلت على مَا خطر لَك وَمَا أمرت وَلَا أَقرَرت وَلَا امتثلت مَا نقلته عَن الْأَئِمَّة ، وروى قَول ربيعَة وَمَالك : الاسْتوَاء غير مَجْهُول (٦٨) .

---

(٦٨) والحقُّ أنَّ هذا الكلام نُسب إلىٰ السيِّدة أمّ سلمة رضي الله عنها ، وربيعة بن عبد الرَّحْمَن ، ومالك بن أنس ، وهو كلام تناقلته الكتب مع أنَّه وبعد عرضه علىٰ المسبار العلمي تبيَّن أنَّه لا يثبت عن واحد من هؤلاء الثلاثة ...

قال الأستاذ حسان عبد المنان : "ليس لها إسناد يثبت وإليك تفصيله :

رواه اللالكائي في "شرح أصول الاعتقاد" (٦٦٤) ، وإسماعيل بن عبد الرَّحْمَن الصَّابوني في "عقيدة السَّلف" (١/ ١١٠-١١١) (من الرَّسائل المنيريَّة) ، وأبو نعيم في "الحلية" (٦/ ٣٢٥-٣٢٦) من طريق سلمة بن شبيب ، عن مهدي بن جعفر ، عن جعفر بن عبد الله ، عن مالك بن أنس . وتابعه الدَّارمي في (الرَّد علىٰ الجهميَّة) (ص٢٨٠) ، فقال : عن مهدي بن جعفر ، عن جعفر بن عبد الله ، عن رجل قد سمَّاه لي ، قال : جاء رجل إلىٰ مالك بن أنس ... وفي هذا الإسناد ثلاث علل : رواية الدَّارمي المخالفة لرواية سلمة بن شبيب ، فزاد فيها رجلاً مجهولاً ، وجهالة جعفر بن عبد الله فإني لم أتبيّنه ، وما عند الدَّارمي في روايته من توثيقه لا يُحسن أمره وحاله ، وأمَّا مهدي بن جعفر –وهو الرَّملي– ففيه نظر ، إذ نقلوا أنَّ ابن عدي قال : يروي عن الثِّقات أشياء لا يتابعه عليها أحد ، وهذا يُشعر بنكارة حديثة ، وهو ما حكم به البخاري ، فقال : حديثه منكر (التَّهذيب) . ورواه ابن عبد البر في (التَّمهيد) (٧/ ١٥١) من طريق بقي بن مخلد ، حدَّثنا بكَّار بن عبد الله القرشي ، حدَّثنا مهدي بن جعفر ، عن مالك بن أنس به ، وفي هذه الرِّواية وهمٌ وتدليس كأنَّه من بكَّار بن عبد الله ، فقد أسقط من بين مهدي بن جعفر ومالك ، وقد بيّنَّا ذلك في الرِّواية السَّابقة . ورواه إسماعيل بن عبد الرَّحْمَن الصَّابوني (١/ ١١٠) عن أبي الحسن بن إسحاق المدني ، حدَّثنا أحمد بن الخضر أبو الحسن الشَّافعي ، حدَّثنا شاذان ، حدَّثنا ابن مخلد بن يزيد القهستاني ، حدَّثنا أحمد بن ميمون ، قال : سئل مالك بن أنس ... . وهذا إسناد لا يصحُّ أيضاً ، فجعفر بن ميمون هو الأنماطي ، وهو ضعيف ، وشاذان وشيخه لم أعثر لهما علىٰ ترجمة!! ورواه البيهقي في (الأسماء والصِّفات) (ص٤٠٨) عن أبي عبد الله ، أخبرني أحمد بن محمَّد بن إسماعيل بن مهران ، حدَّثنا أبي ، حدَّثنا أبو الرَّبيع ابن أخي رشدين بن سعد ، قال : سمعت عبد الله بن وهب يقول : كُنّا عند مالك بن أنس ... فذكره . وهذا إسناد لا يصح أيضاً –وإن جوَّد إسناده ابن حجر في (الفتح) (١٣/ ٤٠٧) ، فأبو الرَّبيع لم أعرفه ، وأحمد : لم أعثر له علىٰ ترجمة ، وأبوه مترجم في (اللسان) ٥/ ٨١-٨٢) وفيه نظر وضعف في آخر ستّ سنوات من عمره .ورواه البيهقي (ص٤٠٨) عن أبي بكر أحمد بن محمَّد بن

فليت شعري من قَالَ إِنَّه مَجْهُول بل أَنْت زعمت أَنه لِمَعْنى عينته وَأَرَدْت أَن تعزوه إِلَى الْإِمَامَيْنِ وَنحن لَا نسمح لَك بذلك ثمَّ نقل عَن مَالك أَنه قَالَ للسَّائِل الْإِيمَان بِهِ وَاجِب وَالسُّؤَال عَنهُ بِدعَة وَمَا أَرَاك إِلَّا مبتدعاً ، فَأمر بِهِ فَأخْرج .

فَيُقَال لَهُ : لَيْت شعري من امتثل منا قَول مَالك ، هَل امتثلناه نَحن حَيْثُ أمرنَا بالإمساك وألجمنا الْعَوام عَن الْخَوْض فِي ذَلِك أَو الَّذِي جعله دراسته يلقيه ويلفقه ويلقنه ويكتبه ويدرسه وَيَأْمُر الْعَوام بالخوض فِيهِ وَهل أنكر على المستفتي فِي هَذِه الْمَسْأَلَة بِعَينهَا وَأخرجه كَمَا فعل مَالك رَضِي الله عَنهُ فِيهَا بِعَينهَا وَعند ذَلِك يعلم أَن مَا نَقله عَن مَالك حجَّة عَلَيْهِ لَا لَهُ .

الحارث الفقيه الأصفهاني ، أخبرنا أبو محمَّد –عبد الله بن محمَّد بن جعفر بن حيّان المعروف بأبي الشَّيخ ، حدَّثنا أبو جعفر بن زيرك البزي ، سمعت محمَّد بن عمرو بن النضر النَّيسابوري يقول : سمعت يحيىٰ بن يحيىٰ يقول : كُنّا عند مالك بن أنس فجاء رجل ... فذكره . وهذا إسناد لا يصحُّ أيضاً ، فابن زيرك لم أجد له ترجمة ، ومحمَّد بن عمرو بن النَّضر ذكره ابن حجر في (نزهة الألباب) (٢/ ٩٢) ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . انظر : (سير أعلام النُّبلاء) (٨/ ١٠٠–١٠١) . ورواه ابن عبد البر في (التَّمهيد) (٧/ ١٥١) عن محمَّد بن مالك ، قال : حدَّثنا عبد الله بن يونس ، قال : حدَّثنا بقي بن مخلد ، قال : حدَّثنا أيوب بن صلاح المخزومي بالرَّملة ، قال : كُنا عند مالك إذ جاءه عراقي ، فقال له : إنَّما ... فذكره . كذا في المطبوع : (أيُّوب بن صلاح) وهو تحريف ، إنَّما هو أيُّوب بن صالح بن سلمة الحرَّاني المخزومي ، وهو ضعيف ، ضعَّفه ابن معين وغيره . انظر ترجمته في (اللسان) (١/ ٤٨٣–٤٨٤) . وبهذا يتبيَّن لك خطأ الذَّهبي في قوله في (العلو) (ص١٤١ مختصره) : (هذا ثابت عن مالك) ، ومن ثُمَّ خطأ كلّ من سلم بما نُسب إلىٰ الإمام مالك رحمه الله ، لأنَّ أسانيده لا تقوم لذلك .

وقد يرد علينا أنَّ ذلك بمجموع هذه الطُّرق والأسانيد يصحّ .

فنقول : إنَّ مثل هذه الأسانيد لا تتقوَّىٰ ، وليس عجيباً أن تتكثر ، لأنَّ الفتنة في هذه المسألة قد انتشرت في ذلك الحين ، ونسب زوراً هذا القول إلىٰ مالك وغيره ، فتناقله مجاهيل من النَّاس لا يُعرفون بصحيح علم ، ولا توثيق ، فانتشرت لشائعتها ، وإلَّا فقل لي –بربِّك– : "أين الثِّقات من تلامذة الإمام مالك ، وتلامذتهم عن مثل هذه الحادثة ، وهذا القول؟!! وفي الباب ممَّا روي بنحوه :

١ .قول أمِّ سلمة : رواه اللالكائي (٦٦٣) ، والصَّابوني في (عقيدة السَّلف) (١/ ١١٠) ، وابن قدامة في (العلو) (٨٢) ، وفي إسناده محمَّد بن أشرس ، وهو متَّهم في الحديث ، وقد تركه غير واحد ، وقال ابن تيمية في (الفتاوىٰ) (٥/ ٣٦٥) : وقد روي هذا الجواب عن أمِّ سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس إسناده ممَّا يعتمد عليه .

٢ .قول ربيعة شيخ الإمام مالك : رواه اللالكائي (٦٦٥) ، والبيهقي (ص٤٠٨–٤٠٩) ، ابن قدامة في (العلو) (٩٠) ... بأسانيد لا تصحّ ، وعلىٰ أي فالقضَّية تبقىٰ رأياً من عالم غير ملزم للنَّاس ، ولا قاطع للجدل والفهم ، ولا محدِّد لفهم واحد ، بل لكلٍّ متَّسع فيما يرىٰ ... والله أعلم) . انظر : مجموعة رسائل محمَّد نسيب الرفاعي للعلامة حسان عبد المنان ، ص٢٨–٢٩ ، المكتب الإسلامي ، ط١ ، ١٩٩٣م .

ثمّ نقل عَن عبد الْعَزِيز بن عبد الله بن أبي سَلَمَة الْمَاجشون (٦٩) أَنّه قَالَ وَقد سُئِلَ عَمَّا جحدت بِهِ الْجَهْمِية : أَمَّا بعد ، فقد فهمت فِيمَا سَأَلت فِيمَا سامعت الْجَهْمِيَّة وَمن خالفها فِي صفة الرَّب الْعَظِيم الَّذِي فاقت عَظمته الْوَصْف وَالتَّقْدِير ، وكلَّت الألسن عَن تَفْسِير صفته ، وانحسرت الْعُقُول دون معرفَة قدرته ، ردَّتْ عَظمته الْعُقُول ، فَلم تَجِد مساغاً ، فَرَجَعت خاسئة وَهِي حسيرة ، وَإِنَّمَا أمروا بِالنَّظرِ والتَّفكُّر فِيمَا خلق بالتَّقدير ، وَإِنَّمَا يُقَال : كَيفَ لمن لم يكن مرَّة ثمَّ كَانَ ، فَأَمَّا الَّذِي لَا يحول وَلَا يَزُول ، وَلم يزل ، وَلَيْسَ لَهُ مثل ، فَإِنَّهُ لَا يعلم كَيفَ هُوَ إِلَّا هُوَ ، وَكَيف يعرف قدر من لم يبْدَأ وَمن لَا يَمُوت وَلَا يبْلى ؟ وَكَيف يكون لصفة شَيْء مِنْهُ حد أَو مُنْتَهى يعرفهُ عَارِف ، أَو يحدّ قدره واصف ؟ على أَنّه الْحق الْمُبين ، لَا حقَّ أَحَق مِنْهُ ، وَلَا شَيْء أبين مِنْهُ .

وَالدَّلِيل على عجز الْعُقُول عَن تَحْقِيق صفته عجزها عَن تَحْقِيق صفة أَصْغَر خلقه ، فَلَا تكَاد ترَاهُ صَغِيرًا يحول وَيَزُول ، وَلَا يرى لَهُ سمع وَلَا بصر ، بل مَا يتقلب بِهِ ويحتال من عقله أعضل بك وأخفى عَلَيْك مِمَّا ظهر من سَمعه وبصره ، فَتَبَارَكَ الله أحسن الْخَالِقِينَ ، وخالقهم ، وَسيِّد السَّادات وربّهم .

---

(٦٩) قال الذهبي في ترجمته في " سير أعلام النبلاء" (١٠/ ٣٥٩) : " العَلاَّمَةُ، الفَقِيْهُ، مُفْتِي المَدِيْنَةِ، أَبُو مَرْوَانَ عَبْدُ المَلِكِ ابْنُ الإِمَامِ عَبْدِ العَزِيْزِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ أَبِي سَلَمَةَ بنِ المَاجَشُوْنِ التَّيْمِيُّ مَوْلاَهُمْ، المَدَنِيُّ، المَالِكِيُّ، تِلْمِيْذُ الإِمَامِ مَالِكٍ.

حَدَّثَ عَنْ: أَبِيْهِ، وَخَالِهِ؛ يُوْسُفَ بنِ يَعْقُوْبَ المَاجَشُوْنِ، وَمُسْلِمٍ الزَّنْجِيِّ، وَمَالِكٍ، وَإِبْرَاهِيْمَ بنِ سَعْدٍ، وَطَائِفَةٍ.

حَدَّثَ عَنْهُ: أَبُو حَفْصٍ الفَلاَّسُ، وَمُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى الذُّهْلِيُّ، وَعَبْدُ المَلِكِ بنُ حَبِيْبٍ الفَقِيْهُ، وَالزُّبَيْرُ بنُ بَكَّارٍ، وَيَعْقُوْبُ الفَسَوِيُّ، وَسَعْدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ الحَكَمِ، وَآخَرُوْنَ.

قَالَ مُصْعَبُ بنُ عَبْدِ اللهِ: كَانَ مُفْتِي أَهْلِ المَدِيْنَةِ فِي زَمَانِهِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ: كَانَ فَقِيْهاً، فَصِيْحاً، دَارَتْ عَلَيْهِ الفُتْيَا فِي زَمَانِهِ، وَعَلَى أَبِيْهِ قَبْلَهُ، وَكَانَ ضَرِيْراً.

قِيْلَ: إِنَّهُ عَمِيَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ. قَالَ: وَكَانَ مُوْلَعاً بِسَمَاعِ الغِنَاءِ .

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ المُعَذَّلِ الفَقِيْهُ: كُلَّمَا تَذَكَّرْتُ أَنَّ التُّرَابَ يَأْكُلُ لِسَانَ عَبْدِ المَلِكِ بنِ المَاجَشُوْنِ، صَغُرَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي .

وَكَانَ ابْنُ المُعَذَّلِ مِنَ الفُصَحَاءِ المَذْكُوْرِيْنَ، فَقِيْلَ لَهُ: أَيْنَ لِسَانُكَ مِنْ لِسَانِ أُسْتَاذِكَ عَبْدِ المَلِكِ؟

فَقَالَ: لِسَانُهُ إِذَا تَعَايَى، أَحْيَى مِنْ لِسَانِي إِذَا تَحَايَى .

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: كَانَ لاَ يَعقِلُ الحَدِيْثَ -يَعْنِي: لَمْ يَكُنْ مِنْ فُرْسَانِهِ- وَإِلاَّ فَهُوَ ثِقَةٌ فِي نَفْسِهِ.

قَالَ يَحْيَى بنُ أَكْثَمَ: كَانَ عَبْدُ المَلِكِ بَحْراً لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ .

تُوُفِّيَ: سَنَةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ وَمائَتَيْنِ. وَقِيْلَ: سَنَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ" .

ثمَّ نقل عَنهُ الْأَحَادِيث الْوَارِدَة فِي الصِّفَات وَذكر قَوْله : ﴿وَما قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] . قَالَ : فوَاللهَّ مَا دلَّهم على عَظِيم مَا وصف من نَفسه ، وَمَا تحيط بِهِ قَبضته إِلَّا صغر نظرها مِنْهُم عِنْدهم أَنَّ ذَلِك الَّذِي أُلقِي فِي رُوْعهم وَخلق على معرفَة قُلُوبهم ، فَمَا وصف من نَفسه فَسَمَّاهُ على لِسَان رَسُوله صَلَّى اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمَّيناه كَمَا سَمَّاهُ وَلم نتكلَّف مِنْهُ صفة مَا سواهُ ، لَا هَذَا وَلَا هَذَا ، لَا نجحد مَا وصف ، وَلَا نتكلَّف معرفَة مَا لم يصف ، وَبسط الْمَاجشون كَلَامه فِي تَقْرِير هَذَا .

فَنَقُول لهَذَا الحاكي : نعم الْحجَّة أتيت بهَا ، وَلَكِن لنا ، وَنعم السِّلَاح حملت ، وَلَكِن للعدى .

أَمَّا كَلَام عبد الْعَزِيز رَضِي الله عَنهُ وَمَا ذكر من كبرياء الله وعظمت ،ه وَأَنَّهَا تحير الْعُقُول ، وتشدَهْ الفهوم ، فَهَذَا قَالَه الْعلمَاء نظماً ونثراً ، وَأَنت أزريت على سَادَات الْأَئِمَّة وأعلام الْأمة فِي ثَانِي صفحة نزغت بهَا ، حَيْثُ اعْتَرَفُوا بِالْعَجزِ وَالتَّقْصِير ، ونعيت عَلَيْهِم ذَلِك ، وعددته عَلَيْهِم ذَنباً ، وَأَنت مَعْذُور وهم معذورون ، وَجعلت قَول عبد الْعَزِيز حجَّتك وَقد ذكر فِي القبضة مَا يَقُوله المتكلمون فِي كلِّ مَوضِع ، وَأمر عبد الْعَزِيز أَن يصف الرَّب بِمَا وصف بِهِ نَفسه ، وَأَن يسكت عَمَّا وَرَاء ذَلِك ، وَذَلِكَ قَوْلنَا وَفعلنَا وعقدنا وَأَنت وَصفته بِجِهَة الْعُلُوّ ، وَمَا وصف بهَا نَفسه وجوزت الْإِشَارَة الحسيَّة إِلَيْهِ ، وَمَا ذكرهَا ، وَنحن أمرَرْنا الصِّفَات كَمَا جَاءَت ، وَأَنت جمعت بَين الْعَرْش وَالسَّمَاء بِجِهَة الْعُلُوّ ، وَقلت فِي السَّمَاء حَقِيقَة ، وَفِي الْعَرْش حَقِيقَة ، فسبحان واهب الْعُقُول ، وَلَكِن كَانَ ذَلِك فِي الْكتاب مسطوراً .

ثمَّ ذكر عَن مُحَمَّد بن الْحسن اتِّفَاق الْفُقَهَاء على وصف الرَّب بِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآن وَأَحَادِيث الصِّفَات .

فَنَقُول لَهُ : نَحن لَا نَتْرُك من هَذَا حرفاً ، وَأَنت قلت : أصف الرَّب تَعَالَى بِجِهَة الْعُلُوّ ، وأجوِّز الْإِشَارَة الحسيَّة إِلَيْهِ ، فَأَيْنَ هَذَا فِي الْقُرْآن وأخبار الثِّقَات ؟ مَا أفدتنا فِي الْفتيا من ذَلِك شَيْئاً .

وَنقل عَن أبي عبيد الله الْقَاسِم بن سَلام رَضِي الله عَنهُ (٧٠) أَنَّه قَالَ : إِذا سئلنا عَن تَفْسِيرهَا لَا نفسِّرها (٧١) ، وَأَنَّه قَالَ : مَا أدركنا أحداً يُفَسِّرهَا .

---

(٧٠) هو الإِمَامُ، الحَافِظُ، المُجْتَهِدُ، ذُو الفُنُوْنِ، أَبُو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سَلاَّمِ بنِ عَبْدِ اللهِ. مات سنة (٢٢٤هـ) . انظر : سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٩٠) .

(٧١) التَّفسير في اللغة مصدر فَسر ، ويعني الإيضاح والتَّبيين ، قال الإمام ابن منظور : " الفَسْرُ : الْبَيَانُ . فَسَر الشَّيءَ يفسِرُه ، بالكَسر ، ويفْسُرُه ، بِالضَّمِّ ، فَسْراً وفَسَّرَهُ : أَبانه ... والفَسْرُ : كَشْفُ المُغَطّىِ ، والتَّفْسير كَشف المُراد عَنِ

اللَّفْظِ الْمُشْكل ... واسْتَفْسَرْتُه كَذَا أَي سأَلته أَن يُفَسِّره لِي . والفَسْر : نَظَرُ الطَّبِيبِ إِلَى الْمَاءِ ، وَكَذَلِكَ التَّفْسِرةُ ... وَكُلُّ شَيْءٍ يُعْرَفُ بِهِ تَفْسِيرُ الشَّيْءِ وَمَعْنَاهُ، فَهُوَ تَفْسِرَتُه " . انظر : لسان العرب (٥/ ٥٥) .

فالتَّفسير هو إيضاح المعنى وبيانه ، ويفيد معنى الإظهار والكشف ... وجاءت كلمة التَّفسير في القرآن مرَّة واحدة في قوله تعالى : **﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾** [الفرقان: ٣٣] ، أي : بياناً وتفصيلاً ...

والتَّفسير في الاصطلاح : " عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ فَهْمُ كِتَابِ اللهِ الْمُنَزَّلِ عَلَى نَبِيِّهِ محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَيَانُ مَعَانِيهِ ، وَاسْتِخْرَاجُ أَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ ، وَاسْتِمْدَادُ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَعِلْمِ الْبَيَانِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْقِرَاءَاتِ ، وَيَحْتَاجُ لِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ " . انظر : البرهان في علوم القرآن (١/ ١٣) .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : التَّفْسِيرُ فِي الِاصْطِلَاحِ : علم نزول الآيات وشئونها وَأَقَاصِيصِهَا ، وَالْأَسْبَابِ النَّازِلَةِ فِيهَا ثُمَّ تَرْتِيبِ مَكِّيِّهَا وَمَدَنِيِّهَا ، وَمُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا ، وَنَاسِخِهَا وَمَنْسُوخِهَا ، وَخَاصِّهَا وَعَامِّهَا ، وَمُطْلَقِهَا وَمُقَيَّدِهَا ، وَمُجْمَلِهَا وَمُفَسَّرِهَا ، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا وَوَعْدِهَا وَوَعِيدِهَا ، وَأَمْرِهَا وَنَهْيِهَا ، وَعِبَرِهَا وَأَمْثَالِهَا " . انظر : الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٩٤) .

أَمَّا التَّأويل فهو من أَوَّلَ يُؤول تأويلاً ، و : " الأَوْلُ : الرُّجُوعُ . آلَ الشَّيءُ يَؤُولُ أَوْلاً ومَآلاً : رَجَع . وأَوَّلَ إِليه الشَّيءَ : رَجَعَه ... وأَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّلَهُ : دَبَّره وقدَّره ، وأَوَّلَهُ وتَأَوَّلَهُ : فَسَّره . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾** [يونس: ٣٩] ؛ أَي : لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ عِلْمُ تأْويله ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَن عِلْمَ التَّأْوِيل يَنْبَغِي أَن يُنْظَرَ فِيهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ لَمْ يأْتهم ما يؤُول إِليه أَمرهم فِي التَّكْذِيبِ بِهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ " . انظر : لسان العرب (١١/ ٣٢-٣٣)
.

وقد جاءَ التَّأويل في القرآن على خمسة أَوجه :

الأَوَّلُ : بمعنى الْمُلْك **﴿وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾** [آل عمران: ٧] ، أَي : مُلْك محمَّد **﴿وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾** [آل عمران: ٧] ، أَي : نهاية ملكه . فزعم اليهود أَنَّهم أَخذوه من حساب الجُمَّل .

الثَّانِي : بمعنى العاقبة ، ومآل الخير والشَّرّ الَّذى وعد به الخَلْق : **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾** [الأعراف: ٥٣] ، أَي : عاقبته **﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾** [النساء: ٥٩] ، أَي : عاقبة **﴿ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾** [الكهف: ٨٢] ، أَي : عاقبته .

الثَّالِثُ : بمعنى تعبير الرّؤيا : **﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾** [يوسف: ١٠١] ، أَي : تعبير الرُّؤيا .

الرَّابِعُ : بمعنى التَّحقيق والتَّفسير : **﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾** [يوسف: ١٠٠] ، أَي : تحقيقها وتفسيرها .

الخَامِسُ : بمعنى أَنواع الأَطعمة وأَلوانها : **﴿قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ﴾** [يوسف :٣٧] ، أَي : بأَلوانه وأَنواعه . انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ٢٩١) .

وبناء على ما سبق بيانه ، فقد اختلف العلماء في بيان الفَرْق بين التَّفسير والتَّأويل ... وقد لخَّص الإمام السُّيوطي الفرق بينهما ، فقال : " واختلف في التَّفسير أو التَّأويل ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَطَائِفَةٍ : هُمَا بِمَعْنًى : وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ قَوْمٌ حَتَّى بَالَغَ ابْنُ حَبِيبٍ النَّيْسَابُورِيُّ ، فَقَالَ : قَدْ نَبَغَ فِي زَمَانِنَا مُفَسِّرُونَ لَوْ سُئِلُوا عَنْ الْفَرْقِ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ مَا اهْتَدَوْا إِلَيْهِ .

وَقَالَ الرَّاغِبُ : التَّفْسِيرُ أَعَمُّ مِنَ التَّأْوِيلِ ؛ وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْأَلْفَاظِ وَمُفْرَدَاتِهَا وَأَكْثَرُ اسْتِعْمَالِ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعَانِي وَالْجُمَلِ ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالتَّفْسِيرُ يُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا . وَقَالَ غَيْرُهُ : التَّفْسِيرُ بَيَانُ لَفْظٍ لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا وَجْهًا وَاحِداً ، وَالتَّأْوِيلُ تَوْجِيهُ لَفْظٍ مُتَوَجِّهٍ إِلَى مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهَا، بِمَا ظَهَرَ مِنَ الْأَدِلَّةِ . وَقَالَ الْمَاتُرِيدِيُّ : التَّفْسِيرُ الْقَطْعُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ اللَّفْظِ هَذَا، وَالشَّهَادَةُ عَلَى اللهِ أَنَّهُ عَنَى بِاللَّفْظِ هَذَا ، فَإِنْ قَامَ دَلِيلٌ مَقْطُوعٌ بِهِ فَصَحِيحٌ ، وَإِلَّا فَتَفْسِيرٌ بِالرَّأْيِ ، وَهُوَ الْمَنْهِيُّ عَنْهُ، وَالتَّأْوِيلُ تَرْجِيحُ أَحَدِ الْمُحْتَمِلَاتِ بِدُونِ الْقَطْعِ وَالشَّهَادَةُ عَلَى اللهِ .

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ التَّغْلِبِيُّ : التَّفْسِيرُ بَيَانُ وَضْعِ اللَّفْظِ إِمَّا حَقِيقَةً ، أَوْ مَجَازًا، كَتَفْسِيرِ الصِّرَاطِ : بِالطَّرِيقِ وَالصَّيِّبِ : بِالْمَطَرِ وَالتَّأْوِيلُ تَفْسِيرُ بَاطِنِ اللَّفْظِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ الرُّجُوعُ لِعَاقِبَةِ الْأَمْرِ فَالتَّأْوِيلُ إِخْبَارٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْمُرَادِ وَالتَّفْسِيرُ إِخْبَارٌ عَنْ دَلِيلِ الْمُرَادِ ، لِأَنَّ اللَّفْظَ يَكْشِفُ عَنِ الْمُرَادِ وَالْكَاشِفُ دَلِيلٌ ، مِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ﴾** [الفجر: ١٤] ، تَفْسِيرُهُ أَنَّهُ مِنَ الرَّصْدِ ، يُقَالَ رَصَدْتُهُ رَقَبْتُهُ، وَالْمِرْصَادُ "مِفْعَالٌ" مِنْهُ وَتَأْوِيلُهُ التَّحْذِيرُ مِنَ التَّهَاوُنِ بِأَمْرِ اللهِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ الْأُهْبَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْعَرْضِ عَلَيْهِ ، وَقَوَاطِعُ الْأَدِلَّةِ تَقْتَضِي بَيَانَ الْمُرَادِ مِنْهُ ، عَلَى خِلَافِ وَضْعِ اللَّفْظِ فِي اللُّغَةِ . وَقَالَ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : اعْلَمْ أَنَّ التَّفْسِيرَ فِي عُرْفِ الْعُلَمَاءِ كَشْفُ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَبَيَانُ الْمُرَادِ ، أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِحَسَبِ اللَّفْظِ الْمُشْكَلِ وَغَيْرِهِ ، وَبِحَسَبِ الْمَعْنَى الظَّاهِرِ وَغَيْرِهِ ، وَالتَّأْوِيلُ أَكْثَرُهُ فِي الْجُمَلِ ، وَالتَّفْسِيرُ إِمَّا أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي غَرِيبِ الْأَلْفَاظِ نَحْوَ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ ، وَالْوَصِيلَةِ ، أَوْ فِي وَجِيزٍ يَتَبَيَّنُ بِشَرْحٍ ، نَحْوَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَإِمَّا فِي كَلَامٍ مُتَضَمِّنٍ لِقِصَّةٍ لَا يُمْكِنُ تَصْوِيرُهُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهَا ، كَقَوْلِهِ : **﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾** [التوبة: ٣٧] ، وَقَوْلُهُ : **﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها﴾** [البقرة: ١٨٩] ؛ وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ مَرَّةً عَاماً وَمَرَّةً خَاصّاً ، نَحْوَ الْكُفْرُ الْمُسْتَعْمَلُ تَارَةً فِي الْجُحُودِ الْمُطْلَقِ ، وَتَارَةً فِي جُحُودِ الْبَارِئِ عَزَّ وَجَلَّ خَاصَّةً ، وَالْإِيمَانُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي التَّصْدِيقِ الْمُطْلَقِ تَارَةً وَفِي تَصْدِيقِ الْحَقِّ أُخْرَى ، وَإِمَّا فِي لَفْظٍ مُشْتَرِكٍ بَيْنَ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ،

نَحْوَ لَفْظِ "وَجَدَ" الْمُسْتَعْمَلُ فِي الْجِدَّةِ وَالْوَجْدِ وَالْوُجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : التَّفْسِيرُ يَتَعَلَّقُ بِالرِّوَايَةِ ، وَالتَّأْوِيلِ يَتَعَلَّقُ بِالدِّرَايَةِ .

وَقَالَ أَبُو نَصرٍ الْقُشَيْرِيُّ : التَّفْسِيرُ مَقْصُورٌ عَلَىٰ الِاتِّبَاعِ وَالسَّمَاعِ وَالِاسْتِنْبَاطُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّأْوِيلِ .

وَقَالَ قَوْمٌ : مَا وَقَعَ مُبِينًا فِي كِتَابِ اللهِ وَمُعَيَّنًا فِي صَحِيحِ السُّنَّةِ سُمِّيَ تَفْسِيراً ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ قَدْ ظَهَرَ وَوَضَحَ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَرَّضَ إِلَيْهِ بِاجْتِهَادٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَلْ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الَّذِي وَرَدَ لَا يَتَعَدَّاهُ ، وَالتَّأْوِيلُ مَا استنبطه العلماء العاملون لِمَعَانِي الْخِطَابِ الْمَاهِرُونَ فِي آلَاتِ الْعُلُومِ .

وَقَالَ قَوْمٌ مِنْهُمُ الْبَغْوِيُّ وَالْكَوَاشِيُّ : التَّأْوِيلُ صَرْفُ الْآيَةِ إِلَىٰ مَعْنَىٰ مُوَافِقٍ لِمَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا تَحْتَمِلُهُ الْآيَةُ ، غَيْرَ مُخَالِفٍ للكتاب والسنة من طَرِيقِ الِاسْتِنْبَاطِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : التَّفْسِيرُ فِي الِاصْطِلَاحِ علم نزول الآيات وشئونها وَأَقَاصِيصِهَا ، وَالْأَسْبَابِ النَّازِلَةِ فِيهَا ثُمَّ تَرْتِيبِ مَكِّيِّهَا وَمَدَنِيِّهَا ، وَمُحْكَمِهَا وَمُتَشَابِهِهَا ، وَنَاسِخِهَا وَمَنْسُوخِهَا ، وَخَاصِّهَا وَعَامِّهَا ، وَمُطْلَقِهَا وَمُقَيَّدِهَا ، وَمُجْمَلِهَا وَمُفَسَّرِهَا ، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا وَوَعْدِهَا وَوَعِيدِهَا ، وَأَمْرِهَا وَنَهْيِهَا ، وَعِبَرِهَا وَأَمْثَالِهَا .

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ : التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَدْلُولَاتِهَا وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ ، وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرْكِيبِ وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ ، قَالَ : فَقَوْلُنَا : " عِلْمٌ " جِنْسٌ ، وَقَوْلُنَا : " يُبْحَثُ فِيهِ عَنْ كَيْفِيَّةِ النُّطْقِ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ " هُوَ عِلْمُ الْقِرَاءَةِ ، وَقَوْلُنَا : وَمَدْلُولَاتِهَا أَيْ مَدْلُولَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ ، وَهَذَا مَتْنُ عِلْمِ اللُّغَةِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ، وَقَوْلُنَا : " وَأَحْكَامِهَا الْإِفْرَادِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ " ، هَذَا يَشْمَلُ عِلْمَ التَّصْرِيفِ وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ وَقَوْلُنَا وَمَعَانِيهَا الَّتِي تُحْمَلُ عَلَيْهَا حَالَةُ التَّرْكِيبِ يَشْمَلُ مَا دَلَالَتُهُ بِالْحَقِيقَةِ ، وَمَا دَلَالَتُهُ بِالْمَجَازِ ، فَإِنَّ التَّرْكِيبَ قَدْ يَقْتَضِي بِظَاهِرِهِ شَيْئاً وَيَصُدُّ عَنِ الْحَمْلِ عَلَيْهِ صَادٌّ ، فَيُحْمَلُ عَلَىٰ غَيْرِهِ ، وَهُوَ الْمَجَازُ ، وَقَوْلُنَا : " وَتَتِمَّاتٍ لِذَلِكَ " ، هُوَ مِثْلُ مَعْرِفَةِ النَّسْخِ وَسَبَبِ النُّزُولِ وَقِصَّةٍ تُوَضِّحُ بَعْضَ مَا أُبْهِمَ فِي الْقُرْآنِ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَقَالَ الزَّرْكَشِيُّ : التَّفْسِيرُ عِلْمٌ يُفْهَمُ بِهِ كِتَابَ اللهِ الْمُنَزَّلِ عَلَىٰ نَبِيِّهِ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيَانَ مَعَانِيهِ ، وَاسْتِخْرَاجِ أَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ ، وَاسْتِمْدَادِ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ اللُّغَةِ وَالنَّحْوِ وَالتَّصْرِيفِ وَعِلْمِ الْبَيَانِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ وَالْقِرَاءَاتِ ، وَيَحْتَاجُ لِمَعْرِفَةِ أَسْبَابِ النُّزُولِ وَالنَّاسِخِ والمنسوخ " . انظر : الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٩٢-١٩٥) ، وللاستزادة انظر : معاني القرآن (١/ ٣٥١-٣٥٣) ، تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ١٠-١١)، تأويلات أهل السنة (ص٥-٦) ، البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٤٩-١٥٠) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥) ، التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ١٦) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (١/ ٥-٦) ، محاسن التأويل (١/ ١٣) ، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١/ ٥٤-٥٥) ، مقدمة الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١/ ٤٤-٤٦) ، التفسير والمفسرون (١/ ١٦-١٨) ...

فَنَقُول لَهُ : الْحَمد لله حصل الْمَقْصُود ، لَيْت شعري !!! من فسَّر السَّمَاء وَالْعرش وَقَالَ مَعْنَاهُمَا جِهَة الْعُلُوّ ؟ وَمن ترك تفسيرهما وَأَمرهمَا كَمَا جَاءَا ؟

ثمَّ نقل عَن ابْن الْمُبَارك رَضِي الله عَنهُ أَنَّه قَالَ : يُعرف رَبُّنَا بِأَنَّهُ فَوق سمائه على عَرْشه ، بَائِن من خلقه (٧٢) ، وَلَا نقُول كَمَا تَقول الْجُهْمِية إِنَّه هَاهُنَا فِي الأَرْض .

فمن خلال ما تقدَّم نرىٰ أنَّ هناك ثمَّة فرق بين التَّفسير والتَّأويل وأنَّهما ليسا بمعنىٰ واحد ، وهذا هو ما رجَّحه الدُّكتور الذَّهبي ، حيث قال : " والذىٰ تميل إليه النَّفس من هذه الأقوال : هو أنَّ التَّفسير ما كان راجعاً إلىٰ الرِّواية ، والتَّأويل ما كان راجعاً إلىٰ الدِّراية ، وذلك لأنَّ التَّفسير معناه الكشف والبيان . والكشف عن مراد الله تعالىٰ لا نجزم به إلَّا إذا ورد عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي ، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع ، وخالطوا رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ورجعوا إليه فيما أُشكل عليهم من معاني القرآن الكريم .

وأمَّا التأويل ... فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدَّليل . والتَّرجيح يعتمد علىٰ الاجتهاد ، ويُتوصَّل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب ، واستعمالها بحسب السِّياق ، ومعرفة الأساليب العربيَّة ، واستنباط المعاني من كلِّ ذلك . قال الزّركشي : " وكان السَّبب في اصطلاح كثير علىٰ التَّفرقة بين التَّفسير والتَّأويل : التَّمييز بين المنقول والمستنبط ، ليحيل علىٰ الاعتماد في المنقول ، وعلىٰ النَّظر في المستنبط " . انظر : التفسير والمفسرون (١/ ١٨) .

فغاية التَّفسير هي الكشف عن معاني القرآن الكريم ، وأكثر ما يُستعمل في الألفاظ والمفردات ، وهو مُتعلِّق بالرِّواية ... أمَّا التَّأويل فغايته تفسير بواطن اللفظ ، وأكثر ما يُستعمل في المعاني والجُمل ، وهو مُتعلِّق بالدِّراية ، ويعتمد علىٰ ترجيح أحدِ محتملات اللفظ بالدَّليل ...

(٧٢) قال الإمام ابن فورك في "مشكل الحديث وبيانه" (ص٤٥٤) في تفسير قوله " بَائِنٌ " : " ... وأنَّه بائن ممَّا خلق ، بينونة الصِّفة والنَّعت ، لا بالتَّحيُّز والمكان والجهة" .

وقال الإمام الكوثري في تعليقه علىٰ " الأسماء والصِّفات " للبيهقي (ص٥٠٢) : "والمعنىٰ أنَّه غير ممازج للخلق لا بمعنىٰ أنَّه متباعد عن الخلق بالمسافة ، تعالىٰ الله عن القُرب والبُعد الحسيين والبينونة الحسيَّة ، فليس في ذلك ما يطمع المجسِّمة في كلامه ، وسيأتي من المصنِّف عند الكلام في آية الاستواء : لا قاعد ولا قائم ولا مماسّ ولا مباين عن العرش . ثمَّ قال : لأنَّ المماسَّة والمباينة بالمسافة التي هي ضدّها ، كلاهما من صفات الأجسام " .

فَنَقُول : لَهُ قد نَصَّ عبد الله أَنه فَوق سمائه على عَرْشه ، فَهَل قَالَ عبد الله : إِنَّ السَّمَاء وَالْعرش وَاحِد ، وَهِي جِهَة الْعُلُوّ .

وَنقل عَن حَمَّاد بن زيد أَنَّه قَالَ : هَؤُلَاءِ الْجَهْمِية إِنَّمَا يحاولون أَن يَقُولُوا : لَيْسَ فِي السَّمَاء شَيْء .

فَنَقُول لَهُ أَيْضاً : أَنْت قلت بمقالتهم ، فَإِنَّك صرَّحت بِأَنَّ السَّمَاء لَيْسَ هِيَ ذَاتهَا ، بل الْمَعْنى الَّذِي اشْتقَّت مِنْهُ ، وَهُوَ السُّمو ، وفسَّرته بِجِهَة الْعُلُوّ ، فَالْأولى لَك أَن تنعى على نَفسك مَا نعاه حَمَّاد على الْجَهْمِية .

وَنقل عَن ابْن خُزَيْمَة أَنَّ من لم يقل : إِنَّ الله فَوق سمواته على عَرْشه بَائِن من خلقه ، وَجب أَن يُسْتَتَاب ، فَإِن تَابَ وَإِلَّا ضربت عُنُقه ، ثمَّ أُلقِي على مزبلة !!! لِئَلَّا يتَأَذَّى بِهِ أهل الْقبْلَة وَأهل الذِّمَّة !!!

فَيُقَال لَهُ : الْجَواب عَن مثل هَذَا قد تقدَّم ، على أَن ابْن خُزَيْمَة قد علم الْخَاص وَالْعَام حَدِيثه فِي العقائد وَالْكتاب الَّذِي صنَّفه فِي التَّشْبِيه وَسَماهُ بِالتَّوْحِيدِ ، ورد الْأَئِمَّة عَلَيْهِ أَكثر من أَن يذكر ، وَقَوْلهمْ فِيهِ مَا قَالَه هُوَ فِي غَيره ، مَعْرُوف (٧٣) .

---

(٧٣) نقل الإمام البيهقي في " الأسماء والصِّفات" (ص٣٤٠-٣٤١) عن ابن خزيمة أنَّه لا يُحسن الكلام في علم الكلام ... قال البيهقي : " أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِّ الْحَافِظُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِّ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَبَّاسِ الضَّبِّيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا الْفَضْلِ الْبَطَايِنِيَّ، وَنَحْنُ بِالرِّيِّ يَقُولُ ـ وَكَانَ أَبُو الْفَضْلِ يَحْجُبُ بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ إِذَا رَكِبَ ـ قَالَ: خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ يَوْمًا قُرْبَ الْعَصْرِ مِنْ مَنْزِلِهِ فَتَبِعْتُهُ وَأَنَا لَا أَدْرِي أَيْنَ مَقْصِدُهُ، إِلَى أَنْ بَلَغَ بَابَ مَعْمَرٍ، فَدَخَلَ دَارَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ مُنْقَسِمُ الْقَلْبِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمُرَبَّعَةَ الصَّغِيرَةَ وَقَرُبَ مِنْ خَانِ مَكِّيٍّ وَقَفَ وَقَالَ لِمَنْصُورٍ الصَّيْدَلَانِيِّ: تَعَالَ. فَعَدَا إِلَيْهِ مَنْصُورٌ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: مَا صَنْعَتُكَ؟ قَالَ: أَنَا عَطَّارٌ. قَالَ: تُحْسِنُ صَنْعَةَ الْأَسَاكِفَةِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: تُحْسِنُ صَنْعَةَ النَّجَّارِينَ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ لَنَا: إِذَا كَانَ الْعَطَّارُ لَا يُحْسِنُ غَيْرَ مَا هُوَ فِيهِ، فَمَا تُنْكِرُونَ عَلَى فَقِيهٍ رَاوِي حَدِيثٍ أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ الْكَلَامَ وَقَدْ قَالَ لِي مُؤَدِّبِي ـ يَعْنِي الْمُزَنِيَّ رَحِمَهُ اللهُّ ... ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَحْمَدَ بْنَ إِسْحَاقَ الْفَقِيهَ أَمْلَى اعْتِقَادَهُ وَاعْتِقَادَ رُفَقَائِهِ عَلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، وَعَرَضَهُ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ فَاسْتَصْوَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَارْتَضَاهُ وَاعْتَرَفَ فِيمَا حَكَيْنَا عَنْهُ بِأَنَّهُ إِنَّمَا أَتَى ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنِ الْكَلَامَ " .

قال الإمام الكوثري في تعليقة على " الأسماء والصِّفات" : " وقد أنصف من نفسه حيث اعترف أنَّه يجهل علم الكلام، وكان الواجب على مثله أن لا يخوض في علم الكلام فتزلّ له قدم، ومع هذا الجهل أَلَّف كتاب التَّوحيد فأساء إلى نفسه. ومن أهل العلم من قال عنه: إنَّه كتاب الشِّرك . ومن جملة مخازيه فيه استدلاله على إثبات الرِّجْل له تعالى بقوله سبحانه ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ وهذا غاية في السُّقوط، وأسقط منه من يسعى في إذاعة كتابه هذا. ولله

وَنقل عَن عبَّاد الوَاسِطِيّ ، وَعبد الرَّحْمَن بن مهْدي ، وَعَاصِم بن عَليّ بن عَاصِم ، نَحوا مِمَّا نَقله عَن حَمَّاد ، وَقد بيَنَّاهُ .

ثمَّ ذكر بعد ذَلِك مَا صَحَّ عَن أنس بن مَالك رَضِي الله عَنهُ ، قَالَ : كَانَت زَيْنَب تفتخر على أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فَوق سبع سموات (٧٤) .

في خلقه شؤون، وجلالة قدر ابن خزيمة في الفقه والحديث لم تحُل دون سقوطه حينما خاض فيما لا يُحسنه، ولعَّل ذلك جزاء معنوي بمساعدته لمحمَّد بن عبد الحكم في تأليفه ذلك الرَّد القاسي ضدّ الإمام المطلبي القرشي الشَّافعي رضي الله عنه " ا هـ. قلتُ : ومن الذين سمُّوا كتاب التَّوحيد الذي أَلَّفه ابن خزيمة بـ "كتاب الشِّرك" : الإمام الرَّازي ، حيث قال في تفسيره " " عند تفسير قول الله تعالىٰ : **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورىٰ:١١] : " وَاعْلَمْ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ أَوْرَدَ اسْتِدْلَالَ أَصْحَابِنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي سَمَّاهُ «بِالتَّوْحِيدِ» ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كِتَابُ الشِّرْكِ، وَاعْتَرَضَ عَلَيْهَا، وَأَنَا أَذْكُرُ حَاصِلَ كَلَامِهِ بَعْدَ حَذْفِ التَّطْوِيلَاتِ، لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا مُضْطَرِبَ الْكَلَامِ" .

(٧٤) روىٰ البخاري (٩/ ١٢٤ برقم ٧٤٢٠) بسنده عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اتَّقِ اللهَّ، وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» ، قَالَ أَنَسٌ: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَاتِمًا شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ، قَالَ: فَكَانَتْ زَيْنَبُ تَفْخَرُ عَلَىٰ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُّ تَعَالَىٰ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَعَنْ ثَابِتٍ: **﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُّ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾** [الأحزاب: ٣٧] ، «نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبَ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ» .

وجاء في رواية عِيسَىٰ بْنُ طَهْمَانَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُّ عَنْهُ، يَقُولُ: " نَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ فِي زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَأَطْعَمَ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ خُبْزًا وَلَحْمًا، وَكَانَتْ تَفْخَرُ عَلَىٰ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إِنَّ اللهَّ أَنْكَحَنِي فِي السَّمَاءِ " . أخرجه البخاري (٩/ ١٢٥ برقم ٧٤٢١) .

قال الشَّوكاني في " نيل الأوطار " (٨/ ٦٢) : " قَالَ السُّهَيْلِيُّ: مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ مَعْنَاهُ أَنَّ الْحُكْمَ نَزَلَ مِنْ فَوْقُ، قَالَ: وَمِثْلُهُ قَوْلُ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ: زَوَّجَنِي اللهُّ مِنْ نَبِيِّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ: أَيْ نَزَلَ تَزْوِيجُهَا مِنْ فَوْقُ. قَالَ: وَلَا يَسْتَحِيلُ وَصْفُهُ تَعَالَىٰ بِالْفَوْقِ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِهِ لَا عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الَّذِي يَسْبِقُ إِلَىٰ الْوَهْمِ مِنْ التَّحْدِيدِ الَّذِي يُفْضِي إِلَىٰ التَّشْبِيهِ" .

فالمعنىٰ من قولها: " وَزَوَّجَنِي اللهُّ تَعَالَىٰ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ" أنَّ أمر تزويجها من الحبيب صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل من السَّماء وحياً عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السَّلام من اللوح المحفوظ ... فليس في الحديث ما تشبَّث به

فَنَقُول : لَيْسَ فِي هَذَا الحَدِيث أَنَّ زَيْنَب قَالَت : إِنَّ الله فَوق سبع سموات !!! بل إِنَّ تَزْوِيج الله إِيَّاهَا كَانَ من فَوق سبع سموات .

ثمَّ نقل عَن أبي سُلَيْمَان الْخطَّابِيّ مَا نَقله عَن عبد الْعَزِيز الْمَاجشون ، وَقد بَينَّا موافقتنا لَهُ ، ومخالفته لذَلِك .

وَحَكَاهُ أَيْضا عَن الْخَطِيب وَأبي بكر الْإِسْمَاعِيلِيّ وَيحيى بن عمار وَأبي إِسْمَاعِيل الْهَرَوِيّ وَأبي عُثْمَان الصَّابُونِي

وَحكى عَن أبي نعيم الْأَصْبَهَانِيّ أَن الْأَحَادِيث الثَّابِتَة فِي الاسْتوَاء يَقُولُونَ بهَا ويثبتونها من غير تكييف وَلَا تَمْثِيل وَلَا تَشْبِيه وَهُوَ مستو على عَرْشه فِي سمائه دون أرضه

وَحَكَاهُ عَن معمر الْأَصْبَهَانِيّ وَقد بَينا لَك غير مَا مرّة أَنه مُخَالف لهَذَا وَأَنه مَا قَالَ بِهِ طرفَة عين إِلَّا ونقضه لِأَن السَّمَاء عِنْده لَيست هِيَ الْمَعْرُوفَة وَأَن السَّمَاء وَالْعرش لَا معنى لَهما إِلَّا جِهَة الْعُلُوّ

وَحكى عَن عبد الْقَادِر الجيلي أَنه قَالَ الله بِجِهَة الْعُلُوّ مستو على عَرْشه

فليت شعري لم احْتج بِكَلَامِهِ وَترك مثل جَعْفَر الصَّادِق والشبلي والجنيد وَذي النُّون والمصري وجعفر بن نصير وأضرابهم رَضِي الله عَنْهُم

وَأما مَا حَكَاهُ عَن أبي عمر بن عبد الْبر فقد علم الْخَاص وَالْعَام مَذْهَب الرجل وَمُخَالفَة النَّاس لَهُ وَنَكِير الْمَالِكِيَّة عَلَيْهِ أَولا وآخرا مَشْهُور ومخالفته لإِمَام الْمغرب أبي الْوَلِيد الْبَاجِيّ مَعْرُوفَة حَتَّى إِن فضلاء الْمغرب يَقُولُونَ لم يكن أحد بالمغرب يرى هَذِه الْمَقَالة غَيره وَغير ابْن أبي زيد على أَن الْعلمَاء مِنْهُم من قد اعتذر عَن ابْن أبي زيد بِمَا هُوَ مَوْجُود فِي كَلَام القَاضِي الْأَجَل أبي مُحَمَّد عبد الْوَهَّاب الْبَغْدَادِيّ الْمَالِكِي رَحمَه الله

ثمَّ إِنَّه قَالَ إِن الله فِي السَّمَاء على الْعَرْش من فَوق سبع سموات وَلم يعقل مَا معنى فِي السَّمَاء على الْعَرْش من فَوق سبع سموات ثمَّ إِن ابْن عبد الْبر مَا تَأَول هَذَا الْكَلَام وَلَا قَالَ كمقالة الْمُدَّعِي إِن الْمُرَاد بالعرش وَالسَّمَاء جِهَة الْعُلُوّ

ثمَّ نقل عَن الْبَيْهَقِيّ رَحمَه الله مَا لَا تعلق لَهُ بِالْمَسْأَلَة وَأعَاد كَلَام من سبق ذكره .

ثمَّ ذكر بعد ذَلِك شَيخنَا أَبَا الْحسن عَليّ بن إِسْمَاعِيل الْأَشْعَرِيّ وَأَنه يَقُول الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى وَلَا نتقدم بَين يَدي الله تَعَالَى فِي القَوْل بل نقُول اسْتَوَى بِلَا كَيفَ

مُدَّعو السَّلفيَّة في الاستدلال بالحديث لإثبات العلو الحقيقي لله تعالى ، والأمر متعلِّق بقضاء الله تعالى وقدره ، وقد قضى الله تعالى بتزويجها من سيِّدنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وجعله في اللوح المحفوظ ...

وَهَذَا الَّذِي نَقله عَن شَيخنَا هُوَ نحلتنا وعقيدتنا لَكِن نَقله لكَلَامه مَا أَرَاهُ إِلَّا قصد الْإِيهَام أَن الشَّيْخ يَقُول بالجهة فَإِن كَانَ كَذَلِك فَلَقَد بَالغ فِي البهت

وَكَلَام الشَّيْخ فِي هَذَا أَنه قَالَ كَانَ وَلَا مَكَان فخلق الْعَرْش والكرسي فَلم يحْتَج إِلَى مَكَان وَهُوَ بعد خلق الْمَكَان كَمَا كَانَ قبل خلقه

وَكَلَامه وَكَلَام أَصْحَابه رَحِمهم الله يصعب حصره فِي إِبْطَالهَا ، ثمَّ حكى ذَلِك عَن القَاضِي أبي بكر وَإِمَام الْحَرَمَيْنِ ، ثمَّ تمسك بِرَفْع الْأَيْدِي إِلَى السَّمَاء وَذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ لأجل أَن السَّمَاء منزل البركات والخيرات فَإِن الْأَنْوَار إِنَّمَا تنزل مِنْهَا والأمطار وَإِذا ألف الْإِنْسَان حُصُول الْخيرَات من جَانب مَال طبعه إِلَيْهِ فَهَذَا الْمَعْنى الَّذِي أوجب رفع الْأَيْدِي إِلَى السَّمَاء وَقَالَ الله تَعَالَى ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوْعَدُوْن﴾ ثمَّ إِن اكْتفى بِمثل هَذِه الدّلَالَة فِي مطَالب أصُول العقائد فَمَا يُؤمنهُ من مُدع يَقُول الله تعالى فِي الْكَعْبَة لِأَن كل مصل يُوَجه وَجهه إِلَيْهَا وَيَقُول ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِي للَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَات وَالْأَرْض﴾ أَو يَقُول الله فِي الأَرْض فَإِنَّ الله تَعَالَى قَالَ : ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ والاقتراب بِالسُّجُود فِي الْمسَافَة إِنَّمَا هُوَ فِي الأَرْض .

وَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أقرب مَا يكون العَبْد فِي سُجُوده)

ثمَّ ذكر بعد ذَلِك مَا أجبنا عَنهُ من حَدِيث الأوعال .

وَذكر بعد ذَلِك مَا لَا تعلُّق لَهُ بالمسئلة ، وَأخذ يَقُول إِنَّه حكى عَن السَّلف مثل مذْهبه وَإِلَى الْآن مَا حكى مذْهبه عَن أحد لَا من سلف وَلَا من خلف غير عبد الْقَادِر الجيلي وَفِي كَلَام ابْن عبد الْبر بعضه ، وَأما الْعشْرَة وَبَاقِي الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم فَمَا نبس عَنْهُم بِحرف .

ثمَّ أَخذ بعد ذَلِك فِي مواعظ وأدعية لَا تعلق لَهَا بِهَذَا .

ثمَّ أَخذ فِي سبّ أهل الْكَلَام ورجمهم (٧٥) ، وَمَا ضرّ الْقَمَر من نبحه .

---

(٧٥) من المعلوم أنَّ المتكلِّمين هم علماء العقائد ، وهم علماء التَّوحيد وأصول الدِّين ، وقد عرَّف العلماء علم الكلام بأنَّه " علمٌ يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينيَّة بإيراد الحجج ودفع الشُّبه " ، والمتكلِّمون هم الذين قاموا بالدِّفاع عن العقائد الاسلاميَّة من خلال العقل والشَّرع ... فمهمَّة علماء الكلام هي الدِّفاع عن العقيدة : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ... ومن الكلام ما هو مذموم ، ومنه ما هو ممدوح محمود ، قال الإمام ابن عساكر : " وَالْكَلَام المذموم : كَلَام أَصْحَاب الأهوية ، وَمَا يزخرفه أَرْبَاب الْبدع المردية ، فَأَما الْكَلَام الْمُوَافق للْكتاب والسُّنَّة الموضح لحقائق الْأُصُول عِنْد ظُهُور الْفِتْنَة فَهُوَ مَحْمُود عِنْد الْعلمَاء وَمن

يُعلمهُ ، وَقد كَانَ الشَّافِعِي يُحسنهُ ويفهمه ، وَقد تكلَّم مَعَ غير وَاحِد مِمَّن ابتدع وَأَقَام الْحجَّة عَلَيْهِ حَتَّىٰ انْقَطع " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣٣٩) .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أنَّ تعلُّم علم الكلام يُعتبر من فروض الكفايات ، قال الإمام ابن حجر الهيتمي (٩٧٤هـ) : " وَالَّذِي صرح بِهِ أَئِمَّتنَا أَنه يجب علىٰ كلِّ أحد وجوباً عَيْنياً أَن يعرف صَحِيح الإعتقاد من فاسده ، وَلَا يشْتَرط فِيهِ علمه بقوانين أهل الْكَلَام لِأَنَّ الْمدَار علىٰ الإعتقاد الْجَازِم وَلَو بالتقليد علىٰ الْأَصَح . وَأما تَعْلِيم الْحجَج الكلامية وَالْقِيَام بهَا للرَّدّ علىٰ الْمُخَالفين فَهُوَ فرض كِفَايَة ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِن وَقعت حَادِثَة وَتوقَّف دفع الْمُخَالف فِيهَا علىٰ تعلُّم مَا يتَعَلَّق بهَا من علم الْكَلَام أَو آلاته فَيجب عيناً علىٰ من تأهَّل لذَلِك تعلُّمه للرَّدّ علىٰ الْمُخَالفين " . انظر : الفتاوىٰ الحديثية (ص١٤٧) .

وقال الإمام الرَّملي (١٠٠٤هـ) : " ... كالتَّوغُّل فِي علم الْكَلَام بِحَيْثُ يتَمَكَّن من إِقَامَة الْأَدِلَّة وأزالة الشُّبَه ، فرض كفايه علىٰ جَمِيع الْمُكَلّفين الَّذين يُمكن كلاً مِنْهُمَا فعله ، فَكلٌّ مِنْهُم مُخَاطب لفعله ، لَكِن إِذا فعله الْبَعْض سقط الْحَرج عَن البَاقِينَ ، فَإِن امْتنع جَمِيعهم من فعله أَثم كلُّ من لَا عذر لَهُ مِمَّن علم ذَلِك وَأمكنهُ الْقيام بِهِ " . انظر : غاية البيان شرح زبد ابن رسلان (ص٢٠) .

ومقصود علم الكلام هو حماية العقيدة علىٰ أصولها ، من خلال دفع الشُّبهات والأباطيل ، قال الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي الطُّوسي (٥٠٥هـ) : " وأمَّا الكلام فمقصوده : حماية المعتقدات التي نقلها أهل السُّنَّة من السَّلف الصَّالح لا غير " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ٤٠) .

ونقل الإمام ابن عساكر (٥٧١هـ) بسنده عن الإِمَام عَبْد اللهَّ بن يُوسُفَ الْجُوَيْنِيّ ، قال : " رَأَيْت إِبْرَاهِيم الْخَلِيل عَلَيْهِ السَّلَام فِي الْمنَام فَأَهْوَيْت لِأَن أقبّل رجلَيْهِ ، فَمَنَعَنِي من ذَلِك تكرُّماً لي ، فاستدبرت فَقبّلت عَقِبَيْهِ ، فأوَّلت الرّفْعَة وَالْبركَة تبقىٰ فِي عَقبي ، ثمَّ قلت : يَا خَلِيل اللهَّ : مَا تَقول فِي علم الْكَلَام ، فَقَالَ : يدْفع بِهِ الشُّبَه والأباطيل " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣٥٥-٣٥٦) .

وقال أيضاً : " أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ الإِمَام أَبُو نصر عبد الرَّحِيم بن عبد الْكَرِيم ابْن هوَازن إجَازَة ، قَالَ : سُئِلَ أَبِي الأستاذ أبو الْقسم الْقشيرِي رَحمَه اللهَّ ، فَقيل لَهُ : أَرْبَاب التَّوْحِيد هَل يتفاوتون فِيهِ ؟ فَقَالَ : إِن فرَّقت بَين مصلٍّ ومصلٍّ ، وَعلمت أَن هَذَا يُصَلِّي وقلبه مشحون بالغفلات ، وَذَاكَ يُصَلِّي وَقَلبه حَاضر ، فَفرِّق بَين عَالم وعالم ، هَذَا لَو طرأت عَلَيْهِ مشكلة لم يُمكنهُ الْخُرُوج مِنْهَا ، وَهَذَا يُقَاوم كلَّ عَدوٍّ لِلْإِسْلَام ، وَيحل كلَّ معضلة تعزُّ فِي مقَام الْخِصَام ، وَهَذَا هُوَ الْجِهَاد الْأَكْبَر ، فَإِن الْجِهَاد فِي الظَّاهِر مَعَ أَقوام مُعيَّنين ، وَهَذَا جِهَاد مَعَ جَمِيع أَعدَاء الدِّين ، وَهُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعلم ، وللخراج فِي الْبَلَد قانون مَعْرُوف ، إِذَا أشكل خراج بقْعَة رَجَعَ النَّاس إِلَىٰ ذَلِك القانون ،

وقانون الْعلم بِاللهَّ قُلُوب العارفين بِهِ ، فَرُواة الْأَخْبَار خزَّان الشَّرْع ، والقرَّاء من الْخَواص ، وَالْفُقَهَاء حفظَة الشَّرْع ، وعلماء الْأُصُول هم الَّذين يعْرفُونَ مَا يجب ويستحيل وَيجوز فِي حقِّ الصَّانِع ، وهم الأقلون الْيَوْم .

رمى الدَّهْر بالفتيان حَتَّى كَأَنَّهُمْ   بأكناف أَطْرَاف السَّماء نُجُوم

وَقد كنَّا نعدهم قَلِيلاً   فقد صَارُوا أقلَّ من الْقَلِيل

قَلَّت عنَاية النَّاس بِعلم الْأُصُول ، إِذْ لَيْسَ فِيهِ وقف ورفق يَأْكُلُونَهُ ، فميلهم إِلَى مَا يقربهُمْ من الدُّنْيَا ، ويولِّيهم الْأَوْقَاف وَالْقَضَاء ، وَالطَّرِيق أَيْضاً مُشكل ، فَهُوَ علم عَزِيز ، وَالطَّرِيق إِلَى الأعزة عَزِيز ، وَقد يرى بعض الْجَوَاهِر أثبت لَهُ درة من الْعِزّ ، فَلَا تُوجد إِلَّا عِنْد الْخَواص ، فَهُوَ وَإِن كَانَ حجراً غير مبتذل ، فَمَا الظَّنُّ بجوهر الْمعرفَة .

أخبرنَا الشريف أَبُو الْقسم عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْعلوِي وأَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أحمد الْغَسَّانِيُّ ، قَالَا : ثَنَا أَبُو بَكْرٍ أحمد بْنُ عَلِيٍّ بن ثَابت الْخَطِيب ، قَالَ : أَنا أَبُو طَالب عمر بن إِبْرَاهِيمَ الْفَقِيه الزُّهْرِيّ ، قَالَ : ثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْحُسَيْنِ الشَّافِعِي الهمذاني ، قَالَ : أَنْشدني أَبُو عَبْدِ اللهَّ بن مُجَاهِد الْمُتَكَلّم لبَعْضهِم :

أَيهَا الْمُقْتَدِي ليطلب علمــــــاً   كلُّ علمٍ عبدٌ لعلم الْكَلَام

تطلب الْفِقْه كي تصحِّح حكماً   ثمَّ أغفلت منزل الْأَحْكَام

أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللهَّ محمَّد بْنُ الْفَضْلِ الفراوي ، قَالَ : قَالَ لنَا الْأُسْتَاذ أَبُو الْقسم عَبْدِ الْكَرِيم بن هوَازن الْقشيرِي : أَنَّ الْأَشْعَرِيّ لَا يشرط فِي صِحَة الْإِيمَان مَا قَالُوهُ ، يَعْنِي : من شنع عَلَيْهِ أَنَّ أعمار الْعَوام عِنْده غير مُؤمنين ، لأَنَّهم خليُّون عَن علم الْكَلَام ، بل هُوَ وَجَمِيع أهل التَّحْصِيل من أهل الْقبْلَة يَقُولُونَ : يجب على الْمُكَلف أَن يعرف الصَّانِع المعبود بدلائله الَّتِي نصبها على توحيده واستحقاقه نعوت الرُّبوبيَّة ، وَلَيْسَ الْمَقْصُود اسْتِعْمَال أَلْفَاظ الْمُتَكَلِّمين من لفظ الْجَوْهَر وَالْعرض ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُود حُصُول النَّظر وَالِاسْتِدْلَال الْمُؤَدِّي إِلَى معرفَة اللهَّ ، وَإِنَّمَا اسْتعْمل المتكلِّمون هَذِهِ الْأَلْفَاظ على سَبِيل التَّقْرِيب والتَّسهيل على المتعلِّمين ، وَالسَّلَف الصَّالح ، وَإِن لم يستعملوا هَذِهِ الْأَلْفَاظ فَلم يكن فِي معارفهم خلل .

والخَلَف الَّذين استعملوا هَذِهِ الْأَلْفَاظ لم يكن ذَلِك مِنْهُم لطريق الْحَقِّ مباينة ، وَلَا فِي الدِّين بِدعَة ، كَمَا أَنَّ الْمُتَأَخِّرين من الْفُقَهَاء عَن زمَان الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ لم يستعملوا أَلْفَاظ الْفُقَهَاء من لفظ الْعلَّة والمعلول وَالْقِيَاس وَغَيره ، ثمَّ لم يكن استعمالهم بذلك بِدعَة ، وَلَا خلوّ السَّلف عَن ذَلِك كَانَ لَهُم نقصاً ، وَكَذَلِكَ شَأْن النَّحْوِيين ، والتَّصريفيين ، ونقلة الْأَخْبَار فِي أَلْفَاظ تخْتَص بهَا كلُّ فرقة مِنْهُم ، فَإِن قَالُوا : إِنَّ الِاشْتِغَال بِعلم الْكَلَام بِدعَة وَمُخَالفَة لطريقة السَّلف ، قيل : لَا يخْتَص بِهَذَا السُّؤَال الْأَشْعَرِيّ دون غَيره من متكلِّمي أهل الْقبْلَة ، ثمَّ الاسترواح إِلَى مثل هَذَا الْكَلَام صفة الحشويَّة الَّذين لَا تَحْصِيل لَهُم ، وَكَيف يُظنُّ بسلف الْأمَّة أَنَّهم لم يسلكوا سَبِيل النَّظر ، وَأَنَّهُمْ اتَّصفوا

بالتقليد ، حاش للهِّ أَن يكون ذَلِك وَصفهم . وَلَقَد كَانَ السَّلف من الصَّحَابَة مستقلِّين بِمَا عرفُوا من الْحق ، وسمعوا من الرَّسُول صلوَات اللهَّ عَلَيْهِ من أَوْصَاف المعبود ، وتأمَّلوه من الْأَدِلَّة المنصوبة فِي الْقُرْآن ، وأخبار الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام فِي مسَائِل التَّوْحِيد ، وَكَذَلِكَ التَّابعون وَأَتْبَاع التَّابِعين لقرب عَهدهم من الرَّسُول عَلَيْهِ السَّلَام ، فَلَمَّا ظهر أهل الْأَهْوَاء وَكثر أهل الْبدع من الْخَوَارِج ، والجهميَّة ، والمعتزلة ، والقدريَّة ، وأوردوا الشّبَه ، انتدب أَئِمَّة أهل السُّنَّة لمخالفتهم ، والإيصاء للْمُسلمين بمباينة طريقتهم ، فَلَمَّا أشفقوا على الْقُلُوب أَن يخامرها شبههم شرعوا فِي الرَّد عَلَيْهِم ، وكشف شبههم ، وأجابوهم عَن أسئلتهم ، وحاموا عَن دين اللهَّ بإيضاح الْحجَج . وَلما قَالَ اللهَّ تَعَالَى : **﴿وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥] ، تأدبوا بآدابه سُبْحَانَهُ ، وَلم يَقُولُوا فِي مسَائِل التَّوْحِيد إِلَّا بِمَا نبَّههم اللهَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ فِي مُحكم التَّنْزِيل . وَالْعجب مِمَّن يَقُول : لَيْسَ فِي الْقُرْآن علم الْكَلَام ، والآيات الَّتِي هِيَ فِي الْأَحْكَام الشَّرْعِيَّة نجدها محصورة ، والآيات المنبِّهة على علم الْأُصُول نجدها تُوفي على ذَلِك وتربي بِكَثِير . وَفِي الْجُمْلَة لَا يجْحَد علم الْكَلَام إِلَّا أحد رجلَيْنِ : جَاهِلٌ ركنَ إِلَى التَّقْلِيد ،وشقَّ عَلَيْهِ سلوك طرق أهل التَّحْصِيل ، وخلا عَن طرق أهل النّظر ، والنَّاس أَعدَاء مَا جهلوا ، فَلَمَّا انْتهى عَن التَّحقق بِهَذَا الْعلم ، نهى النَّاس ليضلّ كَمَا ضلّ ، أَو رجلٌ يعْتَقد مَذَاهِب فَاسِدَة ، فينطوي على بدع خُفْيَة ، يلبِّس على النَّاس عوار مذْهبه ، ويعمِّي عَلَيْهِم فضائح عقيدته ، وَيعلم أَنَّ أهل التَّحْصِيل من أهل النَّظر هم الَّذين يهتكون السّتْر عَن بدعهم ، ويظهرون للنَّاس قبح مقَالاتهم ، والقلَّاب لَا يحبُّ من يُمَيِّز النُّقُود والخلل فِيمَا فِي يَده من النُّقُود الْفَاسِدَة ، كالصَّرَّاف ذِي التَّمْيِيز والبصيرة ، وَقد قَالَ اللهَّ تَعَالَى : **﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾** [الزمر: ٩] ، فَهَذَا مَا حضرني من مدح الْكَلَام والمتكلِّمين ، وَذكر بعض من كَانَ نعلمهُ من عُلَمَاء الْمُسلمين ". انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣٥٦-٣٥٩) .

وقال الإمام ابن عساكر أيضاً : " أَخْبرنِي الشَّيْخ أَبُو الْقسم نصر بن نصر الْوَاعِظ فِي كِتَابه عَن الْقَاضِي أَبِي الْمَعَالِي بن عَبْدِ الْمُلِكِ ، قَالَ : من اعْتقد أَنَّ السَّلف الصَّالح رَضِيَ اللهَّ عَنْهُم نهوا عَن معرفَة الْأُصُول وتجنبوها أَو تغافلوا عَنْهَا وأهملوها ، فقد اعْتقد فيهم عَجزاً ، وأساء بهم ظَنّاً ، لِأَنَّهُ يَسْتَحِيل فِي الْعقل وَالدِّين عِنْد كل من أنصف من نَفسه أَنَّ الْوَاحِد مِنْهُم يتكَلَّم فِي مسئلة الْعَوْل ، وقضايا الجَدّ ، وكميَّة الْحُدُود ، وَكَيْفِيَّة الْقصاص بفصول ، ويباهل عَلَيْهَا ، ويلاعن ، ويجاثي فِيهَا ، ويبالغ ، وَيذكر فِي إِزَالَة النَّجَاسَات عشْرين دَلِيلاً لنَفسِهِ وللمخالف ، ويشقِّق الشّعْر فِي النَّظر فِيهَا ، ثمَّ لَا يعرف ربَّه الْآمِر خلقَه بالتَّحليل وَالتَّحْرِيم ، والمكلِّف عباده للتَّرْك والتَّعظيم ، فهيهات أَن يكون ذَلِك ، وَإِنَّمَا أهملوا تَحْرِير أدلَّته ، وَإِقْرَار أسئلته وأجوبته ، فَإِن اللهَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعث نبينَا مُحَمَّداً صلوَات اللهَّ عَلَيْهِ وَسَلَامه ، فأيَّده بِالْآيَاتِ الباهرة ، والمعجزات الْقَاهِرَة ، حَتَّى أوضح الشَّرِيعَة وَبَينهَا ، وعلَّمهم مواقيتها وعينها ،

فَلم يتْرك لَهُم أصلاً من الْأُصُول إِلَّا بنَاه وشيده ، وَلَا حكماً من الْأَحْكَام إِلَّا أوضحه ومهَّده ، لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] ، فاطمأنَّت قُلُوب الصَّحَابَة لما عاينوا من عجائب الرَّسُول ، وشاهدوا من صدق التَّنْزِيل ببداهة الْعُقُول ، والشَّريعة غضَّة طريَّة متداولة بَينهم فِي مواسمهم ومجالسهم ، يعْرفُونَ التَّوْحِيد مُشَاهدَة بِالْوَحْي وَالسَّمَاع ، ويتكلَّمون فِي أَدِلَّة الوحدانيَّة بالطِّباع ، مستغنين عَن تَحْرِير أدلَّتها ، وتقويم حجَّتها وعللها ، كَمَا أَنَّهم كَانُوا يعْرفُونَ تَفْسِير الْقُرْآن ، ومعاني الشّعْر وَالْبَيَان ، وترتيب النَّحْو وَالْعرُوض ، وفتاوى النَّوَافِل والفروض ، من غير تَحْرِير الْعلَّة ، وَلَا تَقْوِيم الْأَدِلَّة ، ثمَّ لَمَّا انقرضت أيامهم ، وتغيَّرت طباع من بعدهمْ وَكَلَامهم ، وخالطهم من غير جنسهم ، وَطَالَ بالسَّلف الصَّالح وَالْعرب العرباء عَهدهم ، أشكل عَلَيْهِم تَفْسِير الْقُرْآن ، ومرن عَلَيْهِم غلط اللِّسَان ، وَكثر المخالفون فِي الْأُصُول وَالْفُرُوع ، واضطرُّوا إِلَى جمع الْعرُوض ، والنَّحو ، وتمييز الْمَرَاسِيل من المسانيد والآحاد عَن التَّوَاتُر ، وصنَّفوا التَّفْسِير وَالتَّعْلِيق ، وبيَّنوا التَّدقيق وَالتَّحْقِيق ، وَلم يقل قَائِل : إِنَّ هَذِهِ كلّهَا بدع ظَهرت ، أَو أَنَّهَا محالات جُمعت ودوِّنت ، بل هُوَ الشَّرْع الصَّحِيح ، والرَّأي الصَّرِيح ، وَكَذَلِكَ هَذِهِ الطَّائِفَة كثر اللهَّ عَددهمْ ، وَقَوي عَددهمْ ، بل هَذِهِ الْعُلُوم أولى بجمعها لِحُرْمَة معلومها ، فَإِن مَرَاتِب الْعُلُوم تترتَّب على حسب معلوماتها ، والصنَائع تكرم على قدر مصنوعاتها ، فَهِيَ من فَرَائِض الْأَعْيَان وَغَيرهَا ، إِمَّا من فَرَائِض الكفايات أَو كالمندوب وَالْمُسْتَحب ، فَإِن من جهل صفة من صِفَات معلومه ، لم يعرف الْمَعْلُوم على مَا هُوَ بِهِ ، وَمن لم يعرف الْبَارِي سُبْحَانَهُ على مَا هُوَ بِهِ لم يسْتَحق اسْم الْإِيمَان ، وَلَا الْخُرُوج يَوْم الْقِيَامَة من النيرَان " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣٥٤-٣٥٥) .

ولذلك وضَّح العلماء أنَّ معرفة الحجج الكلاميَّة للرَّدّ على شُبُهات المُخالفين من فروض الكفايات ، قال الإمام أحمد بن محمَّد بن علي بن حجر الهيتمي السَّعدي الأنصاري ، شهاب الدِّين شيخ الإسلام ، أبو العبَّاس (٩٧٤هـ) : " وَالَّذِي صرَّح بِهِ أَئِمَّتنَا : أَنَّه يجب على كلِّ أحد وجوباً عَيْنِيّاً أَن يعرف صَحِيح الإعتقاد من فاسده ، وَلَا يشْتَرط فِيهِ علمه بقوانين أهل الْكَلَام ، لِأَنَّ الْمدَار على الإعتقاد الْجَازِم وَلَو بالتقليد على الْأَصَح . وَأمَّا تَعْلِيم الْحجَج الكلاميَّة ، وَالْقِيَام بهَا للرَّدّ على الْمُخَالفين ، فَهُوَ فرض كِفَايَة ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِن وَقعت حَادِثَة ، وَتوقَّف دفع الْمُخَالف فِيهَا على تعلُّم مَا يتَعَلَّق بهَا من علم الْكَلَام أَو آلاته ، فَيجب عيناً على من تأهَّل لذَلِك تعلُّمه للرَّدّ على الْمُخَالفين " . انظر : الفتاوى الحديثية (ص١٤٧) .

فإن قيل : ورد عن بعض السَّلف أنَّهم ذمُّوا علم الكلام ؟!! ... قال الإمام ابن عساكر : " وَقد حفظ عَن غير وَاحِد من عُلَمَاء الْإِسْلَام عيب الْمُتَكَلِّمين ، وذمّ الْكَلَام ، وَلَو لم يذمَّهم غير الشَّافِعِي رَحمَه اللهَّ لكفى ، فَإِنَّهُ قد بَالغ فِي ذمِّهم ، وأوضح حَالهم ، وشفى ، وَأَنْتُم تنتسبون إِلَى مذْهبه ، فَهلا اقْتَدَيْتُمْ فِي ذَلِك بِهِ . فَمَا جَاءَ فِي ذَلِك : مَا أَخْبَرَنَا الشَّيْخُ أَبُو

عَبْدِ اللهَّ الْحُسَيْنُ بن عبد الْملك ابْن الْحُسَيْنِ الْخلال بأصبهان ، قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ أحمد بْنُ مَحْمُودِ بن أحمد الثَّقَفِيّ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ إِبْرَاهِيمَ بن الْمقري ، قَالَ : ثَنَا مفضل بن محمَّد الجندي ، قَالَ : حَدثنَا إسحق بن إبراهيم الطّبري ، قَالَ : ثنَا أَبُو يُوسُف الْقَاضِي عَن مجَالد عَن الشّعبِيّ أَنَّه قَالَ : من طلب الدِّين بالْكلَام تزندق ، وَمن طلب المَال بالكيمياء أفلس ، وَمن حدَّث بِغَرَائِب الحَدِيث كذب .

هَكَذَا رَوَاهَا هَذَا الطَّبَرِيّ عَنْ أبي يُوسُف ، ورَوَاهَا غيره عَنْ أَبِي يُوسُف من قَوْله ، وَهُوَ أشبه بِالصَّوَابِ ، أخبرنَاها الشَّيْخ أَبُو الْمَعَالِي محمَّد بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ محمَّد بْنِ الْحُسَيْنِ الْفَارِسِيِّ ، قَالَ أَنا أَبُو بَكْرٍ أحمد بْنُ الْحُسَيْنِ بن عَلِيّ الْبَيْهَقِيّ ، قَالَ انا أَبُو سَعْدٍ أحمد بْنُ محمَّد الْمَالِينِي ح وأخبرناها الشَّيْخ أَبُو الْقسم إِسْمَاعِيل بن أحمد بن السمر قندي ، قَالَ : أخبرنَا أَبُو الْقسم إِسْمَاعِيلُ بْنُ مسْعدَة الْجُرْجَانِيّ ، قَالَ لنا أَبُو الْقسم حَمْزَة بن يُوسُفَ السَّهْمِي ، قَالا : أَخْبَرَنَا أَبُو أحمد بن عدي ، قَالَ : ثنَا جَعْفَر أبن محمَّد بْنِ الْحَسَنِ بْنِ المستفاض الغريابي ، قَالَ : حَدَّثَنِي بشر بن الْوَلِيد ، قَالَ : سَمِعت أَبَا يُوسُف ، يَقُول : من طلب الدِّين بالْكلَام تزندق . وَقَالَ السَّهْمِي : وَمن طلب غَرِيب الحَدِيث كذب ، وَمن طلب المَال بالكيمياء أفلس .

قَالَ أَبُو بكر الْبَيْهَقِيّ : وَرُوِيَ هَذَا أَيْضاً عَن مَالك بن أنس ، قَالَ : وَإِنَّمَا يُريد والله أعلم بالْكلَام : كَلَام أهل الْبدع ، فَإِنَّ فِي عصرهما إِنَّمَا كَانَ يعرف بالْكلَام أهل الْبدع ، فَأَما أهل السُّنَّة ، فقلما كَانُوا يَخُوضُونَ فِي الْكَلَام حَتَّى اضطروا إِلَيْهِ بعد . فَهَذَا وَجه من الْجَواب عَن هَذِهِ الْحِكَايَة ، ونَاهيك بقائله أَبِي بكر الْبَيْهَقِيّ ، فقد كَانَ من أهل الرِّوَايَة والدِّراية . وتحتمل وَجهاً آخر ، وَهُوَ أَن يكون الْمُرَاد بهَا : أَن يقْتَصر علىٰ علم الْكَلَام ، وَيتْرك تعلم الْفِقْه الَّذِي يتَوَصَّل بِهِ إِلَىٰ معرفَة الْحَلَال وَالْحَرَام ، ويرفض الْعَمَل بِمَا أَمر بِفِعْلِهِ من شرائع الْإِسْلَام ، وَلَا يلْتَزم فعل مَا أَمر بِهِ الشَّارِع ، وَترك مَا نهىٰ عَنهُ من الْأَحْكَام ، وَقد بَلغنِي عَن حَاتِم بن عنوان الأصمّ ، وَكَانَ من أفاضل الزهَّاد وَأهل الْعلم أَنَّه قَالَ : الْكَلَام أصل الدِّين ، وَالْفِقْه فَرعه ، وَالْعَمَل ثمره ، فَمن اكْتفي بالْكلَام دون الْفِقْه وَالْعَمَل تزندق ، وَمن اكْتفي بِالْعَمَلِ دون الْكَلَام وَالْفِقْه ابتدع ، وَمن اكْتفي بالفقه دون الْكَلَام وَالْعَمَل تفسَّق ، وَمن تفنَّن فِي الأَبواب كلهَا تخلَّص " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلىٰ الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣٣٣) .

وبرغم ما سبق بيانه من كلام أهل العلم علىٰ " علم الكلام " ... فقد ذهب الْمُتسلِّفةُ إلىٰ تكفير علماء الكلام ... وشنَّعوا علىٰ الكلام والْمُتكلِّمين ... وبيان ذلك في النِّقاط التَّالية :

﴿١﴾ : قال إمامهم البربهاري في كتابه " السُّنَّة " : " واعلم أنَّها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيْرة في الدِّين إلَّا من الكلام وأهل الكلام والجدل والمراء والخصومة والعجب . وكيف يجترئ الرَّجل

علىٰ المِراء والخصومة والجدال ، والله يقول : ﴿**مَا يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِّ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [غافر: ٤] ، فعليك بالتَّسليم والرِّضى بالآثار ، والكفِّ والسُّكوت " . انظر : شرح السُّنَّة (ص٣٨) .

واستشهاد البربهاري بقوله تعالىٰ : ﴿**مَا يُجادِلُ فِي آياتِ اللهِّ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ**﴾ [غافر: ٤] ، استشهاد في غير موضعه ، لأنَّ الآية جاءت في معرض الكلام عن جدال الكفرة ... وهذا هو شأن الخوارج الذين جاءوا إلىٰ آيات وردت في حقِّ الكفَّار ، فجعلوها في المؤمنين الموحِّدين ... فالآية ما أُريد منها إلَّا جدال الكفرة القائم علىٰ العناد والمكابرة ، وألوان من الباطل ، نَحْوَ قَوْلِهِمْ : ﴿**وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً**﴾ [الإسراء: ٩٠] ، وَقَوْلِهِمْ فيما حكاه القرآن عنهم : ﴿**وَقالُوا مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً**﴾ [الفرقان: ٧] ، وقَوْلِهِمْ عن القرآن العظيم : ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٥] ، ووصفهم الرَّسول بالكاهن ، والشَّاعر ، وكذا سُؤَالهم الرَّسول أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَاتٍ كَمَا يَقْتَرِحُونَ ...

فالْمُرَادُ بِالْمُجَادَلَةِ الواردة في الآية : الْمُجَادَلَةُ بِالْبَاطِلِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ ، فلَا عَجَبَ إذن فِي جِدَالِ الكفرة بِآيَاتِ اللهِّ بالباطل ، فَإِنَّهُمْ أَتَوْا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وَهُوَ الْإِشْرَاكُ بالله تعالىٰ ...

فجدالهم كان بالباطل لغاية دحض الحقِّ به ، قال تعالىٰ : ﴿**وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ**﴾ [غافر: ٥] ، فَأَمَّا الْجِدَالُ لِاسْتِيضَاحِ الْحَقِّ ، وَرَفْعِ اللَّبْسِ ، وَالْبَحْثِ عَنِ الرَّاجِحِ وَالْمَرْجُوحِ ، وَعَنِ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ ، وَدَفْعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُبْطِلُونَ مِنْ مُتَشَابِهَاتِ الْقُرْآنِ ، وَرَدِّهِمْ بِالْجِدَالِ إِلَى الْمُحْكَمِ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَقَرَّبُ الْمُتَقَرِّبُونَ ... وبناء علىٰ ذلك ، فالجدال منه ما هو ممدوح مرغوب ، ومنه ما هو مذموم مردود ، وفي الآية مناط البحث جاء الجدال منكَّراً ليشمل أحد نوعيه ، وهو الجدال بالباطل . وأمَّا الجدال القائم علىٰ حلِّ المشكل ، واستنباط الحقائق ، فمن أعظم الطَّاعات ، وردِّ أهل الزّيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله ... وتالياً ما قاله المفسِّرون في تفسير الآية :

قال الإمام الزَّمخشري جار الله (٥٣٨هـ) : " سجل علىٰ المجادلين في آيات الله بالكفر : والمراد : الجدال بالباطل ، من الطَّعن فيها ، والقصد إلىٰ إدحاض الحقِّ وإطفاء نور الله ، وقد دلّ علىٰ ذلك ﴿**وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**﴾ [غافر: ٥] ، فأمَّا الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحلِّ مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها وردِّ أهل الزَّيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل الله " . انظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ١٥٠) .

وقال الإمام الرَّازي (٦٠٦هـ) : " وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا قَرَّرَ أَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ لِيُهْتَدَىٰ بِهِ فِي الدِّين ، ذَكَرَ أَحْوَالَ مَنْ يُجَادِلُ لِغَرَضِ إِبْطَالِهِ وَإِخْفَاءِ أَمْرِهِ ، فَقَالَ : **﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾** [غافر: ٤] ، وَفِيهِ مَسَائِلُ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَىٰ : أَنَّ الْجِدَالَ نَوْعَانِ جِدَالٌ فِي تَقْرِيرِ الْحَقِّ وَجِدَالٌ فِي تَقْرِيرِ الْبَاطِلِ ، أَمَّا الْجِدَالُ فِي تَقْرِيرِ الْحَقِّ فَهُوَ حِرْفَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، قَالَ تَعَالَىٰ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥] ، وقال حِكَايَةً عَنِ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا لِنُوحٍ عَلَيْهِ السلام : **﴿قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا﴾** [هود: ٣٢] . وَأَمَّا الْجِدَالُ فِي تَقْرِيرِ الْبَاطِلِ فَهُوَ مَذْمُومٌ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ حَيْثُ قَالَ : **﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾** ، وَقَالَ : **﴿وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾** [الزخرف: ٥٨] ، وَقَالَ : **﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾** [غافر:٥]

وَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ جِدَالاً فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ " . أخرجه أحمد في المسند ، (١٦/ ١٥٥ برقم ١٠٢٠٢، وصححه الارنؤوط) ، الطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٦٣ برقم ١٣٠٥) ، الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٢/ ٢٤٣ برقم ٢٨٨٣ ، وقال : صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاه) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ١٣٤) ، البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٢٦ برقم ٢٠٦٠) ، أبو يعلى الموصلي في المسند (١٠/ ٣٠٣ برقم ٥٨٩٧) ، ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٤٢ برقم ٣٠١٦٩) .

فَقَوْلُهُ : " إِنَّ جِدَالاً " عَلَىٰ لَفْظِ التَّنْكِيرِ يَدُلُّ عَلَىٰ التَّمْيِيزِ بَيْنَ جِدَالٍ وَجِدَالٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَفْظَ الْجِدَالِ فِي الشَّيْءِ مُشْعِرٌ بِالْجِدَالِ الْبَاطِلِ ، وَلَفْظَ الْجِدَالِ عَنِ الشَّيْءِ مُشْعِرٌ بِالْجِدَالِ لِأَجْلِ تَقْرِيرِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ ، قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ جِدَالاً فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ "

وَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا تُمَارُوا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ الْمِرَاءَ فِيهِ كُفْرٌ " . أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ١٩٧ برقم ٣٩٦١) ، المعجم الكبير (٥/ ١٥٢ برقم ٤٩١٦) ، الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢١٦) .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْجِدَالُ فِي آيَاتِ اللهِ هُوَ أَنْ يُقَالَ مَرَّةً إِنَّهُ سِحْرٌ ، وَمَرَّةً إِنَّهُ شِعْرٌ ، وَمَرَّةً إِنَّهُ قَوْلُ الْكَهَنَةِ ، وَمَرَّةً أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، وَمَرَّةً إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِمَّا كَانُوا يقولونه مِنَ الشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ ، فَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ " . انظر : مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (٢٧/ ٤٨٥-٤٨٦) ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٢٩٢) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٥١) ، البحر المحيط في التفسير (٩/ ٢٣٥) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢١-٢٢) ، فتح القدير ، الشوكاني ، (٤/ ٥٥٢) ، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) (٢٤/ ٨١-٨٣) .

(٢) : وهذا ابن تيمية يُنكر على المتكلِّمين عدم أخذهم بالآحاد في مسائل الاعتقاد ، ويصفهم بالزَّندقة ، والإلحاد ، فيقول : " ... وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا عُمْدَةُ كُلِّ زِنْدِيقٍ وَمُنَافِقٍ يَبْطُلُ الْعِلْمُ بِمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ، تَارَةً يَقُولُ :

لَا نَعْلَمُ أَنَّهُمْ قَالُوا ذَلِكَ ، وَتَارَةً يَقُولُ : لَا نَعْلَمُ مَا أَرَادُوا بِهَذَا الْقَوْلِ . وَمَتَى انْتَفَى الْعِلْمُ بِقَوْلِهِمْ أَوْ بِمَعْنَاهُ : لَمْ يُسْتَفَدْ مِنْ جِهَتِهِمْ عِلْمٌ فَيَتَمَكَّنُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُ مِنَ الْمَقَالَاتِ وَقَدْ أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُعَارَضَ بِآثَارِ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ وَكَّلَ ثَغْرَهَا بِذَيْنِك الداحين الدَّافِعَيْنِ لِجُنُودِ الرَّسُولِ عَنْهُ الطَّاعِنَيْنِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهَا. وَهَذَا الْقَدْرُ بِعَيْنِهِ هُوَ عَيْنُ الطَّعْنِ فِي نَفْسِ النُّبُوَّةِ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٨٩) .

والغريب في هذا الباب أنَّ ابن تيمية في كتابه " منهاج السُّنَّة " أنكر الاحتجاج بخبر الآحاد في أُصول الدِّين ، فقال : " ... فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ عَلَى أُصُولِكُمْ ثُبُوتُهُ حَتَّى تَحْتَجُّوا بِهِ ؟ وَبِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ فَهُوَ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ تَحْتَجُّوا فِي أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الدِّين ، وَإِضْلَالِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ - إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً - بِأَخْبَارِ الْآحَادِ الَّتِي لَا يَحْتَجُّونَ هُمْ بِهَا فِي الْفُرُوعِ الْعِلْمِيَّةِ ؟ ! " . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٣/ ٤٥٦) .

وقال أيضاً : " ...الثَّانِي : إِنَّ هَذَا مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ ، فَكَيْفَ يَثْبُتُ بِهِ أَصْلُ الدِّين الَّذِي لَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ ؟ " . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٤/ ٩٥) .

{٣} : ويقول ابن تيمية عن المتكلِّمين : " ... وَدَخَلُوا فِي بَعْضِ الْبَاطِلِ الْمُبْتَدَعِ ، وَأَخْرَجُوا مِنَ التَّوْحِيدِ مَا هُوَ مِنْهُ كَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَإِثْبَاتِ حَقَائِقِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفُوا مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَّا تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَهُوَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ .

وَهَذَا التَّوْحِيدُ كَانَ يُقِرُّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَنْهُمْ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ [لقمان: ٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٦ – ٨٧] ، وَقَالَ عَنْهُمْ : **﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾** [يُوسُفَ: ١٠٦] قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ : يَقُولُ لَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ فَيَقُولُونَ : اللهُ ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ. وَإِنَّمَا التَّوْحِيدُ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ الْعِبَادَ هُوَ تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ ، الْمُتَضَمِّنُ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، بِأَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئاً ، فَيَكُونُ الدِّين كُلُّهُ للهِ ... " . انظر : منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٣/ ٢٨٩-٢٩٠) .

وابن تيمية هنا يتكلَّم عن التَّوحيد الذي قسَّمه إلىٰ أقسام ثلاثة : ربوبيَّة ، وأُلوهيَّة ، وأسماء وصفات . وهذا التَّقسيم ما سبقه إليه أحد من العالمين ، ولم يقل به أحد من السَّلف الذي يزعم أنَّه يقول بقولهم ... فالتَّوحيد أصبح تعديداً ... وبناء علىٰ تقسيمه للتَّوحيد كفَّر هو وأتباعه عموم الأمَّة متَّهمين إيَّاهم بالكفر والإلحاد في الدِّين ، وأنَّهم ينكرون توحيد الألوهيَّة ، لأنَّهم يتوسَّلون إلىٰ الله تعالىٰ بالأنبياء والصَّالحين ... وقد ناقشنا هذه المسألة في غير ما كتال من كُتُبنا ... والحمد لله تعالىٰ ...

﴿٤﴾ : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " أنَّ أهل الكلام أهل بدع وضلالات ، لا يعدُّون عند الجميع من طبقات العلماء " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ٥١) .

﴿٥﴾ : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " في كلامهم عن المتكلِّمين : " أنَّ مذهبهم مع كونه فاسداً في نفسه ، مخالفاً للعقول ، وهو أيضاً مخالف لدين الإسلام !!! والكتاب !!! والرَّسول !!! وللسَّلف كلّهم !!! ويذكرون في كتبهم أنَّهم مخالفون للسَّلف ، ثمَّ مع هذا راجت بدعتهم على العالم والجاهل ، حتى طبقت مشارق الأرض ومغاربها .
وأنا أدعوك إلى التَّفكُّر في هذه المسألة ، وذلك أنَّ السَّلف قد كثر كلامهم ، وتصانيفهم في أصول الدِّين ، وإبطال كلام المتكلِّمين ، وتفكيرهم ، وممَّن ذكر هذا من متأخِّري الشَّافعيَّة : البيهقي ، والبغوي ، وإسماعيل التَّيمي ، ومن بعدهم ، كالحافظ الذَّهبي ؛ وأمَّا متقدِّموهم : كابن سريج ، والدَّارقطني ، وغيرهما ، فكلُّهم على هذا الأمر ؛ ففتِّش في كتب هؤلاء ، فإن أتيتني بكلمة واحدة أنَّ منهم رجلاً واحداً لم ينكر على المتكلِّمين ، ولم يكفِّرهم !!! فلا تقبل منِّي شيئاً أبداً ؛ ومع هذا كلِّه ، وظهوره غاية الظُّهور ، راج عليكم حتى ادَّعيتم أنَّ أهل السُّنَّة هم المتكلِّمون ؛ والله المستعان " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ٥٢-٥٣) .

وهذا تكفير واضح وصريح من المتسلِّفة للمتكلِّمين... وكلامهم ممزوجٌ بالكذب والبُهتان الذي دأب عليه المتسلِّفة لنصرة باطلهم ... وكم تمنَّينا ونتمنَّى ... أن يأتوا بمظانِّ تكفير البيهقي ، والبغوي ، وإسماعيل التَّيمي ، والذَّهبي ، وابن سريج ، والدَّارقطني ، للمتكلِّمين ... كبُرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذباً ...

ومن المعلوم أنَّ المتسلِّفة دأبوا على تسمية ما أُضيف في القرآن إلى الله تعالى بالصِّفات ، مع أنَّه ليس كلّ مضاف إلى الله تعالى صفة ، قال الإمام ابن الجوزي : " وقد وقـــع غلط المصنِّفين الذين ذكرتهم في سبعة أوجه :
أَحَدُهَا : أنَّهم سمُّوا الأخبار أخبار صفات ، وإنَّما هي إضافات ، وليس كلّ مضاف صفة ، فإنَّه قال سبحانه وتعالى : ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**﴾ [الحجر: ٢٩] ، وليس لله صفة تسمَّى روحاً ، فقد ابتدع من سمَّى المضاف صفة ... " .
انظر : دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه (ص١٠٤) .

فالإضافات سمُّوها صفات ، وكفَّروا مَنْ أوَّلها بما يتناسب والقواعد اللغويَّة ، وكذا القواطع العقديَّة ...

﴿٦﴾ : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " في كلامهم عن الجوارح التي سمُّوها صفات : " فمن أنكر الصِّفات ، فهو معطِّل ، والمعطِّل شرٌّ من المشرك ؛ ولهذا كان السَّلف ، يُسمُّون التَّصانيف ، في إثبات الصِّفات : كتب التَّوحيد ، وختم البخاري صحيحه بذلك ، قال: كتاب التَّوحيد ؛ ثمَّ ذكر الصِّفات ، باباً ، باباً .

فنكتة المسألة : أنَّ المتكلِّمين يقولون : التَّوحيد لا يتمُّ إلَّا بإنكار الصِّفات ، فقال أهل السُّنَّة : لا يتمُّ التَّوحيد إلَّا بإثبات الصِّفات ، وتوحيدكم ، هو التَّعطيل ؛ ولهذا آل هذا القول ببعضهم إلى إنكار الرَّبِّ تبارك وتعالى ، كما هو مذهب ابن عربي ، وابن الفارض ، وفئام من النَّاس ، لا يحصيهم إلَّا الله !!!

فهذا بيان لقولك : هل مراده الصِّفات ؟ أو الأفعال ؟ فبيَّن السَّلف : أنَّ العبادة إذا كانت كلّها لله عن جميع المخلوقات ، فلا تكون إلَّا بإثبات الصِّفات ، والأفعال ؛ فتبيَّن أنَّ منكر الصِّفات ، منكرٌ لحقيقة الألوهيَّة !!! لكن لا يدري ؛ وتبيَّن لك أنَّ من شهد أن لا إله إلَّا الله ، صدقاً من قلبه ، لا بدَّ أن يثبت الصِّفات ، والأفعال ، ولكن العجب العجاب : ظنَّ إمامُهم الكبير ، أنَّ الألوهيَّة ، هي القدرة ، وأنَّ معنى قولك : لا إله إلَّا الله ، أي : لا يقدر على الخلق إلَّا الله ! " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ١١٣-١١٤) .

وكلامهم هذا انطوى على جملة أُمور ، منها :

الأوَّلُ : أنَّ قولهم : " أنَّ المتكلِّمين يقولون : التَّوحيد لا يتمُّ إلَّا بإنكار الصِّفات " ، كلام كذبٌ وبهتان ومجانب للصَّواب ، فالمتكلِّمون يُثبتون لله تعالى كلَّ الصفات التي وردت بنصٍّ محكم ، وكذا يصفون الله بجميع المحامد وصفات الجلال والكمال ... وقد سبق بيان ذلك .

الثَّانِي : وقولهم : " ... ولهذا آل هذا القول ببعضهم إلى إنكار الرَّبِّ تبارك وتعالى ، كما هو مذهب ابن عربي ، وابن الفارض ، وفئام من النَّاس ، لا يحصيهم إلَّا الله " ، وهذا افتراء على هؤلاء العلماء الذين هم ممَّا رُموا منه براء ، وقد ذكرنا في كتاب " تكفير الوهَّابيَّة عموم الأمَّة المحمَّديَّة " أنَّ من يدَّعون السَّلفيَّة هم من دسَّ في كتب العلماء ما به شوهَّوا كُتُبَ هؤلاء العلماء الجهـــابيذ ...

{٧} : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " والأشاعرة : أخطؤوا في ثلاث من أُصول الدِّين !!! منها : تأويل الصِّفات ، وهو صرفها عن حقيقتها ، التي تليق بالله ، وحاصل تأويلهم : سلب صفات الكمال عن ذي الجلال . أيضاً ، أخذوا ببدعة عبد الله بن كُلَّاب ، في كلام الربِّ تعالى وتقدَّس ، وردُّ العلماء عليهم في ذلك شهير ، مثل : الإمام أحمد ، والشَّافعي ، وأصحابه ، والخلَّال في كتاب السُّنَّة ، وإمام الأئمة : محمَّد بن خزيمة ، واللالكائي ، وأبو عثمان الصَّابوني الشَّافعي ، وابن عبد البرّ ، وغيرهم من أتباع السَّلف ، كمحمَّد بن جرير الطَّبري ، وشيخ الإسلام الأنصاري . وقد رجع كثيرٌ من المتكلِّمين الخائضين ، كالشَّهرستاني ، شيخ أبي المعالي ، وكذلك أبو المعالي ، والغزالي ، وكذلك الأشعري قبلهم في كتاب الإبانة ، والمقالات . ومع هذا وغيره ، فبقي هذا في المتأخِّرين ، المقلِّدين لأناس من المتأخِّرين ، ليس لهم اطلاع على كلام العلماء ، وكانوا يعدُّون من العلماء .

وأخطؤوا أيضاً في التَّوحيد !!! ولم يعرفوا من تفسير لا إله إلَّا الله إلَّا أنَّ معناها القادر على الاختراع ، ودلالة لا إله إلَّا الله على هذا دلالة التزام ، لأنَّ هذا من توحيد الرُّبوبيَّة الذي أقرَّ به الأُمم ، ومشركو العرب ، كما قال تعالى : **﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٤ – ٨٥] ، وهي كثيرة في القرآن ، يحتجُّ تعالى عليهم بذلك على ما أنكروه من توحيد الإلهيَّة ، الذي هو معنى لا إله إلَّا الله ، مطابقة ، وتضمُّناً " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١/ ٣٢٠-٣٢١) .

وقد تضمَّن كلامهم السَّابق جملة أُمور ، منها :

الأَوَّلُ : قولهم : " والأشاعرة : أخطؤوا في ثلاث من أُصول الدِّين !!! منها : تأويل الصِّفات " ، وهذا خطأ واضحٌ بيِّنٌ واضحٌ ... فالتَّأويل منهج سار عليه السَّلف كما سار عليه الخلق ... وقد ذكرنا في غير ما كتاب من كُتبنا جملة وافرة من تأويلات السَّلف ... ومنهم حبْرُ الأمَّة وترجمان القرآن عبد الله بن عبَّاس ، رضي الله عنهما ...

الثَّانِي : وقولهم : " أخذوا ببدعة عبد الله بن كُلَّاب ، في كلام الرَّبِّ تعالى وتقدَّس " ، وهذا أيضاً خطأ وافتراء منهم على علماء الأمَّة ، لأنَّ جمهرة وافرة من علماء السَّلف كانوا على طريق ابن كُلَّاب ...

قال الإمام ابن حجر العسقلاني : " مَعَ أَنَّ الْبُخَارِيَّ فِي جَمِيعِ مَا يُورِدُهُ مِنْ تَفْسِيرِ الْغَرِيبِ إِنَّمَا يَنْقُلُهُ عَنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْفَنِّ ، كَأَبِي عُبَيْدَةَ ، وَالنَّضْرِ بْنِ شُمَيْلٍ ، وَالْفَرَّاءِ ، وَغَيْرِهِمْ . وَأَمَّا المباحث الفقهيَّة فغالبها مستمدَّة من الشَّافِعِي ، وَأبي عبيد ، وَأَمْثَالِهِمَا . وَأَمَّا الْمَسَائِلُ الْكَلَامِيَّةُ فَأَكْثَرُهَا مِنَ الْكَرَابِيسِيِّ ، وبن كِلَابٍ ، وَنَحْوِهِمَا " . انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٤٣) .

ومن المعلوم أنَّ الإمام البخاري صنَّف كتابه : " خلق أفعال العباد " للتَّدليل على رأيه في مسألة اللفظ بالقرآن ، والتي قال بها واعتقدها جمهور الأمَّة المنزِّهين لله تعالى ، قال الإمام تاج الدِّين السُّبكي : " فَإِن الْحق فِي مَسْأَلَة اللَّفْظ مَعَه – أي البخاري – إِذْ لَا يستريب عَاقل من المخلوقين فِي أَنَّ تلفُّظه من أَفعاله الْحَادِثَة الَّتِي هِيَ مخلوقة لله تَعَالَى ، وَإِنَّمَا أنكرها الإِمَام أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لبشاعة لَفظهَا " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٣) .

وعلى خطى الإمام البخاري في مسألة التَّلفُّظ بالقرآن ، وأنَّه من الأفعال المخلوقة سار تلميذه الإمام مسلم ، قال الإمام الذَّهبي : " وَكَانَ مُسْلِمٌ يُظْهِرُ القَوْلَ بِاللَّفْظِ وَلاَ يَكْتُمُهُ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٦٠) .

وقد وافق على القول بأنَّ التَّلفُّظ بالقرآن من الأفعال المخلوقة الإمام الذَّهبي تلميذ ابن تيمية ، فقال موافقاً الإمام الكرابيسي في هذه المسألة : " وَلاَ رَيْبَ أَنَّ مَا ابْتَدَعَهُ الكَرَابِيْسِيُّ ، وَحَرَّرَهُ فِي مَسْأَلَةِ التَّلَفُّظِ ، وَأَنَّهُ مَخْلُوْقٌ هُوَ حَقٌّ ، لَكِنْ أَبَاهُ الإِمَامُ أحمد ، لِئَلاَّ يُتَذَرَّعَ بِهِ إِلَى القَوْلِ بِخَلْقِ القُرْآنِ ، فَسُدَّ البَابُ ؛ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَفْرِزَ التَّلَفُّظَ مِنَ المَلْفُوْظِ الَّذِي هُوَ كَلاَمُ اللهِ إِلاَّ فِي ذِهْنِكَ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٢/ ٨٢) ...

الثَّالِثُ : دعواهم رجوع كثيرٌ من المتكلِّمين عن علم الكلام ... وهذا كذبٌ افتعله من لا يستحي ، قال الإمام تاج الدِّين عبد الوهَّاب بن تقي الدِّين السُّبكي (٧٧١هـ) : " وَذكر ابْن السَّمْعَانِيّ أَيْضاً أَنَّه سمع أَبَا الْعَلَاء أحمد بن محمَّد بن الْفضل الْحَافِظ بأصبهان ذكر عَن محمَّد بن طَاهِر الْمَقْدِسِي الْحَافِظ ، قَالَ : سَمِعت أَبَا الْحسن القيرواني الأديب بنيسابور ، وَكَانَ مِمَّن يخْتَلف إِلَىٰ درس إِمَام الْحَرَمَيْنِ أَنه قَالَ : سَمِعت أَبَا الْمَعَالِي ، يَقُول : لَا تشتغلوا بالْكَلَام ، فَلَو عرفت أَنَّ الْكَلَام يبلغ بِي مَا بلغ مَا اشتغلت بِهِ . قلت أَنا : يشبه أَن تكون هَذِه الْحِكَايَة مكذوبة ، وَابْن طَاهِر عِنْده تحامل علىٰ إِمَام الْحَرَمَيْنِ ، والقيرواني الْمشَار إِلَيْهِ رجل مَجْهُول ، ثمَّ هَذَا الإِمَام الْعَظِيم الَّذِي مَلَأت تلامذته الأَرْض لَا ينْقل هَذِه الْحِكَايَة عَنهُ غير رجل مَجْهُول وَلَا تعرف من غير طَرِيق ابْن طَاهِر إِن هَذَا لعجيب وأغلب ظَنِّي أَنَّهَا كذبة افتعلها من لَا يستحي وَمَا الَّذِي بلغ بِهِ رَضِي الله تَعَالَىٰ عَنهُ علم الْكَلَام أَلَيْسَ قد أعزَّ الله بِهِ الْحَقَّ ، وَأظْهر بِهِ السُّنَّة ، وأمات بِهِ الْبِدْعَة " . انظر : طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ١٨٦-١٨٧) .

أقول : وحتىٰ لو رجع البعض عن علم الكلام ، فهل في رجوعهم دليل علىٰ ذمِّ علم الكلام الذي هو سبيل أمثل لتعلُّم الحجج الكلاميَّة ، والرَّدّ بها علىٰ المخالفين ... مع العلم أنَّه أفتىٰ غير واحد من العلماء بأنَّ تعلُّم علم الكلام من فروض الكفايات ، قال الإمام أبو حنيفة في ردِّه علىٰ من ذمَّ علم الكلام ، بحجَّة أنَّ الصَّحابة والسَّلف لم يتعلَّموه ، ولم يخوضوا فيه : " وقد ابتلينا بمن يطعن علينا ، ويستحل الدِّماء منَّا ، فلا يسعنا أن لا نعلم من المخطئ منَّا ومن المصيب ، وأنَّ لا نذبَّ عن أنفسنا وحرمنا ، فمثل أصحاب النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلَّفون السِّلاح ، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا ، ويستحلُّ الدِّماء منَّا ... " . انظر : العالم والمتعلم (ص١٢) .

وقال الإمام الغزالي : " فإن قلت : فلمَ لم تورد في أقسام العلوم الكلام والفلسفة وتبيِّن أنَّهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أنَّ حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلَّة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إمَّا مجادلة مذمومة ، وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإمَّا مشاغبة بالتَّعلُّق بمناقضات الفرق لها وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترَّهات وهذيانات تزدريها الطِّباع ، وتمجُّها الأسماع ، وبعضها خوض فيما لا يتعلَّق بالدِّين ، ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأوَّل ، وكان الخوض فيه بالكليَّة من البدع ، ولكن تغيَّر الآن حكمه ، إذ حدثت البدعة الصَّارفة عن مقتضىٰ القرآن والسُّنَّة ، ونبعت جماعة لفقهوا لها شبهاً ، ورتَّبوا فيها كلاماً مؤلَّفاً ، فصار ذلك المحذور بحكم الضَّرورة مأذوناً فيه ، بل صار من فروض الكفايات ، وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدَّعوة إلىٰ البدعة " . انظر : إحياء علوم الدِّين (١/ ٢٢) ...

﴿٨٨﴾ : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " ... ولذلك ضلَّ من ضلَّ من المتكلِّمين في إثبات وجود الرَّبّ !!! ووجود ذاته !!! وقال بنفي الصِّفات ؛ بناء علىٰ أنَّ الكلِّي لا يتقيَّد ، ولا يتخصَّص بصفة من الصِّفات ؛ وهذا من أكبر قواعدهم ، وإفكهم الذي جرَّ إليهم الكفر الجلي !!! وجحد ما في الكتاب والسُّنَّة من الصِّفات !!! وكلام السَّلف في تكفيرهم وتضليلهم موجود مشهور !!! لا نطيل بذكره ، فمن أقلِّ ما قيل فيهم ، قول محمَّد بن إدريس الشَّافعي : حكمي في أهل الكلام : أن يُضربوا بالجريد والنِّعال ، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة ، وأقبل علىٰ علم الكلام ... انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (٢/ ٣٣٤) ، وكلام الشافعي أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (ص٧٨) ، أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ١١٦) ، الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٩) ، ابن حجر العسقلاني في توالي التأنيس بمعالي ابن إدريس (ص١٢٩) ، ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢١) ، ابن عبد البر في الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم ،(ص٨٠) .

وقد تضمَّن كلامهم السَّابق التَّصريح بكفر وضلال المتكلِّمين الجلي !!! وأنَّ الأمر وصل بالمتكلِّمين إلىٰ درجة إنكار الرَّبِّ تعالىٰ ، ونفي الصِّفات ؛ ولذلك حكم السَّلف بتكفيرهم وتضليلهم ... وكم نتمنَّىٰ أن يذكروا أقوال السَّلف الصَّالح من الصَّحابة والتَّابعين بتكفير المتكلِّمين ... كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلَّا كذباً ...

ومن المعلوم أنَّ الشَّافعي لا يقصد بكلامه المتكلِّمين من أهل السُّنَّة ، وإنَّما قصد به المعتزلة الذين اعتمدوا علىٰ العقول فجعلوها أصلاً ، وجعلوا النَّقل تابعاً له ، أمَّا المتكلِّمين من أهل السُّنَّة ، وهم الأشاعرة والماتريديَّة ، فلا ينطبق عليهم كلام الشَّافعي ، لأنَّهم علىٰ عكس المعتزلة ، فقد جعلوا النَّقل حاكماً علىٰ العقل لا تابعاً له ، فالنَّقل الصَّحيح المحكم هو الأصل ، والعقل تابعاً له ، ودليل ذلك ، قول الشَّافعي ضمن كلامه السَّابق : هذا جزاء من يترك الكتاب والسُّنَّة وأقبل علىٰ الكلام ...

﴿٨٩﴾ : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " وقال أبو العبَّاس ابن تيمية ، في الرَّدِّ علىٰ المتكلِّمين ، لما ذكر بعض أحوال أئمَّتهم ، قال : وكلُّ شرك في العالم ، إنَّما حدث برأي جنسهم ؛ فهم الآمرون بالشِّرك !!! والفاعلون له !!! ومن لم يأمر منهم بالشِّرك ، فلم ينه عنه ، بل يقرُّ هؤلاء وهؤلاء !!! وإن رجَّح الموحِّدين ترجيحاً ما ، فقد يرجِّح غيره المشركين ، وقد يعرض عن الأمرين جميعاً ، فتدبَّر هذا ، فإنَّه نافع جداً .

ولهذا كان رؤساؤهم المتقدِّمون والمتأخِّرون ، يأمرون بالشِّرك !!! وكذلك الذين كانوا في ملَّة الإسلام لا ينهون عن الشِّرك ، ويوجبون التَّوحيد ، بل يسوِّغون الشِّرك ، أو يأمرون به ، أو لا يوجبون التَّوحيد ، وقد رأيت من مصنَّفاتهم ، في عبادة الملائكة ، وعبادة الأنفس المفارقة ، وأنفس الأنبياء ، وغيرهم ، ما هو أصل الشِّرك ، وهم إذا ادَّعوا التَّوحيد ، إنَّما توحيدهم بالقول ، لا بالعبادة والعمل ". انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (٢/ ٣٣٤) .

ولا أجد تعليقاً مناسباً على ما هرفوا به هنا إلَّا القول : إذا لم تستح ولم تخجل ولم ترعوي ، فقل ما شئت ، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم ...

{١٠}: جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " نقلاً عن ابن تيمية : " وقال أيضاً في أثناء كلامه على المتكلِّمين ومن شاكلهم ، لما ذكر عن أئمَّتهم شيئاً من أنواع الرِّدَّة ، والكفر ، قال رحمه الله : وهذا إذا كان في المقالات الخفيَّة ، فقد يقال : إنَّه فيها مخطئٌ ضالٌّ ، لم تقم عليه الحجَّة ، التي يكفر صاحبها ؛ لكن ذلك يقع في طوائف منهم ، في الأمور الظَّاهرة ، التي يعلم المشركون واليهود والنَّصارى ، أنَّ محمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بها ، وكفر من خالفها ، مثل : أمره بعبادة الله وحده لا شريك له ، ونهيه عن عبادة أحد سواه ، من النَّبيين والملائكة وغيرهم ؛ فإنَّ هذا أظهر شرائع الإسلام . ثمَّ تجد كثيراً من رؤوسهم وقعوا في هذه الأنواع ، فكانوا مرتدِّين ؛ وكثير منهم ، تارة يرتدُّ عن الإسلام ردَّة صريحة !!! وتارة يعود إليه مع مرض في قلبه ونفاق !!! والحكاية عنهم في ذلك مشهورة . وقد ذكر ابن قتيبة من ذلك طرفاً في أوَّل مختلف الحديث ؛ وأبلغ من ذلك : أنَّ منهم من صنَّف في الردَّة ، كما صنَّف الرَّازي في عبادة الكواكب ، وهذه ردَّة عن الإسلام باتفاق المسلمين . هذا لفظه بحروفه . فانظر كلامه في التَّفرقة بين المقالات الخفيَّة ، وبين ما نحن فيه ، في كفر المعيَّن ، وتأمَّل تكفيره رؤوسهم ، فلاناً وفلاناً بأعيانهم ، وردَّتهم ردَّة صريحة ، وتأمَّل تصريحه بحكاية الإجماع !!! على ردَّة الفخر الرَّازي عن الإسلام ، مع كونه عند علمائكم من الأئمَّة الأربعة ... " .

انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١٠/ ٧١-٧٢) .

وقد سبق الكلام على السَّبب الذي لأجله حكموا بكفر الإمام الرَّازي ، ووضَّحنا أنَّه بريءٌ ممَّا رماه به من لا يستحي ...

{١١} : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " وأمَّا الأشاعرة فتعتقد هم أهل السُّنَّة ، وليسوا كذلك !!! فإنَّهم تأوَّلوا نصوص الكتاب والسُّنَّة ، بتأويل أهل الكلام الذين خاضوا مع المعتزلة والجهميَّة ، فأحدثوا للنُّصوص تأويلات اختلقوها من عند أنفسهم !!! خالفوا فيها السَّلف ، والأئمَّة الأربعة ، وغيرهم من أهل السُّنَّة والجماعة ؛ فتأويلاتهم للكتاب والسُّنَّة ، تأويلات أحدثها أهل الكلام ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ [يوسف: ٤٠] ، وكلُّ صاحب بدعة ، لا يألف إلا كتب من هو مثله ، كالأشاعرة ، فإنَّهم لا يألفون من التَّفاسير وغيرها ، إلا تفاسير من هو مثلهم في المعتقد ، ممَّن يؤول النُّصوص ، ويصرفها عن مدلولها اللائق بجلال الله ، وعظمته ، ويخالف أهل السُّنَّة في الإيمان ، وحكمة الربِّ تعالى ، ويقول بالجبر ؛ وهذه البدع أخذوها عن أتباع جهم بن صفوان . وكذلك المعتزلة ، لا يقبلون إلا تفاسير أمثالهم في المعتقد ، وكذلك الباطنيَّة لهم تفاسير خالفوا فيها الجميع .

وكذلك الرَّافضة ، لهم تفاسير ، ولهم تأويلات فاسدة . وأمَّا أهل السُّنَّة والجماعة ، فإنَّهم تمسَّكوا بالكتاب " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١١/ ٣٥٤) .

أمَّا أنتم يا من تدَّعون السَّلفيَّة ، فإنَّكم غلوتم بكتب علمائكم كابن تيمية ، وابن قيِّم الجوزيَّة ... ولم تحيدوا عمَّا قالوه قيْد أُنملة ... بل وصل بكم الأمر إلىٰ درجة اعتبار كلام علمائكم مقياساً تقيسون به كلام النَّاس وعقائدهم ، وهذا هو السَّنَن الذي سار عليه محمَّد بن عبد الوهَّاب ، قال الإمام محمَّد بن عبد الله النَّجدي الحنبلي في كلامه عن محمَّد بن عبد الوهَّاب : " ... ولا يلتفت إلىٰ كلام عالم متقدِّماً أو متأخِّراً ، كائناً من كان غير الشَّيخ تقي الدِّين بن تيمية وتلميذه ابن القيِّم ، فإنَّه يرىٰ كلامهما نصَّاً لا يقبل التأويل ، ويصول به علىٰ النَّاس ، وإن كان كلامهما علىٰ غير ما يفهم " . انظر : السحب الوابلة علىٰ ضرائح الحنابلة (ص٢٧٥-٢٧٦) .

{١٢} : جاء في " الدُّرر السَّنيَّة " : " والغربة : إنَّما هي في معرفة ما دعا إليه من التَّوحيد ، والنَّهي عن ما يضادّه من الشِّرك ؛ وهذا قد صار مجهولاً عند أكثر الأمَّة ، حتىٰ من ينتسب إلىٰ العلم ، من المتكلِّمين وأتباعهم ؛ فلهذا وقع كثير منهم في الشِّرك !!! فعاد الإسلام في هذه الأمَّة غريباً كما بدأ، لعموم البلوىٰ بالشِّرك ، وظهوره في المشارق والمغارب ، وبناء المساجد علىٰ القبور والمشاهد ، وعبادتها بكلِّ ما يعبد به الله من أنواع العبادة . وهذا لا يقدر أحد علىٰ إنكاره ، وأنَّه وقع في الأمَّة بعد القرون المفضَّلة ، وعمَّت به البلوىٰ ؛ فظنَّ الأكثر أنَّ التَّوحيد إنَّما هو توحيد الرُّبوبيَّة ، الذي أقرَّ به المشركون ، كما في قوله : **﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِّ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٤ – ٨٩] ، وقوله : **﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُّ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾** [يونس: ٣١] ، وهذا هو الذي عند الأشعري وغيره من أمثاله . وأمَّا توحيد الإلهيَّة ، الذي جحده مشركو قريش والعرب ابتداء ، فما عرفوا التَّوحيد ، وهو الذي دعت إليه الرُّسل من أوَّلهم إلىٰ آخرهم ، فلهذا وقع الأكثر في الشِّرك الأكبر المنافي لهذا التَّوحيد ، بدعوتهم الأموات في الرغبات والرهبات ، والاستغاثة بهم في المهمَّات ؛ فإذا لم ينكر العلماء هذا الشِّرك ، ولا عرفوا الإخلاص الذي هو الدِّين ، الذي شرعه الله للأنبياء والمرسلين ، وقعوا في الشِّرك ، وتبعهم علىٰ ذلك الخلق الكثير والجمُّ الغفير .

وقد صُنِّفت المصنَّفات في جواز هذا الشِّرك !!! كما ذكره شيخ الإسلام عن جماعة ممَّن ينتسب إلىٰ العلم ، كأبي معشر البلخي ، والفخر الرَّازي ، وثابت بن قرة ، ومحمد بن النُّعمان ، وابن البكري ، وابن الأخنائي وغيرهم ، فلم ينكر هذا الشِّرك الذي أخبر النَّبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يقع في أمَّته إلَّا الفرقة النَّاجية !!! وهم الأقلُّون عدداً !!!

الأعظمون قدراً عند الله !!! سنذكر بعضهم إن شاء الله تعالىٰ " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١٢/ ٣٠٨-٣٠٩)

.

{١٣}: جاء في رسالة الشَّيخ سليمان بن سمحان في الرَّدِّ علىٰ أحد معارضيه المسمَّىٰ بشرف نزيل البحرين : " ... فإذا عرفت هذا تبيَّن لك أنَّ هذا الضَّال المضلَّ إنَّما سلك مسلك هؤلاء المتأخِّرين الحيارىٰ المتهوِّكين ، الذين أخذوا عقائدهم عن أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان ، وورثة المجوس والمشركين ، وضُّلال اليهود والنَّصارىٰ والصَّابئين ، وأشكالهم وأشباههم من المتكلِّمين الذين كثر في باب الدِّين اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم

.

وتبيَّن لك أيضاً أنَّ شيخ الإسلام ، وعلم الهداة الأعلام ، الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب ، رحمه الله ، كان علىٰ طريقة السَّلف الماضين ، والأئمَّة المهتدين ، فيما يقولونه ويعتقدونه ؛ ولكن هذا الرَّجل من أعداء الله ، الذين قاموا في عداوة هذا الدِّين ومن قام به ، واتبع ﴿أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] ، لأنَّهم -، والعياذ بالله - قد انهمكوا في الشُّبهات ، وتلقّوها عن أهل الجهل والضَّلالات ، فانقلبت لديهم الحقائق ، والتبست عليهم المعارف بالشَّقاشق " . انظر : الدرر السنيَّة في الأجوبة النجديَّة (١٢/ ٥٢٦-٥٢٧) .

فهذا بعض ما قالوه في تكفير السَّادة المتكلِّمين الذين ما كانت تهمتهم إلَّا أنَّهم أيَّدوا عقائد السَّلف الصَّالح بحجج وبراهين عقليَّة كلاميَّة أُصوليَّة ...

ونختم هذا الفصل بأسماء بعض العلماء المتكلِّمين ، أُؤلئك الصِّيد الميامين من العلماء الذين كفَّرهم من يدَّعون السَّلفيَّة ، مع أنَّ الواقع يشهد بأنَّ الكثير من علماء الأُمَّة هم من المتكلِّمين ، ونبدأ بما قاله الإمام الذَّهبي تلميذ ابن تيمية في ترجمته لبعضهم ، تلكم التَّراجم التي ما حملت إلَّا مدحاً ، وعرفاناً بالجميل لصنيع المتكلِّمين ، ولم يقل في حقِّ إيٍّ منهم هجراً ...

قال الإمام الذَّهبي في كتابه : " سير أعلام النُّبلاء " في ترجمة ابن كُلاَّبٍ القَطَّانُ ، البَصْرِيُّ : " (كَانَ بَاقِياً قَبْلَ الأَرْبَعِيْنَ وَمائَتَيْنِ) صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ فِي الرَّدِّ عَلَى المُعْتَزِلَةِ ، وَرُبَّمَا وَافَقَهُم . رَأْسُ المُتَكَلِّمِيْنَ بِالبَصْرَةِ فِي زَمَانِهِ ، وَكَانَ يُلَقَّبُ : كُلاَّباً ؛ لأَنَّهُ كَانَ يَجُرُّ الخَصْمَ إِلَى نَفْسِهِ بِبَيَانِه وَبَلاَغَتِه . وَأَصْحَابُهُ هُمُ الكُلاَّبِيَّةُ ، لَحِقَ بَعْضَهُم أَبُو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ ، وَكَانَ يَرُدُّ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ . وَقَدْ كَـــانَ بَاقِياً قَبْلَ الأَرْبَعِيْنَ وَمائَتَيْنِ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبي العبَّاس عَبْدُ الله بنُ محمَّد بنِ شِرْشِيْر الأَنْبَارِيُّ ، المُلَقَّب : بِالنَّاشِي (٢٩٣هـ) : " مِنْ كِبَارِ المتكلِّمِيْنَ ، وَأَعيَانِ الشُّعَرَاءِ ، وَرُؤُوْسِ المَنْطِقِ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة الإمام الأشعري : " العَلاَّمَةُ ، إِمَامُ المُتَكَلِّمين ، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ إِسْمَاعِيْلَ بنِ أَبِي بِشْرٍ إِسْحَاقَ بنِ سَالِمِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ مُوْسَى ابنِ أَمِيْرِ البَصْرَةِ بِلاَلِ بنِ أَبِي بُرْدَةَ ابنِ صَاحِبِ رَسُوْلِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَبِي مُوْسَى عَبْدِ اللهِ بنِ قَيْس بن حَضَّارٍ الأَشْعَرِيُّ ، اليَمَانِيُّ ، البَصْرِيُّ . مَاتَ بِبَغْدَادَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي الحَسَنِ البَاهِلِيُّ البَصْرِيُّ ، تِلْمِيْذُ أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ : " العَلاَّمَةُ ، شَيْخُ المتكلِّمِينَ ، برَعَ فِي العَقْلِيَّاتِ ، وَكَانَ يَقِظاً ، فَطِناً ، لَسِناً ، صَالِحاً ، عَابِداً . وقَالَ الأُسْتَاذُ الإسفرَاييني : أَنَا فِي جَانِبِ شيخِنَا أَبِي الحَسَنِ البَاهِلِيِّ كقطرَةٍ فِي بَحرٍ ، وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُوْلُ : أَنَا فِي جنبِ الشَّيْخِ الأَشْعَرِيِّ كقطرَةٍ فِي جنبِ بَحْرٍ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي عَبْدِ اللهِ ، محمَّد بنُ أحمد بنِ محمَّد بن يَعْقُوْبَ بنِ مُجَاهِدٍ الطَّائِيُّ البَصْرِيُّ : " الأُسْتَاذُ ، صَاحبُ أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ . قدمَ بَغْدَادَ ، وَصَنَّفَ التَّصَانِيْفَ ، وَدرَّسَ عِلمَ الكَلاَمِ ، اشتغلَ عَلَيْهِ القَاضِي أَبُو بَكْرٍ بنُ الطَّيِّبِ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٤) ، (١٤/ ٤٠-٤١) ، (١٥/ ٨٥-٨٦) ، (١٦/ ٣٠٤-٣٠٥) ، (١٦/ ٣٠٥) ، بالترتيب .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي جَعْفَرٍ محمَّد بنُ أحمد بنِ العبَّاس السُّلَمِيُّ ، البَغْدَادِيُّ ، الجَوْهَرِيُّ ، الأَشْعَرِيُّ : " العَلاَّمَةُ ، نَقَّاشُ الفِضَّةِ ، وَتِلمِيذُ أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ . وَثَّقَهُ الأَزْهَرِيُّ ، وَقَالَ : كَانَ أَحَدَ المُتكلِّمِينَ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي الحَسَنِ ، وَمِنْهُ تَعَلَّمَ ابْنُ شَاذَانَ عِلمَ الكَلاَمِ . مَاتَ فِي المُحَرَّمِ ، سَنَةَ تِسْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ ، وَلَهُ خَمْسٌ وَثَمَانُوْنَ سَنَةً " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤١٦) ، وانظر : تاريخ بغداد (٢/ ١٧٣) ، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (٨/ ٤٦٩) .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي عَبْدِ اللهِ محمَّد بنُ القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ ، المَشْهُوْرُ : بِالشَّافِعِيِّ : " العَلاَّمَةُ ، قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ : مُتَكلِّمٌ عَلَى مَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ . مَاتَ فِي رَبِيْعٍ الأَوَّلِ ، سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي بَكْرٍ محمَّد بنُ الطَّيِّب بنِ محمَّد بنِ جَعْفَرِ بنِ قَاسِم البَصْرِيُّ ، ثمَّ البَغْدَادِيُّ ، ابْنُ البَاقِلاَّنِيّ : " الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، أَوْحَدُ المُتَكَلِّمِيْن ، مُقَدَّم الأُصُوْلِيين ، القَاضِي ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ ، وَكَانَ يُضْرَبُ المَثَلُ بِفَهْمِهِ وَذَكَائِهِ . كَانَ ثِقَةً إِمَاماً بَارِعاً ، صَنَّفَ فِي الرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ ، وَالمُعْتَزِلَةِ ، وَالخَوَارِجِ وَالجَهْمِيَّة وَالكَرَّامِيَّة ، وَانْتَصَرَ لِطَرِيْقَةِ أَبِي الحَسَنِ الأَشْعَرِيّ ، وَقَدْ يُخَالِفُهُ فِي مَضَائِق ، فَإِنَّهُ مِنْ نُظَرَائِهِ ، وَقَدْ أَخَذَ عِلْمَ النَّظَر عَنْ أَصْحَابه .

وَقَدْ ذكره القَاضِي عِيَاض فِي (طبقَات المَالِكِيَّة) ، فَقَالَ : هُوَ المُلَقَّب بِسيف السُّنَّة ، وَلسَان الأُمَّة ، المُتكَلِّمُ عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الحَدِيْثِ ، وَطريق أَبِي الحَسَنِ ، وَإِليه انْتهَتْ رِئاسَةُ المَالِكِيَّة فِي وَقْتِهِ .

مَاتَ فِي ذِي القَعْدَةِ ، سَنَةَ ثَلاثٍ وَأَرْبَعِ مائة ، وَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ حسنٌ ، وَكَانَتْ جِنَازَتُهُ مَشْهُودَةً ، وَكَانَ سَيْفاً عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ وَالْمُشَبِّهَة ، وَغَالِبُ قَوَاعِدِهِ عَلَى السُّنَّة ، وَقَدْ أَمر شَيْخُ الحَنَابِلَة أَبُو الفَضْلِ التَّمِيْمِيُّ مُنَادِياً يَقُوْلُ بَيْنَ يدِي جِنَازَتِهِ : هَذَا نَاصِرُ السُّنَّة وَالدّين ، وَالذَّابُّ عَنِ الشَّرِيْعَة ، هَذَا الَّذِي صَنَّفَ سَبْعِيْنَ أَلفَ وَرقَة " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٢٥) ، (١٧/ ١٩٠-١٩٣) ، بالترتيب .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي بَكْرٍ محمَّد بنُ الحَسَنِ بنِ فُوْرَكَ الأَصْبَهَانِيّ : " الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، الصَّالِحُ ، شَيْخُ المُتكَلِّمِيْن . صَنَّفَ التَّصَانِيْفَ الكَثِيْرَة . قَالَ عَبْدُ الغَافِرِ فِي (سِيَاق التَّارِيْخ) : الأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرٍ قَبْرُهُ بِالحِيرَة يُسْتَسقَى بِهِ . وَقَالَ القَاضِي ابْنُ خَلِّكَان فِيْهِ : أَبُو بَكْرٍ الأُصُوْلِيّ ، الأَدِيْبُ النَّحْوِيُّ الوَاعِظُ ، دَرَّس بِالعِرَاقِ مُدَّةً ، ثمَّ تَوَجَّه إِلَى الرَّيّ ، فسعَتْ بِهِ المبتدعَةُ - يَعْنِي الكَرَّامِيَّة - فَرَاسلهُ أَهْلُ نَيْسَابُوْر ، فوردَ عَلَيْهِم ، وَبنَوا لَهُ مَدْرَسَةً وَدَاراً ، وَظهرت بَرَكَتُهُ عَلَى المُتَفَقِّهَة ، وَبلغت مُصَنَّفَاتُه قَرِيْباً مِنْ مائَة مصَنّف ، وَدُعِي إِلَى مدينَة غَزْنَة ، وَجرتْ لَهُ بِهَا مُنَاظَرَات ، وَكَانَ شَدِيدَ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ كرَّام ، ثمَّ عَادَ إِلَى نَيْسَابُوْرَ ، فسُمَّ فِي الطَّرِيْق ، فَمَاتَ بقُرْبِ بُسْت ، وَنُقِلَ إِلَى نَيْسَابُوْرَ ، وَمشهدهُ بِالحِيرَة يُزَار ، وَيُستجَابُ الدُّعَاءُ عِنْدَهُ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي القَاسِمِ الحُسَيْنُ بنُ محمَّد بنِ المُفَضَّلِ الأَصْبَهَانِيُّ ، المُلَقَّبُ بِالرَّاغِبِ : " العَلاَّمَةُ المَاهِرُ ، المُحَقِّقُ البَاهِرُ ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ . كَانَ مِنْ أَذكيَاء المتكلِّمِين " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي الوَلِيْدِ سُلَيْمَانُ بنُ خَلَفِ بنِ سَعْدِ بنِ أَيُّوْبَ بنِ وَارِث التُّجِيْبِيُّ ، الأَنْدَلُسِيُّ ، القُرْطُبِيُّ ، البَاجِيُّ ، الذَّهَبِيُّ : " الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، الحَافِظُ ، ذُو الفُنُوْنِ ، القَاضِي ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ . قَالَ الأَمِيْر أَبُو نَصْرٍ : أَمَا البَاجِيّ ذُو الوزَارَتَيْنِ فَفقيهٌ متكلّم ، أَديبٌ شَاعِر ، سَمِعَ بِالعِرَاقِ ، وَدرّس الكَلاَم ، وَصَنَّفَ ... ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَكَانَ جَلِيْلاً رفِيعَ القدر وَالخَطَر . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ بنُ سُكَّرَة : مَاتَ أَبُو الوَلِيْدِ بِالمَرِيَّة فِي تَاسع عشر رَجَب ، سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِيْنَ وَأَرْبَعِ مائَة " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة سَلْمَانُ بنُ نَاصر بن عِمْرَانَ النَّيْسَابُوْرِيّ : " إِمَامُ المُتكَلِّمين ، سَيْفُ النَّظَر ، الصُّوْفِيّ ، الشَّافِعِيّ ، تِلْمِيْذُ إِمَامِ الحَرَمَيْنِ . كان يَتوَقَّدُ ذكَاءً ، لَهُ تَصَانِيْفُ وَشُهرَةٌ وَزُهْدٌ وَتعبُّدٌ ، شرح كِتَاب (الإِرْشَادِ) وَغَيْرَ ذَلِكَ . مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْس مائَة " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٤-٢١٥) ،(١٨/ ١٢٠-١٢١) ، (١٨/ ٥٣٥ فما بعدها) ، (١٩/ ٤١٢) ، بالترتيب .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي عَبْدِ اللهِ المَازَرِيُّ ، المَالِكِيُّ : " الشَّيْخُ ، الإِمَامُ ، العَلاَّمَةُ ، البَحْرُ ، المُتَفَنِّنُ ، مُصَنِّفُ كِتَابِ (المُعْلِم بِفَوَائِدِ شَرْحِ مُسْلِم) ، وَمُصَنِّفُ كِتَابِ (إِيضَاح المَحْصُوْلِ فِي الأُصُوْلِ) ، وَلَهُ تَوَالِيفُ فِي الأَدبِ ، وَكَانَ أَحَدَ الأَذكِيَاءِ المَوْصُوْفِيْنَ ، وَالأَئِمَّةِ المُتبحِّرِيْنَ ، وَلَهُ شَرْحُ كِتَابِ (التَّلْقِيْنِ) لِعَبْدِ الوَهَّابِ المَالِكِيِّ فِي عَشْرَةِ أَسفَارٍ ، هُوَ

مِنْ أَنْفَسِ الكُتُبِ . وَكَانَ بَصِيْراً بِعِلْمِ الحَدِيْثِ . وَقَالَ القَاضِي عِيَاضٌ فِي (المَدَارِكِ) : المَازَرِيُّ يُعرَفُ بِالإِمَامِ ، نَزِيْلُ المَهْدِيَّةِ ، قِيْلَ : إِنَّهُ رَأَىٰ رُؤْيَا ، فَقَالَ : يَا رَسُوْلَ اللهِ ! أَحقٌّ مَا يَدعُوْنَنِي بِهِ ؟ إِنَّهُم يَدعُوْنَنِي بِالإِمَامِ . فَقَالَ : وَسَّعَ صَدْرَكَ لِلْفُتْيَا . ثمَّ قَالَ : هُوَ آخِرُ المُتَكَلِّمِينَ مِنْ شُيُوْخِ إِفْرِيْقِيَةَ بِتَحْقِيْقِ الفِقْهِ ، وَرُتبَةِ الاجْتِهَادِ ، وَدِقَّةِ النَّظَرِ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أَبِي الفَتْحِ نَصْرُ اللهِ بنُ محمَّد بنِ عَبْدِ القَوِيِّ المَصِّيْصِيُّ ، ثمَّ اللاَّذِقِيُّ : " الشَّيْخُ ، الإِمَامُ ، المُفْتِي ، الأُصُوْلِيُّ ، شَيْخُ دِمَشْق . قَالَ السَّمْعَانِيُّ : إِمَامٌ ، مُفتٍ ، فَقِيْهٌ أُصُوْلِيٌّ ، متكلّم ، دِيِّنٌ ، خَيِّر . مَاتَ فِي رَبِيْعٍ الأَوَّلِ ، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة شَمْسُ الدِّين أحمد بنُ الخَلِيْلِ بن سَعَادَةَ بنِ جَعْفَرٍ الخُوَيِّيُّ ، الشَّافِعِيُّ : " قَاضِي القُضَاةِ . قَرَأَ العَقْلِيَّاتِ عَلَىٰ فَخْرِ الدِّين الرَّازِيِّ ، وَالجَدَلَ عَلَىٰ الطَّاوُوْسِيِّ . وَكَانَ مِن أَذْكِيَاءِ المُتَكَلِّمِينَ وَأَعيَانِ الحُكَمَاءِ وَالأَطِبَّاءِ ، ذَا دِيْنٍ وَتَعَبُّدٍ ، وَلَهُ مُصَنَّفٌ فِي النَّحْوِ ، وَآخَرُ فِي الأُصُوْلِ . مَاتَ فِي شَعْبَان ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَلاَثِيْنَ وَسِتِّ مائَةٍ " . انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٠٥-١٠٦) ، (٢٠/ ١١٨-١١٩) ، (٢٣/ ٦٤-٦٥) ، بالترتيب .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة الفتح بن عبد الله الفقيه ، أبو نَصْر الهَرَوي العابد : " قرأ الفقه والكلام علىٰ أبي علي الثَّقفي إلىٰ أن صار من مشايخ المتكلِّمين " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة محمَّد بن ثابت بن حسن ، أبو بكر الخُجَنْديّ : " أحد فحول المتكلِّمين . كان يعِظ ويتكلَّم في كلِّ فنٍّ ، ويقع كلامه من القلوب الموقع العظيم " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة عَبْد السَّلام بْن محمود بْن أحمد . ظهير الدِّين أبو المعالي الفارسيّ : " الفقيه ، الأُصُوليّ ، المتكلِّم ، كان من كبار المتكلِّمين والخلافيين " .

وقال الإمام الذَّهبي في ترجمة أبي العبَّاس ابن البَقَّال : " أحدُ الكبار المتكلِّمين العالمين بالأُصول بالمغرب " . انظر : تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام (٨/ ١٣٧) ، (١٠/ ٥٢٥) ، (١٢/ ١٠٧٨) ، (١٣/ ٧٨٦) ، بالترتيب .

وقال الإمام ابن عبد البر في ترجمة أَبي عبد الرَّحمن أحمد بْنُ محمَّد بْنِ يَحْيَىٰ الأَشْعَرِيُّ الْبَصْرِيُّ : " كَانَ يُعْرَفُ بِالشَّافِعِيِّ لِتَحَقُّقِهِ بِهِ وَذَبِّهِ عَنْ مَذْهَبِهِ . صَحِبَهُ بِبَغْدَاد ، وَكَانَ يُنَاظِرُ عَلَىٰ مَذْهَبِهِ ، وَكَانَ مِنْ جِلَّةِ الْعُلَمَاءِ وَحُذَّاقِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْعَارِفِينَ بِالإِجْمَاعِ وَالاخْتِلافِ ، وَكَانَ رَفِيعاً عِنْدَ السُّلْطَانِ وَذَوِي الأَقْدَارِ ، عَالِماً بِالْحَدِيثِ وَالأَثَرِ ، مُتَّسِعاً فِي الْعِلْمِ مَعَ تمكُّن النَّظَرِ وَالْجَدَلِ وَالاقْتِدَارِ عَلَىٰ الْكَلامِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَلَفَ الشَّافِعِيَّ بِالْعِرَاقِ فِي الذَّبِّ عَنْ أُصُولِهِ وَمَذْهَبِهِ وَالنُّصْرَةِ لِقَوْلِهِ حَتَّىٰ عُرِفَ بِهِ " . انظر : الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهم (ص١٠٨)

وقال الإمام الخطيب البغدادي في ترجمة الوليد بن أبان الكرابيسي : " كان أحد المتكلِّمين في الأصول علىٰ مذاهب أهل الحق ، وهو أستاذ الحسين بن علي الكرابيسي " . انظر : تاريخ بغداد (١٥/ ٦١٢) .

وقال الإمام ابن ماكولا في ترجمة القُشيري : " الواعظ ، أحد المتكلِّمين علىٰ مذهب الأشعري " . انظر : الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنىٰ والأنساب (١/ ٤٣٩) .

وقال الإمام القاضي عياض : " من نبط تونس . سمع من فرات ويحيىٰ بن عمر ، وغيرهما . وسمع منه عالم كثير . قال ابن حارث : وكان من أهل العلم بالجدل ، علىٰ معاني المتكلِّمين في النَّظر علىٰ مذاهب الفقهاء . ويتكلَّم في ذلك كلاماً جيِّداً . وكان لطيف الفهم ، دقيق الاستخراج ، قد صحب أبا عثمان بن الحداد، واحتوىٰ علىٰ معانيه . وكان حسن التصرُّف ، جميل الأدب ، كريم المروءة ، محمود الأخلاق ، كثير الحكاية . قال الخرَّاط : كان صالحاً ثقة فقيهاً عالماً ، يحسن النَّحو والعربيَّة " . انظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٥/ ٣٢٨) .

وقال في ترجمة أبو القاسم عبد الرَّحمن بن عبد المؤمن مكِّي : " من المتكلِّمين علىٰ مذهب أهل السُّنَّة " . انظر : ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٦/ ١٨١) .

وقال الإمام ابن عساكر في ترجمة محمَّد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس بن إسماعيل أبو الحسين البغدادي : " الواعظ الصُّوفي المعروف بابن سمعون ، قال عبد الرَّحمن السُّلمي : محمَّد بن أحمد بن سمعون : كنيته أبو الحسين من مشايخ البغداديين ، له لسان عال في هذه العلوم ، لا ينتمي إلىٰ أستاذ ، وهو لسان الوقت والمرجوع إليه في آداب المعاملات ، يرجع إلىٰ فنون من العلم ، القراءات ، وعلم الظَّاهر يذهب إلىٰ أشدِّ المذاهب ، وهو إمام المتكلِّمين علىٰ هذا اللسان " . انظر : تاريخ دمشق (٥١/ ٩).

وقال الإمام ابن عساكر في ترجمة أَبِي جَعْفَر السّلمِيّ الْبَغْدَادِيّ النقاش : " أَخْبَرَنَا الشريف أَبُو الْقسم عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَطِيبُ ، وَأَبُو الْحسن عَلِيّ ابْن أحمد الْفَقِيه ، وأَبُو مَنْصُور محمَّد بن عبد الْملك الْمقري ، قَالُوا : قَالَ لنَا أَبُو بَكْرٍ أحمد بن عَلِيّ ثَابت الْحَافِظ محمَّد بن أحمد بن العبَّاس بن أحمد ابْن خَلاد بن أسلم بن سهل بن مرداس أَبُو جَعْفَر السّلمِيّ نقاش الْفضة سمع محمَّد بن محمَّد بن سُلَيْمَان الباغندىٰ ، وَالْحسن بن محمي المخرمي ، وعَبْد اللهَّ ابْن محمَّد الْبَغَوِيّ ، وَأَبا بكر بن أَبِي دَاوُد السجسْتانِي ، ويَحْيَىٰ بن محمَّد بْنِ صاعد ، وَأَبا بكر بن مُجَاهِد الْمقري ، حَدَّثَنَا عَنهُ أَبُو عَلِيّ بن شَاذان ، وَأَبُو الْقسم الْأَزْهَرِي ، وَعلي بن المحسن التنوخي ، سَأَلت الْأَزْهَرِي عَنْ أَبِي جَعْفَر النقاش ، فَقَالَ : ثِقَة . قَالَ : وَكَانَ أحد الْمُتَكَلِّمين علىٰ مَذْهَب الْأَشْعَرِيّ ، وَمِنْه تعلم أَبُو عَلِيّ بن شَاذان الْكَلَام ، قَالَ لنَا عَلِيُّ بْنُ المحسن التنوخي : مولد أَبِي جَعْفَر النقَّاش لِلنِّصْفِ من حمادي الأولىٰ سنة أَربع وَتِسْعين وَمِائَتَيْنِ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أحمد بْنُ

محمَّد العتيقي ، قَالَ : سنة تسع وَسبعين وثلاثمائة ، فِيهَا توفى أَبُو جَعْفَر الْأَشْعَرِيّ النقَّاش يَوْم الْأَحَد أَو الِاثْنَيْنِ لست خلون من الْمحرم وَكَانَ ثِقَة " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص١٩٦) .

وقال الإمام ابن عساكر في ترجمة أَبي عبد الله الْأَصْبَهَانِيّ الْمَعْرُوف بالشَّافعي : " حَدَّثنِي أَبُو مَسْعُودٍ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ عَلِيِّ بن أحمد الْمعدل بأصبهان ، قَالَ : انا أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أحمد بن الْحسن الْمقري وَأَجَازَهُ إِلَيَّ أَبُو عَليّ الْحداد ، قَالَ : انا أَبُو نُعَيْمٍ أحمد بْنُ عَبْدِ اللهَّ بْنِ أحمد الْحَافِظ الْأَصْبَهَانِيّ ، قَالَ : محمَّد بن الْقسم أَبُو عَبْدِ اللهَّ الشَّافِعِي : مُتَكَلم على مَذْهَب أهل السُّنَّة ، ينتحل مَذْهَب أَبِي الْحسن الْأَشْعَرِيّ ، عَاد إِلَى أَصْبَهَان سنة ثَلَاث وَخمسين وثلاثمائة وَتُوفِّي بهَا فِي ربيع الأول يَوْم الْجُمُعَة لِاثْنَتَيْ عشرَة خلت مِنْهُ سنة إِحْدَى وَثَمَانِينَ وثلاثمائة . سمع الْكثير بالعراق ، كثير المصنفات فِي الْأُصُول ، وَالْفِقْه ، وَالْأَحْكَام " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص١٩٧) .

وقال الإمام ابن عساكر في ترجمة الشَّيْخ أَبُو الْحُسَيْنِ بن سمعون الْبَغْدَادِيّ الْمُذكر : " كتب إِلَيَّ الشَّيْخ أَبُو الْحَسَنِ عبد الغافر بن إِسْمَاعِيلَ بن عَبْدِ الغافر الْفَارِسِي من نيسابور ، قَالَ أَنا أَبُو بَكْرٍ محمَّد بْنُ يَحْيَى بن ابراهيم الْمُزكي ، قَالَ : ثَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحمن محمَّد بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى السّلمِيّ ، قَالَ : محمَّد بن أحمد ابْن سمعون كنيته أَبُو الْحُسَيْنِ من مَشَايِخ البغداديين ، لَهُ لِسَان عَال فِي هَذِهِ الْعُلُوم ، يَعْنِي : عُلُوم أهل التَّصوُّف ، لَا ينتمي إِلَى أستاذ ، وَهُوَ لِسَان الْوَقْت والمرجوع إِلَيْهِ فِي آدَاب الظَّاهِر يذهب إِلَى أَسد الْمَذَاهب ، وَهُوَ إِمَام الْمُتَكَلّمين على هَذَا اللِّسَان فِي الْوَقْت ، لَقيته وشاهدته زَاد غير الْمُزكي ، عَن السّلمِيّ ، قَالَ : أَبُو الْحُسَيْنِ بن سمعون الَّذِي هُوَ لِسَان الْوَقْت والمعبر عَن الْأَحْوَال بألطف بَيَان مَعَ مَا يرجع إِلَيْهِ صِحَة الِاعْتِقَاد وصحبة الْفُقَرَاء ، أَخْبَرَنَا الشريف أَبُو الْقسم عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحُسَيْنِي ، وأَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ أحمد الْغَسَّانِيُّ ، وأَبُو مَنْصُور بن خيرون ، قَالُوا : قَالَ لنَا أَبُو بَكْرٍ أحمد بن عَليّ ثَابت الْحَافِظ محمَّد بن أحمد بْنِ إِسْمَاعِيلَ بن عَنْبَس بن إِسْمَاعِيلَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْوَاعِظ الْمَعْرُوف بابْن سمعون ، كَانَ وَاحِد دهره وفرد عصره فِي الْكَلَام على علم الخواطر والإشارات ، ولسان الْوَعْظ دون النَّاس حكمه وجمعوا كَلَامه ...

أَخْبَرَنَا الشريف أَبُو الْقسم بْنُ أَبِي الْحسن ، وَالشَّيْخ أَبُو الْحَسَنِ بن قبيس وَغَيرهمَا ، قَالُوا : ثَنَا أَبُو بَكْرٍ أحمد بْنُ عَلِيٍّ الْحَافِظ ، قَالَ : أَخْبَرَنَا أحمد بْنُ محمَّد العتيقي ، قَالَ : سنة سبع وَثَمَانِينَ وثلاثمائة فِيهَا توفّي أَبُو الْحُسَيْن ين سمعون الْوَاعِظ يَوْم النّصْف من ذِي الْقعدَة وَكَانَ ثِقَة مأموناً . قَالَ أَبُو بكر وَذكر لي غير العتيقي أَنه توفى يَوْم الْخَمِيس الرَّابِع عشر من ذِي الْقعدَة وَدفن فِي دَاره بشارع العتابيين فَلم يزل هنَاك حَتَّى نقل فِي يَوْم الْخَمِيس الْحَادِي عشر من رَجَب سنة سِتّ وَعشْرين وَأَرْبَعمِائَة ، فَدفن بِبَاب حَرْب ، وَقيل لي : إِن أَكْفَانه لم تكن بليت بعد " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٢٠٠-٢٠٦ باختصار) .

وقال الإمام تاج الدِّين السُّبكي في ترجمة محمَّد بن عمر بن الحسن بن الحُسَيْن التَّيْمِيّ الْبكْرِيّ الإِمَام فَخر الدِّين الرَّازِيّ ابْن خطيب الرّيّ : " ، إِمَام الْمُتَكَلِّمين ، ذُو الباع الْوَاسِع فِي تَعْلِيق الْعُلُوم والاجتماع بالشاسع من حقائق الْمَنْطُوق وَالْمَفْهُوم والارتفاع قدرا على الرفاق ، وَهل يجْرِي من الأقدار إِلَّا الْأَمر المحتوم ، بَحر لَيْسَ للبحر مَا عِنْده من الْجَوَاهِر ، وَحبر سما على السَّمَاء وَأَيْنَ للسماء مثل مَا لَهُ من الزواهر ، وروضة علم تستقل الرِّياض نَفسهَا أَن تحاكي مَا لَدَيْهِ من الأزاهر ، انتظمت بِقَدرِهِ الْعَظِيم عُقُود الْمِلَّة الإسلامية ، وابتسمت بدره النظيم ثغور الثغور المحمدية ، تنوع فِي المباحث وفنونها ، وترفع فَلم يرض إِلَّا بنكت تسحر ببيونها ، وأتى بجنات طلعها هضيم ، وكلمات يقسم الدَّهْر أَنَّ الملحد بعْدهَا لَا يقدر أَن يضيم ... " . انظر : طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٨١) .

وقال الإمام ابن كثير في ترجمة علي بن أبي علي بن محمَّد بن سالم الثَّعلبي سيف الدِّين الآمدي: " شيخ المتكلِّمين في زمانه " . انظر : طبقات الشافعيين (ص٨٣٣) .

وقال الإمام ابن الخطيب في ترجمة محمَّد بن خلف بن موسى الأنصاري الأوسي : " كان متكلّماً ، واقفاً على مذاهب المتكلِّمين ، متحقِّقاً برأي الأشعريَّة ، ذاكراً لكتب الأصول والاعتقادات ، مشاركاً في الأدب ، مقدَّماً في الطِّبِّ " . انظر : الإحاطة في أخبار غرناطة (٣/ ١٢٦) .

وقال الإمام ابن رجب في ترجمة علي بن عقيل بن محمَّد بن عقيل بن أحمد البغدادي الظفري : " المقرئ ، الفقيه ، الأصولي ، الواعظ ، المتكلِّم ، أَبُو الوفاء ، أحد الأئمَّة الأعلام ، وشيخ الإسلام ... " . انظر : ذيل طبقات الحنابلة (١/ ٣١٦)

وقال الإمام ابن فرحون في ترجمة أحمد بن فتح الرقادي : " أحمد بن فتح الرقادي ، يعرف بابن شفون لجرح أثر بشفتيه ، من مشاهير المتكلِّمين والنظَّار بالقيروان ، وكان يذهب مذهب الجدل والمناظرة والذبِّ عن أهل السُّنَّة ومذهب أهل المدينة ، وله تآليف حِسان في هذا الباب " .

وقال أيضاً في ترجمة أحمد بن عبد الله بن محمَّد بن عبد المؤمن : " كان من المتكلِّمين على مذهب أهل السُّنَّة " .

وقال أيضاً في ترجمة العبَّاس بن عيسى بن محمَّد بن عيسى بن العبَّاس أبو الفضل الممسي : " كان فقيهاً فاضلاً ، عابداً . كان يتكلَّم – في علم مالك – كلاماً عالياً ، ويفهم علم الوثائق فهماً جيِّداً ، ويناظر في الجدل وفي مذاهب أهل النَّظر – على رسم المتكلِّمين والفقهاء مناظرة حسنة " . انظر : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب(١/ ١٧٠) ، (١/ ١٧٢) ، (٢/ ١٢٩) ، بالترتيب .

وقال الإمام ابن قاضي شهبة في ترجمة القطب التِّحتاني : " أحد أئمَّة المعقول ، اشتغل في بلاده بالعلوم العقليَّة فأتقنها ، وشارك في العلوم الشَّرعيَّة وجالس العضد وأخذ عنه ، ثمَّ قدم دمشق واشتغل بها في العلوم العقليَّة ،

وَقد تبين بِمَا ذَكرْنَاهُ أَن هَذَا الحبر الْحجَّة يرْجم فتياه أَنه يَقُول مَا قَالَه الله وَرَسُوله وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار وَلم ينْقل مقَالَته عَن أحد من الصَّحَابَة .

وَإِذا قد أَتَيْنَا على إِفْسَاد كَلَامه وإيضاح إيهامه وَإِزَالَة إبهامه وَنقض إبرامه وتنكيس أَعْلَامه ، فلنأخذ بعد هَذَا فِيمَا يتَعَلَّق بغرضنا وإيضاح نحلتنا فَنَقُول ، وَبِاللهِ التَّوْفِيق .

على سامع هَذِه الْآيَات وَالْأَخْبَار الْمُتَعَلّقَة بِالصِّفَاتِ مَا قدمْنَاهُ من الْوَظَائِف ، وَهِي : التَّقْدِيس ، وَالْإِيمَان ، والتَّصديق ، وَالِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ ، وَالسُّكُوت ، والإمساك عَن التَّصَرُّف فِي الْأَلْفَاظ الْوَارِدَة ، وكفّ الْبَاطِن عَن التَّفكُّر فِي ذَلِك ، واعتقاده أَنَّ مَا خَفِي عَنهُ لم يخف عَن رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَن الصّديق وَلَا عَن أكَابِر الصَّحَابَة ، رَضِي الله عَنْهُم .

وأقام بها إلى أن توفي ، ذكره السُّبكي في الطَّبقات الكبرى ، وقال : إمام مبرِّز في المعقولات ، اشتهر اسمه وبعده صيته ، ورد إلى دمشق في سنة ثلاث وستِّين وسبعمائة وبحثنا معه فوجدناه إماماً في المنطق والحكمة ، عارفاً بالتَّفسير والمعاني والبيان ، مشاركاً في النحو ، يتوقَّد ذكاء . وقال الإسنوي في طبقاته : وكان ذا علوم متعدِّدة ، وتصانيف مشهورة . وقال ابن كثير : كان أحد المتكلِّمين العالمين بالمنطق وعلم الأوائل " . انظر : طبقات الشافعية ـ لابن قاضى شهبة (٣/ ١٣٦) ، وانظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٦/ ٩٩) .

وقال الإمام السُّيوطي في ترجمة محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن أبي الْفضل المرسي أَبُو عبد الله : " الْعَلامَة شرف الدِّين النَّحْوِيّ ، الأديب ، الزَّاهِد ، الْمُفَسّر ، الْمُحدث ، الْفَقِيه ، الأصولي ... إِمَام النظَّار ، رَئِيس الْمُتَكَلِّمين ، أحد عُلَمَاء الزَّمَان ، الْمُتَصَرف أحسن التَّصريف فِي كلِّ فنٍّ " . انظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١/ ١٤٤-١٤٦) .

وقال الإمام أحمد بن محمَّد الأدنه وي في ترجمة محمَّد بن محمَّد مَحْمُود أَبُو النَّصْر الماتريدي : " إِمَام الْهدى وَالدِّين ، صنَّف كتاب التَّوْحِيد ، وَكتاب تأويلات الْقُرْآن ، وَكتاب المقالات ، وَكتاب رد أَوَائِل الْأَدِلَّة للكعبي ، وَكتاب بَيَان وهم الْمُعْتَزلَة ورد الْأُصُول الْخَمْسَة لأبي محمَّد الْبَاهِلِيّ ، وَكتاب ردّ الْإِمَامَة لبَعض الرَّوافض ، وَكتاب مَأْخَذ الشَّرَائِع فِي أصُول الْفِقْه ، وَله كتب شَتَّى . كَانَ إِمَام الْمُتَكَلِّمين ومصحِّح عقائد الْمُسلمين نَصره الله بالصِّراط الْمُسْتَقيم ، فَصَارَ فِي نصْرَة الدِّين القويم " . انظر : طبقات المفسرين (ص٦٩) .

وقال الإمام نجم الدِّين محمَّد بن محمَّد الغزي في ترجمة زكريَّا بن محمَّد بن زكريَّا : " الشَّيخ الإمام ، شيخ مشايخ الإسلام ، علَّامة المحقِّقين ، وفهامة المدقِّقين ، ولسان المتكلِّمين ، وسيِّد الفقهاء والمحدِّثين ، الحافظ المخصوص بعلو الأسناد ، والملحق للأحفاد بالأجداد ، العالم ، العامل ، والولي الكامل ، الجامع بين الشَّريعة والحقيقة ، والسَّالك إلى الله تعالى أقوم مسالك الطَّريقة " . انظر : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة (١/ ١٩٨) ...

ولنأخذ الْآن فِي إبراز اللطائف من خفيَّات هَذِه الْوَظَائِف ، فَأَقُول وَبِاللهِّ الْمُسْتَعَان :

أَمَّا التَّقْدِيس ، فَهُوَ أَن يعْتَقد فِي كلِّ آيَة أَو خبر معنى يَلِيق بِجلَال الله تَعَالَى ، مِثَال ذَلِك : إِذا سمع قَوْله صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ الله ينزل كلَّ لَيْلَة إِلَى سَمَاء الدُّنْيَا" (٧٦) ، وَكَانَ النُّزُول يُطلق على مَا يفْتَقر إِلَى جسم عَال وجسم سافل وجسم منتقل من العالي إِلَى السَّافل ، والزَّوال انْتِقَال جسم من علو إِلَى سفل ، وَيُطلق على معنى آخر لَا يفْتَقر إِلَى انْتِقَال وَلَا حَرَكَة جسم ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأنزل لكم من الْأَنْعَام ثَمَانِيَة أَزوَاج﴾ مَعَ أَنَّ النَّعم لم تنزل من السَّمَاء ، بل هِيَ مخلوقة فِي الْأَرْحَام قطعاً ، فالنُّزول لَهُ معنى غير حَرَكَة الْجِسْم لَا محَالة .

وَفهم ذَلِك من قَول الإِمَام الشَّافِعِي رَضِي الله عَنهُ : دخلت مصر فَلم يفهموا كَلَامي ، فَنزلت ثمَّ نزلت ثمَّ نزلت ، وَلم يرد حِينَئِذٍ الِانْتِقَال من علو إِلَى سفل .

فليتحقَّق السَّامع أَن النُّزُول لَيْسَ بِالْمَعْنَى الأوَّل فِي حقِّ الله تَعَالَى ، فَإِنَّ الْجِسْم على الله محَال .

وَإِن كَانَ لَا يفهم من النُّزُول الِانْتِقَال فَيُقَال لَهُ : من عجز عَن فهم نزُول الْبَعِير فَهُوَ عَن فهم نزُول الله عزَّ وَجلَّ أعجز ، فَاعْلَم أَنَّ لهَذَا معنى يَلِيق بجلاله (٧٧) .

---

(٧٦) روي عن الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه قَالَ : " يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّماء الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، يَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ " ؟ . أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢١٤ برقم٣٠) ، البخاري (٢/ ٥٣ برقم١١٤٥) ، مسلم (١/ ٥٢١ برقم٧٥٨) ، الآجري في الشريعة (٣/ ١١٢٩ برقم٦٩٩) .

(٧٧) من المعلوم أنَّ مَن يدَّعون السَّلفيَّة يؤمنون بِالنُّزُوْلَ لله تَعَالَى بِمَعْنَى النُّقْلَة وَالحَرَكَة ... ومن أقوالهم في ذلك :
قال الإمام ابن تيمية : " فمن نفى الصِّفات جعله كالأعمى الأصم الأبكم ، ومن قال : أنَّه لا يقبل لا هذا ولا هذا جعله كالجماد الذي هو دون الحيوان الأعمى الأصم الأبكم ، وهذا بعينه موجود في الأفعال ، فإنَّ الحركة بالذَّات مستلزمة للحياة وملزومة لها ، بخلاف الحركة بالعَرَض كالحركة القسريَّة التَّابعة للقاسر ، والحركة الطبيعيَّة التي تطلب بها العين العود إلى مركزها لخروجها عن المركز ، فإنَّ تلك حركة بالعَرَض . والعقلاء متَّفقون على ما كان من الأعيان قابلاً للحركة فهو أشرف ممَّا لا يقبلها ، وما كان قابلاً للحركة بالذَّات فهو أعلى مما لا يقبلها بالعَرَض ، وما كان متحرِّكاً بنفسه كان أكمل من الموات الذي تحركه بغيره !!! " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٤١-٣٤٢) .
وقال أيضاً : " أنَّه يَتَحَرَّكُ وَتَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ وَالْأَعْرَاضُ ، فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِنَا ؟ " . انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٢٦٣) .

وقال الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة : " وَقَدْ يُرَادُ بِالْحَرَكَةِ وَالِانْتِقَالِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ فِعْلٌ يَقُومُ بِذَاتِ الْفَاعِلِ يَتَعَلَّقُ بِالْمَكَانِ الَّذِي قَصَدَ لَهُ ، وَأَرَادَ إِيقَاعَ الْفِعْلِ بِنَفْسِهِ فِيهِ ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّه سُبْحَانَهُ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْزِلُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَيَأْتِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَيَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا ، وَيَنْزِلُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ ، وَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَنْزِلُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَهَذِهِ أَفْعَالٌ يَفْعَلُهَا بِنَفْسِهِ فِي هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ ، فَلَا يَجُوزُ نَفْيُهَا عَنْهُ بِنَفْيِ الْحَرَكَةِ وَالنَّقْلَةِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْمَخْلُوقِينَ " . انظر : مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص٤٧٣) .

ولم يقف مدَّعو السَّلفيَّة في هذه المسألة عند حدٍّ ، فقد سمحوا لعقولهم أن تسبح في بحر الوهم والتَّوهُّم ، حتَّى سألوا أنفسهم هذا السُّؤال : هل يستلزم نزول الله – عزَّ وجلَّ – أن يخلو العرش منه أو لا ؟؟! فقد جاء في فتاوى العقيدة للشَّيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) : " وسئل فضيلته : هل يستلزم نزول الله – عزَّ وجلَّ – أن يخلو العرش منه أو لا ؟

فأجاب بقوله : نقول : أصل هذا السُّؤال تنطُّعٌ ، وإيراده غير مشكور عليه مورده ، لأنَّنا نسأل هل أنت أحرص من الصَّحابة على فهم صفات الله ؟ إنْ قال : نعم ، فقد كذب . وإن قال : لا . قلنا : فليسعك ما وسعهم ، فهم ما سألوا الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقالوا : يا رسول الله إذا نزل هل يخلو منه العرش ؟ وما لك ولهذا السُّؤال ، قل : ينزل واسكت . يخلو منه العرش أو ما يخلو ، هذا ليس إليك ، أنت مأمور بأنَّ تصدِّق الخبر !!! ولا سيَّما ما يتعلَّق بذات الله وصفاته ؛ لأنَّه أمرٌ فوق العقول فإذاً نقول : هذا السُّؤال تنطُّعٌ أصلاً لا يرد ، وكلّ إنسان يريد الأدب كما تأدَّب الصَّحابة مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنَّه لا يورده ، فإذا قدر أنَّ شخصاً ابتلي بأن وجد العلماء بحثوا في هذا واختلفوا فيه ، فمنهم من يقول : يخلو ، ومنهم من يقول : لا يخلو ، ومنهم من توقَّف ، فالسَّبيل الأقوم في هذا هو التوقُّف ، ثمَّ القول بأنَّه لا يخلو منه العرش ، وأضعف الأقوال : القول بأنَّه يخلو منه العرش ، فالتوقُّف أسلمها وليس هذا مما يجب علينا القول به ؛ لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يبيِّنه والصَّحابة لم يستفسروا عنه، ولو كان هذا مما يجب علينا أن نعتقده لبيَّنه الله ورسوله بأيّ طريق ، ونحن نعلم أنَّه أحياناً يبيِّن الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحق من عنده ، وأحياناً يتوقَّف فينزل الوحي ، وأحياناً يأتي أعرابي فيسأل عن شيء ، وأحياناً يسأل الصَّحابة أنفسهم عن الشَّيء ، كل هذا لم يرد في هذا الحديث ، فإذا لو توقفنا وقلنا : الله أعلم فليس علينا سبيل ، لأنَّ هذا هو الواقع " . انظر : :مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين (١/ ٢٠٤-٢٠٥) .

قلت : وهذا كلام غريب عجيب ، وكم في كلامهم من الغرائب والعجائب والمصائب والمعاطب !!! فإنَّ من نعتوه بشيخ الإسلام هو من قال هذا الكلام ، فقد ذكر في كتبه ما اعتبره وجعله ابن عثيمين تنطُّعاً أكثر من مرَّة ، كما أنَّ ابن

عثيمين أشار في كلامه إلى أنَّ الصَّحابة الكرام لم يسألوا الرَّسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا السُّؤال ، وبالتَّالي فإنَّ من ذكر في كتبه هذا السُّؤال ، وسمح لنفسه به ، مخالفٌ لما كان عليه الصَّحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، كما أنَّ ابن عثيمين ذكر في معرض كلامه أنَّ المسألة أمرٌ فوق العقول ، فلماذا سمح مدَّعو السَّلفيَّة لعقولهم أن تسبح وتتكلَّم فيما لا طاقة للعقول إلى الولوج فيه ؟!!! ... والنَّتيجة : أنَّ ابن تيمية ليس سلفيَّاً بشهادة ابن عثيمين ، فقد ذكر في كتبه غير مرَّة ما هو من باب التَّنطُّع المخالف لما كان عليه الصَّحابة ، من ذلك :

قال الإمام ابن تيمية : " وَالصَّوَابُ : قَوْلُ " السَّلَفِ ": أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " . فابن تيمية ينسب ما قاله للسَّلف ، وابن عثيمين ينفي ذلك ...

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " وَأَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى السَّماء الدُّنيا وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " .

وقال أيضاً : " وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَىٰ مَنْ يَقُولُ : يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ ، وَإِنَّ أَهْلَ الْحَدِيثِ فِي هَذَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يُقَالَ : يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو ، كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْحَافِظُ عَبْدُ الْغَنِيِّ (٦٠٠هـ) وَغَيْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ . وَقَدْ صَنَّفَ عَبْدُ الرَّحمن بْنُ منده (٤٧٠هـ) مُصَنَّفاً فِي الْإِنْكَارِ عَلَىٰ مَنْ قَالَ : لَا يَخْلُو مِنْ الْعَرْشِ أَوْ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ - كَمَا تَقَدَّمَ بَعْضُ كَلَامِهِ - . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ يَتَوَقَّفُ عَنْ أَنْ يَقُولَ يَخْلُو أَوْ لَا يَخْلُو . وَجُمْهُورُهُمْ عَلَىٰ أَنَّه لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " . انظر : مجموع الفتاوىٰ (٥/ ١٣٢ ، ٥/ ٢٤٢ ، ٥/ ٢٤٣) ، (٥/ ٣٦٧) (٥/ ٤١٤) .

قلت : وأين ما ادَّعاه ابن تيمية على الإمام ابن منده ، وهو القائل : " ... وَأَنَا متمسكٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، مُتَبَرِّئٌ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الشِّبْه وَالمِثْلِ وَالنِّدِّ وَالضِّدِّ وَالأَعضَاء وَالجِسْم وَالآلاَت ، وَمِنْ كُلِّ مَا يَنسُبه النَّاسبُوْنَ إِلَيَّ ، وَيَدَّعيه المدعُوْنَ عليَّ مِنْ أَنْ أَقُوْلَ فِي الله - تَعَالَىٰ - شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ قُلته ، أَوْ أَرَاهُ ، أَوْ أَتَوَهَّمُه ، أَوْ أَصفه بِهِ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٥١) .

فإذا ثبت أنَّه قال ما نسبه له ابن تيمية ، فهو متناقض مع نفسه ، وكم في كلامهم من التَّناقض والتَّباين ، والعجائب والغرائب والمعاطب ...

وقال الإمام ابن تيمية أيضاً : " ثمَّ إِنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّةِ !!! يَقُولُونَ : أَنَّه يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ " . انظر : منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٢/ ٦٣٨) .

وهنا ينسب ابن تيمية ما قاله لجمهور السَّلف ، مع أنَّ السَّلف لم يتكلَّم أحد منهم بما نَسبه ابنُ تيمية لجمهورهم ، فهذا كذبٌ بشهادة ابن عثيمين !!! ثمَّ إنَّ ابن تيمية لم يستند في كلامه على أيِّ حديث صحيح ، بل هو مجرَّد أقوال

لعلماء ، ومتىٰ كان الدِّين يُبنىٰ علىٰ أقوال العلماء التي لا تستند في وجودها وصحَّتها لكتاب ولا لسُنَّة ؟!!! فلا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

وقال الإمام ابن تيمية ما هو أعظم من قوله السَّابق ، فقد قال : " فمن أين في القرآن ما يدلُّ دلالة ظاهرة علىٰ أنَّ كلَّ متحرِّك مُحدَث أو مُمكن ؟!! وأنَّ الحركة لا تقوم إلَّا بحادث أو ممكن ؟!! وأنَّ ما قامت به الحوادث لم يخل منها ؟!! وأنَّ ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؟!! وأين في القرآن امتناع حوادث لا أوَّل لها ؟!! " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ١١٨) .

ولأجل نصرة ما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة ، جيَّشوا جيوشهم ، وجاءوا بقضِّهم وقضيضهم ، ففتَّشوا ، ونقَّبوا ، وبحثوا في كلِّ صعيد ، فجمعوا كلَّ ما يتعلَّق بمسألة النُّزول ، من روايات صحيحة وتالفة وشاذَّة وباطلة ... لنصرة مذهبهم ، فقد ذكر إمامهم حافظ حكمي (١٣٧٧هـ) في كتابه : " معارج القبول بشرح سُلَّم الوصول إلىٰ علم الأصول " العديد العديد من الرِّوايات التي تُضحك الثَّكلىٰ ، مع زعمه بصحَّتها ، – مع أنَّ الكثير منها روايات وأحاديث تالفة ، كما قال محقِّق الكتاب المتمسلف !!! – ، ومن تلك الرِّوايات : " ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، وَلَهُ فِي كُلِّ سَماءٍ كُرْسِيٌّ !! فَإِذَا نَزَلَ إِلىٰ سَماءِ الدُّنيا جَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ ثمَّ مَدَّ سَاعِدَيْهِ ، فَيَقُولُ : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَتُوبُ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ ارْتَفَعَ فَجَلَسَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " ، رَوَاهُ ابْنُ مَنْدَهْ ، قَالَ : وَلَهُ أَصْلٌ مُرْسَلٌ .

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " يَنْزِلُ الله إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا لِثُلُثِ اللَّيْلِ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَوْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا مُقَتَّرٌ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، أَلَا مَظْلُومٌ يَسْتَنْصِرُنِي فَأَنْصُرَهُ ، أَلَا عَانٍ يَدْعُونِي فَأَفُكَّ عَنْهُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَكَانَهُ حتَّىٰ يَفِيءَ الْفَجْرُ ثمَّ يَعْلُو رَبُّنَا عزَّ وجلَّ إلىٰ السَّماء الْعُلْيَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ " . رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيُّ .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، قَالَ : " إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ نَزَلَ إِلىٰ سَمَاءِ الدُّنيا ثمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، فَقَالَ : مَنْ يَسْأَلْنِي فَأُعْطِيَهُ ، حتَّىٰ يَطْلُعَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ

فِي مُسْنَدِهِ وَرِجَالُهُ أَئِمَّةٌ ، وَرَوَاهُ أَبُو مُعَاوِيَةَ بِلَفْظِ : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّماء ثمَّ يَهْبِطُ إلى السَّماء الدُّنيا ثمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ حتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ " .

وَعَنْ رِفَاعَةَ الْجُهَنِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثُ اللَّيْلِ نَزَلَ الله إلى سَمَاءِ الدُّنيا ، فَقَالَ : لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي غَيْرِي ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، حتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ " . حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله إلى سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ . وَأَنَّ دَاوُدَ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَقَالَ : لَا يُسْأَلُ الله شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَاحِراً أَوْ عَشَّاراً " . رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِنَحْوِهِ . وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ بَقِينَ مِنَ اللَّيْلِ ، يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهُنَّ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ غَيْرُهُ ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، ثمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ ، لَا يَكُونُ مَعَهُ فِيهَا إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَرَ أَحَدٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، ثمَّ يَهْبِطُ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، يَقُولُ : أَلَا مُسْتَغْفِرٌ فَأَغْفِرَ لَهُ ، أَلَا سَائِلٌ فَأُعْطِيَهُ ، أَلَا دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ " . رَوَاهُ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ .

وَرَوَى مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ الله عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَنْزِلُ الله كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ ، فَيَقُولُ : أَلَا عَبْدٌ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ، أَلَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ يَدْعُونِي فَأَقْبَلَهُ ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ إلى مَطْلَعِ الصُّبْحِ وَيَعْلُو عَلَى كُرْسِيِّهِ " . وَعَنْ أَبِي الْخَطَّابِ رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّه قَالَ : وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الْوِتْرِ : أُحِبُّ أُوتِرُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللهَ يَهْبِطُ مِنَ السَّماء السَّابِعَةِ إلى السَّماء الدُّنيا فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ، هَلْ مِنْ دَاعٍ ، حتَّى إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ ارْتَفَعَ " . انظر : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (١/ ٢٩٥-٢٩٧) .

وقد دفعت أمثالُ هذه الرِّوايات الحنابلةَ إلى الغلوِّ والتَّعصُّب في مسألة النُّزول ، حتَّى وقعوا في التَّجسيم البَحت ... فقد صرَّح أئمَّتهم بأنَّ نزول الله تعالى نزول حقيقي من علو إلى سفلٍ ... ، قال إمامهم صدر الدِّين محمَّد بن علاء الدِّين عليّ بن محمَّد ابن أبي العزّ الحنفي ، الأذرعي الصَّالحي الدِّمشقي (٧٩٢هـ) : " ...التَّصْرِيحُ بِنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إلى سَمَاءِ الدُّنيا ، والنُّزول الْمَعْقُولُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ " . انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٨٦) .

وقال إمامهم عبد الرَّحمن السَّعدي (١٣٧٦هـ) : " ونزوله سبحانه نزول حقيقي يليق بجلاله وعظمته ، ولا يصحُّ تحريف معناه إلىٰ غير ذلك من التَّحريفات الباطلة ، مثل قولهم : معنىٰ النُّزول : نزول أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته ، فهذا من أبطل الباطل " . انظر : شرح رسالة في أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (ص١١) .

وقال الشَّيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) : " وأجمع السَّلف علىٰ ثبوت النُّزول لله ، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، وهو نزول حقيقي يليق بالله " . انظر : تعليق مختصر علىٰ كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد (ص٥٨) .

وقال أيضاً : " ... فهذا ليس عند الإنسان شكٌّ في أنَّه نزول حقيقي " . انظر : شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) (ص٣٠٩) .

وقال أيضاً : " ... كذلك النُّزول إلىٰ السَّماء الدُّنيا حينما يبقىٰ ثلث الليل الآخر نؤمن به علىٰ أنَّه نزول حقيقي ... " . انظر : منهاج أهل السُّنَّة والجماعة في العقيدة والعمل (ص١٥) .

قلت : والنُّزول الحقيقي هو النُّزول المعهود الذي يعني انتقال الجسم بالحركة من مكان إلىٰ مكان آخر ، وهو لا يتمّ إلا بثلاثة أركان : مكانٌ مُنتقلٌ منه ، ومكانٌ منتقلٌ إليه ، وجسمٌ منتقِلٌ بين المكانين ...

وقال المدعو خالد بن عبد الله بن محمَّد المصلح : " ونزوله هو نزول حقيقي ، ولا تقل : كيف ينزل ؟ ولا يشكل عليك ماهيَّة ذلك وحقيقته وكُنهه ، فإنَّك لم تكلَّف بذلك ، وإنَّما كلِّفت بأن تؤمن بكلِّ ما أخبر الله به عن نفسه ، وأخبر به رسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه .

وتأويل النُّزول بغير ما دلَّ عليه ظاهر النَّصِّ !! كمن يقولون : تنزل رحمته ، أو ينزل ملك من الملائكة ، فإنَّ هذا خطأ كبير !!! وتحريف خطير للنصِّ ؛ لأنَّ النَّبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : " ينزل ربُّنا تبارك وتعالىٰ كلّ ليلة إلىٰ السَّماء الدُّنيا ، فيقول : هل من داعٍ فأجيبه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له " ، فهل يسوغ أن يقول هذا القول مَلكٌ من الملائكة ؟ " . انظر : شرح لمعة الاعتقاد (٣/ ٢٤) .

وقد انتهىٰ بهم الأمر في هذه المسألة إلىٰ قياس الخالق علىٰ المخلوق ، حيث جعلوا الحركة أمارة ما بين الحيِّ والميِّت ، وفي ذلك قال الإمام ابن تيمية : " ... لأنَّ الحيَّ القيوم يفعل ما يشاء ، ويتحرَّك إذا شاء ، ويهبط ويرتفع إذا شاء ، ويقبض ويبسط ، ويقوم ويجلس إذا شاء ، لأنَّ أمارة ما بين الحي والميت التحرُّك ، كل حيٍّ متحرِّك لا محالة ، وكل ميِّت غير متحرِّك لا محالة " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٥١) ، (٢/ ٧٢) ، شرح العقيدة الأصفهانية (ص٧٩) .

وأنا أقول له : يا ابن تيمية : إنَّ الأرض جماد لا روح فيها ، وهي تتحرَّك ، ولا يخالف في ذلك إلَّا أعمىٰ البصر والبصيرة ، تماماً كما فعل الشَّيخ ابن باز فألَّف كتاباً بعنوان : " الأدلَّة النَّقليَّة والعقليَّة علىٰ سكون الأرض وحركة

الكواكب والنُّجوم " ، وما أَلَّف هذا الكتاب الهالك المتهالك إلَّا لنصرة باطل مذهبه ، بالغشِّ والتَّدليس والكذب والخيانة والتَّلاعب بعقول الجهَّال والعميان ، فسبحان مقلِّب القلوب ، ومقسِّم العقول ...

وقد ذكر الله تعالى في الكتاب المجيد أنَّ الجبال تتحرَّك ، فقال : **﴿وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ﴾** [النمل : ٨٨] . قال الإمام الشَّعراوي : " فليس غريباً الآن أن نعرف أنَّ للجبال حركة ، وإنْ كنَّا لا نراها ؛ لأنَّها ثابتة بالنِّسبة لموقعك منها ؛ لأنَّك تسير بنفس حركة سيرها ، كما لو أنَّك وصاحبك في مركب ، والمركب تسير بكما ، فأنت لا تدرك حركة صاحبك لأنَّك تتحرَّك بنفس حركته .

وقد شبَّه الله حركة الجبال بمرِّ السحاب، فالسَّحاب لا يمرُّ بحركة ذاتية فيه، إنَّما يمرُّ بدفْع الرِّياح، كذلك الجبال لا تمرُّ بحركة ذاتيَّة إنَّما بحركة الأرض كلّها، وهذا دليل واضح على حركة الأرض " . انظر : تفسير الشعراوي (١٥/ ٩٥٢٧) .

وكذا صرَّح إمامهم الألباني بأنَّ نزول الله تعالى نزول حقيقي ، فقال : " فنزوله نزول حقيقي يليق بجلاله ، لا يُشبه نزول المخلوقين ، وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته ، وخاص بعباده المتقرِّبين إليه بطاعته ، ووقوفهم بعرفة تلبية لدعوته عزَّ وجلَّ . فهذا هو مذهب السَّلف في النُّزول والدُّنو ، فكن على علم بذلك " . انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٠٨) .

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله ...

فما قالوه ... مغالطة كبيرة ، لأنَّه لا بدَّ من الاحتكام للغة العربيَّة في معرفة معاني الآيات الكريمة ، وكذا الأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة ... ولا يوجد في معاجم وقواميس اللغة معنى من المعاني كالذي قالوا ، فإنَّ قولهم لا مكان له من الإعراب في لغة العرب ، إلَّا إذا قلنا بتفويض الكيْف والمعنى ، وهم يأبون علينا ... بل يقولون بأنَّ التَّفويض من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد ، كما قال ابن تيمية في " درء التَّعارض " ، قال : " فتبيَّن أنَّ قول أهل التَّفويض الذين يزعمون أنَّهم متَّبعون للسُّنَّة والسَّلف : من شرِّ أقوال أهل البدع والإلحاد !!! " . انظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥) .

والعياذ بالله تعالى ...

بقي أمرٌ قاله الألباني ، وهو قوله : " وكذلك دنوُّه عزَّ وجلَّ دنوٌّ حقيقي يليق بعظمته " . والدُّنو الذي يقصده الألباني ومن معه من مدَّعي السَّلفيَّة : هو دنوُّ الله تعالى من محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وهم بذلك يفسِّرون الدُّنو والتَّدلي الواردين في سورة " النَّجم " ، وهم بتفسيرهم هذا مخالفون لجمهور أهل العلم ... قال الإمام الطَّبري (٣١٠هـ) : " الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : **﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾** [النجم ٨-٩] : يَقُولُ تَعَالَى

ذِكْرُهُ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ مِنْ محمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتدَلَّىٰ إِلَيْهِ ، وَهَذَا مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ التَّقْدِيمُ ، وإِنَّما هُوَ : ثمَّ تَدَلَّىٰ فَدَنَا ، وَلَكِنَّهُ حَسُنَ تَقْدِيمُ قَوْلِهِ : ﴿ثُمَّ دنا فتدلَّى﴾ [النجم : ٨] ، إِذْ كَانَ الدُّنُوُّ يَدُلُّ عَلَىٰ التَّدَلِّي وَالتَّدَلِّي عَلَىٰ الدُّنُوِّ، كَمَا يُقَالُ : زَارَنِي فُلَانٌ فَأَحْسَنَ ، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَزَارَنِي ، وَشَتَمَنِي فَأَسَاءَ ، وَأَسَاءَ فَشَتَمَنِي لِأَنَّ الْإِسَاءَةَ هِيَ الشَّتْمُ : وَالشَّتْمُ هُوَ الْإِسَاءَةُ ، وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْويل ... ثمَّ ذكر من القائلين بذلك : الحسن البصري ، قتادة (١١٨هـ) ، والرَّبيع " . انظر : تفسير الطَّبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) (٢٢/ ١٣-١٤) .

وقال الإمام البغوي (٥١٦هـ) : قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى * فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ [النجم : ٨-٩] ، اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهَّ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بن يوسف ثنا محمَّد بْنُ إِسْمَاعِيلَ ثَنَا محمَّد بن يوس ثنا أبو أسامة ثنا زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ أَبِي الْأَشْوَعِ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ : فَأَيْنَ قَوْلُهُ : ﴿ثُمَّ دنا فَتَدَلَّى * فكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾ [النجم : ٨-٩] ؟ قَالَتْ : ذَلِكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ ، فَسَدَّ الْأُفُقَ .

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهَّ النَّعِيمِيُّ أَنَا محمَّد بْنُ يُوسُفَ ثَنَا محمَّد بن إسماعيل ثنا طلق بن غنّام ثنا زَائِدَةُ عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ : سَأَلْتُ زِرّاً عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ثُمَّ دنا فتدَلَّى﴾ [النجم : ٩] ، قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهَّ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ أَنَّ محمَّدا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ .

فَمَعْنَىٰ الْآيَةِ : ثمَّ دَنَا جِبْرِيلُ بَعْدَ اسْتِوَائِهِ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْأَرْضِ ، فَتَدَلَّىٰ فَنَزَلَ إِلىٰ محمَّد صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَانَ مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ، بَلْ أَدْنَىٰ ، وَبِهِ قَالَ ابن عبَّاس ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ ، تَقْدِيرُهُ : ثمَّ تَدَلَّىٰ فَدَنَا ، لِأَنَّ التَّدَلِّيَ سَبَبُ الدُّنُوِّ " . انظر : معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي) (٤/ ٣٠١-٣٠٢) .

وعليه : فابن عبَّاس ، والحسن البصري ، وقتادة ، والرَّبيع ... قالوا : إنَّ مسألة التَّدلي مرتبطة بأمين الوحي جبريل عليه السَّلام ، وليس الأمر كما يعتقد مدَّعو السَّلفيَّة : أنَّ المتدلِّي هو الله تعالىٰ ... والذي ذكرناه هو قول جمهور المفسِّرين . انظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ١٩٤) ، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٨٥) ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٢٠١) ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٣٢٣) ، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/ ٥٠١) ...

وأخيراً نقول : هل تأويل الإمام مالك (١٧٩هـ) لنزول الله تعالىٰ بنزول أمره – كا أثبتناه في كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَىٰ مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ اللهِ عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْلِ" – من أبطل الباطل كما قال المتسلِّفة ؟!!! وهل جمهور علماء الأمَّة الذين نقلنا عنهم في كتابنا المذكور تأويل النُّزول بنزول أمره أو غيره من التَّأويلات المُراعية جلال الله تعالىٰ

وعظمته وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ... من أبطل الباطل ؟!!! ، وهل وقعوا في خطأ كبير ، وحرَّفوا الكلم عن مواضعه ؟!!! ... لقد استهوىٰ سلطانُ المخالفة هؤلاء ، وسيطر علىٰ كيانهم حتَّىٰ جعلوا – وعلىٰ الدَّوام – أقوالهم وأقوال علمائهم هي الصَّواب الذي لا يحتمل الخطأ ، وأقوال غيرهم ولو كانت مجموع الأمَّة خطأ لا يحتمل الصَّواب ...

فإذا كان هؤلاء مبتدعة ضالُّون محرِّفون للكَلِم عن موضعه – كما يزعم مدَّعو السَّلفيَّة – فمن بقي بعدهم من علماء الأمَّة الذين يعوَّل علىٰ كلامهم ؟!! **﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾** [القلم : ٣٦] ، **﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾** [يونس : ٣] ، **﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ﴾** [الصافات : ١٥٦] ، **﴿فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾** [الصافات : ١٥٧] ، ولذا فإنَّ الواجب علىٰ علماء الأمَّة أن يوقفوا هؤلاء وأمثالهم عند حدِّهم ، فقد بغوا وطغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، ولبسوا لبوس المراوغة والعناد ، وتطاولوا علىٰ علماء الأمَّة بجهلهم وأموالهم وإعلامهم وكذا بالكُتب المزوَّقة التي تُوزَّع بالملايين فتُهدىٰ ولا تُباع في مختلف الأصقاع !!! ... فالواجب أن تجتمع الكلمة علىٰ التَّحذير منهم ، بكشف مخازيهم وضلالاتهم ، وعيوبهم ، وإفلاسهم العلمي ، فقد استغلُّوا غفلة النَّاس وجهلهم ، فعمدوا إلىٰ نشر ترَّهاتهم وخُزعبلاتهم التي أخمدها علماء الأمَّة في القرن الثَّامن الهجري ، وبقيت هامدة خامدة الأنفاس لا تقوىٰ علىٰ الحِراك حتَّىٰ القرن الثَّاني عشر ، فوجدت الهمج الرّعاع الأعراب الأجلاف الجهَّال الذين اعتنقوها واعتقدوها مرَّة ثانية بعد أسلافهم من الحشويَّة والمشبِّهة ، الذين طغوا في البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ...

وبسبب جرأة من يزعمون ويدَّعون السَّلفيَّة في إظهار باطلهم ، فقد اضطرَّ العديد من علماء الأمَّة إلىٰ أن يكتبوا محاضر في العقائد الصَّحيحة ، حرصاً منهم علىٰ التَّصحيح والتَّصويب ، ونشر الحقِّ بين الأُمَّة وخاصَّة في أمور العقيدة ، ومن ذلك : المحضر الذي كتبه جماعة من أئمَّة الشَّافعية ، منهم : الشَّيخ أبو إسحاق الشِّيرازي (٤٧٦هـ) ، والإمام أبو بكر الشَّاشي (٥٠٧هـ) ، وغيرهما ، وهذا نصُّه :

بِسم اللهَّ الرَّحمن الرَّحِيم : يشْهد من ثَبت اسْمه وَنسبه ، وَصَحَّ نهجه ومذهبه ، واختبر دينه وأمانته ، من الْأَئِمَّة الْفُقَهَاء ، والأماثل الْعلمَاء ، وَأهل الْقُرْآن والمعدلين الْأَعْيَان ، وَكَتَبُوا خطوطهم الْمَعْرُوفَة ، بعباراتهم المألوفة ، مسارعين إِلىٰ أَدَاء الْأَمَانَة ، وتوخَّوا فِي ذَلِك مَا تحظره الدّيانَة ، مَخَافَة قَوْله تَعَالَىٰ : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ﴾** [البقرة: ١٤٠] ، إِنَّ جمَاعَة من الحشويَّة والأوباش الرّعاع ، المتوسِّمين بالحنبليَّة ، أظهرُوا بِبَغْدَادَ من الْبدع الفظيعة والمخازي الشَّنيعة ، مالم يتسمح بِهِ ملحد فضلاً عَن موحِّد ، وَلَا تجوز بِهِ قَادِح فِي أصل الشَّرِيعَة ، وَلَا معطِّل ، ونسبوا كلَّ من ينزِّه الْبَارِي تَعَالَىٰ وَجلَّ عَن النَّقائص والآفات ، وينفي عَنهُ الْحُدُوث والتشبيهات ، ويقدِّسه عَن الْحُلُول وَالزَّوال ، ويعظمه عَن التَّغَيُّر من حَال إِلىٰ حَال ، وَعَن حُلُوله فِي الْحَوَادِث ، وحدوث الْحَوَادِث فِيهِ ، إِلىٰ

وَفِي كَلَام عبد الْعَزِيز الْمَاجشون السَّابِق إِلَى هَذَا مرامز .

الْكفْر والطغيان ، ومنَافاة أهل الْحق وَالْإِيمَان ، وتنَاهوا فِي قذف الْأَئِمَّة الماضين ، وثلب أهل الْحق وعصابة الدِّين ، ولعنهم فِي الْجَوَامِع والمشاهد والمحافل والمساجد والأسواق والطُّرقات وَالْخلْوَة وَالْجَمَاعَات ، ثمَّ غرَّهم الطَّمع والإهمال ، ومدَّهم فِي طغيانهم الغيُّ والضَّلال ، إِلَى الطعْن فِيمَن يعتضد بِهِ أَئِمَّة الْهدى ، وَهُوَ للشريعة العروة الوثقى ، وَجعلُوا أَفعاله الدِّينيَّة معاصي دنيَّة ، وترقَّوا من ذَلِك إِلَى الْقدح فِي الشَّافِعِي (٢٠٤هـ) رَحْمَة الله عَلَيْهِ وَأَصْحَابه ، وَاتفقَ عود الشَّيْخ الإِمَام الأوحد أَبِي نصر ابْن الْأُسْتَاذ الإِمَام زين الْإِسْلَام أبي الْقَاسِم الْقشيرِي (٤١٨هـ) رَحْمَة اللهَّ عَلَيْهِ من مَكَّة حرسها اللهَّ ، فَدَعَا النَّاس إِلَى التَّوحيد ، وَقدَّس الْبَارِي عَن الْحَوَادِث والتحديد ، فَاسْتَجَاب لَهُ أهل التَّحْقِيق ، من الصُّدُور الْفَاضِل السَّادة الأماثل ، وتمادت الحشويَّة فِي ضلالتها ، والإصرار على جهالتها ، وَأَبُو إِلَّا التَّصْرِيح بِأَنَّ المعبود ذُو قدم وأضراس ، ولهوات وأنامل ، وَأَنه ينزل بِذَاتِهِ ، ويتردَّد على حمَار فِي صُورَة شَاب أَمْرَد ، بِشعر قطط ، وَعَلِيهِ تَاج يلمع ، وَفِي رجلَيْهِ نَعْلَانِ من ذهب ، وَحفظ ذَلِك عَنْهُم ، وعلَّلوه ودوَّنوه فِي كتبهمْ ، وَإِلَى الْعَوام ألقوه ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَار لَا تَأْوِيل لَهَا ، وأنَّها تجرى على ظواهرها ، وتعتقد كَمَا ورد لَفظهَا ، وأنَّه تَعَالَى يتكَلَّم بِصَوْت كالرعد ، كصهيل الْخَيل ، وينقمون على أهل الْحق ، لقَولهم : إِنَّ اللهَّ تَعَالَى مَوْصُوف بِصِفَات الْجلَال ... " . انظر : تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري (ص٣١٠-٣١١) .

قلت : سبحان الله ... أحداث التَّاريخ تعود كما حدثت في السَّابق ... فأعمال هذه الشِّرذمة القليلة هي هيَ على مدار التَّاريخ ، فما وُجدوا في زمنٍ إلَّا أفسدوه ، ولا دخلوا بلداً إلَّا جعلوا أهله شِيَعاً وأحزاباً ، يلعنُ بعضُهم بعضاً ، ويسبُّ بعضُهم بعضاً ، ويكفِّرُ بعضُهم بعضاً ، ويطعنُ بعضهم بعضاً ... وإلَّا قل لي بربِّك : ماذا أفادت هذه الشِّرذمة أُمَّة الإسلام مُذ وجدت ؟!! ألسنا في كلِّ يوم نرجع القهقرى إلى الورى ؟!! فبعد أن كنَّا نناطح السَّحاب شموخاً وعزَّة وأنفة ، أصبحنا يُضرب بنا المثل في الخنوع والخضوع ، وصرنا في وضع لا نُحسد عليه ... لقد أنهكوا أهل العلم بالرَّدِّ على ترَّهاتهم وخزعبلاتهم ، بدلاً من أن تُوجَّه جُهودهم لنصرة الإسلام والرَّدِّ على كلِّ من يكيد للإسلام من خارج أبناء الأُمَّة ، ولكن أبى هؤلاء إلَّا أن يُوقفوا المسيرة ، ويكونوا مِعْوَلاً بيد أعداء الحقِّ لهدم الإسلام ، وهذا هو دَوْرُهم المرسُوم لهم ... ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم .

وفي كتابنا " إِرْشَادُ الفُحُوْلِ إِلَى مَا قَالَهُ أَسَاطِيْنُ العِلْمِ فِيْ تَنْزِيْهِ الله عَنِ الحَرَكَةِ وَالنُّزُوْل" ناقشناهم في مسألة النزول بالنَّقل والعقل ، فبكَّتنا أقوالهم ، ودمنا بنيانهم ، وعرَّينا منهجهم ... والحمد لله تعالى الذي بنعمته تتمُّ الصَّالحات، وبفضله تتنزل الخيرات والبركات ، وبتوفيقه تتحقَّق المقاصد والغايات ...

وَكَذَلِكَ لَفْظَة فَوق الْوَارِدَة فِي الْقُرْآن وَالْخَبَر ، فَليعلم أَنَّ فَوق تَارَة تكون للجسميَّة وَتارَة للمرتبة ، كَمَا سبق ، فَليعلم أَنَّ الجسميَّة على الله محَال .

وَبعد ذَلِك إِنَّ لَهُ معنى يَلِيق بجلاله تَعَالَى ، وَأَمَّا الْإِيمَان والتَّصديق بِهِ فَهُوَ أَن يعلم أَنَّ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَادِق فِي وصف الله تَعَالَى بذلك ، وَمَا قَالَه حقٌّ لَا ريب فِيهِ ، بِالْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ ، وَالْوَجْه الَّذِي قَالَه ، وَإِن كَانَ لَا يقف على حَقِيقَته وَلَا يتخبَّطه الشَّيْطَان ، فَيَقُول : كَيفَ أصدِّق بِأَمْر جملي لَا أعرف عينه ؟ بل يخزي الشَّيْطَان ، وَيَقُول : كَمَا إِذا أَخْبرنِي صَادِق أَنَّ حَيَوَاناً فِي دَار ، فقد أدْركْت وجوده وَإِن لم أعرف عينه ، فَكَذَلِك هَاهُنَا .

ثمَّ ليعلم أَنَّ سيِّد الرُّسُل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قَالَ : " لَا أحصي ثَنَاء عَلَيْك أَنْت كَمَا أثنيت على نَفسك " (٧٨) ، وَقَالَ سيِّد الصدِّيقين رَضِي الله عَنهُ : الْعَجز عَن دَرك الْإِدْرَاك إِدْرَاك .

وَأَمَّا الِاعْتِرَاف بِالْعَجزِ : فَوَاجِب على كلِّ من لَا يقف على حَقِيقَة هَذِه الْمعَانِي الْإِقْرَار بِالْعَجزِ ، فَإِن ادّعى الْمعرفَة فقد كلّف ، وكل عَارِف وَإِن عرف فَمَا خَفِي عَلَيْهِ أَكثر .

وَأَمَّا السُّكُوت فَوَاجِب على الْعَوام ، لِأَنَّهُ بالسُّؤَال يتَعَرَّض لما لَا يطيقه ، فَهُوَ إِن سَأَلَ جَاهِلاً زَاده جهلاً ، وَإِن سَأَلَ عَالماً لم يُمكن الْعَالم إفهامه ، كَمَا لَا يُمكن الْبَالِغ تَعْلِيم الطِّفْل لَذَّة الْجِمَاع ، وَكَذَلِكَ تَعْلِيمه مصلحَة الْبَيْت وتدبيره ، بل يفهمهُ مصْلحَته فِي خُرُوجه إِلَى الْمكتب .

فالعامِّي إِذا سَأَلَ عَن مثل هَذَا يزْجر ويردع ، وَيُقَال لَهُ لَيْسَ هَذَا بعشّك فادرجي .

---

(٧٨) أخرجه أحمد في المسند (٢/ ١٤٧ برقم ٧٥١) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : " إسناده قوي ، هشام بن عمرو- وهو الفزاري- لم يرو عنه غير حماد بن سلمة وهو أقدم شيخ له ، ووثقه ابن معين وأحمد وأبو حاتم ، وذكره ابن حبان في "الثقات" ، واحتج به أصحاب السنن الأربعة . وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦ و١٠/ ٣٨٦ ، وعبد بن حميد (٨١) ، والتِّرمذي (٣٥٦٦) وحسنه ، وأبو يعلى (٢٧٥) من طريق يزيد بن هارون ، بهذا الإسناد . وأخرجه الطيالسي (١٢٣) ، وأبو داود (١٤٢٧) ، والنسائي في "المجتبى" ٣/ ٢٤٨-٢٤٩ ، وفي "الكبرى" (٧٧٥٣) ، والطبراني في "الدعاء" (٧٥١) ، والبيهقي ٣/ ٤٢ من طرق عن حماد بن سلمة ، به . وسيأتي برقم (٩٥٧) و (١٢٩٥) . قوله : "كما أثنيت" ، قال السندي : أي : أنت الذي أثنيت على ذاتك ثناءً يليق بك ، فمن يقدر على أداء حق ثنائك ، فالكافُ زائدةً ، والخطاب في عائد الموصول بملاحظة المعنى ، ويحتمل أن الكاف بمعنى "على" ، والعائد محذوف ، أي : أنت ثابت على أوصافٍ أثنيت بها على نفسك ، والجملةُ على الوجهين في محل التعليل ، وفيه إطلاق النفس عليه تعالى بلا مشاكلة ، وقيل : "أنت" تأكيد للمجرور في "عليك" ، فهو من استعارة المرفوع المنفصل موضع المجرور المتصل؛ إذ لا منفصلَ في المجرور ، و"ما" مصدرية ، والكاف بمعنى : مثل ، صفة ثناء .

وَقد أَمر مَالك بِإِخْرَاج من سَأَلَهُ ، فَقَالَ : مَا أَرَاك إِلَّا رجل سوء ، وعلاه الرُّحضاء ، وَكَذَلِكَ فعل عمر رَضِي الله عَنهُ بِكُلِّ من سَأَلَ عَن الْآيَات المتشابهة ، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّمَا هلك من كَانَ قبلكُمْ بِكَثْرَة السُّؤَال ... " (٧٩) .

وَورد الْأَمر بالإمساك عَن الْقدر ، فَكيف عَن الصِّفَات .

وَأَمَّا الْإِمْسَاك عَن التَّصَرُّف فِي هَذِه الْأَخْبَار والآيات ، فَهُوَ أَن يَقُولهَا كَمَا قَالَهَا الله تَعَالَى وَرَسُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا يتَصَرَّف فِيهَا بتفسير وَلَا تَأْوِيل ، وَلَا تصريف وَلَا تَفْرِيق وَلَا جمع .

فَأَمَّا التَّفْسِير : فَلَا يُبدل لفظ لُغَة بِأُخْرَى ، فَإِنَّهُ قد لَا يكون قَائِما مقَامه ، فَرُبمَا كَانَت الْكَلِمَة تستعار فِي لُغَة دون لُغَة ، وَرُبمَا كَانَت مُشْتَركَة فِي لُغَة دون لُغَة ، وَحِينَئِذٍ يعظم الْخطب بترك الِاسْتِعَارَة ، وباعتقاد أَنَّ أحد الْمَعْنيين هُوَ الْمُرَاد بالمشترك .

وَأَمَّا التَّأْوِيل : فَهُوَ أَن يصرف الظَّاهِر ، وَيتَعَلَّق بالمرجوح ، فَإِن كَانَ عاميا فقد خَاضَ بحرا لَا سَاحل لَهُ ، وَهُوَ غير سابح ، وَإِن كَانَ عَالما لم يجز لَهُ ذَلِك إِلَّا بشرائط التَّأْوِيل ، وَلَا يدْخل مَعَ الْعَاميّ فِيهِ لعجز الْعَاميّ عَن فهمه .

وَأَمَّا كفّ بَاطِنه : فلئلَّا يتوغَّل فِي شَيْء يكون كفراً ، وَلَا يتَمَكَّن من صرفه عَن نَفسه ، وَلَا يُمكن غَيره ذَلِك .

وَأَمَّا اعْتِقَاده أَنَّ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم ذَلِك فليعلمه ، وَلَا يقس نَفسه بِهِ وَلَا بِأَصْحَابِهِ ، وَلَا بأكابر الْعلمَاء ، فالقلوب معادن وجواهر .

ثمَّ الْكَلَام بعد هَذَا فِي فصلين :

أَحدهمَا : فِي تَنْزِيه الله تَعَالَى عَن الْجِهَة ، فَنَقُول :

الأَوَّلُ : أَنّ الْقَوْم إِن بحثوا بالأخبار والْآثَار فقد عرفت مَا فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ مَا ظفروا بصحابي وَلَا تَابِعِيّ يَقُول بمقالتهم ، على أَنَّ الْحقَّ فِي نفس الْأَمر أَنَّ الرِّجَال تُعرف بِالْحَقِّ وَلَا يُعرف الْحقُّ بِالرِّجَالِ ، وَقد روى أَبُو

---

(٧٩) أخرجه أحمد في المسند (١٦/ ٣١٤ برقم ١٠٥٣١) ، قال الأرنؤوط في تخريجه للمسند : " حديث صحيح ، وهذا إسناد حسن ، وأخرجه مختصراً مسلم ص١٨٣٠ (١٣٠) ، والطبراني في "الأوسط" (٨٧٦٨) من طريق ابن شهاب ، عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، بلفظ : "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم" . وسلف الحديث بنحوه دون قصة عبد الله بن حذافة ، من طرق عن أبي هريرة ، انظر (٧٣٦٧) . ويشهد لقصة عبد الله بن حذافة حديث أنس بن مالك عند البخاري (٧٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٥٩) (١٣٦) و (١٣٧) ، وسيأتي ٣/ ١٠٧ و١٦٢ . وعن أبي موسى الأشعري عند البخاري (٩٢) ، ومسلم (٢٣٦٠) .

دَاوُد فِي سنَنه (٨٠) ، عَن معَاذ رَضِي الله عَنهُ أَنَّه قَالَ : اقْبَلُوا الْحق من كلِّ مَا جَاءَ بِهِ وَإِن كَانَ كَافِراً ، أَو قَالَ فَاجِراً ، واحذروا زيغة الْحَكِيم ، قَالُوا : كَيفَ نعلم أَنَّ الْكَافِر يَقُول الْحق ؟ قَالَ : إِن على الْحق نوراً ، وَلَقَد صدق رَضِي الله عَنهُ .

وَلَو تطوَّقت قلادة التَّقْلِيد لم نَأْمَن أَنَّ كَافِراً يأتينا بِمن هُوَ مُعظم فِي مِلَّته ، وَيَقُول : اعرفوا الْحق بِهَذَا .

وَإِذ قد علمت أَنَّ الْقَوْم لَا مستروح لَهُم فِي النَّقْل ، فَاعْلَم أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُخَاطب إِلَّا أولى الْعُقُول والألباب والبصائر ، وَالْقُرْآن طافح بذلك ، وَالْعقل هُوَ الْمُعَرِّف بِوُجُود الله تَعَالَى ووحدته ، ومبرهن رِسَالَة أنبيائه ، إِذْ لَا سَبِيل إِلَى معرفَة إِثْبَات ذَلِك بِالنَّقْلِ ، وَالشَّرْع قد عدل الْعقل وَقبل شَهَادَته ، وَاسْتدلَّ بِهِ فِي مَوَاضِع من كِتَابه ، كالاستدلال بالإنشاء على الْإِعَادَة وَقَوله تَعَالَى : ﴿وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس:٧٨] ، وَلَقَد هدم الله تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَة مبَاحث الفلاسفة فِي إِنْكَار الْمعَاد الجسماني .

وَاسْتدلَّ بِهِ على التَّوْحِيد ، فَقَالَ الله تَعَالَى : ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء:٢٢] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩٢] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦] .

---

(٨٠) روى أبو داود في السنن (٤/ ٢٠٢ برقم ٤٦١١) بسنده عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ أَبَا إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيَّ عَائِذَ اللهِ، أَخْبَرَهُ أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَيْرَةَ – وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – أَخْبَرَهُ قَالَ: كَانَ لَا يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلَّا قَالَ: «اللهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ»، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَوْمًا: " إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ، وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ، وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ، وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ، فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ "، قَالَ: قُلْتُ لِمُعَاذٍ: مَا يُدْرِينِي رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: «بَلَى، اجْتَنِبْ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مَا هَذِهِ، وَلَا يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: قَالَ مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، وَلَا يُنْئِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، مَكَانَ يُثْنِيَنَّكَ، وَقَالَ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، فِي هَذَا: الْمُشَبِّهَاتِ، مَكَانَ الْمُشْتَهِرَاتِ، وَقَالَ: لَا يُثْنِيَنَّكَ كَمَا قَالَ عُقَيْلٌ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ بَلَى مَا تَشَابَهَ عَلَيْكَ مِنْ قَوْلِ الْحَكِيمِ حَتَّى تَقُولَ مَا أَرَادَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت:٥٣] .

فيا خيبة من ردَّ شَاهداً قَبِلَهُ الله ، وَأَسْقط دَلِيلاً نَصبه الله .

فهم يلغون مثل هَذَا ويرجعون إِلَى أَقْوَال مشايخهم ، الَّذين لَو سُئِلَ أحدهم عَن دينه لم يكن لَهُ قُوَّة على إثْبَاته ، وَإِذا ركض عَلَيْهِ فِي ميدان التَّحْقِيق جَاءَ سكيتاً ، وَقَالَ : سَمِعت النَّاس يَقُولُونَ شَيْئاً فقلته .

وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ فِي حَدِيث الْكُسُوف مَا يعرف بِهِ حَدِيث هَؤُلَاءِ فِي قُبُورهم .

وَبعد ذَلِك يَقُول الْعقل الَّذِي هُوَ مناط التَّكْلِيف ، وحاسب الله تَعَالَى النَّاس بِهِ ، وَقبل شَهَادَته ونصبه ، وَأثبت بِهِ أُصُول دينه ، وَقد شهد بخبث هَذَا الْمَذْهَب ، وَفَسَاد هَذِه العقيدة ، وَإِنَّهَا آلت إِلَى وَصفه تَعَالَى بالنَّقائص ، تَعَالَى الله عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ علوّاً كَبِيراً .

وَقد نبَّهت مَشَايِخ الطَّرِيق على مَا شهد بِهِ الْعقل ، ونطق بِهِ الْقُرْآن ، بأسلوب فهمته الْخَاصَّة ، وَلم تنفر مِنْهُ الْعَامَّة . وَبَيَان ذَلِك بِوُجُوه :

الْبُرْهَانُ الأَوَّلُ :

وَهُوَ المقتبس من ذِي الْحسب الزَّكِي ، وَالنَّسب الْعلي ، سيِّد الْعلمَاء ، ووارث خير الْأَنْبِيَاء ، جَعْفَر الصَّادِق ، رَضِي الله عَنهُ ، قَالَ : لَو كَانَ الله فِي شَيْء لَكَانَ محصوراً .

وَتَقْرِير هَذِه الدّلَالَة : أَنَّه لَو كَانَ فِي جِهَة لَكَانَ مشارا إِلَيْهِ بِحَسب الْحس ، وهم يعلمُونَ ذَلِك ، ويجوِّزون الْإِشَارَة الحسيَّة إِلَيْهِ .

وَإِذا كَانَ فِي جِهَة مشاراً إِلَيْهِ لزم تناهيه ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذا كَانَ فِي هَذِه الْجِهَة دون غَيرهَا ، فقد حصل فِيهَا دون غَيرهَا ، وَلَا معنى لتناهيه إِلَّا ذَلِك ، وكلُّ متناه مُحدث ، لِأَنَّ تَخْصِيصه بِهَذَا الْمِقْدَار دون سَائِر الْمَقَادِير لَا بُدَّ لَهُ من مُخَصِّص .

فقد ظهر بِهَذَا الْبُرْهَان الَّذِي يُبْدِهِ الْعُقُول : أَنَّ القَوْل بالجهة يُوجب كَون الْخَالِق مخلوقاً ، والرَّب مربوباً ، وَأَنَّ ذَاته متصرَّف فِيهَا ، وَتقبل الزِّيَادَة وَالنُّقْصَان ، تَعَالَى الله عَمَّا يَقُول الظَّالِمُونَ علوّاً كَبِيراً .

الْبُرْهَانُ الثَّانِي :

الْمُسْتَفَاد من كَلَام الشِّبلي رَضِي الله عَنهُ ، شيخ الطَّرِيق وَعلم التَّحْقِيق ، فِي قَوْله : الرَّحْمَن لم يزل ، وَالْعرش مُحدث ، وَالْعرش بالرَّحمن اسْتَوَى :

وَتَقْرِيره : أَنَّ الْجِهَة الَّتِي يَخْتَصُّ الله تَعَالَى بهَا على قَوْلهم ، تَعَالَى الله عَنْهَا ، وسمُّوها الْعَرْش ، إِمَّا أَن تكون مَعْدُومَة أَو مَوْجُودَة ، وَالْقسم الأول محَال بالِاتِّفَاقِ .

وَأَيْضاً فَإِنَّهَا تقبل الْإِشَارَة الحسيَّة ، وَالْإِشَارَة الحسيَّة إِلَى الْعَدَم محَال ، فَهِيَ مَوْجُودَة ، وَإِذا كَانَت مَوْجُودَة ، فَإِن كَانَت قديمَة مَعَ الله فقد وجد لنا قديم غير الله وَغير صِفَاته ، فَحِينَئِذٍ لَا يدرى أَيهمَا الأولة .

وَهَذَا خبث هَذِه العقيدة . وَإِن كَانَت حَادِثَة فقد حدث التَّحيُّز بِاللهِّ تَعَالَى ، فَيلْزم أَن يكون الله قَابلاً لصفات نفسيَّة حَادِثَة ، تَعَالَى الله عَن ذَلِك .

الْبُرْهَانُ الثَّالِثُ :

الْمُسْتَفَاد من لِسَان الطَّرِيقَة وَعلم الْحَقِيقَة وطبيب الْقُلُوب وَالدَّلِيل على المحبوب ، أبي الْقَاسِم الْجُنَيْد رَضِي الله عَنهُ (٨١) ، قَالَ : مَتى يتَّصل من لَا شَبيه لَهُ وَلَا نَظِير بِمن لَهُ شَبيه وَنَظِير ؟ هَيْهَات هَيْهَات هَذَا ظنٌّ عَجِيب .

---

(٨١) هو أَبُو القَاسِمِ الجُنَيْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ الجُنَيْدِ النَّهَاوَنْدِيُّ ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، القَوَارِيْرِيُّ، وَالِدُه الخَزَّازُ.

هُوَ شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ.

وُلِدَ: سَنَةَ نَيِّفٍ وَعِشْرِيْنَ وَمائَتَيْنِ، وَتَفَقَّهَ عَلَى أَبِي ثَوْرٍ.

وَسَمِعَ مِنَ: السَّرِيِّ السَّقَطِيِّ ، وَصَحِبَهُ، وَمِنَ الحَسَنِ بنِ عَرَفَةَ.

وَصَحِبَ أَيْضاً: الحَارِثَ المُحَاسِبِيَّ ، وَأَبَا حَمْزَةَ البَغْدَادِيَّ.

وَأَتْقَنَ العِلْمَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ، وَتَأَلَّهَ، وَتَعَبَّدَ، وَنَطَقَ بِالحِكْمَةِ، وَقَلَّ مَا رَوَى.

حَدَّثَ عَنْهُ: جَعْفَرٌ الخُلْدِيُّ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الجَرِيْرِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ الشِّبْلِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ عَلِيِّ بنِ حُبَيْشٍ، وَعَبْدُ الوَاحِدِ بنُ عِلْوَانَ، وَعِدَّةٌ.

قَالَ ابْنُ المُنَادِي: سَمِعَ الكَثِيْرَ، وَشَاهَدَ الصَّالِحِيْنَ وَأَهْلَ المَعْرِفَةِ، وَرُزِقَ الذَّكَاءَ وَصَوَابَ الجَوَابِ.

لَمْ يُرَ فِي زَمَانِهِ مِثْلُهُ فِي عِفَّةٍ وَعُزُوفٍ عَنِ الدُّنْيَا.

قِيلَ لِي: إِنَّهُ قَالَ مَرَّةً: كُنْتُ أُفْتِي فِي حَلْقَةِ أَبِي ثَوْرٍ الكَلْبِيِّ وَلِي عِشْرُوْنَ سَنَةً.

وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ عَطَاءٍ: كَانَ الجُنَيْدُ يُفْتِي فِي حَلْقَةِ أَبِي ثَوْرٍ.

عَنِ الجُنَيْدِ، قَالَ: مَا أَخْرَجَ اللهُ إِلَى الأَرْضِ عِلْماً وَجَعَلَ لِلْخَلْقِ إِلَيْهِ سَبِيْلاً، إِلاَّ وَقَدْ جَعَلَ لِي فِيْهِ حَظّاً.

وَقِيْلَ: إِنَّهُ كَانَ فِي سُوقِهِ وَوِرْدِهِ كُلَّ يَوْمٍ ثَلاَثُ مائَةِ رَكْعَةٍ، وَكَذَا كَذَا أَلْفَ تَسْبِيحَةٍ.

أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ هَارُوْنَ، وَآخَرُ، قَالاَ:

سَمِعْنَا الجُنَيْدَ غَيْرَ مَرَّةٍ يَقُوْلُ: عِلْمُنَا مَضْبُوطٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الكِتَابَ وَيَكْتُبِ الحَدِيْثَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ، لاَ يُقْتَدَى بِهِ.

قَالَ عَبْدُ الوَاحِدِ بنُ عُلْوَانَ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُوْلُ: عِلْمُنَا – يَعْنِي: التَّصَوُّفَ – مُشَبَّكٌ بِحَدِيْثِ رَسُوْلِ اللهِ.

وَعَنْ أَبِي العَبَّاسِ بنِ سُرَيْجٍ: أَنَّهُ تَكَلَّمَ يَوْماً، فَعَجِبُوا! فَقَالَ: بِبَرَكَةِ مُجَالَسَتِي لأَبِي القَاسِمِ الجُنَيْدِ.

وَعَنْ أَبِي القَاسِمِ الكَعْبِيِّ، أَنَّهُ قَالَ مرَّةً: رَأَيْتُ لَكُمْ شَيْخاً بِبَغْدَادَ، يُقَالُ لَهُ: الجُنَيْدُ، مَا رَأَتْ عَيْنَايَ مِثْلَهُ! كَانَ الكَتَبَةُ – يَعْنِي: البُلَغَاءَ – يَحْضُرُونَهُ

لأَلْفَاظِهِ، وَالفَلاسِفَةُ يَحْضُرُونَهُ لِدِقَّةِ مَعَانِيْهِ، وَالمُتَكَلِّمُوْنَ يَحْضُرُونَهُ لِزِمَامِ عِلْمِهِ، وَكَلاَمُهُ بَائِنٌ عَنْ فَهْمِهِم وَعِلْمِهِم.

قَالَ الخُلْدِيُّ: لَمْ نَرَ فِي شُيُوخِنَا مَنِ اجْتَمَعَ لَهُ عِلْمٌ وَحَالٌ غَيْرَ الجُنَيْدِ.

كَانَتْ لَهُ حَالٌ خَطِيرَةٌ، وَعِلْمٌ غَزِيْرٌ، إِذَا رَأَيْتَ حَالَهُ، رَجَّحْتَهُ عَلَى عِلْمِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ، رَجَّحْتَ عِلْمَهِ عَلَى حَالِهِ.

أَبُو سَهْلٍ الصُّعْلُوْكِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ المُرْتَعِش يَقُوْلُ:

قَالَ الجُنَيْدُ: كُنْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّرِيِّ أَلْعَبُ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِيْنَ، فَتَكَلَّمُوا فِي الشُّكْرِ؟

فَقَالَ: يَا غُلاَمُ! مَا الشُّكْرُ؟

قُلْتُ: أَنْ لاَ يُعْصَى اللهُ بِنِعَمِهِ.

فَقَالَ: أَخْشَى أَنْ يَكُوْنَ حَظَّكَ مِنَ اللهِ لِسَانُكَ.

قَالَ الجُنَيْدُ: فَلاَ أَزَالُ أَبْكِي عَلَى قَوْلِهِ.

السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا جَدِّي؛ ابْنُ نُجَيْدٍ، قَالَ:

كَانَ الجُنَيْدُ يَفْتَحُ حَانُوتَهُ وَيَدْخُلُ، فَيُسْبِلُ السِّتْرَ، وَيُصَلِّي أَرْبَعَ مَائَةِ رَكْعَةٍ.

وَعَنْهُ، قَالَ: أَعْلَى الكِبْرِ أَنْ تَرَى نَفْسَكَ، وَأَدنَاهُ أَنْ تَخْطُرَ بِبَالِكَ – يَعْنِي: نَفْسَكَ –.

أَبُو جَعْفَرٍ الفَرْغَانِيُّ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُوْلُ:

أَقَلُّ مَا فِي الكَلاَمِ سُقُوْطُ هَيْبَةِ الرَّبِّ – جَلَّ جَلاَلُهُ – مِنَ القَلْبِ، وَالقَلْبُ إِذَا عَرِيَ مِنَ الهَيْبَةِ، عَرِيَ مِنَ الإِيْمَانِ.

قِيْلَ: كَانَ نَقْشُ خَاتَمِ الجُنَيْدِ: إِنْ كُنْتَ تَأْمَلُهُ، فَلاَ تَأْمَنْهُ.

وَعَنْهُ: مَنْ خَالَفَتْ إِشَارتُهُ مُعَامَلَتَهُ، فَهُوَ مُدَّعٍ كَذَّابٌ.

وَعَنْهُ: سَأَلْتُ اللهَ أَنْ لاَ يُعَذِّبَنِي بِكَلاَمِي؟ وَرُبَّمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي: أَنَّ زَعِيْمَ القَوْمِ أَرْذَلُهُم.

وَعَنْهُ: أُعْطِيَ أَهْلُ بَغْدَادَ الشَّطْحَ وَالعِبَارَةَ، وَأَهْلُ خُرَاسَانَ القَلْبَ وَالسَّخَاءَ، وَأَهْلُ البَصْرَةِ الزُّهْدَ وَالقَنَاعَةَ، وَأَهْلُ الشَّامِ الحِلْمَ وَالسَّلاَمَةَ، وَأَهْلُ الحِجَازِ الصَّبْرَ وَالإِنَابَةَ.

وَقِيْلَ لِبَعْضِ المُتَكَلِّمِينَ – وَيُقَالُ: هُوَ ابْنُ كُلاَّبٍ، وَلَمْ يَصِحَّ –: قَدْ ذَكَرْتَ الطَّوَائِفَ، وَعَارَضْتَهُم، وَلَمْ تَذْكُرِ الصُّوْفِيَّةَ.

فَقَالَ: لَمْ أَعْرِفْ لَهُم عِلْماً وَلاَ قَوْلاً، وَلاَ مَا رَامُوهُ.

وَتَقْرير هَذَا الْبُرْهَان : أَنَّه لَو كَانَ فِي جِهَة : فإِمَّا أَن يكون أكبر أَو مُسَاوِياً أَو أَصْغَر ، والحصر ضَرُورِيّ .

فَإِن كَانَ أكبر ، كَانَ الْقدر الْمسَاوِي مِنْهُ للجهة مغايراً للقدر الْفَاضِل مِنْهُ ، فَيكون مركَّباً من الْأَجْزَاء والأبعاض ، وَذَلِكَ محَال ، لِأَنَّ كلّ مركَّب فَهُوَ مفتقر إِلَى جزئه ، وجزؤه غَيره ، وكلّ مركَّب مفتقر إِلَى الْغَيْر ، وكل مفتقر إِلَى الْغَيْر لَا يكون إِلَهاً .

وَإِن كَانَ مُسَاوِياً للجهة فِي الْمِقْدَار ، والجهة منقسمة لِإِمْكَان الْإِشَارَة الحسيَّة إِلَى أبعاضها ، فالمساوي لَهَا فِي الْمِقْدَار منقسم .

وَإِن كَانَ أَصْغَر مِنْهَا ، تَعَالَى الله عَن ذَلِك علوّاً كَبِيراً ، فَإِن كَانَ مُسَاوِياً لجوهر فَرد ، فقد رَضوا لأَنْفُسِهِمْ بِأَنَّ إلههم قدر جَوْهَر فَرد .

قِيْلَ: بَلْ هُمُ السَّادَةُ.

وَذَكَرُوا لَهُ الجُنَيْدَ، ثُمَّ أَتَوُا الجُنَيْدَ، فَسَأَلُوهُ عَنِ التَّصوُّفِ، فَقَالَ: هُوَ إِفرَادُ القَدِيْمِ عَنِ الحَدَثِ، وَالخُرُوجُ عَنِ الوَطَنِ، وَقَطْعُ المَحَابِّ، وَتَرْكُ مَا عَلِمَ أَوْ جَهِلَ، وَأَنْ يَكُوْنَ المَرْءُ زَاهِداً فِيْمَا عِنْدَ اللهِ، رَاغِباً فِيْمَا للهِ عِنْدَهُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، حَظَاهُ إِلَى كَشْفِ العُلُوْمِ، وَالعِبَارَةِ عَنِ الوُجُوهِ، وَعَلِمِ السَّرَائِرِ، وَفِقْهِ الأَرْوَاحِ.

فَقَالَ المُتَكَلِّمُ: هَذَا - وَاللهِ - عِلْمٌ حَسَنٌ، فَلَو أَعَدْتَهُ حَتَّى نَكْتُبَهُ.

قَالَ: كَلاَّ، مُرَّ إِلَى المَكَانِ الَّذِي مِنْهُ بَدَأَ النِّسْيَانُ، وَذَكَرَ فَصْلاً طَوِيْلاً.

فَقَالَ المُتَكَلِّمُ: إِنْ كَانَ رَجُلٌ يَهْدِمُ مَا يَثْبُتُ بِالعَقْلِ بِكَلِمَةٍ مِنْ كَلاَمِهِ، فَهَذَا، فَإِنَّ كَلاَمَهُ لاَ يَحْتَمِلُ المُعَارَضَةَ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الجَرِيْرِيُّ: سَمِعْتُ الجُنَيْدَ يَقُوْلُ:

مَا أَخَذْنَا التَّصَوُّفَ عَنِ القَالِ وَالقِيْلِ، بَلْ عَنِ الجُوْعِ، وَتَركِ الدُّنْيَا، وَقَطْعِ المَأْلُوفَاتِ.

قُلْتُ: هَذَا حَسَنٌ، وَمُرَادُهُ: قَطْعُ أَكْثَرِ المَأْلُوْفَاتِ، وَتَرْكُ فُضُوْلِ الدُّنْيَا، وَجُوْعٌ بِلاَ إِفرَاطٍ.

أَمَّا مَنْ بَالَغَ فِي الجُوعِ - كَمَا يَفْعَلُهُ الرُّهبَانُ - وَرَفَضَ سَائِرَ الدُّنْيَا وَمَأْلُوْفَاتِ النَّفْسِ مِنَ الغِذَاءِ وَالنَّومِ وَالأَهْلِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِبَلاَءٍ عَرِيْضٍ، وَرُبَّمَا خُولِطَ فِي عَقْلِهِ، وَفَاتَهُ بِذَلِكَ كَثِيْرٌ مِنَ الحَنِيْفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً.

وَالسَّعَادَةُ فِي مُتَابَعَةِ السُّنَنِ، فَزِنِ الأُمُورَ بِالعَدْلِ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، والزم الوَرَعَ فِي القُوْتِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ، وَاصْمُتْ إِلاَّ مِنْ خَيْرٍ، فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَى الجُنَيْدِ، وَأَيْنَ مِثْلُ الجُنَيْدِ فِي عِلْمِهِ وَحَالِهِ؟

قَالَ ابْنُ نُجَيْدٍ: ثَلاَثَةٌ لاَ رَابعَ لَهُمْ: الجُنَيْدُ بِبَغْدَادَ، وَأَبُو عُثْمَانَ بِنَيْسَابُوْرَ، وَأَبُو عَبْدِ اللهِ بنُ الجَلاَّءِ بِالشَّامِ " . انظر : سير أعلام النبلاء (١٤/ ٦٦ فما بعدها) .

وَهَذَا لَا يَقُوله عَاقل ، وَإِن كَانَ مَذْهَبهم لَا يَقُوله عَاقل ، لَكِن هَذَا فِي بادئ الرَّأْي يضْحك مِنْهُ جهلة الزِّنج . وَإِن كَانَ أكبر مِنْهُ انقسم ، فانظروا إِلَى هَذِه النِّحلة ، وَمَا قد لَزِمَهَا ، تَعَالَى الله عَنْهَا .

الْبُرْهَانُ الرَّابِعُ :

الْمُسْتَفَاد من جَعْفَر بن نصير رَحمَه الله (٨٢) ، وَهُوَ أَنه سُئِلَ عَن قَوْله تَعَالَى : ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾ [طه:٥] ، فَقَالَ : اسْتَوَى بِعِلْمِهِ بِكُل شَيْء ، فَلَيْسَ شَيْء أقرب إِلَيْهِ من شَيْء

وَتَقْرِير هَذَا الْبُرْهَان : أَنَّ نِسْبَة الْجِهَات إِلَيْهِ على التَّسْوِيَة ، فَيمْتَنع أَن يكون فِي الْجِهَة .

وَبَيَان أَنَّ نسبتها إِلَيْهِ على التَّسْوِيَة : أَنَّه قد ثَبت أَنَّ الْجِهَة أَمر وجودي ، فَهِيَ إِن كَانَت قديمَة مَعَ الله لزم وجوده قديمين متميِّزين بذاتيهما ، لِأَنَّهُمَا إِن لم يتميَّزا بذاتيهما ، فالجهة هِيَ الله تَعَالَى ، وَالله هُوَ الْجِهَة ، تَعَالَى الله عَن ذَلِك .

وَإِن لم تكن قديمَة فاختصاصه بهَا إِمَّا أَن يكون لِأَنَّ ذَاته اقْتَضَت ذَلِك ، فَيلْزم كَون الذَّات فاعلة فِي الصِّفَات النَّفسيَّة أَو غير ذاتيَّة ، فنسبة الْجِهَات إِلَى ذَاته على التَّسْوِيَة ، فمرجح جِهَة على جِهَة أَو غير ذاتيَّة فنسبة الْجِهَات إِلَى ذَاته على التَّسْوِيَة فمرجح جِهَة على جِهَة أَمر خَارج عَن ذَاته فَلَزِمَ افتقاره فِي اخْتِصَاصه بالجهة إِلَى غَيره ، والاختصاص بالجهة هُوَ عين التَّحيُّز ، والتَّحيُّز صفة قَائِمَة بِذَات المتحيِّز ، فَلَزِمَ افتقاره فِي صفة ذَاته إِلَى غَيره ، وَهُوَ على الله تَعَالَى محَال .

ثمَّ اعْلَم ، أَنَّ هَذِه الْبَرَاهِين الَّتِي سردناها وتلقَّيناها من مَشَايِخ الطَّرِيق فَإِنَّمَا استنبطوها من الْكتاب الْعَزِيز ، وَلَكِن لَيْسَ كلّ مَا فِي الْكتاب الْعَزِيز يعرفهُ كلُّ أحد ، فَكلٌّ يغترف بِقدر إنائه ، وَمَا نقصت قَطْرَة من مَائه .

وَلَقَد كَانَ السّلف يستنبطون مَا يَقع من الحروب وَالْغَلَبَة ، من الْكتاب الْعَزِيز ، وَلَقَد استنبط ابْن برجان رَحمَه الله (٨٣) من الْكتاب الْعَزِيز فتح الْقُدس على يَد صَلَاح الدّين فِي سنته ، واستنبط بعض الْمُتَأَخِّرين من

---

(٨٢) هو الشَّيْخُ، الإِمَام، القُدْوَة، المُحَدِّث، شَيْخ الصُّوْفِيَّة، أَبُو مُحَمَّدٍ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ نُصَيْر بنِ قَاسم البَغْدَادِيُّ، كَانَ يَسْكُنُ محَلَّةَ الخُلْدِ . تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَمانٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ فِي رَمَضَانَ وَلَهُ خَمْسٌ وَتِسْعُوْنَ سَنَةً. انظر : سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٥٨) .

(٨٣) هو الشَّيْخُ، الإِمَامُ، العَارِفُ، القُدْوَةُ، أَبُو الحَكَمِ عَبْدُ السَّلاَمِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابنِ أَبِي الرِّجَالِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ اللَّخْمِيُّ، المَغْرِبِيُّ، الإِفْرِيْقِيُّ، ثُمَّ الأَنْدَلُسِيُّ، الإِشْبِيْلِيُّ، شَيْخُ الصُّوْفِيَّةِ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بنُ الأَبَّارِ: كَانَ مِنْ أَهْلِ المَعْرِفَةِ بِالقِرَاءاتِ وَالحَدِيْثِ، وَالتَّحْقِيْقِ بِعِلْمِ الكَلاَمِ وَالتَّصَوُّفِ مَعَ الزُّهْدِ وَالاجْتِهَادِ فِي العِبَادَةِ، وَلَهُ تَصَانِيْفُ مُفِيْدَةٌ، مِنْهَا (تَفْسِيْر القُرْآن) لَمْ يُكْمِلْهُ، وَكِتَابُ (شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى) ، وَقَدْ رَوَاهُمَا عَنْهُ القَنْطَرِيُّ، تُوُفِّيَ مُغَرَّباً عَنْ وَطَنِه

سُورَة الرُّوم إِشَارَة إِلَى حُدُوث مَا كَانَ بعد سنة ثَلَاث وَسبعين وستِمِائَة ، وَلَقَد استنبط كَعْب الْأَحْبَار رَضِي الله عَنهُ من التَّوْرَاة أَنَّ عبد الله بن قلَابَة يدْخل إرم ذَات الْعِمَاد وَلَا يدخلهَا غَيره ، وَكَانَ يستنبط مِنْهَا مَا يجْرِي من الصَّحَابَة رَضِي الله عَنْهُم وَمَا يلاقيه أجناد الشَّام وَذَلِكَ مَشْهُور .

وَالله تَعَالَى أنزل فِي كِتَابه مَا يفهم أحد الْخلق مِنْهُ الْكثير ، وَلَا يفهم الآخر من ذَلِك شَيْئاً ، وَلَقَد تخْتَلف الْمَرَاتِب فِي استنباط الْأَحْكَام من كَلَام الْفُقَهَاء ، والمعاني من قصائد الشُّعَرَاء .

فَأَمَّا مَا ورد فِي الْكتاب الْعَزِيز مِمَّا يَنْفِي الْجِهَة فتعرفه الْخَاصَّة ، وَلَا تشمئز مِنْهُ الْعَامَّة ، فَمن ذَلِك قَوْله تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] ، وَلَو حصرته جِهَة لَكَانَ مثلاً للمحصور فِي ذَلِك الْبَعْض .

وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥] ، قَالَ ابْن عَبَّاس رَضِي الله : عَنهُ هَل تعلم لَهُ مثلاً ، وَيفهم ذَلِك من ﴿الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] ، وَبِنَاء الْمُبَالغَة فِي أَنَّه قَائِم بِنَفسِهِ وَمَا سواهُ قَائِم بِهِ ، فَلَو قَامَ بالجهة لقام بِهِ غَيره .

وَيفهم من قَوْله تَعَالَى : ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:٢٤] أَنَّهُ لَو كَانَ فِي جِهَة لتصوّر ، فإمَّا أَن يصوِّر نَفسه أَو يصوِّره غَيره وَكِلَاهُمَا محَال .

وَيفهم من قَوْله تَعَالَى : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] ، وَلَو كَانَ على الْعَرْش حَقِيقَة لَكَانَ مَحْمُولاً .

وَيفهم من قَوْله تَعَالَى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] ، وَالْعرش شَيْء يهْلك ، فَلَو كَانَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا فِي جِهَة ثمَّ صَار فِي جِهَة ثمَّ صَار لَا فِي جِهَة لوجد التَّغَيُّر ، وَهُوَ على الله محَال .

وَالْمُدَّعِي لَمَّا علم أَنَّ الْقُرْآن طافح بِهَذِهِ الْأَشْيَاء وَبِهَذَا الإشارات ، قَالَ : هَذِه الْأَشْيَاء دلالتها كالإلغاز .

أَو مَا علم الْمَغْرُور أَنَّ أسرار العقائد الَّتِي لَا تحملهَا عقول الْعَوام لَا تَأتي إِلَّا كَذَلِك ؟!! وَأَيْنَ فِي الْقُرْآن مَا يَنْفِي الجسميَّة إِلَّا على سَبِيل الإلغاز ؟ وَهل تفتخر الأذهان إِلَّا فِي استنباط الخفيَّات ، كاستنباط الشَّافِعِي رَضِي الله عَنهُ الْإِجْمَاع من قَوْله تَعَالَى : ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥] ، وكاستنباط الْقيَاس من قَوْله تَعَالَى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾ [الحشر:٢] ، وكما استنبط الشَّافِعِي خِيَار الْمجْلس من نَهْيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن البيع على بيع أَخِيه .

بِمَرَّاكُش، فِي سَنَةِ سِتٍّ وَثَلاَثِيْنَ وَخَمْسِ مائَةٍ ، وَقَبْرُهُ بِإِزَاءِ قَبْرِ الزَّاهِدِ الكَبِيْرِ أَبِي العَبَّاسِ بنِ العَرِيْفِ . انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٧٢) .

وزبدة الْمَسْأَلَة أَنَّ العقائد لم يُكَلف النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجُمْهُور مِنْهَا إِلَّا بِلَا إِلَه إِلَّا الله مُحَمَّد رَسُول الله ، كَمَا أَجَاب مَالك الشَّافِعِي رَضِي الله عَنْهُمَا ، ووكل الْبَاقِي إِلَى الله ، وَمَا سمع مِنْهُ وَلَا عَن أَصْحَابه فِيهَا شَيْء إِلَّا كَلِمَات معدودات ، فَهَذَا الَّذِي يخفى مثله ، ويلغز فِي إفادته .

الْفَصْل الثَّانِي :

فِي إبطَال مَا موَّه بِهِ الْمُدَّعِي ، من أَنَّ الْقُرْآن وَالْخَبَر اشتملا على مَا يُوهم ظَاهره مَا يتنزَّه الله تَعَالَى عَنهُ ، على قَول الْمُتَكَلِّمين ، فَنَقُول : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ [آل عمران:٧] .

دلَّت هَذِه الْآيَة على أَنَّ من الْقُرْآن محكماً ، وَمِنْه متشابهاً ، والمتشابه قد أَمر العَبْد برد تَأْوِيله إِلَى الله ، وَإِلَى الرَّاسخين فِي الْعلم ، فَنَقُول بعد ذَلِك : إِنَّمَا لم تأت النُّبُوَّة بِالنَّصِّ ظَاهراً على المتشابه ، لِأَنَّ جلّ مَقْصُود النُّبُوَّة هِدَايَة عُمُوم النَّاس ، فَلَمَّا كَانَ الْأَكْثَر محكماً ، وألجمت الْعَامَّة عَن الْخَوْض فِي الْمُتَشَابه ، حصل الْمَقْصُود ، لَوْلَا أَن يقيِّض الله تَعَالَى لَهُم شَيْطَاناً يستهويهم ويهلكهم ، وَلَو أظهر الْمُتَشَابه لضعفت عقول الْعَالم عَن إِدْرَاكه .

ثمَّ من فَوَائِد الْمُتَشَابه : رفْعَة مَرَاتِب الْعلمَاء بَعضهم على بعض ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦] ، وَتَحْصِيل زِيَادَة الأجور بالسَّعي فِي تفهُّمها وتفهيمها وتعلُّمها وتعليمها .

وَأَيْضاً لَو كَانَ وَاضحاً جليّاً مفهوماً بِذَاتِهِ ، لما تعلَّم النَّاس سَائِر الْعُلُوم ، بل هجرت بِالْكُلِّيَّةِ ، ووضح الْكتاب بِذَاتِهِ ، وَلما احْتِيجَ إِلَى علم من الْعُلُوم الْمعينَة على فهم كَلَامه تَعَالَى ، ثمَّ خُوطِبَ فِي الْمُتَشَابه بِمَا هُوَ عَظِيم بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، وَإِن كَانَ الْأَمر أعظم مِنْهُ ، كَمَا نبَّه عَلَيْهِ عبد الْعَزِيز الْمَاجشون فِي القبضة ، وكما قَالَ تَعَالَى فِي نعيم أهل الْجنَّة : ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ *وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَماءٍ مَسْكُوبٍ﴾ [الواقعة:٢٨-٣١] الْآيَة .

فَهَذَا عَظِيم عِنْدهم ، وَإِن كَانَ فِي الْجنَّة مَا هُوَ أعظم مِنْهُ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِكَايَة على الله عزَّ وَجلَّ : «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » (٨٤) .

نسْأَل الله الْعَظِيم أَن يَجْعَل فِيهَا قرارنا ، وَأَن ينوِّر بصيرتنا وأبصارنا ، وَأَن يَجْعَل ذَلِك لوجهه الْكَرِيم بمنِّه وَكَرمه .

وَنحن نَنْتَظِر مَا يردُ من تمويهه وفساده لنبيِّن مدارج زيغه وعناده ونجاهد فِي الله حقَّ جهاده .

---

(٨٤) أخرجه البخاري (٤/ ١١٨ برقم ٣٢٤٤) ، مسلم (٤/ ٢١٧٤ برقم ٢٨٢٤) .

وَالْحَمْدُ لله ربِّ الْعَالمين